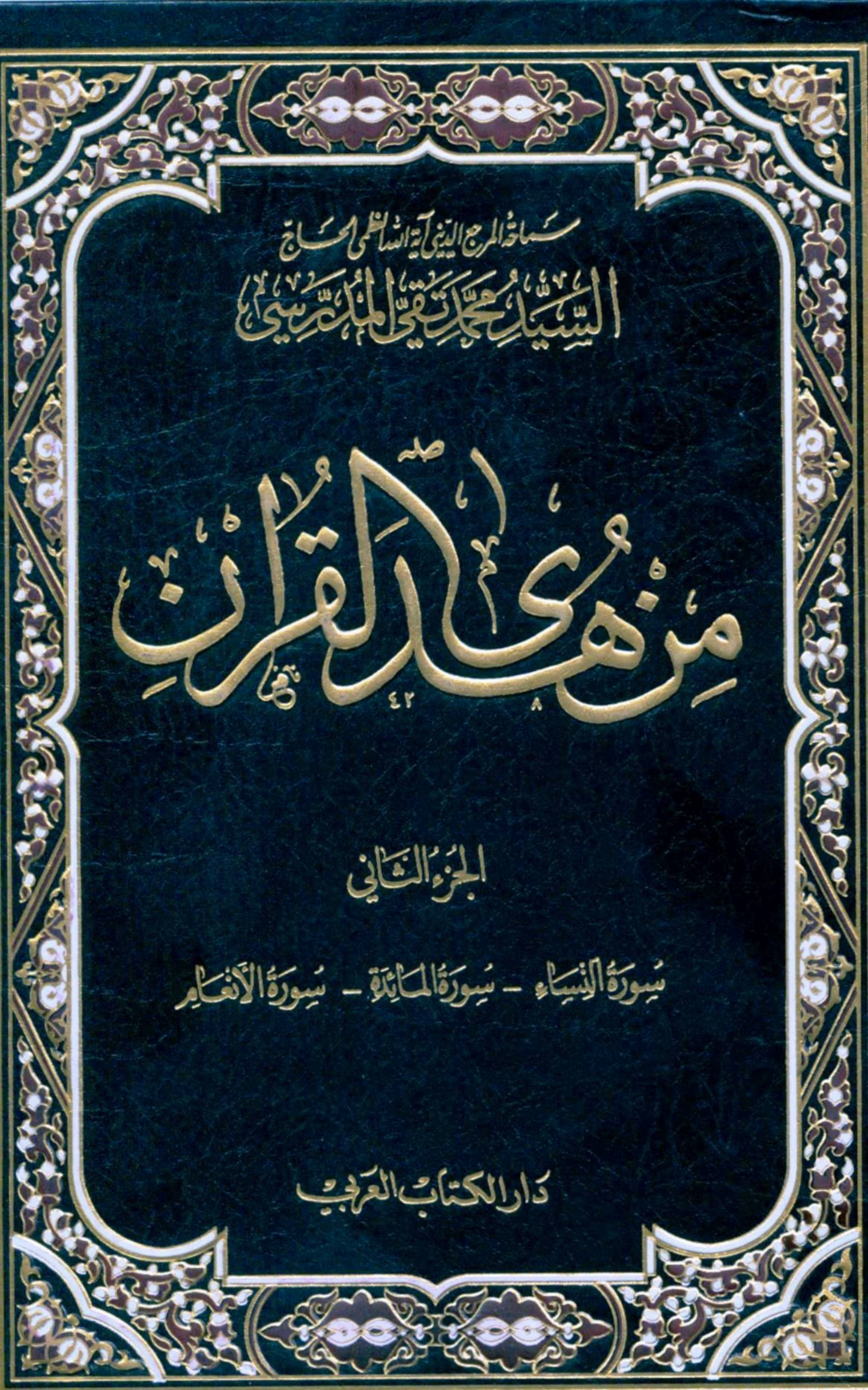


سماحة المرجع الديني آية الله العظمى الحاج
السيد محمد تقي المدرسي
من هدى القرآن
الجزء الثاني
سورة النساء - سورة المائدة - سورة الأنعام
دار الكتاب العربي


والكاظمين الغيظ



٢

سماحة المرجع الديني آية الله العظمى الحاج
السيد محمد تقي المدرسي



الجزء الثاني

سورة النساء - سورة المائدة - سورة الأنعام

دار القارئ



الطبعة الثانية

١٤٢٩هـ/٢٠٠٨م

■ الكتاب: من هدى القرآن ١/ ١٢.

■ المؤلف: سماحة المرجع الديني آية الله العظمى السيد محمد تقي المدرسي.

■ الطبعة: الثانية، تاريخ النشر: ١٤٢٩هـ/ ٢٠٠٨م، (طبعة محققة ومنقحة ومزيدة).

■ إخراج وتنسيق: زكي حسن أحمد

■ zakiht@gmail.com

■ الناشر: دار القارئ للطباعة والنشر والتوزيع

تلفون: ٠٣/٤١٣٢٥٦ - ٠٣/٩٠٢٩٤٤

Email:dar_alkari@hotmail.com

بِسْمِ اللهِ الرَّحْمٰنِ الرَّحِيمِ

الحَمْدُ لله رَبِّ الْعَالَمِينَ وَ صَلَّى اللهُ عَلَى مُحَمَّدٍ وَ آلِهِ الطَّاهِرِين



* مدنيّة.

* عدد آياتها: ١٧٦.

* ترتيبها النزولي: ٩٢.

* ترتيبها في المصحف: ٤.

* نزلت بعد سورة الممتحنة.

عَنِ النَّبِيِّ ﷺ قَالَ: «مَنْ قَرَأَ سُورَةَ النِّسَاءِ فَكَأَنَّمَا تَصَدَّقَ عَلَى كُلِّ مُؤْمِنٍ وَمُؤْمِنَةٍ وَرِثَ مِيرَاثاً وَأُعْطِيَ مِنَ الأَجْرِ كَمَنِ اشْتَرَى مُحَرَّراً وَبَرِئَ مِنَ الشِّرْكِ وَكَانَ فِي مَشِيئَةِ اللهِ مِنَ الَّذِينَ يَتَجَاوَزُ عَنْهُمْ».

(مستدرك الوسائل، ج٤، ص٣٣٨).

***

عَنْ زِرِّ بْنِ حُبَيْشٍ عَنْ عَلِيٍّ عليه السلام قَالَ: «مَنْ قَرَأَ سُورَةَ النِّسَاءِ فِي كُلِّ جُمُعَةٍ أَمِنَ مِنْ ضَغْطَةِ الْقَبْرِ».

(وسائل الشيعة، ج٧، ص٤٠٩).

الإطار العام

الصبغة العامة للمجتمع الإسلامي

اختار القرآن اسم (النساء) ووضعه على هذه السورة، لأنها تتحدث عن حقوق المرأة في بدايتها، ثم عن علاقة المرأة بالرجل، وعن جوانب من حياة المرأة.

والمرأة هي وجه حضارة البشر، التي تعكس مدى التزام الحضارة بالقيم السامية التي تأمر بالمحافظة على حقوق الضعفاء، ولأن الإسلام يوليها إهتماماً كبيراً، كان من المفروض أن يعالج موضوعها في سورة من القرآن، وكانت سورة النساء بحكم موضوعها الاجتماعي أفضل موقع للحديث عنها.

وهذه السورة الكريمة ترسم لنا الصبغة العامة للمجتمع الإسلامي؛ فمن الآية الأولى وحتى الآية (٢٥)، ثم من آية (٣٣) إلى (٣٥)، ثم من (١٢٧) إلى (١٣٠)، ثم في الآية الأخيرة تتحدث السورة عن حقوق المرأة (وبالمناسبة حقوق الأيتام والسفهاء)، وطريقة تقسيم الإرث بين الرجل والمرأة، والنهي عن المعاملةالسيئة لها، وعن الشهادة الباطلة عند وارث المرأة كرهاً، واستلاب حقوقها في المهر، كما بينت حرمة الزواج من نساء معينات، بينهن زوجة الأب السابقة.

ثم عن قيمومة الرجل على المرأة في حدود الشريعة، وعن النساء الفاضلات، والصلح بين الزوجين، ثم عن التزام العدالة الواقعية في بناء الأسرة، وأخيراً عن بعض موارد الإرث.

أما الموضوع الآخر الذي تتحدث عنه السورة في (الآيات: ٢٦-٣٢) فيرتبط بحرمة المال، والنفس، وضرورة المحافظة عليهما، والأسباب التي قد تدعو البشر إلى الاعتداء عليهما كالجهل والحسد.

أما الموضوع الثالث، فتتحدث السورة في (الآيات: ٣٦-٤٠) عن ضرورة الإحسان إلى

الضعفاء، وحرمة البخل، أو إنفاق المال رياءً.

بيد أن الموضوع الرئيسي الذي تتحدث عنه معظم آيات سورة النساء يكاد يكون موضوع الحكم الإسلامي بوجوهه المختلفة؛ ففي (الآيات: ٤١-٤٢) نجد الحديث عن أن الرسول شاهد على أمته، بمعنى أنه حاكم عليها، وحرمة عصيان الرسول، وحرمة كتمان الشهادة.

وفي (الآيات: ٤٤-٥٧) نجد حديثاً مفصلاً عن دور العلم في إقامة الحق، ومسؤولية رجال العلم في أداء أمانة العلم، ببيان الحقائق من دون تزييف أو تحريف، ومدى فظاعة جريمة الذين يفترون على الله الكذب، وصفاتهم السيئة التي تكشف زيفهم، وتفضح نياتهم الفاسدة.

وفي (الآيات: ٥٨-٧٠) يتحدث القرآن عن القيم التي تعتمدها السياسة الإسلامية، وأبرزها أداء الأمانة (أداء حقوق الناس)، الحكم بالعدل.

ثم تتحدث الآيات ذاتها عن طاعة الرسول ﷺ وأولي الأمر، وحرمة الاحتكام إلى الطاغوت، وتنعت الذين يتبعون الطاغوت بأنهم منافقون، وتسوق مثلاً عن الطاعة الصعبة التي يتهرب منها المنافقون، وهي طاعة الرسول ﷺ في الحرب.

ثم تتحدث عن قيمة الدفاع عن المستضعفين في السياسة الإسلامية.

أما (الآيات: ٧٧-٨٧) فهي تتحدث:

أولاً: عن ضرورة الانضباط في القتال، والتزام الطاعة التامة في كل الأوامر.

ثانياً: عن دور القائد في التحريض على القتال، وحمل الناس على طاعة الأوامر.

وفي (الآيات: ٨٨-٩١) نجد الحديث يتركز حول اتخاذ موقف موحد وحازم من المنافقين، فيحدد القرآن طبيعة المنافقين وأنواعهم، ثم يحدد الموقف منهم.

ثم يتحدث خلال (الآيات ٩٥-١٠٠) عن المجاهدين والقاعدين والمهاجرين كطبقات متميزة في المجتمع الإسلامي، ومتقابلة مع طبقات المنافقين السالفة الذكر.

ويعود القرآن في (الآيات: ١٠٥-١١١) إلى الحديث عن قيم السياسة الإسلامية وكيف أن دولة الإسلام هي دولة القانون البعيدة عن الفساد الإداري، فينهى الرسول عن الجدل مع الخائنين والمختانين الذين يحاولون تضليل الرسول.

وفي (الآيات: ١١٧-١٢٦) يتناول القرآن جوانب شتى عن النفاق، منها أصل

النفاق ودور الشيطان في زرع شتيلة النفاق في النفس ببث أمانيه الخلابة الكاذبة، وأساطيره الساذجة.

وبعد أن يبين القرآن في (الآيات: ١٣١-١٣٤) ضرورة التقوى والالتزام، وإقامة القسط والشهادة لله لكي يزكي النفوس عن عوامل النفاق، بعدئذ يعود مرة أخرى في (الآيات: ١٣٦-١٤٦) ليبين أن الإيمان حقيقة بسيطة لا تتجزأ، وأن الذين يفرقون بين فكرة وأخرى في الإيمان فهم كفار ومنافقون يخادعون أنفسهم، لأنهم يتخذون الكافرين أولياء، وهم في الدرك الأسفل من النار.

ثم يبين السبيل الوحيد لإخراج هؤلاء من حالتهم، وهو التوبة والإصلاح، ثم الشكر والإيمان، وعدم الجهر بالسوء من القول، وابتغاء مرضاة الله بالأعمال الصالحة.

ويكرر القرآن -وبتفصيل أكثر هذه المرة- بيان بساطة الإيمان، وأنه حقيقة لا تتجزأ، ويبين في (الآيات: ١٥٠-١٦٠) أن الذين لا يؤمنون تحت طائلة عدم الاقتناع هم أناس كاذبون، ومثلهم بنو إسرائيل حين سألوا النبي موسى عليه السلام أن يريهم الله سبحانه جهرة، ثم اتخذوا العجل بعد أن توضحت لهم الآيات، وأنهم نقضوا الميثاق، واختاروا الكفر بآيات الله، واتهموا مريم عليها السلام بالفحشاء، وادعوا أنهم قتلوا عيسى عليه السلام، وظلموا أنفسهم وأخذوا الربا.

وفي الآيات الأخيرة من السورة يتحدث القرآن عن ضرورة الإيمان بالله وبالرسول بشكل كامل، والاعتصام بالنور الذي أنزله، وكمثل لهذا الإيمان يذكر القرآن حكماً في الإرث، وينهي به سورة النساء.

إن هذا الاستعراض الموجز لتفصيل (سورة النساء)، يكشف لنا الخيط الذي يربط بين موضوعاته الرئيسية، وهو المجتمع الإسلامي بما فيه من قيم الحق والعدالة والتقوى، وبما فيه من حقوق المرأة، واليتيم، والسفيه، والفقير، والدفاع عن المستضعفين والمحرومين وما له من قيادة حكيمة، وسياسة واضحة، وإرادة حازمة، معتمدة على قواعد راسخة من إيمان الأمة بالرسول وبأولي الأمر من بعده.

وبالطبع؛ لا يتحدث القرآن عن المجتمع المسلم بطريقة علمية فحسب، بل وتربوية أيضاً، فنكتشف من خلال حديثه المبارك كيف نبني هذا المجتمع، وما هي الدواعي التي تدفعنا إلى اختياره.

الخطوط العامة للمجتمع الإسلامي

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَٰنِ الرَّحِيمِ

﴿يَا أَيُّهَا النَّاسُ اتَّقُوا رَبَّكُمُ الَّذِي خَلَقَكُم مِّن نَّفْسٍ وَاحِدَةٍ وَخَلَقَ مِنْهَا زَوْجَهَا وَبَثَّ[1] مِنْهُمَا رِجَالًا كَثِيرًا وَنِسَاءً ۚ وَاتَّقُوا اللَّهَ الَّذِي تَسَاءَلُونَ بِهِ وَالْأَرْحَامَ ۚ إِنَّ اللَّهَ كَانَ عَلَيْكُمْ رَقِيبًا[2] (١)﴾.

هدى من الآيات:

المجتمع الإسلامي مبني على قاعدة التوحيد، وشعار التوحيد اسم الله، والمجتمع الجاهلي طافح على غرور الطاغوت، وشعارهم اسم الطاغوت.

وتوحيد الله يعطي المجتمع الإسلامي فضلاً من الله، ورحمة شاملة ودائمة، وشعار الرحمة الشاملة ﴿الرَّحْمَٰنِ﴾ وشعار الرحمة الدائمة ﴿الرَّحِيمِ﴾.

وهذا يعني أن المجتمع الإسلامي: مستقر ومستمر، متكامل ودائم، فهو خير ورفاه، وتقدم لجميع الناس في جميع العصور.

بينات من الآيات:

الالتزام المبدئي

[١] الخط العام الذي تتفرع عنه سائر الخطوط المميزة للمجتمع الإسلامي أنه مجتمع ملتزم بمنهج الله، وقد عبر القرآن عن هذه الفكرة في آية: ﴿وَأَلْزَمَهُمْ كَلِمَةَ التَّقْوَىٰ﴾ [الفتح: ٢٦]،

---

(١) بَثَّ: نَشر

(٢) رَقِيبًا: من الترقب وهو الانتظار، ويكون بمعنى الحفظ الذي لا يغيب عنه شيء.

فهو مجتمع مبدئي، وحين نقول: (مجتمعاً مبدئيًا) فإننا نتصور شرطين أساسين هما:

الف: أنه لا يؤمن بالفوضى في أي حقل من حقول المجتمع، بل يؤمن بالتنظيم في كافة الأبعاد الخاصة والعامة.

باء: أنه ينطلق في تنظيمه من بصائر سماوية ليست فيها تحديدات قومية أو إقليمية أو عنصرية أو غيرها.. لأن السماء هي التي أوحت بهذه البصائر.

من هنا جاءت الكلمة الأولى في هذه السورة نداء إلى الناس: أن يتقوا الله ليبنوا على أساسه مجتمعهم الفاضل ﴿يَا أَيُّهَا النَّاسُ اتَّقُوا رَبَّكُمُ﴾.

ومعروف أن الخطاب للناس الواقعيين الذين يتحركون في أرض الواقع، وليس الخطاب إلى الإنسان أو البشر كصفات تجريدية، أن هذا الخطاب تعبير عن روح الواقعية في الرؤية الإسلامية، وبالتالي روح توجيه الحياة مباشرة، ومن دون الالتفاف حولها بمسائل نظرية.

والسؤال هو: لماذا قال الله ﴿رَبَّكُمُ﴾؟.

الجواب: إن كلمة الرب تدل على معنى التربية فهي أقرب إلى التشريع الذي يأمر الله عباده باتباعه، لذلك ترى أن القرآن، لا يكتفي بكلمة رب، بل يضيف قائلا: ﴿الَّذِي خَلَقَكُمْ﴾ ليذكرنا بأن الله الذي رباكم من بعد أن خلقكم، أجدر أن يتبع الناس تشريعه ويتقونه في حياتهم.

التوحيد منطلق التشريع

والميزة الأساسية في تشريع السماء، انطلاقة من مبدأ التوحيد، والذي يعني فيما يعني الارتفاع فوق كل الحواجز المصطنعة بين الناس، إننا نفهم اليوم وبعد أن اكتشفنا أن أكثر الويلات التي أصابت البشرية ولا تزال تصيبها حتى اليوم آتية من هذه الحواجز (العنصريات، القوميات، الإقليميات، الطبقيات و... و... وهكذا)، نحن نعرف أنها هي العقبات الحقيقية في طريق الإنسان إلى السعادة والتقدم.

ولذلك يركز القرآن على أن الله خلق الناس جميعاً من نفس واحدة ويقول: ﴿الَّذِي خَلَقَكُمْ مِنْ نَفْسٍ وَاحِدَةٍ وَخَلَقَ مِنْهَا زَوْجَهَا وَبَثَّ مِنْهُمَا رِجَالًا كَثِيرًا وَنِسَاءً﴾.

النساء كالرجال

والسؤال: كيف خلق الله زوج الإنسان من نفسه؟ وهل يعني هذا أن الإنسان الأول

كان ذا طبيعة مزدوجة، ثم انفصلت طبيعة الذكر عن طبيعة الأنثى في سائر الأجيال؟.

أم هل يعني هذا أن الله خلق آدم عليه السلام ثم انتزع من أضلعه صلصالاً وخلق منه حواء؟.

لا أعلم ذلك بالضبط، ولكن هذا التعبير يوحي بفكرة علمية تهمنا في تلاوة آيات القرآن وهي أن الذكر والأنثى جنس واحد، وليست الأنثى أقل شأناً من الذكر، لا في الطبيعة ولا في منهج الله، وقد تكررت في آيات القرآن هذه الفكرة، مثل قوله تعالى: ﴿خَلَقَ لَكُم مِّنْ أَنفُسِكُمْ أَزْوَاجًا﴾ [الروم، ٢١].

وقد نسف القرآن هذه الفكرة العنصرية الجنسية (كما أسميها) التي تقول: إن للذكر سلطة مطلقة على الأنثى بسبب أنه من جنس أعلى، والفارق بينه وبينها يشبه تماماً الفارق بين الإنسان والحيوان!!.

لقد نسف القرآن هذه الفكرة وبين أن كل الحواجز بين الناس مصطنعة، ولا رصيد لها من الحق أبداً.

الأسرة تنظيم إيجابي

بين القرآن إن فكرة التساوي بين الناس لا تعني الانفلات والفوضى، إنما يجب أن يكون داخل المجتمع تنظيم متقن، ونقبل بالحواجز بقدر أدائها لعملية التنظيم الإيجابي، فالأسرة مثلاً كإطار ينظم علاقة مجموعة بشرية بأخرى، ويجعلها أكثر تعاوناً وتفاعلاً.. مقبولة وضرورة، ولكن الأسرة كإطار لضرب الأسر الثانية وإشاعة العصبية والقبلية بين المجتمع مرفوضة أساساً.

ولذلك أكد القرآن على الأسرة وقال: ﴿وَاتَّقُوا اللَّهَ الَّذِي تَسَاءَلُونَ بِهِ وَالْأَرْحَامَ﴾ أي اتقوا الله واتقوا الأرحام واحسبوا لهما حسابهما.

إن التعاون مع الأسرة يجب أن يبقى ضمن إطار منهج الله، فلا يصبح وسيلة للفساد والرشوة، وغصب الحقوق، وإشاعة الفحشاء، لذلك بدأ الحديث بذكر تقوى الله وجعلها ركيزة البناء الاجتماعي، ثم بين أهمية الأرحام (الأقارب) وتعبير القرآن بـ ﴿تَسَاءَلُونَ بِهِ﴾ يعني أن الله هو المقياس النهائي والأخير الذي يمكن أن يجعل ركيزة التعاون الاجتماعي، فإذا تساءل أحد شيئاً من آخر هل فعله أم لا، كيف يستطيع أن يثبت أنه سيقول له الصحيح أم يكذب

عليه. لا طريق له إلى ذلك إلا أن يحلفه بالله، ويستثير ضميره وفطرته المؤمنة بالله، ويجعل من ذاته على ذاته رقيباً.

إن المجتمع الذي يتمتع بالإيمان، هو القادر على إيجاد تعاون حقيقي بين أبنائه على أساس من العدالة والمساواة، وإن لم يكن المجتمع مؤمناً فكل الأنظمة الموضوعة تصبح حبراً على ورق يتلاعب بها الناس كما يتلاعب الرياضيون بالكرة.

من هنا لابد أن يبنى المجتمع المسلم على ركيزة الإيمان والتقوى ﴿إِنَّ ٱللَّهَ كَانَ عَلَيۡكُمۡ رَقِيبٗا﴾.

قيم المجتمع الإسلامي

إن هذه الآية استهلت الحديث عن المجتمع الإسلامي ببيان قيم المجتمع بإيجاز وهي:

ألف: تقوى الله.

باء: المساواة التامة بين جميع عباد الله الذكر منهم والأنثى.

جيم: اعتماد التنظيم الأسري (وغيره) في إطار تقوى الله.

التشريعات المالية في الإسلام

﴿وَءَاتُوا۟ ٱلْيَتَٰمَىٰٓ أَمْوَٰلَهُمْ ۖ وَلَا تَتَبَدَّلُوا۟ ٱلْخَبِيثَ بِٱلطَّيِّبِ ۖ وَلَا تَأْكُلُوٓا۟ أَمْوَٰلَهُمْ إِلَىٰٓ أَمْوَٰلِكُمْ ۚ إِنَّهُۥ كَانَ حُوبًا[1] كَبِيرًا ﴿٢﴾ وَإِنْ خِفْتُمْ أَلَّا تُقْسِطُوا۟[2] فِى ٱلْيَتَٰمَىٰ فَٱنكِحُوا۟ مَا طَابَ لَكُم مِّنَ ٱلنِّسَآءِ مَثْنَىٰ وَثُلَٰثَ وَرُبَٰعَ ۖ فَإِنْ خِفْتُمْ أَلَّا تَعْدِلُوا۟ فَوَٰحِدَةً أَوْ مَا مَلَكَتْ أَيْمَٰنُكُمْ ۚ ذَٰلِكَ أَدْنَىٰٓ أَلَّا تَعُولُوا۟[3] ﴿٣﴾ وَءَاتُوا۟ ٱلنِّسَآءَ صَدُقَٰتِهِنَّ[4] نِحْلَةً[5] ۚ فَإِن طِبْنَ لَكُمْ عَن شَىْءٍ مِّنْهُ نَفْسًا فَكُلُوهُ هَنِيٓـًٔا مَّرِيٓـًٔا[6] ﴿٤﴾ وَلَا تُؤْتُوا۟ ٱلسُّفَهَآءَ أَمْوَٰلَكُمُ ٱلَّتِى جَعَلَ ٱللَّهُ لَكُمْ قِيَٰمًا[7] وَٱرْزُقُوهُمْ فِيهَا وَٱكْسُوهُمْ وَقُولُوا۟ لَهُمْ قَوْلًا مَّعْرُوفًا ﴿٥﴾ وَٱبْتَلُوا۟ ٱلْيَتَٰمَىٰ حَتَّىٰٓ إِذَا بَلَغُوا۟ ٱلنِّكَاحَ فَإِنْ ءَانَسْتُم[8] مِّنْهُمْ رُشْدًا فَٱدْفَعُوٓا۟ إِلَيْهِمْ أَمْوَٰلَهُمْ ۖ وَلَا تَأْكُلُوهَآ إِسْرَافًا[9] وَبِدَارًا[10] أَن يَكْبَرُوا۟ ۚ وَمَن كَانَ غَنِيًّا فَلْيَسْتَعْفِفْ ۖ وَمَن كَانَ فَقِيرًا فَلْيَأْكُلْ بِٱلْمَعْرُوفِ ۚ فَإِذَا دَفَعْتُمْ إِلَيْهِمْ أَمْوَٰلَهُمْ فَأَشْهِدُوا۟

---

(١) حوباً: إثماً والحوبة الحزن.

(٢) تقسطوا: تعدلوا وتنصفوا.

(٣) تعولوا: تميلوا عن الحق وتجوروا وقيل: عال يعول يحتاج ويفتقر.

(٤) صدقاتهن: مهورهن.

(٥) نحلة: عطية من غير المثامنة، يقال: نحلت الرجل، إذا وهبت له نحلة.

(٦) هنيئاً مريئاً: الهنيء الطيب المساغ، والمريء: المحمود العاقبة، يقال: هنأني الطعام ومرأني أي صار لي دواء وعلاجاً شافياً.

(٧) قياماً: العماد والسناد لما يعمد ويسند به.

(٨) آنستم: الايناس الإبصار من قوله ﴿ءَانَسَ مِن جَانِبِ ٱلطُّورِ﴾. وقيل: آنستم أي أحسستم بمعنى وجدتم.

(٩) إسرافاً: تجاوزاً للحد المباح إلى ما لم يبح.

(١٠) بداراً: مسارعة.

عَلَيْهِمْ وَكَفَىٰ بِٱللَّهِ حَسِيبًا [١] ﴿٦﴾ لِّلرِّجَالِ نَصِيبٌ مِّمَّا تَرَكَ ٱلْوَٰلِدَانِ وَٱلْأَقْرَبُونَ وَلِلنِّسَآءِ نَصِيبٌ مِّمَّا تَرَكَ ٱلْوَٰلِدَانِ وَٱلْأَقْرَبُونَ مِمَّا قَلَّ مِنْهُ أَوْ كَثُرَ نَصِيبًا مَّفْرُوضًا [٢] ﴿٧﴾ وَإِذَا حَضَرَ ٱلْقِسْمَةَ أُوْلُواْ ٱلْقُرْبَىٰ وَٱلْيَتَٰمَىٰ وَٱلْمَسَٰكِينُ فَٱرْزُقُوهُم مِّنْهُ وَقُولُواْ لَهُمْ قَوْلًا مَّعْرُوفًا ﴿٨﴾ وَلْيَخْشَ ٱلَّذِينَ لَوْ تَرَكُواْ مِنْ خَلْفِهِمْ ذُرِّيَّةً ضِعَٰفًا خَافُواْ عَلَيْهِمْ فَلْيَتَّقُواْ ٱللَّهَ وَلْيَقُولُواْ قَوْلًا سَدِيدًا [٣] ﴿٩﴾ إِنَّ ٱلَّذِينَ يَأْكُلُونَ أَمْوَٰلَ ٱلْيَتَٰمَىٰ ظُلْمًا إِنَّمَا يَأْكُلُونَ فِى بُطُونِهِمْ نَارًا وَسَيَصْلَوْنَ [٤] سَعِيرًا [٥] ﴿١٠﴾ ﴾.

هدى من الآيات:

النظام الاقتصادي وجه بارز من أوجه المجتمع، ولذلك بدأ القرآن حديثه عن المجتمع الإسلامي ببيان النظام الاقتصادي في هذا المجتمع، الذي يكفل الملكية الفردية في إطار من الرقابة الاجتماعية، فهو يشجع الناس على العمل والإنتاج، وتطوير التجربة الذاتية في التنعم بالحياة.

كل ذلك عن طريق كفالة الملكية الفردية، كما أنه يحافظ على دور المال البنَّاء لئلا يتحول إلى صخرة في طريق الحرية الاجتماعية أو القيم السامية للمجتمع.

من هنا نجد أن الآية الأولى تركز على ضرورة المحافظة على حقوق اليتامى والنساء لأنهما العضوان الضعيفان في المجتمع، ولهذا اقتضى التركيز عليهما، والمجتمع الذي يحافظ على حقوق الضعفاء يحافظ طبيعيًّا على حقوق الأقوياء.

ولكن القرآن عاد فبين حدود الملكية الفردية في الآية الخامسة، ومنع إعطاء السفهاء أموال المجتمع، لأن السفهاء يخالفون فلسفة المال وهي تنظيم حياة المجتمع به، ومن هذا

---

(١) حسيباً: محاسباً وشاهداً.
(٢) مفروضاً: الفرق بين الفرض والوجوب هو أنّ الفرض يقتضي فارضاً وليس كذلك الوجوب لأنّه قد يجب الشيء في نفسه.
(٣) السديد: السليم من خلل الفساد وأصله من سد الخلل، والسداد: الصواب.
(٤) سيصلون: صلى الرجل النار يصليها: أي لزمها إذا قاسى حره وشدته.
(٥) سعيراً: بمعنى مسعورة وهي (اشتعال) النار في الحطب.

المنطلق اشترط الرشد في اليتيم الذي يبلغ، ويريد أن يتسلم أمواله.

وتحدث بعدئذ عن الإرث باعتباره من توابع الملكية الفردية، وركز حديثه على ضرورة المحافظة على حقوق الضعفاء (النساء والأيتام وأولوا القربى واليتامى والمساكين).

وخلال الحديث في الآيتين (٣-٤) تحدث القرآن عن الزواج تمهيداً للحديث عن حقوق المرأة في امتلاك المهر، وضرورة المحافظة عليها.

بينات من الآيات:

[٢] اليتيم هو أضعف الحلقات الاجتماعية، والولي عليه (الوصي) هو أقوى الحلقات في قدرته على أكل أمواله من دون رادع اجتماعي، لذلك حذر القرآن الأولياء من ظلم اليتيم ظاهراً أو خفياً، والظلم الخفي هو تبديل أموال اليتامى بالتي هي أسوأ لحساب الولي عليهم.

ومن يأكل أموال اليتامى يتعود على التبذير، لأنه يجد أمامه مالاً لا تعب فيه فيلتهمه بدون تدبير، فإذا انتهت أموال اليتيم دفعته عادة التبذير إلى تبديد أمواله الخاصة بذات الكيفية السابقة، فإذا به يخسر ماله الحلال أيضا. من هنا قال الله تعالى: ﴿وَءَاتُوا۟ ٱلْيَتَـٰمَىٰٓ أَمْوَٰلَهُمْ ۖ وَلَا تَتَبَدَّلُوا۟ ٱلْخَبِيثَ بِٱلطَّيِّبِ ۖ وَلَا تَأْكُلُوٓا۟ أَمْوَٰلَهُمْ إِلَىٰٓ أَمْوَٰلِكُمْ﴾ أي أنكم تبدأون بأكل أموال اليتيم وتنتهون بأكل أموالكم: ﴿إِنَّهُۥ كَانَ حُوبًا كَبِيرًا﴾ إنه ظلم عظيم.

علاج اليتم

[٣] لحل مشكلة اليتم وضع الإسلام حلاً اجتماعياً هو الزواج بالأرملة (صاحبة الأيتام).

ومن هنا نعرف أن فلسفة تعدد الزوجات هي حل لبعض المشاكل الاجتماعية.

ذلك أنه لا يوجد شاب يقدم على الزواج ابتداءً من أرملة عجوز إلا إذا جعلها زوجته الثانية لكي يسترها ويحافظ على حقوقها وحقوق أبنائها، لأن الزواج من الأم يعطي الزوج دافعاً نفسياً إلى المحافظة على حقوق أولادها (اليتامى) باعتبار أنهم سوف يصبحون كأولاده بالنسب، وسوف ينفعونه عند الكبر، ويرفعون اسمه عند الناس وهكذا.

من هنا ربط القرآن بين الخوف من ظلم اليتيم وبين تعدد الزوجات فقال: ﴿وَإِنْ خِفْتُمْ أَلَّا تُقْسِطُوا۟ فِى ٱلْيَتَـٰمَىٰ فَٱنكِحُوا۟ مَا طَابَ لَكُم مِّنَ ٱلنِّسَآءِ مَثْنَىٰ وَثُلَـٰثَ وَرُبَـٰعَ ۖ﴾

ثم عاد وحذر من الزواج بنية سيئة، أو مع عدم القدرة على الوفاء بحقوق الزوجية

فقال: ﴿فَإِنْ خِفْتُمْ أَلَّا تَعْدِلُوا فَوَاحِدَةً﴾.

وعدم العدالة قد يكون بالاهتمام بزوجة وترك الأخريات كالمعلقات لا يحظين بحقوق الزوجية الجنسية والاقتصادية والاجتماعية، ولا هن مطلقات حتى يتزوجن غيره.

ومن الناس من يتزوج أرملة بهدف التهام أموالها ثم يتركها تعاني الأمرَّين، ولقد حذر القرآن من ذلك وأمر هؤلاء بالاقتصاد على زوجة واحدة.

﴿أَوْ مَا مَلَكَتْ أَيْمَانُكُمْ﴾ أي التسري بالإماء بهدف تفريغ الشهوة الجنسية، والامتناع عن الفساد، وهذا جانب من واقعية التشريع الإسلامي الذي يمنع بشدة الفوضى الجنسية، ومن جانب آخر يفتح طريق اللذة الحلال بالزواج أو الملك.

﴿ذَلِكَ أَدْنَى أَلَّا تَعُولُوا﴾ فالاكتفاء بزوجة واحدة، أو بالتسري بالإماء، يمنع الميل عن الحق إلى الباطل، بينما تعدد الزوجات قد يتسبب في الظلم والفقر والمسكنة.

المهر حق المرأة

[٤] بعد الحديث عن اليتيم جاء دور حقوق المرأة، وأبرزها المهر، لأنه مال ثابت تمتلكه أغلب النساء. فأمر الإسلام بإعطاء المهر للنساء، وبين بذلك أن المرأة تمتلك تماما كالرجل، سواء كانت متزوجة أم عانساً، وقد كانت الأنظمة البشرية تنفي حق المرأة في الامتلاك خصوصاً المتزوجة، وقريباً جدًّا استطاعت المرأة الغربية أن تحافظ على حريتها في التملك بعد الزواج، بالرغم من أن الإسلام أعطاها هذا الحق منذ اليوم الأول.

والواقع أن الجاهلية لا تستطيع إلا أن تظلم الضعفاء، والمرأة هي العضو الضعيف في المجتمع، ولا يزال العالم الغربي يظلمها في شخصيتها وحقوقها العامة.

ويسمي القرآن المهر صداقاً ليبين فلسفته التي هي: المصادقة على عهد الزوجية، ذلك أن الرجل يغري فتاة بحلم الزواج، وعندما يقضي وطره منها يتركها للفحشاء، فكان عليه أن يقدم دليلاً على صدق حبه لها، وحسن نيته في ادعاء الزواج، وذلك الدليل هو المهر، من هنا قال ربنا: ﴿وَآتُوا النِّسَاءَ صَدُقَاتِهِنَّ نِحْلَةً فَإِنْ طِبْنَ لَكُمْ عَنْ شَيْءٍ مِنْهُ نَفْسًا فَكُلُوهُ هَنِيئًا مَرِيئًا﴾ النحلة هي: العطاء، أي قدموا لهن المهر عطاء لا رجعة فيه، والهنيء ما يسبب الراحة النفسية، والمريء ما يسبب الراحة الجسدية.

ولا ريب أن المال الحلال الذي يأكله الإنسان براحة نفسية يعطي الجسد راحة جسمية أيضا لطبيعة العلاقة بين النفس والجسم.

البعد الاجتماعي في الحق المالي

[٥] المال حق من حقوق الفرد، ولكنه ملك لجميع الناس، وللناس أن يفرضوا الرقابة عليه لئلا يصبح أداة فساد، ولذلك فإن السفهاء يحرمون من حق التصرف في أموالهم، لأن تلك الأموال هي أموال المجتمع قبل أن تكون للسفهاء.

ولأن المال وضع ليؤدي دور المنظم لأنشطة المجتمع، والحافظ لجهود الناس، فإذا استغله صاحبه في الفوضى والفساد والسلبية والسرف فإنه يفقد دوره ويصيب الضرر جميع أبناء المجتمع، ولنتصور سفيهاً بدأ يشتري البضاعة بأضعاف ثمنها، إنه سوف ينشر الخلل في موازين السوق، وبالتالي يصاب الكثيرون من المحتاجين إلى تلك البضاعة بالضرر الفادح.

من هنا يخط الإسلام خطًّا وسطاً يعترض النظم الاقتصادية الوضعية، فيحفظ للفرد حقوقه، ويعطيه دوافع للإنتاج ومجالاً للاختيار والتحرك، كما يحفظ للمجتمع حقوقه في الرقابة على نشاطات الفرد، وتوجيهها حسب مصلحة الجميع ومن أجل البناء والازدهار.

فتجد التعبير القرآني يؤكد على أن المال ملك للجميع بالرغم من أن السفيه مختص به أكثر من غيره، ويبين فلسفة ذلك بقوله: ﴿وَلَا تُؤْتُوا السُّفَهَاءَ أَمْوَالَكُمُ الَّتِي جَعَلَ اللَّهُ لَكُمْ قِيَامًا﴾.

هذا الغني الذي يصرف أموال المجتمع على متعه الخاصة، بينما كان عليه أن يصرفها في بناء المشاريع العمرانية والإنسانية، وهذا المستكبر الذي يستثمر ثروته في محاربة الرسالة ومقاومة إصلاحاتها، وهذا المترف الذي يشجع الفاحشة ويبني دور اللهو والبغاء والمخدرات، وهذا المفسد الذي يحتكر التجارة لذاته، ويعمل بطريقة أنانية تضر بمصلحة سائر التجار والجماهير، إنهم جميعاً يتجاوزون حدهم، ويتصرفون في أموال المجتمع بما يخالف النظام الذي يستقيم بالمال، ويضارون بالناس. وهنا عليهم أن يقفوا ضدهم ويحجروا على أموالهم ولا يعني ذلك مصادرة أموالهم حتى لا يعطي ذلك مبرراً لبعض المنتفعين بالحكومات أن يتهموا الناس ببعض هذه التهم لمصادرة أموالهم: كلا... بل يعني وضع أموالهم تحت رقابة هيئة مخلصة تقوم هي باستثمارها في الصالح العام، وتضع الأرباح في حسابهم، بعد أن تأخذ من أموالهم قدراً معروفاً لقاء أتعابها.

وتقوم الهيئة بتوجيه هؤلاء نفسيًّا، وتحاول تربيتهم على الأفكار التجارية السليمة تمهيداً لإصلاحهم، وإعادة أموالهم إليهم.

لذلك تجد القرآن يستخدم كلمة (في) ويقول: ﴿وَارْزُقُوهُمْ فِيهَا وَاكْسُوهُمْ﴾ بينما كان من

المنتظر أن يستعمل كلمة (من) وهذا التعبير جاء للدلالة على ضرورة صرف هذه الأموال في مصلحة السفهاء، والرزق هو مثل للحاجة الطبيعية بينما الكسوة مثل للحاجة الكمالية (الاجتماعية).

ثم قال ربنا عن الجانب التربوي لهؤلاء: ﴿وَقُولُواْ لَهُمْ قَوْلًا مَّعْرُوفًا﴾ حتى لا تتحطم نفسيتهم، ولا يعودوا يصلحون للحياة أبداً.

يبقى أن نقول: إن السفيه هو الذي يخالف مصالحه الحقيقية حسب رؤية الشرع، ومقياس العرف الصالح، والقيام أُستخدم في القرآن بمعنى النظام، أو ما به استمرار الشيء وبقاؤه.

المراهقة الفكرية جذر السفه

[٦] السفه قد يكون بسبب آفة عقلية أو نفسية تطرأ على صاحبه، وقد يكون بسبب المراهقة، وعن هذه الثانية تتحدث الآية: ﴿وَٱبْتَلُواْ ٱلْيَتَٰمَىٰ حَتَّىٰٓ إِذَا بَلَغُواْ ٱلنِّكَاحَ فَإِنْ ءَانَسْتُم مِّنْهُمْ رُشْدًا فَٱدْفَعُوٓاْ إِلَيْهِمْ أَمْوَٰلَهُمْ﴾ فإنما يعاد لليتيم أمواله بعد أن يختبر، ليكشف بلوغه سن النكاح وتمتعه بالرشد الكافي للتصرف في أمواله بما يخدم مصلحته ومصلحة مجتمعه.

ويؤكد القرآن هنا مرة أخرى ضرورة المحافظة على حقوق اليتامى ويقول: ﴿وَلَا تَأْكُلُوهَآ إِسْرَافًا وَبِدَارًا أَن يَكْبَرُواْ﴾ ذلك أن الذي يأكل أموال اليتيم يسرف فيها، ويسابق الزمن في التهامها قبل أن يكبر اليتيم فيطالبه بالأموال، بداراً: أي مبادرة قبل أن يكبر اليتيم.

ولكن مع ذلك يبقى لولي اليتيم الحق في أخذ أجرته في المحافظة عليه وعلى أمواله إن كان فقيراً أو محتاجاً إلى ذلك ﴿وَمَن كَانَ غَنِيًّا فَلْيَسْتَعْفِفْ وَمَن كَانَ فَقِيرًا فَلْيَأْكُلْ بِٱلْمَعْرُوفِ فَإِذَا دَفَعْتُمْ إِلَيْهِمْ أَمْوَٰلَهُمْ فَأَشْهِدُواْ عَلَيْهِمْ وَكَفَىٰ بِٱللَّهِ حَسِيبًا﴾ أي أن الأهم من الإشهاد هو الوازع النفسي الذي يرى الله عليه حسيباً، فيمنعه عن أكل مال اليتيم.

الإرث لماذا؟ لمن؟ كيف؟

[٧] من مظاهر الاقتصاد الموجه الذي يؤمن به الإسلام هي حقوق الإرث، والتي تشجع الأفراد على العمل والإنتاج بإثارة غريزة حب الأبناء لديهم، حتى إذا كان الفرد غنيًّا عن المال بالنسبة إلى حاجاته الخاصة، عمل من أجل إسعاد أبنائه بعد موته.

ثم إن الإنسان معرض للموت في أية لحظة، وقد تراوده فكرة خبيثة فيفكر: لماذا أعمل ولمن؟.

وبالرغم من بعض العادات والأنظمة الجاهلية التي منعت الإرث عن النساء، يؤكد القرآن هنا على مخالفة تلك العادات والأنظمة ويقول: ﴿لِلرِّجَالِ نَصِيبٌ مِّمَّا تَرَكَ ٱلْوَٰلِدَانِ وَٱلْأَقْرَبُونَ وَلِلنِّسَآءِ نَصِيبٌ مِّمَّا تَرَكَ ٱلْوَٰلِدَانِ وَٱلْأَقْرَبُونَ مِمَّا قَلَّ مِنْهُ أَوْ كَثُرَ نَصِيبًا مَّفْرُوضًا﴾ أي لكل رجل أو امرأة حق مفروض في تركة الميت القريب منهما في الرحم.

[٨] وللمجتمع حق معلوم في تركة الميت.. ﴿وَإِذَا حَضَرَ ٱلْقِسْمَةَ أُوْلُواْ ٱلْقُرْبَىٰ﴾ ممن لا تربطهم بالميت صلة قرابة تقتضي توريثهم.

﴿وَٱلْيَتَٰمَىٰ وَٱلْمَسَٰكِينُ فَٱرْزُقُوهُم مِّنْهُ وَقُولُواْ لَهُمْ قَوْلًا مَّعْرُوفًا﴾ والقول المعروف هنا وفي كل مناسبة تشبه الإرث يعني: ضرورة العمل من أجل رفع مستوى الطبقات المحرومة نفسيًّا وتربويًّا حتى لا يشعروا بالذل والمهانة، بل ولكي يساعدهم مستواهم الرفيع على محاربة واقعهم، والعمل الجاد على إصلاحه وتطويره.

فهذا اليتيم الذي اضطرته الحاجة المؤقتة إلى أن يحضر قسمة الإرث، يرمق ببصرِهِ تركة الأموات، إنه سيصبح غداً شابًّا قويًّا قادراً على العمل البنَّاء، لو لم تحطم نفسيته أيام فقره وحاجته، ولو لم تحطم سمعته أمام الناس وينظر إليه كطبقة هابطة ومنبوذة في المجتمع، وكذلك المسكين العاطل عن العمل اليوم قد يجد غداً عملاً يناسبه، فيصبح عضواً فعالاً في جسم المجتمع إن لم يشعره المجتمع أيام مسكنته بأنه من طبقة منبوذة.

من هنا يركز القرآن على ضرورة إعطاء الطبقات المحرومة جرعات روحية بالإضافة إلى توفير الحاجات المادية لهم، لتساعدهم تلك الجرعات على مقاومة واقعهم بأنفسهم، أولا أقل لكي يحظوا بالسعادة من تقدير المجتمع لهم، وعدم النظر إلى وضعهم الاقتصادي المنحط.

كما تدين تدان

[٩] وبمناسبة الحديث عن الإرث بين القرآن مرة أخرى حكم اليتيم باعتبار أن كثيراً من الأموات يتركون ذرية صغاراً من ورائهم ويتعرض هؤلاء لطمع الجشعين، وأخذ القرآن يحرك فينا خوفنا الفطري من الموت، وضياع ذريتنا من ورائنا وقال: لو لم يحترم المجتمع حقوق اليتامى فكل فرد مهدد أن تغتصب حقوق يتاماه غداً كما يغتصب هو حق اليتامى اليوم. إذن... فإن لم يكن لله فلأنفسنا نحافظ على حقوق اليتامى.

﴿وَلْيَخْشَ ٱلَّذِينَ لَوْ تَرَكُواْ مِنْ خَلْفِهِمْ ذُرِّيَّةً ضِعَٰفًا خَافُواْ عَلَيْهِمْ﴾ إذن فلا يظلموا ذرية الناس ما داموا هم أصحاب ذرية يخشون عليهم لو ماتوا... أفلا يعرفون أن من طرق

باب الناس طرق بابه.

﴿فَلْيَتَّقُوا اللَّهَ وَلْيَقُولُوا قَوْلًا سَدِيدًا﴾ فلا يخالطوا في حساب الإرث ويقسموه بحيث يظلمون حق اليتامى.

[١٠] ثم هدد القرآن الحكيم الذين يأكلون أموال اليتامى وقال: ﴿إِنَّ الَّذِينَ يَأْكُلُونَ أَمْوَالَ الْيَتَامَىٰ ظُلْمًا إِنَّمَا يَأْكُلُونَ فِي بُطُونِهِمْ نَارًا وَسَيَصْلَوْنَ سَعِيرًا﴾

ما هذه النار التي يأكلونها؟ هل هي هذه المواد الحرام التي تتحول -بقدرة الله- إلى نار لاهبة في يوم القيامة؟ أم أنها الآلام النفسية ومن ثم الجسدية التي تلاحقهم بسبب ظلمهم اليتامى؟ أم أنها الانحرافات الاجتماعية التي سوف تحرق حضارتهم وتخرب عمرانهم عاجلاً أم آجلاً؟.

المهم أنها نار في الدنيا وسعير في الآخرة... وكفى بذلك رادعاً عن الاقتراب من حق الضعفاء.

الإرث بين الأهداف والالتزام

﴿ يُوصِيكُمُ ٱللَّهُ فِيٓ أَوۡلَٰدِكُمۡۖ لِلذَّكَرِ مِثۡلُ حَظِّ ٱلۡأُنثَيَيۡنِۚ فَإِن كُنَّ نِسَآءٗ فَوۡقَ ٱثۡنَتَيۡنِ فَلَهُنَّ ثُلُثَا مَا تَرَكَۖ وَإِن كَانَتۡ وَٰحِدَةٗ فَلَهَا ٱلنِّصۡفُۚ وَلِأَبَوَيۡهِ لِكُلِّ وَٰحِدٖ مِّنۡهُمَا ٱلسُّدُسُ مِمَّا تَرَكَ إِن كَانَ لَهُۥ وَلَدٞۚ فَإِن لَّمۡ يَكُن لَّهُۥ وَلَدٞ وَوَرِثَهُۥٓ أَبَوَاهُ فَلِأُمِّهِ ٱلثُّلُثُۚ فَإِن كَانَ لَهُۥٓ إِخۡوَةٞ فَلِأُمِّهِ ٱلسُّدُسُۚ مِنۢ بَعۡدِ وَصِيَّةٖ يُوصِي بِهَآ أَوۡ دَيۡنٍۗ ءَابَآؤُكُمۡ وَأَبۡنَآؤُكُمۡ لَا تَدۡرُونَ أَيُّهُمۡ أَقۡرَبُ لَكُمۡ نَفۡعٗاۚ فَرِيضَةٗ مِّنَ ٱللَّهِۗ إِنَّ ٱللَّهَ كَانَ عَلِيمًا حَكِيمٗا ﴿١١﴾ ۞ وَلَكُمۡ نِصۡفُ مَا تَرَكَ أَزۡوَٰجُكُمۡ إِن لَّمۡ يَكُن لَّهُنَّ وَلَدٞۚ فَإِن كَانَ لَهُنَّ وَلَدٞ فَلَكُمُ ٱلرُّبُعُ مِمَّا تَرَكۡنَۚ مِنۢ بَعۡدِ وَصِيَّةٖ يُوصِينَ بِهَآ أَوۡ دَيۡنٖۚ وَلَهُنَّ ٱلرُّبُعُ مِمَّا تَرَكۡتُمۡ إِن لَّمۡ يَكُن لَّكُمۡ وَلَدٞۚ فَإِن كَانَ لَكُمۡ وَلَدٞ فَلَهُنَّ ٱلثُّمُنُ مِمَّا تَرَكۡتُمۚ مِّنۢ بَعۡدِ وَصِيَّةٖ تُوصُونَ بِهَآ أَوۡ دَيۡنٖۗ وَإِن كَانَ رَجُلٞ يُورَثُ كَلَٰلَةً[1] أَوِ ٱمۡرَأَةٞ وَلَهُۥٓ أَخٌ أَوۡ أُخۡتٞ فَلِكُلِّ وَٰحِدٖ مِّنۡهُمَا ٱلسُّدُسُۚ فَإِن كَانُوٓاْ أَكۡثَرَ مِن ذَٰلِكَ فَهُمۡ شُرَكَآءُ فِي ٱلثُّلُثِۚ مِنۢ بَعۡدِ وَصِيَّةٖ يُوصَىٰ بِهَآ أَوۡ دَيۡنٍ غَيۡرَ مُضَآرّٖۚ وَصِيَّةٗ مِّنَ ٱللَّهِۗ وَٱللَّهُ عَلِيمٌ حَلِيمٞ ﴿١٢﴾ تِلۡكَ حُدُودُ ٱللَّهِۚ وَمَن يُطِعِ ٱللَّهَ وَرَسُولَهُۥ يُدۡخِلۡهُ جَنَّٰتٖ تَجۡرِي مِن تَحۡتِهَا ٱلۡأَنۡهَٰرُ خَٰلِدِينَ فِيهَاۚ وَذَٰلِكَ ٱلۡفَوۡزُ ٱلۡعَظِيمُ

---

(١) كلالة: أصل الكلالة الإحاطة ومنه الإكليل لإحاطته بالرأس ومنه الكل لإحاطته بالعدد فالكلالة تحيط بأصل النسب الذي هو الولد والوالد.

﴿١٣﴾ وَمَن يَعْصِ ٱللَّهَ وَرَسُولَهُۥ وَيَتَعَدَّ حُدُودَهُۥ[1] يُدْخِلْهُ نَارًا خَٰلِدًا فِيهَا وَلَهُۥ عَذَابٌ مُّهِينٌ ﴿١٤﴾.

هدى من الآيات:

في الآيات هذه بعض أحكام الإرث، والتي تكشف ما وراءها من النظرة الإسلامية في الطبقات المتدرجة للتنظيم الأسري، وللحقوق المتبادلة فيها.

والإرث عموماً رابطة وثيقة تشد أبناء الأسرة ببعضها، كما أنه في الاقتصاد الإسلامي طريقة لتوزيع الثروة في المجتمع.

وأهم حكم يعكسه أحكام الإرث في هذه الآيات وأشده إثارة للجدل هو: تفضيل الذكر على الأنثى في أغلب موارد الإرث، إذ أن الإسلام يعطي الذكر دوراً قياديًّا أكبر في الأسرة، وتحميله نفقات العائلة دون الأنثى فيضاعف نصيبه من الإرث ومع ذلك فإنه عند التعمق نجد أن المرأة تشارك الرجل في إرثه، دون أن يشاركها الرجل فيتعادلان، أو تميل كفة المرأة قليلاً فتحصل على قدر أكبر من الإرث.

وتتحدث الآية الأولى عن إرث أبناء العائلة التي تتكون من الوالدين والأبناء والإخوة.

بينما تتحدث الآية الثانية عن العلاقة الزوجية وكيفية تبادل الزوجين الإرث من بعضهما.

أما الآيتان الثالثة والرابعة فهي تُبيّن ضرورة الالتزام الدقيق بأحكام الله التي يسميها القرآن بالحدود، ويعد من تجاوزها بأشد العذاب.

بينات من الآيات:

حكمة الإرث

[١١] انطلاقاً من طبيعة الدور الذي يكلف الذكر به في الحياة العامة وفي الحياة الزوجية وهو دور الإنفاق والتوجيه الأشد صعوبة والأكثر جهداً، فقد حدد القرآن للذكر ضعفي

---

(١) الحد: الحاجز بين الشيئين وأصله المنع والفصل.

نصيب الأنثى من الإرث، وعبر عن ذلك بقوله تعالى: ﴿ يُوصِيكُمُ اللَّهُ فِي أَوْلَادِكُمْ لِلذَّكَرِ مِثْلُ حَظِّ الْأُنثَيَيْنِ ﴾ ويبدو هذا التعبير رؤية حياتية أكثر من أن يكون قاعدة قانونية.

فالذكر في طبيعته ودوره الفطري الذي خلق له، هو أن يصبح له مثل حظ الأنثيين في المجال الاقتصادي، كما أن الأنثى تملك مثل حظ الذكرين في المجالات الأخرى العاطفية والجاذبية، والقدرة على التربية. واستعاض الله (بالوصية) عن صيغة الأمر فقال (يوصيكم) للدلالة على أن في ذلك فائدة كبيرة لكم قبل أن يكون أمراً عليكم.

هذا إذا كانوا أولاداً مختلطين من ذكور وإناث، أما لو كن إناثاً فقط فإنهن يقتسمن ثلثي التركة بينهن بالسوية ﴿فَإِن كُنَّ نِسَاءً فَوْقَ اثْنَتَيْنِ فَلَهُنَّ ثُلُثَا مَا تَرَكَ وَإِن كَانَتْ وَاحِدَةً فَلَهَا النِّصْفُ ﴾ أما بقية المال: فإن كان للميت أبوان فإنهما يرثان الثلث فيما إذا كانتا اثنين وأكثر، وترث الأم السدس ويرث الأب البقية فيما إذا كانت واحدة فلها النصف، وكذلك يشاركهما الزوجان حسب التفصيل القادم.

أما إذا لم يكن للميت أبوان ولا زوج فإن بقية المال يرد على البنات أو البنت بطريقة الرد ﴿وَلِأَبَوَيْهِ لِكُلِّ وَاحِدٍ مِّنْهُمَا السُّدُسُ مِمَّا تَرَكَ إِن كَانَ لَهُ وَلَدٌ فَإِن لَّمْ يَكُن لَّهُ وَلَدٌ وَوَرِثَهُ أَبَوَاهُ فَلِأُمِّهِ الثُّلُثُ ﴾ أما الأب فنصيبه غير محدود فهو يأخذ البقية الباقية أنى كانت قلت أم كثرت، فمثلاً. إذا ماتت البنت فللأم الثلث إن كان للميت أم دون أولاد وللأب الثلثان الباقيان، أما لو كان الميت امرأة فلزوجها النصف مما تركت. ولأمها الثلث، ويبقى لأبيها السدس فقط.

﴿فَإِن كَانَ لَهُ إِخْوَةٌ فَلِأُمِّهِ السُّدُسُ ﴾ لأن إخوة الميت يحجبون الأم عن سدس إرثها، كل هذه التفاصيل والفروضات تحسب ﴿مِن بَعْدِ وَصِيَّةٍ يُوصِي بِهَا ﴾ الميت يتصرف في حدود ثلث المبلغ الذي خلفه لا أكثر، إلا إذا رضي الورثة بالزيادة فتعطى لمن وصى به حقه، ثم تقسم التركة كذلك بعد الدين.

﴿أَوْ دَيْنٍ ﴾ فالدين المتعلق بالميت مقدم على الوصية، وعلى الورثة حتى ولو غطى التركة كلها.

إن الإنسان يجب أن يرث أبناؤه كل ثروته دون أبويه، وهما على شفا الموت بينما أبناؤه يستقبلون الحياة الحافلة بالمشاكل والصعوبات، من هنا يتساءل لماذا وضع الله نصيباً مفروضاً للأبوين؟.

ويجيب القرآن الكريم على ذلك: ﴿ءَابَاؤُكُمْ وَأَبْنَاؤُكُمْ لَا تَدْرُونَ أَيُّهُمْ أَقْرَبُ لَكُمْ نَفْعًا ﴾

فربما يكون الآباء هم أقرب إلى نفعكم من الأبناء، فلولا جهود أولئك ومساعيهم، ولولا رعايتهم ولولا خبرتهم لكانت حياتكم جحيماً، فلابد أن تكون لهم مكافأة رمزية ﴿فَرِيضَةً مِّنَ ٱللَّهِۗ إِنَّ ٱللَّهَ كَانَ عَلِيمًا حَكِيمًا﴾.

موارد الإرث

[١٢] بعد الحديث عن القرابة (الرحمية) جاء دور القرابة الزوجية (السببية)، وبين القرآن أن الزوج يرث نصف تركة الزوجة إن لم يكن لها ولد، وإلا فالربع، أما الزوجة فترث الربع إن لم يكن له ولد، وإلا فالثمن.

وأكدت الآية أكثر من مرة ضرورة أداء دين الميت واحترام وصيته، وأكدتها هنا أكثر من الآية السابقة باعتبار أن العلاقة الزوجية لا تكون قوية فيستأثر الوارث منها بالمال دون أن يعير وصية الميت انتباها.

﴿۞ وَلَكُمْ نِصْفُ مَا تَرَكَ أَزْوَٰجُكُمْ إِن لَّمْ يَكُن لَّهُنَّ وَلَدٌۚ فَإِن كَانَ لَهُنَّ وَلَدٌ فَلَكُمُ ٱلرُّبُعُ مِمَّا تَرَكْنَۚ مِنۢ بَعْدِ وَصِيَّةٍ يُوصِينَ بِهَآ أَوْ دَيْنٍۚ وَلَهُنَّ ٱلرُّبُعُ مِمَّا تَرَكْتُمْ إِن لَّمْ يَكُن لَّكُمْ وَلَدٌۚ فَإِن كَانَ لَكُمْ وَلَدٌ فَلَهُنَّ ٱلثُّمُنُ مِمَّا تَرَكْتُمۚ مِّنۢ بَعْدِ وَصِيَّةٍ تُوصُونَ بِهَآ أَوْ دَيْنٍۗ﴾.

أما إرث الإخوة الذين يسميهم القرآن كلالة، لأنهم في طبقته يشكلون زينته كالأكاليل فإن إخوة الإنسان من الأم يرثون هكذا: إذا كان أخ الميت واحداً فإنه يورث سدس التركة، أما إذا كان له أخوان أو ثلاثة فإن ثلث المال يخصص لهم فيتقاسمونه بينهم بالسوية، لا فرق بين الذكر والأنثى (أي بين الأخت والأخ).

لذلك قال ربنا: ﴿وَإِن كَانَ رَجُلٌ يُورَثُ كَلَٰلَةً أَوِ ٱمْرَأَةٌ﴾ أي إن كان ميت يرثه أقاربه على طريقة الكلالة سواء كان الميت رجلاً (أو امرأة).

وهناك مثل لإرث الكلالة هو أن يكون للميت وارث واحد ﴿وَلَهُۥٓ أَخٌ أَوْ أُخْتٌ فَلِكُلِّ وَٰحِدٍ مِّنْهُمَا ٱلسُّدُسُۚ﴾.

أما إذا كان له أكثر من ذلك أي اثنان فزائد فالحكم يختلف: ﴿فَإِن كَانُوٓاْ أَكْثَرَ مِن ذَٰلِكَ فَهُمْ شُرَكَآءُ فِى ٱلثُّلُثِۚ مِنۢ بَعْدِ وَصِيَّةٍ يُوصَىٰ بِهَآ أَوْ دَيْنٍ غَيْرَ مُضَآرٍّۚ﴾.

إنما قدمت الوصية على الدين لأن أكثر الناس يوصون بينما قد لايكون الأمر كذلك

بالنسبة إلى الدَين. وإلا فإن الدَين مقدم على الوصية لأن الدَين يتعلق بحقوق الناس.

ولكن الوصية يجب أن لا تكون بقصد الإضرار بالورثة، وفي هذه الحالة تلغى الوصية بسبب قانون (الضرار).

كما أن من كتب على نفسه ديناً كاذباً بهدف الإضرار بورثته فإن اعترافه هذا لا يؤخذ به، ويتحقق القاضي في الأمر ليرى هل هو مدين فعلاً أم لا؟.

﴿وَصِيَّةً مِّنَ ٱللَّهِۗ وَٱللَّهُ عَلِيمٌ حَلِيمٌ﴾ عليم بما يفعله العباد ببعضهم من الظلم، لكنه يحلم عنهم لفترة دون أن ينساهم، إذ سيأتي يوم يؤخذ فيه المسيء بأشد الجزاء.

[١٣] يسمي القرآن أحكام الدين بـ (الحدود) تعبيراً عن الدقة المتناهية التي تتميز بها هذه الأحكام، والتي من الضروري أن يراعيها المؤمن فليس من الصحيح الزيادة أو النقيصة فيها باجتهادات خاصة أو حسب مصالح مؤقتة، لأن أية زيادة أو نقيصة تحمل في طياتها عقوبة تجاوزها ﴿تِلْكَ حُدُودُ ٱللَّهِۚ وَمَن يُطِعِ ٱللَّهَ وَرَسُولَهُۥ يُدْخِلْهُ جَنَّٰتٍ تَجْرِى مِن تَحْتِهَا ٱلْأَنْهَٰرُ خَٰلِدِينَ فِيهَاۚ وَذَٰلِكَ ٱلْفَوْزُ ٱلْعَظِيمُ﴾.

[١٤] ﴿وَمَن يَعْصِ ٱللَّهَ وَرَسُولَهُۥ وَيَتَعَدَّ حُدُودَهُۥ يُدْخِلْهُ نَارًا خَٰلِدًا فِيهَا وَلَهُۥ عَذَابٌ مُّهِينٌ﴾ إن الاستخفاف بحدود الله ينتهي إلى الهوان في الآخرة، ولأنه في الواقع يصل إلى درجة معصية الله والتهاون به.

المرأة والمجتمع حقوق وعلاقات

﴿وَالَّتِي يَأْتِينَ الْفَاحِشَةَ مِن نِّسَائِكُمْ فَاسْتَشْهِدُوا عَلَيْهِنَّ أَرْبَعَةً مِّنكُمْ فَإِن شَهِدُوا فَأَمْسِكُوهُنَّ فِي الْبُيُوتِ حَتَّىٰ يَتَوَفَّاهُنَّ الْمَوْتُ أَوْ يَجْعَلَ اللَّهُ لَهُنَّ سَبِيلًا (١٥) وَاللَّذَانِ يَأْتِيَانِهَا مِنكُمْ فَآذُوهُمَا فَإِن تَابَا وَأَصْلَحَا فَأَعْرِضُوا عَنْهُمَا إِنَّ اللَّهَ كَانَ تَوَّابًا رَّحِيمًا (١٦) إِنَّمَا التَّوْبَةُ[1] عَلَى اللَّهِ لِلَّذِينَ يَعْمَلُونَ السُّوءَ بِجَهَالَةٍ ثُمَّ يَتُوبُونَ مِن قَرِيبٍ فَأُولَٰئِكَ يَتُوبُ اللَّهُ عَلَيْهِمْ وَكَانَ اللَّهُ عَلِيمًا حَكِيمًا (١٧) وَلَيْسَتِ التَّوْبَةُ لِلَّذِينَ يَعْمَلُونَ السَّيِّئَاتِ حَتَّىٰ إِذَا حَضَرَ أَحَدَهُمُ الْمَوْتُ قَالَ إِنِّي تُبْتُ الْآنَ وَلَا الَّذِينَ يَمُوتُونَ وَهُمْ كُفَّارٌ أُولَٰئِكَ أَعْتَدْنَا[2] لَهُمْ عَذَابًا أَلِيمًا (١٨) يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لَا يَحِلُّ لَكُمْ أَن تَرِثُوا النِّسَاءَ كَرْهًا وَلَا تَعْضُلُوهُنَّ[3] لِتَذْهَبُوا بِبَعْضِ مَا آتَيْتُمُوهُنَّ إِلَّا أَن يَأْتِينَ بِفَاحِشَةٍ مُّبَيِّنَةٍ وَعَاشِرُوهُنَّ[4] بِالْمَعْرُوفِ فَإِن كَرِهْتُمُوهُنَّ فَعَسَىٰ أَن تَكْرَهُوا شَيْئًا وَيَجْعَلَ اللَّهُ فِيهِ خَيْرًا كَثِيرًا (١٩) وَإِنْ أَرَدتُّمُ اسْتِبْدَالَ زَوْجٍ مَّكَانَ زَوْجٍ وَآتَيْتُمْ إِحْدَاهُنَّ قِنطَارًا[5] فَلَا تَأْخُذُوا مِنْهُ شَيْئًا أَتَأْخُذُونَهُ بُهْتَانًا[6] وَإِثْمًا مُّبِينًا (٢٠)

(١) أصل التوبة: الرجوع، وحقيقتها الندم على القبيح والعزم على أن لا يعود إلى مثله.
(٢) أعتدنا: أصله أعددنا أي هيأنا.
(٣) تعضلوهن: العضل التضييق بالمنع من التزويج، وأصله الامتناع.
(٤) عاشروهن: المعاشرة المصاحبة وهي من العشرة.
(٥) قنطاراً: المال الكثير.
(٦) بهتاناً: كذباً.

وَكَيْفَ تَأْخُذُونَهُ وَقَدْ أَفْضَى[1] بَعْضُكُمْ إِلَى بَعْضٍ وَأَخَذْنَ مِنكُم مِّيثَاقًا غَلِيظًا ﴿٢١﴾﴾.

هدى من الآيات:

من الحقوق الثابتة للمرأة الحصانة عن القذف والتهمة، ذلك أن رأسمال المرأة سمعتها وعفتها ونظافة حصنها، ولابد أن تبقى هذه السمعة مصونة من ألسنة العابثين.

إلا إذا اخترقت حجاب العفة، ومارست الفاحشة علناً، وبصورة جلبت أنظار أربعة شهود من المؤمنين آنئذ يجب أن تحجز بعيدة عن أصحاب الشهوات الذين يتخذونها سلعة ومتاعاً رخيصاً. وإبعاد المرأة عن ممارسة الفحشاء، وتوفير حاجاتها من بيت المال، حق آخر من حقوقها على المجتمع.

وبمناسبة الحديث عن القذف، ولأنه جريمة تشتهر في المجتمعات الجاهلية، ويستهين بأبعادها الناس، فقد ذكر القرآن التوبة، وبين أن باب التوبة مفتوح لمن أراد أن يدخله، ولكن بشرط أن يسارع إليه قبل أن يحضره الموت، فإذا حضره فإن التوبة لن تقبل.

بعد حق الحصانة الاجتماعية بين القرآن مرة أخرى حق المرأة في الملكية وحرمة أكل إرثها جبراً، أو الضغط عليها لتتنازل عن بعض مهرها للزوج كما بين حق العشرة المعروفة معها بالرغم من سلبياتها.

وعاد وَبيّن حق المرأة في المهر بمجرد الزوجية، وأنه لا يحق للزوج استرجاع المهر إن أراد أن يطلقها.

وعموماً: يتحدث هذا الدرس عن جانب من حقوق المرأة بالنسبة إلى علاقتها الزوجية والاجتماعية.

بينات من الآيات:

التشريعات حصن المجتمع

[١٥] اهتمام الإسلام بالأسرة يفوق اهتمامه بأية روابط اجتماعية (غير المبدئية)، لأنها

(١) أفضى: الإفضاء إلى شيء هو الوصول إليه بالملامسة.

الإطار الطبيعي المتين للتعارف والتعاون والتفاعل من أجل بناء حضارة الإنسان، ولكي يحافظ الإسلام على الأسرة حَصَّنها بسور منيع من الأنظمة والتعليمات، ومن أهمها تحريم الفاحشة والقذف.

فلا يحق للمرأة في أي وجه من الوجوه أن تتجاوز حدود الأسرة، وبيتها هو بيت الزوج في علاقاتها الجنسية أو العاطفية.

وإذا امتنعت الأنثى عن تعاطي الجنس اللامشروع، فإن الرجل يضطر إلى أن يبحث عن الزواج المشروع، وأن يقدم في سبيله الكثير من التنازلات، وبالتالي أن يحافظ على كرامة المرأة من جهة، وعلى متانة الأسرة وقوتها وتماسكها من جهة ثانية.

وإذا سقطت المرأة في أحضان الفاحشة فإن عقوبتها التي ذكرها القرآن في هذه الآية هي حجزها في البيت، لماذا؟.

لأنها تجاوزت حدود البيت حين منحت الحرية، فمن الطبيعي أن تعاد إلى هذه الحدود جبراً، ولأنها إذا تركت حرة بين الناس فإن رجالاً كثيرين قد يسقطون في أحضان الجريمة ولا يجدون دافعاً قويًّا للزواج، وبالتالي فإن نساء كثيرات يحرمن من نعمة الزواج، وأسراً كثيرةً تتحطم على صخرة الفاحشة.

من هنا فإن الوسيلة الجيدة هي حجز المرأة الزانية في البيت ﴿وَٱلَّـٰتِى يَأۡتِينَ ٱلۡفَـٰحِشَةَ مِن نِّسَآئِكُمۡ فَٱسۡتَشۡهِدُواْ عَلَيۡهِنَّ أَرۡبَعَةً مِّنكُمۡۖ فَإِن شَهِدُواْ فَأَمۡسِكُوهُنَّ فِى ٱلۡبُيُوتِ حَتَّىٰ يَتَوَفَّىٰهُنَّ ٱلۡمَوۡتُ أَوۡ يَجۡعَلَ ٱللَّهُ لَهُنَّ سَبِيلًا﴾.

والتعبير القرآني يستخدم كلمتين ﴿يَأۡتِينَ﴾ و ﴿فَٱسۡتَشۡهِدُواْ﴾ للدلالة على أن المرأة التي تعمل الفاحشة فعلاً، والتي تتعاطى في المجتمع هذه الجريمة على عين السلطة وسمعها، إنها مع ذلك لا تعاقب بمجرد وجود أدلة خفية على جرمها بل يجب أن تكون هناك أدلة ظاهرة، فيستشهد عليها أربعة من المؤمنين أي يطلب منهم الإدلاء بشهاداتهم ليكون العقاب بعد حجة ظاهرة.

وهذا يفسر ضرورة توفر شهادة أربعة من الرجال في هذه الجريمة التي تعتبر عادة من الجرائم الخفية، خصوصاً في أجواء المجتمع الإسلامي، حيث إن شهادة هؤلاء إنما هي ممكنة بحق المرأة المعلنة بالفاحشة، وأما التي تسقط مرة ثم تتوب فلا يمكن عادة أن يلاحظها أربعة من الشهود.

والسبيل الذي أشار إليه القرآن في نهاية الآية: ﴿أَوْ يَجْعَلَ ٱللَّهُ لَهُنَّ سَبِيلًا﴾: هو إقامة الحد عليها وإطلاق سراحها كبديل عن حجزها في البيت.

حرمة القذف

[١٦] ولكي يعطي القرآن حصانة للأسرة وللمرأة بالذات، ولكي يستر على السقطات الجنسية التي قد تتعرض لها نساء شريفات، ولكي يقضي على الشائعات الجنسية التي يتسلى بها خبثاء النفوس في سهراتهم الليلية ويستعيضون بها عن حرمانهم الجنسي أو عقدهم الاجتماعية.

لكل ذلك حرم وعاقب على القذف بالزنا ما لم يصل إلى مستوى شهادة أربعة من الرجال وقال: ﴿وَٱلَّذَانِ يَأْتِيَٰنِهَا مِنكُمْ فَـَٔاذُوهُمَا فَإِن تَابَا وَأَصْلَحَا فَأَعْرِضُوا۟ عَنْهُمَآ إِنَّ ٱللَّهَ كَانَ تَوَّابًا رَّحِيمًا﴾ الأذى قد يكون بإشهارهما أمام الناس، أو بضربهما بالسياط، أو حتى بسجنهما أو تقريعهما من قبل الحاكم وهكذا.

لمن التوبة؟ وكيف؟

[١٧] ولأن القذف والتهمة بالسقطات الجنسية تكثر في المجتمع، ويمارسها كثير من الناس في بعض فترات حياتهم، لذلك فقد استمال القرآن المؤمنين ودعاهم إلى التوبة وقال: ﴿إِنَّمَا ٱلتَّوْبَةُ عَلَى ٱللَّهِ لِلَّذِينَ يَعْمَلُونَ ٱلسُّوٓءَ بِجَهَٰلَةٍ ثُمَّ يَتُوبُونَ مِن قَرِيبٍ فَأُو۟لَٰٓئِكَ يَتُوبُ ٱللَّهُ عَلَيْهِمْ ۗ وَكَانَ ٱللَّهُ عَلِيمًا حَكِيمًا﴾.

ثم قال:

[١٨] ﴿وَلَيْسَتِ ٱلتَّوْبَةُ لِلَّذِينَ يَعْمَلُونَ ٱلسَّيِّـَٔاتِ حَتَّىٰٓ إِذَا حَضَرَ أَحَدَهُمُ ٱلْمَوْتُ قَالَ إِنِّى تُبْتُ ٱلْـَٰٔنَ﴾.

فهناك صنفان من الناس: صنف يتوب بسبب روحه الإيمانية، وتذكره عذاب الله وخوفه وتقواه، وصنف لا يتوب إلا بعد اضطراره إلى التوبة، والتوبة تقبل فقط من الصنف الأول.

وليس هناك صنف ثالث، ذلك لأن الذين يُسوِّفون التوبة ويؤجلونها من يوم لآخر، إنهم لا يضمنون حياتهم حتى يتوبوا قبل موتهم بأيام مثلاً، كلا بل لا يصدقون بالموت إلا حين يحضرهم فعلاً وهناك لاتنفعهم التوبة.

ومثل هؤلاء مثل الكفار الذين يؤمنون قبل موتهم بلحظات، ولذلك ساقهم القرآن بعصاً واحدة مع الكفار فقال: ﴿وَلَا ٱلَّذِينَ يَمُوتُونَ وَهُمْ كُفَّارٌۚ أُوْلَٰٓئِكَ أَعْتَدْنَا لَهُمْ عَذَابًا أَلِيمًا﴾.

من حقوق المرأة الزوجية

[١٩] في حصن الأسرة يجب أن تسود العدالة، لأنها لو سادت في الأسرة استطاعت أن تسود في المجتمع كله وأبرز مظاهر العدالة المحافظة على حقوق المرأة في حياتها وبعد موتها، فلا يمكن خلط حسابها مع حسابه حتى يلتهم أموالها بعد موتها، إنه لا يرث إلا جزءاً من مالها قد لا يتجاوز الربع، فلا يجوز أن يأكلها جميعاً.

كما لا يجوز الضغط على المرأة حتى تتنازل عن بعض حقوقها أو كلها في سبيل إنقاذ نفسها من إرهاب الزوج الوحشي (هناك قانون في الطلاق يسمى بالخلع ويكون ذلك بعد تنازل المرأة عن مهرها لقاء فك سراحها) كما لا يجوز له أيضاً أن يرث نكاح النساء كما هو المعمول في الجاهلية.

﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ لَا يَحِلُّ لَكُمْ أَن تَرِثُواْ ٱلنِّسَآءَ كَرْهًاۖ وَلَا تَعْضُلُوهُنَّ لِتَذْهَبُواْ بِبَعْضِ مَآ ءَاتَيْتُمُوهُنَّ﴾ يبدو لي أن التعبير ﴿لِتَذْهَبُواْ بِبَعْضِ﴾ يوحي بالطلاق، لأن كلمة الذهاب به يدل على الابتعاد مع الشيء مثل ذهب السارق بالمال.

﴿إِلَّآ أَن يَأْتِينَ بِفَٰحِشَةٍ مُّبَيِّنَةٍۚ﴾ هنالك يحق للزوج أن يضغط على زوجته حتى تتنازل عن بعض مهرها ويطلقها، وذلك جزاء خيانتها به.

ومن الحقوق الثابتة للمرأة أن تعاشر بالمعروف، فتعطى لها الحقوق التي يراها العرف وبالقدر الذي يحكم به، وألا تخضع حقوق المرأة للانفعالات المؤقتة ﴿وَعَاشِرُوهُنَّ بِٱلْمَعْرُوفِۚ فَإِن كَرِهْتُمُوهُنَّ فَعَسَىٰٓ أَن تَكْرَهُواْ شَيْـًٔا وَيَجْعَلَ ٱللَّهُ فِيهِ خَيْرًا كَثِيرًا﴾.

إن النظام الإسلامي يعتمد في كثير من تفصيلات تشريعه على العرف العام بعد أن يضع إطاراً عامًّا له معتمداً على القيم الرسالية، وفي عشرة الزوجة وحقوقها اعتمد التشريع الإسلامي على العرف ليحدد ما هي المعاشرة السليمة.

[٢٠] الصداق الذي يقدمه الزوج هل هو رهن في يد الزوجة مقابل استمرار عقد الزواج فإذا أرادت الزوجة أو الزوج فسخ العلاقة الزوجية يستعيد الزوج الصداق؟!.

كلا... بل هو تصديق على صدق الزوج في ادعاء الزواج، وبناء الأسرة وعليه فإن المهر يصبح ملكاً كاملاً للزوجة بمجرد الدخول بها، ولا يحق للزوج أن يسترجع المهر أنى كان كثيراً إذا أراد أن يطلقها ﴿وَإِنْ أَرَدتُّمُ ٱسْتِبْدَالَ زَوْجٍ مَّكَانَ زَوْجٍ وَءَاتَيْتُمْ إِحْدَىٰهُنَّ قِنطَارًا فَلَا تَأْخُذُواْ مِنْهُ شَيْـًٔا أَتَأْخُذُونَهُۥ بُهْتَٰنًا وَإِثْمًا مُّبِينًا﴾.

[٢١] ﴿وَكَيْفَ تَأْخُذُونَهُۥ وَقَدْ أَفْضَىٰ بَعْضُكُمْ إِلَىٰ بَعْضٍ وَأَخَذْنَ مِنكُم مِّيثَٰقًا غَلِيظًا﴾ أي كيف يحق لكم أخذه بعد إتمام العملية الزوجية بالدخول التي كانت مقابل المهر في العقد، واتخذ عليه الميثاق.

المحرمات الزوجية ومفهوم الزواج

﴿ وَلَا تَنكِحُوا۟(١) مَا نَكَحَ ءَابَآؤُكُم مِّنَ ٱلنِّسَآءِ إِلَّا مَا قَدْ سَلَفَ ۚ إِنَّهُۥ كَانَ فَٰحِشَةً وَمَقْتًا(٢) وَسَآءَ سَبِيلًا ﴿٢٢﴾ حُرِّمَتْ عَلَيْكُمْ أُمَّهَٰتُكُمْ وَبَنَاتُكُمْ وَأَخَوَٰتُكُمْ وَعَمَّٰتُكُمْ وَخَٰلَٰتُكُمْ وَبَنَاتُ ٱلْأَخِ وَبَنَاتُ ٱلْأُخْتِ وَأُمَّهَٰتُكُمُ ٱلَّٰتِىٓ أَرْضَعْنَكُمْ وَأَخَوَٰتُكُم مِّنَ ٱلرَّضَٰعَةِ وَأُمَّهَٰتُ نِسَآئِكُمْ وَرَبَٰٓئِبُكُمُ(٣) ٱلَّٰتِى فِى حُجُورِكُم مِّن نِّسَآئِكُمُ ٱلَّٰتِى دَخَلْتُم بِهِنَّ فَإِن لَّمْ تَكُونُوا۟ دَخَلْتُم بِهِنَّ فَلَا جُنَاحَ عَلَيْكُمْ وَحَلَٰٓئِلُ(٤) أَبْنَآئِكُمُ ٱلَّذِينَ مِنْ أَصْلَٰبِكُمْ وَأَن تَجْمَعُوا۟ بَيْنَ ٱلْأُخْتَيْنِ إِلَّا مَا قَدْ سَلَفَ ۗ إِنَّ ٱللَّهَ كَانَ غَفُورًا رَّحِيمًا ﴿٢٣﴾ ۞ وَٱلْمُحْصَنَٰتُ(٥) مِنَ ٱلنِّسَآءِ إِلَّا مَا مَلَكَتْ أَيْمَٰنُكُمْ ۖ كِتَٰبَ ٱللَّهِ عَلَيْكُمْ ۚ وَأُحِلَّ لَكُم مَّا وَرَآءَ ذَٰلِكُمْ أَن تَبْتَغُوا۟ بِأَمْوَٰلِكُم مُّحْصِنِينَ غَيْرَ مُسَٰفِحِينَ(٦) ۚ فَمَا ٱسْتَمْتَعْتُم بِهِۦ مِنْهُنَّ فَـَٔاتُوهُنَّ أُجُورَهُنَّ فَرِيضَةً ۚ وَلَا جُنَاحَ عَلَيْكُمْ فِيمَا تَرَٰضَيْتُم بِهِۦ مِنۢ بَعْدِ ٱلْفَرِيضَةِ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ كَانَ عَلِيمًا حَكِيمًا ﴿٢٤﴾ وَمَن لَّمْ يَسْتَطِعْ

---

(١) النكاح: اسم يقع على العقد، ويقع على الوطء.
(٢) المقت: البغض من أمر قبيح يرتكبه صاحبه.
(٣) ربائبكم: الربائب جمع ربيبة وهي بنت زوجة الرجل من غيره وسميت بذلك لتربيته إياها.
(٤) الحلائل: جمع الحليلة وهي بمعنى المحللة مشتقة من الحلال.
(٥) المحصنات: مِنْ حصنت المرأة فرجها من الفجور والسفاح، يقال أحصن الرجل زوجته: أي حفظها من الفجور.
(٦) مسافحات: مِنْ السفاح وهو الزنا وأصله من السفح وهو صب الماء، لأنه يصب الماء باطلًا.

مِنكُمْ طَوْلًا[1] أَن يَنكِحَ ٱلْمُحْصَنَـٰتِ ٱلْمُؤْمِنَـٰتِ فَمِن مَّا مَلَكَتْ أَيْمَـٰنُكُم مِّن فَتَيَـٰتِكُمُ ٱلْمُؤْمِنَـٰتِ ۚ وَٱللَّهُ أَعْلَمُ بِإِيمَـٰنِكُم ۚ بَعْضُكُم مِّنۢ بَعْضٍ ۚ فَٱنكِحُوهُنَّ بِإِذْنِ أَهْلِهِنَّ وَءَاتُوهُنَّ أُجُورَهُنَّ بِٱلْمَعْرُوفِ مُحْصَنَـٰتٍ غَيْرَ مُسَـٰفِحَـٰتٍ وَلَا مُتَّخِذَٰتِ أَخْدَانٍ ۚ[2] فَإِذَآ أُحْصِنَّ فَإِنْ أَتَيْنَ بِفَـٰحِشَةٍ فَعَلَيْهِنَّ نِصْفُ مَا عَلَى ٱلْمُحْصَنَـٰتِ مِنَ ٱلْعَذَابِ ۚ ذَٰلِكَ لِمَنْ خَشِىَ ٱلْعَنَتَ[3] مِنكُمْ ۚ وَأَن تَصْبِرُوا۟ خَيْرٌ لَّكُمْ ۗ وَٱللَّهُ غَفُورٌ رَّحِيمٌ ﴿٢٥﴾ يُرِيدُ ٱللَّهُ لِيُبَيِّنَ لَكُمْ وَيَهْدِيَكُمْ سُنَنَ ٱلَّذِينَ مِن قَبْلِكُمْ وَيَتُوبَ عَلَيْكُمْ ۗ وَٱللَّهُ عَلِيمٌ حَكِيمٌ ﴿٢٦﴾ وَٱللَّهُ يُرِيدُ أَن يَتُوبَ عَلَيْكُمْ وَيُرِيدُ ٱلَّذِينَ يَتَّبِعُونَ ٱلشَّهَوَٰتِ أَن تَمِيلُوا۟ مَيْلًا عَظِيمًا ﴿٢٧﴾ يُرِيدُ ٱللَّهُ أَن يُخَفِّفَ عَنكُمْ ۚ وَخُلِقَ ٱلْإِنسَـٰنُ ضَعِيفًا ﴿٢٨﴾﴾.

هدى من الآيات:

في هذا الدرس ينظم التشريع القرآني الحكيم العلاقة الزوجية بين الذكر والأنثى، فيبين النساء المحرمات ابتداءً بزوجة الأب وانتهاء بالجمع بين الأختين، أو التفكير في الزواج من امرأة ذات بعل.

ثم تتحدث الآيات عن العلاقة المشروعة بين الذكر والأنثى التي تتم عن طريق الزواج كعقد يتراضى عليه الطرفان، وأن من الضروري الالتزام بكافة بنوده، وليست الزوجية امتلاكاً للأنثى من قبل الذكر كما كان يتصوره الجاهليون.

وتتحدث عن الزواج من الإماء، وكيف يجب أن تنظم العلاقة معهن حتى لا تتحول الأمة إلى باغية بحكم حاجتها إلى المال وإلى الحماية الاجتماعية بسبب أنها امرأة غريبة عن المجتمع المسلم.

ويشدد الإسلام على ذلك في الآيات الثلاث الأخيرة من الدرس حين يقول: إن هذه

---

(١) طولًا: الطول الغنى.
(٢) أخدان: جمع خدن وهو الصديق.
(٣) العنت: الجهد والشدة من جهة ترك الزواج.

التشريعات هي عماد حضارتكم، وإن الاستهانة بها يهدد كيانكم بالدمار كما فعل بالذين كانوا من قبلكم.

ويبين أن التشريع الإسلامي تشريع واقعي يلاحظ ضعف الإنسان، وحدود قدراته على الضبط، وأنه لولا واقعية هذا التشريع لانهار كثير من الناس في بؤرة الفساد واتباع الشهوات.

بينات من الآيات:

النساء المحرمات

[٢٢] كانت العادات الجاهلية تقضي بتوريث زوجة الأب لأكبر أبنائه، وكأنها سلعة من السلع، فجاءت الآية الأولى من آيات تنظيم العلاقة الزوجية في هذا المجال: ﴿وَلَا تَنكِحُواْ مَا نَكَحَ ءَابَآؤُكُم مِّنَ ٱلنِّسَآءِ إِلَّا مَا قَدْ سَلَفَ﴾ أي ما سلف منكم في الجاهلية، فإنه بالرغم من حرمته يعتبر نكاحاً في ذلك العرف ولا يوصم أبناء هذا النكاح بأنهم أولاد زنا، أما الآن فيجب الفراق والإبانة بين الزوجين.

وبين القرآن أن هذا النكاح عمل جنسي حرام ﴿فَٰحِشَةً﴾ وأنه يجلب الذل والهوان ﴿وَمَقْتًا﴾ وأنه ليس السبيل السوي في العلاقة الزوجية.

﴿إِنَّهُۥ كَانَ فَٰحِشَةً وَمَقْتًا وَسَآءَ سَبِيلًا﴾ إن الحاجة الجنسية تجري في الإنسان كالسيل تكاد تتدفق من جوانبه فلولا وجود قنوات تمتصها وتنظم مسيرتها لفاضت في كل اتجاه، ونشأت منها الصراعات والخلافات وهدمت الأسرة الواحدة.

وقد جعل الله في الإنسان وفي موازاة الحاجة الجنسية الهائلة جعل حواجز الحياء الفطري لتمنع الفوضى الجنسية ولكي يدعم الحياء الفطري وضع قوانين شرعية منظمة لهذه الحاجة، وحرمة زوجة الأب على الإبن من تلك القوانين، ذلك لأنها ترفع الزوجة إلى درجة الأم، وتجعلها مصونة من حاجات الأولاد الجنسية، وبالتالي من صراعاتهم عليها، ومن معاملتهم لها كسلعة تورث. ومن هنا قال الله إنه مقت يورث الهوان، لأنه تحطيم لكرامة المرأة، وهدر لحق الأب.

فلسفة التحريم

[٢٣] ويسرد القرآن المحرمات من النساء وهن: القريبات في الطبقة الأولى والثانية، وفلسفة الحرمة أن ذلك الزواج يهدد الأسرة بالخلافات الداخلية، وبسبب شيوع علاقات

فاحشة بين الأقارب في الأسرة الواحدة، ويسبب نقل الأمراض الوراثية بشكل فظيع إلى الأجيال التالية، ويسبب بالتالي ضعف النسل البشري إلى درجة خطيرة، وتحول نظرة الأقارب في الأسرة الواحدة من نظرة تعاون بناء إلى نظرة جنسية شاذة وهكذا.. قال ربنا: ﴿ حُرِّمَتْ عَلَيْكُمْ أُمَّهَاتُكُمْ وَبَنَاتُكُمْ وَأَخَوَاتُكُمْ وَعَمَّاتُكُمْ وَخَالَاتُكُمْ وَبَنَاتُ الْأَخِ وَبَنَاتُ الْأُخْتِ وَأُمَّهَاتُكُمُ اللَّاتِي أَرْضَعْنَكُمْ وَأَخَوَاتُكُمْ مِنَ الرَّضَاعَةِ وَأُمَّهَاتُ نِسَائِكُمْ وَرَبَائِبُكُمُ اللَّاتِي فِي حُجُورِكُمْ مِنْ نِسَائِكُمُ اللَّاتِي دَخَلْتُمْ بِهِنَّ فَإِنْ لَمْ تَكُونُوا دَخَلْتُمْ بِهِنَّ فَلَا جُنَاحَ عَلَيْكُمْ ﴾.

بنت زوجة الإنسان (من غيره) محرمة عليه إذا دخل بأمها، فلا يحق له أن يستعيض زوجته بابنتها من أب غيره بعد أن تكبر وتكون صالحة للزواج.

إن ذلك يشكل إهانة بحق الزوجة حيث أن الزوج، يريد منها أن تكون فقط أداة لإشباع غرائزه وحين استنفد حاجته منها استبدلها ببنتها المولودة من غيره.

أما قبل أن يدخل بها فإن ذلك يجوز لأن هذه الفلسفة لا تحكم فيه.

ولا يجوز أن يتزوج الإنسان من زوجات أبنائه لأنهن يصبحن بحكم بناته، ولا يجوز أن ينظر الأب إليهن نظرة جنسية حتى لا تنمو الكراهية في الأسرة الواحدة، وتؤدي إلى الصراعات العائلية.

﴿وَحَلَائِلُ أَبْنَائِكُمُ الَّذِينَ مِنْ أَصْلَابِكُمْ ﴾ أما الإبن المتبنى فإنه يجوز لأبيه (بالتبني) أن يتزوج زوجته بعد طلاقها، خلافاً للأعراف الجاهلية التي نسخها القرآن الحكيم في قصة (زيد) ابن رسول الله ﷺ بالتبني، حيث طلق زوجته زينب فزوجها الله لرسوله.

﴿وَأَنْ تَجْمَعُوا بَيْنَ الْأُخْتَيْنِ﴾ لما في ذلك من إثارة للصراعات في الأسرة الواحدة بسبب تنافس الضرتين في ود الزوج، ويتحول التنافس إلى خلاف بينهما ينعكس بالتالي على أسرتهما. ﴿إِلَّا مَا قَدْ سَلَفَ ﴾ في الجاهلية ﴿إِنَّ اللَّهَ كَانَ غَفُورًا رَحِيمًا ﴾.

[٢٤] لا يجوز للإنسان أن ينظر بريبة إلى زوجات الناس اللاتي دخلن في حصن الزواج وحريم البيت، فإن ذلك يهدد البناء الأسري للمجتمع، ويجر إليه رياح الفوضى والخلاف.

إن الرجل الذي يعتز بماله وجماله ويحاول أن يخدع نساء الآخرين لابد أن يعرف أن في المجتمع من هو أكثر مالاً وأروع جمالاً، وأرفع شهرة منه، وأنه من الممكن أن يطمع في زوجته فهل يرضى؟.

﴿ وَالْمُحْصَنَاتُ مِنَ النِّسَاءِ إِلَّا مَا مَلَكَتْ أَيْمَانُكُمْ كِتَابَ اللَّهِ عَلَيْكُمْ ﴾ إن كتاب الله يشهد عليكم لو أنكم تجاوزتم حدود الله في المحرمات من النساء، حيث لا يجوز مباشرتهن إلا في حدود أحكام الله بالعقد أو بملك اليمين.

﴿وَأُحِلَّ لَكُمْ مَا وَرَاءَ ذَلِكُمْ أَنْ تَبْتَغُوا بِأَمْوَالِكُمْ مُحْصِنِينَ غَيْرَ مُسَافِحِينَ ﴾ أي يحل لكم إنشاء علاقات جنسية بهدف تكوين أسرة، والدخول في حصن الزوجية، وفي حصانة العلاقة الجنسية المستقرة، لا بهدف السفاح والهبوط إلى مستوى البهائم، وسفح ماء الحياة في كل أرض صالحة أو طالحة.

إن الهدف من أي عمل هو الذي يحدد طبيعته وصبغته، وحسنه وقبحه، وحرمته وحليته، والعلاقة بهدف تكوين الأسرة هي علاقة جيدة، حتى ولو كانت مؤقتة مثل المتعة التي استدل طائفة من المفسرين جوازها انطلاقاً من هذه الآية.

شرعية الزواج المؤقت

الزواج المؤقت (المتعة) يختلف عن الزنا في أنه ذو هدف شريف، وهو أشبه شيء بالزواج والطلاق بعد فترة لظروف طارئة. بيد أن المتعة تأخذ تلك الظروف بعين الاعتبار وتقصر فترة العقد منذ البداية، مثل أن يكون الرجل مسافراً (للدراسة أو للعمل) إلى بلد بعيد ولا يستطيع أن يجلب إليه زوجته كما لا يريد أن يستوطن ذلك البلد إلى الأبد، فإذا أراد البقاء هناك لمدة خمس سنوات مثلاً فالأفضل له أن يتزوج خلال الفترة زواجاً بهدف بناء الأسرة، وإنجاب وتربية الأولاد، ولكن محدد بفترة معينة.

وبدلاً من أن يخدع المرأة ويوعدها بالزواج الدائم ثم يفترق عنها بسبب قهر الظروف فإنه منذ البدء يصارحها بالحقيقة حتى تكون على بينة من أمرها.

﴿فَمَا اسْتَمْتَعْتُمْ بِهِ مِنْهُنَّ فَآتُوهُنَّ أُجُورَهُنَّ فَرِيضَةً ﴾ حيث شرع المتعة بهذه الآية حسب تفسير ابن عباس والسري وابن سعيد وجماعة[1]، ولكنه اشترط فيها شرطين:

الأول: إرادة الزواج وليس السفاح وبتعبير آخر: أن يكون التزاماً ببناء أسرة.

الثاني: أن يدفع الرجل كامل المهر للزوجة، وأن يضع لها مهراً واجباً عليه.. نعم إذا تنازلت المرأة عن مهرها طواعية جاز لها ذلك ﴿وَلَا جُنَاحَ عَلَيْكُمْ فِيمَا تَرَاضَيْتُمْ بِهِ مِنْ بَعْدِ الْفَرِيضَةِ إِنَّ اللَّهَ كَانَ عَلِيمًا حَكِيمًا ﴾.

---

(١) مجمع البيان: ج٣، ص٥٢.

فلسفة الرق

[٢٥] قانون الرق في الإسلام يختلف عنه في التشريعات الجاهلية اختلافاً كبيراً، وأبرز نقاط الخلاف أن القانون الإسلامي يحرم الاسترقاق القسري أو الطوعي للأحرار إلا في حالة واحدة هي أسرى الحرب الذين وضع الإسلام أمامهم طريق الاسترقاق لتذويبهم في المجتمع المسلم بصورة تدريجية، ومن دون وجود مضاعفات سلبية.

إن الأسير الذي يفترض أن يكون معتديًا على أمن الوطن الإسلامي، ومحارباً سابقاً ضد الأمة المسلمة لا يمكن أن يطلق سراحه في البلاد الإسلامية ليعيث فيها فسادا، بل لابد أن يمر بدورة تربوية تؤهله ليصبح مواطناً صالحاً للبلاد الإسلامية، وعضواً بَنَّاءً في المجتمع المسلم.

أين توجد هذه الدورة التربوية؟ هل تستطيع الدولة الإسلامية أن تؤسس آلاف المعسكرات (وبتعبير آخر المعتقلات) وتحتفظ فيها بهؤلاء الأسرى؟ وهل ينجح هذا الأسلوب لو فعلت؟ كلا... إن الدورة الجيدة هي إعطاء الأسير جزءً من حريته، وربطه بواحد من المسلمين وإعطاء حق التوجيه لذلك المسلم وتشجيعه على أن يصبح عضواً جيداً لإعادة كامل حريته إليه، وأخيراً تزويد مولاه بالوصايا المؤكدة لرعاية حقوقه، بل بالأوامر المشددة تحت طائلة العقوبة القانونية.

وبهذه الطريقة استطاعت الأمة الإسلامية استقطاب الشعوب التي فتحت بلادها في فترات متعاقبة، بالرغم من أن تلك الشعوب كانت أضعاف عدد الأمة، وتحولت في فترة وجيزة إلى جزء من الأمة حملت رسالتها إلى آفاق جديدة.

إن المقاتل العدو الذي أُسِر في هذا العام مثلاً كان يتحول في العام المقبل إلى قائد إسلامي لموجة جديدة من الفتوحات، وربما في بلاده هو وضد رفاق السلاح، كيف كان ذلك ممكناً لو لم تكن هناك دورات تربوية داخل كل بيت وكل أسرة يتأثر الأسير بها فيتحول إلى مؤمن صادق. وبالطبع لا تفلح التربية إلا بإشراف المربي، وهذا هو هدف الإسلام من إعطاء حقوق معينة للمولى على العبد، ومن تلك الحقوق حق زواج الأمة ممن يراه المولى صالحاً.

ولكن من جهة أخرى يفرض قيوداً على هذا الزواج، بإعتباره يهدد حياته الزوجية وبنائه الأسري للخطر، وذلك للتباين الثقافي والسلوكي الحاد بين طرفي الحياة الزوجية.

لذلك نصح الإسلام عدم الزواج من الإماء إلا في حالة الاضطرار وقال: ﴿وَمَن لَّمْ يَسْتَطِعْ مِنكُمْ طَوْلًا أَن يَنكِحَ ٱلْمُحْصَنَٰتِ ٱلْمُؤْمِنَٰتِ فَمِن مَّا مَلَكَتْ أَيْمَٰنُكُم مِّن فَتَيَٰتِكُمُ ٱلْمُؤْمِنَٰتِ﴾.

نعم ليس من الصحيح تصور أن الأسيرة لم تصبح مؤمنة إيماناً حقيقيًّا، بل إيماناً ظاهراً بسبب مغريات الإيمان، ويقول القرآن ليس هذا التصوير صحيحا: إذ أن الله هو العالم بحقيقة الإيمان.

وأما الناس فلو أرادوا أن يتعاملوا مع بعضهم بهذا المقياس، إذن لسرى الشك إلى كل إنسان ولا يمكنهم أن يتعاونوا أبداً، إنما علينا أن نلاحظ ظواهر الإيمان، كما أنه ليس من الصحيح الاعتقاد بأن الأسيرة ذات عنصر أدنى من العنصر العربي، لأن الله خلق الناس جميعاً من نفس واحدة، والناس بعضهم من بعض ﴿وَٱللَّهُ أَعْلَمُ بِإِيمَـٰنِكُمْ ۚ بَعْضُكُم مِّنۢ بَعْضٍ ۚ﴾.

ولكن الزواج يجب أن يتم بإذن أهلها باعتبارها عبدة مملوكة لمولاها، وباعتبار أنها جديدة العهد بالتقاليد الإسلامية، ولربما كانت في بلادها تمارس الفاحشة حسب تقاليدها، ويخشى أن يتخذها المفسدون سلعة للهوى، وإشاعة الفاحشة في البلاد الإسلامية مستغلين ظروفها المعيشية، وعاداتها الخلقية، وحداثة عهدها بالقيم الإسلامية، من هنا ركز الإسلام على هذه الحقيقة وقال: ﴿فَٱنكِحُوهُنَّ بِإِذْنِ أَهْلِهِنَّ وَءَاتُوهُنَّ أُجُورَهُنَّ بِٱلْمَعْرُوفِ مُحْصَنَـٰتٍ غَيْرَ مُسَـٰفِحَـٰتٍ وَلَا مُتَّخِذَٰتِ أَخْدَانٍ﴾.

يحذر القرآن من تسيب الأسيرات وتحولهن إلى بنات هوى في المجتمع الإسلامي، ولكنه من جهة أخرى خفف العقاب عنهن لو فعلن الفاحشة، لأنهن جديدات عهد بالقيم الإسلامية، ولظروفهن المعيشية والاجتماعية الخاصة التي تساعد على الفاحشة، وقال الله: ﴿فَإِذَآ أُحْصِنَّ فَإِنْ أَتَيْنَ بِفَـٰحِشَةٍ فَعَلَيْهِنَّ نِصْفُ مَا عَلَى ٱلْمُحْصَنَـٰتِ مِنَ ٱلْعَذَابِ ۚ﴾.

وعاد القرآن ليبيّن أن الزواج من الأسيرة محدود بظرف الاضطرار وقال: ﴿ذَٰلِكَ لِمَنْ خَشِىَ ٱلْعَنَتَ مِنكُمْ ۚ وَأَن تَصْبِرُوا۟ خَيْرٌ لَّكُمْ ۗ وَٱللَّهُ غَفُورٌ رَّحِيمٌ﴾.

كيف ننظر إلى التاريخ؟

[٢٦] هذه شرائع الله يبينها للناس لكي يفتحوا أعينهم، ويبصروا دربهم بوضوح، ذلك الدرب الذي مشى عليه السابقون الصالحون فبلغوا أهدافهم، وتنكب عنهم الفاسقون فسقطوا في جهنم.

إن استخلاص تجارب التاريخ، وإعطاء رؤية حياتية منبثقة من حقائق التاريخ هو من أهم ما يقوم به القرآن الذي فيه خبر من قبلنا كما يقول الرسول الأكرم محمد ﷺ [1]، وعلى

---

(١) روى العياشي في تفسيره ج١، ص٣: عَنْ يُوسُفَ بْنِ عَبْدِ الرَّحْمَنِ رَفَعَهُ إِلَى الْحَارِثِ الأَعْوَرِ قَالَ: «دَخَلْتُ عَلَى أَمِيرِ الْمُؤْمِنِينَ عَلِيِّ بْنِ أَبِي طَالِبٍ عليه السلام فَقُلْتُ: يَا أَمِيرَ الْمُؤْمِنِينَ إِنَّا إِذَا كُنَّا عِنْدَكَ سَمِعْنَا =

المؤمن أن يتسلح بمنظار القرآن، ثم ينظر إلى أحداث التاريخ ليعرف فلسفة أحكام الدين، حتى يربي نفسه على الأعمال الصالحة، ويتوب إلى الله من سيئات أعماله ﴿يُرِيدُ ٱللَّهُ لِيُبَيِّنَ لَكُمْ وَيَهْدِيَكُمْ سُنَنَ ٱلَّذِينَ مِن قَبْلِكُمْ وَيَتُوبَ عَلَيْكُمْ ۗ وَٱللَّهُ عَلِيمٌ حَكِيمٌ﴾.

[٢٧] هذا ما يريده الله، أما ما يريده الغاوون الذين يتبعون أهواءهم، ويسترسلون مع شهواتهم دون حكمة أو علم، ولا ينظرون إلى تجارب الأولين ليتخذوا منها العبرة والموعظة، فإنهم يريدون أن يفرط الإنسان تفريطاً ذات اليمين أو اليسار، ويذهب بعيداً في انحرافه عن جادة الحق المستقيمة ﴿وَٱللَّهُ يُرِيدُ أَن يَتُوبَ عَلَيْكُمْ وَيُرِيدُ ٱلَّذِينَ يَتَّبِعُونَ ٱلشَّهَوَٰتِ أَن تَمِيلُوا۟ مَيْلًا عَظِيمًا﴾.

مميزات التشريع الإسلامي

[٢٨] وإذا مال الإنسان الميل العظيم، فإنه سوف يحمل مآسي وويلات أكبر من طاقاته، والإنسان ضعيف لا يحتمل الصعاب.

أما منهج الله فهو يحافظ على استقامة الإنسان على الطريق السوي حتى لا يكلف أكثر من طاقته.

﴿يُرِيدُ ٱللَّهُ أَن يُخَفِّفَ عَنكُمْ ۚ وَخُلِقَ ٱلْإِنسَٰنُ ضَعِيفًا﴾

في هذه الآيات الثلاث بين الله مميزات التشريع الإسلامي بتلخيص وهي:

ألف: أنه تشريع واضح مبين.

باء: أنه تشريع يعتمد على رصيد ضخم من التجربة التاريخية.

جيم: أنه يربي الإنسان ويخلصه من سلبياته.

دال: أنه متين ومستقيم وبعيد عن الانحرافات.

هاء: أنه تشريع واقعي يلاحظ طبيعة الإنسان الضعيف.

= الَّذِي نَسُدُّ بِهِ دِينَنَا وَإِذَا خَرَجْنَا مِنْ عِنْدِكَ سَمِعْنَا أَشْيَاءَ مُخْتَلِفَةً مَغْمُوسَةً لَانَدْرِي مَا هِيَ. قَالَ عليه السلام: «أَوَ قَدْ فَعَلُوهَا» قُلْتُ: نَعَمْ. قَالَ: «سَمِعْتُ رَسُولَ اللهِ صلى الله عليه وآله يَقُولُ: أَتَانِي جَبْرَئِيلُ فَقَالَ: يَا مُحَمَّدُ سَيَكُونُ فِي أُمَّتِكَ فِتْنَةٌ. قُلْتُ صلى الله عليه وآله: فَمَا الْمَخْرَجُ مِنْهَا؟. فَقَالَ عليه السلام: كِتَابُ اللهِ فِيهِ بَيَانُ مَا قَبْلَكُمْ مِنْ خَيْرٍ وَخَبَرُ مَا بَعْدَكُمْ، وَحُكْمُ مَا بَيْنَكُمْ وَهُوَ الْفَصْلُ لَيْسَ بِالْهَزْلِ، مَنْ وَلِيَهُ مِنْ جَبَّارٍ فَعَمِلَ بِغَيْرِهِ قَصَمَهُ اللهُ، وَمَنِ الْتَمَسَ الْهُدَى فِي غَيْرِهِ أَضَلَّهُ اللهُ، وَهُوَ حَبْلُ اللهِ الْمَتِينُ، وَهُوَ الذِّكْرُ الْحَكِيمُ، وَهُوَ الصِّرَاطُ الْمُسْتَقِيمُ، لَاتُزِيغُهُ الْأَهْوَاءُ، وَلَا تَلْبِسُهُ الْأَلْسِنَةُ، وَلَايَخْلُقُ عَنِ الرَّدِّ، وَلَاتَنْقَضِي عَجَائِبُهُ، وَلَا يَشْبَعُ مِنْهُ الْعُلَمَاءُ ...».

الإنسان ومنطلقات العمل

﴿ يَـٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ لَا تَأْكُلُوٓا۟ أَمْوَٰلَكُم بَيْنَكُم بِٱلْبَـٰطِلِ إِلَّآ أَن تَكُونَ تِجَـٰرَةً عَن تَرَاضٍ مِّنكُمْ ۚ وَلَا تَقْتُلُوٓا۟ أَنفُسَكُمْ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ كَانَ بِكُمْ رَحِيمًا ﴿٢٩﴾ وَمَن يَفْعَلْ ذَٰلِكَ عُدْوَٰنًا وَظُلْمًا فَسَوْفَ نُصْلِيهِ نَارًا ۚ وَكَانَ ذَٰلِكَ عَلَى ٱللَّهِ يَسِيرًا ﴿٣٠﴾ إِن تَجْتَنِبُوا۟[1] كَبَآئِرَ مَا تُنْهَوْنَ عَنْهُ نُكَفِّرْ[2] عَنكُمْ سَيِّـَٔاتِكُمْ وَنُدْخِلْكُم مُّدْخَلًا كَرِيمًا ﴿٣١﴾ وَلَا تَتَمَنَّوْا۟ مَا فَضَّلَ ٱللَّهُ بِهِۦ بَعْضَكُمْ عَلَىٰ بَعْضٍ ۚ لِّلرِّجَالِ نَصِيبٌ مِّمَّا ٱكْتَسَبُوا۟ ۖ وَلِلنِّسَآءِ نَصِيبٌ مِّمَّا ٱكْتَسَبْنَ ۚ وَسْـَٔلُوا۟ ٱللَّهَ مِن فَضْلِهِۦٓ ۗ إِنَّ ٱللَّهَ كَانَ بِكُلِّ شَىْءٍ عَلِيمًا ﴿٣٢﴾ وَلِكُلٍّ جَعَلْنَا مَوَٰلِىَ[3] مِمَّا تَرَكَ ٱلْوَٰلِدَانِ وَٱلْأَقْرَبُونَ ۚ وَٱلَّذِينَ عَقَدَتْ أَيْمَـٰنُكُمْ[4] فَـَٔاتُوهُمْ نَصِيبَهُمْ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ كَانَ عَلَىٰ كُلِّ شَىْءٍ شَهِيدًا ﴿٣٣﴾ ﴾.

هدى من الآيات:

الحلقة الأولى في المجتمع الإسلامي هي الأسرة التي تحدثت عنها الآيات السابقة، حيث بينت حقوقها وأنظمتها، أما الحلقة الثانية فهي المرتبطة بسائر أبناء المجتمع الذين نظم القرآن علاقات بعضهم ببعض عبر كثير من سور القرآن، ولكن أشار إلى بعضها هنا لتكتمل الصورة، ولكي لا

---

(١) الاجتناب: المباعدة عن الشيء وتركه ومنه الأجنبي.
(٢) التكفير: أصله الستر.
(٣) موالي: أصل المولى من ولي الشيء يليه ولاية وهو اتصال الشيء بالشيء من غير فاصل.
(٤) الأيمان: جمع اليمين وهو اسم يقع على القَسَم والجارحة والقوة والأصل فيه الجارحة.

يقتصر الحديث عن الحقوق في إطار الأسرة الصغيرة، بل تتعداها إلى الأسرة الكبرى وهي المجتمع.

والحقوق الاجتماعية هي:

- حرمة المال.
- حرمة الدم.
- الوفاء بالعقود.
- تكافؤ الفرص.
- احترام الميراث....

تحدث القرآن: عن حرمة المال (احترام الملكية الخاصة) ثم عن الدم، لأن الاعتداء على المال هو السبب المباشر للاعتداء على النفس غالباً.

وبين القرآن أن المحرمات الاجتماعية هي أهم وأكبر ذنب من المحرمات الأخرى، وأن الذي يتجنبها يكفر الله عنه سيئاته الأخرى، ذلك لأن الالتزام بهذا الجانب من الدين أصعب كثيراً من الالتزام بالجوانب الشخصية، ولذلك تجد الكثير من الناس يفرغون الدين من محتوياته الاجتماعية تماماً، فاختص التحذير من قبل الله بهم...

وفي الآية الأخيرة ذكرنا الله بالإرث، باعتباره سبباً من أسباب التفاضل في المجتمع المسلم...

بينات من الآيات:

حرمة المال والنفس

[٢٩] الإنسان محترم، ويحترم كل ما يمت بصلة إليه، والمال جزء من جهد الإنسان، وبالتالي جزء من الإنسان والاعتداء عليه حرام لأنه اعتداء على كرامته، ومن يعتدي على كرامة الناس فلا بد أن يستعد لاعتداء الآخرين عليه...

لذلك تجد التعبير القرآني يوجه الخطاب للجميع ويأمرهم باحترام حقوق بعضهم ويقول: ﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ لَا تَأۡكُلُوٓاْ أَمۡوَٰلَكُم بَيۡنَكُم بِٱلۡبَٰطِلِ ﴾ لأنه لو لم تحكم قيمة الاحترام المالي أوساط المجتمع، فإن كل فرد سوف يعاني من الاعتداء في يوم من الأيام، إذن لندع أكل الأموال بالطرق الباطلة...

والطرق الباطلة هي كل ما ترفضه قيم الدين، ولا تكون خاضعة للتجارة المتراضى

عليها، فأكل الأموال بالقمار أو بيع الخمر والمخدرات، أو بالاحتيال والسرقة والنهب باطل وحرام، والاستثناء الوحيد هو التجارة بتراضٍ وتعني أمرين:

الأول: أن تكون تجارة، أي تدويرا للمال بالطرق المشروعة (البيع، الإيجار، الرهن) فلا يجوز أكل الأموال غصباً أو احتيالاً.

الثاني: أن تكون هذه التجارة بعيدة عن الإكراه، والجبر، أو الغش، والخداع، لان ذلك يفقد شرط التراضي...

وهذه القاعدة توضح أن كل العقود التجارية التي يتراضى عليها الطرفان صحيحة حسب الرؤية الإسلامية، إلا إذا خالفت شرطاً أكيداً من الشروط المبينة في الدين (كالتجارة بالحرام) مما يعطي التشريع الإسلامي مرونة كافية لمواكبة تطور الحاجات الاجتماعية ﴿إِلَّآ أَن تَكُونَ تِجَـٰرَةً عَن تَرَاضٍ مِّنكُمْ﴾

وبعد المال يأتي دور النفس، التي تبقى مصونة إذا حافظنا على الحقوق المالية المتبادلة، فالغني الذي يحافظ على حقوق الفقراء لا تتعرض حياته للخطر لأنه لا يدع سبباً لثورة الفقير وتمرده ﴿وَلَا تَقْتُلُوٓاْ أَنفُسَكُمْ﴾

إن الإنسان لا يصل إلى درك الاعتداء على الأنفس إلا إذا هبط إليه شيئاً فشيئاً بسبب الاعتداء على الأموال، حيث يخلق في ذاته الكراهية والقلق وحب الجريمة، وكثيراً ما ينساق إلى جريمة الاعتداء على النفس لتعبيد الطريق أمام اعتدائه على المال.

﴿إِنَّ ٱللَّهَ كَانَ بِكُمْ رَحِيمًا﴾ فحرم عليكم الاعتداء على المال والنفس ليرحمكم، وينجيكم من عذاب بعضكم.

[٣٠] ومن يعتدي على حقوق الناس (أموالهم وأنفسهم) اعتداءً مع سبق الإصرار، ويقوم فعلاً باغتصاب حقوق الآخرين، فإن الله يعذبه عذاباً أليماً.. ﴿ وَمَن يَفْعَلْ ذَٰلِكَ عُدْوَٰنًا وَظُلْمًا فَسَوْفَ نُصْلِيهِ نَارًا ۚ وَكَانَ ذَٰلِكَ عَلَى ٱللَّهِ يَسِيرًا ﴾.

اجتناب الظلم غفران الذنب

[٣١] إن الظلم الاجتماعي أشد الظلم، وإن اجتناب هذا الظلم يشفع للإنسان في سائر سيئاته، لا يعتدي على الناس في أموالهم وأنفسهم قد يشفع له التزامه بحقوق الناس في غفران ذنبه.

إن عمل الإنسان الصالح يشفع له في عمله السيئ، ولكن بشرط أن يكون العمل الصالح أكبر من السيئة، قال الله تعالى: ﴿إِنَّ ٱلْحَسَنَٰتِ يُذْهِبْنَ ٱلسَّيِّـَٔاتِ﴾ [هود: ١١٤].

﴿إِن تَجْتَنِبُوا۟ كَبَآئِرَ مَا تُنْهَوْنَ عَنْهُ﴾ مثل الشرك بالله، وظلم الناس، وقتل النفس المحترمة و... و... الخ..

﴿نُكَفِّرْ عَنكُمْ سَيِّـَٔاتِكُمْ﴾ أي نسترها بعملكم الصالح، حتى لا تحاسبوا عليها تماماً كما يُكَفِّرُ الفلاَّح البذرة في الأرض ويجعلها تحت التراب...

﴿وَنُدْخِلْكُم مُّدْخَلًا كَرِيمًا﴾ ذلك المدخل الكريم هو الفلاح في الدنيا، والسعادة في الآخرة، ذلك أن الإنسان الذي يسيطر على أهوائه في الذنوب الصغيرة يوفقه الله للسيطرة على ذاته في الذنوب الكبيرة فتكون حياته كريمة، والحياة الكريمة هي التي تتوفر فيها الحاجات الجسدية والنفسية معاً، وهذه الحياة سوف تساعد صاحبها على بلوغ الجنة.

والمدخل: الباب الذي يدخل الله عباده منه.

لا تحسد الآخرين

[٣٢] من عوامل الشقاء البشري الحسد، وهو صفة نفسية نابعة من قصر الرؤية وضيق الصدر، حيث يزعم الإنسان أن نعم الله محدودة، وأن فرص الحياة قد انتهت.. ولذلك فهو يتمنى لو يَفْقُدُ الآخرون النعم ليحصل هو عليها، بينما المفروض أن يفكر في الحصول عليها كما حصل أولئك عليها بالطرق المشروعة... وبالطبع يسبب الحسد عقداً نفسية مؤلمة تنعكس على السلوك فإذا بصاحبها يحاول منع الآخرين من التقدم والاستمتاع بالحياة.

إن التاجر المحتكر، والسلطان الظالم، والرئيس المستبد، والعالم العنيد، والفقير الكسول الذي لا يفتر عن اجترار الآهات، إنهم جميعاً حساد يريدون استلاب ما في أيدي الناس.

ويضع الله لهؤلاء علاجاً نفسيًّا عبر النقاط التالية:

- إن الله هو الذي فضل الناس بعضهم على بعض، والله عادل لا يظلم ولا يسأل عما يفعل.

- إن الله لم يفضل أحدا إلا بما اكتسبه بجهده، سواء كان رجلاً أو امرأة، وأنت إذا اجتهدت حصلت على ذلك الفضل مثله.

- فبدلاً من تمني ما عند الناس لماذا لا تتمنى ما عند الله، وتتحرك أنت أيضاً كما تحرك

أولئك الذين فضلهم الله وتجهد نفسك، والله يعلم جهدك ويعطيك مثلما أعطاهم.

﴿وَلَا تَتَمَنَّوْاْ مَا فَضَّلَ ٱللَّهُ بِهِۦ بَعْضَكُمْ عَلَىٰ بَعْضٍ لِّلرِّجَالِ نَصِيبٌ مِّمَّا ٱكْتَسَبُواْ وَلِلنِّسَآءِ نَصِيبٌ مِّمَّا ٱكْتَسَبْنَ وَسْـَٔلُواْ ٱللَّهَ مِن فَضْلِهِۦٓ إِنَّ ٱللَّهَ كَانَ بِكُلِّ شَىْءٍ عَلِيمًا﴾.

- وإذا استطاع المجتمع أن ينطلق من قاعدة تكافؤ الفرص، والاعتقاد، بأن كل من يعمل يحصل على نصيبه فإن تناحره وتباغضه يتحول إلى تنافس بَنَّاء يخدم المجتمع.

الإرث عامل تفاضلي

[٣٣] وقد لا يكون الفرد قد اكتسب شيئًا بنفسه، ولكنه ورث والده الذي حصل على المال بجهده، وقد فضل الله الإبن على الآخرين في الرزق كرامة لأبيه، وتشجيعاً له وللآخرين أن يعملوا وينشطوا في الإنتاج.

من هنا عاد القرآن وذكر الإرث باعتباره من عوامل التفاضل الاجتماعي وقال: ﴿وَلِكُلٍّ جَعَلْنَا مَوَٰلِىَ مِمَّا تَرَكَ ٱلْوَٰلِدَانِ وَٱلْأَقْرَبُونَ﴾ أي أورثنا كل إنسان مواليه الذين هم أولى الناس به، وتشجيعاً له على العمل وبذلك أعطينا تركة الوالدين والأقربين لألصق الناس بهم.

﴿وَٱلَّذِينَ عَقَدَتْ أَيْمَٰنُكُمْ فَـَٔاتُوهُمْ نَصِيبَهُمْ﴾ وهذه الفئة هي التي تمتُّ للعائلة بصلة عن طريق عقد التحالف، فأمر القرآن أن يعطى لهم نصيب من الإرث حسب التعاقد. وتسمى هذه الفئة بـ(ضامن الجريرة) وهي ترث وتورث حسب الاتفاق.

وفي الوطن الإسلامي الكبير حيث ينفصل الكثير من الناس عن مواطنهم الأصلية، فيحتاجون إلى أسرة ينتمون إليها ويتبادلون معها الحب والتعاون في شؤون الحياة، هنالك شرع الإسلام قانون التحالف، وتحدث هنا عن جانبه الاقتصادي حيث يصبح الفرد كواحد من أبناء الأسرة يرثها ويورثها ويضاعف هذا القانون من قوة التحالف والتماسك، ويجعل للأفراد مأوىً اجتماعياً يلجؤون إليه في مواجهة صعوبات الحياة.

ولكن بما أن بعض الناس يمكن أن يخونوا تحالفهم مع هؤلاء الضعفاء، لذلك حذر القرآن من ذلك وقال: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ كَانَ عَلَىٰ كُلِّ شَىْءٍ شَهِيدًا﴾ فلا تفكروا في نقض الميثاق، ونكث الحلف.

الحقوق الاجتماعية في القرآن

﴿ٱلرِّجَالُ قَوَّٰمُونَ عَلَى ٱلنِّسَآءِ بِمَا فَضَّلَ ٱللَّهُ بَعْضَهُمْ عَلَىٰ بَعْضٍ وَبِمَآ أَنفَقُواْ مِنْ أَمْوَٰلِهِمْ ۚ فَٱلصَّٰلِحَٰتُ قَٰنِتَٰتٌ حَٰفِظَٰتٌ لِّلْغَيْبِ بِمَا حَفِظَ ٱللَّهُ ۚ وَٱلَّٰتِى تَخَافُونَ نُشُوزَهُنَّ (١) فَعِظُوهُنَّ وَٱهْجُرُوهُنَّ (٢) فِى ٱلْمَضَاجِعِ (٣) وَٱضْرِبُوهُنَّ ۖ فَإِنْ أَطَعْنَكُمْ فَلَا تَبْغُواْ عَلَيْهِنَّ سَبِيلًا ۗ إِنَّ ٱللَّهَ كَانَ عَلِيًّا كَبِيرًا ﴿٣٤﴾ وَإِنْ خِفْتُمْ شِقَاقَ (٤) بَيْنِهِمَا فَٱبْعَثُواْ حَكَمًا مِّنْ أَهْلِهِۦ وَحَكَمًا مِّنْ أَهْلِهَآ إِن يُرِيدَآ إِصْلَٰحًا يُوَفِّقِ (٥) ٱللَّهُ بَيْنَهُمَآ ۗ إِنَّ ٱللَّهَ كَانَ عَلِيمًا خَبِيرًا ﴿٣٥﴾ ۞ وَٱعْبُدُواْ ٱللَّهَ وَلَا تُشْرِكُواْ بِهِۦ شَيْـًٔا ۖ وَبِٱلْوَٰلِدَيْنِ إِحْسَٰنًا وَبِذِى ٱلْقُرْبَىٰ وَٱلْيَتَٰمَىٰ وَٱلْمَسَٰكِينِ وَٱلْجَارِ ذِى ٱلْقُرْبَىٰ (٦) وَٱلْجَارِ (٧) ٱلْجُنُبِ وَٱلصَّاحِبِ بِٱلْجَنۢبِ وَٱبْنِ ٱلسَّبِيلِ وَمَا مَلَكَتْ أَيْمَٰنُكُمْ ۗ إِنَّ ٱللَّهَ لَا يُحِبُّ مَن كَانَ مُخْتَالًا (٨) فَخُورًا ﴿٣٦﴾

---

(١) نشوزهن: النشوز الترفع على الزوج.
(٢) اهجروهن: اتركوهن.
(٣) المضاجع: جمع مضجع وهو محل النوم وفراشه وأصل الضجوع الاستلقاء
(٤) شقاق: خلاف.
(٥) التوفيق: الموافقة وهي المساواة في أمر ما، والتوفيق: هو اللطف الذي ينفق عنده فعل الطاعات، والتوفيق بين اثنين: الإصلاح بينهما.
(٦) الجار ذي القربى: القريب.
(٧) الجار: أصله من العدول ، يقال: جاوره ، يجاوره ، مجاورة ، وجوار ، فهو مجاور له ، وجار له بعدوله إلى ناحيته في مسكنه
(٨) مختالًا: أصل المختال من التخيل وهو التصور لأنه يتخيل بحاله مرح البطر. والمختال: الصلف التياه.

﴿الَّذِينَ يَبْخَلُونَ(١) وَيَأْمُرُونَ النَّاسَ بِالْبُخْلِ وَيَكْتُمُونَ مَا آتَاهُمُ اللَّهُ مِن فَضْلِهِ وَأَعْتَدْنَا لِلْكَافِرِينَ عَذَابًا مُّهِينًا (٣٧) وَالَّذِينَ يُنفِقُونَ أَمْوَالَهُمْ رِئَاءَ النَّاسِ وَلَا يُؤْمِنُونَ بِاللَّهِ وَلَا بِالْيَوْمِ الْآخِرِ وَمَن يَكُنِ الشَّيْطَانُ لَهُ قَرِينًا فَسَاءَ قَرِينًا(٢) (٣٨) وَمَاذَا عَلَيْهِمْ لَوْ آمَنُوا بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الْآخِرِ وَأَنفَقُوا مِمَّا رَزَقَهُمُ اللَّهُ وَكَانَ اللَّهُ بِهِمْ عَلِيمًا (٣٩) إِنَّ اللَّهَ لَا يَظْلِمُ(٣) مِثْقَالَ ذَرَّةٍ وَإِن تَكُ حَسَنَةً يُضَاعِفْهَا وَيُؤْتِ مِن لَّدُنْهُ أَجْرًا عَظِيمًا (٤٠) فَكَيْفَ إِذَا جِئْنَا مِن كُلِّ أُمَّةٍ بِشَهِيدٍ وَجِئْنَا بِكَ عَلَىٰ هَٰؤُلَاءِ شَهِيدًا (٤١) يَوْمَئِذٍ يَوَدُّ الَّذِينَ كَفَرُوا وَعَصَوُا الرَّسُولَ لَوْ تُسَوَّىٰ بِهِمُ الْأَرْضُ وَلَا يَكْتُمُونَ اللَّهَ حَدِيثًا (٤٢)﴾.

هدى من الآيات:

في هذا الدرس يبين القرآن الحقوق والواجبات الاجتماعية، ابتداءً من الحقوق المتبادلة بين الزوجين، ومروراً بحق الأقارب والمحرومين، وانتهاءً بحق المجتمع في ثروة الأغنياء.

وفي الدرس القادم يتابع القرآن الحديث عن حق العلم وواجب رجال العلم عموماً، ورجال العلم الديني خصوصاً، تجاه العلم وتجاه المجتمع.

وخلال حديثه عن حقوق هؤلاء يوصينا القرآن بضرورة تحديدها في إطار القيم الإسلامية، حتى لا يتحول أي واحد منهم إلى طاغوت اجتماعي يطاع من دون الله.

للزوج حقوقه ولكن في إطار طاعة الله، وطاعة رسوله، وأولي الأمر ممن أمر الله بطاعتهم، وإذا أراد الزوج تجاوز هذا الإطار، فعلى الزوجة أن ترد عليه وتطرده بالقوة، وإلا فإنها تصبح مشركة وعابدة للطاغوت، لأن كل من أطيع من دون الله فهو طاغوت.

وكذلك للوالدين حقوقهم بشرط ألا يتبعهم المسلم في كل ما زعموه، أو فعلوا من أفكار أو أعمال، وإلا فإن الإحسان إلى الوالدين يتحول إلى عبادة ممقوتة لهما وشرك واضح.

---

(١) البخل: أصله مشقة العطاء، أو أنّه منع الواجب.
(٢) القرين: أصله الاقتران، والقرين: الصاحب المألوف.
(٣) الظلم: هو الألم الذي لا نفع فيه، وأصله وضع الشيء في غير موضعه.

وهكذا رجال المال لهم احترامهم، ولكن إذا بخلوا بأموالهم فهم أسوأ الناس، وعلى المجتمع أن يسقطهم من عينه، حتى لا يصبح هؤلاء طبقة تستعبد الناس طغياناً وظلماً.

وهكذا رجال العلم والدين لهم حقوقهم، ولكن دون أن يصبح هؤلاء طبقة طاغية تعبد من دون الله.

بينات من الآيات:

لماذا قيمومة الرجل؟

[٣٤] لابد للمجتمع من التنظيم، ولابد للتنظيم من قيم تحكمه، وتحد من طغيانه وتجاوزه، ويبدأ التنظيم في الأسرة وبالذات في العلاقة بين الزوج والزوجة، من يقود الآخر؟.

إن اللاقيادة فوضى يرفضها الإسلام، كما ترفضها الطبيعة، حيث أن الله خلق الذكر بحيث جُبل على حب القيادة، بينما خلق الأنثى وفطرها على الانسجام والطاعة.

ولذلك حدثت تجاوزات من قبل الذكر في حقوق الأنثى، وجاءت رسالات السماء لتحد من هذه التجاوزات، ولتضع حدوداً حاسمة لقيادة الذكر للأنثى.

من هنا نستطيع أن نؤكد: أن إعطاء الإسلام حق القيادة للرجل داخل الأسرة ليس سوى تقرير للوضع القائم فطريًّا، فهو لم يبدع حقيقة بل أقرَّبها تمهيداً لتنظيم القيادة، وتحديد إطار مناسب لها يمنع الزوج من تجاوزه.

القرآن يسمي النظام بـ (القيام)، ويسمي المنظم بـ (القيم) و(القائم بالأمر)، والقائم يبالغ فيه ويقال قوام (مثل ضارب، ضراب، صائم، صوام، وهكذا) وقد استخدم القرآن هنا كلمة قوام للتعبير عن تحمل الرجال لتنظيم شؤون نسائهم بشكل مستمر، ويحمل هذا اللفظ معنى المسؤولية التامة عن شؤونهم. ﴿ٱلرِّجَالُ قَوَّٰمُونَ عَلَى ٱلنِّسَآءِ بِمَا فَضَّلَ ٱللَّهُ بَعْضَهُمْ عَلَىٰ بَعْضٍ وَبِمَآ أَنفَقُواْ مِنْ أَمْوَٰلِهِمْ﴾.

ويُبيّن القرآن حكمة ذلك، فيقول بسببين:

١- بالجهد الذي يبذله هؤلاء، ذلك الجهد الذي يجعل بعض الرجال أفضل من بعض في المراتب الاجتماعية، فبعضهم يصبح غنيًّا، والبعض فقيراً، وبعضهم يصبح مفكراً، والبعض عاملاً... وهكذا وكذلك الرجال أكثر جهداً وأصعب عملاً من النساء، ولذلك تحملوا

المسؤولية دون النساء.

ولأننا نقبل تفاضل الرجال فيما بينهم بسبب الجهد الذي يبذله البعض دون الآخر، فلابد أن نقبل أفضلية الرجال على النساء لذات السبب.

٢- بالعطاء، فعلى الرجال أن ينفقوا على النساء، بل إن طبيعة الرجال وفطرتهم الصافية تدفعهم إلى الإنفاق على النساء، وقد بين التشريع السماوي هذه الطبيعة، وفرض على الرجال الإنفاق على النساء.

وبكلمة: المسؤول (والقائد والمنظم) يجب أن يكون الأكثر جهداً والأكثر إنفاقاً من النساء، ولذلك فهم المسؤولون الطبيعيون عن الأسرة، وسوف يفقدون هذه المسؤولية بقدر توانيهم عن العمل أو العطاء.

وإذا كانت القيادة للرجال، فعلى النساء الطاعة، فالمرأة الصالحة هي الأكثر طاعة لله ولزوجها، والأكثر حفظاً لفرجها الذي اختص به الزوج، ولقد زود الله المرأة بالحياء الفطري والعلاقة الرقيقة بالزوج، وأمرها بأن تحفظ نفسها عن التعلق بغير الزوج وقال: ﴿فَٱلصَّٰلِحَٰتُ قَٰنِتَٰتٌ حَٰفِظَٰتٌ لِّلۡغَيۡبِ بِمَا حَفِظَ ٱللَّهُۚ﴾ حافظات للغيب: أي تحفظ نفسها عن الزنا في غياب الزوج.

أما إذا تجاوزت المرأة حدها، ولم تطع الزوج في حقوقه، بل بدأت تنظر فيما وراء حصن الزوجية، هنالك يعطي الإسلام الحق للزوج بأن يفرض النظام على مملكته داخل البيت بالقوة المتدرجة، فيبدأ بالنصيحة، ثم يبتعد عنها في الفراش ليشعرها بالوحدة، ثم يضربها ضرباً خفيفاً وقد جاء في الحديث (يضربها بالسواك[1]) كل ذلك ليعبر عن انزعاجه وغضبه من تصرفاتها.

ويبدو أن المرأة العادية تستجيب لهذه العقوبات، وعليه فلابد للزوج أن يقتصر عليها، ولا يستخدم العقوبات في فرض الظلم في البيت، بل فقط في فرض الحقوق، وليعلم الزوج أن الله أكبر منه، وأنه لو ظلم الزوجة فإن الله عزوجل سوف ينتصر لها ﴿وَٱلَّٰتِي تَخَافُونَ نُشُوزَهُنَّ فَعِظُوهُنَّ وَٱهۡجُرُوهُنَّ فِي ٱلۡمَضَاجِعِ وَٱضۡرِبُوهُنَّۖ فَإِنۡ أَطَعۡنَكُمۡ فَلَا تَبۡغُواْ عَلَيۡهِنَّ سَبِيلًاۗ إِنَّ ٱللَّهَ كَانَ عَلِيّٗا كَبِيرٗا﴾.

---

(١) روي في من لا يحضره الفقيه: ج٣ ص٥٢١: عن أبي عبدالله عليه السلام: «فَإِذَا نَشَزَتِ الْمَرْأَةُ كَنُشُوزِ الرَّجُلِ فَهُوَ خُلْعٌ فَإِذَا كَانَ مِنَ الْمَرْأَةِ فَهُوَ أَنْ لَا تُطِيعَهُ فِي فِرَاشِهِ وَهُوَ مَا قَالَ اللهُ عَزَّوَجَلَّ وَاللَّاتِي تَخافُونَ نُشُوزَهُنَّ فَعِظُوهُنَّ وَاهْجُرُوهُنَّ فِي الْمَضاجِعِ وَاضْرِبُوهُنَّ فَالْهَجْرُ أَنْ يُحَوِّلَ إِلَيْهَا ظَهْرَهُ وَالضَّرْبُ بِالسِّوَاكِ وَغَيْرِهِ ضَرْباً رَفِيقاً فَإِنْ أَطَعْنَكُمْ فَلا تَبْغُوا عَلَيْهِنَّ سَبِيلًا إِنَّ اللهَ كانَ عَلِيًّا كَبِيراً».

متى تبدأ مسؤولية المجتمع؟

[٣٥] متى تنتهي حدود القيادة التي منحت للزوج، وتبدأ مسؤولية المجتمع حين يكون الخلاف بينهما حادًّا وجذريًّا، فلم يكن الخلاف في بضعة حقوق تقصر فيها الزوجة، بل تهم متبادلة وحقوق ضائعة، هنا لا يجوز للزوج أن يفرض وجهة نظره على البيت، ويضيع حقوق الزوجة.

بل لابد أن يتدخل المجتمع قبل أن ينتهي الأمر إلى الطلاق، وذلك بأن يبعث أهل الزوج وأهل الزوجة حكمين يتفاوضان في الأمر، فإذا توصلا إلى حل فرضاه على الزوجين، وعلى هذين الحكمين أن يخلصا نيتهما حتى يجمع الله بهما بين الزوجين مرة أخرى، وإخلاص النية هو إرادة الإصلاح حقيقة ﴿ وَإِنْ خِفْتُمْ شِقَاقَ بَيْنِهِمَا فَابْعَثُوا حَكَمًا مِّنْ أَهْلِهِ وَحَكَمًا مِّنْ أَهْلِهَا إِن يُرِيدَا إِصْلَاحًا يُوَفِّقِ اللَّهُ بَيْنَهُمَا إِنَّ اللَّهَ كَانَ عَلِيمًا خَبِيرًا ﴾.

كيف تكون علاقاتك الاجتماعية؟

[٣٦] المجتمع الإسلامي يبنى على قاعدة التوحيد والتحرر، فهو لا يؤمن الا بالله، ولا يسلم إلا لمنهجه، ولا يعترف بأية قوة ضاغطة أو عقبة في طريق تطبيق شرائع الله.

عبادة الله هي التسليم له، وتفجير كل الطاقات وتوجيهها في قنوات منهجه.

والشرك بالله هو الخضوع لأية قيادة أخرى أو أية قوة اجتماعية من دون الله.

فالتسليم للوالدين بصفة مطلقة وأتباعهما بلا قيد أو شرط، شرك وعبودية لغير الله، وعقبة في طريق تقدم الإنسانية وتطورها.

والتسليم للأسرة مثل التسليم للوالدين شرك وعبودية، والتسليم للأغنياء شرك وعبودية وعقبة، والتسليم لرجال الكهنوت، أو رجال العلم شرك وعبودية وعقبة.

والمجتمع المسلم متحرر من كل ذلك التسليم، ومسلم وجهه لله الواحد القهار، ويردد مع إبراهيم -الأب الروحي لكل المجتمعات التوحيدية الخالصة- يردد: ﴿إِنَّ صَلَاتِي وَنُسُكِي وَمَحْيَايَ وَمَمَاتِي لِلَّهِ رَبِّ الْعَالَمِينَ ﴾ [الأنعام:١٦٢].

وفي هذه الآيات والآيات التي تأتي يبين القرآن نوع العلاقة التي يجب ان تحكم علاقتك بالناس، ابتداء من أقاربك وانتهاء برجال الدين، ومروراً بالمحرومين والأغنياء.

ويبدأ القرآن حديثه بالنهي عن علاقة الشرك، التي تعني التسليم المطلق، والأمر -بديلاً عنه- بعلاقة الإحسان فما هي هذه العلاقة؟.

إنها علاقة العطاء من اليد العليا، لا العطاء وأنت صاغر مكره، والفارق بينهما: أنك في حالة العطاء باليد العليا لم تفقد شخصيتك، ولم تتنازل عن عقلك وإرادتك واستقلالك وحريتك، أما في الصورة الثانية فإنك قد هبطت إلى درك العبودية.

إن الذين يطيعون آباءهم بعلة أنهم آباؤهم -سواء كان هؤلاء مهتدين أو ضالين- لايعقلون شيئاً، وهؤلاء ينطلقون في عبادتهم من الضعف والهزيمة، وبالتالي يفقدون صفة الإنسان، ويتحولون إلى آلة صماء تتحرك بلا إرادة.

أما الذين يحسنون لآبائهم دون أن يطيعوهم طاعة عمياء، وينفقون عليهم دون أن يتنازلوا عن حريتهم، فهم ينطلقون من موقع القوة، ويحققون أصالتهم، ويثبتون حريتهم واستقلالهم بذلك.

من هنا جاءت الكلمة الأولى في هذه الآية تقارن بين العبادة والإحسان فقالت: ﴿ ۞ وَٱعْبُدُوا۟ ٱللَّهَ وَلَا تُشْرِكُوا۟ بِهِۦ شَيْـًٔا ۖ وَبِٱلْوَٰلِدَيْنِ إِحْسَٰنًا ﴾ فالعبادة لله والطاعة له، وللوالدين وسائر أبناء المجتمع الإحسان.

﴿وَبِذِى ٱلْقُرْبَىٰ وَٱلْيَتَٰمَىٰ وَٱلْمَسَٰكِينِ ﴾ ذوو القربى هم رحمك الذين تشترك معهم في الأسرة أو العشيرة الواحدة، فعليك أن تحسن اليهم سواء كانوا أغنياء أو فقراء ولكن دون أن تعبدهم، وهذا يعني أنه لا يجوز لك أن تربط مصيرك بمصيرهم دون استقلال فكري لأنه جاهلية وشرك، ودون أن تخالف النظام الإسلامي في تأييدك للأقارب، ولا أن تنصرهم ضد المظلومين، وتجادل عنهم في الباطل، كما يفعل الجاهليون الجدد اليوم في مجتمعاتنا الفاسدة.

إن النظام العشائري مسموح به في المجتمع الإسلامي، بشرط أن يكون إطاراً للتعاون البنَّاء، والتفاعل الفكري والاجتماعي، دون أن يكون وسيلة للعصبية، وسحق حقوق الناس، وتجاوز قيم الرسالة.

وبعد الأقارب يأتي اليتيم، وعلى أبناء المجتمع ألا يحسبوا اليتيم فقيراً أو مسكيناً يحتاج إلى دعمهم المادي فحسب، بل عليهم أن يغدقوا عليه من حنانهم كما لو كان قريباً من أقاربهم، ولذلك فصله القرآن عن المساكين.

وفي المرحلة الثالثة يأتي المسكين وهو الذي أسكنه الفقر، ويجب أن تكون علاقتك

بالمسكين هي علاقتك بالوالدين العطاء دون خضوع أو تسليم، كما هي ذاتها علاقتك مع الأغنياء بلا فرق.

أما المرحلة الرابعة فيأتي دور الجار القريب، والجار الملاصق، وإذا كانت العلاقة بين الجيران (والذين كان تربطهم القرابة قديماً في الغالب) علاقة الإحسان، سَهُلَ التعاون بينهم، وتحولوا إلى قوة بناءة داخل المجتمع المسلم.

ذلك أن المجتمع المسلم يستفيد من كل العلاقات الطبيعية كالقرابة والجوار وغيرهما من أجل تأصيل جذور المجتمع في أنفس الأفراد وتحويلهم إلى كتلة صخرية تقاوم الانحرافات ولكن بعد أن يهذبها تهذيباً كاملاً ﴿وَٱلْجَارِ ذِى ٱلْقُرْبَىٰ وَٱلْجَارِ ٱلْجُنُبِ﴾ والجار الجنب: أي الملاصق.

ثم تأتي مرحلة الزمالة سواء كانت في الطريق، أو في الدراسة أو في الشغل، إنها إطار جيد للتعاون البنَّاء، بيد أن المشكلة هي حب الذات والتعالي والبخل والشح النفسي، مما يشكل عقبة في طريق التعاون، والإسلام يأمر بتصفية هذه العقبة عن طريق الإحسان.

فإنك حين تحسن إلى صاحبك بالجنب (زميلك). فإنك سوف تكسبه وتكسب وده وتمهد الطريق لتعاون بناء ﴿وَٱلصَّاحِبِ بِٱلْجَنۢبِ﴾.

والغريب الذي فقد ماله علينا أن نضيفه ونعينه حتى يعود إلى بلده، ومما ملكت أيدينا من أسراء الحرب علينا أن نحسن إليهم، فلا نتعالىَ فوقهم بالباطل لمجرد أننا أرفع درجة منهم في المجتمع ﴿وَٱبْنِ ٱلسَّبِيلِ وَمَا مَلَكَتْ أَيْمَٰنُكُمْ ۗ إِنَّ ٱللَّهَ لَا يُحِبُّ مَن كَانَ مُخْتَالًا فَخُورًا﴾.

البخل مرض الأغنياء

[٣٧] الجبل الراسي ينحدر منه السيل بقوة واندفاع، ولكن دون أن تتأثر صخوره الصلبة بأمواج السيل أو بهديره، كذلك المؤمن ينحدر منه الإحسان إلى كل جوانب الحياة، ولكن دون أن يسبب الإحسان في ضعفه أو استسلامه.

المؤمن لا يتعالى على الفقراء، وفي ذات الوقت لا يسمح أن يتعالى عليه الأغنياء، ولا يخضع لرجال العلم ولكنه لا يمنع نفسه فضلهم، بل يحسن إليهم كما يحسن إلى الفقراء دون فرق.

أما الأغنياء الذين يريدون أن يفرضوا عليه سلطانهم، فالمؤمن يثور عليهم ولا يخضع

أبداً لمالهم، ولا يخشى عقابهم. ولكن بما أن أغلب الأغنياء يفرضون سلطانهم على الضعفاء بشكل أو آخر، فإن القرآن بدأ حديثه في الآية السابقة عن سلبيات هذه الطبقة لإسقاطها في أنظار الناس، إلا إذا التزموا بشروط الطاعة لله والرسول والقيادة الإسلامية، والإنفاق في سبيل الله بإخلاص تام، وقال: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ لَا يُحِبُّ مَن كَانَ مُخْتَالًا فَخُورًا ﴾ وتسرد الآيات معالم المختال الفخور:

﴿ ٱلَّذِينَ يَبْخَلُونَ وَيَأْمُرُونَ ٱلنَّاسَ بِٱلْبُخْلِ وَيَكْتُمُونَ مَآ ءَاتَىٰهُمُ ٱللَّهُ مِن فَضْلِهِۦ ﴾.

المختال: هو المغرور بثروته أو أية ميزة أخرى له، والفخور هو المتظاهر بهذه الثروة والمتكبر بها على الناس، وهذه الصفة النفسية ناشئة من الشعور بالضعف والنقص، ومحاولة جبران هذا الشعور بالاختيال والفخر والتكبر.

إن الإنسان يختال بنعم الله عليه، ويتطاول على الناس بها، والطبقة الغنية هي الأكثر تعرضاً لخطر هذه الصفة. أما المارسات السلوكية التي تفرزها هذه الصفة السيئة فهي البخل، لأن المختال بماله يخشى أن ينفلت المال من يديه فيفقد شخصيته، ولذلك يحرص على المال حرصه على حياته وشخصيته وكرامته، ويعتبر المال القيمة الوحيدة في حياته.

ولكن البخيل المختال بماله سرعان ما يكتشف أن الذين ينفقون أموالهم يكتسبون شهرة واسعة وعلوًّا عند الناس، فيبدأ ينهى الناس عن الإنفاق حتى يصبحوا مثله ويجعل رسالته في الحياة الصد عن سبيل الإنفاق.

وحين يشتد ضغط الناس عليه بضرورة الإنفاق، تراه يكتم عن الناس ثرواته ويتظاهر بالفقر، وفي بعض الحالات يكتم المختال ثروته خوفاً عليها، وحفاظاً لها عن أعين المنافسين.

ويقع البخيل فيما هرب منه، أو ليس هرب من الفقر وما فيه من صفة إجتماعية وقيود مادية، فها هو عاد فجلب إلى ذاته كراهية الناس، كما قيد نفسه عن الإنفاق، وكتم نعم الله عليه ولم ينتفع بها، أوليس هذا فقراً أشد ألماً من عدم الفقراء ومسكنة الصعاليك، من هنا جاء في وصية أمير المؤمنين عليه السلام لابنه محمد بن الحنفية: «الْحِرْصُ فَقْرٌ حَاضِرٌ»[1].

وينهي القرآن الآية بهذه الكلمة: ﴿وَأَعْتَدْنَا لِلْكَٰفِرِينَ عَذَابًا مُّهِينًا ﴾ للإيحاء بأن كتمان نعم الله، والبخل بها، والاختيال والفخر، إنما هي كفر بالله ومما آتاه الله للإنسان من نعم

(١) من لا يحضره الفقيه: ج٤ ص٣٨٩.

الحياة، وبالنسبة للمختال يهيئ له الله عذاباً مهيناً، جزاء تطاوله على الناس وتكبره عليهم.

المرائي شيطان ناطق

[٣٨] بلى، طبقة الأغنياء تنفق المال ولكن لمن؟ ولماذا؟.

إنها تنفق المال لأولئك المتملقين الذين يكيلون لهم الثناء الباطل بغير حساب، ويزينون للناس صورتهم القبيحة، وهم يقصدون من وراء ذلك امتصاص المزيد من جهد الناس وحقوقهم.

وهذه الطبقة المتملقة يسميها القرآن هنا شيطاناً لأنها تخدع صاحبها وتضله عن الصراط وتزين له أعماله السيئة ويقول: ﴿وَالَّذِينَ يُنفِقُونَ أَمْوَالَهُمْ رِئَاءَ النَّاسِ وَلَا يُؤْمِنُونَ بِاللَّهِ وَلَا بِالْيَوْمِ الْآخِرِ ۗ وَمَن يَكُنِ الشَّيْطَانُ لَهُ قَرِينًا فَسَاءَ قَرِينًا﴾.

[٣٩] ولنتساءل من هؤلاء؟ ولماذا يكفرون بالله ولا ينفقون أموالهم إلا رياء؟ أو ليست هذه الأموال نعم الله عليهم، أولا ينبغي لهم شكر الله على نعمه بالإيمان به والإنفاق في سبيله؟. وما الذي يخشى هؤلاء من الإيمان والإنفاق؟ هل يخشون أن يسلب الله نعمه عنهم لو أنفقوها في سبيله؟ أم يخشون أن لا يجازيهم عليها؟.

﴿وَمَاذَا عَلَيْهِمْ لَوْ آمَنُوا بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الْآخِرِ وَأَنفَقُوا مِمَّا رَزَقَهُمُ اللَّهُ ۚ وَكَانَ اللَّهُ بِهِمْ عَلِيمًا﴾

[٤٠] ﴿إِنَّ اللَّهَ لَا يَظْلِمُ مِثْقَالَ ذَرَّةٍ ۖ﴾ فهو يجازي الناس بالضبط، وإذا كفر شخص بقدر وزن ذرة صغيرة، فإنه يجازيه بقدر كفره.

أما إذا أحسن بهذا القدر فهو ليس يجازيه فحسب، بل ويزيد له من رحمته ﴿وَإِن تَكُ حَسَنَةً يُضَاعِفْهَا وَيُؤْتِ مِن لَّدُنْهُ أَجْرًا عَظِيمًا﴾ يضاعفها في الدنيا، ويجزي عليها بثواب عظيم في الآخرة.

من هو القائد؟

[٤١] طبقة الأغنياء تتعالى على الناس بالباطل، وتتعالى على القيادة الشرعية، وتحاول التمرد عليها خصوصاً في إعطاء حقوقها من الضرائب الشرعية.

من هنا جاء ذكر الرسول ﷺ باعتباره القيادة الشرعية، وبين الله أن الرسول ﷺ هو القائد الحقيقي للناس، فإذا لم يطعه شخص في الدنيا فإنه في الآخرة شهيد عليه، وهنالك يتمنى

هذا الشخص أنه كان تحت التراب ولم يعص الله، ويكتم نعم الله عليه ويقول كذباً أن ليس لله عليه حقوق كما تفعل طبقة الأغنياء ﴿ فَكَيْفَ إِذَا جِئْنَا مِن كُلِّ أُمَّةٍ بِشَهِيدٍ وَجِئْنَا بِكَ عَلَىٰ هَٰٓؤُلَآءِ شَهِيدًا ﴾.

[٤٢] ﴿ يَوْمَئِذٍ يَوَدُّ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ وَعَصَوُا۟ ٱلرَّسُولَ لَوْ تُسَوَّىٰ بِهِمُ ٱلْأَرْضُ وَلَا يَكْتُمُونَ ٱللَّهَ حَدِيثًا ﴾ تسوى بهم الأرض تعبير رائع للدلالة على أنهم يودون لو كانوا تحت التراب بحيث لا يبقى لهم أثر ظاهر عليه.

مسؤولية العلم وخطر الانحراف

﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ لَا تَقْرَبُوا۟ ٱلصَّلَوٰةَ وَأَنتُمْ سُكَٰرَىٰ(١) حَتَّىٰ تَعْلَمُوا۟ مَا تَقُولُونَ وَلَا جُنُبًا إِلَّا عَابِرِى(٢) سَبِيلٍ حَتَّىٰ تَغْتَسِلُوا۟ وَإِن كُنتُم مَّرْضَىٰٓ أَوْ عَلَىٰ سَفَرٍ أَوْ جَآءَ أَحَدٌ مِّنكُم مِّنَ ٱلْغَآئِطِ(٣) أَوْ لَٰمَسْتُمُ(٤) ٱلنِّسَآءَ فَلَمْ تَجِدُوا۟ مَآءً فَتَيَمَّمُوا۟(٥) صَعِيدًا(٦) طَيِّبًا فَٱمْسَحُوا۟ بِوُجُوهِكُمْ وَأَيْدِيكُمْ ۗ إِنَّ ٱللَّهَ كَانَ عَفُوًّا غَفُورًا ﴿٤٣﴾ أَلَمْ تَرَ إِلَى ٱلَّذِينَ أُوتُوا۟ نَصِيبًا مِّنَ ٱلْكِتَٰبِ يَشْتَرُونَ ٱلضَّلَٰلَةَ وَيُرِيدُونَ أَن تَضِلُّوا۟ ٱلسَّبِيلَ ﴿٤٤﴾ وَٱللَّهُ أَعْلَمُ بِأَعْدَآئِكُمْ ۚ(٧) وَكَفَىٰ بِٱللَّهِ وَلِيًّا وَكَفَىٰ بِٱللَّهِ نَصِيرًا ﴿٤٥﴾ مِّنَ ٱلَّذِينَ هَادُوا۟ يُحَرِّفُونَ ٱلْكَلِمَ عَن مَّوَاضِعِهِۦ وَيَقُولُونَ سَمِعْنَا وَعَصَيْنَا وَٱسْمَعْ غَيْرَ مُسْمَعٍ وَرَٰعِنَا لَيًّۢا(٨) بِأَلْسِنَتِهِمْ وَطَعْنًا فِى ٱلدِّينِ ۚ وَلَوْ أَنَّهُمْ قَالُوا۟ سَمِعْنَا وَأَطَعْنَا وَٱسْمَعْ وَٱنظُرْنَا لَكَانَ خَيْرًا لَّهُمْ وَأَقْوَمَ وَلَٰكِن لَّعَنَهُمُ ٱللَّهُ بِكُفْرِهِمْ فَلَا يُؤْمِنُونَ إِلَّا قَلِيلًا ﴿٤٦﴾ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ أُوتُوا۟ ٱلْكِتَٰبَ ءَامِنُوا۟ بِمَا نَزَّلْنَا مُصَدِّقًا لِّمَا مَعَكُم مِّن قَبْلِ أَن نَّطْمِسَ(٩) وُجُوهًا فَنَرُدَّهَا عَلَىٰٓ

---

(١) سكارى: وأصلها من السكر وهو سد طريق الماء، وبالسكر ينسد طريق المعزمة (بغياب العقل).
(٢) عابري: من العبور للنهر وهو القطع من جانب إلى جانب آخر.
(٣) الغائط: أصله المطمئن من الأرض، وكانوا يتبرزون هناك ليغيبوا عن عيون الناس.
(٤) لامستم: واقعتم النساء.
(٥) التيمم: القصد، (في الشرع الطهارة الترابية).
(٦) صعيداً: وجه الأرض سواء كان تراباً أو غيره.
(٧) العداوة: الإبعاد من حال النصرة وضدها الولاية.
(٨) لياً: اللي الفتل، ولياً من لوى يلوي إذا حرف وأمال، ولي اللسان تحريكه لتحريف الكلام.
(٩) نطمس: الطمس عفو الأثر، وطمس الشيء إذهاب أثره.

أَدْبَارِهَآ(١) أَوْ نَلْعَنَهُمْ كَمَا لَعَنَّآ أَصْحَـٰبَ ٱلسَّبْتِ ۚ وَكَانَ أَمْرُ ٱللَّهِ مَفْعُولًا ﴿٤٧﴾ إِنَّ ٱللَّهَ لَا يَغْفِرُ أَن يُشْرَكَ بِهِۦ وَيَغْفِرُ مَا دُونَ ذَٰلِكَ لِمَن يَشَآءُ ۚ وَمَن يُشْرِكْ بِٱللَّهِ فَقَدِ ٱفْتَرَىٰٓ إِثْمًا عَظِيمًا ﴿٤٨﴾ أَلَمْ تَرَ إِلَى ٱلَّذِينَ يُزَكُّونَ(٢) أَنفُسَهُم ۚ بَلِ ٱللَّهُ يُزَكِّى مَن يَشَآءُ وَلَا يُظْلَمُونَ فَتِيلًا(٣) ﴿٤٩﴾ ٱنظُرْ كَيْفَ يَفْتَرُونَ عَلَى ٱللَّهِ ٱلْكَذِبَ ۖ وَكَفَىٰ بِهِۦٓ إِثْمًا مُّبِينًا ﴿٥٠﴾ ﴾.

هدى من الآيات:

الآية الأولى تتناول التطهر وتثير هذا السؤال: لماذا هنا بالذات بين القرآن موضوع الطهارة الجسدية؟ ألم يكن من الأولى أن تتحدث عنها ضمن آيات الصلاة مثلاً؟.

الجواب: بالإضافة إلى طبيعة التفاعل بين الطهارة الجسدية (موضوع الآية) والطهارة الروحية (موضوع الآيات السابقة واللاحقة) فإن هناك جانباً أساسيًّا آخر يبينه لحن ألفاظ القرآن هو الجانب الاجتماعي من الطهارة، حيث يتحمل الإنسان مسؤولية النظافة رعاية لمشاعر الآخرين، فحين يدخل المسجد ويتواجه مع المجتمع فيه عليه أن يكون نظيفاً من السكر والجنابة، فحتى لو لم يستطع التطهر بالماء، فعليه أن يتطهر بالتراب ليرفع عن نفسه قذرات الجنابة أو الغائط.

وبعد الحديث عن هذه المسؤولية يتناول القرآن مسؤولية العلم، باعتباره أداة فعالة لبناء المجتمع إذا استخدم بأمانة، أو هدمه لو خان صاحبه الأمانة.

وعلم الدين هو أبرز مظاهر العلم، وهؤلاء الذين يدعون علم الدين (وهم في الواقع لا يعرفون منه إلا قليلاً) ويخونون أمانة العلم في أعناقهم من أجل مصالح عاجلة وزهيدة، هؤلاء يضلون الناس بدل أن يهدوهم، ويحرفون كلام الله، وينافقون مع رسله، وعاقبة هؤلاء لعنة في الدنيا وعذاب في الآخرة، حيث تنحرف عنهم الجماهير في الدنيا، ويحاسبهم الله في الآخرة حساب المشركين.

ومن صفة هؤلاء أنهم يزكون أنفسهم، ويجعلونها فوق الجميع، ويكذبون على الله، ويفضلون قيادة الظلمة (الطواغيت) على قيادة الله ورسله.

---

(١) أدبار: جمع دبر وأصله من الدبر إذا صار خلفه.
(٢) يزكون: التزكية التطهير والتنزيه.
(٣) فتيلًا: الفتيل هو ما في شق النواة من خيط ضعيف.

ومن صفاتهم السيئة أنهم بخلاء، ويستغلون مناصبهم في بلاد الطواغيت، من أجل التسلط على الناس وتحديد حرياتهم، وابتزازهم حسداً وبخلاً.

هذه بعض الصفات التي يبتلى بها هؤلاء المثقفون الذين يخونون أمانة الكتاب، فيحرفون فيه لقلء دراهم معدودة.

بينات من الآيات:

الاغتسال زكاة الجسد

[٤٣] الوضوء أو الاغتسال يهيئان المؤمن نفسيًّا وجسديًّا للدخول في محراب العبادة، فالذي يخوض في معارك التجارة، أو صراع العمل الشاق، يحتاج إلى بعض الوقت حتى ينقطع عن مؤثرات التجارة، وآثار العمل، ويستعد للقاء ربه. والوضوء أو الغسل يعطيه هذا الوقت، ويعزله مؤقتا من صخب الحياة، ويعطيه فرصة للتفكير الجاد في مجمل أحداث الدنيا بوعي وتعقل.

وبالإضافة إلى هذا الإعداد، فإن الغسل والوضوء يعطي المؤمن أناقة تساعد على تبادل الحب مع إخوانه، والتعاون معهم على البر والتقوى.

مظهر الشخص الذي لا يزال النعاس يملأ عينيه، والرائحة تتصاعد من حلقه، وتكسو وجهه آثار النوم والكسل، إن هذا المظهر لا يساعد على التعاون وتبادل الحب بين المسلمين.

وكذلك الذي يحمل في جسمه آثار المعاشرة الجنسية، أو قذارة الحاجة الطبيعية انه مظهر كريه، وإن دل على شيء فإنما يدل على إهانة الآخرين، وعدم القيام بواجب احترامهم.

من هنا بين القرآن في مجال حديثه عن المسؤوليات الاجتماعية، واجب الاغتسال والوضوء أو التيمم وقال: ﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ لَا تَقۡرَبُواْ ٱلصَّلَوٰةَ وَأَنتُمۡ سُكَٰرَىٰ ﴾ الصلاة عادة تكون في المساجد وبشكل جماعي، فالاقتراب منها اقتراب من الإخوة المؤمنين، ويدل على ذلك قوله بعدئذ: ﴿إِلَّا عَابِرِي سَبِيلٍ﴾ أي عابري السبيل من خلال المساجد.

والسكر هنا قد يكون سكر النوم، أو سكر الخمر قبل أن تصبح حراماً، أما بعد أن أصبحت محرمة فإن اقتراب المخمور من مجامع المسلمين يعتبر أشد حرمة، لأنها إهانة لمقدسات الأمة.

ويرتفع سكر النوم بالوضوء حيث يعود إلى الفرد رشده ويصبح كلامه بوعي كامل، ويتجنب المسلمون النزاعات التافهة التي تنشأ بسبب النعاس وابتداء الكلمات الشاذة من بعضهم، أو التي تنشأ بسبب فقدان الوعي بالخمر، لذلك أكد القرآن على أن الوعي شرط مسبق لمن يريد أن يقرب الصلاة وقال: ﴿حَتَّىٰ تَعْلَمُوا مَا تَقُولُونَ﴾.

ثم بين ضرورة التطهر من الجنابة باعتبارها قذارة جسدية ونفسية، ذلك أن التعامل مع المسلمين، أو مناجاة الله لا تكون مع جو المعاشرة الجنسية، بما فيها من انغماس في الشهوة، وابتعاد موقت عن الحياء الإنساني.

من هنا جاء الغسل ليكون تطهيراً للجسد من قذارات الجنابة، وإعداداً للروح للدخول في مجالات إنسانية أخرى.

﴿وَلَا جُنُبًا إِلَّا عَابِرِي سَبِيلٍ حَتَّىٰ تَغْتَسِلُوا﴾ ان الجنب لا يدخل المسجد الا بصورة عابرة، يدخل من باب ليخرج من باب آخر، كما لا يحضر تجمعات المسلمين الاخرى الا بشكل عابر.

وفي صورة تعذر الوضوء أو الغسل، على الفرد أن يستخدم التراب أداة لتطهير جسمه وإعداد نفسه، فإن التراب طهور يكفي صاحبه عشر سنين إذا استمر عذره.

﴿وَإِن كُنتُم مَّرْضَىٰ أَوْ عَلَىٰ سَفَرٍ أَوْ جَاءَ أَحَدٌ مِّنكُم مِّنَ الْغَائِطِ أَوْ لَامَسْتُمُ النِّسَاءَ فَلَمْ تَجِدُوا مَاءً فَتَيَمَّمُوا﴾ أي توجهوا إلى الأرض ﴿صَعِيدًا طَيِّبًا﴾ منطقة نظيفة من الأقذار.

﴿فَامْسَحُوا بِوُجُوهِكُمْ وَأَيْدِيكُمْ﴾ من ذلك الصعيد بعد أن تضربوا فيه أيديكم، وتمسحوا بها على الجبهة حتى الأنف، ثم على ظهر الكفين.

﴿إِنَّ اللَّهَ كَانَ عَفُوًّا غَفُورًا﴾ يسهل عليكم أمر الدين، ويجعل لكم بدل الماء تراباً تطهرون به أنفسكم.

الضلالة نتيجة الخيانة

[٤٤] هؤلاء فريق من الناس يخونون أمانة العلم في أعناقهم، ويشترون بعلمهم متاع الحياة الدنيا، ولكن هذا المتاع لا يأتيهم إلا مقروناً بالضلالة والانحراف عن الصراط المستقيم، فرجل العلم الديني الذي يسكت عن جرائم الظلمة لقاء سلامته، أو في مقابل بضعة دراهم، لابد أنه يبدأ في تأييد مواقف الظلمة، وبالتالي يفقد قدرته على التمييز بين الحق والباطل، بل ويصل إلى حد الدعوة إلى الباطل الذي يمثله الظلمة ﴿ أَلَمْ تَرَ إِلَى الَّذِينَ أُوتُوا نَصِيبًا مِّنَ الْكِتَابِ

﴿يَشْتَرُونَ ٱلضَّلَـٰلَةَ وَيُرِيدُونَ أَن تَضِلُّوا۟ ٱلسَّبِيلَ﴾، وقد عبر القرآن عن هؤلاء المُسمَّيْنَ بعلماء الدين بقوله ﴿ٱلَّذِينَ أُوتُوا۟ نَصِيبًا مِّنَ ٱلْكِتَـٰبِ﴾ استخفافاً بهم وبعقولهم، أنهم أنصاف المثقفين وليسوا علماء بالكامل.

الله نصير المؤمنين

[٤٥] يتظاهر هؤلاء الرهبان والأحبار وعلماء الدين الخونة، بالصلاح، وحب الناس، وطيبة القلب في نصائحهم، بينما هم بمقياس الله خونة، ولا أمان لخائن، إنهم سكتوا عن جرائم الطغاة بحق أمتهم فكيف بالآخرين؟!.

إن الإنسان المسلم ذكي، لا يأخذ الأشياء ببساطة الساذج، بل بالتقييم الموضوعي وفق مقاييس الله الذي هو أعلم بالعدو والصديق.

ويجب ألا نخشى من هؤلاء الدجالين المقنعين بقناع الدين، ولا نقول (قد) يكونون مقربين عند الله، بل علينا أن نتصل مباشرة بالله وبهداه في تقييم الناس، وهو يكفينا شر هؤلاء ﴿وَٱللَّهُ أَعْلَمُ بِأَعْدَآئِكُمْ وَكَفَىٰ بِٱللَّهِ وَلِيًّا وَكَفَىٰ بِٱللَّهِ نَصِيرًا﴾ الولي هو: الذي يلي الإنسان في القرب، أو يلي شؤونه ويقوم بها، وقد يكون للإنسان صديق عاجز ولكن الله ولي ينصر عباده.

كيف تعرف العالم المزيف؟

[٤٦] وإذا أردنا أن نعرف هذا الفريق من الناس، فما علينا إلا أن نلقي نظرة على صفاتهم التي من أبرزها تحريف الكتاب، وتأويل آياته في غير معانيها الصحيحة، فإذا أنزلت آية في سلطان جائر حرفوها حتى تنطبق على السلطان العادل، أو على الشعوب المطالبة بحقوقها. مثلاً: يحرفون كلمة الفتنة من معناها الحقيقي الذي يعني الظلم إلى معنى معارضة الظلم، وبدلاً من أن يسموا الحكام بالمفتنين ويصدروا بحقهم أحكام القرآن، تجدهم يؤلون ذلك في المجاهدين الحقيقيين، فيسمونهم بأصحاب الفتنة.

هؤلاء منافقون، يميِّعون قرارات القيادة، ويبررون مواقفهم الجبانة ببعض التبريرات السخيفة التي لا تعود إلى محصل.

﴿مِّنَ ٱلَّذِينَ هَادُوا۟ يُحَرِّفُونَ ٱلْكَلِمَ عَن مَّوَاضِعِهِۦ وَيَقُولُونَ سَمِعْنَا وَعَصَيْنَا وَٱسْمَعْ غَيْرَ مُسْمَعٍ﴾ أي أنهم بعد الاعتراف بالعصيان يحاولون تبريره، ويطلبون الاستماع لهم، إلا أن أقوالهم لا تستحق السماع.

﴿وَرَاعِنَا لَيًّا بِأَلْسِنَتِهِمْ وَطَعْنًا فِي الدِّينِ﴾ إن كلامهم واعتذارهم لا ينطلق من منطلق التوبة، بل من منطلق النفاق، والتمييع للقرارات، والمخالفة لها، وبالتالي الطعن في الدين وأصوله.

وكان الأفضل لمصلحة هؤلاء الشخصية، ولاستقامة حياتهم العامة، أن يطيعوا الله طاعة تامة، حتى إذا خدعتهم الدنيا عن الطاعة، تابوا إلى الله وطالبوا بإمهالهم فترة من الوقت لكي يطيعوا الله في المستقبل.

﴿وَلَوْ أَنَّهُمْ قَالُوا سَمِعْنَا وَأَطَعْنَا وَاسْمَعْ وَانظُرْنَا﴾ أي طلبوا الاستماع إلى أعذارهم بعد الإقرار بأصل الطاعة، وطالبوا بإمهالهم وإنظارهم، حتى يطبقوا القرارات في المستقبل.

﴿لَكَانَ خَيْرًا لَّهُمْ وَأَقْوَمَ﴾ أي أكثر نظماً لحياتهم (مقتبس من القيام بمعنى ما يقوم به الشيء).

ويبقى سؤال: لماذا خالف هؤلاء أوامر الله؟.

الجواب: لأنهم يكفرون بالله في واقع أمرهم، بالرغم من إيمانهم الظاهر، والله يبعد الكفار عن رحابه ﴿وَلَٰكِن لَّعَنَهُمُ اللَّهُ بِكُفْرِهِمْ فَلَا يُؤْمِنُونَ إِلَّا قَلِيلًا﴾.

ما هو مصير الخونة؟

[٤٧] والمصير الذي ينتظر هؤلاء الخونة من علماء الدين، أنهم يفقدون ثقة الجماهير بهم، وكأن وجوههم قد طمست معالمها، وأصبحت صفيحة ممسوخة لا تعرف، ويعودون إلى حالة ما قبل العلم، وكأنهم لم يحصلوا على علم الدين أبداً.

وبالإضافة إلى ذلك فإنهم ملعونون، ينزل عليهم صاعقة من قبل الله، كما فعل الله بالذين عصوه في تعطيل يوم السبت، فتحولوا إلى قردة وخنازير وهكذا يفعل الله بالخائنين ﴿ يَا أَيُّهَا الَّذِينَ أُوتُوا الْكِتَابَ آمِنُوا بِمَا نَزَّلْنَا مُصَدِّقًا لِّمَا مَعَكُم مِّن قَبْلِ أَن نَّطْمِسَ وُجُوهًا فَنَرُدَّهَا عَلَىٰ أَدْبَارِهَا أَوْ نَلْعَنَهُمْ كَمَا لَعَنَّا أَصْحَابَ السَّبْتِ ۚ وَكَانَ أَمْرُ اللَّهِ مَفْعُولًا ﴾.

الشرك نهاية المطاف

[٤٨] والنهاية المأساوية التي قد يصل إليها هؤلاء: هي (الشرك بالله)، وذلك بالاستسلام للطواغيت، وتمهيداً للحديث عن ذلك بين القرآن حقيقتين:

الأولى: أن الشرك افتراء عظيم على الله، وأن الله لن يغفره.

الثانية: أن هؤلاء يزكون أنفسهم باستمرار، ويجعلونها مقياساً للحق والباطل، ولذلك لا يقبلون الانتقاد، ولا هم يقيمون أنفسهم ويحاسبونها بدقة وموضوعية، وطبيعي في هؤلاء أن تنتهي مسيرتهم الضالة إلى الشرك.

﴿إِنَّ ٱللَّهَ لَا يَغْفِرُ أَن يُشْرَكَ بِهِۦ وَيَغْفِرُ مَا دُونَ ذَٰلِكَ لِمَن يَشَآءُ﴾ أي أن الله ذو المغفرة الواسعة، ومع ذلك لا يغفر للمشركين.

﴿وَمَن يُشْرِكْ بِٱللَّهِ فَقَدِ ٱفْتَرَىٰٓ إِثْمًا عَظِيمًا﴾ بالرغم من ان الشرك كذب عظيم، ولكنه في الواقع ممارسة عملية لهذا الكذب، ولذلك فهو إثم عظيم، من هنا تجد القرآن قد عبر أولاً بكلمة ﴿ٱفْتَرَىٰٓ﴾ للدلالة على الجانب النفسي والفكري في الكذب، ثم عبر ﴿إِثْمًا﴾ للدلالة على الجانب العملي منه.

الله مقياس الحق

[٤٩] ومن صفات هؤلاء تزكية أنفسهم، وجعلها مقياس الحق والباطل، وبينها الصحيح، أن يجعل الإنسان ربه مقياساً لذلك، فيقوِّم ذاته حسب قيم الله وأوامره.

﴿أَلَمْ تَرَ إِلَى ٱلَّذِينَ يُزَكُّونَ أَنفُسَهُم ۚ بَلِ ٱللَّهُ يُزَكِّى مَن يَشَآءُ﴾ والله عادل في تقييمه للبشر، ولذلك يجب ألا يتدخل البشر ذاته في هذا المجال خوفاً من إلحاق الظلم به ﴿وَلَا يُظْلَمُونَ فَتِيلًا﴾ أي بمقدار الخيط الموجود في شق نواة التمر.

[٥٠] وتزكية الذات هي افتراء على الله، وادعاء عليه بأنه قد طهر هؤلاء من الذنوب، وعصمهم من الزلل. وهؤلاء الخونة من علماء الدين لا يتورعون عن هذا الكذب، وهو إثم واضح إذ يسبب في إفساد المقاييس والقيم، وتشويش الرؤية، ودفع الناس إلى الضلالة.

﴿ٱنظُرْ كَيْفَ يَفْتَرُونَ عَلَى ٱللَّهِ ٱلْكَذِبَ ۖ وَكَفَىٰ بِهِۦٓ إِثْمًا مُّبِينًا﴾ إن الفرية على الله تكفي لإسقاط صاحبها عن الاعتبار، وسحق شخصيته الاجتماعية.

شروط قيادة العلماء

﴿ أَلَمْ تَرَ إِلَى ٱلَّذِينَ أُوتُوا۟ نَصِيبًا مِّنَ ٱلْكِتَٰبِ يُؤْمِنُونَ بِٱلْجِبْتِ وَٱلطَّٰغُوتِ[1] وَيَقُولُونَ لِلَّذِينَ كَفَرُوا۟ هَٰٓؤُلَآءِ أَهْدَىٰ مِنَ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ سَبِيلًا (٥١) أُو۟لَٰٓئِكَ ٱلَّذِينَ لَعَنَهُمُ[2] ٱللَّهُ ۖ وَمَن يَلْعَنِ ٱللَّهُ فَلَن تَجِدَ لَهُۥ نَصِيرًا (٥٢) أَمْ لَهُمْ نَصِيبٌ مِّنَ ٱلْمُلْكِ فَإِذًا لَّا يُؤْتُونَ ٱلنَّاسَ نَقِيرًا[3] (٥٣) أَمْ يَحْسُدُونَ[4] ٱلنَّاسَ عَلَىٰ مَآ ءَاتَىٰهُمُ ٱللَّهُ مِن فَضْلِهِۦ ۖ فَقَدْ ءَاتَيْنَآ ءَالَ إِبْرَٰهِيمَ ٱلْكِتَٰبَ وَٱلْحِكْمَةَ وَءَاتَيْنَٰهُم مُّلْكًا عَظِيمًا (٥٤) فَمِنْهُم مَّنْ ءَامَنَ بِهِۦ وَمِنْهُم مَّن صَدَّ عَنْهُ ۚ وَكَفَىٰ بِجَهَنَّمَ سَعِيرًا (٥٥) إِنَّ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ بِـَٔايَٰتِنَا سَوْفَ نُصْلِيهِمْ[5] نَارًا كُلَّمَا نَضِجَتْ جُلُودُهُم بَدَّلْنَٰهُمْ[6] جُلُودًا غَيْرَهَا لِيَذُوقُوا۟ ٱلْعَذَابَ ۗ إِنَّ ٱللَّهَ كَانَ عَزِيزًا حَكِيمًا (٥٦) وَٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَعَمِلُوا۟ ٱلصَّٰلِحَٰتِ سَنُدْخِلُهُمْ جَنَّٰتٍ تَجْرِى مِن تَحْتِهَا ٱلْأَنْهَٰرُ خَٰلِدِينَ فِيهَآ أَبَدًا ۖ لَّهُمْ فِيهَآ أَزْوَٰجٌ مُّطَهَّرَةٌ ۖ وَنُدْخِلُهُمْ ظِلًّا[7] ظَلِيلًا (٥٧) ﴾.

---

(١) الجبت والطاغوت: كل ما يعبد من دون الله.
(٢) اللعن: اللعنة الإبعاد من رحمة الله عقاباً إلى معصية.
(٣) نقيراً: من النقر بالمنقار (وهو الأثر والشيء التافه).
(٤) يحسدون: الحسد هو تمني زوال النعمة عن صاحبها وخلافها الغبطة.
(٥) نصليهم: نشويهم.
(٦) بدلناهم: غيرناهم.
(٧) الظل: أصله الستر.

هدى من الآيات:

لكي لا يتلاعب رجال الكهنوت بمقدرات الأمة بالاتفاق مع الأنظمة الفاسدة، سحب كتاب الله الثقة بهم بوجه مطلق، وحدد شروطاً معينة (تدل عليها الآيات بصورة غير مباشرة) إذا وجدت في علماء الدين جاز للأمة اتباعهم، وإلا وجب عليهم الثورة ضدهم دون ما وازع من الخوف أو الحياء.

ومن تلك الشروط:

أولاً: محاربة الطغاة والوقوف ضد ظلمهم للناس، أما إذا ارتمى علماء الدين في أحضان الأنظمة الفاسدة، وآمنوا بها وزعموا أنها أهدى سبيلاً من المعارضين لهم، المؤمنين بالله، فإنهم يسقطون من أي اعتبار، بل تلاحقهم لعنة الله وعذابه.

ثانياً: حب الخير للناس جميعا، وطهارة القلب من الحسد، والتسليم للحق حتى ولو كان عند منافسيهم من العلماء، وحب الخير للناس. أما علماء السوء فهم بالعكس، إذا وصلوا إلى أعتاب السلطات، ضاقت أنفسهم وحاولوا منع السلطات من كل خير حسداً وضعة وبخلاً، يتحاسدون بينهم، ويستعينون بالسلطات على بعضهم البعض، ولا يؤمنون بأن الله يقدر للعباد الرزق، وعليهم أن يجتهدوا بأنفسهم للحصول على فضل الله ذلك الفضل الذي أعطاه ربنا لآل إبراهيم فحسدهم البعض عليه، وأخذوا يصدون الناس عنه صدوداً.

وجزاء من يصد عن الهدى حسداً أن يذيقه الله عذاب نار أليمة، أما جزاء من يحارب الحسد في ذاته، ويسلم وجهه لله، ويؤمن برسله، ويعمل صالحاً، فأن جزاءه الجنات الطيبة.

بينات من الآيات:

ما هو معنى الجبت؟

[٥١] الجبت هو: الشيطان الخفي الذي يحاول خداع الإنسان عن طريق تزيين الأعمال المنكرة عنده، والجبت كذلك هو: الأفكار الخبيثة التي ينطلق منها الشيطان في إفساد ضمير البشر، وهي التبريرات والأعذار التي يحتمي وراءها الكسالى والمتقاعسون عن تنفيذ أوامر الله، وهي الثقافة المتخلفة التي تعتمد على القدرية والحتمية الكسولة، والتي تدعو صاحبها إلى الترهل واللامسؤولية.

وبالتالي الجبت هو: العوامل الذاتية التي تدعو الإنسان الفرد والمجتمع إلى الخمول والانحراف.

من هو الطاغوت؟

الطاغوت هو: الرجل أو النظام المتسلط على الناس باسم الجبت، وبسبب الجبت، فالمستبد الأرعن الذي يستبد بمقدرات الأمة، يجد في إيمان الأمة بالجبت، وبالتالي في تخلفها وكسلها ولا مسؤوليتها ضماناً لاستمراره في الظلم والعدوان.

وعلماء الدين هم الذين يكفرون بالجبت، ويفكون عن الناس أغلال الخوف والحتمية والكسل ويرغبونهم في التضحية والنشاط، وهم الذين يقاومون الطاغوت، ويقودون نهضة الجماهير ضده.

صفات العالم المزيف

إن علماء السوء هم الذين يبيعون أنفسهم للطاغوت، ويؤمنون بالجبت، ويضللون الجماهير، ويتخذون موقفاً جباناً من الرجال العاملين ضد الجبت والطاغوت، وذلك لكي تستمر مراكزهم عند الطاغوت، ولهؤلاء العلماء اللعنة، ولهم العزلة عن المجتمع. ﴿ أَلَمْ تَرَ إِلَى ٱلَّذِينَ أُوتُوا۟ نَصِيبًا مِّنَ ٱلْكِتَـٰبِ يُؤْمِنُونَ بِٱلْجِبْتِ وَٱلطَّـٰغُوتِ وَيَقُولُونَ لِلَّذِينَ كَفَرُوا۟ هَـٰٓؤُلَآءِ أَهْدَىٰ مِنَ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ سَبِيلًا ﴾.

[٥٢] ﴿أُو۟لَـٰٓئِكَ ٱلَّذِينَ لَعَنَهُمُ ٱللَّهُ ۖ وَمَن يَلْعَنِ ٱللَّهُ فَلَن تَجِدَ لَهُۥ نَصِيرًا﴾ هؤلاء يريدون أن يجمعوا بين مراكزهم عند الناس وعند الطاغوت، ولكن الله ينسف مراكزهم عند الناس ويفضحهم، وآنئذ لا يشتريهم الطاغوت بشيء، لأن الطاغوت إنما أرادهم لأنهم يخدعون الناس، وهاهي الجماهير تكشف ما وراء أقنعتهم الدنيئة من الزيف والضلال، فيطردهم الطاغوت فلا يبقى لهم نصير لا في الأرض ولا في السماء.

[٥٣] بعض هؤلاء يبرر اقترابه من الطاغوت بأنه في مصلحة الناس، ومن أجل تمشية حاجاتهم، ولكنهم يكذبون، فإذا وصلوا أعتاب الملك نسوا الناس، واستأثروا بالخيرات لأنفسهم: ﴿أَمْ لَهُمْ نَصِيبٌ مِّنَ ٱلْمُلْكِ فَإِذًا لَّا يُؤْتُونَ ٱلنَّاسَ نَقِيرًا﴾ لايؤتون شيئاً للناس حتى بمقدار ما يوجد في الحفيرة الصغيرة الموجودة في طرف نواة التمرة.

[٥٤] إن هؤلاء حساد، يتقربون إلى السلطات لدعم مركزهم في مواجهة منافسيهم من العلماء الأكثر علماً وشعبية.

والسؤال هو: لماذا الحسد مادام الله هو الذي فضل أولئك العلماء عليهم لما وجد فيهم من المثابرة والنشاط والنية الصالحة؟!.

إن الأفضل لهم أن يعترفوا بفضل أولئك عليهم، والتسليم لهم لا الكفر بهم، والتقرب إلى الأعداء. ﴿ أَمْ يَحْسُدُونَ ٱلنَّاسَ عَلَىٰ مَآ ءَاتَىٰهُمُ ٱللَّهُ مِن فَضْلِهِۦ ۖ فَقَدْ ءَاتَيْنَآ ءَالَ إِبْرَٰهِيمَ ٱلْكِتَٰبَ وَٱلْحِكْمَةَ وَءَاتَيْنَٰهُم مُّلْكًا عَظِيمًا ﴾[1] ومادام الله هو الذي يؤتي كل خير، فلماذا لا نتوسل به ليؤتينا الخيرات التي آتاها لغيرنا؟!.

جزاء الإيمان والخيانة

[٥٥] إن فضل الله كبير، وعطاءه واسع لا يحد، وخير للإنسان أن يجتهد من أجل الوصول إلى ذلك الفضل والعطاء بطريق مستقيم، وأول شروطه الاعتراف بمن فضله الله، والإيمان بالأنبياء بغير تردد.

﴿فَمِنْهُم مَّنْ ءَامَنَ بِهِۦ وَمِنْهُم مَّن صَدَّ عَنْهُ ۚ وَكَفَىٰ بِجَهَنَّمَ سَعِيرًا﴾ إنها تستعر وتلتهم علماء السوء، الذين كفروا بالأنبياء حسداً، وصدوا الناس عن رسالاتهم.

[٥٦] وجزاء هذا الفريق ومن اتبعهم من الكفار نار تصليهم وتؤلمهم.

﴿ إِنَّ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ بِـَٔايَٰتِنَا سَوْفَ نُصْلِيهِمْ نَارًا كُلَّمَا نَضِجَتْ جُلُودُهُم بَدَّلْنَٰهُمْ جُلُودًا غَيْرَهَا لِيَذُوقُوا۟ ٱلْعَذَابَ ۗ إِنَّ ٱللَّهَ كَانَ عَزِيزًا حَكِيمًا ﴾ لأن الجلود الطرية أكثر ألماً من الجلود المحترقة، وهؤلاء علماء السوء بدلوا جلودهم في الدنيا فاختاروا الكفر بعد الإيمان طلباً للذة الحياة، وعليهم أن يستعدوا لتبديل الجلود في الآخرة، حيث يصيبهم ألم العذاب جزاء ردتهم.

[٥٧] ولكن بالرغم من صعوبة مقاومة الحسد، واتباع صاحب الحق حتى ولو كان غريباً، فإن على الإنسان أن يتحملها حتى يحصل على جزاء الله في الجنان ﴿ وَٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَعَمِلُوا۟ ٱلصَّٰلِحَٰتِ سَنُدْخِلُهُمْ جَنَّٰتٍ تَجْرِى مِن تَحْتِهَا ٱلْأَنْهَٰرُ خَٰلِدِينَ فِيهَآ أَبَدًا ۖ لَّهُمْ فِيهَآ أَزْوَٰجٌ مُّطَهَّرَةٌ ۖ وَنُدْخِلُهُمْ ظِلًّا ظَلِيلًا ﴾ إن ثمن ابتعادهم عن خيرات الظالمين، ورضاهم بشظف العيش في ظل الحق، هو الحصول على خيرات الجنان، وأنس الأزواج الطاهرة، وظل الله الظليل، وكذلك لا يضيع الله أجر من أحسن عملا.

---

(١) جاء في تفسير البرهان للسيد هاشم البحراني: ج٢، ص٩٣: عَنْ أَبِي الصَّبَّاحِ قَالَ سَأَلْتُ أَبَا عَبْدِالله عليه السلام عَنْ قَوْلِ الله عَزَّ وَجَلَّ: ﴿ أَمْ يَحْسُدُونَ ٱلنَّاسَ عَلَىٰ مَآ ءَاتَىٰهُمُ ٱللَّهُ مِن فَضْلِهِۦ ﴾. فَقَالَ عليه السلام: «يَا أَبَا الصَّبَّاحِ نَحْنُ وَاللهِ النَّاسُ الْمَحْسُودُونَ». وجاء في الكافي: ج١ ص١٨٦ عَنْ أَبِي الصَّبَّاحِ الْكِنَانِيِّ قَالَ: قَالَ أَبُو عَبْدِ اللهِ عليه السلام: «نَحْنُ قَوْمٌ فَرَضَ اللهُ عَزَّ وَجَلَّ طَاعَتَنَا، لَنَا الأَنْفَالُ وَلَنَا صَفْوُ الْمَالِ وَنَحْنُ الرَّاسِخُونَ فِي الْعِلْمِ وَنَحْنُ الْمَحْسُودُونَ الَّذِينَ قَالَ اللهُ: ﴿ أَمْ يَحْسُدُونَ ٱلنَّاسَ عَلَىٰ مَآ ءَاتَىٰهُمُ ٱللَّهُ مِن فَضْلِهِۦ ﴾».

طاعة القيادة الرسالية واجب وضرورة

﴿ ۞ إِنَّ ٱللَّهَ يَأْمُرُكُمْ أَن تُؤَدُّوا۟ ٱلْأَمَـٰنَـٰتِ إِلَىٰٓ أَهْلِهَا وَإِذَا حَكَمْتُم بَيْنَ ٱلنَّاسِ أَن تَحْكُمُوا۟ بِٱلْعَدْلِ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ نِعِمَّا يَعِظُكُم بِهِۦٓ ۗ إِنَّ ٱللَّهَ كَانَ سَمِيعًۢا بَصِيرًا ﴿٥٨﴾ يَـٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓا۟ أَطِيعُوا۟ ٱللَّهَ وَأَطِيعُوا۟ ٱلرَّسُولَ وَأُو۟لِى ٱلْأَمْرِ مِنكُمْ ۖ فَإِن تَنَـٰزَعْتُمْ فِى شَىْءٍ فَرُدُّوهُ إِلَى ٱللَّهِ وَٱلرَّسُولِ إِن كُنتُمْ تُؤْمِنُونَ بِٱللَّهِ وَٱلْيَوْمِ ٱلْـَٔاخِرِ ۚ ذَٰلِكَ خَيْرٌ وَأَحْسَنُ تَأْوِيلًا ﴿٥٩﴾ أَلَمْ تَرَ إِلَى ٱلَّذِينَ يَزْعُمُونَ أَنَّهُمْ ءَامَنُوا۟ بِمَآ أُنزِلَ إِلَيْكَ وَمَآ أُنزِلَ مِن قَبْلِكَ يُرِيدُونَ أَن يَتَحَاكَمُوٓا۟ إِلَى ٱلطَّـٰغُوتِ(١) وَقَدْ أُمِرُوٓا۟ أَن يَكْفُرُوا۟ بِهِۦ وَيُرِيدُ ٱلشَّيْطَـٰنُ أَن يُضِلَّهُمْ ضَلَـٰلًۢا(٢) بَعِيدًا ﴿٦٠﴾ وَإِذَا قِيلَ لَهُمْ تَعَالَوْا۟ إِلَىٰ مَآ أَنزَلَ ٱللَّهُ وَإِلَى ٱلرَّسُولِ رَأَيْتَ ٱلْمُنَـٰفِقِينَ يَصُدُّونَ عَنكَ صُدُودًا(٣) ﴿٦١﴾ فَكَيْفَ إِذَآ أَصَـٰبَتْهُم مُّصِيبَةٌۢ بِمَا قَدَّمَتْ أَيْدِيهِمْ ثُمَّ جَآءُوكَ يَحْلِفُونَ(٤) بِٱللَّهِ إِنْ أَرَدْنَآ إِلَّآ إِحْسَـٰنًا وَتَوْفِيقًا ﴿٦٢﴾ أُو۟لَـٰٓئِكَ ٱلَّذِينَ يَعْلَمُ ٱللَّهُ مَا فِى قُلُوبِهِمْ فَأَعْرِضْ عَنْهُمْ وَعِظْهُمْ وَقُل لَّهُمْ فِىٓ أَنفُسِهِمْ قَوْلًۢا بَلِيغًا(٥) ﴿٦٣﴾ وَمَآ أَرْسَلْنَا مِن رَّسُولٍ إِلَّا لِيُطَاعَ بِإِذْنِ ٱللَّهِ ۚ وَلَوْ أَنَّهُمْ إِذ ظَّلَمُوٓا۟ أَنفُسَهُمْ جَآءُوكَ فَٱسْتَغْفَرُوا۟

(١) الطاغوت: ذو الطغيان وهو كل من يُعبد من دون الله، وقد يسمّى به الأوثان، ويوصف به كل من حكم بخلاف حكم الله.

(٢) الضلال: الهلاك بالعدول عن الطريق المؤدي إلى البغية (الضياع).

(٣) صدوداً: أصل الصد أن لا يتعدى ومنه المنع.

(٤) الحلف: القسم، اليمين.

(٥) بليغا: البليغ، والبلاغة: يبلغ بعبارته كثيراً مما في قلبه (يبلغ الكثير بكلام قليل).

ٱللَّهَ وَٱسْتَغْفَرَ لَهُمُ ٱلرَّسُولُ لَوَجَدُوا۟ ٱللَّهَ تَوَّابًا رَّحِيمًا ﴿٦٤﴾ فَلَا وَرَبِّكَ لَا يُؤْمِنُونَ حَتَّىٰ يُحَكِّمُوكَ فِيمَا شَجَرَ (١) بَيْنَهُمْ ثُمَّ لَا يَجِدُوا۟ فِىٓ أَنفُسِهِمْ حَرَجًا (٢) مِّمَّا قَضَيْتَ وَيُسَلِّمُوا۟ تَسْلِيمًا ﴿٦٥﴾ وَلَوْ أَنَّا كَتَبْنَا عَلَيْهِمْ أَنِ ٱقْتُلُوٓا۟ أَنفُسَكُمْ أَوِ ٱخْرُجُوا۟ مِن دِيَٰرِكُم مَّا فَعَلُوهُ إِلَّا قَلِيلٌ مِّنْهُمْ وَلَوْ أَنَّهُمْ فَعَلُوا۟ مَا يُوعَظُونَ بِهِۦ لَكَانَ خَيْرًا لَّهُمْ وَأَشَدَّ تَثْبِيتًا ﴿٦٦﴾ وَإِذًا لَّءَاتَيْنَٰهُم مِّن لَّدُنَّآ أَجْرًا عَظِيمًا ﴿٦٧﴾ وَلَهَدَيْنَٰهُمْ صِرَٰطًا مُّسْتَقِيمًا ﴿٦٨﴾ وَمَن يُطِعِ ٱللَّهَ وَٱلرَّسُولَ فَأُو۟لَٰٓئِكَ مَعَ ٱلَّذِينَ أَنْعَمَ ٱللَّهُ عَلَيْهِم مِّنَ ٱلنَّبِيِّۦنَ وَٱلصِّدِّيقِينَ (٣) وَٱلشُّهَدَآءِ (٤) وَٱلصَّٰلِحِينَ (٥) وَحَسُنَ أُو۟لَٰٓئِكَ رَفِيقًا (٦) ﴿٦٩﴾ ذَٰلِكَ ٱلْفَضْلُ (٧) مِنَ ٱللَّهِ وَكَفَىٰ بِٱللَّهِ عَلِيمًا ﴿٧٠﴾».

هدى من الآيات:

بعد الحديث عن مسؤولية المال والعلم الاجتماعية، ودورهما في إصلاح أو إفساد المجتمع، وبعد ضرب القرآن لقيمة العلم والمال، إلا إذا حققا هدف الرسالة، وتحولا إلى أداتين في خدمة المجتمع، بعدئذ يتناول القرآن مسؤولية السلطة، فهي الأخرى ليست قيمة بذاتها إنما هي وسيلة لتحقيق العدالة، التي تعني حصول كل شخص على حقه كاملاً غير منقوص.

وهذه القيمة يحققها سلطان الله في الأرض المتمثل في قيادة الرسول ﷺ، وأولي الأمر من بعده الذين يجسدون رسالته، وقد كانوا هم أهل بيته، أما الآن فهم حملة رسالة الله في الأرض بكل معنى الكلمة.

والسلطات الأخرى تمثل الطاغوت الذي يدعمه الشيطان وقد أُمرنا بالكفر به والتمرد عليه.

---

(١) شجر الأمر شجوراً: إذا اختلط، وشاجره بالأمر إذا نازعه.
(٢) حرجاً: أي لا ضيق، وقيل: لا إثم.
(٣) الصدِّيق: المداوم على التصديق بما يوجبه الحق، أو هو الذي عادته الصدق.
(٤) الشهداء: جمع شهيد وهو المقتول في سبيل الله.
(٥) الصالحين: جمع صالح: وهو من استقامت نفسه بحسن عمله.
(٦) رفيقاً: الرفيق: الصاحب.
(٧) الفضل: باللغة هو الزيادة وقد تستعمل في النفع.

ومخالفة الرسول وأولي الأمر من بعده هي من عمل المنافقين، الذين سوف يكتشفون ان قيادة الرسول أفضل لهم، وذلك حين تنزل عليهم المصائب بسبب انتمائهم إلى سلطات الطاغوت، وعلى الرسول أن يستغل الفرصة ويعظهم.

كل رسل الله جاؤوا ليتسلموا قيادة الناس، وإذا عاد الناس إلى قيادة الرسل وصححوا مسيرتهم، أصلح الله حياتهم، وغفر لهم سيئاتهم.

أما الذين يخالفون رسل الله، فإنهم ليسوا بمؤمنين، إذا يخالفون بذلك هدف الرسالة أساساً، وقيادة الرسول ليست محصورة بالصلاة والصيام، بل في كل الشؤون، وعلى المسلم ألا يفرق بين الموضوعات، ويتبع الرسول في القضايا البسيطة فقط، بل حتى ولو أمره الله بأن يقتل نفسه فعليه أن يطيعه، لأن ذلك خير له وأقوم.

خير له لأنه سوف يحصل بسببه على أجر عظيم، وأقوم له لأنه سوف يهتدي إلى الصراط المستقيم، وسوف يحشر عند الله مع الصفوة من خلقه، وهم النبيون والصديقون والشهداء، والصالحون وهذا التطلع الأسمى الذي يجب أن يسعى من أجله الإنسان.

إن هذه الآيات أوضحت لنا ضرورة الطاعة للرسول لتحقيق المسؤولية الاجتماعية وهي: العدالة.

بينات من الآيات:

بين الرقابة الذاتية والاجتماعية

[٥٨] يجب أن يكون كل شخص لنفسه واعظاً، عليها رقيباً. فلا يفرط في أموال الناس عندما تكون عنده بل يرجعها إليهم متى تسلمها. وعلى كل مسلم أن يكون للناس واعظاً، عليهم رقيباً، فيسعى من أجل إعادة حقوقهم إليهم بالعدل.

﴿ ۞ إِنَّ ٱللَّهَ يَأْمُرُكُمْ أَن تُؤَدُّوا۟ ٱلْأَمَـٰنَـٰتِ إِلَىٰٓ أَهْلِهَا وَإِذَا حَكَمْتُم بَيْنَ ٱلنَّاسِ أَن تَحْكُمُوا۟ بِٱلْعَدْلِ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ نِعِمَّا يَعِظُكُم بِهِۦٓ ۗ إِنَّ ٱللَّهَ كَانَ سَمِيعًۢا بَصِيرًا ﴾ إن هناك صلة وثيقة بين أداء الأمانة وإقامة العدل لأن من لايؤدي حقوق الناس، كيف يمكنه أن يساعد الآخرين على أداء الحقوق؟! وبالتالي كيف يمكن أن يصبح رقيباً على العدالة في المجتمع؟!.

ولا يجب أن يكون الحكم بين الناس بصورة السلطة الرسمية، بل يكون في الأكثر في صورة التعاون الاجتماعي على حل المشاكل القائمة بين بعضهم البعض قبل الرجوع إلى المحاكم.

حينما يبدأ النزاع بين شريكين، فأول ما يصنع كل واحد منهما هو عرض وجهة نظره على أصدقائه المقربين، فإذا كان هؤلاء مؤمنين حقاً أوضحوا للخاطيء منهما طبيعة خطئه، وأعطوا الحق لصاحبه، فيتراجع المخطيء قبل أن يرفع دعوى إلى المحكمة أما إذا لم يلتزموا بواجبهم كمؤمنين في الحكم بالعدل، فإن كل فريق يؤيد صاحبه ويشجعه على مطالبه، حقاً كانت أم باطلاً، فترفع القضية إلى المحاكم، وتبدأ سلسلة المشاكل وهنا نعرف دور الرقابة الاجتماعية على العدالة ومدى تأثيرها في أداء الحقوق.

السلطة وفصل القرار

[٥٩] ولكن الرقابة الاجتماعية لا تردع كثيراً من الناس من الاعتداء على حقوق الآخرين، وهي لا تستطيع أن تكون فيصلاً حاسماً في كثير من المشاكل المعقدة، التي يظن كل طرف أنه صاحب الحق فيها، ويورد أدلة كثيرة على ظنه. هنالك نرى ضرورة وجود السلطة الشرعية القوية التي يلتزم الجميع بحكمها، وهي متمثلة في النبي وأولي الأمر من بعده.

﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا أَطِيعُوا اللَّهَ وَأَطِيعُوا الرَّسُولَ وَأُولِي الْأَمْرِ مِنْكُمْ﴾ إن أولي الأمر هم الامتداد الطبيعي للرسول ﷺ، وهم أهل بيته عليهم السلام من بعده، والعلماء بالله، الأمناء على حلاله وحرامه، الأكفاء على القيام بأمره، الصابرون المتقون، وبالتالي هم أكثر الناس طاعة لله، وأقربهم إلى نهج رسوله، ويتحقق اليوم في حملة رسالة الله في الأرض أنى كانوا.

والهدف من هذه الطاعة هو فض الخلافات بردها إلى حكم الله وقضاء رسوله أو أولي الأمر من بعده ﴿فَإِنْ تَنَازَعْتُمْ فِي شَيْءٍ فَرُدُّوهُ إِلَى اللَّهِ وَالرَّسُولِ إِنْ كُنْتُمْ تُؤْمِنُونَ بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الْآخِرِ ذَلِكَ خَيْرٌ وَأَحْسَنُ تَأْوِيلًا﴾ أي أن رفع الدعاوى إلى الرسول خير لكم، لأنه يساعد على فض النزاعات، وهو أفضل عاقبة في المستقبل، لأنه يعطيكم التلاحم والرصانة.

طاعة الطواغيت ضلال

[٦٠] والتحول عن قضاء الرسول إلى قضاء حكام الجور من الطواغيت ضلال شيطاني، إذ أن الله أمر المؤمنين بالكفر بالطاغوت ورفض سلطانه، فكيف يجوز التحاكم إليه ودعوته للتدخل في شؤون المؤمنين الداخلية؟!.

﴿أَلَمْ تَرَ إِلَى الَّذِينَ يَزْعُمُونَ أَنَّهُمْ آمَنُوا بِمَا أُنْزِلَ إِلَيْكَ وَمَا أُنْزِلَ مِنْ قَبْلِكَ يُرِيدُونَ أَنْ يَتَحَاكَمُوا إِلَى الطَّاغُوتِ وَقَدْ أُمِرُوا أَنْ يَكْفُرُوا بِهِ وَيُرِيدُ الشَّيْطَانُ أَنْ يُضِلَّهُمْ ضَلَالًا بَعِيدًا﴾ أصحيح زعم هؤلاء بأنهم مؤمنون وهم يخالفون أبسط قواعد الإيمان، وهو الكفر

بالطاغوت؟ ويذهبون إليه خاضعين، أم أنه ضلال بعيد؟.

إن الله بعث رسله لكي يذكروا الناس بربهم، ويعبدوه وحده، ويتحرروا من عبادة الطاغوت، فإذا عاد الناس إلى الطاغوت انتهى كل شيء، ولم يبق إلا قشور الإيمان.

[٦١] في حالة الرخاء يبتعد هؤلاء عن قيادة الرسول، ويبعدون عنها الناس بكل عناد ويلتجئون إلى الطاغوت زاعمين أنه أفضل لهم، ولكن سرعان ما يكتشفون ان الطاغوت قد خدعهم وأراد استعبادهم. فيعودون إلى الرسول وهم يبررون موقفهم السابق بأنه كان بنية طيبة، حيث أرادوا خدمة الناس، وحل الخلافات بينهم، أو حل خلافات ناشئة من سوء الفهم وليست خلافات مبدئية؟ وبالطبع إن هذا التبرير باطل وسخيف، ولكن على الرسول إلا يطردهم، بل ينصحهم بكلام ينفذ في أنفسهم عسى الله أن يهديهم إلى الإيمان الواقعي.

﴿ وَإِذَا قِيلَ لَهُمْ تَعَالَوْا إِلَىٰ مَا أَنزَلَ اللَّهُ وَإِلَى الرَّسُولِ ﴾ أي عودوا إلى كتاب الله وقيادة الرسول ﴿رَأَيْتَ الْمُنَافِقِينَ يَصُدُّونَ عَنكَ صُدُودًا ﴾.

[٦٢] ﴿ فَكَيْفَ إِذَا أَصَابَتْهُم مُّصِيبَةٌ بِمَا قَدَّمَتْ أَيْدِيهِمْ ﴾ أي بالذنب الذي ارتكبوه وهو التحاكم إلى الطاغوت.

﴿ثُمَّ جَاءُوكَ يَحْلِفُونَ بِاللَّهِ إِنْ أَرَدْنَا إِلَّا إِحْسَانًا وَتَوْفِيقًا ﴾ أي ما كان هدفنا من التحاكم إلى الطاغوت (السلطات الظالمة) إلا الإحسان إلى الناس بسبب قربنا من مواقع السلطة، والتوفيق بين الناس، وفض خلافاتهم، أو تلطيف الأجواء بين السلطات الظالمة وبين أنصار الرسالة المناوئين لهم.

[٦٣] ﴿ أُولَٰئِكَ الَّذِينَ يَعْلَمُ اللَّهُ مَا فِي قُلُوبِهِمْ فَأَعْرِضْ عَنْهُمْ ﴾ أي لا تعاقبهم بالذي بدر منهم من التحاكم إلى الطاغوت.

﴿وَعِظْهُمْ وَقُل لَّهُمْ فِي أَنفُسِهِمْ قَوْلًا بَلِيغًا ﴾ نافذاً من منطلق أنهم سوف لا يحصدون من الطاغوت إلاّ الاستعباد والظلم والخيانة، فعليهم أن يبتعدوا عن الطاغوت إن هم أحبوا أنفسهم.

إن المنافقين يريدون مصالحهم، ولابد للرسالي أن يوجههم من هذا المنطلق.

هدف بعث الأنبياء

[٦٤] إن الهدف من بعث الرسل ليس سوى تحرير الناس من قيادة الطاغوت، وتوفير قيادة صالحة لهم، ولذلك يجب على الناس أن يطيعوا الرسول ﷺ، إذ سيجدون مغفرة من الله وفضلاً.

﴿ وَمَآ أَرۡسَلۡنَا مِن رَّسُولٍ إِلَّا لِيُطَاعَ بِإِذۡنِ ٱللَّهِۚ وَلَوۡ أَنَّهُمۡ إِذ ظَّلَمُوٓاْ أَنفُسَهُمۡ جَآءُوكَ فَٱسۡتَغۡفَرُواْ ٱللَّهَ وَٱسۡتَغۡفَرَ لَهُمُ ٱلرَّسُولُ لَوَجَدُواْ ٱللَّهَ تَوَّابًا رَّحِيمًا ﴾ إن الله يتوب على عباده، وينشر رحمته عليهم ان هم تابوا اليه، أطاعوا ممثله في الأرض وهو الرسول، وطاعة الرسول ﷺ تشفع للبشر في ذنوبهم الصغيرة إذ أن في ذلك طاعة لله في أعظم ما أمر به، وإن الحسنات الكبيرة تشفع في السيئات الصغيرة، كما أن السيئات الكبيرة (كالشرك بالله وطاعة الطاغوت) تحبط الحسنات الصغيرة.

مفهوم الشفاعة في القرآن

ان فكرة الشفاعة الصحيحة هي، ان الرسول يستغفر لمن يطيعه، ويتوب اليه بإخلاص، ولا يعني استغفار الرسول ﷺ لأحد أن الله يغفر له حتماً، كما جاء في نص القرآن: ﴿إِن تَسۡتَغۡفِرۡ لَهُمۡ سَبۡعِينَ مَرَّةً فَلَن يَغۡفِرَ ٱللَّهُ لَهُمۡۚ ﴾ [التوبة: ٨٠].

وقد رد الله شفاعة نوح في ابنه واستغفار إبراهيم في أبيه. وهذا هو الفارق بين فكرة الشفاعة الإسلامية ونظيراتها في الديانات الوثنية والمسيحية واليهودية المنحرفة، ان الشفاعة الإسلامية لا تعرف الحتمية، وما هي سوى دعاء الرسول ﷺ ربه أن ينزل رحمته، وبالرغم من أن الرسول ﷺ مستجاب الدعاء، فإن ذلك لا يحتم على الله سبحانه أن يستجيب للرسول، بل قد يرفضه رفضاً لأنه هو الله الحكيم العليم.

أما فكرة الشفاعة أو الفداء عند الوثنية واليهودية والمسيحية، فهي آتية من فكرة خاطئة أخرى هي: الزعم بتعدد الآلهة، ووجود شركاء لله تغالبون ويتنافسون في شؤون العباد، وبتعبير آخر: الاعتقاد بفكرة وجود مراكز قوى في سلطان الكون، وأن كل مركز يستطيع أن يعمل باتجاه معين، ويجبر ذي العرش (وهو الله سبحانه) على فعل شيء.

هذه الفكرة مرفوضة في القرآن، لأنها مخالفة لرؤية التوحيد وبصيرة الأحدية. وأهمية الشفاعة الاجتماعية، أنها تعطي المجتمع الإسلامي مزيداً من التلاحم والصلابة، إذ أن الرسول يصبح محوراً يستقطب حوله جميع الطاقات، ليس فقط بدوافع مادية، بل أيضا بدافع إيماني غيبي. ومثل الرسول ﷺ في ذلك أوصياؤه الائمة عليهم السلام، ومن بعدهم القادة الرساليون الذين يستمدون قدراتهم الاجتماعية من التفاف الناس حولهم طوعا لا كرها، كل واحد منهم يأمل أن يشفع له القائد عند الله، ويستغفر له ربه، وهذا الالتفاف يخدم قضية الأمة الأساسية، وبذلك يستطيع القائد أن يطبق سائر الواجبات الدينية.

وتكون النتيجة وجود مرونة في التشريع الإسلامي، بحيث تتقدم الأهداف الكبرى على

الأهداف الجانبية، ويكون الوصول إلى تلك شفيعة في عدم الوصول إلى هذه مؤقتاً، بل وطريقاً إليها في المستقبل.

ولنتصور قائداً رسالياً يخوض معركة مصيرية مع أعداء الأمة، ويجد شابًا مندفعاً يطيعه حتى الموت في هذه المعركة، فلا ريب أن هذا الشاب يعتبر من الصالحين عند الله حتى ولو استخف بالصيام مثلاً، لأن طاعته لإمامه، وتضحيته في المعركة المصيرية التي تواجه الأمة، قد تشفعان له في ترك الصيام لأن الانتصار في المعركة المصيرية سوف يساعد على إقامة الشعائر ومنها الصيام ولكن يجب ألا يدفعنا ذلك إلى الاستهانة بالواجبات بتبرير قيامنا بالواجبات الأهم ومنها الطاعة للإمام، إذ أن هذه الواجبات قد لا تشفع في تلك وقد لا يستجيب الله دعاء الرسول ﷺ، فماذا نصنع؟.

إن رفض الإسلام لفكرة الحتمية في الشفاعة تنفع المسلم في عدم التوغل في الذنوب، كما أن وجود الفكرة أساساً تساعده على الاهتمام بالواجبات الأهم حتى ولو كان على حساب الأقل أهمية.

إن الغموض الذي اكتنف فكرة الشفاعة والخلافات الكبيرة فيها دفعنا إلى الحديث حولها في هذه الآية التي نراها تتحدث مباشرة عن هذه الفكرة، وكما ترى فإنها جاءت في سياق الآيات التي تبين ضرورة الطاعة للرسول ﷺ، مما يوحي بأن فكرة الشفاعة ذكرت أساساً لدعم الطاعة للقيادة الرسالية دعماً غيبيًا.

الطاعة دليل الإيمان

[٦٥] وإذا لم تكن عند المؤمن صفة الطاعة للرسول ﷺ فماذا يبقى عنده من الإيمان؟ أليس الإيمان هو التسليم لله، وماذا يعني التسليم لو لم تكن الطاعة للرسول ﷺ؟ وما قيمة القيادة التي لا تستطيع فض الخلافات بين الناس؟!.

إن الإيمان وقر في القلب يجعل صاحبه يسلم لله حتى فيما يصيبه من مصيبات، أو يخالف مصالحه أو آراءه، فإذا لم يرض الفرد قلبيًا بحكم الله المتمثل في قضاء الرسول في الخلافات الاجتماعية بينه وبين إخوته، إذا لم يرض بذلك فليس هو بمؤمن أبداً.

﴿ فَلَا وَرَبِّكَ لَا يُؤْمِنُونَ حَتَّىٰ يُحَكِّمُوكَ فِيمَا شَجَرَ بَيْنَهُمْ ثُمَّ لَا يَجِدُوا فِي أَنفُسِهِمْ حَرَجًا مِّمَّا قَضَيْتَ وَيُسَلِّمُوا تَسْلِيمًا ﴾ فيما شجر: أي فيما يبرز بينهم من خلافات، الحرج: الضيق، وهو يتنافى مع الرضا الكامل، والتسليم هو: التسليم القلبي والعملي.

الطاعة شاملة

[٦٦] وطاعة الرسول ﷺ يجب أن تكون شاملة لكافة القضايا الصغيرة والكبيرة، حتى ولو خالفت مصالح الإنسان الأساسية.

﴿وَلَوْ أَنَّا كَتَبْنَا عَلَيْهِمْ أَنِ اقْتُلُوا أَنفُسَكُمْ أَوِ اخْرُجُوا مِن دِيَارِكُم مَّا فَعَلُوهُ إِلَّا قَلِيلٌ مِّنْهُمْ﴾ هذا القليل هم المؤمنون حقا، وهم الذين يعملون بالخير والهداية ﴿وَلَوْ أَنَّهُمْ فَعَلُوا مَا يُوعَظُونَ بِهِ لَكَانَ خَيْرًا لَّهُمْ وَأَشَدَّ تَثْبِيتًا﴾.

الطاعة بين التأثير والجزاء

[٦٧] كيف تكون الطاعة خيرا؟.

إنها خير لأن الله يعطي المطيعين أجراً عظيماً متمثلاً في الدنيا بالنصر، والتقدم، والرفاه، وفي الآخرة بالجنان الخالدة ﴿وَإِذًا لَّآتَيْنَاهُم مِّن لَّدُنَّا أَجْرًا عَظِيمًا﴾.

[٦٨] كيف تكون الطاعة أشد تثبيتاً، وبالتالي مؤثرة في دعم إيمان صاحبها وهداه؟.

الجواب: إن الإنحراف يحدث عند الإنسان بسبب ضغط الشهوات، فالخوف من الموت، وحب الوطن والأولاد والراحة وما أشبه هو الذي يجعل الواحد منا يفكر بالمقلوب، ويعكس الحقائق الكونية.

أما لو تجاوز الإنسان ذاته في سبيل أهدافه واستعد للتضحية، فليس هناك أي سبب لانحرافه ﴿وَلَهَدَيْنَاهُمْ صِرَاطًا مُّسْتَقِيمًا﴾.

[٦٩] هذا الصراط المستقيم ينتهي بصاحبه إلى الانتماء للصفوة المختارة من عباد الله، وما أحسن هذا الانتماء!!.

﴿وَمَن يُطِعِ اللَّهَ وَالرَّسُولَ فَأُولَٰئِكَ مَعَ الَّذِينَ أَنْعَمَ اللَّهُ عَلَيْهِم مِّنَ النَّبِيِّينَ وَالصِّدِّيقِينَ وَالشُّهَدَاءِ وَالصَّالِحِينَ وَحَسُنَ أُولَٰئِكَ رَفِيقًا﴾

[٧٠] وهذه هي الدرجة الرفيعة التي لا يصل الشخص إلى مستواها إلا بجهد بالغ، وبتوفيق من الله، وليس رخيصاً ولا سهلاً الحصول على بطاقة الانتماء إلى حزب الله الغالب المنتصر.

﴿ذَٰلِكَ الْفَضْلُ مِنَ اللَّهِ وَكَفَىٰ بِاللَّهِ عَلِيمًا﴾ يعلم سرائر الناس فيقبل انتماء خالصي النية فقط.

الجهاد مظهر الطاعة ونجاة المستضعفين

﴿ يَـٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ خُذُوا۟ حِذْرَكُمْ[1] فَٱنفِرُوا۟[2] ثُبَاتٍ أَوِ ٱنفِرُوا۟ جَمِيعًا ﴿٧١﴾ وَإِنَّ مِنكُمْ لَمَن لَّيُبَطِّئَنَّ فَإِنْ أَصَـٰبَتْكُم مُّصِيبَةٌ قَالَ قَدْ أَنْعَمَ ٱللَّهُ عَلَىَّ إِذْ لَمْ أَكُن مَّعَهُمْ شَهِيدًا ﴿٧٢﴾ وَلَئِنْ أَصَـٰبَكُمْ فَضْلٌ مِّنَ ٱللَّهِ لَيَقُولَنَّ كَأَن لَّمْ تَكُنۢ بَيْنَكُمْ وَبَيْنَهُۥ مَوَدَّةٌ يَـٰلَيْتَنِى كُنتُ مَعَهُمْ فَأَفُوزَ فَوْزًا عَظِيمًا ﴿٧٣﴾ ۞ فَلْيُقَـٰتِلْ فِى سَبِيلِ ٱللَّهِ ٱلَّذِينَ يَشْرُونَ[3] ٱلْحَيَوٰةَ ٱلدُّنْيَا بِٱلْـَٔاخِرَةِ ۚ وَمَن يُقَـٰتِلْ فِى سَبِيلِ ٱللَّهِ فَيُقْتَلْ أَوْ يَغْلِبْ فَسَوْفَ نُؤْتِيهِ أَجْرًا عَظِيمًا ﴿٧٤﴾ وَمَا لَكُمْ لَا تُقَـٰتِلُونَ فِى سَبِيلِ ٱللَّهِ وَٱلْمُسْتَضْعَفِينَ مِنَ ٱلرِّجَالِ وَٱلنِّسَآءِ وَٱلْوِلْدَٰنِ[4] ٱلَّذِينَ يَقُولُونَ رَبَّنَآ أَخْرِجْنَا مِنْ هَـٰذِهِ ٱلْقَرْيَةِ ٱلظَّالِمِ أَهْلُهَا وَٱجْعَل لَّنَا مِن لَّدُنكَ وَلِيًّا وَٱجْعَل لَّنَا مِن لَّدُنكَ نَصِيرًا ﴿٧٥﴾ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ يُقَـٰتِلُونَ فِى سَبِيلِ ٱللَّهِ ۖ وَٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ يُقَـٰتِلُونَ فِى سَبِيلِ ٱلطَّـٰغُوتِ فَقَـٰتِلُوٓا۟ أَوْلِيَآءَ ٱلشَّيْطَـٰنِ ۖ إِنَّ كَيْدَ[5] ٱلشَّيْطَـٰنِ كَانَ ضَعِيفًا ﴿٧٦﴾ ﴾.

هدى من الآيات:

الجهاد أبرز مظاهر الطاعة ومن يطع الرسول ﷺ في الجهاد يسهل عليه تطبيق سائر

(١) الحَذر: الانتباه.
(٢) انفروا: النفر الخروج إلى الغزو.
(٣) يشرون: يبيعون.
(٤) الولدان: جمع ولد.
(٥) الكيد: السعي في فساد الحال على وجه الاحتيال.

الواجبات الدينية لأنها لا تنطوي على صعوبات الجهاد أو أخطاره الجسيمة.

وإذ يتحدث القرآن عن الطاعة للرسول ﷺ والكفر بالطاغوت يضرب لنا مثلاً من واقع الطاعة المفترضة وهو الجهاد الذي يأتي مباشرة بعد تكون الأمة، وانفصالها عن المجتمع الجاهلي وطاغوته الذي يتبعونه، إذ لا يلبث أن يتفجر الصراع بين الجاهلية وبين الأمة، وعلى أبناء الأمة الاستعداد لخوض الصراع، وذلك يكون بالتحذر والانطلاق للجهاد جميعاً أو في مجموعات.

وبالتسارع في تنفيذ أمر الجهاد حتى لا يكون المسلم كأولئك المتقاعسين الذين يتثاقلون عن الجهاد حتى تنتهي المعركة، فإن كانت في صالح الجاهلية زعموا انهم ربحوا حين لم يساهموا في الحرب، وإلا تميزوا غيظاً وحسرة وكأنهم ليسوا من أبناء الأمة أبداً.

صفة المسارعة في القتال تأتي بعد الإيمان بأن الآخرة أفضل من الدنيا، وأن الله عنده أجر عظيم للمقاتلين خسروا أو ربحوا المعركة.

وهدف القتال هو إنقاذ المستضعفين من براثن الطغاة والظلم، فإن قتال المسلمين هو من أجل الله بينما قتال الكفار من أجل تثبيت نظام الطاغوت وقهر الشعوب.

بينات من الآيات:

واجب الإعداد

[٧١] ان يكون أبناء الأمة على استعداد للانطلاق في معارك الدفاع عن قيمها الرسالية هو منتهى الجدية في الحياة والفاعلية والطاعة للقيادة. وليس المهم العمل حين تدق طبول الحرب، بل الاستعداد قبل ذلك في أيام السلم حيث يسترخي الناس، ويغالبهم نعاس الأمن، ويحسبون أن الحياة لهو ولعب.

آنئذ يستعد المسلمون للمغارك المحتملة فإذا حانت ساعة الحرب خفوا إليها في شكل مجموعات (ثبات) أو وحدات صغيرة منسقة ومستعدة للعمليات الحربية أو نفروا إليها جميعاً بصورة (التعبئة العامة).

﴿ يَـٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ خُذُواْ حِذْرَكُمْ فَٱنفِرُواْ ثُبَاتٍ أَوِ ٱنفِرُواْ جَمِيعًا ﴾ إنها تشكل خلفية جيش الرسالة، الإعداد المسبق والتضحية والتنظيم (الحذر، النفر، الثبات أو الجميع).

المصلحية داء الجهاد

[٧٢] ولا تكونوا -أيها المؤمنون- مثل أولئك الجبناء الذين يتكاسلون ويتقاعسون عن الحرب وينتظرون نتائجها وهم في بيوتهم، فإذا دارت ضد المسلمين بدءوا يشمتون ويفرحون بأنهم لم يكونوا معهم علماً بأن تثاقلهم عن الجهاد قد يكون هو سبب هزيمة المسلمين ولكن هؤلاء لا يحسبون لأنفسهم حساباً، ودائماً يتصورون سائر المسلمين هم المسؤولين بل ويجدون بينهم وبين سائر المسلمين فارقا وكأنهم من غير المسلمين.

والدليل على ذلك: أنهم يتميزون حسرة وحسداً إذا انتصر المسلمون وحصلوا على مكاسب مادية في معركتهم.

إن الله يذم هؤلاء لكي لا يصبح الواحد منا هكذا يرى نفسه وكأنه من غير المسلمين فلا يتحمل مسؤولية الجهاد ويقول عنهم: ﴿ وَإِنَّ مِنكُمْ لَمَن لَّيُبَطِّئَنَّ فَإِنْ أَصَابَتْكُم مُّصِيبَةٌ قَالَ قَدْ أَنْعَمَ اللَّهُ عَلَيَّ إِذْ لَمْ أَكُن مَّعَهُمْ شَهِيدًا ﴾ أي يشكر ربه لأنه لم يوفق لحضور المعركة ﴿شَهِيدًا ﴾، بينما كان هو السبب وراء تقاعسه عن الجهاد والله سيحاسبه على ذلك غداً.

[٧٣] ﴿ وَلَئِنْ أَصَابَكُمْ فَضْلٌ مِّنَ اللَّهِ لَيَقُولَنَّ كَأَن لَّمْ تَكُن بَيْنَكُمْ وَبَيْنَهُ مَوَدَّةٌ يَا لَيْتَنِي كُنتُ مَعَهُمْ فَأَفُوزَ فَوْزًا عَظِيمًا ﴾ وكأنه أمة وسائر المسلمين أمة اخرى، علماً بأن مكاسب المسلمين سوف تصيبه كواحد في المجتمع الإسلامي يستفيد من تقدم هذا المجتمع الاقتصادي ورفاهه الحضاري.

كيف نصنع الإرادة؟

[٧٤] إن المثل السابق نموذج من الناس يفتقرون إلى الإرادة الرسالية حتى يقرروا الإقدام والمبادرة في قضايا الأمة ولا ينتظرون الآخرين.

إنها تأتي نتيجة الإيمان الصادق باليوم الآخر وتفضيله على الدنيا وبالتالي بيع الدنيا في مقابل الحصول على الآخرة وبهدف بلوغ أجر الله العظيم هناك.

﴿ ۞ فَلْيُقَاتِلْ فِي سَبِيلِ اللَّهِ الَّذِينَ يَشْرُونَ الْحَيَاةَ الدُّنْيَا بِالْآخِرَةِ ﴾ يشري: أي يبيع وحين يقول القرآن: ﴿فَلْيُقَاتِلْ ﴾ يريد أن يُبيّن أن هؤلاء هم المرشحون للقتال الخالص لوجه الله ﴿وَمَن يُقَاتِلْ فِي سَبِيلِ اللَّهِ فَيُقْتَلْ أَوْ يَغْلِبْ فَسَوْفَ نُؤْتِيهِ أَجْرًا عَظِيمًا ﴾.

أهداف الجهاد

[٧٥] إن الهدف الغيبي للقتال أن يكون القتال من أجل الحصول على الأجر العظيم في الآخرة.

أما الهدف الظاهر للقتال الذي يكون في سبيل الله فهو محاولة إنقاذ المحرومين الذين تظلمهم القوى الطاغوتية القاهرة، ولا يستطيعون الدفاع عن أنفسهم.

﴿وَمَا لَكُمْ لَا تُقَاتِلُونَ فِي سَبِيلِ اللَّهِ وَالْمُسْتَضْعَفِينَ مِنَ الرِّجَالِ وَالنِّسَاءِ وَالْوِلْدَانِ الَّذِينَ يَقُولُونَ رَبَّنَا أَخْرِجْنَا مِنْ هَٰذِهِ الْقَرْيَةِ الظَّالِمِ أَهْلُهَا وَاجْعَل لَّنَا مِن لَّدُنكَ وَلِيًّا وَاجْعَل لَّنَا مِن لَّدُنكَ نَصِيرًا﴾ المستضعفون: هم الذين جعلتهم القوى الظالمة ضعفاء، واستثمرتهم وحطمت أرادتهم ومعنويات نفوسهم، ولكنهم مع ذلك يقاومون الظلم بالنية فيأملون أن ينقذهم الله بأناس يقودونهم وينتصرون لهم.

[٧٦] إن هدف المقاتلين المسلمين تحرير عباد الله من مجتمع الظلم ونظام الطاغوت أما هدف مقاتلي الكفار فهو من أجل استعباد الإنسان وجعله يرزح تحت نير الطاغوت، وبطبيعة الحال الطاغوت ضعيف، لأنه يقاوم إرادة الناس وفطرة الحياة وكلما يضع الطاغوت من خطط متينة فهي ضعيفة لأنها تعاكس طبيعة الحياة البشرية التي خلقها الله حرة.

﴿الَّذِينَ آمَنُوا يُقَاتِلُونَ فِي سَبِيلِ اللَّهِ وَالَّذِينَ كَفَرُوا يُقَاتِلُونَ فِي سَبِيلِ الطَّاغُوتِ فَقَاتِلُوا أَوْلِيَاءَ الشَّيْطَانِ إِنَّ كَيْدَ الشَّيْطَانِ كَانَ ضَعِيفًا﴾ إن أول ما يجب أن يتمتع به الناس المستضعفون والمقاتلون من أجلهم هو التحرر من خوف الطاغوت لأن أكبر العوامل التي يعتمد عليها الطاغوت في استغلاله للناس هو تخويفهم وتحطيم معنوياتهم وإلا فما الطاغوت إلا بشر مثل سائر البشر فكيف استطاع أن يستعبد آخرين؟. إنما بخشية الناس منه، وخوفهم الباطل من قوته، تلك القوة التي يحاول الطاغوت تضخيمها في أعين الناس، فإذا تحررت الشعوب من رهبة الطاغوت، واكتشفت أنه هو الآخر بشر وضعيف، وخططه واهية لاستطاعت أن تطرده وتسحقه. ولذلك يذكرنا القرآن هنا، أن كيد هؤلاء ضعيف، وعلينا ألا نرهبهم.

عوامل الانهزام وفوائد الالتزام

﴿ أَلَمْ تَرَ إِلَى الَّذِينَ قِيلَ لَهُمْ كُفُّوا أَيْدِيَكُمْ وَأَقِيمُوا الصَّلَاةَ وَآتُوا الزَّكَاةَ فَلَمَّا كُتِبَ عَلَيْهِمُ الْقِتَالُ إِذَا فَرِيقٌ مِنْهُمْ يَخْشَوْنَ النَّاسَ كَخَشْيَةِ اللَّهِ أَوْ أَشَدَّ خَشْيَةً وَقَالُوا رَبَّنَا لِمَ كَتَبْتَ عَلَيْنَا الْقِتَالَ لَوْلَا أَخَّرْتَنَا إِلَى أَجَلٍ قَرِيبٍ قُلْ مَتَاعُ الدُّنْيَا قَلِيلٌ وَالْآخِرَةُ خَيْرٌ لِمَنِ اتَّقَى وَلَا تُظْلَمُونَ فَتِيلًا (٧٧) أَيْنَمَا تَكُونُوا يُدْرِكْكُمُ الْمَوْتُ وَلَوْ كُنْتُمْ فِي بُرُوجٍ[1] مُشَيَّدَةٍ[2] وَإِنْ تُصِبْهُمْ حَسَنَةٌ يَقُولُوا هَذِهِ مِنْ عِنْدِ اللَّهِ وَإِنْ تُصِبْهُمْ سَيِّئَةٌ يَقُولُوا هَذِهِ مِنْ عِنْدِكَ قُلْ كُلٌّ مِنْ عِنْدِ اللَّهِ فَمَالِ هَؤُلَاءِ الْقَوْمِ لَا يَكَادُونَ يَفْقَهُونَ[3] حَدِيثًا (٧٨) مَا أَصَابَكَ مِنْ حَسَنَةٍ فَمِنَ اللَّهِ وَمَا أَصَابَكَ مِنْ سَيِّئَةٍ فَمِنْ نَفْسِكَ وَأَرْسَلْنَاكَ لِلنَّاسِ رَسُولًا وَكَفَى بِاللَّهِ شَهِيدًا (٧٩) ﴾

هدى من الآيات:

هناك ظروف يجب على الأمة فيها أن تعد ذاتها للقتال دون أن تباشر به، والإعداد يكون بالصلاة والزكاة، بينما تأتي ظروف يجب على الأمة أن تندفع فيها للقتال، وعلى الأمة أن تكون منضبطة، فلا تقاتل إلا حين تؤمر به، ولكن هناك بعض الفئات تطالب بالقتال حين يكون واجبها الإعداد، بينما تتقاعس عنه حين تؤمر به، والمشكلة بالنسبة لهؤلاء هي خشية الناس، ولكن لماذا الخشية من الناس؟ هل بسبب الخوف من الموت، والموت آت لا ريب فيه؟ أو بسبب التملص من المسؤولية تجاه ما يجري من أحداث في الحياة وإلقاء مسؤولية الهزائم على القيادة

(١) البروج: جمع برج وأصله من الظهور.
(٢) مشيدة: مزينة بالشِيد وهو الجص، والشَيد: رفع البناء. من شاد يشيده إذا رفعه.
(٣) يفقهون: يفهمون، الفقه الفهم.

الدينية، بينما الإنسان هو المسؤول المباشر عما يصيبه من نكبات؟.

والواقع: إن عدم فهم الحياة قد يكون هو السبب في التقاعس عن واجباتها، وقد تناول القرآن في هذا الدرس جانباً من العوامل النفسية للتقاعس عن الجهاد ليقتلع جذورها من القلب البشري، وليوفر المناخ المناسب للطاعة التامة للقيادة البعيدة عن الازدواجية والتردد والضعف.

بينات من الآيات:

الانضباط صمام الأمان

[٧٧] الحرب بحاجة إلى أقصى درجات الاندفاع والفاعلية والجدية، ولكن في حدود الخطة السليمة، وإذا لم تكن الخطة السليمة تقود الحرب، فإن كل الاندفاع والفاعلية والجدية لا تعني شيئاً، لأن غلطة أساسية واحدة، قد تقضي على الكثير الكثير من الطاقات في لحظة واحدة.

والخطة السليمة بحاجة إلى الانضباط الحديدي من قبل الجيش لقيادة هذا الانضباط الذي يتحدث عنه القرآن هنا بما يخص الحرب ولكنه يشمل أحوال السلم أيضاً.

إن هذا لا يخضع لأهواء الناس، بل لخطة القياده، أما ما على الناس فهو الاستعداد الدائم لخوض المعركة، إذا نودوا إليها.

وهناك بعض الناس يطالبون بالحرب في وقت السلم ولكنهم يتقاعسون عنها حين يدعون إليها ويحذرون الناس خوفاً على أنفسهم من الموت، ويطالبون القيادة آنئذ بتأخير القتال ويحسبون أن التقديم والتأخير خاضع لأهوائهم، والواقع أن مشكلة هؤلاء نفسية، وتعود إلى تشبثهم بالدنيا وزينتها.

﴿أَلَمْ تَرَ إِلَى الَّذِينَ قِيلَ لَهُمْ كُفُّوا أَيْدِيَكُمْ وَأَقِيمُوا الصَّلَوٰةَ وَءَاتُوا الزَّكَوٰةَ﴾ يعني كفوا أيديكم عن القتال، لأن موعد القتال لما يحن، أما الآن فهو موعد الصلاة رمز البناء الذاتي، والزكاة رمز البناء الاجتماعي.

﴿فَلَمَّا كُتِبَ عَلَيْهِمُ الْقِتَالُ إِذَا فَرِيقٌ مِّنْهُمْ يَخْشَوْنَ النَّاسَ كَخَشْيَةِ اللَّهِ أَوْ أَشَدَّ خَشْيَةً وَقَالُوا رَبَّنَا لِمَ كَتَبْتَ عَلَيْنَا الْقِتَالَ لَوْلَا أَخَّرْتَنَا إِلَىٰ أَجَلٍ قَرِيبٍ﴾ إن هؤلاء كانوا يطالبون بالتأخير ولو لفترة

بسيطة، وذلك لأن الخوف قد ملأ قلوبهم ﴿قُلْ مَتَاعُ الدُّنْيَا قَلِيلٌ وَالْآخِرَةُ خَيْرٌ لِمَنِ اتَّقَىٰ وَلَا تُظْلَمُونَ فَتِيلًا﴾.

كيف نتحرر من خوف الموت؟

[٧٨] التحرر من خوف الموت، لا يمكن إلا إذا سلمنا له وآمنا، بأنا ملاقوه أنى كنا، والموت هو الموت سواء في ساحة المعركة، أو على السرير في المستشفى.

﴿أَيْنَمَا تَكُونُوا يُدْرِككُّمُ الْمَوْتُ وَلَوْ كُنتُمْ فِي بُرُوجٍ مُّشَيَّدَةٍ﴾ البروج المشيدة هي: البنايات المرتفعة التي تدل على سمو الحضارة، والإنسان يهم بالصعود عن الأرض اعتقاداً منه أن ذلك ينقذه من عوامل الفناء، والقرآن يقول: أنه حتى في حالة الصعود إلى بروج مشيدة، فإن الموت يلاحقهم إليها، ويقضي عليهم، والخوف من الموت قيد على قلب الإنسان من الإقدام في تحمل مسؤوليات الحياة، وهناك قيد آخر هو إبعاد المسؤولية عن الذات وإلقاؤها على الآخرين.

﴿وَإِن تُصِبْهُمْ حَسَنَةٌ يَقُولُوا هَٰذِهِ مِنْ عِندِ اللَّهِ﴾ يقولونها بلهجة كأنها بعيدة عن دورهم في المسؤولية.

﴿وَإِن تُصِبْهُمْ سَيِّئَةٌ يَقُولُوا هَٰذِهِ مِنْ عِندِكَ﴾ حتى يبعدوا أنفسهم عن دائرة المسؤولية، ويشوهوا -من جهة أخرى- سمعة القيادة ويشككوا في كفاءتها، وهذه من صفة هذه الفئة ضعيفة الإرادة.

﴿قُلْ كُلٌّ مِّنْ عِندِ اللَّهِ فَمَالِ هَٰؤُلَاءِ الْقَوْمِ لَا يَكَادُونَ يَفْقَهُونَ حَدِيثًا﴾ لأن عقدة الخوف من الموت، والفرار من المسؤولية لا تجعلهم يفقهون الحديث وما وراءه من حقائق.

إن الخوف أكبر حجاب بين الإنسان والحقائق، وكثير من الناس يبتعدون عن التوجيه ومراكزه ومصادرِهِ خشية ان يفقهوا ويعوا فتلزمهم المسؤولية، وكثير منهم يكفرون برجال الله من النبيين والصديقين، هرباً من مسؤولية طاعتهم.

بين الحسنات والسيئات

[٧٩] الحسنات والسيئات مصدرهما المباشر هو الله الحكيم العليم، فلا تقدر الحسنة ولا السيئة لبشر إلا وفق حكمة بالغة، وهدف محدد، وما الله بظلام للعبيد.

وهذه الفكرة التي وضعتها الآية السابقة تبين لنا عقلانية الكون، وأنه يسير وفق تدبير

رشيد ويدبره رب قدير بحكمة ولهدف.

ويبقى سؤال: إذن لماذا تصيب البعض المصائب، ويتمتع الآخر بالحسنات حيناً؟! ولماذا تصيبنا الحسنات حيناً.. والسيئات حيناً آخر؟.

ويجيب القرآن في هذه الآية عن هذا السؤال قائلا:

أما الحسنات فإن الله حين خلق الناس أراد أن يرحمهم لا أن يعذبهم، وقد وفر لهم كل وسائل الراحة والسعادة والرفاه، وهو لم يطالبنا بثمن مقابل نعمه التي لا تحصى، ولذلك فإن الحسنات من الله ويجب أن نشكره عليها، أما السيئات فليست من الله بالرغم من أنها تأتي من عند الله، إنها من نفس الإنسان فهو الذي يختار لنفسه العذاب، فيبدل خلق الله، ويخالف سنن الحياة وطبيعة الأشياء، وآنئذ يقرر الله له العذاب، فيأتي العذاب من عند الله.

﴿مَّآ أَصَابَكَ مِنْ حَسَنَةٍ فَمِنَ ٱللَّهِ وَمَآ أَصَابَكَ مِن سَيِّئَةٍ فَمِن نَّفْسِكَ وَأَرْسَلْنَٰكَ لِلنَّاسِ رَسُولًا وَكَفَىٰ بِٱللَّهِ شَهِيدًا﴾ وهذه الفكرة تعطينا إيماناً إيجابيًّا بالحياة، وأنها سعادة ورفاه، فتطلق مواهب الإنسان في طريق التقدم والرقي.

ويلاحظ الفرق بين كلمتي ﴿مِنَ﴾ و﴿عِندِ﴾ في الآيتين، لكي يصبح التناسق بين الآيتين واضحاً، إذن فتبرير اللامسؤولية ورفض طاعة الرسول ﷺ والقول بأنها هي سبب المصيبات إنه تبرير سخيف.

طاعة القيادة امتداد لطاعة الله

﴿مَّن يُطِعِ ٱلرَّسُولَ فَقَدْ أَطَاعَ ٱللَّهَ ۖ وَمَن تَوَلَّىٰ فَمَآ أَرْسَلْنَٰكَ عَلَيْهِمْ حَفِيظًا ﴿٨٠﴾ وَيَقُولُونَ طَاعَةٌ فَإِذَا بَرَزُوا۟ مِنْ عِندِكَ بَيَّتَ طَآئِفَةٌ مِّنْهُمْ غَيْرَ ٱلَّذِى تَقُولُ ۖ وَٱللَّهُ يَكْتُبُ مَا يُبَيِّتُونَ ۖ[1] فَأَعْرِضْ عَنْهُمْ وَتَوَكَّلْ عَلَى ٱللَّهِ ۚ وَكَفَىٰ بِٱللَّهِ وَكِيلًا[2] ﴿٨١﴾ أَفَلَا يَتَدَبَّرُونَ[3] ٱلْقُرْءَانَ ۚ وَلَوْ كَانَ مِنْ عِندِ غَيْرِ ٱللَّهِ لَوَجَدُوا۟ فِيهِ ٱخْتِلَٰفًا كَثِيرًا ﴿٨٢﴾ وَإِذَا جَآءَهُمْ أَمْرٌ مِّنَ ٱلْأَمْنِ أَوِ ٱلْخَوْفِ أَذَاعُوا۟ بِهِۦ ۖ وَلَوْ رَدُّوهُ إِلَى ٱلرَّسُولِ وَإِلَىٰٓ أُو۟لِى ٱلْأَمْرِ مِنْهُمْ لَعَلِمَهُ ٱلَّذِينَ يَسْتَنۢبِطُونَهُۥ[4] مِنْهُمْ ۗ وَلَوْلَا فَضْلُ ٱللَّهِ عَلَيْكُمْ وَرَحْمَتُهُۥ لَٱتَّبَعْتُمُ ٱلشَّيْطَٰنَ إِلَّا قَلِيلًا ﴿٨٣﴾﴾.

هدى من الآيات:

حاجة الأمة إلى الطاعة المبدئية هي أكبر من حاجتها إلى أي شيء آخر، إذ التعاون والتطوير، والمواجهة مع الأعداء، وبناء وإعداد الجبهة الداخلية و.. و..، كل تلك نتيجة مباشرة للطاعة، وإنما تتقدم الأمم بقدر تماسكها واندفاعها ووحدة مسيرتها، وهي كلها تأتي نتيجة الطاعة.

وهنا يعود القرآن ليذكرنا بضرورة الطاعة في سياق الحديث عن الانضباط في المجتمع المسلم خصوصاً في الأزمات. وبينت الآيات:

(١) بيَّت: دبّر بليل، أي إحكام الأمر ليلًا.
(٢) الوكيل: القائم بما فوض إليه التدبير.
(٣) يتدبرون: التدبر النظر في عواقب الأمور، الإذاعة: التفريق.
(٤) يستنبطونه: يستخرجونه، وأصل الاستنباط الاستخراج.

أولاً: إن طاعة الرسول ﷺ هي طاعة الله لا اختلاف بينهما ولا تناقض، وإن الرسول ليس موكلاً بالأمة بل قائداً لها.

ثانياً: ثم بينت صورة واقعية عن الطاعة، متمثلة في سلوك المنافقين الذي يجب أن يتجنبه المؤمنون وهو: التظاهر بالطاعة أمام الرسول ﷺ، وحبك المؤامرات ضده في الليالي، وعلى القيادة ألا تهتم بهؤلاء، بل تبعدهم عن المهام الرسالية، وتتوكل على الله، وتتوجه إلى الصادقين.

وطاعة الله عز وجل وطاعة رسول الله ﷺ واحدة، إذ ان الرسول ﷺ إنما يجسد تعاليم الله تعالى، ولولا طاعة الرسول ﷺ لانهار بناء التوحيد، وهذا التماسك في المبادئ الإسلامية، والتكامل والوحدة فيها لدليل على أنها من الله، إذ أن أي مبدأ بشري لابد أن تجد فيه تناقضاً بين الأيدلوجية والتشريع، وبين بنود الأيدلوجية ذاتها، وقوانين التشريع مع بعضها.

وعاد القرآن إلى الحديث عن الصور الواقعية للطاعة فأمر بالطاعة حين تعرض الشخص لظاهرة اجتماعية كالحرب والسلام، وذلك بأن لا يذيع الأخبار حولها إلا بعد مراجعة القيادة الشرعية المتمثلة في الرسول ﷺ وفي العلماء الذين يستنبطون الأحكام من القرآن الكريم. ثم بين صعوبة ذلك إلا بالتوكل على الله، إذ أنه من دون فضله ورحمته يتبع الناس الشيطان إلا قليلاً.

بينات من الآيات:

امتداد الطاعة

[٨٠] إن الرسول ﷺ وخلفاءه من الأئمة عليهم السلام والعلماء ليسوا أصناماً يُعبدون من دون الله، بل هم عباد الله، وطاعتهم المفروضة هي امتداد لطاعة الله عزوجل، وفي حدود قيم الله وشرائعه، ومن لا يطيع الرسول ﷺ بدافع إيمانه بالله فلا حاجة فيه، ولا يجب على الرسول أن يفرض عليه الطاعة بأسلوب آخر ﴿مَّن يُطِعِ ٱلرَّسُولَ فَقَدۡ أَطَاعَ ٱللَّهَۖ وَمَن تَوَلَّىٰ فَمَآ أَرۡسَلۡنَٰكَ عَلَيۡهِمۡ حَفِيظٗا﴾.

لا تنافق

[٨١] ولأن طاعة الرسول ﷺ ليست بدوافع مادية، فإنه من المحرَّم النفاق مع الرسول والتظاهر بالطاعة له، ثم التآمر عليه.

﴿ وَيَقُولُونَ طَاعَةٌ فَإِذَا بَرَزُوا مِنْ عِندِكَ ﴾ أي إذا تركوك وخرجوا من بيتك.

﴿بَيَّتَ طَآئِفَةٌ مِّنْهُمْ غَيْرَ ٱلَّذِى تَقُولُ ﴾ بيّت وأضمر الخلاف معك، وتآمر على القيادة.

﴿وَٱللَّهُ يَكْتُبُ مَا يُبَيِّتُونَ ﴾ ليحاسبهم به غداً، وما دام الله يكتب ذلك فليس عليك مسئوليتهم ﴿فَأَعْرِضْ عَنْهُمْ وَتَوَكَّلْ عَلَى ٱللَّهِ وَكَفَىٰ بِٱللَّهِ وَكِيلًا﴾.

إن القيادة الرسالية هي قيادة روحية، يتبعها الملتفون حولها على أساس من القيم التي تمثلها، ولا يجوز لهذه القيادة أن تجمع المنافقين حولها، ثم إذا جد الجد يتفرقون عنها، أو يحاولون تحريف مسيرتها.

القيادة رمز الأمة

[٨٢] والقيادة السياسية هي خلاصة النظام السياسي، والنظام السياسي بدوره هو تجربة ثقافة الأمة، وحضارتها، ومدى سلامة رؤيتها، وصحة تشريعاتها، فإذا تناقضت تركيبة القيادة الواقعية مع شعارات النظام السياسي، أو مع أفكار الأمة وثقافتها وقيمها و.. و.. الخ، فإن ذلك يدل على تناقض في التشريع، أو انحرافات في القيم والثقافة التي تدعي الأمة أنها تلتزم بها.

فإذا كانت الأمة تدعي أنها تدافع عن الحرية مثلاً، وجاءت قيادتها السياسية على أساس من الاستبداد، أو ما يماثله فأية حرية هذه؟!.

وإذا ادعى النظام أنه يلتزم بقيمة التقوى، وجاء على رأس النظام رجل فاجر، أو ادعت ثقافة الأمة أنها ترفع من قيمة العلم وكان الحكام فيها مجموعة من الجهلة الضالين، فإن كلامها هراء، إذ هل يمكن أن ترفع الأمة من قيمة العلم دون أن يصبح العلماء وليس الجهلة قطب إرادتها ومركز قدرتها، وثقل تجمعاتها؟.

هكذا تكون تركيبة القيادة السياسية مثلاً حياً لحقيقة الأمة، ونوع حضارتها، وطبيعة قيمها الحقيقية.

الأمة الإسلامية تتبع قيادة تمثل روح الإسلام، أي الرسول ﷺ وخلفاءه وأئمة التقوى عليهم السلام واليقين واتباعهم لها ليس بهدف الحصول على مصالح عاجلة، بل من أجل الله وتحقيق قيمة وشرائعه، وهذا أبسط دليل على طبيعة الإسلام الحقة، وأنه بعيد عن التناقض.

﴿ أَفَلَا يَتَدَبَّرُونَ ٱلْقُرْءَانَ وَلَوْ كَانَ مِنْ عِندِ غَيْرِ ٱللَّهِ لَوَجَدُوا فِيهِ ٱخْتِلَٰفًا كَثِيرًا ﴾

وليس فقط في حقل القيادة أو النظام السياسي للأمة تظهر تناقضات الأديان والمبادئ وانسجام الإسلام، بل وأيضاً في سائر التشريعات، ففي الاقتصاد ترى ذات القيم التي تجدها في السياسة من العدالة، والحرية، والاستقلال، وفي الأخلاق، والتربية، والاجتماع، وهي في العبادات تجد ذات القيم الواحدة لا تناقض فيها ولا اختلاف، مما يدل على أن الذي أوحى بها كان العليم الخبير، حيث يستحيل أن تجد كتاباً جامعا لدستور الحياة بكل أبعادها، ثم يكون بهذا الانسجام والدقة والتناغم، فسبحان الله الذي أوحى به.

القيادة مرجع الأمة

[٨٣] ومن آيات صدق الرسالة، وأن كتابها القرآن حق لا ريب فيه هو: قيادة الأمة التي تمثل كتابها، حيث يجب على أبناء الأمة أن يطيعوها طاعة شاملة، سواء في شؤون السلم أو الحرب، فمثلاً لو عرف أحدهم خبراً، فعليه أن يذهب به إلى القيادة ويعرضه عليها قبل نشره لتتخذ الإجراء المناسب، فقد يكون الخبر إشاعة كاذبة، وقد يكون وراء الخبر حقيقة يجب على القيادة أن تبادر في اتخاذ الإجراء المناسب قبل نشره.. وهكذا.

﴿ وَإِذَا جَآءَهُمْ أَمْرٌ مِّنَ ٱلْأَمْنِ أَوِ ٱلْخَوْفِ أَذَاعُواْ بِهِۦ ﴾ هؤلاء ليسوا من أهل التقوى واليقين، وإلا فكيف يذيعون الخبر قبل الاطلاع على حقيقته، والخبر المقصود هو فيما يرتبط بالشؤون المهمة حيث عبر عنه القرآن بـ ﴿أَمْرٌ﴾.

﴿وَلَوْ رَدُّوهُ إِلَى ٱلرَّسُولِ وَإِلَىٰٓ أُوْلِي ٱلْأَمْرِ مِنْهُمْ لَعَلِمَهُ ٱلَّذِينَ يَسْتَنۢبِطُونَهُۥ مِنْهُمْ﴾ الاستنباط هو: استخراج حكم الشريعة من خلال النصوص الصحيحة. فهناك في الأمة من أوفى مقدرة لربط القضايا الجزئية بالقيم العامة، وبالقواعد الكلية التي تدل عليها النصوص. وهو قادر على فهم خلفيات الخبر وحكمه الشرعي.

﴿وَلَوْلَا فَضْلُ ٱللَّهِ عَلَيْكُمْ وَرَحْمَتُهُۥ لَٱتَّبَعْتُمُ ٱلشَّيْطَٰنَ إِلَّا قَلِيلًا ﴾ حيث أن الله أوضح لكم سبيل اتباع الحق، وذلك حين أرسل الكتاب، وعلمه رسوله ﷺ وأولي الأمر عليهم السلام من بعده الذين يستنبطون أحكام الدين منه، وأوجب عليكم الرجوع إليهم ليتبعوا الحق وليس الشيطان.

دور الرسول وموقف الأمة

﴿فَقَاتِلْ فِي سَبِيلِ اللَّهِ لَا تُكَلَّفُ إِلَّا نَفْسَكَ وَحَرِّضِ الْمُؤْمِنِينَ عَسَى اللَّهُ أَن يَكُفَّ بَأْسَ الَّذِينَ كَفَرُوا وَاللَّهُ أَشَدُّ بَأْسًا وَأَشَدُّ تَنكِيلًا(١) (٨٤) مَّن يَشْفَعْ(٢) شَفَاعَةً حَسَنَةً يَكُن لَّهُ نَصِيبٌ مِّنْهَا وَمَن يَشْفَعْ شَفَاعَةً سَيِّئَةً يَكُن لَّهُ كِفْلٌ(٣) مِّنْهَا وَكَانَ اللَّهُ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ مُّقِيتًا(٤) (٨٥) وَإِذَا حُيِّيتُم بِتَحِيَّةٍ(٥) فَحَيُّوا بِأَحْسَنَ مِنْهَا أَوْ رُدُّوهَا إِنَّ اللَّهَ كَانَ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ حَسِيبًا(٦) (٨٦) اللَّهُ لَا إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ لَيَجْمَعَنَّكُمْ إِلَىٰ يَوْمِ الْقِيَامَةِ لَا رَيْبَ فِيهِ وَمَنْ أَصْدَقُ مِنَ اللَّهِ حَدِيثًا (٨٧) فَمَا لَكُمْ فِي الْمُنَافِقِينَ فِئَتَيْنِ وَاللَّهُ أَرْكَسَهُم(٧) بِمَا كَسَبُوا أَتُرِيدُونَ أَن تَهْدُوا مَنْ أَضَلَّ اللَّهُ وَمَن يُضْلِلِ اللَّهُ فَلَن تَجِدَ لَهُ سَبِيلًا (٨٨) وَدُّوا لَوْ تَكْفُرُونَ كَمَا كَفَرُوا فَتَكُونُونَ سَوَاءً فَلَا تَتَّخِذُوا مِنْهُمْ أَوْلِيَاءَ حَتَّىٰ يُهَاجِرُوا فِي سَبِيلِ اللَّهِ فَإِن تَوَلَّوْا فَخُذُوهُمْ وَاقْتُلُوهُمْ حَيْثُ وَجَدتُّمُوهُمْ وَلَا تَتَّخِذُوا مِنْهُمْ وَلِيًّا وَلَا نَصِيرًا (٨٩) إِلَّا الَّذِينَ يَصِلُونَ إِلَىٰ قَوْمٍ بَيْنَكُمْ وَبَيْنَهُم مِّيثَاقٌ أَوْ

(١) تنكيلًا: نَكَّلَ به، ندد به وشرد به وهو من الامتناع، والنكال ما يمتنع به من الفساد خوفاً من مثله (العقوبة).

(٢) أصل الشفاعة: من الشفع الذي هو ضد الوتر.

(٣) كفل: نصيب.

(٤) مقيتاً: المقيت: المقتدر.

(٥) التحية: السلام.

(٦) حسيباً: الحسيب الحفيظ لكل شيء حتى لا يشذ منه شيء، وهو مشتق من الحساب الذي هو الإحصاء.

(٧) أركسهم: الرد إلى حكم الكفار.

جَآءُوكُمْ حَصِرَتْ (١) صُدُورُهُمْ أَن يُقَٰتِلُوكُمْ أَوْ يُقَٰتِلُوا۟ قَوْمَهُمْ ۚ وَلَوْ شَآءَ ٱللَّهُ لَسَلَّطَهُمْ عَلَيْكُمْ فَلَقَٰتَلُوكُمْ ۚ فَإِنِ ٱعْتَزَلُوكُمْ (٢) فَلَمْ يُقَٰتِلُوكُمْ وَأَلْقَوْا۟ إِلَيْكُمُ ٱلسَّلَمَ فَمَا جَعَلَ ٱللَّهُ لَكُمْ عَلَيْهِمْ سَبِيلًا ﴿٩٠﴾ سَتَجِدُونَ ءَاخَرِينَ يُرِيدُونَ أَن يَأْمَنُوكُمْ وَيَأْمَنُوا۟ قَوْمَهُمْ كُلَّ مَا رُدُّوٓا۟ إِلَى ٱلْفِتْنَةِ أُرْكِسُوا۟ فِيهَا ۚ فَإِن لَّمْ يَعْتَزِلُوكُمْ وَيُلْقُوٓا۟ إِلَيْكُمُ ٱلسَّلَمَ وَيَكُفُّوٓا۟ أَيْدِيَهُمْ فَخُذُوهُمْ وَٱقْتُلُوهُمْ حَيْثُ ثَقِفْتُمُوهُمْ ۚ وَأُو۟لَٰٓئِكُمْ جَعَلْنَا لَكُمْ عَلَيْهِمْ سُلْطَٰنًا مُّبِينًا ﴿٩١﴾ ﴾.

هدى من الآيات:

دور الرسول ﷺ في الأمة دور القائد المطاع، والناصح الأمين والمحرض لها بالخير والهدى، وليس دور الوكيل المسؤول بديلاً عن الأمة حتى يتحمل ذنبهم جميعاً، ولا ريب أن دور التحرير دور هام، وذلك لأنه سوف يعطي لصاحبه أجر من يعمل بالحسنة. وواجبنا تجاه الرسول ﷺ أن نرد له التحية بأحسن منها، وهذه سنة الله بين الناس جميعاً أن يردوا التحية بأحسن منها.

ومسئوليتنا عموماً نابعة من أننا جميعاً سنقف يوماً للحساب أمام ربنا في يوم لا ريب فيه، وعلينا أن نتحسس أبداً بذلك اليوم حتى نتحسس بالمسؤولية التامة أمام الله سبحانه وتعالى، وجاء الحديث حول ذلك بمناسبة الحديث عن الأمن في المجتمع المسلم، والذين يعكرون صفوه، وعلينا أن نتبع هدى الله وسنة رسوله في اتخاذ مواقفنا من هؤلاء، ولا نخضع مواقفنا للهوى، من هنا فعلينا ألا نختلف في مواقفنا من المنافقين الذين يهددون سلامة الأمة، بل علينا أن نتفق في معاداتهم، إنهم يريدونكم كفاراً لتصبحوا مثلهم، فلا تسبقوهم في حقول الإيمان والحضارة، وإن الموقف الحاسم من المنافقين هو تصفية كيانهم إلاّ بعض فئات منهم هم:

أولاً: الذين تربطهم صلة التحالف معكم.

ثانياً: الضعفاء منهم الذين يخشون مقاتلتكم، ويتخذون موقفاً حياديًّا بينكم وبين قومهم، ويفضلون السلام معكم.

بيد أن من هؤلاء من يتخذ موقف الحياد السلبي، فهو يسعى من أجل الفتنة، ولكنه يريد أن يشعلها بطريقة ذكية تؤمنه من أي ضرر، فهؤلاء يجب إلحاقهم بسائر المنافقين، وبالتالي محاربتهم.

---

(١) الحصير: الضيق، وكل من ضاقت نفسه عن شيء قد أحصر.

(٢) الاعتزال: أن يتنحى الرجل عن الشيء (الابتعاد).

بينات من الآيات:

الأدوار التنفيذية للرسول ﷺ

[٨٤] الرسول ﷺ ليس مبلغا لرسالات الله فحسب، بل ومنفذاً لتلك الرسالات بنفسه سواء نفذها الآخرون أم لا، وهذه الميزة تجعل الناس أكثر ثقة بالرسالات السماوية، وأسرع استجابة ليس فقط لأنهم يجدون أمامهم تجسيداً حيًّا، وعمليًّا لما يسمعونه من الدعوة، بل ولأن (عمل) الرسول ﷺ يصنع (واقعاً) في المجتمع، وأن لهذا الواقع أثراً طبيعياً على المجتمع، ويخلق انعكاسات على الحياة.

فمثلاً قيام الرسول ﷺ في مكة بفك رقاب العبيد بصورة مباشرة، أو عن طريق إعطاء المال لبعض أصحابه حتى يشتروا العبيد ويعتقوهم، إن ذلك خلق انعكاساً على المجتمع الجاهلي، وشكل طبقة اجتماعية قوامها المتحررون من العبودية، وكان لهذه الطبقة أثرها في الحياة.

وإعلان الرسول ﷺ القتال ضد الكفار هو بذاته يشكل حقيقة واقعية تخلف أثرها في تطبيق الدعوة، ومن هنا أمر الله نبيه ﷺ بهذا الإعلان: ﴿فَقَٰتِلۡ فِي سَبِيلِ ٱللَّهِ﴾.

ودور الرسالة هو تثوير الإنسان من أجل تفجير طاقاته، ومن ثم توجيهها في الصراط المستقيم، وليس القيام بمسؤوليات الناس كبديل عنهم، وكذلك دور الرسول ﷺ فهو ليس مكلفا عن الناس، إنما هو راع لهم، ومبلغهم رسالة الله، ومشجعهم على تنفيذ هذه الرسالة ﴿لَا تُكَلَّفُ إِلَّا نَفۡسَكَۚ﴾.

وهذه الفكرة تنسف الواقع الذي نعيش فيه نحن المسلمين، حيث نزعم أن وجود الرسول ﷺ فينا، وحبنا له، وانتماءنا اليه، وأن وجود كتاب الله الكريم بيننا، يكفياننا حضارة وتقدما، ولا نحتاج بعدهما إلى عمل، إنما الرسول ﷺ محرض للانسان ﴿وَحَرِّضِ ٱلۡمُؤۡمِنِينَ﴾ ولكن لا يعني هذا أن الله بعيد عن دعم المؤمنين، بل أن نصره يأتي وراء عمل الناس أنفسهم.

﴿عَسَى ٱللَّهُ أَن يَكُفَّ بَأۡسَ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْۚ وَٱللَّهُ أَشَدُّ بَأۡسٗا وَأَشَدُّ تَنكِيلٗا﴾ فالله هو الذي يكف بأس (وقوة) الذين كفروا، ويجعل بينكم وبين بأسهم حائلاً من الرعب يلقيه في قلوبهم، بسبب قوتكم واستعدادكم للقتال، ولكن الله لا يفعل ذلك حتما، وإنما ﴿عَسَى﴾ أن يفعل ذلك عندما تكون فيكم الصلاحية لذلك، والله قوي حين ينصر أولياءه، وأشد قوة من الكفار، وأقدر على انزال الهزيمة بهم.

اعمل تشفع

[٨٥] وتحريض الرسول ﷺ هو شفاعته عند الله، فبقدر استجابة الناس للرسول يكون قدر سيرهم في طريق الرسول ﷺ المؤدي إلى الله عزوجل، واعتصامهم بحبل الله، وبهذا القدر يشفع الرسول ﷺ لهم عند الله عزوجل.

أما الرسول فإنه سوف يحصل على الأجر من عند الله، وكل شخص يحصل على أجر معين كلما شفع شفاعة حسنة، بأن حرض الناس على العمل الصالح، وبذلك شفع لهم عند الله، أما لو دل على العمل السيء وحرض عليه، فعليه من الوزر بقدر عمل الناس بذلك الوزر كاملاً غير منقوص، لأن الكلمة السلبية أشد خطراً وأكثر ضرراً مما قد يعطيه الكلام الإيجابي من منافع، فجزاء ذلك أكبر من جزاء هذا، وذلك بالقياس إلى الفعل الذي ينتهيان اليه.

﴿ مَّن يَشْفَعْ شَفَٰعَةً حَسَنَةً يَكُن لَّهُۥ نَصِيبٌ مِّنْهَا ۖ وَمَن يَشْفَعْ شَفَٰعَةً سَيِّئَةً يَكُن لَّهُۥ كِفْلٌ مِّنْهَا ﴾ والله يحسب بالضبط مقدار عمل هذا أو ذاك ﴿وَكَانَ ٱللَّهُ عَلَىٰ كُلِّ شَىْءٍ مُّقِيتًا ﴾.

قد أحرض أنا على عمل الخير بكلام، ويذهب كلامي عبر الأقطار ينتقل من أذن لأذن، حتى يتناقله الملايين ويعملون به، ويكتب الله لي نصيباً مقدراً من عمل هؤلاء جميعاً، دون أن أعرف ذلك أو أستطيع أن أحصي قدر الثواب الذي يحصيه الله ويكتبه.

كن محسناً

[٨٦] والكلام الطيب من البشر لابد أن يرد بكلام طيب، والشفاعة الحسنة يجب أن تقبل بالاستجابة لها، والله يحسب على الناس كلامهم الطيب وجوابهم الأحسن أو لا أقل المناسب.

﴿ وَإِذَا حُيِّيتُم بِتَحِيَّةٍ فَحَيُّوا۟ بِأَحْسَنَ مِنْهَآ أَوْ رُدُّوهَآ ۗ إِنَّ ٱللَّهَ كَانَ عَلَىٰ كُلِّ شَىْءٍ حَسِيبًا ﴾ فالسلام مستحب، والجواب فرض، ورد التحية ليس في الكلام فقط بل في الرسالة أيضاً، فمن احترمك ببعث رسالة إليك فعليك أن تردها أو بأحسن منها، وكذلك لو قدم لك أحدهم خدمة فعليك أن تردها بأحسن منها أو بمثلها.

[٨٧] وعلينا أن نتحذر من تجاوز حقوق الناس المفروضة علينا ابتداءً من أكبر حق وحتى حق رد التحية، لأننا سنقف جميعاً أمام الله للحساب في يوم لاريب فيه، وعداً على الله لايخلفه، ﴿وَمَنْ أَصْدَقُ مِنَ ٱللَّهِ حَدِيثًا ﴾.

﴿ٱللَّهُ لَآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ ۚ لَيَجْمَعَنَّكُمْ إِلَىٰ يَوْمِ ٱلْقِيَٰمَةِ لَا رَيْبَ فِيهِ ۗ وَمَنْ أَصْدَقُ مِنَ ٱللَّهِ حَدِيثًا ﴾

ولقد عبر القرآن هنا بكلمة إلى يوم القيامة ربما للدلالة على معنى أنه يجمعكم ويسوقكم إلى ذلك اليوم، ليجعلنا نتصور ذلك اليوم المهيب الذي يساق الناس فيه جميعاً إلى محكمة العدل ليجازي فيها المحسنين والمسيئين بأعمالهم.

ضرورة الالتزام

[٨٨] وعاد القرآن إلى الحديث عن ضرورة الالتزام بتوجيهات الرسالة في اتخاذ المواقف الاجتماعية، فبالنسبة إلى المنافقين علينا ألا نختلف فيهم، بل نتخذ موقفاً واحداً منطلقاً من مبادئنا، ذلك الموقف هو قتال المنافقين بكل حزم، وعدم التعاون معهم بأي شكل من أشكال التعاون، ماداموا ملعونين عند الله، غارقين في أوحال الكفر بسبب ما فعلوه من السيئات.

﴿ ۞ فَمَا لَكُمْ فِي ٱلْمُنَٰفِقِينَ فِئَتَيْنِ ﴾ أي لماذا انقسمتم إلى طائفتين في موضوع المنافقين؟!.

﴿وَٱللَّهُ أَرْكَسَهُم بِمَا كَسَبُوٓاْ ﴾ أي أن الله أركسهم في الضلالة بفعل أعمالهم السابقة.

ومن السفه التفكير بأن التقارب مع المنافقين يسبب هدايتهم، إذ أن الله أضل هؤلاء حين ابتعدوا عن الرسالة، وأصبحت نفوسهم معقدة تجاه الرسالة، فلا يمكن إصلاحهم بل يجب تصفيتهم جسديًا ﴿أَتُرِيدُونَ أَن تَهْدُواْ مَنْ أَضَلَّ ٱللَّهُ وَمَن يُضْلِلِ ٱللَّهُ فَلَن تَجِدَ لَهُۥ سَبِيلًا ﴾.

الهجرة انفصال والتحاق

[٨٩] ليس هذا فقط، بل إن هؤلاء يحاولون إضلالكم أيضا، ويحولونكم إلى جبهة النفاق لتكونوا تماماً مثلهم.

﴿ وَدُّواْ لَوْ تَكْفُرُونَ كَمَا كَفَرُواْ فَتَكُونُونَ سَوَآءً فَلَا تَتَّخِذُواْ مِنْهُمْ أَوْلِيَآءَ حَتَّىٰ يُهَاجِرُواْ فِي سَبِيلِ ٱللَّهِ ﴾ الهجرة في سبيل الله طريق الانفصال عن مجتمع النفاق، والالتحاق بمجتمع الرسالة والذوبان فيه، ولكن لو لم يهاجروا فلاحقوهم في كل واد حتى تقضوا عليهم، لأنهم سوف يشنون عليكم غارات مفاجئة، وعليكم ألا تتعاونوا معهم بأية صورة. ﴿فَإِن تَوَلَّوْاْ فَخُذُوهُمْ وَٱقْتُلُوهُمْ حَيْثُ وَجَدتُّمُوهُمْ وَلَا تَتَّخِذُواْ مِنْهُمْ وَلِيًّا وَلَا نَصِيرًا﴾.

من نسالم؟

[٩٠] وهناك بعض فئات المنافقين لا يشملهم هذا الحكم:

أولاً: المتحالفون معكم، فإذا كان المنافق من طائفة تربطهم بكم صلة الميثاق، فإنه لا

يقتل احتراماً للميثاق.

ثانياً: الذين لا يريدون الاعتداء عليكم بسبب ضعفهم وجبنهم، وهؤلاء لا يجوز الاعتداء عليهم.

﴿إِلَّا ٱلَّذِينَ يَصِلُونَ إِلَىٰ قَوْمِۭ بَيْنَكُمْ وَبَيْنَهُم مِّيثَٰقٌ أَوْ جَآءُوكُمْ حَصِرَتْ صُدُورُهُمْ أَن يُقَٰتِلُوكُمْ أَوْ يُقَٰتِلُوا۟ قَوْمَهُمْ وَلَوْ شَآءَ ٱللَّهُ لَسَلَّطَهُمْ عَلَيْكُمْ فَلَقَٰتَلُوكُمْ﴾ ولكن الله ألقى في قلوبهم الرعب فاسترهبوكم وجبنوا عن القتال، وقد عبر القرآن عن الجبن بكلمة حصرت صدورهم، وهو تعبير أنيق وعميق حيث أن من يشتد به الخوف تتسارع نبضات قلبه، فتضيق نفسه وكأن قلبه محصور، وهؤلاء ماداموا بعيدين عن قتالكم اتركوهم لشأنهم ﴿فَإِنِ ٱعْتَزَلُوكُمْ فَلَمْ يُقَٰتِلُوكُمْ وَأَلْقَوْا۟ إِلَيْكُمُ ٱلسَّلَمَ فَمَا جَعَلَ ٱللَّهُ لَكُمْ عَلَيْهِمْ سَبِيلًا﴾.

جزاء المخادعين

[٩١] ولكن من المفروض ألا يكون سلم هؤلاء خداعاً، فلو كان كذلك لوجب تعقبهم وإخضاعهم للقانون.

﴿سَتَجِدُونَ ءَاخَرِينَ يُرِيدُونَ أَن يَأْمَنُوكُمْ وَيَأْمَنُوا۟ قَوْمَهُمْ كُلَّ مَا رُدُّوٓا۟ إِلَى ٱلْفِتْنَةِ أُرْكِسُوا۟ فِيهَا﴾ إن هؤلاء يشاركون أولئك في الجبن، بيد أنهم حاقدون يتحينون الفرص، بينما أولئك يائسون مستسلمون لواقعهم الضعيف.

﴿فَإِن لَّمْ يَعْتَزِلُوكُمْ وَيُلْقُوٓا۟ إِلَيْكُمُ ٱلسَّلَمَ وَيَكُفُّوٓا۟ أَيْدِيَهُمْ فَخُذُوهُمْ وَٱقْتُلُوهُمْ حَيْثُ ثَقِفْتُمُوهُمْ﴾ وبالتالي لو لم يصبح هؤلاء مثل الفئة السابقة في إنهاء حالة العداء، وحبك المؤامرات ضد سلامة الأمة، فلابد من قتالهم.

﴿وَأُو۟لَٰٓئِكُمْ جَعَلْنَا لَكُمْ عَلَيْهِمْ سُلْطَٰنًا مُّبِينًا﴾ السلطان المبين هو: الحجة الدامغة أو القوة القاهرة، ذلك لأن هؤلاء المنافقين يعتبرون متآمرين على سلامة الأمة عابثين بأمنها.

إن هذه الآيات تبين لنا حكم الطوائف المختلفة التي تشكل خطراً على أمن الدولة الإسلامية، وهي عادة الفئات الموتورة والمعقدة التي تساهم في الإخلال بالأمن في البلاد، وهي لا تطبق على الفئات المتمردة على الأنظمة الطاغوتية الحاكمة، لأنها لا تتمتع بشرعية الرسالة كالنظام الإسلامي القائم على أساس الحق، والعدل، والحرية.

الأمن الشخصي

﴿وَمَا كَانَ لِمُؤْمِنٍ أَن يَقْتُلَ مُؤْمِنًا إِلَّا خَطَأً[1] وَمَن قَتَلَ مُؤْمِنًا خَطَأً فَتَحْرِيرُ[2] رَقَبَةٍ مُّؤْمِنَةٍ وَدِيَةٌ[3] مُّسَلَّمَةٌ إِلَىٰ أَهْلِهِ إِلَّا أَن يَصَّدَّقُوا فَإِن كَانَ مِن قَوْمٍ عَدُوٍّ لَّكُمْ وَهُوَ مُؤْمِنٌ فَتَحْرِيرُ رَقَبَةٍ مُّؤْمِنَةٍ وَإِن كَانَ مِن قَوْمٍ بَيْنَكُمْ وَبَيْنَهُم مِّيثَاقٌ فَدِيَةٌ مُّسَلَّمَةٌ إِلَىٰ أَهْلِهِ وَتَحْرِيرُ رَقَبَةٍ مُّؤْمِنَةٍ فَمَن لَّمْ يَجِدْ فَصِيَامُ شَهْرَيْنِ مُتَتَابِعَيْنِ تَوْبَةً مِّنَ اللَّهِ وَكَانَ اللَّهُ عَلِيمًا حَكِيمًا (٩٢) وَمَن يَقْتُلْ مُؤْمِنًا مُّتَعَمِّدًا فَجَزَاؤُهُ جَهَنَّمُ خَالِدًا فِيهَا وَغَضِبَ اللَّهُ عَلَيْهِ وَلَعَنَهُ وَأَعَدَّ لَهُ عَذَابًا عَظِيمًا (٩٣) يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا إِذَا ضَرَبْتُمْ فِي سَبِيلِ اللَّهِ فَتَبَيَّنُوا وَلَا تَقُولُوا لِمَنْ أَلْقَىٰ إِلَيْكُمُ السَّلَامَ لَسْتَ مُؤْمِنًا تَبْتَغُونَ عَرَضَ[4] الْحَيَاةِ الدُّنْيَا فَعِندَ اللَّهِ مَغَانِمُ كَثِيرَةٌ كَذَٰلِكَ كُنتُم مِّن قَبْلُ فَمَنَّ اللَّهُ عَلَيْكُمْ فَتَبَيَّنُوا إِنَّ اللَّهَ كَانَ بِمَا تَعْمَلُونَ خَبِيرًا (٩٤)﴾.

هدى من الآيات:

استمراراً للحديث عن الأمن في المجتمع الإسلامي، تتحدث الآيات هذه عن أمن الإنسان

---

(١) الخطأ: خلاف الصواب.

(٢) فتحرير: التحرير تفعيل من الحرية، وهو إخراج العبد من الرق إلى الحرية.

(٣) دية: الدية من ودي يدو، أي أعطى المال المقابل للدم.

(٤) عَرَض: يقال لكل متاع الدنيا عَرَض.

ذاته في داخل المجتمع، وجريمة الاعتداء على النفس خطأ أو عمداً، ووجوب دفع الدية الباهظة والتكفير بالصيام لمن قتل نفساً بالخطأ، أما من قتل نفساً متعمداً فإن جزاءه جهنم خالداً فيها.

ولا يجوز الاستخفاف بقضية الدم، بل حتى في العمليات العسكرية يجب التأكد قبل الهجوم على طائفة، ولا تجوز الإغارة على الناس الآمنين بهدف الحصول على مكاسب مادية منهم بصورة غنائم، إن هذه كانت عادة الجاهلية السوداء.

وإن النفس البشرية محترمة في القانون الإسلامي، ولا يجوز التفريط فيها أبداً، والمجتمع المسلم لابد أن يسوده الأمن، حتى يتحسس كل فرد بالاطمئنان فيندفع في البناء والإعمار.

بينات من الآيات:

قتل الخطأ بين الجواز والكفارة

[٩٢] لا يحق للمؤمن أن يعتدي على نفس مؤمنة إلا عن طريق الخطأ، كأن يريد إصابة طير فأصاب مؤمناً فأرداه قتيلاً.

إن هذه الصورة الوحيدة التي من الممكن ان يقتل فيها مؤمن مؤمناً، أما سائر التبريرات التي كان الإنسان الجاهلي يبرر فيها اعتداءه على الناس، فإنها مردودة على صاحبها، وحتى في حالة الخطأ وضع الإسلام على القاتل كفارة فيها، بالرغم من أن الخطأ هو من مسقطات التكليف التي رفع القلم عنها كما جاء في حديث النبي ﷺ الشهير[1]، ذلك لكي يتحذر الإنسان كثيراً في أعماله حتى لا يصيب أحداً من المؤمنين بسوء، فمثلاً لا يصطاد الطير في منطقة يمكن أن يصيب منها بدل الطير رجلاً مؤمناً خطأ، ولا يصف دواء بطريقة عجولة فيموت بدوائه مؤمن وهكذا، وتكون الكفارة المفروضة على قتل الخطأ سببا لمزيد من التورع، والاحتياط في الدماء، ومراعات شروط السلامة فيما يرتبط بحياة المؤمنين.

ويبقى السؤال: ما هي كفارة قتل الخطأ؟.

يجيب القرآن الكريم: إنها على نوعين:

الأول: عتق رقبة مؤمن فقط، وذلك عندما يكون أهل المقتول كفاراً ذلك لأنه لا يسلم

(١) روي في الكافي: ج٢ ص٤٦٣، عن أبي عبد الله عليه السلام قال قال رسول الله ﷺ: «وُضِعَ عَنْ أُمَّتِي تِسْعُ خِصَالٍ: الْخَطَأُ وَالنِّسْيَانِ وَمَا لَا يَعْلَمُونَ وَمَا لَايُطِيقُونَ وَمَا اضْطُرُّوا إِلَيْهِ وَمَا اسْتُكْرِهُوا عَلَيْهِ وَالطِّيَرَةُ وَالْوَسْوَسَةُ فِي التَّفَكُّرِ فِي الْخَلْقِ وَالْحَسَدُ مَا لَمْ يُظْهِرْ بِلِسَانٍ أَوْ يَدٍ».

المسلم دية للكفار إلا في حالة واحدة وهي اذا كان الكافر حليفاً مع المسلمين، فيجب دفع الدية له وفاء بالحلف.

الثاني: عتق رقبة ودية تسلم إلى أهل المقتول، وذلك حين يكونون مسلمين أو حلفاء للمسلمين.

وإذا لم يقدر القاتل على عتق رقبة سواء كان فقيراً، أو لانعدام الرقبة المستعبدة كما هو الوضع في عصرنا الحاضر، فتتحول الكفارة إلى صيام.

﴿وَمَا كَانَ لِمُؤْمِنٍ أَن يَقْتُلَ مُؤْمِنًا إِلَّا خَطَـًٔا وَمَن قَتَلَ مُؤْمِنًا خَطَـًٔا فَتَحْرِيرُ رَقَبَةٍ مُّؤْمِنَةٍ وَدِيَةٌ مُّسَلَّمَةٌ إِلَىٰٓ أَهْلِهِۦٓ إِلَّآ أَن يَصَّدَّقُوا۟﴾ أي ان يعفو أهل القتيل عن الدية تقرباً إلى الله، وتصديقاً بوعده بثواب العافين عن الناس.

﴿فَإِن كَانَ مِن قَوْمٍ عَدُوٍّ لَّكُمْ وَهُوَ مُؤْمِنٌ﴾ إذا كان القتيل مؤمناً، بيد أن قومه كانوا أعداء محاربين لكم، فهنا تسقط الدية وتبقى الكفارة فقط.

﴿فَتَحْرِيرُ رَقَبَةٍ مُّؤْمِنَةٍ وَإِن كَانَ مِن قَوْمٍۭ بَيْنَكُمْ وَبَيْنَهُم مِّيثَـٰقٌ فَدِيَةٌ مُّسَلَّمَةٌ إِلَىٰٓ أَهْلِهِۦ وَتَحْرِيرُ رَقَبَةٍ مُّؤْمِنَةٍ﴾ لأن الميثاق محترم في الشريعة الإسلامية حتى إذا كان طرفه كافراً ﴿فَمَن لَّمْ يَجِدْ فَصِيَامُ شَهْرَيْنِ مُتَتَابِعَيْنِ تَوْبَةً مِّنَ ٱللَّهِ وَكَانَ ٱللَّهُ عَلِيمًا حَكِيمًا﴾.

إن الدين يضع أنظمته بعدالة تامة فمثلاً: الاعتداء على النفس يجب أن يقابل بتحرير نفس من العبودية، ذلك أن الحرية تطلق طاقات العبد المؤمن، وتجعله يعوض ما فاته من الحياة الاجتماعية عن القتيل الذي خسره المجتمع.

أما الصيام فإنه يأتي بالدرجة الثانية، ليربي صاحبه على الالتزام الأشد في تصرفاته، حتى لا يخطيء مرة ثانية فيقتل مؤمناً آخر خطأً. فلو طبقنا نظام الإسلام، وفرضنا على القتلة الدية والكفارة، أذا لازداد التزام الناس بتعاليم الدين، ولقلت الجرائم.

فمثلاً إن هناك أطباء يقتلون الناس خطأً، فلو طبقنا عليهم نظام الدية والكفارة لكانوا أكثر التزاماً بتعاليم الطب، واهتماماً بروح المريض.

جزاء القتل العمد

[٩٣] إن الاعتداء على النفس البشرية يجازي بالخلود الدائم في النار، بسبب إن القتل

إنهاء لحياة القتيل في الدنيا، فيجازي بإنهاء فرص الحياة في الآخرة.

﴿ وَمَن يَقْتُلْ مُؤْمِنًا مُّتَعَمِّدًا فَجَزَآؤُهُۥ جَهَنَّمُ خَٰلِدًا فِيهَا ﴾ أما جزاؤه في الدنيا فإنه سوف لا يفلح، وسوف يبعد من رحمة الله ونعمه الواسعة ﴿وَغَضِبَ ٱللَّهُ عَلَيْهِ وَلَعَنَهُۥ وَأَعَدَّ لَهُۥ عَذَابًا عَظِيمًا ﴾ والقتل هو القتل بالرغم من أن أساليبه تختلف، فهناك من يقتل الناس مباشرة، وهناك من يحكم عليهم بالقتل، وهناك من يساهم في قتلهم بأفكاره الهدامة، وكل أولئك يلقون في جهنم خالدين فيها.

والمجتمع الذي تجري فيه جريمة القتل كسنة لهو مجتمع شقي بعيد عن رحمة الله، بعيد عن الحياة الهانئة، بعيد عن القيم الرفيعة، قريب إلى الهاوية.

إن لغة الدم هي لغة: يتفاهم بها بعض الناس، وهي ألعن لغة تستخدمها البهائم في الغابات، وهي لا تفصح عن صلاح أبداً، ومن المؤسف أن يكون المجتمع الإسلامي قد تعلم هذه اللغة اللعينة.

تشريعات واقية للدماء

[٩٤] والدم البشري محاط في الشريعة الإسلامية بسياج منيع من الأنظمة الواقية من أن يراق بغير حق، ومن تلك الأنظمة ضرورة التأكد قبل الهجوم الحربي على طائفة، من أن هؤلاء مسلمون أم يريدون الحرب أو السلم، وقبل أن يتثبت المسلمون من إرادة الاعتداء أو المقاومة الدموية في خصومهم لا يجوز لهم البدء بإطلاق النار.

إن الحاكم المؤمن يؤسس جهاز معلومات حربية، لا من أجل كشف العدو فقط، بل ومن أجل معرفة هل ان الحرب هي الطريق الوحيد أمام الأمة ولا مناص لهم منها، أم ان هناك طرقا أخرى للصراع.

﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ إِذَا ضَرَبْتُمْ فِي سَبِيلِ ٱللَّهِ ﴾ أي أخذتم بالتحرك والتنقل في سبيل تحقيق أهداف الإسلام المتمثلة في تحرير الشعوب القامة العدل.

﴿فَتَبَيَّنُواْ﴾ لتعرفوا أعداءكم بالضبط فتأخذوهم، ولا تأخذوا كل الناس بتهمة العداوة، ومن الواضح إن هذه التوجيهات تنفع الأمة في تحقيق أهدافها، إذ أنها تجنبها من أضرار الاعتداء على الأبرياء، واستعدائهم ضد الأمة وضد أهدافها المقدسة. فإذا تبين المسلم فعرف خصمه، واكتشف أنه لا ينوي الاعتداء عليه، بل هو مسالم فحرام إذ ذاك الهجوم عليه بهدف الحصول على مكاسب مادية أو ميدانية.

﴿وَلَا تَقُولُوا لِمَنْ أَلْقَى إِلَيْكُمُ السَّلَامَ لَسْتَ مُؤْمِنًا تَبْتَغُونَ عَرَضَ الْحَيَاةِ الدُّنْيَا﴾ إذ رب عرض[1] أعقب خسارة، ذلك لان استعداء الشعوب، وانتهاب ثرواتهم ظلماً، سوف ينفع الأعداء الحقيقيين للأمة، وتجعلهم موضع عطف الشعوب المقهورة، وسوف تتعاون معهم، بينما لو تركت هذه الشعوب على وضعها فسوف تنتصر الأمة على أعدائها، وتحقق فوائد النصر المضاعفة، لذلك قال الله تعالى: ﴿فَعِندَ اللَّهِ مَغَانِمُ كَثِيرَةٌ﴾ هي مغانم الانتصار على العدو الحقيقي، ومغانم المصالحة مع الشعوب المسالمة، ومغانم السمعة الطيبة عند الأمم، بالإضافة إلى مغانم الآخرة!.

هذه الوصية جاءت لتغيير هدف الحرب وقيمها من الجاهلية إلى الإسلام، ففي الجاهلية كان الناس يحاربون من أجل الحصول على مكاسب مادية مؤقتة (يسميها القرآن هنا بـ(عرض) للدلالة على أنها مؤقتة وتزول) بينما الحرب في الإسلام تهدف إشاعة العدل، وتحقيق الحرية، وإقامة السلام، وهذه القيم لا تتحقق إلا بصعوبة، وبعدم شن الحرب لأهداف مادية.

﴿كَذَٰلِكَ كُنتُم مِّن قَبْلُ فَمَنَّ اللَّهُ عَلَيْكُمْ فَتَبَيَّنُوا إِنَّ اللَّهَ كَانَ بِمَا تَعْمَلُونَ خَبِيرًا﴾ منّ عليكم بالإسلام.. وإنكم ترون ما في الإسلام من فوائد ملموسة أمامكم، منها شعور كل شخص بالأمن الذاتي، فعليكم إذا باتبّاع وصايا الإسلام للإبقاء على هذه الفوائد، ومن تلك الوصايا التبين قبل أي هجوم.

---

(١) العَرَض: الشيء العارض والزائل.

أهداف الجهاد

﴿لَّا يَسْتَوِي الْقَاعِدُونَ مِنَ الْمُؤْمِنِينَ غَيْرُ أُولِي الضَّرَرِ[١] وَالْمُجَاهِدُونَ فِي سَبِيلِ اللَّهِ بِأَمْوَالِهِمْ وَأَنفُسِهِمْ ۚ فَضَّلَ اللَّهُ الْمُجَاهِدِينَ بِأَمْوَالِهِمْ وَأَنفُسِهِمْ عَلَى الْقَاعِدِينَ دَرَجَةً ۚ وَكُلًّا وَعَدَ اللَّهُ الْحُسْنَىٰ ۚ وَفَضَّلَ اللَّهُ الْمُجَاهِدِينَ عَلَى الْقَاعِدِينَ أَجْرًا عَظِيمًا ﴿٩٥﴾ دَرَجَاتٍ[٢] مِّنْهُ وَمَغْفِرَةً وَرَحْمَةً ۚ وَكَانَ اللَّهُ غَفُورًا رَّحِيمًا ﴿٩٦﴾ إِنَّ الَّذِينَ تَوَفَّاهُمُ الْمَلَائِكَةُ ظَالِمِي أَنفُسِهِمْ قَالُوا فِيمَ كُنتُمْ ۖ قَالُوا كُنَّا مُسْتَضْعَفِينَ فِي الْأَرْضِ ۚ قَالُوا أَلَمْ تَكُنْ أَرْضُ اللَّهِ وَاسِعَةً فَتُهَاجِرُوا فِيهَا ۚ فَأُولَٰئِكَ مَأْوَاهُمْ جَهَنَّمُ ۖ وَسَاءَتْ مَصِيرًا ﴿٩٧﴾ إِلَّا الْمُسْتَضْعَفِينَ مِنَ الرِّجَالِ وَالنِّسَاءِ وَالْوِلْدَانِ لَا يَسْتَطِيعُونَ حِيلَةً وَلَا يَهْتَدُونَ سَبِيلًا ﴿٩٨﴾ فَأُولَٰئِكَ عَسَى اللَّهُ أَن يَعْفُوَ عَنْهُمْ ۚ وَكَانَ اللَّهُ عَفُوًّا غَفُورًا ﴿٩٩﴾ ۞ وَمَن يُهَاجِرْ[٣] فِي سَبِيلِ اللَّهِ يَجِدْ فِي الْأَرْضِ مُرَاغَمًا[٤] كَثِيرًا وَسَعَةً ۚ وَمَن يَخْرُجْ مِن بَيْتِهِ مُهَاجِرًا إِلَى اللَّهِ وَرَسُولِهِ ثُمَّ يُدْرِكْهُ الْمَوْتُ فَقَدْ وَقَعَ أَجْرُهُ عَلَى اللَّهِ ۗ وَكَانَ اللَّهُ غَفُورًا رَّحِيمًا ﴿١٠٠﴾﴾.

هدى من الآيات:

بعد الحديث عن الأمن الاجتماعي الذي جاء بدوره في أعقاب الحديث عن الطبقات الاجتماعية، يأتي الحديث عن بعض أهداف القتال في الإسلام بمناسبة الحديث عن طبقة

---

(١) الضرر: النقصان وهو كل ما يضرك من عسر ومرض وعلة.
(٢) درجات: جمع درجة وهي المنزلة.
(٣) يهاجر: المهاجرة المفارقة.
(٤) المراغم: المضطرب في البلاد والمذاهب، وأصله من الرغام وهو التراب.

اجتماعية هي طبقة المهاجرين داخل الأمة.

فما دامت القيم هي هدف الحروب الإسلامية، فإن هذه القيم هي:

الأولى: عدم الاعتداء على الشعوب تحت شعار أو آخر.

الثانية: القتال من أجل الله، وان يجعل المقاتلون في سبيل الله في درجة عالية داخل المجتمع.

الثالثة: تحرير الشعوب المستضعفة، وهذا التحرير يرتبط بالأمة الإسلامية كما يرتبط بالشعوب ذاتها، فعلى كل شعب أن يقوم بتحرير ذاته من الطواغيت، ولو كان بالهجرة التي تهدف تقوية الذات من أجل شن حرب ضد الجبابرة والمتسلطين.

والأمر بالهجرة من قبل الإسلام يفرغ جبهات العدو من العناصر الخيرة التي اضطرت لمقاومة المسلمين الذين جاؤوا لتحريرهم، كما ويدعم الجبهة الإسلامية بالعناصر الجيدة، كما أن الإسلام بأمره بالهجرة يتم حجته على المقاومين لحركة الفتح الإسلامي، فلا يستطيعون تبرير مواقفهم بأنهم كانوا مضطرين إلى ذلك.

بينات من الآيات:

مواقف المجتمع من الجهاد

[٩٥] بالنسبة إلى الجهاد في سبيل الله، يختلف الناس فيه إلى ثلاث فئات: فئة مجاهدة، وفئة لا تجاهد وعاجزة عن الجهاد، وفئة تقعد عن الجهاد وهي قادرة عليه، والفئتان الأوليتان أفضل عند الله من الفئة الثالثة، وبالتالي أفضل داخل المجتمع الإسلامي، ولهما حقوق ليست لسائر أبناء المجتمع.

﴿لَّا يَسْتَوِي الْقَاعِدُونَ مِنَ الْمُؤْمِنِينَ غَيْرُ أُولِي الضَّرَرِ وَالْمُجَاهِدُونَ فِي سَبِيلِ اللَّهِ بِأَمْوَالِهِمْ وَأَنفُسِهِمْ ۚ فَضَّلَ اللَّهُ الْمُجَاهِدِينَ بِأَمْوَالِهِمْ وَأَنفُسِهِمْ عَلَى الْقَاعِدِينَ دَرَجَةً﴾ وهذه الدرجة هي: أن المجاهدين تتخصص لهم أموال الأمة قبل القاعدين، وأن لهم التأثير في حياة الأمة الاجتماعية أكثر من القاعدين، وفي الآخرة تعتبر أعمالهم أثوب عند الله، وتقبل صدقاتهم قبل ان تقبل من القاعدين.

إن صلاة المجاهدين في سبيل الله ترفع إلى الله بسرعة البرق، لأن صاحبها قرن القول بالعمل، أما صلاة القاعد فإنها قد ترفع أو لا ترفع، وإذا رفعت فإنما ترفع بشروط قاسية، ومثل

الصلاة سائر العبادات والممارسات، ذلك ان الجهاد في سبيل الله يفتح عقل صاحبه، ويعطيه الهدىَ والمعرفة والإيمان، والمجاهد في سبيل الله يزوده الله ببصيرة واضحة في الحياة، لأنه اقتحم عقبة الذات ولم يعد بينه وبين الحقائق الكونية حاجز من الهلع والخوف والطمع والتردد والشك، فإذا به تنكشف أمامه حقائق الكون بوضوح، ويزداد إيمانه بالله وبالقيم قوة وثباتا.

والمجاهد في سبيل الله لا يعيش نفاقا في ذاته، ولا تناقضاً بين الدنيا والآخرة، إنه قد باع الدنيا بالآخرة، واشترى بنفسه جنة عرضها السماوات والأرض، فهو مطمئن من نفسه، واثق من طريقته ومنهجه.

ولكن لا يعني هذا أن القاعدين كفار، بل هم مدنيون، عليهم أن يهيئوا مصالح العباد، فالفلاح في حقله، والعامل في مصنعه، والكاتب في مكتبه، والكاسب والتاجر و.. و..، لكل واحد من هؤلاء واجب، ومسؤولية ودور يؤديه في الحياة، وعليه أن يؤدي دوره تماماً ودون غش فيه.

إن المدنيين في المجتمع الإسلامي يشكلون الصفوف الخلفية للجهاد في سبيل الله، فلولا زيادة الإنتاج الزراعي، ولولا جودة الصناعة الإسلامية، ولولا سلامة وصدق البحوث العلمية المؤدية إلى الكشوف والاختراعات، ولولا تدوير الثروة بين التاجر والكاسب و.. و.. الخ، لولا كل ذلك لما تمكن الجندي المسلم أن يؤدي دوره بالكامل، ولذلك بين القرآن هنا: أن أفضلية المجاهد لا تعني أبداً أن القاعد (العامل بوظائفه المدنية) قد غمط حقه، وجهل قدره وقيمته وقال: ﴿وَكُلًّا وَعَدَ ٱللَّهُ ٱلْحُسْنَىٰ﴾ بايمانه واتباعه لمناهج الله في الحياة، وعاد القرآن وأكد أهمية الجهاد وفضل المجاهدين وقال: ﴿وَفَضَّلَ ٱللَّهُ ٱلْمُجَٰهِدِينَ عَلَى ٱلْقَٰعِدِينَ أَجْرًا عَظِيمًا﴾ ذلك لكي يُبيّن أن المجاهد رفعه الله درجة في الدنيا، وأعطاه أجراً عظيماً في الدنيا والآخرة.

أجر المجاهدين

[٩٦] المجاهد يتمتع باجر عظيم فما هو ذلك الأجر؟.

أولاً: إنه يرفع عند الله درجات بقدر جهاده وتضحيته، وتنعكس هذه الدرجات في الدنيا أيضاً مثلاً: إن المجاهد يحسب عند الله عالماً ويعطى درجة العلم، لأن الجهاد يفتح عقل صاحبه، ويجعله يعرف كثيراً من الأشياء التي يجهلها الناس القاعدون.

فدرجة العلم ينالها المجاهد عند الله، كما ينعكس ذلك في حياته في الدنيا أيضاً حيث يصبح عالماً فعلاً، وكذلك يعطى درجة الإيمان والتقوى والشجاعة والطاعة والانضباط

وطول العمر والصحة. وكل تلك الآثار الخيرة للجهاد هي درجات ومكاسب في الآخرة تنعكس أيضاً في الدنيا.

ثانياً: إنه يمنح المغفرة والتوبة، حيث أن الله سبحانه يمحو سيئاته السابقة، ولا يجازيه بها في الآخرة، كما أنه في الدنيا يتخلص من آثارها السلبية على نفسه.

إن الحسود المعقد المنطوي على ذاته، والضعيف الإرادة والكثير القول، القليل العمل، التارك بإهماله كثيراً من الواجبات، والمرتكب بضعف إرادته كثيراً من المحرمات، إنه إذا انخرط في الحياة العسكرية الإسلامية سوف تتغير عنده الصفات بفضل الخشونة والتعب ومواجهة الأخطار في العسكرية، فيصبح الجهاد بالنسبة اليه مدرسة تربوية كاملة التأثير، وهذه المغفرة التي ينالها المجاهد وهي: الصياغة الجديدة للشخصية، وهي من خصائص الجهاد.

ثالثاً: إن الله يعطي المجاهد الرحمة، وهي تعني في الآخرة المعاملة الحسنة،

وقبول أعماله الصالحة بلا تردد، وعدم التدقيق في حسابه، أما في الدنيا فتعني: فتح أبواب الحياة أمامه، لأن الجهاد يربي صاحبه على التحكم في ذاته وفي الحياة، ومن كان كذلك وفقه الله في الدنيا، بالإضافة إلى السمعة الطيبة التي يحصل عليها المجاهدون في المجتمع، من هنا يصبحون موضع تقدير واحترام الجميع.

هذه هي مكاسب الجهاد درجات ومغفرة ورحمة، لخصها الله تعالى بقوله: ﴿ دَرَجَٰتٍ مِّنۡهُ وَمَغۡفِرَةً وَرَحۡمَةًۚ وَكَانَ ٱللَّهُ غَفُورًا رَّحِيمًا ﴾.

واجب المستضعفين

[٩٧] على الشعوب المستضعفة التي يتحكم فيها الطغاة بالاستبداد والظلم، ويسلبون حريتها بالقوة، عليها السعي لإنقاذ نفسها، وإذا لم تستطع الانتصار لنفسها في أرضها فعليها الهجرة إلى أرض أخرى ضماناً لحريتها، وبالطبع في ظل الدولة الإسلامية ستكون الأرض المسلمة معقل الحرية، ومأوى المهاجرون الأحرار، وعن طريق هجرة هؤلاء إليها تدعم قضيتهم، لأن الأمة الإسلامية تحمل على عاتقها رسالة تحرير الشعوب المستضعفة، وهؤلاء الأحرار المهاجرون سوف يزيدون من قوة الأمة، ويعجلون عملية تحرير أراضيهم من نير الطغاة والمحتلين.

والذين لايهاجرون في سبيل الله إلى موطن آمن، ويبررون ارتكابهم للسيئات، ومساهمتهم في ظلم أنفسهم وعدم الرد على المعتدين عليهم هؤلاء سوف يساقون يوم القيامة إلى جهنم، ذلك

لأن الظالم والمظلوم في الذنب سواء، إذ كان بإمكان المظلوم دفع الظلم عن نفسه ولم يفعل.

﴿ إِنَّ ٱلَّذِينَ تَوَفَّىٰهُمُ ٱلْمَلَٰٓئِكَةُ ظَالِمِىٓ أَنفُسِهِمْ ﴾ أي جاءتهم الوفاة حين كانوا يظلمون أنفسهم، إما بعدم الرد على ظلم الظالمين لهم، أو باقترافهم السيئات تحت ضغط الظالمين.

﴿قَالُواْ فِيمَ كُنتُمْ﴾ أي كيف كنتم تعيشون وفي أية حالة؟! بالطبع لم يكونوا يعيشون في حالة رضا، ولا في حالة طاعة لله لأنهم كانوا في ظل حكم غاشم، ولكنهم لم يبينوا حالتهم، بل بينوا فقط عذرهم الذي سرعان ما رد في وجوههم.

﴿قَالُواْ كُنَّا مُسْتَضْعَفِينَ فِى ٱلْأَرْضِ﴾ قالوا: مستضعفين ولم يقولوا ضعفاء، لأن الله لم يخلق أحداً ضعيفاً، بل الناس هم الذين يساهمون في إضعاف أنفسهم، أو إضعاف بعضهم لبعض.

﴿قَالُوٓاْ أَلَمْ تَكُنْ أَرْضُ ٱللَّهِ وَٰسِعَةً فَتُهَاجِرُواْ فِيهَا﴾ مادامت الأرض لله، ومادام الإنسان عبداً له، فلماذا يستمر في أرض واحدة؟ لماذا يعبد أقرانه حتى ولو كان عليه الظلم والكبت؟ أفليس «خَيْرُ الْبِلَادِ مَا حَمَلَكَ»[1] كما قال الإمام علي عليه السلام.

إن جزاء هؤلاء هو إشراكهم في ظلم الظالمين لهم، بالإضافة إلى جزاء سيئات أعمالهم التي لا يبررها الضغط عليهم من قبل الظالمين، مادامو قادرين على الهجرة عن أرض الظلم ﴿فَأُوْلَٰٓئِكَ مَأْوَىٰهُمْ جَهَنَّمُ وَسَآءَتْ مَصِيرًا ﴾

المستضعفون وواجب الهجرة

[٩٨] بلى، هناك طائفة من المستضعفين لا يستطيعون الهجرة، فأولئك قد يعفيهم الله من جزاء بقائهم في أرض الظلم.

﴿ إِلَّا ٱلْمُسْتَضْعَفِينَ مِنَ ٱلرِّجَالِ وَٱلنِّسَآءِ وَٱلْوِلْدَٰنِ لَا يَسْتَطِيعُونَ حِيلَةً وَلَا يَهْتَدُونَ سَبِيلًا ﴾ فهؤلاء قد يكونون رجالاً أو نساءً أو شباباً، وهذا يعني أن الهجرة مفروضة على كل الرجال القادرين، وكل النساء القادرات، وكل الشباب القادرين، وليس من الصحيح بقاء المرأة القادرة على الهجرة لأن زوجها غير قادر، أو بقاء الشاب لأن والديه لا يستطيعان الهجرة.

ذلك لأن الله سوف يحاسب كل واحد منا على عمله بشكل انفرادي، ولا ينام اثنان في قبر واحد. وانما يعفى هؤلاء عن جزاء الهجرة إذا لم يكونوا قادرين على دفع الظلم، ولا على الهجرة من أرض الظلم، فهم لا يستطيعون حيلة لمنع الظلم عن أنفسهم ولا يهتدون سبيلاً

(١) نهج البلاغة: حكمة: ٤٤٢.

للخروج من بلد الظالمين.

[٩٩] ولا يسقط واجب الهجرة عن هؤلاء بمجرد عدم الهجرة، بل عليهم أن يهيئوا لأنفسهم وسائل القوة حتى يهاجروا، أو يمنعوا الظلم عن أنفسهم، ولذلك عبر القرآن عن سقوط واجب الهجرة عن هؤلاء بقوله: ﴿عَسَى﴾ للدلالة على الاحتمال القوي دون التأكيد، حتى لا ينام المظلومون على الظلم تحت تأثير مخدر اليأس، وتبرير عدم القدرة على الهجرة أو الثورة.

كلا فإن الإنسان غير القادر عند نفسه، قد يكون قادراً في الواقع لو تحرك متوكلا على الله.. قال الله تعالى: ﴿فَأُولَٰئِكَ عَسَى اللَّهُ أَن يَعْفُوَ عَنْهُمْ ۚ وَكَانَ اللَّهُ عَفُوًّا غَفُورًا﴾ إن صفة العفو الكاملة عند الله هي وراء العفو عن هؤلاء، وإلا فهم مسؤولون أيضاً عن عواقب سكوتهم وبقائهم مع الظالمين.

ماذا تعني الهجرة؟

[١٠٠] والهجرة لا تعني الاستغناء عن الوطن، بل معناها الانتقال من الوطن الصغير إلى الوطن الكبير، من الأفق الأضيق إلى الأفق الأرحب، إلى حيث الرخاء والحرية.

فهناك أراض واسعة خلقها الله، والمهاجر سيجدها أمامه اذا لم يدركه الموت في الطريق، أما إذا أدركه فإنه سيجد أمامه رحمة الله والجنة.

﴿۞ وَمَن يُهَاجِرْ فِي سَبِيلِ اللَّهِ يَجِدْ فِي الْأَرْضِ مُرَاغَمًا كَثِيرًا وَسَعَةً ۚ﴾ سيجد تراباً كثيراً، والتراب يشكل نصف حضارة الإنسان، لأنه موقع السكن والزراعة والسياحة، ونصفها الآخر الحرية التي عبر عنها القرآن بـ﴿سَعَةً﴾، حيث يمكن للبشر في ظل الحرية أن يستثمر طاقات التراب، ويعيش حياة هانئة ﴿وَمَن يَخْرُجْ مِن بَيْتِهِ مُهَاجِرًا إِلَى اللَّهِ وَرَسُولِهِ ثُمَّ يُدْرِكْهُ الْمَوْتُ فَقَدْ وَقَعَ أَجْرُهُ عَلَى اللَّهِ ۗ﴾ لأنه هاجر بهدف دعم قضية الرسالة المتمثلة في تطبيق مناهج الله وتحرير عباد الله ﴿وَكَانَ اللَّهُ غَفُورًا رَّحِيمًا﴾.

وكلمة أخيرة: إن نظرة واحدة إلى التاريخ تعطينا فكرة واضحة عن دور الهجرة الأساسي في تأسيس كل الحضارات الكبرى، وفي أغلب الحركات الإصلاحية والتحررية في العالم عبر العصور، وأهمية الإسلام أنه يجعل الهجرة واجباً دينيًّا مقدساً، وقاعدة أساسية في حياة المؤمنين، وبذلك يضمن للحركة الإصلاحية البقاء، والتوسع، والقدرة على تجاوز القوى الطاغوتية، كما يجعل لها أفقاً عالميًّا يساعد على تركيع الطغاة بفضل تعاون الشعوب الساعية نحو التحرر والتقدم والتطوير.

صلاة الخوف

﴿ وَإِذَا ضَرَبْتُمْ فِي ٱلْأَرْضِ فَلَيْسَ عَلَيْكُمْ جُنَاحٌ أَن تَقْصُرُوا۟ مِنَ ٱلصَّلَوٰةِ إِنْ خِفْتُمْ أَن يَفْتِنَكُمُ ٱلَّذِينَ كَفَرُوٓا۟ ۚ إِنَّ ٱلْكَٰفِرِينَ كَانُوا۟ لَكُمْ عَدُوًّا مُّبِينًا ﴿١٠١﴾ وَإِذَا كُنتَ فِيهِمْ فَأَقَمْتَ لَهُمُ ٱلصَّلَوٰةَ فَلْتَقُمْ طَآئِفَةٌ مِّنْهُم مَّعَكَ وَلْيَأْخُذُوٓا۟ أَسْلِحَتَهُمْ [1] فَإِذَا سَجَدُوا۟ فَلْيَكُونُوا۟ مِن وَرَآئِكُمْ وَلْتَأْتِ طَآئِفَةٌ أُخْرَىٰ لَمْ يُصَلُّوا۟ فَلْيُصَلُّوا۟ مَعَكَ وَلْيَأْخُذُوا۟ حِذْرَهُمْ وَأَسْلِحَتَهُمْ ۗ وَدَّ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ لَوْ تَغْفُلُونَ عَنْ أَسْلِحَتِكُمْ وَأَمْتِعَتِكُمْ فَيَمِيلُونَ عَلَيْكُم مَّيْلَةً وَٰحِدَةً ۚ وَلَا جُنَاحَ [2] عَلَيْكُمْ إِن كَانَ بِكُمْ أَذًى مِّن مَّطَرٍ أَوْ كُنتُم مَّرْضَىٰٓ أَن تَضَعُوٓا۟ أَسْلِحَتَكُمْ ۖ وَخُذُوا۟ حِذْرَكُمْ ۗ إِنَّ ٱللَّهَ أَعَدَّ لِلْكَٰفِرِينَ عَذَابًا مُّهِينًا ﴿١٠٢﴾ فَإِذَا قَضَيْتُمُ ٱلصَّلَوٰةَ فَٱذْكُرُوا۟ ٱللَّهَ قِيَٰمًا وَقُعُودًا وَعَلَىٰ جُنُوبِكُمْ ۚ فَإِذَا ٱطْمَأْنَنتُمْ [3] فَأَقِيمُوا۟ ٱلصَّلَوٰةَ ۚ إِنَّ ٱلصَّلَوٰةَ كَانَتْ عَلَى ٱلْمُؤْمِنِينَ كِتَٰبًا مَّوْقُوتًا ﴿١٠٣﴾ وَلَا تَهِنُوا۟ [4] فِي ٱبْتِغَآءِ ٱلْقَوْمِ ۖ إِن تَكُونُوا۟ تَأْلَمُونَ فَإِنَّهُمْ يَأْلَمُونَ [5] كَمَا تَأْلَمُونَ ۖ وَتَرْجُونَ مِنَ ٱللَّهِ مَا لَا يَرْجُونَ ۗ وَكَانَ ٱللَّهُ عَلِيمًا حَكِيمًا ﴿١٠٤﴾ ﴾.

---

(١) أسلحة: جمع سلاح وهو اسم لجملة ما يدفع به الناس عن أنفسهم في الحروب.

(٢) جنحت: عن المكان إذا عدلت عنه وأخذت جانباً.

(٣) اطمأن: الشيء سكن (هدأ).

(٤) الوهن: الضعف.

(٥) الألم: الوجع.

هدى من الآيات:

الآيات الثلاث الأولى بينت بعض ما يرتبط بالهجرة والقتال من أحكام الصلاة (كالقصر في الصلاة حين السفر، وحين الخوف، وصلاة الخوف جماعة، وواجب التسلح حين إقامة صلاة الخوف). وجاءت هذه الأحكام لتبين عدة حقائق:

أولاً: إن للهجرة أو القتال أهدافاً أساسية ومقدسة تتلخص في رضا الرب، وإقامة حكمه في الأرض، وعلينا ألا ننسى هذه الأهداف، ونحن نعيش صعوبة الحياة أثناء الهجرة، أو القتال، وذلك بإقامة الصلاة أثناء الهجرة أو القتال، والقرآن يريد بناء مجتمع متوازن ومتكامل البناء بما يحقق جميع جوانب الإسلام المادية والروحية.

ثانياً: إن على المسلم ألا يزعم أن العبادات هي أهداف، وأنها لا تتغير، بل إنها -بالرغم من أهميتها- وسائل في إطار الأهداف الكبرى للمسلم، ولذلك

فهي تتطور وفق مقتضيات تحقيق تلك الأهداف، مثل ظروف الحرب أو الهجرة، فالصلاة وهي أهم العبادات تختصر بسبب الهجرة أو الخوف.

ثالثاً: على المسلم ألا ينشغل بالصلاة عن باقي واجبات الاستعداد المادي، فعليه أن يكون حذراً مسلحاً سريعاً ونشيطاً، فإذا كان الاستعداد واجباً حتى حين الصلاة، فكيف به في غير هذه الحالة؟!.

بهذا يريد القرآن أن يبين لنا مدى الضرورة في تحقيق الشروط الموضوعية للنصر على العدو وعدم التكاسل عن واحد منها، بتبرير أننا مسلمون وقضيتنا قضية حقة.

والآية الرابعة والأخيرة تبين هذه الحقيقة بصفة أخرى، اذ تحذرنا من مخاطر الحرب وآلام الهجرة، وتبين لنا ضرورة الاستعداد النفسي لتحملها، وإلا نتصور أن الحرب لعب أو أن الهجرة سياحة، إذ أن هذا التصور قد يؤدي بنا إلى الوهن والارتخاء، والتقاعس عن متابعة المراحل النهائية للحرب، والاكتفاء فقط بإسقاط الواجب.

بينات من الآيات:

القصر وصلاة الخوف

[١٠١] في حالة السفر والخوف من العدو، كما إذا كان المهاجر يتعقبه الكفار ليردوه إلى

معقتل الكبت والإرهاب، هنالك لا بأس عليه أن يصلي قصراً، فيحذف من كل صلاة رباعية ركعتين، بالرغم من أن الصلاة عبادة موقوتة، وعلى المسلم أن يؤديها كما هي دون نقيصة، فإنه بسبب السفر أو الخوف يسقط نصف هذه العبادة ﴿وَإِذَا ضَرَبْتُمْ فِي الْأَرْضِ فَلَيْسَ عَلَيْكُمْ جُنَاحٌ أَنْ تَقْصُرُوا مِنَ الصَّلَاةِ﴾.

ويبقى سؤال: هل القصر واجب في هذه الحالة؟.

الجواب: بلى، والسبب أن تعريض المسلم ذاته للخطر حرام، فإذا كانت الصلاة الواجبة فقط ركعتين، فإضافة ركعتين أخريين في ظروف الخوف حرام.

من هنا اكتفى القرآن بكلمة ﴿لَا جُنَاحَ﴾ أي (لا بأس) لبيان سقوط الوجوب عن الركعتين الإضافيتين[1]. أما حرمة إقامتهما فقد سكت عنها لوضوح الأمر من خلال معرفة ظروف الخوف التي أسقطت قسماً من الصلاة، فلا يجوز التفريط فيها بحياة المسلم، بيد أن السنة الشريفة المؤكدة بينت لزوم القصر وسعته لغير موارد الخوف، كما أن صدر الآية يشير لهذه السعة: ﴿وَإِذَا ضَرَبْتُمْ فِي الْأَرْضِ ...﴾، وقد يكون القيد مجرى الغالب، أو أن هذا مورد بينه القرآن وتكفلت السنة الشريفة ببينان السعة.

﴿إِنْ خِفْتُمْ أَنْ يَفْتِنَكُمُ الَّذِينَ كَفَرُوا﴾ أي أن يخدعوكم بمكيدة، ويعودوا بكم إلى أرض الطاغوت، أو يقتلوكم أثناء الصلاة ﴿إِنَّ الْكَافِرِينَ كَانُوا لَكُمْ عَدُوًّا مُبِينًا﴾ فعليكم التحذر منهم حذراً شديداً.

الحرب وصلاة الجماعة

[١٠٢] أما في حالة الحرب فإن الصلاة تقام جماعة، حيث ينقسم المسلمون إلى طائفتين: طائفة يقيمون الصلاة، وأخرى يواجهون العدو.

أما القائد فهو يصلي بكلتا الطائفتين، حيث أنه يقف أمامهم ووراءه الطائفة المصلية يصلون معه، وفي الركعة الأولى ينتظر الإمام وهو جالس بينما يسارع.

المأمومون بالقيام والركوع والسجود، وحين سجود هذه الطائفة تعود الطائفة الثانية التي لا تزال غير مصلية حتى يصيروا وراء المصلين، وبمجرد انتهاء صلاتهم وزحفهم نحو

(١) قَالَ رَسُولُ اللهِ ﷺ: «مَنْ صَلَّى فِي السَّفَرِ أَرْبَعاً فَأَنَا إِلَى اللَّهِ مِنْهُ بَرِيءٌ [يَعْنِي مُتَعَمِّداً]». وسائل الشيعة: ج٨، ص٥١٨.

العدو، يكون هؤلاء قد استقروا في مكانهم، حيث يقف الإمام ويتابع صلاته، وتأتم به هذه الطائفة بحيث تصبح الركعة الثانية للإمام مساوية للركعة الأولى للمأمومين (وهم هنا الطائفة الثانية) فإذا جلس الإمام للتشهد قام هؤلاء أضافوا ركعة ثانية وأنهوا صلاتهم.

فيكون المحصل أن الإمام صلى ركعتين كل ركعة بطائفة، وتكون كل طائفة قد صلت ركعة مع الإمام وركعة منفردة.

﴿وَإِذَا كُنتَ فِيهِمْ فَأَقَمْتَ لَهُمُ الصَّلَوٰةَ فَلْتَقُمْ طَآئِفَةٌ مِّنْهُم مَّعَكَ وَلْيَأْخُذُوٓاْ أَسْلِحَتَهُمْ فَإِذَا سَجَدُواْ فَلْيَكُونُواْ مِن وَرَآئِكُمْ وَلْتَأْتِ طَآئِفَةٌ أُخْرَىٰ لَمْ يُصَلُّواْ فَلْيُصَلُّواْ مَعَكَ﴾ وعلى المحاربين أن يكونوا في حالة الصلاة مسلحين، ولا تشغلهم الصلاة عن الحرب بما فيها من الاهتمام بالسلاح والعتاد والحذر.

إذ أن العدو ينتظر هذه الفرصة لينقض على المسلمين ويبيدهم، وفي حالة واحدة فقط يسمح بوضع السلاح وهي حالة الضرورة، مثل أن يكون المطر مانعاً من الاهتمام بالصلاة والسلاح معاً، أو يكون الشخص مريضاً لا يستطيع أن يقوم ويقعد ويسجد وهو مثقل بالحديد ﴿وَلْيَأْخُذُواْ حِذْرَهُمْ وَأَسْلِحَتَهُمْ وَدَّ الَّذِينَ كَفَرُواْ لَوْ تَغْفُلُونَ عَنْ أَسْلِحَتِكُمْ وَأَمْتِعَتِكُمْ﴾ أمتعة الحرب هي العتاد أو الزاد وكلها ضرورية للنصر.

﴿فَيَمِيلُونَ عَلَيْكُم مَّيْلَةً وَاحِدَةً وَلَا جُنَاحَ عَلَيْكُمْ إِن كَانَ بِكُمْ أَذًى مِّن مَّطَرٍ أَوْ كُنتُم مَّرْضَىٰٓ أَن تَضَعُوٓاْ أَسْلِحَتَكُمْ وَخُذُواْ حِذْرَكُمْ إِنَّ اللَّهَ أَعَدَّ لِلْكَٰفِرِينَ عَذَابًا مُّهِينًا﴾ وبالطبع يكون الحر الشديد، أو الرياح العاتية وما أشبه من الظروف التي يصبح حمل الأسلحة فيها حرجاً يكون بمثابة المطر.

ذكر الله بصيرة المؤمن

[١٠٣] فإذا انتهت الصلاة، وعاد المقاتلون إلى الحرب، فعليهم أن لاينسوا ذكر الله في مختلف الحالات.

﴿فَإِذَا قَضَيْتُمُ الصَّلَوٰةَ فَاذْكُرُواْ اللَّهَ قِيَٰمًا وَقُعُودًا وَعَلَىٰ جُنُوبِكُمْ﴾ أي وأنتم مستلقون. وربما جاء الأمر بذكر الله بعد صلاة الخوف لتكميل النقص فيها، حيث يستحب أن يذكر المصلي قصراً ربه خلال فترة من الزمن، تساوي فترة صلاة الركعتين اللتين سقطتا عنه، ولكن لايجب أن يكون ذلك في هيئة الصلاة، بل أثناء قيامه بالأعمال العادية.

وبعد انتهاء الخوف وعودة الحياة الطبيعية، تعود الصلاة كما كانت أربع ركعات ﴿فَإِذَا

أطمأننتم فأقيموا الصلوة إن الصلوة كانت على المؤمنين كتبا موقوتا ﴾ أي أمراً ثابتاً، ومقدراً في أوقات محددة، والشيء لايكون ثابتاً إلا لأهميته، كما لايكون محدداً تحديداً دقيقا إلا لأهميته أيضاً.

[١٠٤] اذا كان أداء الصلاة في الحرب يختلف عنه في السلم، إذن يجب أن يكون قصراً، ويتسلح المصلي خلالها ويتحذر، فإن ذلك يهدينا إلى مدى أهمية التسلح والتحذر في الحروب، وبالتالي الاستعداد لمواجهة كافة الاحتمالات، وهذا شرط ضروري لنصر الله.

ومن الاستعداد التهيوء النفسي للقتال، والشجاعة في الإقدام من دون خوف أو تردد، وهذا ما تبينه هذه الآية: ﴿ ولا تهنوا في ابتغاء القوم ﴾ لا تضعفوا في متابعة الأعداء، ومهاجمة معاقلهم، والتفتيش عنهم، وبتعبير آخر: كونوا دائماً المبادرين بالهجوم على العدو، ولا تخافوا من عواقب الهجوم، ذلك لأن العدو بشر مثلكم، وهو يألم وينهار بالصعوبات، كما تألمون أنتم ولكنكم لا تنهارون، لأنكم ترجون الله سبحانه ﴿إن تكونوا تألمون فإنهم يألمون كما تألمون وترجون من الله ما لا يرجون وكان الله عليما حكيما ﴾ فهو بعلمه المحيط بكم يعلم مقدار تضحياتكم، وبحكمته يعطيكم النصر على قدرها، بعد الصبر عليها، وليس عبثاً وبلا سبب.

المذنبون بين التوبة والعصيان

﴿إِنَّآ أَنزَلْنَآ إِلَيْكَ ٱلْكِتَٰبَ بِٱلْحَقِّ لِتَحْكُمَ بَيْنَ ٱلنَّاسِ بِمَآ أَرَىٰكَ ٱللَّهُ ۚ وَلَا تَكُن لِّلْخَآئِنِينَ خَصِيمًا (١٠٥) وَٱسْتَغْفِرِ ٱللَّهَ ۖ إِنَّ ٱللَّهَ كَانَ غَفُورًا رَّحِيمًا (١٠٦) وَلَا تُجَٰدِلْ عَنِ ٱلَّذِينَ يَخْتَانُونَ[1] أَنفُسَهُمْ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ لَا يُحِبُّ مَن كَانَ خَوَّانًا أَثِيمًا (١٠٧) يَسْتَخْفُونَ[2] مِنَ ٱلنَّاسِ وَلَا يَسْتَخْفُونَ مِنَ ٱللَّهِ وَهُوَ مَعَهُمْ إِذْ يُبَيِّتُونَ[3] مَا لَا يَرْضَىٰ مِنَ ٱلْقَوْلِ ۚ وَكَانَ ٱللَّهُ بِمَا يَعْمَلُونَ مُحِيطًا (١٠٨) هَٰٓأَنتُمْ هَٰٓؤُلَآءِ جَٰدَلْتُمْ عَنْهُمْ فِى ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا فَمَن يُجَٰدِلُ ٱللَّهَ عَنْهُمْ يَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِ أَم مَّن يَكُونُ عَلَيْهِمْ وَكِيلًا (١٠٩) وَمَن يَعْمَلْ سُوٓءًا[4] أَوْ يَظْلِمْ نَفْسَهُۥ ثُمَّ يَسْتَغْفِرِ ٱللَّهَ يَجِدِ ٱللَّهَ غَفُورًا رَّحِيمًا (١١٠)﴾.

هدى من الآيات:

في سياق الحديث العام عن طبقات المجتمع الإسلامي في هذه السورة تتحدث هذه الآيات عن طبقة المذنبين، وهم الذين يخونون أمانات الناس فيأكلون أموالهم بالباطل، أو يخونون أمانة الله فيرتكبون الخطايا التي تعود على أجسامهم أو عقولهم بالضرر، وهذه الطبقة تحاول أن تستميل القيادة إلى جنبها حتى تعمل ما تشاء، لذلك أمر الله رسوله ﷺ ألا يجادل عنهم وألا يحميهم، ذلك لأن الرسول ﷺ عليه أن يتبع الحق الذي أنزل عليه في الكتاب،

---

(١) يختانون: يخونون.
(٢) يستخفون: يستترون ويتوارون.
(٣) التبييت: التدبير للشيء بالليل (بالخفاء).
(٤) السوء: القبيح.

ويتخذه مقياساً لحكمة على الناس، واتخاذه المواقف منهم.

وهذه الطبقة تخشى من افتضاح أمرها عند القيادة والجماهير، ولا تعرف أنها أحق بالخشية من عذاب الله، ولذلك فحتى إذا انحرفت القيادة وهادنتهم زوراً، وحتى اذا ضللت الجماهير، فهي لاتبتعد عن عقاب الله سبحانه وتعالى غدا.

وأمام هذه الطبقة طريق واحد للتخلص من واقعها وهو التوبة، فإذا تابوا وعادوا إلى الإيمان أصبحوا وكأنهم لاسوابق سيئة لهم.

بينات من الآيات:

المبدئية في القيادة الإسلامية

[١٠٥] القيادة الإسلامية قيادة مبدئية وليست قيادة مصلحية، ولذلك فهي لا تنظر إلى بعد الناس أو قربهم إليها، بقدر ما تنظر إلى بعدهم أو قربهم عن الله سبحانه.

ومن هنا فهي لاتمالئ طبقة الكبراء أو المفسدين لمجرد قوتهم، أو من أجل دعمهم المحدود للقيادة. كلا.. بل تنابذهم العداء حتى يتوبوا إلى الله، وقد ورد في زيارة أمير المؤمنين عليه السلام: **«الضَّعِيفُ الذَّلِيلُ عِنْدَكَ قَوِيٌّ عَزِيزٌ حَتَّى تَأْخُذَ لَهُ بِحَقِّهِ والْقَوِيُّ الْعَزِيزُ عِنْدَكَ ضَعِيفٌ ذَلِيلٌ حَتَّى تَأْخُذَ مِنْهُ الْحَقَّ»**[1].

إن الكتاب هو المقياس في الحكم على الناس وليست المصالح أو الأهواء ﴿إِنَّآ أَنزَلْنَآ إِلَيْكَ ٱلْكِتَٰبَ بِٱلْحَقِّ لِتَحْكُمَ بَيْنَ ٱلنَّاسِ بِمَآ أَرَىٰكَ ٱللَّهُ﴾ ولذلك فلا مكان للفساد الإداري في الحكم الإسلامي الصحيح، ولا مكان للواسطة، والرشوة، والمحسوبيات على حساب حقوق الناس ﴿وَلَا تَكُن لِّلْخَآئِنِينَ خَصِيمًا﴾ أي لا تخاصم في مصلحة الخائنين، ولا تجعل قوة السلطة في خدمة هؤلاء.

الذين يخونون الناس ويأكلون حقوقهم، وهؤلاء هم أصحاب مراكز القوى والعائلات الكبيرة، وأصحاب الجاه العريض والثروة الطائلة.

حفظ الاستقلال مهمة القيادة

[١٠٦] المهمة الصعبة للقيادة هي: المحافظة على استقلالها أمام الخائنين، وترفعها عن

(١) الكافي: ج١ ص٤٥٥.

إغراءاتهم ورشواتهم ومكائدهم، وقدرتها بالتالي على أن تكون حاكمة بين الناس بالعدل.

ولصعوبة هذه المهمة أمر الله القيادة بالاستغفار، إيحاءً (من باب إياك أعني وأسمعي يا جاره) بأنها لو وقعت في شرك الخائنين (لاسمح الله) عليها أن تصحح مسيرتها بسرعة وتتوب إلى الله.

﴿وَٱسْتَغْفِرِ ٱللَّهَ إِنَّ ٱللَّهَ كَانَ غَفُورًا رَّحِيمًا﴾ إن الاستغفار يعطي القيادة مناعة من الوقوع تحت تأثير مراكز القوى، ويعطي القيادة شجاعة لتحدي الناس، والخوف فقط من الله رب الناس أجمعين.

[١٠٧] ﴿وَلَا تُجَٰدِلْ عَنِ ٱلَّذِينَ يَخْتَانُونَ أَنفُسَهُمْ﴾ أي يخونون أنفسهم بارتكابهم الذنوب، وعلى القيادة الرسالية ألا تهادن هؤلاء ولا تجمل صورتهم القبيحة أمام الناس، وتبرر للناس معاصيهم، لأن الله لا يحب هؤلاء الذين لا يزالون يخونون أمانة الله الذي أمرهم بحفظ أجسامهم وعقولهم وكرامتهم من الإثم والخطيئة. فالزاني يخون الله في جسده ونسله وهما أمانتان لله على عاتقه، وشارب الخمر يخون الله في جسده وعقله، ولاعب القمار يخون الله في جسده وماله، وبالتالي كل مذنب يتصرف في نعم الله التي هي أمانات عنده بغير ما أمر الله ﴿إِنَّ ٱللَّهَ لَا يُحِبُّ مَن كَانَ خَوَّانًا أَثِيمًا﴾.

ازدواجية الشخصية

[١٠٨] هؤلاء يتكتمون على أنفسهم لكي لايعرف الناس ارتكابهم للذنوب، غافلين عن أن الله عارف بأمرهم، وأنه هو الذي يجازيهم عليه.

فالخمر والزنا والقمار وكل الذنوب الأخرى تتبعها آثارها الضارة، سواء عرف الناس أم جهلوا. ثم إن الله يعرف هؤلاء قبل أن يرتكبوا الذنوب، بل حين ينوون ذلك أو يتآمرون بينهم عليها في الليل، إن الله معهم يسمعهم، ويسجل عليهم أقوالهم ونياتهم، أفلا يستحيون منه؟!.

﴿يَسْتَخْفُونَ مِنَ ٱلنَّاسِ وَلَا يَسْتَخْفُونَ مِنَ ٱللَّهِ وَهُوَ مَعَهُمْ إِذْ يُبَيِّتُونَ مَا لَا يَرْضَىٰ مِنَ ٱلْقَوْلِ وَكَانَ ٱللَّهُ بِمَا يَعْمَلُونَ مُحِيطًا﴾ فهو يعلم ما يقولون وقادر على منعهم متى يشاء!! كما هو قادر على أن يأخذهم حين يشاء أخذ عزيز مقتدر!.

[١٠٩] ولنفرض أنكم بررتم مواقف هؤلاء المذنبين، وجملتم صورهم أمام الناس هنا في الدنيا، فمن ينقذهم هناك في الآخرة من الفضيحة أمام الخلق في يوم القيامة؟ ومن

يخلصهم من حكم الله؟ ومن يحامي عنهم في محكمة العدل؟! ﴿ هَٰٓأَنتُمْ هَٰٓؤُلَآءِ جَٰدَلْتُمْ عَنْهُمْ فِي ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا فَمَن يُجَٰدِلُ ٱللَّهَ عَنْهُمْ يَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِ أَم مَّن يَكُونُ عَلَيْهِمْ وَكِيلًا ﴾.

[١١٠] ولهؤلاء باب واحد للخلاص هو التوبة حيث أنهم لو دخلوه أصبحوا مواطنين شرفاء يقبل الله توبتهم والمؤمنون ﴿ وَمَن يَعْمَلْ سُوٓءًا أَوْ يَظْلِمْ نَفْسَهُۥ ثُمَّ يَسْتَغْفِرِ ٱللَّهَ يَجِدِ ٱللَّهَ غَفُورًا رَّحِيمًا ﴾.

التبرير باب النفاق وطريق الانحراف

﴿وَمَن يَكْسِبْ إِثْمًا فَإِنَّمَا يَكْسِبُهُ عَلَىٰ نَفْسِهِۦ ۚ وَكَانَ ٱللَّهُ عَلِيمًا حَكِيمًا ﴿١١١﴾ وَمَن يَكْسِبْ خَطِيٓـَٔةً أَوْ إِثْمًا ثُمَّ يَرْمِ بِهِۦ بَرِيٓـًٔا فَقَدِ ٱحْتَمَلَ بُهْتَٰنًا وَإِثْمًا مُّبِينًا ﴿١١٢﴾ وَلَوْلَا فَضْلُ ٱللَّهِ عَلَيْكَ وَرَحْمَتُهُۥ لَهَمَّت طَّآئِفَةٌ مِّنْهُمْ أَن يُضِلُّوكَ وَمَا يُضِلُّونَ إِلَّآ أَنفُسَهُمْ ۖ وَمَا يَضُرُّونَكَ مِن شَىْءٍ ۚ وَأَنزَلَ ٱللَّهُ عَلَيْكَ ٱلْكِتَٰبَ وَٱلْحِكْمَةَ وَعَلَّمَكَ مَا لَمْ تَكُن تَعْلَمُ ۚ وَكَانَ فَضْلُ ٱللَّهِ عَلَيْكَ عَظِيمًا ﴿١١٣﴾ ۞ لَّا خَيْرَ فِى كَثِيرٍ مِّن نَّجْوَىٰهُمْ[1] إِلَّا مَنْ أَمَرَ بِصَدَقَةٍ أَوْ مَعْرُوفٍ أَوْ إِصْلَٰحٍۭ بَيْنَ ٱلنَّاسِ ۚ وَمَن يَفْعَلْ ذَٰلِكَ ٱبْتِغَآءَ مَرْضَاتِ ٱللَّهِ فَسَوْفَ نُؤْتِيهِ أَجْرًا عَظِيمًا ﴿١١٤﴾ وَمَن يُشَاقِقِ[2] ٱلرَّسُولَ مِنۢ بَعْدِ مَا تَبَيَّنَ لَهُ ٱلْهُدَىٰ وَيَتَّبِعْ غَيْرَ سَبِيلِ ٱلْمُؤْمِنِينَ نُوَلِّهِۦ[3] مَا تَوَلَّىٰ وَنُصْلِهِۦ جَهَنَّمَ ۖ وَسَآءَتْ مَصِيرًا ﴿١١٥﴾﴾.

هدى من الآيات:

أسوأ ما في طبقة الخائنين والمختانين أنهم لا يتحملون نتائج أعمالهم، فيحاولون إلقاء مسؤولياتها على الآخرين بطريقة أو بأخرى، فيقولون مثلاً: أن حادثة القتل قد ارتكبها فلان، أو يقولون بأن السبب في شربنا الخمر تربية الآباء لنا على ذلك، وأننا تبعاً لذلك فنحن غير مسؤولين عن هذا الذنب بل آباؤنا هم المسؤولون.

(١) نجواهم: النجوى هي الإسرار والنجوى في الكلام ما ينفرد به الجماعة أو الإثنان سراً كان أم ظاهراً.
(٢) الشقاق: الخلاف مع العداوة، وشق العصا أي فارق الجماعة.
(٣) نوله: من الولي وهو القرب، يقال الشيء يليه إذا قرب منه.

وعند تبرئة أنفسهم واتهام الآخرين بالجرائم، يحاولون تضليل القيادة وإقناعها خطأ بأن مرتكبي الحادث الفلاني هم فلان وفلان.

ولكن هذه المحاولة تبوء بالفشل، وتخلف أثراً سلبياً على أنفسهم، إذ تجعلهم يتصورون أنهم غير مسؤولين تصوراً أشد، وبالتالي لا تتركهم يعودون إلى رشدهم.

والرسول ﷺ لا يضلل لأن الله أنزل عليه الكتاب، وفيه بصائر توضح المواقف التي لابد من اتخاذها من مختلف الأشخاص، كما أن فيه الحكمة والأسلوب الصحيح لمعاملة الناس حسب طبقاتهم وأعمالهم، وفيه القدرة على كشف الحقائق وهذا هو الفضل الكبير.

وبعض هؤلاء يحاول التزلف إلى الرسول ﷺ ومناجاته لكي يبريء ساحته أمام الناس، ويتظاهر بمظهر المؤمن المقرب عند الله عزوجل وعند رسوله ﷺ، فيأتي ويناجي الرسول وهو لايملك شيئاً يقوله، بينما المناجاة يجب ان يكون لها هدف سام، وبعضهم ينابذ الرسول العداء علنا، وهو بذلك يختار الكفر على الإيمان والله يعامله على هذا الأساس.

بينات من الآيات:

مسؤولية الإنسان

[١١١] مادام الإنسان حرُ في تصرفاته فإنه يتحمل مسؤولية أعماله، وليس من الصحيح أن يلقي بمسؤولية عمله على الآخرين باسم أو آخر، فليست التربية، وليس المجتمع، وليست السلطة، وليس الأصدقاء و.. و.. هم المسؤولون عن ارتكاب الفرد للخطيئة أو الإثم بقدر ما هو المسؤول.

﴿وَمَن يَكْسِبْ إِثْمًا فَإِنَّمَا يَكْسِبُهُۥ عَلَىٰ نَفْسِهِۦ﴾ أي يكسبه ويكون ضرراً على نفسه ﴿وَكَانَ ٱللَّهُ عَلِيمًا حَكِيمًا﴾ ولذلك فإنه لا يحمل المسؤولية إلا على من ارتكبها.

[١١٢] وحين يفعل الفرد خطيئة كبيرة أو إثماً، ثم يحاول إلقاءها على الآخرين ويدعي أنهم المسؤولون عنها، أو حتى يدعي -كذباً- أنهم هم الفاعلون مباشرة لها فإن ذلك يعتبر إثماً جديداً، يضاف إلى إثمه السابق، فيصبح إثماً مضاعفاً ومسؤولية مزدوجة.

﴿وَمَن يَكْسِبْ خَطِيٓـَٔةً أَوْ إِثْمًا ثُمَّ يَرْمِ بِهِۦ بَرِيٓـًٔا فَقَدِ ٱحْتَمَلَ بُهْتَـٰنًا وَإِثْمًا مُّبِينًا﴾ وعودة مثل هذا الشخص إلى الطريق الصحيح أصعب من عودة من يرتكب الذنب ويعترف به، لأن هذا يزكي نفسه ويبعدها عن دائرة المسؤولية، فكيف يمكنه إصلاح ذاته؟!.

وربما الخطيئة هي: الإثم الكبير، ومنه الذنب الذي يعود بضرره على الآخرين، بينما الإثم مطلق الذنب والبهتان وادعاء قيام الناس بالذنب وهم براء منه.

الإجرام المضلل والقيادة المبدئية

[١١٣] المجرمون والخائنون للناس المختانون لأنفسهم يحاولون دائماً تضليل القيادة، وذلك باستمالتها باغراءات مختلفة مثل: المساهمة في الأرباح التي يحصلون عليها باغتصاب حقوق الناس، أو دعم القيادة في مواجهة أعدائها في الداخل والخارج. أو تخويفها بالانضمام إلى الجبهات المناهضة لها.. وهكذا، في الواقع أن خطر وقوع القيادة في شرك هؤلاء خطر عظيم.

ومن الصعب أن تصمد القيادة أمام موجات الضغوط والإغراءات القادمة من طرف المجرمين، إلا إذا كانت القيادة مبدئية تتمسك بالرسالة، وينقذها الله في لحظة الضغوط ببعض الانتصارات التي تجعلها مطمئنة إلى قوتها في مواجهة الضغوط، والرسالة هي فضل الله، والانتصارات وركائز القوة هي رحمة الله.

﴿وَلَوْلَا فَضْلُ ٱللَّهِ عَلَيْكَ وَرَحْمَتُهُۥ لَهَمَّت طَّآئِفَةٌ مِّنْهُمْ أَن يُضِلُّوكَ﴾ والواقع أن تلك الطائفة قد خططت فعلاً لتضليل القيادة، ولكنهم حين وجدوا أمامهم طود الإيمان الراسخ تراجعوا ولم يحركوا ساكناً وكأنهم لم يهموا بذلك أبداً، وهذا من بلاغة القرآن حيث بين أنهم لم يهموا بالرغم من أن النية كانت موجودة لديهم، ولكنهم حين لم يجرؤا على تنفيذها فكأنهم لم يهموا..

﴿وَمَا يُضِلُّونَ إِلَّآ أَنفُسَهُمْ﴾ ذلك لأن الإنسان اذا أراد أن يضلل الناس تترسخ عنده الضلالة أكثر فأكثر وكذلك كل صفات الإنسان العقلية والنفسية، انك حيث تريد أن تعلم أحداً شيئاً يزداد علمك، وإذا أردت ان تهدي أحداً تزداد هدى.

﴿وَمَا يَضُرُّونَكَ مِن شَيْءٍ﴾ بالرغم من تهديدهم لك بأنهم سوف ينضمون إلى الجبهات المعادية لو لم تسكت عنهم، ذلك لأنهم عناصر انتهازية، وهم لا ينفعون جبهتك أبداً.

وأنك يا رسول الله ﷺ تمثل قيادة رسالية ذات دستور ثابت متمثل في ﴿ٱلْكِتَٰبَ﴾ وذات رؤية ثاقبة ذكية ناجحة متمثلة في ﴿وَٱلْحِكْمَةَ﴾ وهذا هو فضل الله عليك. ومن جهة أخرى إنك تملك يا رسول الله ﷺ العلم وهو قوة هائلة لدحر العدو وهو رحمة الله عليك فكيف يضرونك؟! ﴿وَأَنزَلَ ٱللَّهُ عَلَيْكَ ٱلْكِتَٰبَ وَٱلْحِكْمَةَ وَعَلَّمَكَ مَا لَمْ تَكُن تَعْلَمُ وَكَانَ فَضْلُ ٱللَّهِ عَلَيْكَ عَظِيمًا﴾.

أهداف المنافقين

[١١٤] ومن أساليب هؤلاء الماكرة التزلف إلى رسول الله ﷺ لهدفين:

الأول: محاولة التأثير فيه حسب المستطاع.

الثاني: إظهار القوة لأنفسهم أمام الناس، والتظاهر بالتقوى، حتى يمكنهم خيانة الناس والاستمرار في المعاصي بعيداً عن روح الجماهير.

ولكن على الرسول ﷺ أن يبعدهم عن نفسه. وأن يصغي إلى نجوى من يأمره بالخير، وهكذا على كل قيادة رسالية أن تبعد عن نفسها البطانات الفاسدة، وتتخذ مستشارين صالحين يأمرون بالخير.

﴿ لَّا خَيْرَ فِي كَثِيرٍ مِّن نَّجْوَاهُمْ إِلَّا مَنْ أَمَرَ بِصَدَقَةٍ أَوْ مَعْرُوفٍ أَوْ إِصْلَاحٍ بَيْنَ النَّاسِ ﴾ لعل الصدقة هي العطاء المالي لوجه الله، والمعروف هو العمل الصالح، والإصلاح هو إزالة التوتر بين الناس، والمستشار المؤمن هو الذي يأمر بالعطاء في مواقعه الصحيحة، فهو يفتش عن المحرومين ويأمر بالعطاء لهم، ولا يأمر بالعطاء للمستكبرين الطغاة أو لأصدقائه وأقاربه!.

وهو يأمر أيضاً بالأعمال الحسنة المفيدة للمجتمع، ويأمر باتباع الحق والهدى، وهو يأمر بالإصلاح ولا يذكي الأحقاد، أو ينمي في القيادات الحساسيات التافهة، وهذا المستشار المؤمن يهدف بعمله مرضاة الله، لا مرضاة سيده وأقاربه وأهوائه، وجزاء عمله سيراه في الدنيا والآخرة **﴿ وَمَن يَفْعَلْ ذَٰلِكَ ابْتِغَاءَ مَرْضَاتِ اللَّهِ فَسَوْفَ نُؤْتِيهِ أَجْرًا عَظِيمًا ﴾**.

معصية الرسول ﷺ كفر بالله

[١١٥] والمجرمون الذين يعارضون رسول الله ﷺ لأنه أمرهم بالتقوى ولم يرضخ لضغوطهم، لابد أن يعرفوا أنهم يبارزون الله، وأنهم سوف ينتهي بهم الأمر إلى الكفر وإلى جهنم.

﴿ وَمَن يُشَاقِقِ الرَّسُولَ ﴾ أي يتردد عليه وينشق عن قيادته.

﴿ مِن بَعْدِ مَا تَبَيَّنَ لَهُ الْهُدَىٰ وَيَتَّبِعْ غَيْرَ سَبِيلِ الْمُؤْمِنِينَ ﴾ ويقف في الجبهة المعادية لجبهة الرسول ﷺ والمؤمنين، فإنه يحكم على نفسه بالكفر، والله يكرس عليه هذا الحكم الذي رضيه

لنفسه بما فيه من مصير أسود.

﴿نُوَلِّهِۦ مَا تَوَلَّىٰ وَنُصْلِهِۦ جَهَنَّمَ وَسَآءَتْ مَصِيرًا﴾ إن هذا الإنذار يجعل المؤمن يفكر مرتين قبل أن يقدم على مقاومة القيادة بسبب تصلب القيادة في تطبيق القانون عليه، وعدم استجابتها لضغوط أهل المعاصي في الأمة، وبذلك تكون القيادة قوية وقادرة على تطبيق القانون على الجميع.

ولقد رُويَ أنَّ عليًّا عليه السلام بَعَثَ إِلَى لَبِيدِ بْنِ عُطَارِدٍ التَّمِيمِيِّ لِيُجَاءَ بِهِ، فَمَرَّ -الَّذِي أَخَذَهُ إِلَى أَمِيرِ الْمُؤْمِنِينَ- بِمَجْلِسٍ مِنْ مَجَالِسِ بَنِي أَسَدٍ وَفِيهِ نُعَيْمُ بْنُ دَجَاجَةَ، فَقَامَ نُعَيْمٌ فَخَلَّصَ الرَّجُلَ، فَأَتَوْا أَمِيرَ الْمُؤْمِنِينَ عليه السلام فَقَالُوا: «أَخَذْنَا الرَّجُلَ فَمَرَرْنَا بِهِ عَلَى نُعَيْمِ بْنِ دَجَاجَةَ فَخَلَّصَهُ -وَكَانَ نُعَيْمٌ مِنْ شُرْطَةِ الْخَمِيسِ- فَقَالَ عليه السلام: عَلَيَّ بِنُعَيْمٍ.

فَأُتِيَ بِهِ فَأَمَرَ بِهِ أَنْ يُضْرَبَ ضَرْباً مُبْرِحاً، فَلَمَّا وَلَّوْا بِهِ إِلَى السِّجْنِ قَالَ: يَا أَمِيرَ الْمُؤْمِنِينَ إِنَّ الْمُقَامَ مَعَكَ لَذُلٌّ وَإِنَّ فِرَاقَكَ كُفْرٌ.

قَالَ عليه السلام: إِنَّهُ لَكَذَاكَ؟.

قَالَ: نَعَمْ.

قَالَ عليه السلام: خَلُّوا سَبِيلَهُ»[1].

إن تطبيق نظام السماء بالعدل هو العز، ولقد كان بإمكان هذا أن ينسحب إلى جبهة العدو، ولكنه خشي أن تنطبق عليه هذه الآية فيصبح كافراً.

---

(١) بحار الأنوار: ج٣٤ ص٣١٥-٣١٦.

الشرك بين الإرادة، والهوى

﴿ إِنَّ ٱللَّهَ لَا يَغْفِرُ أَن يُشْرَكَ بِهِۦ وَيَغْفِرُ مَا دُونَ ذَٰلِكَ لِمَن يَشَآءُ ۚ وَمَن يُشْرِكْ بِٱللَّهِ فَقَدْ ضَلَّ ضَلَٰلًۢا بَعِيدًا ﴿١١٦﴾ إِن يَدْعُونَ مِن دُونِهِۦٓ إِلَّآ إِنَٰثًا وَإِن يَدْعُونَ إِلَّا شَيْطَٰنًا مَّرِيدًا [1] ﴿١١٧﴾ لَّعَنَهُ ٱللَّهُ ۘ وَقَالَ لَأَتَّخِذَنَّ مِنْ عِبَادِكَ نَصِيبًا مَّفْرُوضًا ﴿١١٨﴾ وَلَأُضِلَّنَّهُمْ وَلَأُمَنِّيَنَّهُمْ وَلَءَامُرَنَّهُمْ فَلَيُبَتِّكُنَّ [2] ءَاذَانَ ٱلْأَنْعَٰمِ وَلَءَامُرَنَّهُمْ فَلَيُغَيِّرُنَّ خَلْقَ ٱللَّهِ ۚ وَمَن يَتَّخِذِ ٱلشَّيْطَٰنَ وَلِيًّا مِّن دُونِ ٱللَّهِ فَقَدْ خَسِرَ خُسْرَانًا مُّبِينًا ﴿١١٩﴾ يَعِدُهُمْ وَيُمَنِّيهِمْ ۖ وَمَا يَعِدُهُمُ ٱلشَّيْطَٰنُ إِلَّا غُرُورًا ﴿١٢٠﴾ أُو۟لَٰٓئِكَ مَأْوَىٰهُمْ جَهَنَّمُ وَلَا يَجِدُونَ عَنْهَا مَحِيصًا [3] ﴿١٢١﴾ وَٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَعَمِلُوا۟ ٱلصَّٰلِحَٰتِ سَنُدْخِلُهُمْ جَنَّٰتٍ تَجْرِى مِن تَحْتِهَا ٱلْأَنْهَٰرُ خَٰلِدِينَ فِيهَآ أَبَدًا ۖ وَعْدَ ٱللَّهِ حَقًّا ۚ وَمَنْ أَصْدَقُ مِنَ ٱللَّهِ قِيلًا ﴿١٢٢﴾ ﴾.

هدى من الآيات:

استمراراً للحديث القرآني عن طبقة الخائنين والمختانين أنفسهم تبين هذه الآيات جانباً من قضية الشرك بالله، ذلك الجانب الذي يعتبر النهاية الحتمية للتمادي في معصية الله، واتباع الهوى من دون الله.

---

(١) مريداً: المارد والمتمرد بمعنى العاصي والخارج عن الطاعة.

(٢) التبتيك: التشقيق، والبتك القطع.

(٣) محيصاً: مخلصاً ومهرباً، والمحيص من حاص، بمعنى عدل وانحرف.

إن الخيانة للناس أو للنفس تنتهي بنوع من الشرك، والشرك لا يغفره الله أبداً لأنه ضلال بعيد.

وذلك النوع هو عبادة الأصنام والأجنة باعتبارها آلهة صغاراً يشفعون عند الله سبحانه، والواقع أن عبادة هؤلاء ليس للصنم بل الصنم رمز للشيطان المريد الذي يضل هؤلاء، وقد أقسم قديماً على تضليل البشر.

وإن تقديم الذبائح للأصنام بتلك الصورة البشعة إنما هو بأمر الشيطان الذي يستخدم في تضليلهم سلاح الوعود الكاذبة، والأماني الباطلة، فهو يعدهم بالخصب والرخاء، ويمنيهم بألا يؤخذوا بجرائم أعمالهم.

وبعكس ما يعده الشيطان فإن هؤلاء سوف يلاقون جزاء أعمالهم في جهنم، وسوف لن تنفعهم أماني الشيطان. والذين يعملون الصالحات وهم مؤمنون سيدخلون الجنة.

إن الشرك بالله هو نتيجة اتباع الهوى، وإنما يشرك بالله من يشرك حين يستمر في معاصي الله، ويتهرب من مسؤوليات طاعته.

بينات من الآيات:

الشرك بالله وحدود المغفرة

[١١٦] بالرغم من أن رحمة الله واسعة ومغفرته كبيرة تشمل كل الذنوب إلا أنها لا تسع الشرك بالله لأنه ذنب عظيم، وضلالة بعيدة لا يمكن إصلاحها أو التغاضي عنها.

﴿إِنَّ ٱللَّهَ لَا يَغْفِرُ أَن يُشْرَكَ بِهِۦ وَيَغْفِرُ مَا دُونَ ذَٰلِكَ لِمَن يَشَآءُ ۚ وَمَن يُشْرِكْ بِٱللَّهِ فَقَدْ ضَلَّ ضَلَـٰلًۢا بَعِيدًا﴾ لأنه لم يعرف الله حتى قرنه ببعض خلقه، ولم يعرف الخلق حتى قرنه بالله سبحانه، وليس هناك شيء أبعد من شيء في طبيعته وصفاته وأسمائه من الخالق عن المخلوق، فالذي يخلط بينهما لم يعرف أيًا منهما.

والشرك انحراف رئيسي لايصلح معه عمل وهو أشبه ما يكون بالسير نحو الشرق للوصول إلى هدف في الغرب حيث لايمكن تصحيح هذه المسيرة، بل علينا تبديلها تماماً، ولذلك لا تسع مغفرة الله جريمة الشرك رغم أنها تسع كل ذنب آخر.

ولأنه انحراف رئيسي وسائر انحرافات البشر متفرعة عنه، بل ليس هناك انحراف إلا

ويحمل في جذوره صورة مصغرة من الشرك بالله.

فالتكبر على الناس، والتعالي عليهم والإيمان بالعنصرية والطبقية و.. و.. نوع مصغر من الشرك حيث لا يتكبر الشخص إلا إذا وضع نفسه في صف الإله، ونسي أنه ليس سوى مخلوق من خلق الله، ولا ريب أن التكبر بدوره جذر لآلاف الجرائم. إذ أن الشخص الذي يتعالى على الناس لا يتورع عن القيام بأية جريمة ممكنة بحقهم، والخضوع لبعض الناس، واعتبار كلمتهم هي الحق الذي لاريب فيه، واتباع سيرتهم اتباعاً مطلقاً، وبالتالي العبودية لهم نوع من الشرك بالله، حيث يضع الخاضع سيده في صف الإله، وينسى أنه ليس سوى بشر ضعيف، وعبودية الآخرين جذر لآلاف الجرائم أيضاً، وهكذا سائر المعاصي الكبيرة والصغيرة إن هي إلا صور مصغرة عن الشرك بالله. تلك الضلالة البعيدة التي تجسد كل انحرافات البشر.

منشأ الشرك

[١١٧] والشرك بالله يبتدئ بفكرة القوى الغيبية الخارقة التي تسمى بالأرواح وتنقسم إلى:

- الملائكة: وهي القوى الخيرة.
- الأجنة والشياطين: وهي القوى الشريرة.

فالملائكة كانت تعبد في الجاهلية باعتبارها بنات الله سبحانه، بينما كان الشيطان يعبد باعتباره نداً لله ومنافساً لسلطته على الكون.

﴿ إِن يَدْعُونَ مِن دُونِهِۦٓ إِلَّآ إِنَٰثًا وَإِن يَدْعُونَ إِلَّا شَيْطَٰنًا مَّرِيدًا ﴾ والمريد أي المتمرد دائماً عن إطاعة سيده. والاعتقاد بالأرواح (الشريرة منها والخيرة) والاستعانة بها، وجعل رموز حجرية لها في شكل أصنام تُعبد، وتقدم إليها القرابين، كل تلك كانت أغلالاً على طاقات البشر، وقيوداً تعطل انطلاقته في الحياة.

إن الجاهلي الذي كان يتصور أن (هبل) هو الذي يشفيه من مرضه، لا يطلق طاقاته من أجل البحث عن الدواء، كما أنه لم يكن يسعى من أجل تنمية ماله أو أرضه أو ماشيته أو تجارته سعياً عقلانيًّا لأنه مادام يعتقد أن بضع ذبائح تهدى إلى اللاتي تكفي لفعل المعجزة في حياته الاقتصادية.

وكان الجاهليون يعطلون عقولهم حين يتصورون أن الجنة (الشياطين) توحي إليهم، وكان أحدهم يجلس في غرفة مظلمة، ويقوم بعملية إيحاء ذاتي مستمر حتى يخيل إليه أن هاتفاً

غيبيًّا يحاوره، وإنما كان يحاور ذاته، ويجتر خيالاته وظنونه، وبالتالي كان كلامه لايعدو تكراراً لا واعياً لما انطبع بقلبه من أفكار وانعكاسات، وبالطبع كان كلامه الواعي وغير الواعي مجرد أباطيل وأوهام تقف حاجزاً أمام انطلاقة فكره، وتحرك عقله.

أهداف الشيطان

[١١٨] وقصة الملائكة تختلف عن قصة الشياطين فبينما الملائكة عباد مطيعون لله، لا يشفعون إلا لمن ارتضى، وبالتالي التقرب إليهم لاينفع شيئاً لأن الكلمة الحاسمة النهائية إنما هي لله سبحانه، أما الشياطين فهم مطرودون من رحمة الله وملعونون، ولكنهم اليوم في فسحة من المهلة، ولا يعني قيامهم بإضلال البشر أنهم قادرون على مقاومة هيمنة الله، كلا.. بل يعني أن الله أمدهم بفترة من الوقت لكي يمتحن عباده بهم.

فالشيطان وهو ابليس ﴿ لَعَنَهُ ٱللَّهُ ﴾.

﴿وَقَالَ لَأَتَّخِذَنَّ مِنْ عِبَادِكَ نَصِيبًا مَّفْرُوضًا﴾ إن الشيطان وهو يمثل قوى الشر والخطيئة، ويدغدغ رغبات السوء في البشر، ويمد في جهله وضلالته. إنه جاد في إضلال الإنسان، وقد خطط للسيطرة على بعض أبناء آدم.

ولذلك قال: ﴿نَصِيبًا مَّفْرُوضًا﴾ وكأنه تقاسم مع الله البشر فأخذ طائفة معينة وترك طائفة لله سبحانه.

الشيطان وفساد الحياة

[١١٩] الشيطان يستخدم سلاح الأماني في إضلال البشر، وعلينا كبشر أن نحذر من هذه الأماني حتى لا يعمل سلاح الشيطان فينا عمله الخطير.

الشيطان يمني الإنسان بطول العمر، وبالخلود في الدنيا ويمنيه بالملك الدائم والثروة الطائلة، وهكذا يصور الشيطان للإنسان أن الوصول إلى أهدافه ممكن عن طريق ملتو. ويأمر الشيطان الإنسان فيما يأمره من الضلالة ليبتك آذان الأنعام، ويغير خلق الله.

إن ذلك يمثل ضلالة الشيطان التي يأمر بها الإنسان، إنه يمثل دعوة الشيطان للإنسان بأن ينحرف عن طريق الاستفادة من الطبيعة إلى طريق إفساد الطبيعة.

إن الله خلق الأنعام وخلق كل عضو فيها نافعاً لها ومؤدياً وظيفة في جسدها، وبالتالي

جعل كل عضو من أعضائها يؤدي بصورة غير مباشرة خدمة للإنسان، ولكن الشيطان يضل البشر ويجعله يفسد أعضاء الحيوان، وبالتالي يسقط منافعه المرتقبة له.

﴿وَلَأُضِلَّنَّهُمْ وَلَأُمَنِّيَنَّهُمْ وَلَآمُرَنَّهُمْ فَلَيُبَتِّكُنَّ ءَاذَانَ ٱلْأَنْعَٰمِ وَلَآمُرَنَّهُمْ فَلَيُغَيِّرُنَّ خَلْقَ ٱللَّهِ﴾ ولذلك فمن يتبع الشيطان فإنه يخسر منافع الحياة لأن الشيطان يبعده أبداً عن الطرق السليمة للاستفادة من الحياة ﴿وَمَن يَتَّخِذِ ٱلشَّيْطَٰنَ وَلِيًّا مِّن دُونِ ٱللَّهِ فَقَدْ خَسِرَ خُسْرَانًا مُّبِينًا﴾.

تسويف الشيطان

[١٢٠] ماذا يقول الشيطان للإنسان؟.

يقول: غداً وبعد غد سوف تحصل على كذا وكذا.. فإذا بلغ غده يعده بها بعده حتى يبلغ أجله ولا يصل إلى شيء مما وعده الشيطان ﴿يَعِدُهُمْ وَيُمَنِّيهِمْ وَمَا يَعِدُهُمُ ٱلشَّيْطَٰنُ إِلَّا غُرُورًا﴾.

ما هي النتيجة؟

[١٢١] أما في الدنيا فسوف يصابون بنتائج غرورهم، وأما في الآخرة فجزاؤهم فيها جهنم لا يستطيعون فيها فراراً.

﴿أُو۟لَٰٓئِكَ مَأْوَىٰهُمْ جَهَنَّمُ وَلَا يَجِدُونَ عَنْهَا مَحِيصًا﴾ أي لا يزحزحون عنها قيد أنملة، والكلمة من: حاص يحيص أي تحرك في مكانه.

[١٢٢] أما المؤمنون الذين لم يخلطوا بإيمانهم شركاً، وأخلصوا العبادة لله الحق، فإن جزاءهم الجنة. وهذا وعد من الله ولكنه وعد حق. بعكس وعود الشيطان الكاذبة لأن الله أجل وأعظم من الكذب، ولا يدعوه إلى الكذب حاجة أو جهل سبحانه.

﴿وَٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَعَمِلُوا۟ ٱلصَّٰلِحَٰتِ سَنُدْخِلُهُمْ جَنَّٰتٍ تَجْرِى مِن تَحْتِهَا ٱلْأَنْهَٰرُ خَٰلِدِينَ فِيهَآ أَبَدًا﴾ ذلك هو منتهى تطلع الإنسان أن يسكن جنة تتوفر فيها حاجاته الجسدية،و المتع النفسية، ومن أبرزها الأنهار التي تضفي جمالاً على الجنة، وأن يكون مطمئناً إلى مستقبله، وأنه خالد لا يزعجه موت أو طرد عن النعيم المقيم فيه ﴿وَعْدَ ٱللَّهِ حَقًّا وَمَنْ أَصْدَقُ مِنَ ٱللَّهِ قِيلًا﴾.

إبراهيم عليه السلام قدوتنا في الالتزام

﴿ لَّيْسَ بِأَمَانِيِّكُمْ[1] وَلَآ أَمَانِيِّ أَهْلِ ٱلْكِتَٰبِ ۗ مَن يَعْمَلْ سُوٓءًا يُجْزَ بِهِۦ وَلَا يَجِدْ لَهُۥ مِن دُونِ ٱللَّهِ وَلِيًّا وَلَا نَصِيرًا ﴿١٢٣﴾ وَمَن يَعْمَلْ مِنَ ٱلصَّٰلِحَٰتِ مِن ذَكَرٍ أَوْ أُنثَىٰ وَهُوَ مُؤْمِنٌ فَأُو۟لَٰٓئِكَ يَدْخُلُونَ ٱلْجَنَّةَ وَلَا يُظْلَمُونَ نَقِيرًا[2] ﴿١٢٤﴾ وَمَنْ أَحْسَنُ دِينًا مِّمَّنْ أَسْلَمَ وَجْهَهُۥ لِلَّهِ وَهُوَ مُحْسِنٌ وَٱتَّبَعَ مِلَّةَ إِبْرَٰهِيمَ حَنِيفًا ۗ وَٱتَّخَذَ ٱللَّهُ إِبْرَٰهِيمَ خَلِيلًا[3] ﴿١٢٥﴾ وَلِلَّهِ مَا فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَمَا فِى ٱلْأَرْضِ ۚ وَكَانَ ٱللَّهُ بِكُلِّ شَىْءٍ مُّحِيطًا ﴿١٢٦﴾ ﴾.

هدى من الآيات:

هناك قاعدتان نفسيتان للشرك بالله.

الأولى: اللامسؤولية.

الثانية: الجهل بالله.

بالنسبة للقاعدة الأولى: فإن من الأسباب التي تدعو البشر إلى الشرك بالله، والإيمان بالإناث من عباده، وبالشيطان المريد إنما هو محاولة التخلص من ثقل المسؤولية في الحياة.

---

(١) أماني: جمع أمنية وهي تقدير الأمن في النفس على جهة الاستمتاع به.
(٢) نقيراً: النقير هي النكتة الصغيرة المنخفضة في ظهر النواة التي منها ينبت.
(٣) الخليل: مشتق من الخُلّة التي هي المحبة أو من الخِلّة التي هي الحاجة وإنما استعمل بمعنى الصداقة لأن كل واحد من المتصادقين يسد خلل صاحبه، وقيل لأنّ كل واحد منهما يطلع صاحبه على أسراره فكأنه في خلل قلبه.

ذلك أن البشر الذي يهوى الفردية المطلقة لنفسه يريد أن يبرر بطريقة أو بأخرى أعماله القبيحة، فيتوسل بفكرة تعدد الآلهة حتى يطمئن نفسه بالخلاص من عقاب الله عن طريق التزلف إلى إله آخر.

ولقد رأينا كيف أن الشيطان يمد أولياءه في هذا الغي عن طريق إعطاء الأماني الكاذبة التي تخدع الإنسان، وتَعِده بالجنة بدون عمل.

وفي هذه الآيات ينسف القرآن هذه القاعدة النفسية، ويُبيّن أن الأماني لاتكون مقبولة أبداً عند الله.

وإن المسؤولية موجودة اعترف بها البشر أو أنكرها، وأن من يعمل سوءا أيا كان فله جزاؤه العادل. كما أن من يعمل الصالحات يجزى عليها من دون نقيصة، وأن المقياس عند الله هو التسليم المطلق له لا التمرد عليه بحجة التحرر، أما البرنامج العملي للإنسان فهو طريق إبراهيم الذي اتخذه الله خليلا، بعد أن أسلم وجهه لله.

وفي الآية الأخيرة ذكر سبحانه أن له: ﴿مَا فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَمَا فِي ٱلْأَرْضِ﴾، وبذلك نفى القاعدة الثانية للشرك، وهي جهل الإنسان بعظمة الله، بواسع قدرته، وبأنه لا يقارن بخلقه.

بينات من الآيات:

الأماني وواقع المسؤولية

[١٢٣] هل تحصل على مليون دينار إذا حلمت بذلك أو تمنيتها؟ وهل تبني مدينة كبيرة بمجرد التخيل بذلك والرغبة فيها؟ كلا..

فكيف يريد البشر أن يحصل على الجنة، وهي أغلى وأعظم من مليون دينار، ومن مدينة كبيرة بمجرد الأمنية. إن مثل هذه الأمنية مثل شيخ كبير فقد أبنه العزيز عليه في حادثة مفاجئة، ولهول الفاجعة لم يستطع أن يصدق بها، فيمنّي نفسه بحياة ابنه في محاولة لتخفيف الألم عنه.

وبالرغم من أنه يعلم بموت ابنه، ولكنه يتهرب من عقله، ويستريح إلى ظل خياله الوارف. كذلك الذين يتهربون من مسؤوليات أعمالهم بالأماني.

إن نفوسهم صغيرة، وإن عزائمهم ضعيفة ومتهاوية، ولايقدرون على تحمل المسؤولية فيتهربون إلى ظل الخيال، ويمنون أنفسهم بشتى الأماني، ومنها مثلاً: أن (المسيح) سيفيدنا

بنفسه، أو أن (هبل) ينقذنا من عذاب الرب، وهكذا.. أما القرآن فيجعل الإنسان وجها لوجه أمام مسؤولية في الحياة، ويقول له: ﴿لَّيْسَ بِأَمَانِيِّكُمْ﴾ التي تزعمون بها التخلص من المسؤولية عن طريق التوسل بالأصنام.

﴿وَلَآ أَمَانِيِّ أَهْلِ ٱلْكِتَٰبِ﴾ الذين يزعمون أن المسيح سيفديهم من ذنوبهم.

﴿مَن يَعْمَلْ سُوٓءًا يُجْزَ بِهِۦ وَلَا يَجِدْ لَهُۥ مِن دُونِ ٱللَّهِ وَلِيًّا وَلَا نَصِيرًا﴾ فلا يدفع أحد عنه عذاب الله لأنه لا أحد قادر على مواجهة سلطان الله في الكون.

تخزين الأعمال

[١٢٤] وفي المقابل سيجزي الصالح بقدر أعماله. من دون أية نقيصة سواء كان ذكرا أو أنثى ولكن بشرط واحد هو أن يكون عمل الصالحات من منطلق الإيمان بالله. إذ من دون هذا الإيمان فإن الصالحات ستكون زَبَداً طافحاً على السيل سرعان ما تنكشف حقيقته.

﴿وَمَن يَعْمَلْ مِنَ ٱلصَّٰلِحَٰتِ مِن ذَكَرٍ أَوْ أُنثَىٰ وَهُوَ مُؤْمِنٌ فَأُو۟لَٰٓئِكَ يَدْخُلُونَ ٱلْجَنَّةَ وَلَا يُظْلَمُونَ نَقِيرًا﴾ أي لا يظلمون حتى بقدر ما في الحفرة الصغيرة الموجودة في طرف نواة التمرة، أو بمقدار موقع نقر الناقر.

وشعور الإنسان بأن كل أعماله حسنة محفوظة له، وهو مجزي بها عن قريب، هذا الشعور يدفعه إلى التسارع في الأعمال الحسنة، ومحاولة مضاعفتها يوماً بعد يوم، وساعة بعد ساعة.

ولكي يدفع الشيطان البشر إلى التكاسل يوحي إليه: أن سيئاته تغفر له بشفاعة فلان وعلان، وأن حسناته لا تقبل منه، لذلك نجد القرآن يؤكد عبر هاتين الآيتين أن للحسنات والسيئات جزاءها العادل من دون نقصان.

خط إبراهيم عليه السلام

[١٢٥] ليس التوجه إلى الأصنام، والتنافس في عبادتها، وتفاخر كل فريق بصنمه، ليس ذلك هو الدين الحسن، إنما الدين الحسن هو ما فعله إبراهيم عليه السلام حين أعرض عن كل رموز الشرك والضلالة، وكل أصنام الظلم والعبودية، وتوجه إلى الله وحده، وأخلص العبودية له، وأسلم وجهه له. أي بوجهه كاملاً إليه، فلم يهدف شيئاً غير وجه الله سبحانه، ثم تزود بالصالحات فلم يكتف بالواجب منها فقط. بل أكثر منها حتى أصبح محسناً.

﴿ وَمَنْ أَحْسَنُ دِينًا مِّمَّنْ أَسْلَمَ وَجْهَهُۥ لِلَّهِ وَهُوَ مُحْسِنٌ وَٱتَّبَعَ مِلَّةَ إِبْرَٰهِيمَ حَنِيفًا ﴾ أي مشى على طريقة إبراهيم عليه السلام في رفضه الأصنام والرموز الحجرية والبشرية.

﴿ وَٱتَّخَذَ ٱللَّهُ إِبْرَٰهِيمَ خَلِيلًا ﴾ فانتفع إبراهيم عليه السلام برفضه العبودية للأصنام والشركاء نفعاً عظيماً، حيث قربه الله إليه، وجعله خليلاً له.

[١٢٦] إن الذين يتخذون من دون الله أرباباً لايقدرون الله حق قدره. بل لا يعرفون الله إطلاقاً، فلو عرفوا الله وعلموا أنه بسط قدرته على كل شيء في السماء والأرض إذا لصغرت في أعينهم الأحجار الصماء التي تنحت بأيديهم، وتتخذ آلهة من دون الله، ولتضاءل الأشخاص الذين زعموا بأنهم شركاء لله، إن معرفة قدرة الله من النظرة الفاحصة في السماء والأرض، واكتشاف آثار قدرته. إنها معالجة جذرية لمشكلة الشرك في الإنسان، ولذلك ذكَّرنا الله هنا بهذه القدرة: ﴿ وَلِلَّهِ مَا فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَمَا فِى ٱلْأَرْضِ ۚ وَكَانَ ٱللَّهُ بِكُلِّ شَىْءٍ مُّحِيطًا ﴾ إحاطة علم وقدرة. فليس هناك شيء يتطاول على قدرة الله، أو يخفى على علمه سبحانه، وإذا ثبتت قدرة الله، وعرفنا إلا ملجأ منه إلا إليه فإن من الطبيعي أن نسلم وجوهنا له، ونتبع ملة إبراهيم حنفاء.

العدالة في العلاقات الأسرية

﴿ وَيَسْتَفْتُونَكَ[١] فِي النِّسَاءِ قُلِ اللَّهُ يُفْتِيكُمْ فِيهِنَّ وَمَا يُتْلَى عَلَيْكُمْ فِي الْكِتَابِ فِي يَتَامَى النِّسَاءِ الَّتِي لَا تُؤْتُونَهُنَّ مَا كُتِبَ لَهُنَّ وَتَرْغَبُونَ أَنْ تَنْكِحُوهُنَّ وَالْمُسْتَضْعَفِينَ مِنَ الْوِلْدَانِ وَأَنْ تَقُومُوا لِلْيَتَامَى بِالْقِسْطِ وَمَا تَفْعَلُوا مِنْ خَيْرٍ فَإِنَّ اللَّهَ كَانَ بِهِ عَلِيمًا (١٢٧) وَإِنِ امْرَأَةٌ خَافَتْ مِنْ بَعْلِهَا نُشُوزًا أَوْ إِعْرَاضًا فَلَا جُنَاحَ عَلَيْهِمَا أَنْ يُصْلِحَا بَيْنَهُمَا صُلْحًا وَالصُّلْحُ خَيْرٌ وَأُحْضِرَتِ الْأَنْفُسُ الشُّحَّ[٢] وَإِنْ تُحْسِنُوا وَتَتَّقُوا فَإِنَّ اللَّهَ كَانَ بِمَا تَعْمَلُونَ خَبِيرًا (١٢٨) وَلَنْ تَسْتَطِيعُوا[٣] أَنْ تَعْدِلُوا بَيْنَ النِّسَاءِ وَلَوْ حَرَصْتُمْ فَلَا تَمِيلُوا كُلَّ الْمَيْلِ فَتَذَرُوهَا كَالْمُعَلَّقَةِ وَإِنْ تُصْلِحُوا وَتَتَّقُوا فَإِنَّ اللَّهَ كَانَ غَفُورًا رَحِيمًا (١٢٩) وَإِنْ يَتَفَرَّقَا يُغْنِ اللَّهُ كُلًّا مِنْ سَعَتِهِ[٤] وَكَانَ اللَّهُ وَاسِعًا حَكِيمًا (١٣٠) ﴾.

هدى من الآيات:

العدالة أساس العلاقات الاجتماعية، وعلى المسلم أن ينشر بذور العدالة في أسرته. فلا يظلم زوجته التي هي في بيته، وتحت رعايته، ولا يأكل عليها مهرها خصوصاً إذا كانت يتيمة.

---

(١) يستفتونك: الفتيا والفتوى الجواب عما يشكل من الأحكام، والاستفتاء السؤال عن الحكم.
(٢) الشح: إفراط في الحرص على الشيء ويكون بالمال وبغيره من الأعراض، وهو البخل الشديد.
(٣) تستطيعوا: الاستطاعة والقوة والقدرة نظائر.
(٤) السعة: خلاف الضيق.

وبعدَ الزوجة يأتي دور الأطفال الصغار الذين لايستطيعون دفاعاً عن حقوقهم، واليتامى. حيث يجب تطبيق العدالة في علاقة الشخص بهم.

وعلى الزوجة أن تحاول من جانبها إقامة علاقاتها مع الرجل على أساس المصالحة لا المطالبة بكل ذرة من حقوقها.

ذلك أن علاقات المصلحة الذاتية، وبالتالي المطالبة التامة بكل الحقوق تسبب الشقاق بسبب طبيعة البخل المرتكزة في نفس البشر، ولذلك فالأفضل دائماً إقامة علاقة التقوى والإحسان والمسامحة بدلاً من العلاقات الحدية حيث يطالب كل جانب بكل حقوقه.

وعلى الرجل ألا يحرص في تعدد الزوجات إذ أن من الصعب عليه إقامة العدل بينهن، فيضطر إلى ترك واحدة منهن أو أكثر كالمعلقة فلا هي زوجته ولا هي مطلقة.

وفي حالة وصول العلاقة الزوجية إلى حالة من الجمود والتنافر فالأفضل الانفصال دون أي خوف من الفقر لأن الله هو الرزاق.

إن علاقة الزوجين ببعضهما تشكل جانباً هاماً من علاقات المجتمع بعضه مع بعض. كما وأنها تنعكس على هذه العلاقات سلباً أو إيجاباً، وكثير من الذنوب تنشأ مباشرة أو غير مباشرة من العلاقة السيئة بين الزوجين.

ولذلك أعاد القرآن -هنا- الحديث عن العلاقات الزوجية بعد ما تحدث عنها في بداية السورة، وذلك في إطار الحديث عن الذنوب وطبقة المذنبين الذين يختانون أنفسهم أو يخونون الناس، لتكون الذنوب التي ترتكب في المحيط العائلي مثلاً للذنوب التي ترتكب خارجه.

بينات من الآيات:

حقوق المراة

[١٢٧] بسبب النظرة الجاهلية المقيتة إلى النساء، واعتبارهن العنصر الأقل كفاءةً وحقوقاً من الرجل، فإن الجاهليين كانوا يسألون الرسول ﷺ كثيراً عن تجاوز حقوق النساء، هل فيه إثم؟. خصوصاً إذا كانت المرأة زوجة في بيت الرجل، لأنها في هذه الحالة تعتبر في ظن الجاهليين ملحقة بالرجل، وليس لها أي استقلال عنه.

فأجاب القرآن هنا عن سؤال الجاهليين حول النساء، وبيّن أن علينا أداء حقوقهن

كاملة كما جاء في الشريعة الإسلامية. متمثلة في الكتاب خصوصاً اذا كان المرأة يتيمة فعلينا أداء حقها كاملاً إذا أردنا الزواج منها ﴿ وَيَسْتَفْتُونَكَ فِي النِّسَاءِ قُلِ اللَّهُ يُفْتِيكُمْ فِيهِنَّ وَمَا يُتْلَىٰ عَلَيْكُمْ فِي الْكِتَابِ فِي يَتَامَى النِّسَاءِ اللَّاتِي لَا تُؤْتُونَهُنَّ مَا كُتِبَ لَهُنَّ وَتَرْغَبُونَ أَن تَنكِحُوهُنَّ﴾ وكذلك حقوق المستضعفين من صغار العمر واليتامى. كل تلك الحقوق يجب ان تراعى رعاية تامة.

﴿وَالْمُسْتَضْعَفِينَ مِنَ الْوِلْدَانِ وَأَن تَقُومُوا لِلْيَتَامَىٰ بِالْقِسْطِ﴾ وعلى المؤمن أن يزيد على أداء الحقوق بالإحسان إلى هذه الطبقات ويعلم أن كل عمل يعمله خير مكتوب عند الله ﴿وَمَا تَفْعَلُوا مِنْ خَيْرٍ فَإِنَّ اللَّهَ كَانَ بِهِ عَلِيمًا ﴾.

الصلح في العلاقات الأسرية

[١٢٨] كما يجب على الرجل أن يوفي حقوق المرأة فعليها أن تتسامح بدورها عن بعض حقوقها خصوصاً اذا رأت في زوجها ميلاً إلى عدم أداء حقوقها، أو حتى الإعراض التام عنها.

﴿وَإِنِ امْرَأَةٌ خَافَتْ مِن بَعْلِهَا نُشُوزًا أَوْ إِعْرَاضًا فَلَا جُنَاحَ عَلَيْهِمَا أَن يُصْلِحَا بَيْنَهُمَا صُلْحًا وَالصُّلْحُ خَيْرٌ﴾ فالإسلام وضع حدوداً ثابتة في العلاقات الاجتماعية، وكلف الناس بتطبيقها كلما اختلفوا فيها، ولكنه وضع قانون التراضي والصلح لإضفاء المرونة الواقعية على تلك الحقوق، فمثلاً: المهر حق من حقوق المرأة وعلى الرجل ألا يتزوج بلا مهر، ولكن هناك نساء ذوات غنى يتزوجن لسبب أو آخر من رجال فقراء. أفلا يمكن أن يتنازلن عن صدقاتهن للأزواج؟.

بلى، لأن ذلك يتفق مع واقعية التشريع وكذلك بالنسبة لسائر حقوق الزوجة، فقد لا تكون من مصلحتها المطالبة بها تماماً، ولعدة أسباب محتملة:

١ - فقد تكون الزوجة لا تستحق تلك الحقوق في نظر العرف، حسب ملابسات حياتها، فتكون مثلاً امرأة كبيرة في السن تفتقر للجمال في المنظر، متواضعة في الشرف، عاقرة أمية، وقد تزوجت ببعل يعاكسها في كل الصفات، فالأفضل لها أن تتجاوز عن بعض حقوقها للمحافظة على ود زوجها.

٢- وقد تكون ظروف الزوج صعبة، وإذا ضغطت عليه الزوجة للحصول على كل حقوقها آنئذ يضطر إلى الطلاق فخير لها أن تسكت عن بعض التجاوزات بانتظار ظروف أفضل.

٣- وقد يكون الزوج رجلاً منحرفاً، يخون زوجته في حقوقها، ولكن البقاء معه بانتظار صلاحه المرتقب أفضل من التمرد عليه وإنهاء العلاقة الزوجية مما قد يسبب الضرر لهما معاً.

إذا هناك ظروف استثنائية ينبغي للمرأة أن تتنازل بطوع إرادتها عن بعض حقوقها، وتصطلح مع الزوج، وتشريع الصلح هنا وفي سائر العلاقات يعطي مرونة واقعية للتشريع الإسلامي، حيث يضع للملابسات الخارجية دوراً في الأحكام الشرعية.

﴿وَأُحْضِرَتِ ٱلْأَنفُسُ ٱلشُّحَّ﴾ أي أرتكزت صفة الشح والبخل والفردية في النفوس، ولذلك يحاول كل جانب أن يجر النار إلى قرصه، وعلينا أن نعتبر أن إقامة العلاقة الاجتماعية خير من فضها فنحاول مقاومة صفة الشح، ونتسلح بالتسامح والصلح.

﴿وَإِن تُحْسِنُوا۟ وَتَتَّقُوا۟ فَإِنَّ ٱللَّهَ كَانَ بِمَا تَعْمَلُونَ خَبِيرًا﴾ أي حين أداء حقوق الآخرين تزيدون عليها إلى درجة الإخلاص، وحين أخذ الحقوق منهم تتقون الله فلا تأخذون إلا ما علمتم أنه من حقكم.

تعدد الزوجات

[١٢٩] على الرجل ألا يحرص في الزواج بأكثر من امرأة واحدة لأن الواجب الشرعي عليه يقضي آنئذ أن يعدل بينهما، وبما أن ميل الشخص سيكون بالطبع إلى الحسنى منهما، فلذلك من الصعب أن يقيم العدل في التعامل معهما، وسيؤدي ذلك بطبيعة الحال إلى ترك واحدة منهما وإهمالها. حتى تصبح كالمعلقة فلا هي زوجة تتمتع بحقوق الزوجة ولا هي مطلقة فتكيف حياتها حسب إرادتها.

﴿وَلَن تَسْتَطِيعُوٓا۟ أَن تَعْدِلُوا۟ بَيْنَ ٱلنِّسَآءِ وَلَوْ حَرَصْتُمْ ۖ فَلَا تَمِيلُوا۟ كُلَّ ٱلْمَيْلِ﴾ بسحق غالب حقوقها، لذا اجعلوا الزواج من الثانية حسب المصلحة أو الضرورة فقط.

فمثلاً: إذا وجدتم أرملة تحتاج إلى كنف الزوجية، وليس لها من يتكفل بها فتزوجوا منها، أو إذا كان عدد النساء أكبر بكثير من الرجال لسبب أو لآخر، مما يشكل مشكلة اجتماعية -لولا تعدد الزوجات- وإذا كانت الزوجة الأولى عقيمة أو مريضة أو مسنة بحيث لا تستطيع الوفاء بحقوق الزوجية وهكذا.

أما في الحالات العادية التي يكون الزواج بالثانية شهوة جنسية بحتة أو تفنناً في المتعة المجردة، فإن العاقبة المنتظرة هي إهمال إحداهما مما يشكل خوفاً لحقوقها.

﴿فَتَذَرُوهَا كَالْمُعَلَّقَةِ وَإِن تُصْلِحُوا وَتَتَّقُوا فَإِنَّ اللَّهَ كَانَ غَفُورًا رَّحِيمًا﴾ أي أن الزواج بالثانية ليس حراماً حتى ولو كان لمجرد المتعة أو الشهوة الجنسية، ولكن بشرط الإصلاح الدائم للعلاقة بين الإثنتين معاً، وبشرط التقوى والتحذر من سحق حقوق واحدة منهما تحت ضغط العاطفة.

فمن كانت إرادته قوية وقادرة على ضبط عواطفه، وكان تقواه يحجزه عن إلحاق الأخرى بواحدة منهما فلا بأس عليه حتى ولو صدرت منه هفوات من غير تعمد وإصرار. فإن الله غفور رحيم.

وإن يتفرقا

[١٣٠] إذا أهمل الزوج عقيلته فعليها أن تطالب بالطلاق ولا تخشى من الفقر. إذ أنه هو بالتالي علاج. بيد أنه يأتي في آخر القائمة. كذلك الطلاق علاج ناجح لظرف صعب لا ينفعه علاج آخر. ذلك أن البقاء على وضع شاذ، ومحاولة الصبر عليه تضييع للطاقات وإفساد للضمير، وهدر للحقوق.

﴿وَإِن يَتَفَرَّقَا يُغْنِ اللَّهُ كُلًّا مِّن سَعَتِهِ وَكَانَ اللَّهُ وَاسِعًا حَكِيمًا﴾ صحيح ان الله لا يرزق أحداً من دون بذل سعي جدي لطلب الرزق لأنه سبحانه حكيم، ولكن أبواب الرزق ليست محصورة في الزواج حتى إذا طلق المرء زوجته خافت من الفقر. كلا فإن الله قادر على أن يفتح عليها أبواباً جديدة للرزق لأنه واسع.. وعلينا أن لا نحدد أنفسنا ضمن مجالات ضيقة للرزق، بل ننطلق في رحاب الحياة ونفتش أبداً عن آفاق جديدة في هذه الأرض الواسعة. ذات الإمكانات غير المحدودة.

المسؤولية الاجتماعية

﴿ وَلِلَّهِ مَا فِي السَّمَوَاتِ وَمَا فِي الْأَرْضِ وَلَقَدْ وَصَّيْنَا الَّذِينَ أُوتُوا الْكِتَابَ مِن قَبْلِكُمْ وَإِيَّاكُمْ أَنِ اتَّقُوا اللَّهَ وَإِن تَكْفُرُوا فَإِنَّ لِلَّهِ مَا فِي السَّمَوَاتِ وَمَا فِي الْأَرْضِ وَكَانَ اللَّهُ غَنِيًّا حَمِيدًا (١٣١) وَلِلَّهِ مَا فِي السَّمَوَاتِ وَمَا فِي الْأَرْضِ وَكَفَى بِاللَّهِ وَكِيلًا (١٣٢) إِن يَشَأْ يُذْهِبْكُمْ أَيُّهَا النَّاسُ وَيَأْتِ بِآخَرِينَ وَكَانَ اللَّهُ عَلَى ذَلِكَ قَدِيرًا (١٣٣) مَّن كَانَ يُرِيدُ ثَوَابَ الدُّنْيَا فَعِندَ اللَّهِ ثَوَابُ الدُّنْيَا وَالْآخِرَةِ وَكَانَ اللَّهُ سَمِيعًا بَصِيرًا (١٣٤) يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا كُونُوا قَوَّامِينَ بِالْقِسْطِ[1] شُهَدَاءَ لِلَّهِ وَلَوْ عَلَى أَنفُسِكُمْ أَوِ الْوَالِدَيْنِ وَالْأَقْرَبِينَ إِن يَكُنْ غَنِيًّا أَوْ فَقِيرًا فَاللَّهُ أَوْلَى بِهِمَا فَلَا تَتَّبِعُوا الْهَوَى أَن تَعْدِلُوا وَإِن تَلْوُوا[2] أَوْ تُعْرِضُوا[3] فَإِنَّ اللَّهَ كَانَ بِمَا تَعْمَلُونَ خَبِيرًا (١٣٥) ﴾.

هدى من الآيات:

حين يتحسس البشر بقدرة الله الهائلة التي تتجلى في ملكوت السماوات والأرض، وتحيط به في كل شيء. حين يتحسس بذلك تجري في عروقه قشعريرة وارتعاشة تدفعه أبداً إلى الحذر، وتبعده أبداً عن الطيش والغفلة.

وكلما زادت معرفة البشر بالقدرة الكبيرة التي تحيط به. كلما زاد تقواه، وبالتالي انضبطت أعماله، واتجهت في مسير سليم، ونما في روعه ضمير واع يردعه من اقتراف الخيانة أو ارتكاب

(١) القسط: العدل.

(٢) تلووا: من لوى يلوي، بمعنى الانحراف، واللي الانحراف اليسير.

(٣) تعرضوا: الإعراض الانحراف مطلقاً.

الجريمة، ويدفعه إلى إقامة العدل وأداء الشهادة لله.

وفي هذا الدرس ينهي القرآن الحكيم حديثه عن طبقة الخائنين والمختالين بمعالجة جذرية لمشكلة الذنب. تلك هي: ازدياد تقوى البشر النابع بدوره من معرفة قدرة الله، ولذلك يبدأ هذا الدرس بالتذكير بملكوت الله، وأن الله غني لا يضره كفر الناس، وأنه يملك ما في السماوات والأرض، وأنه قادر على تبديل الناس بآخرين.

ثم يعطي أملاً للإنسان بثواب الله، وينهي الدرس بما يعتبر علاجاً آخر لمشكلة الذنب (الخيانة - المعصية) هو: أن يقوم الناس جميعاً بالعدل، وأن يشهدوا لله بعيدين عن أي أعتبارات أخرى، وطبيعي أن يقل الذنب في مجتمع قوام بالقسط شاهد على الحق لله.

بينات من الآيات:

مشكلة الخوف عند الإنسان

[١٣١] من الدوافع الأساسية لارتكاب الذنب هو الخوف، فلولا خوف الشعوب المستضعفة من الطغاة إذا ما سكتوا على الظلم، ولولا خوف الفرد من مجتمعه المنحرف لما استمر في ضلالات ذلك المجتمع، ولولا الخوف من الفقر لما بخل الأغنياء، ولولا الخوف من الموت لما تخلف الجبناء عن الحرب.

وبالرغم من تجذر مشكلة الخوف عند البشر فإن لها حلاً يقتلع جذورها اقتلاعا هو: الإيمان بالله، وأنه يملك ما في السماوات والارض، ويأمر بالعدل والإحسان، ويدعم من يعمل بهما، ويخلصه من عوامل الخوف بقدرته الكبيرة.

فما دام الله يملك كل ما نخاف منه فلماذا لا نخاف من الله. بل ولماذا نخاف شيئاً مادام الله، وهو رب كل شيء لم يغضب علينا. إن هذه المعادلة الواضحة تجعلنا نقاوم الضغوط التي تدفعنا إلى الذنب.

﴿ وَلِلَّهِ مَا فِي السَّمَاوَاتِ وَمَا فِي الْأَرْضِ وَلَقَدْ وَصَّيْنَا الَّذِينَ أُوتُوا الْكِتَابَ مِن قَبْلِكُمْ وَإِيَّاكُمْ أَنِ اتَّقُوا اللَّهَ ﴾ هذه وصية وليست أمراً فقط لأن الأمر قد يكون في ضرر المأمور، بيد أن الوصية هي دائماً في مصلحة من يسمعها، ثم هي وصية مشتركة بين كل أجيال الرسالة لأنها من القيم العامة التي لاتتغير بالزمان.

إن التقوى في مصلحة الإنسان وليس في مصلحة الله فهو لا يتأثر شيئاً بتقواكم أو

بكفركم ﴿وَإِن تَكْفُرُوا فَإِنَّ لِلَّهِ مَا فِي السَّمَاوَاتِ وَمَا فِي الْأَرْضِ وَكَانَ اللَّهُ غَنِيًّا حَمِيدًا﴾ فهو غني بامتلاكه لما في السماوات والأرض، وحميد لأنه لا يستخدم قدرته في إلحاق الضرر بالخلق سبحانه. بل في اللطف بهم والتفضل عليهم.

الاستعانة بالله من الخوف

[١٣٢] من استعان بالله وقاوم ضغوط الحياة، ولم يستجب لها جس الخوف الذي يدفعه إلى الذنب فإنه سيجد وراءه ركناً شديداً يعتمد عليه ﴿وَلِلَّهِ مَا فِي السَّمَاوَاتِ وَمَا فِي الْأَرْضِ وَكَفَىٰ بِاللَّهِ وَكِيلًا﴾ ومدافعاً لمن استعان به، ولم يخش عباده اعتماداً عليه.

[١٣٣] أما من خشي الناس، وخاف من الطبيعة، وأسخط الله لإرضاء المجتمع أو لتجاوز أخطار الطبيعة، فعليه أن يتحمل مسؤولية عمله إذ أن الله قادر على تصفيته من الوجود رأساً، ويأتي بآخرين يعيشون في الأرض مكانه ﴿إِن يَشَأْ يُذْهِبْكُمْ أَيُّهَا النَّاسُ وَيَأْتِ بِآخَرِينَ وَكَانَ اللَّهُ عَلَىٰ ذَٰلِكَ قَدِيرًا﴾.

[١٣٤] ومن الناس من يدفعه الطمع إلى اقتراف المعصية، فيأكل أموال الناس طمعاً، ويتعاطى بيع الخمور، وإشاعة الفاحشة طمعاً.. فعلى هؤلاء أن يعرفوا أنهم لو اتبعوا منهاج الله، وابتعدوا عن معاصيه، فسوف يغنيهم الله، ويعطيهم لا في الدنيا فقط بل وفي الآخرة أيضاً.

﴿مَّن كَانَ يُرِيدُ ثَوَابَ الدُّنْيَا فَعِندَ اللَّهِ ثَوَابُ الدُّنْيَا وَالْآخِرَةِ وَكَانَ اللَّهُ سَمِيعًا بَصِيرًا﴾ يسمع ويبصر أقوال وأعمال الناس الحسنة فلا يتركها من دون ثواب عاجل في الدنيا، وثواب آجل في الآخرة.

خلاصة القول: إن كانت المعصية بدافع الخوف فلنعلم أن الله قادر على أن يدفع عنا ما نخشاه، وهو أولى بالخوف من أي شيء آخر، وإن كانت المعصية بهدف الحصول على غنيمة، فإن عند الله غنائم أفضل.

المسؤولية الاجتماعية

[١٣٥] لكي نحافظ على نظافة المجتمع لابد أن يتوفر عاملان:

الأول: ضمير رادع عن المعصية عند كل شخص (التقوى).

الثاني: إحساس الجميع بمسئوليتهم عن المعصية، ومحاسبتهم العامل بها أنى كان، وقد

تحدثت الآيات السابقة عن العامل الأول.

وهاهي الآية تتحدث عن العامل الثاني الذي يبرز دوره في الحقوق الاجتماعية، فلو كان ضمير المجتمع حيًّا، ويحس بمسؤوليته، فإنه يقضي على الظلم وهو في المهد. إذ ما إن يظلم أحد من الناس حتى يردعه أقرب الناس إليه. من قراباته أو أصدقائه أو زملائه، وبالتالي من أولئك الذين يرجو أن يدعموا موقفه الظالم. بل قبل أن يهم الظالم باغتصاب حق فإنه عادة ما يستثير القريبين منه، ويحاول تهيئة الأجواء لجريمته، فإذا كان المجتمع واعياً فإنهم يمنعونه عن تنفيذ مخططه فيقتلون الظلم وهو نطفة قبل أن يولد.

وهناك مرحلتان متدرجتان لقيام المجتمع بمسؤوليته تجاه الظلم:

الأولى: منع الظلم، وإقامة العدل.

الثانية: في حالة وقوع الظلم التعاون على إزالته، وذلك بالشهادة ضده، ولمصلحة صاحب الحق، وليس للإنسان أن يسكت عن إعلان موقفه من الظلم وذلك بالشهادة لصاحب الحق، أنى كانت الظروف، فلأن صاحب الحق ضعيف أو غريب أو فاجر، أو لأن الظالم له قوة أو من أقربائي أو أصدقائي أو.. أو. لا أستطيع لأي من هذه المبررات أن أسكت عن الشهادة. بل علي واجب أن أشهد لصاحب الحق.

﴿ يَـٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ كُونُوا۟ قَوَّٰمِينَ بِٱلْقِسْطِ ﴾ أي اعملوا على تطبيق العدالة. لأن صرح العدل في المجتمع بحاجة إلى جهد ضخم ليتم بناؤه.

﴿شُهَدَآءَ لِلَّهِ﴾ أي أقيموا الشهادة بهدف مرضاة الله لا خوفاً أو طمعاً من أحد حتى ولو كانت الشهادة ضد مصالحكم.

﴿وَلَوْ عَلَىٰٓ أَنفُسِكُمْ أَوِ ٱلْوَٰلِدَيْنِ وَٱلْأَقْرَبِينَ ۚ إِن يَكُنْ غَنِيًّا أَوْ فَقِيرًا فَٱللَّهُ أَوْلَىٰ بِهِمَا ﴾ أي لا عليكم إذا كان من تشهدون له غنيًّا أو فقيراً، بل هذا أمر يخص الله. أما أنتم فاشهدوا لله.

﴿فَلَا تَتَّبِعُوا۟ ٱلْهَوَىٰٓ أَن تَعْدِلُوا۟ ۚ ﴾ فلا يضلنكم حب المصلحة، أو حب الأقارب من إقامة العدل بالشهادة أو بالتنفيذ ﴿وَإِن تَلْوُۥٓا۟ أَوْ تُعْرِضُوا۟ فَإِنَّ ٱللَّهَ كَانَ بِمَا تَعْمَلُونَ خَبِيرًا﴾ أي أن تنحرفوا قليلاً أو كثيراً فإن الله خبير بكم.

المنافقون وازدواجية الولاء

﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا آمِنُوا بِاللَّهِ وَرَسُولِهِ وَالْكِتَابِ الَّذِي نَزَّلَ عَلَىٰ رَسُولِهِ وَالْكِتَابِ الَّذِي أَنزَلَ مِن قَبْلُ ۚ وَمَن يَكْفُرْ بِاللَّهِ وَمَلَائِكَتِهِ وَكُتُبِهِ وَرُسُلِهِ وَالْيَوْمِ الْآخِرِ فَقَدْ ضَلَّ ضَلَالًا بَعِيدًا (١٣٦) إِنَّ الَّذِينَ آمَنُوا ثُمَّ كَفَرُوا ثُمَّ آمَنُوا ثُمَّ كَفَرُوا ثُمَّ ازْدَادُوا كُفْرًا لَّمْ يَكُنِ اللَّهُ لِيَغْفِرَ لَهُمْ وَلَا لِيَهْدِيَهُمْ سَبِيلًا (١٣٧) بَشِّرِ الْمُنَافِقِينَ بِأَنَّ لَهُمْ عَذَابًا أَلِيمًا (١٣٨) الَّذِينَ يَتَّخِذُونَ الْكَافِرِينَ أَوْلِيَاءَ مِن دُونِ الْمُؤْمِنِينَ ۚ أَيَبْتَغُونَ عِندَهُمُ الْعِزَّةَ [١] فَإِنَّ الْعِزَّةَ لِلَّهِ جَمِيعًا (١٣٩) وَقَدْ نَزَّلَ عَلَيْكُمْ فِي الْكِتَابِ أَنْ إِذَا سَمِعْتُمْ آيَاتِ اللَّهِ يُكْفَرُ بِهَا وَيُسْتَهْزَأُ بِهَا فَلَا تَقْعُدُوا مَعَهُمْ حَتَّىٰ يَخُوضُوا فِي حَدِيثٍ غَيْرِهِ ۚ إِنَّكُمْ إِذًا مِّثْلُهُمْ ۗ إِنَّ اللَّهَ جَامِعُ الْمُنَافِقِينَ وَالْكَافِرِينَ فِي جَهَنَّمَ جَمِيعًا (١٤٠) الَّذِينَ يَتَرَبَّصُونَ [٢] بِكُمْ فَإِن كَانَ لَكُمْ فَتْحٌ مِّنَ اللَّهِ قَالُوا أَلَمْ نَكُن مَّعَكُمْ وَإِن كَانَ لِلْكَافِرِينَ نَصِيبٌ قَالُوا أَلَمْ نَسْتَحْوِذْ [٣] عَلَيْكُمْ وَنَمْنَعْكُم مِّنَ الْمُؤْمِنِينَ ۚ فَاللَّهُ يَحْكُمُ بَيْنَكُمْ يَوْمَ الْقِيَامَةِ ۗ وَلَن يَجْعَلَ اللَّهُ لِلْكَافِرِينَ عَلَى الْمُؤْمِنِينَ سَبِيلًا (١٤١)﴾.

---

(١) العزة: أصل العزة الشدة، والعزيز القوي المنيع بخلاف الذليل.

(٢) التربص: الانتظار.

(٣) الاستحواذ: الغلبة والاستيلاء.

هدى من الآيات:

في الحديث السابق عالج القرآن الكريم قضية الخيانة بكل أبعادها، ووضع حلولاً ومواقف لطبقة الخائنين.

أما في هذا الحديث فيطرح قضية المنافقين من بعدها الاجتماعي، أي فيما يتصل بتواجدهم داخل المجتمع المسلم، وانعكاسات سلوكهم السلبية على ذلك المجتمع خصوصاً بالنسبة لازدواجية الولاء، فهم في الظاهر أعضاء في هذا المجتمع، وفي الواقع مرتبطون بالأعداء.

ويمهد القرآن لهذا الحديث بترسيخ فكرة وحدة الإيمان، وأنه لا يتجزأ، ثم يوضح فكرة استمرارية الإيمان، وأنه لا يمكن التحول منه وإليه بين الفترة والأخرى، ثم يبشر المنافقين بالعذاب، وأخيراً يبين القضية المطروحة، وهي أن المنافقين هم الذين يتخذون الكافرين أولياء. ولكي يبقى المجتمع الإسلامي نظيفاً من مؤثرات الكفر فقد أمرنا الله بأن نقاطع مجالس الكفار، فكيف بالولاء لهم؟!.

أما هؤلاء المنافقون فهم يعيشون الازدواجية، فمن جهة يريدون كسب ود المسلمين حتى يشاركوهم في مكاسب الانتصارات، ومن جهة ثانية يريدون درء خطر الكفار حتى يحافظوا على أنفسهم حين ينهزم المسلمون، ولكن الله لا يدع المسلمين ينهزمون لو أنهم آمنوا وجاهدوا في سبيله.

بينات من الآيات:

الإيمان الكامل

[١٣٦] الإيمان كل لا يتجزأ، ومادام الإنسان قد آمن، وعرف الله ورسالاته، فعليه أن يخلص في إيمانه، ولا ينقصه تحت ضغط المصالح والأهواء. وأي نقص في الإيمان يناقض الإيمان رأساً. إذ أن الإيمان ليس العلم فقط، بل هو مخالفة الهوى واتباع للعقل.

فلو جزأ المرء إيمانه فأخذ منه ما يوافق أهواءه، ورفض منه ما يخالف أهواءه، فهل اتبع هذا الشخص عقله أم هواه، وبالتالي هل آمن؟!.

﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ﴾ أي يا من انقطعت حجتهم بسبب اعترافهم بمبدأ الإيمان، إن عليكم متابعة المسيرة لأنه لا حجة لكم في التوقف ﴿ءَامِنُواْ بِٱللَّهِ وَرَسُولِهِۦ وَٱلْكِتَٰبِ ٱلَّذِى نَزَّلَ عَلَىٰ رَسُولِهِۦ وَٱلْكِتَٰبِ ٱلَّذِىٓ أَنزَلَ مِن قَبْلُ وَمَن يَكْفُرْ بِٱللَّهِ وَمَلَٰٓئِكَتِهِۦ وَكُتُبِهِۦ وَرُسُلِهِۦ وَٱلْيَوْمِ ٱلْءَاخِرِ فَقَدْ ضَلَّ ضَلَٰلًۢا بَعِيدًا﴾.

المواقف المتزلزلة تجاه القوة

[١٣٧] والإيمان كما لايتجزأ عضوياً فهو لايتجزأ زمنيًّا، فليس من الإيمان في شيء الارتباط بجهة الحق كلما كانت قوية، ومخالفتها كلما كانت ضعيفة هل هذا إيمان بالحق أم إيمان بالقوة؟.

﴿ إِنَّ الَّذِينَ آمَنُوا ثُمَّ كَفَرُوا ثُمَّ آمَنُوا ثُمَّ كَفَرُوا ثُمَّ ازْدَادُوا كُفْرًا لَّمْ يَكُنِ اللَّهُ لِيَغْفِرَ لَهُمْ وَلَا لِيَهْدِيَهُمْ سَبِيلًا ﴾ هؤلاء كانوا يغيرون مواقفهم حسب موازين القوى في المجتمع، أو حسب رياح مصالحهم الذاتية، ولذلك فهم بمثابة الكفار الذين لا يغفر الله لهم ذنوبهم، بل هم أشد سوءاً من الكفار إذ أنهم تلاعبوا بهدى الله، واتخذوه مادة المساومة لحياتهم الدنيا، ولذلك فهم لا ينظرون إلى الإيمان نظرة الباحث عن الحق، فيستحيل أن يهتدوا به.

إن من ينظر إلى المرآة ليشتريها أو ليعرف قطرها ووزنها لا يمكنه أن ينظر إلى الأشياء عبرها لأنه مشغول عن الصور المنعكسة داخل المرآة بفحص زجاجتها، وإطارها وإتقان صنعها، كذلك الذي يتخذ من الرسالة وسيلة الارتزاق لا يمكنه أن ينظر إليها إلا كما ينظر التاجر إلى متجره، والبقال إلى محله، فلا يسعى من أجل فهمها أو العمل بها، لذلك فهو لا يهتدي -عمره- بالرسالة.

المنافقون وحقيقة الارتباط بالأجنبي

[١٣٨-١٣٩] ﴿ بَشِّرِ الْمُنَافِقِينَ بِأَنَّ لَهُمْ عَذَابًا أَلِيمًا ﴾ من هم المنافقون المعنيون هنا - بالذات-؟ إنهم الطبقة الاجتماعية المزدوجة الولاء، أو التي تعيش في مجتمع الإيمان، وتحمل ولاءً لمجتمع الكفر بهدف الحصول على قوة ومنعة وعزة. فمثلاً في المجتمع الإسلامي اليوم نجد طوائف مبتلاة بمركب النقص، وتحرص على الحصول على القوة والعزة، وتتقاعس عن العمل الجاد الذي يعطيها القوة والعزة، حسب قيم المجتمع الإسلامي.

فيفتش المنافقون من هذه الطوائف عن الأجنبي ليرتبطوا به، ويفتشون عن جهات عالمية ليحصلوا على قوة يركنون إليها.

وربما يسودون في يوم من الأيام بسببها على إخوتهم وأبناء أوطانهم حتى ولو جر ذلك إلى بيع استقلال بلدهم، وتذليل شعبهم، وتحطيم قيمهم.

إن هؤلاء هم المنافقون

﴿ الَّذِينَ يَتَّخِذُونَ الْكَافِرِينَ أَوْلِيَاءَ مِن دُونِ الْمُؤْمِنِينَ أَيَبْتَغُونَ عِندَهُمُ الْعِزَّةَ ﴾ كلا، لا

يمكنهم الحصول على القوة بالركون إلى الأجنبي، إذ أن الأجنبي إذا جاء فسوف يستعبد أول ما يستعبد هذه الفئة المرتبطة به والخادمة له!.

إنه لايعطي هذه الفئة الدعم لسواد عينها بل لتحقيق مكاسب خاصة، قد تتناقض مع مكاسب هذه الفئة، وقد يبيع الأجنبي في مائدة المفاوضات الفئة المرتبطة به، ويساوم عليها.

فأين تكمن عزة هؤلاء، أنها تكمن في اللجوء إلى الصف الإيماني وتقوية شوكة الشعب كله حتى يكون الجميع أسياداً بين الأمم ﴿فَإِنَّ ٱلْعِزَّةَ لِلَّهِ جَمِيعًا﴾ لله ولمن ينفذ برامجه من المؤمنين.

لئلا نصير عملاء

[١٤٠] لكي لا يستميل الأجنبي الكافر بعض ضعاف النفوس من أبناء الأمة، منع الإسلام الاستماع إلى دعايات الكفار المضللة التي يستهدفون من ورائها التأثير على البسطاء، ومن ثم استدراجهم إلى صفهم، وبيع القيم.

﴿وَقَدْ نَزَّلَ عَلَيْكُمْ فِي ٱلْكِتَٰبِ أَنْ إِذَا سَمِعْتُمْ ءَايَٰتِ ٱللَّهِ يُكْفَرُ بِهَا وَيُسْتَهْزَأُ بِهَا فَلَا تَقْعُدُوا۟ مَعَهُمْ﴾ الكفر هو الإنكار المغلف بما يزعم صاحبه أنه استدلال عقلي.

أما الاستهزاء فهو محاولة مفضوحة للتأثير على البسطاء عن طريق تهوين القيم الرسالية في أعينهم، ويجب مقاطعة مجالس الكفر والاستهزاء لحين تغيير طابعها العدائي، وتبديل موضوع الحديث.

﴿حَتَّىٰ يَخُوضُوا۟ فِي حَدِيثٍ غَيْرِهِۦٓ﴾ وحين يجلس الإنسان في محفل يستمع فيه إلى إنكار الرسالة، والاستخفاف بها، ثم لايرد ولا يتأثر، فإنه محسوب من أصحاب هذا المحفل الفاجر ﴿إِنَّكُمْ إِذًا مِّثْلُهُمْ﴾ أي إنكم منافقون إذ ذاك كما هم كافرون، وجزاؤكم آنئذ هو جزاء مشترك وهي النار ﴿إِنَّ ٱللَّهَ جَامِعُ ٱلْمُنَٰفِقِينَ وَٱلْكَٰفِرِينَ فِي جَهَنَّمَ جَمِيعًا﴾

[١٤١] إن المنافقين يوالون الكفار، ويحضرون مجالس كفرهم واستهزائهم في حالة السلم،.. أما في حالة الحرب فهم يجلسون فوق التل يراقبون سير المعركة لأنهم جبناء، والجبان لا ينفع أي طرف يتعاون معه، وينتظرون بالتالي نهاية المعركة بقلب بارد، فإذا انتصر المسلمون جاؤوا وطالبوا بالغنائم باعتبارهم أعضاء في المجتمع الإسلامي، وإذا انتصر الكفار مؤقتاً تسللوا إليهم وطالبوهم بأجور خدماتهم التي أسدوها لهم (هكذا يزعمون لهم، بيد أنهم لم

يفعلوا شيئاً هامًّا لهم).

﴿ٱلَّذِينَ يَتَرَبَّصُونَ بِكُمْ﴾ أي ينتظرون نهايتكم ﴿فَإِن كَانَ لَكُمْ فَتْحٌ مِّنَ ٱللَّهِ قَالُوٓا۟ أَلَمْ نَكُن مَّعَكُمْ وَإِن كَانَ لِلْكَٰفِرِينَ نَصِيبٌ قَالُوٓا۟ أَلَمْ نَسْتَحْوِذْ عَلَيْكُمْ وَنَمْنَعْكُم مِّنَ ٱلْمُؤْمِنِينَ﴾ أي حفظناكم من أن يصيبكم سوء من قبل المؤمنين.

وليعلم هؤلاء: إن عاقبة نفاقهم حساب شديد يوم القيامة، أما في الدنيا فلأن الرسالة تنتصر أبداً على أعدائها، فإن المنافقين سوف يفقدون الدعم الخارجي لهم ويسقطون داخل المجتمع الإسلامي ﴿فَٱللَّهُ يَحْكُمُ بَيْنَكُمْ يَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِ وَلَن يَجْعَلَ ٱللَّهُ لِلْكَٰفِرِينَ عَلَى ٱلْمُؤْمِنِينَ سَبِيلًا﴾.

المنافقون صفات وتقييم

﴿إِنَّ الْمُنَافِقِينَ يُخَادِعُونَ اللَّهَ وَهُوَ خَادِعُهُمْ وَإِذَا قَامُوا إِلَى الصَّلَاةِ قَامُوا كُسَالَى يُرَاءُونَ النَّاسَ وَلَا يَذْكُرُونَ اللَّهَ إِلَّا قَلِيلًا (١٤٢) مُذَبْذَبِينَ (١) بَيْنَ ذَلِكَ لَا إِلَى هَؤُلَاءِ وَلَا إِلَى هَؤُلَاءِ وَمَنْ يُضْلِلِ اللَّهُ فَلَنْ تَجِدَ لَهُ سَبِيلًا (١٤٣) يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لَا تَتَّخِذُوا الْكَافِرِينَ أَوْلِيَاءَ مِنْ دُونِ الْمُؤْمِنِينَ أَتُرِيدُونَ أَنْ تَجْعَلُوا لِلَّهِ عَلَيْكُمْ سُلْطَانًا (٢) مُبِينًا (١٤٤) إِنَّ الْمُنَافِقِينَ فِي الدَّرْكِ (٣) الْأَسْفَلِ مِنَ النَّارِ وَلَنْ تَجِدَ لَهُمْ نَصِيرًا (١٤٥) إِلَّا الَّذِينَ تَابُوا وَأَصْلَحُوا وَاعْتَصَمُوا بِاللَّهِ وَأَخْلَصُوا دِينَهُمْ لِلَّهِ فَأُولَئِكَ مَعَ الْمُؤْمِنِينَ وَسَوْفَ يُؤْتِ اللَّهُ الْمُؤْمِنِينَ أَجْرًا عَظِيمًا (١٤٦)﴾

هدى من الآيات:

استمراراً لحديث السابق عن الولاء التام داخل المجتمع المسلم، وإدانة ازدواجية الولاء كما يفعل المنافقون يأتي هذا الحديث، ويبين في البدء بعض صفات المنافقين الظاهرة التي تدل على انفصالهم الروحي عن مناهج وقيم المجتمع الإسلامي وذلك حين يقومون للصلاة كسالى، وأن قلوبهم كالصخر لا تخشع لذكر الله، وأنهم في حالة شك دائمة، يراوحون بين جبهتي الإيمان والكفر، ولا يستقرون على واحدة منهما، وأنهم بفعل شكهم، وعبادتهم لذواتهم ومصالحهم بعيدون عن نور الهداية.

---

(١) مذبذبين: المذبذب المهتز القلق الذي لا يثبت في مكان.

(٢) سلطان: حجة.

(٣) الدرك: أقصى قعر الشيء.

ثم يحذر الله المؤمنين من المصير الذي انتهت إليه هذه الطائفة من المنافقين، وينذرهم بأن الله سيأخذهم بسلطان مبين، لو سمحوا لأنفسهم بموالاة الكافرين.

تلك العاقبة السوء التي تنتهي بصاحبها إلى نار جهنم في أسفل دركاتها حيث لا ينقذهم ولاؤهم للكافرين من النار.

وقبل أن ينهي القرآن هذا الحديث يفتح أمام المنافقين باب الأمل، ويرشدهم إلى التوبة بشرط أن تقارن بالإصلاح ما أفسدوه بالنفاق، وذلك بالولاء التام للمجتمع الإسلامي، والإخلاص في تطبيق مناهجه سبحانه، وآنئذ سوف يلحقون بركب المؤمنين الذين أعد الله لهم أجراً عظيماً.

بينات من الآيات:

خداع الله!

[١٤٢] يزعم المنافقون: أنهم كما يخادعون حسب زعمهم أبناء المجتمع الإسلامي، كذلك بإمكانهم مخادعة الله لذلك تجد أن أعمالهم الدينية تشبه ممارساتهم الاجتماعية.

فإذا قاموا إلى الصلاة تكاسلوا، وأدوا فقط القشر البارز من الصلاة، أما جوهر الصلاة فإنهم بعيدون عنه.

بيد أن هذه المخادعة ستنقلب عليهم. إذ أن الله أكبر من أن تنطلي عليه مخادعة العباد، ويتقبل منهم هذه العبادات القشرية الفارغة

﴿إِنَّ ٱلْمُنَٰفِقِينَ يُخَٰدِعُونَ ٱللَّهَ وَهُوَ خَٰدِعُهُمْ﴾ كيف يخادع الله عباده؟ إنه يمكر بهم، ويكيدهم بأن يمهلهم أياماً حتى تسكرهم النعم، ويفقدوا عقولهم وإرادتهم، ثم يأخذهم الله فجأة أخذاً شديداً كما فعل مثلاً بقوم لوط، إذ بعث الله إليهم بملائكة العذاب في صورة ضيوف، وألبسهم ثوب الجمال حتى استهووا قوم لوط الذين تعودوا على الفاحشة سابقاً، فلما اجتمعوا إليهم وكانوا يمنون أنفسهم بالفحشاء والشذوذ ولم يبق في أنفسهم ذرة من التقوى أو الإيمان..

آنئذ تحول أولئك الملائكة إلى صورتهم الأصلية، فإذا هم غلاظ شداد، وإذا بهم يقتلعون مدينتهم ويدمرونها عليهم.

هكذا يخادع الله عباده عندما يحالون مخادعته ﴿وَإِذَا قَامُوٓاْ إِلَى ٱلصَّلَوٰةِ قَامُواْ كُسَالَىٰ يُرَآءُونَ ٱلنَّاسَ وَلَا يَذْكُرُونَ ٱللَّهَ إِلَّا قَلِيلًا﴾ فهم لا يصلون حقيقة لله، بل يتظاهرون أمام الناس. وإذا كانت الصلاة وهي أهم الشعائر العبادية يؤدونها بهذه الروح فكيف بسائر الواجبات.

هذا مثل لخداع المنافقين لأنفسهم، وكيفية قيامهم بواجباتهم الدينية، وبالتالي هذه صفة واضحة فيهم نستطيع أن نكتشفهم عن طريقها.

فقدان المقاييس والحكم بالشك

[١٤٣] والصفة الثانية للمنافقين هي الشك، وتذبذب المواقف. فهم لا يتخذون مواقفهم حسب رؤية مستقبلية، بل حسب التوفيق بين الجبهة الكافرة وبين المجتمع الإسلامي، وتمييع المواقف، وتأييد كل طرف في شيء حسب المصالح الآنية العاجلة لهم.

﴿مُّذَبْذَبِينَ بَيْنَ ذَٰلِكَ﴾ أي بين الكفار والمؤمنين وذلك بإشارة الكلمة الثانية.

﴿لَآ إِلَىٰ هَٰٓؤُلَآءِ وَلَآ إِلَىٰ هَٰٓؤُلَآءِ﴾ ولأنهم مذبذبون تستبد بهم الشكوك فأن قلوبهم تفقد المقاييس الصحيحة التي تميز الحق عن الباطل، وبالتالي فإنهم لن يهتدوا أبداً.

﴿وَمَن يُضْلِلِ ٱللَّهُ فَلَن تَجِدَ لَهُۥ سَبِيلًا﴾ الله هو الذي يهدي عباده بعد أن يسعوا من أجل الهداية، أما الذين يتقاعسون عنها ويسدون أبواب قلوبهم دونها، إذن كيف يهديهم الله؟!.

إنه يتركهم في ضلالتهم وآنئذ لا يجدون من يهديهم من دون الله.

لنتصور الهداية كالعلم. كيف يحصل الواحد منا على العلم؟ بالطبع عن طريق السعي الدائب، والبحث الدائم، ولكن كيف يكون حال من لا يسعى من أجل العلم، بل وأخس من ذلك بأن يسد على نفسه الأبواب، ولا يدع أحداً يدخل عليه ليعلمه، أفلا يبقي هذا الشخص في الجهل أبداً؟! كذلك الله يضلل المنافقين.

لمن الولاء؟

[١٤٤] هذه بعض صفات المنافقين، وعلينا أن نتحذر من انحرافهم الذي يبدأ بولاء الكافرين خوفاً منهم أو طمعاً فيهم.

﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ لَا تَتَّخِذُوا۟ ٱلْكَٰفِرِينَ أَوْلِيَآءَ مِن دُونِ ٱلْمُؤْمِنِينَ﴾ الإنسان لايستطيع أن يمنح ولاء لجهتين متضادتين: فأما هو -بالتالي- موال للمؤمنين أو للكافرين.

وإذا والى المؤمن كافراً، فأنه سيقطع ولاءه طبيعيًّا عن المؤمنين، ولذلك عبر القرآن الكريم هنا بكلمة ﴿مِن دُونِ ٱلْمُؤْمِنِينَ﴾ نعم يمكن أن يكون ولاء المؤمن للكافرين من خلال ولائه للمؤمنين، وذلك بأن يخلص ولاءه للمؤمنين، ولكل من يخدم المؤمنين من الكفار.

﴿أَتُرِيدُونَ أَن تَجۡعَلُواْ لِلَّهِ عَلَيۡكُمۡ سُلۡطَٰنٗا مُّبِينًا﴾ فلا ينصركم الله أنكم لا تخلصون الولاء له، إذ أن نصر الله إنما يأتي للذين يعتمدون كليًّا عليه، ويعبدونه بتطبيق برنامجه كاملاً غير منقوص. أما الذين يوالون الكفار فإن الله يوكلهم إليهم، لأنهم في الواقع لايستطيعون تطبيق برامجه بالكامل.

[١٤٥] أما إذا والى المؤمنون الكافرين فإنهم سيكونون منافقين، وجزاء المنافقين معروف: إنه جهنم.

﴿إِنَّ ٱلۡمُنَٰفِقِينَ فِي ٱلدَّرۡكِ ٱلۡأَسۡفَلِ مِنَ ٱلنَّارِ﴾ طبقات الجنة تسمى بالدرجات، وأرفعها أعلى عليين، وطبقات النار تسمى الدركات وأسوأها أسفل السافلين.

﴿وَلَن تَجِدَ لَهُمۡ نَصِيرًا﴾ إنهم والوا الكفار بهدف الحصول على عونهم، ولكن آمالهم ستخيب يوم القيامة. إذ سيجدون أنفسهم في النار دون أن ينصرهم أصدقاؤهم الكفار.

سبيل العودة

[١٤٦] طريق عودة المنافقين إلى الجبهة الإيمانية، طريق سالك ومعبد وذو مراحل أربع:

الأولى: التوبة بالندم على تعاملهم السابق مع الكفار، والعزم على عدم تكراره.

الثانية: الإصلاح بترميم الجسور المهدمة بينهم وبين المؤمنين، وذلك بتصفية عقولهم من أفكار الكافرين، وتصفية قلوبهم من النفاق والحقد على المؤمنين، وتصفية علاقاتهم السابقة وتكوين علاقات حميمة جديدة.

الثالثة: الاعتصام بالله، وذلك بتوثيق الولاء للقيادة الإسلامية والتسليم لها والطاعة لأوامرها.

الرابعة: إخلاص الدين(١)، وذلك بإقامة الصلاة بنشاط ووعي، ومن دون كسل، وذكر الله كثيراً، وإقامة سائر الشعائر، وممارسة سائر الواجبات بطريقة صحيحة.

بعد طي هذه المراحل يلحق هؤلاء بالمؤمنين الذين أعد الله لهم أجراً عظيماً في الدنيا متمثلاً بالنصر المؤزر، وفي الآخرة في جنات عدن خالدة ﴿إِلَّا ٱلَّذِينَ تَابُواْ وَأَصۡلَحُواْ وَٱعۡتَصَمُواْ بِٱللَّهِ وَأَخۡلَصُواْ دِينَهُمۡ لِلَّهِ فَأُوْلَٰٓئِكَ مَعَ ٱلۡمُؤۡمِنِينَۖ وَسَوۡفَ يُؤۡتِ ٱللَّهُ ٱلۡمُؤۡمِنِينَ أَجۡرًا عَظِيمٗا﴾.

---

(١) ربما يكون معنى إخلاص الدين هو توحيد الولاء.

صفات الكافرين عرض وتقييم

﴿مَا يَفْعَلُ ٱللَّهُ بِعَذَابِكُمْ إِن شَكَرْتُمْ وَءَامَنتُمْ وَكَانَ ٱللَّهُ شَاكِرًا عَلِيمًا ﴿١٤٧﴾ لَّا يُحِبُّ ٱللَّهُ ٱلْجَهْرَ بِٱلسُّوٓءِ مِنَ ٱلْقَوْلِ إِلَّا مَن ظُلِمَ وَكَانَ ٱللَّهُ سَمِيعًا عَلِيمًا ﴿١٤٨﴾ إِن تُبْدُوا۟ خَيْرًا أَوْ تُخْفُوهُ أَوْ تَعْفُوا۟ عَن سُوٓءٍ فَإِنَّ ٱللَّهَ كَانَ عَفُوًّا قَدِيرًا ﴿١٤٩﴾ إِنَّ ٱلَّذِينَ يَكْفُرُونَ بِٱللَّهِ وَرُسُلِهِۦ وَيُرِيدُونَ أَن يُفَرِّقُوا۟ بَيْنَ ٱللَّهِ وَرُسُلِهِۦ وَيَقُولُونَ نُؤْمِنُ بِبَعْضٍ وَنَكْفُرُ بِبَعْضٍ وَيُرِيدُونَ أَن يَتَّخِذُوا۟ بَيْنَ ذَٰلِكَ سَبِيلًا ﴿١٥٠﴾ أُو۟لَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْكَٰفِرُونَ حَقًّا وَأَعْتَدْنَا لِلْكَٰفِرِينَ عَذَابًا مُّهِينًا ﴿١٥١﴾ وَٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ بِٱللَّهِ وَرُسُلِهِۦ وَلَمْ يُفَرِّقُوا۟ بَيْنَ أَحَدٍ مِّنْهُمْ أُو۟لَٰٓئِكَ سَوْفَ يُؤْتِيهِمْ أُجُورَهُمْ وَكَانَ ٱللَّهُ غَفُورًا رَّحِيمًا ﴿١٥٢﴾﴾.

هدى من الآيات:

بعد بيان مفصل لشروط الإصلاح المسبقة التي ينبغي أن يتصف بها المنافق التائب، وبالتالي كل مؤمن حتى لا يتسرب النفاق إلى قلبه.

يُبيّن السياق أن من أبرز شروط الإصلاح الشكر لله، والإيمان به، وتنقية أجواء المجتمع من الكلام السلبي وإشاعة الخير، والعفو عن السوء.

وبعد بيان هذه الشروط الأساسية لاقتلاع جذور التفرقة والنفاق من أرض المجتمع يعود القرآن ليحدثنا عن طبقة أخرى من المنافقين، وهم الذين يبعضون إيمانهم، فيؤمنون ببعض الرسل وببعض التعاليم السماوية الموصى بها إليهم، ويكفرون ببعض.

ويقرر القرآن أنهم هم الكافرون، لأن الإيمان كل لايتجزأ، ويؤكد هذه الحقيقة في الآية

التالية، وفي الدرس القادم يضرب مثلاً من بني إسرائيل الذين آمنوا ببعض الرسل، وكفروا ببعض. إن إيمانهم ببعض التعاليم وكفرهم ببعضها الآخر إنما هو حسب ما تقتضيه مصالحهم الذاتية.

بينات من الآيات:

شكر الله والنظرة الإيجابية

[١٤٧] إن الله غني عنا، غني عن أعمالنا، وغني عن عذابنا، إنه لايتلذذ بعذاب أحد سبحانه، بيد أنه حين يعذب الناس فإنما لاستحقاقهم ذلك، وبالتالي بسبب جر النار إلى أنفسهم بأنفسهم.

ولكي يتحصن الإنسان من شر أعماله فعليه أن يؤمن، ولكي يؤمن فعليه أن يشكر الله، إذ أن النفس الشاكر لأنعم الله عليها أن تتمتع بنظرة إيجابية متفائلة للحياة، وتنظر إلى كل نعمة باعتبارها عطاء جديداً لاتستحقه، وأنه يمكن أن يؤخذ منه في أية لحظة، فهو من جهة يقدر النعمة حق قدرها؛ ومن جهة ثانية يقدر من أعطاها إياها وهو الله سبحانه، حق قدره، وبذلك يزداد إيمانه بالله، ووعيه التام برحمته الواسعة، وبهيمنته الدائمة على الحياة.

أرأيت لو استضافك رجل كريم، ليس لك عليه حق، وهيأ لك أفضل أنواع المتع واللذات، ولم يحدد نهاية ضيافته لك، أولست تبقى تشعر بالامتنان إليه طيلة فترة ضيافته، وتعمل خلالها بكل لباقة وأدب يتناسبان ورجل ضيف مثلك، لإنك تقدر من جهة العطاء الذي قدمته لك على غير استحقاق، وتخشى من جهة ثانية من الطرد في أية لحظة.

كذلك الشاكر يزداد وعيه بنعم الله، وبالتالي ايمانه بالله، وشعوره بمنته عليه كلما أوتي نعمة جديدة، بعكس المنافق الذي كلما زادت نعم الله عليه كلما أحس بأنها جزء من حقوقه، ودليل على عظمته، وبالتالي يزداد طغياناً وكفراً.

﴿مَّا يَفْعَلُ ٱللَّهُ بِعَذَابِكُمْ إِن شَكَرْتُمْ وَءَامَنتُمْ وَكَانَ ٱللَّهُ شَاكِرًا عَلِيمًا﴾ فكلما ازداد شكرك، وتقديرك لنعمه عليك، كلما شكرك الله، وأغرقك بنعم جديدة، وهو إذ ذاك يعلم كم شكرته ومتى؟.

علاج بعض الأمراض الاجتماعية

[١٤٨] حين تتشبع النفس بالشكر لله، وبالرضا يقل الحسد والحقد والكراهية المنبعثة

عن ضيق الأفق وتتناقص البغضاء النابعة من الاستئثار والفردية، ويعم مكانهما الصفاء والمحبة والتسامح، مما ينعكس على أحاديث الناس فتصبح ايجابية سليمة.

لأن الله لا يحب التجاهر بالأحاديث السلبية السيئة إلا إذا كانت ذا هدف شريف وهو: الضرب على يد الظالم، والاستعانة بالناس ضده.

﴿لَّا يُحِبُّ ٱللَّهُ ٱلْجَهْرَ بِٱلسُّوٓءِ مِنَ ٱلْقَوْلِ إِلَّا مَن ظُلِمَ ۚ وَكَانَ ٱللَّهُ سَمِيعًا عَلِيمًا﴾ يسمع الغيبة والتهمة والنميمة والتنابز بالألقاب، والانتقاص من قدر هذا أو ذاك، ويعلم كذبها ودوافعها، وهل هي تظلم؟ أو استعانة ضد جائر أم لا؟.

إن الله حين لايحب شيئاً فلأنه يضر بمصلحة الناس، وسوف يعاقب عليه في الدنيا والاخرة.

[١٤٩] بلى، إن الله يحب ذلك المجتمع النظيف من سلبيات الكلام العاكف على عمل الخير سواء كان ظاهراً أو مستتراً، ومن أبرز أعمال الخير العفو..

أو لم يقل ربنا في آية أخرى: ﴿وَيَسْـَٔلُونَكَ مَاذَا يُنفِقُونَ قُلِ ٱلْعَفْوَ﴾ [البقرة:٢١٩] إن العفو يربط أبناء المجتمع ببعضه ربطا ويقتلع جذور النفاق منه.

﴿إِن تُبْدُوا۟ خَيْرًا أَوْ تُخْفُوهُ أَوْ تَعْفُوا۟ عَن سُوٓءٍ فَإِنَّ ٱللَّهَ كَانَ عَفُوًّا قَدِيرًا﴾ إن الله يعفو عمن عفا عن الناس ويعفو عمن يعمل الخير للناس. يعفو عنهم بالرغم من قدرته عليهم، أوليس من الأفضل أن يتخلق العبد بخلق ربه، وأن يكون هو الآخر عفواً؟!

[١٥٠] ما هو الإيمان؟.

الجواب: إنه إخضاع قوى الشر في الذات لإرادة الحق، وتسليم النفس لهدى العقل، إنه استجابة الإنسان لنداء الله، وبالتالي مخالفة أهواء النفس، واتباع برامج الله.

وإذا كان هذا هو الإيمان فليس بمؤمنٍ أبداً ذلك الذي يوافق الحق حين يتوافق مع مصالحه، ويخضع للحق بهدف تحقيق شرور ذاته، وتسلم نفسه للعقل بشرط موافقة أهوائه ويستجيب لنداء الله حين لا يضر بشهواته، وهكذا إنما هذا الرجل متوغل في الكفر لأنه يعبد ذاته ولا يرى الحق إلا وسيلة لتحقيق مصالحه.

والذين يبعضون رسالات الله فيأخذون ما يوافق مصالحهم، ويتركون ما خالفها.. إنهم بالتالي يعبدون مصالحهم ولا يعبدون الله، لذلك فهم الكافرون حقًّا، وقد أصدر القرآن عليهم

حكم الكفر مسبقاً وقال: ﴿ إِنَّ الَّذِينَ يَكْفُرُونَ بِاللَّهِ وَرُسُلِهِ وَيُرِيدُونَ أَن يُفَرِّقُوا بَيْنَ اللَّهِ وَرُسُلِهِ وَيَقُولُونَ نُؤْمِنُ بِبَعْضٍ وَنَكْفُرُ بِبَعْضٍ وَيُرِيدُونَ أَن يَتَّخِذُوا بَيْنَ ذَٰلِكَ سَبِيلًا ﴾.

[١٥١] ﴿ أُولَٰئِكَ هُمُ الْكَافِرُونَ حَقًّا ۚ وَأَعْتَدْنَا لِلْكَافِرِينَ عَذَابًا مُّهِينًا ﴾ والتفريق بين الله والرسول يأتي بهدف عصيان الرسول، والادعاء بأنهم يكتفون ببرامج الله.

ولكن هل تعني برامج الله عزوجل شيئاً من دون قيادة الرسول، إنهم يكذبون كذبة مفضوحة حين يدعون وجود علاقة بينهم وبين الله، إذ لو كان كذلك إذن لخضعوا لرسوله.

إن كل الطغاة عبر التاريخ يحاربون رجال الإصلاح في الوقت الذي يدعون أنهم مؤمنون بالإصلاح ذاته، ويقتلون النبيين باسم المحافظة على الدين، ويسحقون علماء الدين، ويتظاهرون بحماية الدين.

إن الرسول لاينفصل عن الله عزوجل، ولا ينفصل عن الإصلاح ومناهج الدين وعن حملتها من المصلحين والعلماء، وإنما يهين الله هؤلاء الكافرين بعذابه يوم القيامة أو حتى في الدنيا، لأنهم خالفوا رسل الله، وبالتالي كفروا بالله بدافع كبرهم وعزتهم الكاذبة، وغرورهم الفارغ، لذلك يخزيهم الله ويذلهم في الدنيا والآخرة.

[١٥٢] وفي مقابل الكفار الذين يفرقون بين الله ورسله ابتغاء المصالح العاجلة هناك رجال صادقون في إيمانهم يبتغون أجر الله الذي سيوافيهم عاجلاً أم آجلاً ﴿ وَالَّذِينَ آمَنُوا بِاللَّهِ وَرُسُلِهِ وَلَمْ يُفَرِّقُوا بَيْنَ أَحَدٍ مِّنْهُمْ أُولَٰئِكَ سَوْفَ يُؤْتِيهِمْ أُجُورَهُمْ ۗ وَكَانَ اللَّهُ غَفُورًا رَّحِيمًا ﴾.

دوافع الكفر

﴿ يَسْأَلُكَ أَهْلُ الْكِتَابِ أَن تُنَزِّلَ عَلَيْهِمْ كِتَابًا مِّنَ السَّمَاءِ فَقَدْ سَأَلُوا مُوسَىٰ أَكْبَرَ مِن ذَٰلِكَ فَقَالُوا أَرِنَا اللَّهَ جَهْرَةً فَأَخَذَتْهُمُ الصَّاعِقَةُ بِظُلْمِهِمْ ثُمَّ اتَّخَذُوا الْعِجْلَ مِن بَعْدِ مَا جَاءَتْهُمُ الْبَيِّنَاتُ فَعَفَوْنَا عَن ذَٰلِكَ وَآتَيْنَا مُوسَىٰ سُلْطَانًا مُّبِينًا (١٥٣) وَرَفَعْنَا فَوْقَهُمُ الطُّورَ بِمِيثَاقِهِمْ وَقُلْنَا لَهُمُ ادْخُلُوا الْبَابَ سُجَّدًا وَقُلْنَا لَهُمْ لَا تَعْدُوا[1] فِي السَّبْتِ وَأَخَذْنَا مِنْهُم مِّيثَاقًا غَلِيظًا (١٥٤) فَبِمَا نَقْضِهِم مِّيثَاقَهُمْ وَكُفْرِهِم بِآيَاتِ اللَّهِ وَقَتْلِهِمُ الْأَنبِيَاءَ بِغَيْرِ حَقٍّ وَقَوْلِهِمْ قُلُوبُنَا غُلْفٌ بَلْ طَبَعَ اللَّهُ عَلَيْهَا بِكُفْرِهِمْ فَلَا يُؤْمِنُونَ إِلَّا قَلِيلًا (١٥٥) وَبِكُفْرِهِمْ وَقَوْلِهِمْ عَلَىٰ مَرْيَمَ بُهْتَانًا[2] عَظِيمًا (١٥٦) وَقَوْلِهِمْ إِنَّا قَتَلْنَا الْمَسِيحَ عِيسَى ابْنَ مَرْيَمَ رَسُولَ اللَّهِ وَمَا قَتَلُوهُ وَمَا صَلَبُوهُ وَلَٰكِن شُبِّهَ لَهُمْ وَإِنَّ الَّذِينَ اخْتَلَفُوا فِيهِ لَفِي شَكٍّ مِّنْهُ مَا لَهُم بِهِ مِنْ عِلْمٍ إِلَّا اتِّبَاعَ الظَّنِّ وَمَا قَتَلُوهُ يَقِينًا (١٥٧) بَل رَّفَعَهُ اللَّهُ إِلَيْهِ وَكَانَ اللَّهُ عَزِيزًا حَكِيمًا (١٥٨) وَإِن مِّنْ أَهْلِ الْكِتَابِ إِلَّا لَيُؤْمِنَنَّ بِهِ قَبْلَ مَوْتِهِ وَيَوْمَ الْقِيَامَةِ يَكُونُ عَلَيْهِمْ شَهِيدًا (١٥٩) فَبِظُلْمٍ مِّنَ الَّذِينَ هَادُوا حَرَّمْنَا عَلَيْهِمْ طَيِّبَاتٍ أُحِلَّتْ لَهُمْ وَبِصَدِّهِمْ عَن سَبِيلِ اللَّهِ كَثِيرًا (١٦٠) وَأَخْذِهِمُ الرِّبَا وَقَدْ نُهُوا عَنْهُ وَأَكْلِهِمْ أَمْوَالَ النَّاسِ بِالْبَاطِلِ وَأَعْتَدْنَا لِلْكَافِرِينَ مِنْهُمْ عَذَابًا أَلِيمًا (١٦١) لَّٰكِنِ الرَّاسِخُونَ فِي الْعِلْمِ مِنْهُمْ وَالْمُؤْمِنُونَ يُؤْمِنُونَ بِمَا أُنزِلَ إِلَيْكَ وَمَا أُنزِلَ مِن قَبْلِكَ وَالْمُقِيمِينَ الصَّلَاةَ وَالْمُؤْتُونَ الزَّكَاةَ وَالْمُؤْمِنُونَ بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الْآخِرِ أُولَٰئِكَ سَنُؤْتِيهِمْ أَجْرًا عَظِيمًا (١٦٢) ﴾.

(١) لا تعدوا: العدوان والتعدي.

(٢) بهتاناً: البهتان الكذب الذي يتحير فيه من شدته وعظمته.

هدى من الآيات:

لماذا يفرق المرء المؤمن بين الله ورسله. هل لأنه لا يقتنع بصدق الرسول؟.

كلا.. إن أكثر الناس يخالفون الرسول استجابة لأهوائهم ومصالحهم الآنية، وإنما يغلفون مخالفتهم بطبقة من الجدل الفكري فهؤلاء بنو إسرائيل يطالبون الرسول بأن يأتيهم بقراطيس منزلة من السماء مباشرة كألواح موسى، فهل كفروا بالرسول لأنه لم ينزل عليهم قراطيس من السماء؟ وهل إنهم يؤمنون اذ نزلت هذه القراطيس؟ كلا.. لقد جاءهم موسى بما اقترحوا ولكن لم يؤمنوا به أيضاً، وإنما قالوا لموسى: أرنا الله جهرة حتى نؤمن لك، وهل كان من الممكن استجابة طلبهم التعجيزي؟! ثم انهم أشركوا بالله بعد أن اقتنعوا بالحق عن طريق البينات التي جاءتهم، واكثر من ذلك إنهم نقضوا ميثاقهم بعد أن أحكمه الله عليهم أحكاما، بعد أن ظلل عليهم جبل عظيم، فكاد يقع عليهم لولا أنهم تعهدوا بالطاعة، فلما رفع عنهم الجبل عادوا إلى غيهم، وكفروا بآيات الله، وقتلوا الأنبياء عليهم السلام، وادعوا أن قلوبهم مقفلة لا يدخلها نور الإيمان، وإنما هم الذين أقفلوها على أنفسهم بالكفر.

ومثل آخر: إن بني إسرائيل كفروا بعيسى عليه السلام، واتهموا أمه الصديقة مريم عليها السلام ببهتان عظيم. وادعوا انهم قتلوا المسيح الذي لم يقتلوه، بل إنهم اشتبهوا فيه، ولكن الله رفعه إليه، وقبل أن يموت أي واحد منهم فسوف يؤمن بالمسيح لأنه حق. والإنسان قبل موته يرى الحق بوضوح.

إذن ماذا كان وراء كفر هؤلاء؟ إنه الظلم الذي حرم الله عليهم بسببه كثيراً من الطيبات التي أحلت لهم سابقاً.

فالظلم سواء كان ذاتيًّا أو اجتماعيًّا فإنه العامل الأساسي للكفر، والظلم الذاتي مثل شرب الخمر، والظلم الاجتماعي مثل محاولة تحريف الناس عن الحق، وأخذ الربا، وأكل أموال الناس بالباطل، وكل هذه تسبب الكفر، ومرد الكفر عذاب اليم.

بينات من الآيات:

حقيقة الكفر من واقع بني إسرائيل

[١٥٣] يجب ألا تخدعنا كلمات الكفار التي يتظاهرون بها. إن مخالفتهم للرسالة إنما هي لعدم قناعتهم الفكرية بها، ويقدمون طلبات يزعمون أنها لو تحققت إذا آمنوا، كلا، فعلينا أن

نكشف عن دوافعهم ورغباتهم الاجتماعية.

فهؤلاء بنو إسرائيل طالبوا الرسول ﷺ بأن ينزل عليهم كتاباً من السماء غير القرآن، ويبدو أنهم كانوا يريدون أن يكون الكتاب محتوياً على بعض الأفكار، أو أنهم طالبوا بكتاب مكتوب في الألواح، كما نزل على موسى عليه السلام بيد أن هذا الطلب لم يكن في الواقع سوى ستار لإخفاء دوافع كفرهم المصلحية.

إذ أن موسى عليه السلام جاء اليهم بمثل ما يريدون فلم يلبثوا حتى طلبوا منه طلباً تعجيزياً ساذجاً فقالوا: ﴿ أَرِنَا ٱللَّهَ ﴾!. أو يمكن أن يرى ربنا سبحانه؟! بيد أنهم اشترطوا على موسى أن يريهم الله حتى يؤمنوا ﴿ يَسْـَٔلُكَ أَهْلُ ٱلْكِتَـٰبِ أَن تُنَزِّلَ عَلَيْهِمْ كِتَـٰبًا مِّنَ ٱلسَّمَآءِ ۚ فَقَدْ سَأَلُوا۟ مُوسَىٰٓ أَكْبَرَ مِن ذَٰلِكَ فَقَالُوٓا۟ أَرِنَا ٱللَّهَ جَهْرَةً فَأَخَذَتْهُمُ ٱلصَّـٰعِقَةُ بِظُلْمِهِمْ ۚ ﴾ نزلت صاعقة عليهم أبادتهم عن آخرهم ثم أحياهم الله، والسؤال: لماذا نزلت الصاعقة عليهم بعد طلبهم السخيف؟

الجواب: لأنهم كانوا من قبل ظالمين لأنفسهم وللناس، وما كان طلبهم إلا غطاءً لظلمهم، أو لأن مجرد هذا الطلب كان دليلاً على أنهم يكفرون بالله، وبقيمه ومنهاهجه.

وأوضح الله لهم البينات، لقد عبروا البحر بعد أن انفلق لهم وتحول إلى طريق سالكة، ولقد قضى الله على عدوهم فرعون بالموت غرقاً.

ولقد نزل عليهم المن والسلوى وتفجرت لهم الصخور بالمياه العذبة، ومع كل ذلك عبدوا العجل، أفلا يدل ذلك على أن لهم دوافع مصلحية تدعوهم إلى الكفر؟!.

﴿ثُمَّ ٱتَّخَذُوا۟ ٱلْعِجْلَ مِنۢ بَعْدِ مَا جَآءَتْهُمُ ٱلْبَيِّنَـٰتُ فَعَفَوْنَا عَن ذَٰلِكَ ۚ وَءَاتَيْنَا مُوسَىٰ سُلْطَـٰنًا مُّبِينًا ﴾ استطاع بذلك السلطان قمع التمرد المتمثل في عبادة العجل، وقتل الكثير من الداعين إليه، وضمن الوحدة الفكرية لبني إسرائيل.

[١٥٤] ومثل آخر من واقع بني إسرائيل أيضاً، حين اقتطع الله قطعة من الجبل فوضعها فوق رؤوسهم، وهددهم بإفنائهم حتى تعهدوا له بتطبيق الميثاق، ثم أمرهم بأن يدخلوا المدينة ساجدين لله سبحانه لا متكبرين ولا طامعين، ونظم حياتهم، فأمرهم بألا يصيدوا يوم السبت، وأخذ منهم ميثاقاً وتعهداً شديداً بأن يطيعوا أوامره. فهل فعلوا؟! كلا..

﴿وَرَفَعْنَا فَوْقَهُمُ ٱلطُّورَ بِمِيثَـٰقِهِمْ ﴾ أي رفعنا فوق رؤوسهم الجبل ليتعهدوا بالميثاق والعهد ﴿وَقُلْنَا لَهُمُ ٱدْخُلُوا۟ ٱلْبَابَ سُجَّدًا ﴾ لله، والباب هو باب المدينة التي فتحها الله لهم بعد أن تعبوا من حياة البداوة، وسألوا الله بأن يرزقهم حياة الزراعة والتحضر ﴿وَقُلْنَا لَهُمْ لَا تَعْدُوا۟ فِى

﴿ٱلسَّبْتِ﴾ أي لا تتعدوا حدود الله في السبت ﴿وَأَخَذْنَا مِنْهُم مِّيثَٰقًا غَلِيظًا﴾.

[١٥٥] ولكن لماذا نقضوا الميثاق، وكفروا بآيات الله، وقتلوا الأنبياء عليهم السلام، وابتعدوا نهائياً عن اتباع الحق، وبرروا ذلك لأنفسهم، بأن قلوبنا مغلقة، ولا تستطيع أن تستوعب هذه الحقائق، أو ليس لأنهم كفروا؟! فلما كفروا طبع الله على قلوبهم، وأغلق فيها نوافذ الهدى، ولم يعطهم الهداية التي هي منة الله، وكان مثلهم مثل الذي أغمض عينه عن الشمس حتى غابت عنه فهل يستطيع أن يراها حتى ولو فتح عينه؟ كلا..

أنهم اختاروا العمى على الهدى، فسلب الله عنهم نور الهدى جزاءً لكفرهم به.

﴿فَبِمَا نَقْضِهِم مِّيثَٰقَهُمْ وَكُفْرِهِم بِـَٔايَٰتِ ٱللَّهِ وَقَتْلِهِمُ ٱلْأَنۢبِيَآءَ بِغَيْرِ حَقٍّ﴾ بالطبع لا يكون قتل النبي بحق، وإنما جاء القرآن بكلمة ﴿بِغَيْرِ حَقٍّ﴾ تأكيداً، أو أراد أن يُبيّن أنهم لم يقاتلوا الأنبياء عليهم السلام، فيقتلوهم في الحرب مما قد يوحى إلى البعض أن قتلهم حق، كلا..

إنما قتلوهم صبراً، ومن دون أي مبرر حتى عندهم هم، وحسب مقاييسهم الجاهلية.

﴿وَقَوْلِهِمْ قُلُوبُنَا غُلْفٌۢ﴾ أي مغلفة. لا تستطيع أن تستوعب نور الحق، وهذا تبرير سخيف يتوسل به كل المعاندين الذين يريدون قطع الجدل على من يخاصمهم، فيقولون هكذا خلقنا الله، أننا لا نفهم، أننا لا نستطيع أن نؤمن، وبالتالي يلقون بمسؤولية كفرهم على الله سبحانه، ولكنه كذب واضح.

﴿بَلْ طَبَعَ ٱللَّهُ عَلَيْهَا بِكُفْرِهِمْ﴾ فهم كانوا قادرين على فهم الحقائق، وقد ساواهم الله في نعمة العقل، وفرصة الهداية كالآخرين، ولكنهم سدوا على أنفسهم الطرق بكفرهم بالله، وعنادهم المتعمد وحتى الآن هم قادرون على تغيير مسارهم، ولكن بصعوبة كبيرة وذلك بأن يتركوا عنادهم ويتوبوا إلى الله من جحودهم، وآنئذ يتوب الله عليهم، ويعيد إليهم نعمة العقل ونور الهدى المسلوب عنهم.

بيد أن هذه العملية صعبة جداً، ولا يقوم بها إلا قليل منهم ﴿فَلَا يُؤْمِنُونَ إِلَّا قَلِيلًا﴾ بيد أن وجود هذه الفئة القليلة التي تؤمن من بعد الكفر لدليل على سخافة فكرة (حتمية الضلالة) التي تشبثوا بها لتبرير كفرهم.

قصة المسيح وأمه عليهما السلام

[١٥٦] كيف كفر هؤلاء حتى طبع الله على قلوبهم؟.

إنهم كفروا بعيسى عليه السلام، وأضافوا على كفرهم اتهام أم عيسى الصديقة مريم عليها السلام

ببهتان عظيم ﴿وَبِكُفْرِهِمْ وَقَوْلِهِمْ عَلَىٰ مَرْيَمَ بُهْتَٰنًا عَظِيمًا﴾ اتهموها بالزنا لإسقاط شخصية نبيهم عيسى في أعين الناس، وكانوا يعلمون ان هذه تهمة باطلة، وأنها تهمة كبيرة.

[١٥٧] وأيضا بهدف إسقاط شخصية عيسى في نظر الجماهير، وبالتالي إسقاط رسالته قالوا: إنا قضينا على عيسى، قالوه كذباً، وإنما قتلوا رجلاً آخرا شبيهاً بعيسى عليه السلام.

﴿وَقَوْلِهِمْ إِنَّا قَتَلْنَا ٱلْمَسِيحَ عِيسَى ٱبْنَ مَرْيَمَ رَسُولَ ٱللَّهِ﴾ وإنما كرم القرآن اسم عيسى هنا بأنه كان المسيح وهو ابن مريم الصديقة عليها السلام، وهو رسول الله، لكي يقابل محاولة اليهود لإسقاط شخصيته عليه السلام في أعين الناس.

﴿وَمَا قَتَلُوهُ وَمَا صَلَبُوهُ وَلَٰكِن شُبِّهَ لَهُمْ﴾ فقد قتلوا شخصاً آخر، أو أنهم تصوروا قتل المسيح بيد أنه كان قد رفع إلى السماء حيًّا.

﴿وَإِنَّ ٱلَّذِينَ ٱخْتَلَفُوا۟ فِيهِ لَفِى شَكٍّ مِّنْهُ﴾ ومجرد اختلافهم في كيفية قتله لدليل على أنهم لم يقتلوه يقيناً، وإلا فعملية القتل خصوصاً لشخصية كبيرة كعيسى لا يمكن أن تبعث الشك والتردد بل تكون موضع يقين واتفاق الجميع.

﴿مَا لَهُم بِهِۦ مِنْ عِلْمٍ إِلَّا ٱتِّبَاعَ ٱلظَّنِّ﴾ ذلك الظن الآتي من غياب عيسى عليه السلام فادعوا بأنهم قتلوه، وبعض ادعوا بأنهم صلبوه ﴿وَمَا قَتَلُوهُ يَقِينًۢا﴾ علماً بأن القتل يكون شيئاً يتيقن الإنسان به.

[١٥٨] إنما استعاده الله عز وجل ورفعه إلى السماء، وهو حي يرزق والله قادر على ذلك بعزته، وهو حكيم يرفع عيسى عليه السلام بعد أن أدى رسالته، وانتهت وظيفته ﴿بَل رَّفَعَهُ ٱللَّهُ إِلَيْهِ وَكَانَ ٱللَّهُ عَزِيزًا حَكِيمًا﴾.

متى يؤمنون

[١٥٩] وهؤلاء الذين يقرؤون الكتاب يعلمون أن عيسى عليه السلام لم يكن سوى رسول من الله. وأن ارتيابهم فيه ليس إلا بهدف المصالح، أو بسبب ضيق النفس، وعامل الحسد والكبر وحين تسقط عنهم حجب الريب فتنتهي المصالح، ويطهر القلب من الحسد والكبر. آنئذ يؤمنون بعيسى، ولكن متى يتحقق ذلك؟.

إنما يتحقق عند الموت، فعند الموت يفكر الإنسان تفكيراً جدياً سلبياً بعيداً عن مؤثرات الدنيا الفانية، وآنئذ يعرف الحقائق، ويعلمها يقينا.

﴿ وَإِن مِّنْ أَهْلِ ٱلْكِتَٰبِ إِلَّا لَيُؤْمِنَنَّ بِهِۦ قَبْلَ مَوْتِهِۦ ۖ وَيَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِ يَكُونُ عَلَيْهِمْ شَهِيدًا ﴾ بماذا يشهد عليهم، إنه يشهد بكذبهم وجدلهم، ومحاربتهم له. لا لشيء إلا لأنه حمل إليهم رسالة الله، وأراد لهم الخير، يشهد على أنهم إنما كفروا به بعد أن عرفوه، وأن ارتيابهم فيه لم يكن سوى غطاء لحسدهم وحقدهم.

والإنسان حين يتصور نفسه في لحظة مفارقة الحياة ولقاء الله، آنئذ يكتشف زيف كثير من التبريرات التي يمني نفسه بها، ويرى الحقائق بوضوح تام، وعلينا إذا أن نتصور ذلك بين فترة وأخرى لعلنا نهتدي إلى الحق.

علاقة الكفر بنقص النعم

[١٦٠] إن كفر اليهود (وجحودهم وعنادهم) سبب لهم العمى، وإن الله طبع على قلوبهم وبالتالي سبب لهم انحرافاً رئيسيًّا في الحياة كما رأينا وانتهى بهم إلى نقض الميثاق، وقتل الأنبياء عليهم السلام، وادعاء قتل عيسى عليه السلام.

أما ظلمهم (تعديهم على حقوق بعضهم) فقد سبب لهم حياة البؤس حيث لم يستطيعوا التلذذ بنعم الله في الحياة.

﴿ فَبِظُلْمٍ مِّنَ ٱلَّذِينَ هَادُوا۟ حَرَّمْنَا عَلَيْهِمْ طَيِّبَٰتٍ أُحِلَّتْ لَهُمْ ﴾ هل حرمها الله عليهم تحريماً تشريعيًّا (كما حرم عليهم أنواعاً من اللحم) أم حرمها عليهم طبيعيًّا، أي منعها عنهم بطريقة تكوينية. كما حرم مثلاً على موسى عليه السلام -وهو رضيعٌ- المراضع.

قد يكون هذا وذاك معاً. إذ أن الأمة الظالمة يشدد الله عليها في التشريع كما أن المجتمع الظالم يستوجب نظاماً شديداً وقوانين رادعة كثيرة، وقد كان بنو إسرائيل من هذا النوع، ولذلك رأينا كيف أن الله تشدد معهم في قصة البقرة لظلمهم، وهكذا.

والأمة الظالمة لا تتنعم بنعم الله، لأن كل فريق منهم يحاول الاستيلاء على حقوق الفريق الآخر، ولا يحاولون أن يتحدوا، ويكثفوا الجهود من أجل تحقيق رفاهية الكل واستغلال موارد الطبيعة من أجل خير ورفاهية الجميع.

ولكن يبقى سؤال: ما هو الظلم الذي يمنع النعم؟.

الجواب:

أولاً: منع الناس عن الاكتساب، ووضع عراقيل أمام الطاقات أن تحقق الرفاه مما يسميه

القرآن هنا بسبيل الله. ومن الطبيعي أن تتخلف الأمة التي تكبل الكفاءات وتضع عليها قيوداً كثيرة.

ثانياً: باستغلال القوي للضعيف حيث أن القوي يتكاسل -إذ ذاك- عن العمل البناء، ويكتفي بما يستغله من الناس. والضعيف لا يؤدي دوره لأنه مستغَل، ويضرب القرآن لنا بمثلَي أخذ الربا، وأكل أموال الناس بالباطل..

فالأول: استغلال مبطن.

والثاني: استغلال سافر.

﴿وَبِصَدِّهِمْ عَن سَبِيلِ ٱللَّهِ كَثِيرًا﴾

علم راسخ وفطرة إيمانية

[١٦١] ﴿وَأَخْذِهِمُ ٱلرِّبَوٰا۟ وَقَدْ نُهُوا۟ عَنْهُ وَأَكْلِهِمْ أَمْوَٰلَ ٱلنَّاسِ بِٱلْبَٰطِلِ ۚ وَأَعْتَدْنَا لِلْكَٰفِرِينَ مِنْهُمْ عَذَابًا أَلِيمًا﴾ بما أن الحديث السابق كان عن بني إسرائيل على وجه الإطلاق وبصفة عامة فقد خصص القرآن العذاب للكافرين منهم لكي لا يزعم أحد: أن كل بني إسرائيل كفار، ولكن يستثني منهم طبقة خاصة يتحدث عنها في الآية التالية.

[١٦٢] ﴿لَّٰكِنِ ٱلرَّٰسِخُونَ فِى ٱلْعِلْمِ مِنْهُمْ﴾ الذين لم يتخذوا العلم وسيلة ارتزاق، بل منظاراً لمعرفة الحياة.

﴿وَٱلْمُؤْمِنُونَ﴾ الذين طابت نفوسهم ولم تحمل رواسب الجاهلية، وهذه الآية تدل على أن البشر يجب أن يتمتع، إما بعلم راسخ أو بفطرة إيمانية نظيفة، وبالتالي: أما أن يفهم الحقائق كلها شخصيًّا، أو يسلم لمن يفهمها بعد أن يكتشفها ببصيرة ظاهرة، ويتجرد عن ذاته، ويتسلح بصدق وصفاء ﴿يُؤْمِنُونَ بِمَآ أُنزِلَ إِلَيْكَ وَمَآ أُنزِلَ مِن قَبْلِكَ ۚ وَٱلْمُقِيمِينَ ٱلصَّلَوٰةَ ۚ وَٱلْمُؤْتُونَ ٱلزَّكَوٰةَ وَٱلْمُؤْمِنُونَ بِٱللَّهِ وَٱلْيَوْمِ ٱلْءَاخِرِ أُو۟لَٰٓئِكَ سَنُؤْتِيهِمْ أَجْرًا عَظِيمًا﴾.

دلائل صدق الرسالة

﴿ إِنَّآ أَوْحَيْنَآ إِلَيْكَ كَمَآ أَوْحَيْنَآ إِلَىٰ نُوحٍ وَٱلنَّبِيِّـۧنَ مِنۢ بَعْدِهِۦ ۚ وَأَوْحَيْنَآ إِلَىٰٓ إِبْرَٰهِيمَ وَإِسْمَٰعِيلَ وَإِسْحَٰقَ وَيَعْقُوبَ وَٱلْأَسْبَاطِ وَعِيسَىٰ وَأَيُّوبَ وَيُونُسَ وَهَٰرُونَ وَسُلَيْمَٰنَ ۚ وَءَاتَيْنَا دَاوُۥدَ زَبُورًا ﴿١٦٣﴾ وَرُسُلًا قَدْ قَصَصْنَٰهُمْ عَلَيْكَ مِن قَبْلُ وَرُسُلًا لَّمْ نَقْصُصْهُمْ عَلَيْكَ ۚ وَكَلَّمَ ٱللَّهُ مُوسَىٰ تَكْلِيمًا ﴿١٦٤﴾ رُّسُلًا مُّبَشِّرِينَ وَمُنذِرِينَ لِئَلَّا يَكُونَ لِلنَّاسِ عَلَى ٱللَّهِ حُجَّةٌۢ بَعْدَ ٱلرُّسُلِ ۚ وَكَانَ ٱللَّهُ عَزِيزًا حَكِيمًا ﴿١٦٥﴾ لَّٰكِنِ ٱللَّهُ يَشْهَدُ بِمَآ أَنزَلَ إِلَيْكَ ۖ أَنزَلَهُۥ بِعِلْمِهِۦ ۖ وَٱلْمَلَٰٓئِكَةُ يَشْهَدُونَ ۚ وَكَفَىٰ بِٱللَّهِ شَهِيدًا ﴿١٦٦﴾ إِنَّ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ وَصَدُّوا۟ عَن سَبِيلِ ٱللَّهِ قَدْ ضَلُّوا۟ ضَلَٰلًۢا بَعِيدًا ﴿١٦٧﴾ إِنَّ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ وَظَلَمُوا۟ لَمْ يَكُنِ ٱللَّهُ لِيَغْفِرَ لَهُمْ وَلَا لِيَهْدِيَهُمْ طَرِيقًا ﴿١٦٨﴾ إِلَّا طَرِيقَ جَهَنَّمَ خَٰلِدِينَ فِيهَآ أَبَدًا ۚ وَكَانَ ذَٰلِكَ عَلَى ٱللَّهِ يَسِيرًا ﴿١٦٩﴾ يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ قَدْ جَآءَكُمُ ٱلرَّسُولُ بِٱلْحَقِّ مِن رَّبِّكُمْ فَـَٔامِنُوا۟ خَيْرًا لَّكُمْ ۚ وَإِن تَكْفُرُوا۟ فَإِنَّ لِلَّهِ مَا فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ ۚ وَكَانَ ٱللَّهُ عَلِيمًا حَكِيمًا ﴿١٧٠﴾ ﴾

هدى من الآيات:

في إطار الحديث عن الطبقات الاجتماعية انتهى القرآن في حديثه السابق إلى طبقة الكفار، وضرب مثلاً من واقع بني إسرائيل الذين طالبوا الرسول بكتاب ينزل من السماء، وغلفوا دوافع كفرهم بهذه المطالبة فردهم القرآن، وبين أن للكفر دوافعه النفسية والمصلحية والاجتماعية.

أما لو أوتي البشر رسوخاً في العلم أو إيماناً فإنه لا يكفر، وفي هذا الحديث يسوق القرآن بعض البينات على رسالة الرسول، فيقول:

أولاً: إن الرسالة ليست جديدة على الناس، بل هي امتداد للرسالات السماوية السابقة التي نزلت على النبيين.

ثانياً: إن الهدف من الرسالة ألا يبقى للناس على الله حجة، فلا يعذبهم دون أن ينذرهم سلفا.

ثالثاً: إن الله هو الشاهد على صدق الرسالة، فكل من يعرف الله يعلم أن الله يحب الخير، ويدعو إلى الإحسان والصدق والفداء، وكل تلك القيم تتفق وروح الرسالة، ثم يبين الله مصير الكفار بالرسالة فقال: إنهم منحرفون عن الصراط، وإن طريقهم يؤدي بهم إلى النار.

ويأمر الناس أخيراً باتباع الرسالة لأنها خير للناس، وأنهم لو خالفوها فلن يضروا الله شيئاً، بل إنما يعرضون أنفسهم لعقاب الله وسخطه العظيم.

بينات من الآيات:

خط الأنبياء

[١٦٣] لأن وحي الله لبعض عباده خرق لعادة الطبيعة، ومخالفة للسنن التي يألفها الناس، لذلك كان يرد مدعي الرسالة، وأوضح تبرير لرده كان مخالفته للمألوف الذي تعود على الناس، ولكي يتجاوز القرآن هذا الحاجز النفسي المانع للناس عن اتباع الرسالة. ذكرهم بأن هناك سلسلة طويلة من الأنبياء عليهم السلام على فترات من التاريخ، إذن فليس الرسول بدعاً من الرسل، ولا هو عجيب من أمر الله الذي بعث الأنبياء السابقين.

﴿إِنَّآ أَوْحَيْنَآ إِلَيْكَ كَمَآ أَوْحَيْنَآ إِلَىٰ نُوحٍ وَٱلنَّبِيِّـۧنَ مِنۢ بَعْدِهِۦ﴾ بعد نوح عليه السلام جاء أنبياء كثيرون لا يعرف عنهم التاريخ شيئاً، ولذلك أشار القرآن هنا إلى ذكرهم إشارة، كما لا يُعرف بالضبط الفترة الفاصلة بين نوح وإبراهيم عليهما السلام ﴿وَأَوْحَيْنَآ إِلَىٰٓ إِبْرَٰهِيمَ وَإِسْمَٰعِيلَ وَإِسْحَٰقَ وَيَعْقُوبَ وَٱلْأَسْبَاطِ وَعِيسَىٰ وَأَيُّوبَ وَيُونُسَ وَهَٰرُونَ وَسُلَيْمَٰنَ وَءَاتَيْنَا دَاوُۥدَ زَبُورًا﴾ وبالرغم من أن الزبور لم يكن كتاب تشريع، بل كتاب دعاء وابتهال، فإنه أوحي إلى داود وحياً، مما يدل على أن الله أوحى إلى بعض رسله حتى الأدعية والابتهالات.

[١٦٤] هؤلاء بعض رسل الله. وهناك آخرون لا يعرفهم الناس فمن قال لكم: إن

الرسالة مخالفة لسنة الله، أو لطبيعة الحياة كلا إنها جزء من هذه الطبيعة، وتلك السنة، وإن أبسط دليل على ذلك هو وقوعها بشكل مكرر.

إننا نعرف أن المطر جزء من سنة الحياة لأننا نرى وقوعه مكرراً، وأن الزلازل جزءٌ من طبيعة الأرض، لأنها تقع بشكل مكرر، وكذلك الرسالات مادامت توحى بشكل مكرر فإنها جزءٌ من سنن الحياة ﴿وَرُسُلًا قَدْ قَصَصْنَاهُمْ عَلَيْكَ مِن قَبْلُ وَرُسُلًا لَّمْ نَقْصُصْهُمْ عَلَيْكَ﴾ وهناك أكثر من مجرد الوحي، بل كان هناك تكليم مباشر من قبل الله مع الإنسان، وبالطبع دلالة الحديث المباشر أقوى من الوحي من وراء حجاب ﴿وَكَلَّمَ اللَّهُ مُوسَىٰ تَكْلِيمًا﴾.

التبشير والتحذير وظيفتا الرسل

[١٦٥] كانت الغاية من بعث الرسل هي: التبشير بحياة أفضل، والتحذير من الهلاك، حتى لا يقول الناس غداً: «ربنا لمَ لم تبعث إلينا الرسل حتى لا نضل ولا نقع في الهلاك»، إن هذا الهدف العقلاني لدليل على أن الله قد بعث الرسل بالتأكيد، ثم لأن الله قادر على بعث الرسل لا ريب في ذلك ولأنه حكيم، فهو لا يعذب البشر قبل أن يقطع عليهم الحجج ويسوق إليهم بالإعذار.

﴿رُّسُلًا مُّبَشِّرِينَ وَمُنذِرِينَ لِئَلَّا يَكُونَ لِلنَّاسِ عَلَى اللَّهِ حُجَّةٌ بَعْدَ الرُّسُلِ ۚ وَكَانَ اللَّهُ عَزِيزًا حَكِيمًا﴾ فلو لم يبعث الرسل بالبشارة والإنذار، ثم عذب من عذب ونعم من نعم، إذن لكان ذلك مناقضاً لعزته وحكمته، وبالتالي دليلاً على أنه إما أن يكون غير قادر، أو غير عارف بالمصالح وبظرف العمل سبحانه عن ذلك.

شهادة الله دليل صدق الرسالة

[١٦٦] والدليل الثاني على صدق الرسالات شهادة الله الذي أنزل الوحي بعلمه، ولكن كيف يشهد الله؟.

إن الله زود الإنسان بعقل، وإن عقله يهديه إلى معرفة الله من خلال التفكر في آيات الوجود، بل ويهديه إلى معرفة صفات الله الحسنى، وإلى طائفة كبيرة من تعاليمه وقيمه.

إن نظرة واحدة إلى الكون تهدينا إلى أن الله عادل، وأنه رحيم يحب الخير والإحسان، وأنه يكره الفسوق والظلم والفاحشة، ونحن نعرف ذلك من خلال العدالة المنتشرة في أرجاء الكون، ومن خلال الرحمة التي تتمثل في نعم الله على الحياة، ومن خلال وصول كل فرد إلى

جزاء عمله، وهكذا يعرف العقل قيم الله التي تطابق الرسالات السماوية التي يوحي الله بها إلى الأنبياء عليهم السلام، فنظرة واحدة إلى برنامج الرسالات يكتشف الفرد صدق هذه الرسالة وارتباطها بالله، وإنها تتفق وقيم العدالة والخير والرحمة، وإنها بالتالي أنزلت بعلم الله.

شهادة الملائكة

﴿لَّٰكِنِ ٱللَّهُ يَشْهَدُ بِمَآ أَنزَلَ إِلَيْكَ ۖ أَنزَلَهُۥ بِعِلْمِهِۦ ۖ وَٱلْمَلَٰٓئِكَةُ يَشْهَدُونَ ۚ وَكَفَىٰ بِٱللَّهِ شَهِيدًا﴾ كيف تشهد الملائكة؟ هل أن شهادة الملائكة تعني أن حقائق الكون وقوى الطبيعة تتفق ورسالات السماء، باعتبار أن الملائكة هي القوى العاقلة الموكلة من قبل الله بالطبيعة؟.

ربما كان ذلك، وربما أن الملائكة يشهدون بدعم جبهة الرسالة عمليًا كما فعلوا في بعض حروب الرسول صلى الله عليه وآله، أو أن الملائكة هي تعبير عن نوازع الخير في قلب الإنسان، تلك النوازع التي تدعمها الملائكة، وتخالفها الشياطين، وحين تتفق نوازع الخير ورسالات السماء تعرف أن الملائكة يشهدون على صدقها.

ألم يشر الرسول صلى الله عليه وآله مرة إلى قلب واحد من الأعراب وقال له: **«ما قال لك هذا فافعله فإنه الحق»**. المهم أن الله وملائكته يشهدون بصدق الرسالة وبطرق شتى.

شهادة الكفار دليل حي

[١٦٧] وهناك شهادة على صدق الرسالة تأتي من الطرف الثاني أي من الكفار أنفسهم، حيث أن مقاومتهم لقيم الرسالة ومن أبرزها: الحرية والعدالة تجسد أمامنا الضلالة بكل ما فيها من قبح وبطلان.

إنك قد لا تشعر بمدى خطورة الكبت والقهر والظلم إلا حين تراها مجسدة في نظام طاغوتي، وترى كيف تسحق كرامة الناس، وتغتصب حقوقهم، وتصادر حرياتهم في ظل هذا النظام، آنئذ تفهم مدى بطلان الأيديولوجية التي يعتمد عليها هذا النظام، كما تعرف صدق الفكرة التي تخالفه وتخالف أيديولوجيته.

إذن نظرة إلى جبهة الكفر كافية للدلالة على صدق الرسالة ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ وَصَدُّوا۟ عَن سَبِيلِ ٱللَّهِ قَدْ ضَلُّوا۟ ضَلَٰلًۢا بَعِيدًا﴾ وسبيل الله هو كل خير يدعو إليه الله وينتهي إليه.

[١٦٨] هؤلاء يصادرون حريات الناس ولا يدعونهم يتمتعون بنعم الحياة، وبالتالي يصدونهم عن سبيل الله، كما أنهم يصادرون حقوق الناس وأموالهم، فهل يمكن أن يكون

هؤلاء على حق؟ ويكون الرسول ﷺ على باطل؟ وهل يمكن أن يدخلهم الله الجنة ويدخل الرسول ﷺ النار؟ كلا إن الرب الذي نعرفه من خلال نعمه السابقة، ورحمته الواسعة، وعدالته الشاملة، وبالتالي من خلال أسمائه الحسنى في الكون، إنه لا يرضى بالتأكيد عن الظلم، وإنه يخالف تلك الفكرة التي تدعو إلى الظلم، وبالمقابل يؤيد تلك الرسالة التي تدعو إلى العدالة ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ وَظَلَمُواْ لَمْ يَكُنِ ٱللَّهُ لِيَغْفِرَ لَهُمْ وَلَا لِيَهْدِيَهُمْ طَرِيقًا﴾.

[١٦٩] ﴿إِلَّا طَرِيقَ جَهَنَّمَ خَـٰلِدِينَ فِيهَآ أَبَدًا ۚ وَكَانَ ذَٰلِكَ عَلَى ٱللَّهِ يَسِيرًا﴾ فبالرغم مما يملك هؤلاء من عز وسلطان في الدنيا مما يعظم في أعين الناس، فإنهم هناك في الآخرة منبوذون في النار خالدين فيها، لأن عزتهم وسلطانهم لا شيء عند قدرة الله وسلطانه.

الواقع دليل بارز

[١٧٠] ودليل آخر على صدق الرسالة دليل واقعي آت من تجربتها العملية، حيث نكتشف من خلال التجربة أن تطبيق الرسالة يؤدي إلى الخير (الرفاه، والسعادة، والحرية، والعدالة) لأنها حق، ومطابقة لواقعيات الحياة وسننها وقوانينها ﴿يَـٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ قَدْ جَآءَكُمُ ٱلرَّسُولُ بِٱلْحَقِّ مِن رَّبِّكُمْ فَـَٔامِنُواْ خَيْرًا لَّكُمْ ۚ وَإِن تَكْفُرُواْ فَإِنَّ لِلَّهِ مَا فِى ٱلسَّمَـٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ ۚ وَكَانَ ٱللَّهُ عَلِيمًا حَكِيمًا﴾ أي أنه قادر غني عنكم وعن عبادتكم، ولكنه لا يوفر لكم الخير إلا بعد اتباعكم لرسالته، لأنه حكيم ولأنه عالم بأعمالكم، ويجازي عليها إن خيراً فخيراً وإن شرًّا فشرًّا.

لا تغلوا في دينكم

﴿يَٰٓأَهۡلَ ٱلۡكِتَٰبِ لَا تَغۡلُواْ[1] فِي دِينِكُمۡ وَلَا تَقُولُواْ عَلَى ٱللَّهِ إِلَّا ٱلۡحَقَّۚ إِنَّمَا ٱلۡمَسِيحُ عِيسَى ٱبۡنُ مَرۡيَمَ رَسُولُ ٱللَّهِ وَكَلِمَتُهُۥٓ أَلۡقَىٰهَآ إِلَىٰ مَرۡيَمَ وَرُوحٞ مِّنۡهُۖ فَـَٔامِنُواْ بِٱللَّهِ وَرُسُلِهِۦۖ وَلَا تَقُولُواْ ثَلَٰثَةٌۚ ٱنتَهُواْ خَيۡرٗا لَّكُمۡۚ إِنَّمَا ٱللَّهُ إِلَٰهٞ وَٰحِدٞۖ سُبۡحَٰنَهُۥٓ أَن يَكُونَ لَهُۥ وَلَدٞۘ لَّهُۥ مَا فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَمَا فِي ٱلۡأَرۡضِۗ وَكَفَىٰ بِٱللَّهِ وَكِيلٗا ﴿١٧١﴾ لَّن يَسۡتَنكِفَ[2] ٱلۡمَسِيحُ أَن يَكُونَ عَبۡدٗا لِّلَّهِ وَلَا ٱلۡمَلَٰٓئِكَةُ ٱلۡمُقَرَّبُونَۚ وَمَن يَسۡتَنكِفۡ عَنۡ عِبَادَتِهِۦ وَيَسۡتَكۡبِرۡ[3] فَسَيَحۡشُرُهُمۡ إِلَيۡهِ جَمِيعٗا ﴿١٧٢﴾ فَأَمَّا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَعَمِلُواْ ٱلصَّٰلِحَٰتِ فَيُوَفِّيهِمۡ أُجُورَهُمۡ وَيَزِيدُهُم مِّن فَضۡلِهِۦۖ وَأَمَّا ٱلَّذِينَ ٱسۡتَنكَفُواْ وَٱسۡتَكۡبَرُواْ فَيُعَذِّبُهُمۡ عَذَابًا أَلِيمٗا وَلَا يَجِدُونَ لَهُم مِّن دُونِ ٱللَّهِ وَلِيّٗا وَلَا نَصِيرٗا ﴿١٧٣﴾﴾.

هدى من الآيات:

تكميلاً للحديث عن ضرورة الوحي، وتوضيحاً لمواصفات الطبقة المؤمنة، حتى لا تختلط بالطبقات المتظاهرة بالإيمان، جاءت هذه الآية لتتحدث عن زيف فكرة إنصاف الآلهة التي ابتدعت في مذاهب النصارى، فزعموا: «أن نبيهم عيسى ابن مريم كان ابناً لله». كلا، عيسى وجميع الأنبياء عليهم السلام إنما هم بشر، وصفتهم المميزة التي جعلهم الله بها أنبياء، واختارهم

(١) لا تغلوا: اصل الغلو مجاوزة الحد.

(٢) يستنكف: الاستنكاف الأنفة من الشيء، وأصله من نكفت الدمع إذا نحيته بإصبعك من خدك.

(٣) يستكبر: الاستكبار طلب الكبر من غير استحقاق.

للوحي تلك الصفة هي عبوديتهم التامة لله وخضوعهم الكامل له.

ونهت الآية الأولى عن الغلو في الدين، والافتراء على الله غير الحق بأن عيسى ثالث ثلاثة، يشكلون بالمجموع قيادة موحدة لإدارة الكون، بينما المسيح (كما تقول الآية الثانية) لا يتكبر عن عبودية الله، ولا يرى نفسه أكبر من هذه العبودية، وهذا سر عظمته، أما المتكبرون عن عبادة الله فإن جزاءهم عذاب أليم.

بهذا نفت الآيات فكرة الرسالة عما لصق بها من رواسب الشرك الجاهلية، وجعلها مقبولة للعقل البشري.

والواقع أن كثيراً من الذين ينكرون الحقائق الدينية إنما ينكرون ما لصق بها من خرافات وأوهام، ولو صفيت الحقائق عن تلك الخرافات والأوهام، فإن أكثرهم سيعود إلى الرشد، ويؤمن بالحقائق.

لذلك تعتبر تصفية فكرة الرسالة من رواسب الشرك بمثابة دليل على صدق الرسالة لأنه يفتح الطريق أمام الإيمان بها.

بينات من الآيات:

الغلو

[١٧١] الغلو في الدين بمثابة الإنكار للدين. ذلك لأن أضرار الغلو لا تقل عن أضرار الجحود أو الانتقاص من الدين، وقد يكون الغلو في الدين سبباً لكفر كثير من الناس الآخرين الذين ترفض فطرتهم النقية شوائب الغلو، فينكرون ما ارتبط بها من حقائق الدين أيضاً.

وقد كان غلو النصارى في عيسى سبباً لهروب المثقفين منهم وإنكارهم الرسالة رأساً لأنهم وجدوا بفطرتهم الصافية أن الإيمان بألوهية بشر مثلهم سخافة، فآثروا الكفر بالدين رأساً، ولم يجهدوا أنفسهم بالفصل بين الخرافة والحقيقة في الدين.

لذلك تجد القرآن الحكيم يعامل المغالين في الدين بذات العنف والقسوة التي يعامل بها الكفار والجاحدين.

﴿يَا أَهْلَ الْكِتَابِ لَا تَغْلُوا فِي دِينِكُمْ وَلَا تَقُولُوا عَلَى اللَّهِ إِلَّا الْحَقَّ إِنَّمَا الْمَسِيحُ عِيسَى ابْنُ مَرْيَمَ رَسُولُ اللَّهِ﴾ وليس إلهاً في مستوى الله سبحانه، وليست ولادته

الخارقة إلا دليلاً على قدرة الله وعظمته، وليس فيها أية دلالة على ألوهية عيسى عليه السلام.

﴿وَكَلِمَتُهُۥٓ أَلْقَىٰهَآ إِلَىٰ مَرْيَمَ وَرُوحٌ مِّنْهُ﴾ وكلمة الله يعني مشيئته التي تتجسد في كلمة ﴿كُن﴾ التي تتحقق بها الأشياء، كذلك خلق الله السماوات والأرض. وكذلك خلق الله عيسى. قال الله: كن، فكان في رحم أمه مريم، ولذلك عبر الله عن ذلك بـ ﴿أَلْقَىٰهَآ إِلَىٰ مَرْيَمَ﴾ أي تلك الكلمة التي أنزلها الله على مريم عليها السلام، فكوّن بها عيسى عليه السلام. ذلك لان جبرائيل هو الذي نفخ في جيب مريم متمثلاً في رجل سوي، وبذلك النفخ خلق الله عيسى عليه السلام.

أما الروح فإنها حسبما -يبدو لي- روح القدس الذي أيد الله به عيسى عليه السلام، فعلم الغيب وأحيا الموتى وعمل المعجزات. وبذلك لم تكن معجزات عيسى عليه السلام دليلاً على أنه إله من دون الله، بل إنه مزود بروح من الله.

﴿فَـَٔامِنُوا۟ بِٱللَّهِ وَرُسُلِهِۦ﴾ سواء كان خلقهم بغير أب أم لا.. وسواء أحيوا الموتى أم لا.. إذ أن المهم أن يكون الشخص رسولاً من قبل الله، وليس المهم سائر الميزات المتوافرة عند هذا أو ذاك.

﴿وَلَا تَقُولُوا۟ ثَلَٰثَةٌ ۚ ٱنتَهُوا۟ خَيْرًا لَّكُمْ ۚ إِنَّمَا ٱللَّهُ إِلَٰهٌ وَٰحِدٌ ۖ سُبْحَٰنَهُۥٓ أَن يَكُونَ لَهُۥ وَلَدٌ ۘ لَّهُۥ مَا فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَمَا فِى ٱلْأَرْضِ ۗ وَكَفَىٰ بِٱللَّهِ وَكِيلًا﴾ وهل من المعقول: أن يتخذ رب السماوات والأرض واحداً من البشر بمثابة ابن له.. وما قيمة معجزات عيسى بالنسبة إلى قدرة الله الهائلة المتمثلة في ملكوت السماوات والأرض... وهل يتناسب أن يكون عيسى البشر المحدود الضعيف ابناً لذلك الرب العظيم القادر؟.

وبدلاً من أن يتخذ الواحد منا عيسى إلهاً، أفلا يكون من الأفضل أن يتخذ الله إلهه؟!. أفليس الله يغنيه عن عيسى وغير عيسى من البشر، أفلا يكفيه وليًّا ونصيراً وقائداً؟!.

العبادة لله هي الامتياز

[١٧٢] أبسط دليل على أن عيسى لم يكن سوى بشر عبادته لله وطاعته لمناهجه، تلك العبادة والطاعة التي أتقنها وأكملها المسيح، كما أتقنها سائر الرسل. مما دل على أنهم -كما نحن- عباد الله علينا جميعاً أن نطيعه.

﴿لَّن يَسْتَنكِفَ ٱلْمَسِيحُ أَن يَكُونَ عَبْدًا لِّلَّهِ﴾ أي لا يرى ذلك غير مناسب لشخصيته، أو غير لائق لعظمته كرسول.

﴿وَلَا ٱلْمَلَٰٓئِكَةُ ٱلْمُقَرَّبُونَ﴾ أولئك الذين تصور بعضهم أنهم يشاركون الله في الألوهية سبحانه، هم بدورهم لا يرون العبادة غير لائقة بهم.. كلا بل هي من صميم وجودهم الناقص الضعيف.

﴿وَمَن يَسْتَنكِفْ عَنْ عِبَادَتِهِۦ وَيَسْتَكْبِرْ﴾ أي من يرى نفسه أعلى من العبادة تكبراً وكذباً، فلابد أن يعرف أنه ليس سوى بشر ضعيف، وآية ضعفه أنه سوف يحشر إلى الله بكل خضوع ﴿فَسَيَحْشُرُهُمْ إِلَيْهِ جَمِيعًا﴾.

[١٧٣] وهناك ينقسم الناس فريقين:

﴿فَأَمَّا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَعَمِلُوا۟ ٱلصَّٰلِحَٰتِ فَيُوَفِّيهِمْ أُجُورَهُمْ وَيَزِيدُهُم مِّن فَضْلِهِۦ ۖ وَأَمَّا ٱلَّذِينَ ٱسْتَنكَفُوا۟﴾ ودفعهم استنكارهم إلى الكفر. ﴿وَٱسْتَكْبَرُوا۟﴾ ودفعهم استكبارهم إلى ترك الأعمال الصالحة ﴿فَيُعَذِّبُهُمْ عَذَابًا أَلِيمًا وَلَا يَجِدُونَ لَهُم مِّن دُونِ ٱللَّهِ وَلِيًّا وَلَا نَصِيرًا﴾.

فلا ينفعهم أولئك الذين اتخذوهم أنصاف آلهة ليخلصوهم من عذاب الله..

حكم الإرث

﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ قَدْ جَآءَكُم بُرْهَٰنٌ[1] مِّن رَّبِّكُمْ وَأَنزَلْنَآ إِلَيْكُمْ نُورًا مُّبِينًا ﴿١٧٤﴾ فَأَمَّا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ بِٱللَّهِ وَٱعْتَصَمُوا۟[2] بِهِۦ فَسَيُدْخِلُهُمْ فِى رَحْمَةٍ مِّنْهُ وَفَضْلٍ وَيَهْدِيهِمْ إِلَيْهِ صِرَٰطًا مُّسْتَقِيمًا ﴿١٧٥﴾ يَسْتَفْتُونَكَ قُلِ ٱللَّهُ يُفْتِيكُمْ فِى ٱلْكَلَٰلَةِ ۚ إِنِ ٱمْرُؤٌا۟ هَلَكَ لَيْسَ لَهُۥ وَلَدٌ وَلَهُۥٓ أُخْتٌ فَلَهَا نِصْفُ مَا تَرَكَ ۚ وَهُوَ يَرِثُهَآ إِن لَّمْ يَكُن لَّهَا وَلَدٌ ۚ فَإِن كَانَتَا ٱثْنَتَيْنِ فَلَهُمَا ٱلثُّلُثَانِ مِمَّا تَرَكَ ۚ وَإِن كَانُوٓا۟ إِخْوَةً رِّجَالًا وَنِسَآءً فَلِلذَّكَرِ مِثْلُ حَظِّ ٱلْأُنثَيَيْنِ ۗ يُبَيِّنُ ٱللَّهُ لَكُمْ أَن تَضِلُّوا۟ ۗ وَٱللَّهُ بِكُلِّ شَىْءٍ عَلِيمٌۢ ﴿١٧٦﴾﴾.

هدى من الآيات:

بعد أن ساق القرآن الحجة بعد الحجة على صدق الرسالات السماوية -عموماً- اختص الحديث عن رسالة النبي محمد ﷺ وبين أنها تحتوي على ذات المواصفات الموجودة في أية رسالة سماوية.

فهي برهان من الله يشهد عليه الله سبحانه بما فيها من قيم صادقة، وهي نور مبين ينير للإنسان كافة جوانب حياته، وهي خير لمن اتبعها واعتصم بها. سعادة ورفاه وهدى.

وختم القرآن سورة النساء بما بدأ السورة من بيان حكم اجتماعي يتجلى فيه حكم الإسلام العادل الذي يعطي كل ذي حق حقه.

---

(١) البرهان: الشاهد بالحق، وقيل البرهان البيان، يقال برهن قوله أي بين حجته.

(٢) الاعتصام: الامتناع.

بينات من الآيات:

القرآن نور وهدى

[١٧٤] القرآن برهان من الله، وبذلك يكون هدى لحياتنا فيه كل الجوانب العامة من قيم الخير، وهو نور من الله، وبذلك يكون توضيحاً لتفاصيل خطوط الحياة ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ قَدْ جَآءَكُم بُرْهَٰنٌ مِّن رَّبِّكُمْ وَأَنزَلْنَآ إِلَيْكُمْ نُورًا مُّبِينًا﴾.

[١٧٥] ولأن القرآن برهان من الله فهو يربط البشر بربه وعلى البشر أن يستجيب لهذا الربط بالإيمان، ولأنه من جهة أخرى -نور- فعلى البشر أن يستضيء به، ويتبعه ويعصم ويتمسك بحبله ﴿فَأَمَّا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ بِٱللَّهِ﴾ حيث جاءهم برهان من الله ﴿وَٱعْتَصَمُوا۟ بِهِۦ﴾ حيث جاءهم نور من الله ﴿فَسَيُدْخِلُهُمْ فِى رَحْمَةٍ مِّنْهُ﴾ متمثلة في حياة سعيدة تتوافر فيها حاجات الجسد والروح والفرد والمجتمع وبكل طبقاته وعناصره ﴿وَفَضْلٍ﴾ متجسداً في الرفاه المادي، والتطلع الروحي. ذلك أن السعادة هي الدرجة الأولى من الخير، وقد يكون الفرد سعيداً ولكنه لا يكون ذا رفاه عظيم، بيد أن الفضل هو الدرجة العليا في سلم الخير، وهو الذي يوفره الإيمان واتباع الإسلام ﴿وَيَهْدِيهِمْ إِلَيْهِ صِرَٰطًا مُّسْتَقِيمًا﴾ فيكون تحقيق الخير والفضل في الدنيا مقدمة لسعادة ورفاه أكبر في الآخرة، كما يكون تحقيق هذه جميعاً بأقل قدر ممكن من الجهد لأنه يتبع صراطاً مستقيماً وهو أقرب الطرق إلى الهدف.

كيف ترث الطبقة الثانية

[١٧٦] وكمثل على ذلك منتزع من حكم الإسلام في القضايا الاجتماعية التي ابتدأت سورة النساء بها، وتختتم بها أيضاً، كمثل على ذلك يبين القرآن حكم الإرث الذي هو من جهة رابط اجتماعي بين أجنحة الأسرة الواحدة، ومن جهة ثانية: طريق سليم لتوزيع الثروة ومحاربة تكريسها، ومن جهة ثالثة: احترام لحقوق الفرد (الميت) الذي بذل جهوداً كبيرة للحصول على المال، فمن حقه أن يقسم هذا المال بعد موته على أقرب الناس إليه، وذلك بعد أداء ديونه وتنفيذ وصاياه.

في الأرث طبقات ثلاث متدرجة لا ترث الطبقة الثانية فيها إلا بعد أن ينعدم أي شخص في الطبقة الأولى، والطبقة الثالثة لاترث شيئاً إلا في حالة عدم وجود أحد من أبناء الطبقة الثانية والأولى.

والأخوات هن في الطبقة الثانية (بعد الأبوين والأولاد) وفي حالة وجود أخت واحدة

للميت ترث نصف التركة، وإذا كانت له أختان فإنهما تتقاسمان ثلثي المال، أما إذا كانوا أكثر من ذلك، بل مختلطين، أي كان للميت إخوة وأخوات فهم يتقاسمون المال على أساس نصيبين للذكر ونصيب للأنثى.

كل ذلك في حالة عدم وجود أحد من أبناء الطبقة الأولى، أي الوالدين والأولاد.

﴿يَسْتَفْتُونَكَ﴾ أي يسألونك أن تصدر فتوى في قضية الكلالة ﴿قُلِ اللَّهُ يُفْتِيكُمْ فِي الْكَلَالَةِ﴾ أي الإخوة والأخوات ﴿إِنِ امْرُؤٌا هَلَكَ لَيْسَ لَهُ وَلَدٌ﴾ ولا والد، وإنما أغفل القرآن ذكر الوالد لأن الأغلب عدم وجود الوالد مع هلاك الشخص ﴿وَلَهُ أُخْتٌ فَلَهَا نِصْفُ مَا تَرَكَ﴾ أما إذا ماتت هي وتركت أخاً أو مات رجل وترك أخاً لا غير، فهو يرثها أو يرثه الكامل ﴿وَهُوَ يَرِثُهَا إِن لَّمْ يَكُن لَّهَا وَلَدٌ﴾ أما إذا مات الرجل، وخلف أختين فهما تتقاسمان ثلث المال لكل واحدة الثلث ﴿فَإِن كَانَتَا اثْنَتَيْنِ فَلَهُمَا الثُّلُثَانِ مِمَّا تَرَكَ وَإِن كَانُوا إِخْوَةً رِّجَالًا وَنِسَاءً﴾ فهم يرثون المال على أساس نصيب واحد للأنثى، ونصيبين للذكر ﴿فَلِلذَّكَرِ مِثْلُ حَظِّ الْأُنثَيَيْنِ يُبَيِّنُ اللَّهُ لَكُمْ أَن تَضِلُّوا وَاللَّهُ بِكُلِّ شَيْءٍ عَلِيمٌ﴾ أي إنما يبين الله أحكامه لكم لكي لا تضلوا ولكي لا تبخسوا حقوق أحد لحساب الآخرين، والله يعلم ما يناسب الصلات الرابطة بين أبناء المجتمع، وأبسط الحقوق، فيضع لها أحكاماً مناسبة. هل هناك من يعلمها إلا الله، حاشا لله..

سُورَةُ المَائِدَةِ

* مدنيّة.

* عدد آياتها: ١٢٠.

* ترتيبها النزولي: ١١٣.

* ترتيبها في المصحف: ٥.

* نزلت بعد سورة الفتح.

فضل السورة

عن عيسى بن عبد الله عن أبيه عن جده عن علي عليه السلام قال: «كَانَ الْقُرْآنُ يَنْسَخُ بَعْضُهُ بَعْضاً وَإِنَّمَا كَانَ يُؤْخَذُ مِنْ أَمْرِ رَسُولِ الله صلى الله عليه وآله بِآخِرِهِ فَكَانَ مِنْ آخِرِ مَا نَزَلَ عَلَيْهِ سُورَةُ الْمَائِدَةِ نَسَخَتْ مَا قَبْلَهَا وَ لَمْ يَنْسَخْهَا شَيْءٌ فَلَقَدْ نَزَلَتْ عَلَيْهِ وَ هُوَ عَلَى بَغْلَتِهِ الشَّهْبَاءِ وَ ثَقُلَ عَلَيْهِ الْوَحْيُ حَتَّى وَقَفَتْ وَ تَدَلَّى بَطْنُهَا حَتَّى رَأَيْتُ سُرَّتَهَا تَكَادُ تَمَسُّ الْأَرْضَ وَ أُغْمِيَ عَلَى رَسُولِ الله صلى الله عليه وآله حَتَّى وَضَعَ يَدَهُ عَلَى ذُؤَابَةِ شَيْبَةَ بْنِ وَهْبٍ الْجُمَحِيِّ ثُمَّ رُفِعَ ذَلِكَ عَنْ رَسُولِ الله صلى الله عليه وآله فَقَرَأَ عَلَيْنَا سُورَةَ الْمَائِدَةِ فَعَمِلَ رَسُولُ الله صلى الله عليه وآله وَ عَمِلْنَا».

(تفسير العياشي: ج١ ص٢٨٨)

الإطار العام

حضارة الإيمان

استُوحي اسم السورة من قصة ذكرت في آخرها، والعبرة فيها: أن الرفاه الاقتصادي نعمة تهبط على البشر من السماء بقدر التزامهم بمناهج الله وأحكامه.

وتتناسب هذه العبرة مع الإطار العام لأحاديث السورة التي تدور حول محور التنظيم الاجتماعي، وبصورة تكاد تكون قريبة إلى إطار سورة النساء، اللهم إلا في نقطة واحدة. إن هذه السورة تعنى -في الأغلب- بالروابط الاجتماعية العامة، بينما كانت سورة النساء تركز -في قسم منها- على العلاقات الأسرية والحقوق المتبادلة فيها، وبالذات قضايا الإرث، وما أشبه.

تشرع السورة بضرورة الوفاء بالعقود، باعتبارها الرابطة الاعتبارية الأساسية التي تبني حضارة الإنسان، ولكن القرآن يحددالعقود في حدود أحكام لا يجوز أن تُتَجاوز.

من أبرز هذه الأحكام ما بيّنه القرآن في موضوع الأطعمة التي هي أول وأهم ما تتناوله عقود البشر، لأنها مرتبطة بأشد الحاجات ضرورة لهم.

وبعد بيان طائفة من أحكام الأطعمة التي فيها بينها حكم الصيد، وحكم حرية التجارة -خصوصاً في الأشهر الحرم- والتعاون على البر والتقوى وما أشبه، مما يتصل من قريب بقضية الطعام (الآيات: ١-٤).

بعدئذ يتحدث عن طعام الذين أوتوا الكتاب، حيث يحله القرآن للمسلمين، ويشجع بذلك التجارة بين أهل الكتاب وبين المسلمين في الأطعمة (الآية: ٥).

ثم يبين القرآن بعض أحكام الطهارة في الإسلام، المتصلة بالعلاقات الاجتماعية، حيث أن التطهر يحبب الناس بعضهم إلى بعض، وهو حق من حقوق المجتمع على الفرد (الآية: ٦).

ويحدثنا القرآن -بعدئذ- عن ضرورة الوفاء بالمواثيق باعتبارها ركناً أساسياً للعلاقات الاجتماعية، وإذا كانت العقود وسيلة للتبادل التجاري، فإن المواثيق وسيلة للتعاون السياسي الاجتماعي، إلا أن المواثيق يجب أن تهدف تحقيق العدل في الحياة (الآيات: ٧-١١).

كما تحددت العقود بالأحكام الشرعية وبالتعاون على البر.

والميثاق السياسي للدولة الإسلامية هو أهم ما يجب على الأمة احترامه، ويسوق القرآن قصصاً تأريخية من واقع بني إسرائيل ليجسد لنا مدى ضرورة الالتزام بالمواثيق، وكيف أن نقضها يورث الدمار واللعنة (الآيات: ١٢- ١٤).

ثم يحدثنا عن ضرورة تطبيق شريعة السماء في المجتمع، وأنها نور وهدىً، سواء نزلت على النبي موسى عليه السلام في التوراة، أو على النبي عيسى عليه السلام في الإنجيل، أو على النبي صلى الله عليه وآله في الكتاب المهيمن على التوراة والإنجيل.

ويسوق القرآن الكريم من تاريخ بني إسرائيل كيف أن مخالفتهم لأوامر الله تعالى جعلتهم يتيهون في الأرض أربعين سنة، ثم يبين حكم القتل بعد بيان قصة ابني آدم، حيث وقعت أول جريمة قتل (الآيات: ١٥-٣٢).

ومن القتل ينتقل القرآن إلى حكم الفساد في الأرض (قطاع الطرق)، ومنه إلى جريمة السرقة، ومنها إلى جريمة التجسس مما يرتبط جميعاً بقيمة الأمن الاجتماعي (الآيات: ٣٣-٤٢).

ويبين ضرورة الالتزام برسالات الله تعالى -أنى كانت - وأن من يخالفها كافر أو ظالم أو فاسق، حسب طبيعة المخالفة، ويسوق أمثالاً لهذه المخالفات الثلاث. (الآيات: ٤٣-٤٧).

بيد أنه ليس من الضروري لإقامة الدولة الإسلامية اتباعهم، لأن القيادة والهيمنة تكون للإسلام، حيث لا يجوز للقائد اتباع أهواء أهل الكتاب، لأنها جاهلية (الآيات: ٤٨-٥٠).

والولاء السياسي داخل المجتمع المسلم يجب أن يكون خالصاً للقيادة الإسلامية (الآيات: ٥١-٥٣).

وبعد أن بين القرآن طبيعة الولاء السياسي داخل المجتمع المسلم، والذي سماه بحزب الله (الآيات: ٥٤-٥٦)، عاد وحذر من ازدواجية الولاء، وبين بعضاً من مساوىء أهل الكتاب، ومن أبرزها حقدهم على المسلمين، ومسارعتهم في الإثم والعدوان، وقولهم ﴿يَدُ ٱللَّهِ مَغْلُولَةٌ﴾ وفسادهم في الأرض (الآيات: ٥٧-٦٤).

وماذا يستفيد الناس من تطبيق شريعة الله؟ يجيب القرآن: بأنهم سوف يأكلون من فوقهم ومن تحت أرجلهم إذا طبقوا أحكام الله،هذا في الدنيا، أما في الآخرة: فسوف يرزقهم الله جنة النعيم (الآيات: ٦٥-٦٦).

وعلى الرسول أن يبلغ رسالة الله في كل الشؤون (ومن أبرزها قضية القيادة الإسلامية) ولا يخشى أحداً(الآية: ٦٧).

ذلك أن رسالة الله هي خير للناس وأن الأمة لا تساوي شيئاً لو لم تطبق هذه الرسالة بالكامل ومن دون زيادة فيها(الآية: ٦٨).

وأن قيمة الإيمان والعمل الصالح هي القيمة الأساسية التي يقاس بها الأشخاص في المجتمع الإسلامي على اختلاف انتماءاتهم (الآية: ٦٩).

ولكن أهل الكتاب حرفوا دينهم، واتبعوا أهواءهم، حتى أنه لو جاءهم نبي يخالف أهواءهم كذبوه أو قتلوه، وزعموا أنهم بقتله ضمنوا لأنفسهم حياةً هانئة، ولكن كانت النتيجة بالعكس من ذلك تماماً (الآية: ٧٠-٧١).

أما النصارى فقد اتخذوا المسيح إلهاً، بينما كان المسيح يدعو إلى الله سبحانه، وينهى عن الشرك به. ومنهم من قال: إن هناك آلهة ثلاث، المسيح واحد منهم؛ وهؤلاء كفار سوف ينالون جزاءهم إذا لم يستغفروا ربهم.

إذن؛ لم يكن المسيح سوى رسول مثل سائر رسل الله، وإن أمه صدّيقة، وإن أي شخص يعبد من دون الله لا يملك ضراً ولا نفعاً، فهوالآخر عبدٌ لله، وإنما تسربت فكرة تعدد الآلهة إلى الرسالات السماوية من أفكار الجاهلية، وقد حاربها كل أنبياء الله، ومن بينهم المسيح بذاته (الآيات: ٧٢-٧٨).

وهؤلاء الذين نسبوا هذه الأفكار الكافرة إلى الرسالات هم كفار وبعيدون عن روح الرسالة، وأبسط دليل على ذلك أنهم لايتناهون عن المنكر، وأن كثيراً منهم يتخذون الكفار قادةً لهم وأولياء. وهذه صفة الكفر، إذ لو كانوا يؤمنون بالله حقاً، لما اتخذوا الكفار أولياء، بيد أن بعضاً من علماء النصارى لايزالون متمسكين برسالة الله، وأن لهم جزاءً حسناً (الآيات: ٧٩-٨٦). وبهذا السرد أراد القرآن فصل قيادة المجتمع الإسلامي عن اليهود والنصارى، ثم عاديتحدث عن تنظيم الحياة الاجتماعية وضرورة الانتفاع بالطيبات في إطار مراعاة حقوق الناس (الآيات: ٨٧-٨٨).

ومن الحقوق مراعاة اليمين الذي ينظم جانباً من حياة المجتمع (الآية: ٨٩).

والمجتمع الإسلامي متماسك، لأنه بعيد عن الطيش (وهو سبب من أسباب النزاعات الجاهلية) فلا خمر ولا ميسر ولاأنصاب ولا أزلام داخله (الآيات: ٩٠-٩٢).

ولا يعني ذلك أن كل لذة هي حرام في هذا المجتمع. كلا؛ إذ أن كل شيء حلال في حدود القانون الذي تحصنه التقوى والإحسان (الآية: ٩٣).

فمثلاً: كل الطعام حلال إلا بعض الصيد الذي جاءت حرمته امتحاناً وتربيةً للناس، وذلك هو الصيد وقت الإحرام. ويختص ذلك بصيد البر، أما صيد البحر فهو حلال حتى في وقت الإحرام. وتكميلاً للصورة؛ تحدث القرآن قليلاً عن الكعبة، وأنها تخدم النظام الاجتماعي. فلو حرم الله الصيد خلال رحلة الحج، فلأن ذلك سوف ينتهي إلى تنظيم الحياة الاجتماعية (الآيات: ٩٤-٩٩).

وبعد أن تحدث القرآن عن ضرورة الالتزام بتعاليم الله تعالى، بيّن سخافة بعض ما ألصق بالدين من خرافات وأساطير.

وبالتالي بيّن أن الزيادة في الدين هي بمثابة النقيصة فيه، ولا تصلح الحياة به (الآيات: ١٠٠-١٠٣)، وأنها جاءت نتيجة التقاليد الجاهلية، وأن على الأمة أن تتحصن ضد هذه التقاليد ولا تأبه بها (الآيات: ١٠٤-١٠٥).

وتنظيماً للحياة الاجتماعية يأتي دور الشهادة، حيث أنها تحصن المجتمع من الاستهتار بالحقوق، ويبين الله أحكام الشهادة هنا بإيجاز ضمن مثل حي (الآيات: ١٠٦-١٠٨).

ثم يعود إلى الحديث عن الرسل ودورهم الذي لا يتعدى البلاغ، وأنهم حتى لو فعلوا المعجزات فإنما بإذن الله، وبما آتاهم من قوة وعلم، وأن الرفاه الاجتماعي الذي يعقب الرسالات السماوية، إنما هو من الله جل جلاله، كما أنزل الله مائدة من السماء على الحواريين، فإن نزول المائدة لا يدل على أن النبي عيسى عليه السلام كان إلهاً، ولذلك فهو يسأل يوم القيامة عن مقالة الناس فيه، ولكنه يتنصل فوراً عن فعلة أتباعه، لأن الملك لله وحده (الآيات: ١٠٩-١٢٠).

ركائز المجتمع المؤمن

بسم الله الرحمن الرحيم

﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ أَوۡفُواْ بِٱلۡعُقُودِ(١) أُحِلَّتۡ لَكُم بَهِيمَةُ(٢) ٱلۡأَنۡعَٰمِ إِلَّا مَا يُتۡلَىٰ عَلَيۡكُمۡ غَيۡرَ مُحِلِّي ٱلصَّيۡدِ وَأَنتُمۡ حُرُمٌۗ إِنَّ ٱللَّهَ يَحۡكُمُ مَا يُرِيدُ ١ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ لَا تُحِلُّواْ شَعَٰٓئِرَ(٣) ٱللَّهِ وَلَا ٱلشَّهۡرَ ٱلۡحَرَامَ وَلَا ٱلۡهَدۡيَ(٤) وَلَا ٱلۡقَلَٰٓئِدَ(٥) وَلَآ ءَآمِّينَ(٦) ٱلۡبَيۡتَ ٱلۡحَرَامَ يَبۡتَغُونَ فَضۡلٗا مِّن رَّبِّهِمۡ وَرِضۡوَٰنٗاۚ وَإِذَا حَلَلۡتُمۡ فَٱصۡطَادُواْۚ وَلَا يَجۡرِمَنَّكُمۡ(٧) شَنَـَٔانُ قَوۡمٍ أَن صَدُّوكُمۡ عَنِ ٱلۡمَسۡجِدِ ٱلۡحَرَامِ أَن تَعۡتَدُواْۘ وَتَعَاوَنُواْ عَلَى ٱلۡبِرِّ وَٱلتَّقۡوَىٰۖ وَلَا تَعَاوَنُواْ عَلَى ٱلۡإِثۡمِ وَٱلۡعُدۡوَٰنِۚ وَٱتَّقُواْ ٱللَّهَۖ إِنَّ ٱللَّهَ شَدِيدُ ٱلۡعِقَابِ ٢ حُرِّمَتۡ عَلَيۡكُمُ ٱلۡمَيۡتَةُ وَٱلدَّمُ وَلَحۡمُ ٱلۡخِنزِيرِ وَمَآ أُهِلَّ لِغَيۡرِ ٱللَّهِ بِهِۦ وَٱلۡمُنۡخَنِقَةُ(٨) وَٱلۡمَوۡقُوذَةُ(٩) وَٱلۡمُتَرَدِّيَةُ(١٠) وَٱلنَّطِيحَةُ(١١) وَمَآ

---

(١) العقود: جمع عقد وهو كل التزام وميثاق بين جانبين.
(٢) بهيمة: من الإبهام، ويراد بها كل دابة، وسميت بهيمة لأنها أبهمت.
(٣) شعائر: جميع شعيرة،وهي أعلام الحج وأعماله واشتقاقها من قولهم: شعر فلان بهذا الأمر إذا علم به.
(٤) الهدي: ما يهدى إلى الحرم (الذبائح).
(٥) القلائد: جمع قلادة وهي ما يقلد به الهدي.
(٦) آمين: قاصدين من أمَّ أي قصد.
(٧) لا يجرمنكم: لا يكسبنكم أو لا يحملنكم.
(٨) المنخنقة: (التي تموت خنقاً) أي بالضغط على رقبتها حتى الموت.
(٩) الموقوذة: المضروبة بشدة حتى الموت.
(١٠) المتردية: الساقطة من شاهق، والردى الهلاك.
(١١) النطيحة: المنطوحة من غيرها.

أَكَلَ ٱلسَّبُعُ(١) إِلَّا مَا ذَكَّيْتُمْ(٢) وَمَا ذُبِحَ عَلَى ٱلنُّصُبِ(٣) وَأَن تَسْتَقْسِمُوا۟ بِٱلْأَزْلَٰمِ ۚ ذَٰلِكُمْ فِسْقٌ ۗ ٱلْيَوْمَ يَئِسَ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ مِن دِينِكُمْ فَلَا تَخْشَوْهُمْ وَٱخْشَوْنِ ۚ ٱلْيَوْمَ أَكْمَلْتُ لَكُمْ دِينَكُمْ وَأَتْمَمْتُ عَلَيْكُمْ نِعْمَتِى وَرَضِيتُ لَكُمُ ٱلْإِسْلَٰمَ دِينًا ۚ فَمَنِ ٱضْطُرَّ فِى مَخْمَصَةٍ(٤) غَيْرَ مُتَجَانِفٍ لِّإِثْمٍ ۙ فَإِنَّ ٱللَّهَ غَفُورٌ رَّحِيمٌ ﴿٣﴾.

هدى من الآيات:

لتأمين الحد الأدنى من الحضارة تحتاج البشرية إلى تبادل موارد الرزق، فيعطي كل إنسان الفائض من غذائه للآخر بدلاً من أخذه الفائض من غذاء الآخرين.

وقد بدأ القرآن سورة المائدة التي خصصت لتنظيم الحياة الاجتماعية العامة بتقرير مبدأ الوفاء بالعقود حيث أنها تنظم علاقات الأفراد الضرورية لتعاونهم في التجارة.

وقد تعيش مجموعة من الناس بغير مناهج -اقتصادية، اجتماعية، سياسية، خلقية-، ولكنهم كمجموعة يكاد لا يجتمعون بدون تبادل تجاري.

ولكن مبدأ الوفاء بالعقود يجب أن يكون في إطار النظام الاقتصادي العام للإسلام.

لذلك تحدث القرآن عن المباحات والمحرمات فور حديثه عن العقود وقال إن بهيمة الأنعام حلال والصيد في الإحرام حرام، كما يحرم شعائر الله والشهر الحرام، والهدي والقلائد، ويحرم إيذاء من يقصد البيت الحرام لغرض التجارة أو الحج، وكذلك الاعتداء على الآخرين حتى ولو كانوا هم البادئين.

ثم يبين بالمناسبة ضرورة التعاون لتحقيق الخير للمجتمع ولتطبيق نظام الله الذي فيه السعادة.

وعاد إلى الحديث عن بعض المحرمات مثل الميتة والدم ولحم الخنزير، وبين أن من الضروري تجنب العادات الجاهلية دون خوف، لأن الدين كامل لا نقص فيه، وفي حالة

---

(١) أكل السبع: ما قتله الحيوان المفترس من آكلات اللحوم.
(٢) ذكيتم: من التذكية وهي فري (قطع) الأوداج والحلقوم.
(٣) النصب: الحجارة التي كانوا يعبدونها.
(٤) المخمصة: المجاعة.

الضرورة يجوز الانتفاع بالمحرمات، ولكن بقدر الضرورة ومن دون الانحراف إلى المحرم ولو نفسيًّا.

بينات من الآيات:

الوفاء بالعقود

[١] يجب الوفاء بالعقد أي تطبيقه تطبيقاً تاماً، حسب ما تراضى عليه وتعاهد به الطرفان والعقد: هو العهد والميثاق أو هو الالتزام المتبادل حيث يلتزم كل طرف بشيء في مقابل التزام الطرف الثاني بما يقابله.

ومبدأ وجوب الوفاء بالعقد وجوباً شرعيًّا، لأنه يلزم صاحبه حقًّا من حقوق المجتمع. إن هذا المبدأ يجعل كل عقد مشروعاً سواءً كان تجاريًّا أو غيره، وسواء كان عقداً معروفاً بين الناس في عهد الإسلام الأول أم لا، كما يجعل هذا المبدأ التشريع الإسلامي يواكب تطورات الزمن.

﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ أَوۡفُواْ بِٱلۡعُقُودِ﴾ ولعلنا لانجد في كتب القانون والفقه كلمة موجزة كهذه الكلمة تفيض بعشرات الأحكام والقوانين العامة، وربما جاء التعبير بـ ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ﴾ للإيحاء بأن الوفاء بالعقود يدخل ضمن ركائز المجتمع المؤمن، وكأنه يقول: أيها المجتمع المؤمن عليك الوفاء بالعقود.

ومبدأ الوفاء بالعقود يوحي بحرية التجارة إلا أن بقية الآية تحدد هذه الحرية بإطار التشريع الإسلامي العام الذي يحل أشياء، ويحرم أخرى.

﴿أُحِلَّتۡ لَكُم بَهِيمَةُ ٱلۡأَنۡعَٰمِ﴾ أي الأنعام التي لا تفهم شيئاً، هي حلال عموماً إلا بعض المستثنيات ﴿إِلَّا مَا يُتۡلَىٰ عَلَيۡكُمۡ﴾ ومن هذه الاستثناءات:

﴿غَيۡرَ مُحِلِّي ٱلصَّيۡدِ وَأَنتُمۡ حُرُمٌۗ﴾ أي الاصطياد في حالة الإحرام، أما الصيد في غيرها فهو جائز ويوجب الملكية.

﴿إِنَّ ٱللَّهَ يَحۡكُمُ مَا يُرِيدُ﴾ وعلينا ألا نتصور أننا أحرار في شؤوننا نختار النظم التي تعجبنا.. كلا. فالحاكم هو الله وحده.

إذن هناك حرية وانطلاق في الإسلام في حرية التعامل التجاري وحيازة المباحات، ولكن في حدود الإرادة العليا لخالق الكون، والمصلحة العليا للإنسانية وفي الآيات تفصيل مبين لهذه القضايا.

أنواع الأحكام

[٢] ما هو الحكم الذي يفرضه الله حسبما يريد؟.

يضرب الله لنا مثلاً واقعيًا لهذا الحكم فيقول: إن أحكام الله الاجتماعية نوعان:

ألف: هناك أحكام تحافظ على أمن الناس، وتصون حريتهم، وتعطي لكل إنسان فرصة للانطلاق وذلك مثل إقامة أماكن حرة تنحسر عنها الاعتداءات بأي مبرر كان فلقد جعل الله -الكعبة البيت الحرام- وفرض فيه السلام والأمن، وأعطى الحرمة والحصانة لكل من دخله لكي يستطيع القادمون من تبادل التجارة وتداول الأفكار والتعارف على بعضهم، وبالتالي التعاون في سبيل الخير.

إن الهدف من هذا النوع من الأحكام هو حفظ الناس من شرور بعضهم وفسح المجال أمام كل الطاقات أن يساهم في بناء المجتمع.

باء: وهناك نوع من الأحكام تنظم علاقة الإنسان بالطبيعة والهدف منها صيانة البشر من أضرار الطبيعة، وذلك مثل حرمة الميتة والدم ولحم الخنزير وما أشبه.

وعن النوع الأول يحدثنا الله سبحانه قائلاً: ﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ لَا تُحِلُّواْ شَعَٰٓئِرَ ٱللَّهِ ﴾ أي لا تجعلوا الشعيرة التي جعلها الله حراماً، إحلالاً والشعيرة هي البهائم التي تساق إلى بيت الله يحرم الاعتداء عليها بالسرقة أو النهب، أو أنها الحج نفسه وفيما يلي توضيح ذلك.

﴿وَلَا ٱلشَّهۡرَ ٱلۡحَرَامَ وَلَا ٱلۡهَدۡيَ وَلَا ٱلۡقَلَٰٓئِدَ ﴾ أي لا يعتدي بعضكم على بعض في الشهر الحرام، ولا يسرق أو ينهب أحدكم الهدي الذي اختص بالكعبة، ولا تأكلوا البهائم التي تقلد برقابها قلادة للدلالة على أنها تساق إلى بيت الله.

غرض كل هذه الأحكام هو تبين حرمة الكعبة على الناس، وهي مقدمة لفرض جو من السلام على ربوع تلك البلاد المقدسة، وعلى الطرق المؤدية إليها من كل أفق بعيد، لذلك قال الله بعدئذ: ﴿وَلَآ ءَآمِّينَ ٱلۡبَيۡتَ ٱلۡحَرَامَ ﴾ أي الذين يقصدون زيارة البيت الحرام، فلا تعتدوا عليهم ولا تحلوا حرمتهم ذلك لأنهم يهدفون رزق الله ورضاه.

﴿يَبۡتَغُونَ فَضۡلٗا مِّن رَّبِّهِمۡ وَرِضۡوَٰنٗا﴾ أي أنهم لا يريدون سلب أموال الناس ولا الاعتداء على حقوقهم، بل يريدون الحصول على رحمة الله المتمثلة في حيازة المباحات، أو التبادل التجاري، كما أنهم لايهدفون الخروج على الأنظمة الإسلامية بالحصول على مكاسب غير مشروعة بل

يبتغون رضواناً من الله، من هنا نعرف أن الذين يقصدون من وراء الحج أكل أموال الناس بالباطل أو مخالفة أحكام الله فإنهم لا حرمة لهم.

إن الطبيعة واسعة وبإمكان الجميع أن ينتفعوا بها دون مزاحمة الآخرين، وإذا استل من قلوب الناس الأحقاد وروح الاعتداء، استطاع الجميع الاستفادة من نعم الله. بيد أن هذه الأحقاد تأتي عادة بسبب ردة الفعل، فكل طرف يتصور أنه ليس هو المبتديء بالاعتداء وإنما يقتص ممن اعتدوا عليه باعتداء مماثل وهذا هو الذي يقف حاجزاً أمام تعاون الجميع.

وعلى الجميع ألا يدفعهم الاعتداء على مضاعفة الرد (الصاع بصاعين)، ولا أن يخرجهم من حدود العدالة، وآنئذ فقط يمكن للجميع أن يتعاونوا.

﴿وَإِذَا حَلَلْتُمْ فَاصْطَادُوا﴾ إن الله جاء بهذا التمهيد لتوجيه الإنسان إلى نعم الله الواسعة، وإبعادهم عن النظر إلى أموال بعضهم ولذلك لم يلبث أن قال: ﴿وَلَا يَجْرِمَنَّكُمْ شَنَآنُ قَوْمٍ أَن صَدُّوكُمْ عَنِ الْمَسْجِدِ الْحَرَامِ أَن تَعْتَدُوا﴾ أي لا يحتم عليكم اعتداء الآخرين عليكم مقابلتهم بالمثل، وذلك بأن تعتدوا عليهم قصاصاً على أنهم منعوكم عن المسجد الحرام ردحاً من الزمن. كلا.. أن شنآن هؤلاء وعداوتهم لكم يجب ألا تخرجكم من إطار العدل بل العكس من ذلك. عليكم أن تهدفوا تحقيق التعاون.

التكتل الإيماني

﴿وَتَعَاوَنُوا عَلَى الْبِرِّ وَالتَّقْوَىٰ وَلَا تَعَاوَنُوا عَلَى الْإِثْمِ وَالْعُدْوَانِ﴾ هنالك تكتلات عدوانية الهدف منها ظلم الناس واستغلالهم مثل تكتل التجار المحتكرين ضد المستهلكين، وتعاون الأنظمة الجائرة ضد الشعوب المستضعفة، وهذه لعنة سوداء..

وهناك تكتلات تهدف إشاعة الخير، وتطبيق النظام. أما إشاعة الخير - فهي البر - وليس البر أن تسعد على حساب غيرك، بل أن تسعد ويسعد الجميع معك.

وأما النظام وتطبيقه فهو التقوى إذ هو الحذر من الله، واتقاء بلائه، وهو لا يكون إلا بتطبيق نظامه الذي أوحى به إلى رسله، ومراعاة سننه التي أركزها في الطبيعة، وبتعبير آخر يجب أن يكون الهدف من التعاون إشاعة الخير ومقاومة الشر أنى كان مصدرهما.

ويضع القرآن في مقابل البر الإثم، وفي مقابل التقوى العدوان فالإثم هو الحصول على أموال الناس بالخديعة (الغش، السرقة، الاحتكار، التعاون مع السلطات الجائرة، الحلف

الكاذب). بينما العدوان: هو الاستيلاء على حقوق الناس بالقوة، وبلا أي غطاء.

﴿وَاتَّقُوا اللَّهَ إِنَّ اللَّهَ شَدِيدُ الْعِقَابِ﴾ ومن أنواع عقابه الشديد أن يضرب بعضكم بعضاً، ويشعل بعضكم نار حرب بعض على بعض فيحترق الجميع.

أو إنكم بتحالفاتكم العدوانية يخشى بعضكم بعضاً، فيتوجه الجميع إلى صناعة السلاح ويضع الميزانيات الرهيبة لغرض التدمير، فتمتص ميزانيات التسلح ثرواتكم وتحرق جذور السعادة والرفاه، فتصبحون على ما فعلتم نادمين.

أوليس هذا بعض ما يعيش فيه العالم؟! أفلا يرجعون إلى هدى الله؟! وإلى متى؟!.

[٣] لكي يسعد المجتمع لابد أن تنظم علاقاته ببعضه على أساس ثابت من العدل والتعاون، كما لابد أن تنظم علاقته بالطبيعة بحيث لا تضره شرورها. وقد بين القرآن في هذه الآية جانباً من تنظيم علاقة الإنسان بالطبيعة، وبالذات جانباً من العادات المحرمة التي كانت شائعة في المجتمع الجاهلي آنئذ فقال: ﴿حُرِّمَتْ عَلَيْكُمُ الْمَيْتَةُ وَالدَّمُ وَلَحْمُ الْخِنْزِيرِ﴾ لأنها كلها تضر بصحة الإنسان ﴿وَمَا أُهِلَّ لِغَيْرِ اللَّهِ بِهِ﴾ أي كل ذبيحة ذبحت على غير اسم الله ﴿وَالْمُنْخَنِقَةُ﴾ الذبيحة التي قتلت خنقاً وليس ذبحاً ﴿وَالْمَوْقُوذَةُ﴾ وهي التي ضربت بآلة غير حادة حتى ماتت (كأن ضربت بصخرة) ﴿وَالْمُتَرَدِّيَةُ﴾ التي وقعت من عال فماتت ﴿وَالنَّطِيحَةُ﴾ التي نطحتها البهائم حتى ماتت ﴿وَمَا أَكَلَ السَّبُعُ إِلَّا مَا ذَكَّيْتُمْ﴾ وما تبقى من فضلاته إلا إذا جرحها السبع وقبل أن تموت استطعتم ذبحها بالطريقة الشرعية ﴿وَمَا ذُبِحَ عَلَى النُّصُبِ﴾ من أجل إرضاء الأصنام التي لا تضر ولا تنفع فعليكم اجتنابه لأنه يمتزج بعبادة الأصنام، وبالتالي بالشرك.

﴿وَأَنْ تَسْتَقْسِمُوا بِالْأَزْلَامِ﴾ تلك العادة التي كانت في الجاهلية حيث كان يجتمع طائفة من الناس ويساهمون في شراء شاة ثم يقسمونها بينهم لا حسب سهامهم بل حسب الأزلام حيث توضع أخشاب مختلفة في كيس أو في بطن صنم ثم يسحب كل واحد نصيبه، فإذا خرجت له خشبة معينة يأخذ نصف الذبيحة، وإذا خرجت أخرى لا يأخذ منها شيئاً، أو يأخذ الرأس فقط، وهذا نوع من أنواع القمار المحرم.

إن الذبيحة تحرم في هذه الحالة إذا كانت قد ذبحت باسم الصنم الذي يقترع في بطنه على نصيب كل واحد من المشركين.

﴿ذَلِكُمْ فِسْقٌ﴾ وعمل محرم يخرج الإنسان عن حدود التقوى، بل عن حدود الإيمان

إذا كان بهدف التقرب إلى الأصنام، وبالتالي إذا كان العمل ذا خلفية شركية.

وإذا كان الجاهليون قد تعودوا على هذه العادات السيئة فعلينا مقاومتهم وإياها، وعدم التنازل لهم فيها، ذلك لأن خطًّا واضحاً قد رسم بيننا وبينهم فقد يئسوا منا ونحن بدورنا لا يجب أن نداهنهم، ولا نتنازل عن بعض واجباتنا استسلاماً لهم.

علينا أن نعرف أن ديننا كامل لا نقص فيه، فلماذا نرجع للعادات الجاهلية للأخذ منها.

﴿ٱلْيَوْمَ يَئِسَ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ مِن دِينِكُمْ فَلَا تَخْشَوْهُمْ وَٱخْشَوْنِ ۚ ٱلْيَوْمَ أَكْمَلْتُ لَكُمْ دِينَكُمْ وَأَتْمَمْتُ عَلَيْكُمْ نِعْمَتِى وَرَضِيتُ لَكُمُ ٱلْإِسْلَٰمَ دِينًا ۚ﴾ الإسلام هنا بمعناه اللغوي الذي استخدمه القرآن في سائر الآيات بمعنى التسليم لله ولمناهجه وانه دين الله الذي ارتضاه لنا ويتجسد في تقوى الله، واتباع مناهجه، وفي طاعة رسول الله ﷺ وأولي الأمر عليهم السلام من بعده الذين يشكلون الامتداد الرسالي والطبيعي لخط الله والرسول ﷺ.

وبما أن سورة المائدة جاءت بعد سور القرآن كلها، فإن قضية تكميل الدين طرحت فيها، وبالطبع تكون قضية القيادة الإسلامية هي أبرز وأهم القضايا المعلقة التي كمل بها الدين بعد نزول سورة المائدة، وعرف الناس أن الأئمة المعصومين عليهم السلام هم القادة الرساليون للأمة سواء حكموا البلاد سياسيًّا أم لا.. وسواء قاموا بمصالح الأمة العليا أم لم يقوموا.

بيد أن القيادة لا تعني شيئاً في منطق الإسلام لو لم تنفصل عن رواسب الجاهلية، بل لو لم تتحد الجاهلية بشجاعة ومن دون خشية، وتطبق تعاليم الإسلام. لذلك جاءت الإشارة إلى القيادة ضمن الحديث عن طائفة من عادات الجاهلية التي نسفها الإسلام ليعطي للقيادة بعدها الرسالي بحيث يجعلها لا تنفصل عن مناهج الدين، فلا يعترف الإسلام بقيادة لا تطبق هذه المناهج وان اختفت تحت غطاء كثيف من الكلمات الدينية والشعارات الرسالية.

﴿فَمَنِ ٱضْطُرَّ فِى مَخْمَصَةٍ غَيْرَ مُتَجَانِفٍ لِّإِثْمٍ ۙ فَإِنَّ ٱللَّهَ غَفُورٌ رَّحِيمٌ﴾ أي أن الحالة الواحدة التي يجوز فيها الأكل من البهائم الميتة المحرمة هي حالة الاضطرار، حين تعم المجاعة البلاد، فيجوز الأكل منها بقدر الاضطرار بحيث لا يجوز أن يميل إلى أكل الميتة ميلاً نفسيًّا، بل يظل يعرف أن الاضطرار هو السبب في أكل الميتة فمتى رفع الاضطرار استطاع بسهولة أن يقلع عن أكل الميتة، لأنه لم يتعود -لا أقل نفسيًّا- عليها.

الضوابط القانونية في العقود

﴿يَسْـَٔلُونَكَ مَاذَآ أُحِلَّ لَهُمْۖ قُلۡ أُحِلَّ لَكُمُ ٱلطَّيِّبَٰتُ[1] وَمَا عَلَّمۡتُم مِّنَ ٱلۡجَوَارِحِ[2] مُكَلِّبِينَ تُعَلِّمُونَهُنَّ مِمَّا عَلَّمَكُمُ ٱللَّهُۖ فَكُلُواْ مِمَّآ أَمۡسَكۡنَ عَلَيۡكُمۡ وَٱذۡكُرُواْ ٱسۡمَ ٱللَّهِ عَلَيۡهِۖ وَٱتَّقُواْ ٱللَّهَۚ إِنَّ ٱللَّهَ سَرِيعُ ٱلۡحِسَابِ ﴿٤﴾ ٱلۡيَوۡمَ أُحِلَّ لَكُمُ ٱلطَّيِّبَٰتُۖ وَطَعَامُ ٱلَّذِينَ أُوتُواْ ٱلۡكِتَٰبَ حِلّٞ لَّكُمۡ وَطَعَامُكُمۡ حِلّٞ لَّهُمۡۖ وَٱلۡمُحۡصَنَٰتُ مِنَ ٱلۡمُؤۡمِنَٰتِ وَٱلۡمُحۡصَنَٰتُ مِنَ ٱلَّذِينَ أُوتُواْ ٱلۡكِتَٰبَ مِن قَبۡلِكُمۡ إِذَآ ءَاتَيۡتُمُوهُنَّ أُجُورَهُنَّ مُحۡصِنِينَ غَيۡرَ مُسَٰفِحِينَ وَلَا مُتَّخِذِيٓ أَخۡدَانٖۗ وَمَن يَكۡفُرۡ بِٱلۡإِيمَٰنِ فَقَدۡ حَبِطَ عَمَلُهُۥ وَهُوَ فِي ٱلۡأٓخِرَةِ مِنَ ٱلۡخَٰسِرِينَ ﴿٥﴾﴾.

هدى من الآيات

في ذات الوقت الذي يحرم الإسلام طائفة من الأشياء، لا يريد أن يكبل البشر بهاجس الحرمة، فيجمد عن الانطلاق والعمل، لذلك يسد عليه أبواب الحرام، ثم يفتح أبواباً أخرى ويدفعهم إلى ولوجها ففي هذا الدرس يحلل الإسلام الطيبات بوجه عام فالقاعدة الأساسية هي حلية الطيبات إلا ما استثني مما جاء فيه نص.

والأدوات التي تستخدم في الحصول على الطيبات هي الأخرى يجب أن تكون حلالاً إلا ما يتلى ومنها: أدوات الحيازة كالكلاب ووسائل التجارة، أو كالتجارة مع أهل الكتاب، فكلاب الصيد يجوز أكل ما أمسكن به من الأحياء بشرط أن يذكر الصياد اسم الله عليه.

---

(١) الطيِّب: الحلال وقيل هو المستلذ (أو الطاهر).
(٢) الجوارح: الكواسر من الطير والسباع.

كما يجوز التبادل التجاري مع أهل الكتاب للحصول على منافع مشتركة، ليس هذا فقط بل حتى المتعة الجنسية غير المحرمة، إلا في حدود معينة فيجوز التمتع بالنساء العفيفات سواء كن من المؤمنات أو من أهل الكتاب بشرط أن يلتزم كل طرف بواجباته، فالزوجة تحصن نفسها ولا يتبعها لقاء ذلك أجر، والزوج يؤدي أجورها بالكامل.

إذن فدين الله ليس دين الجمود، ولا دين الكبت والإرهاب، بل هو دين النظافة والتوجيه.

بينات من الآيات:

كل شيء طيب إلا

[٤] الجهل يدعو صاحبه إلى التطرف يمنة أو يسرة، كما إذا ضل شخص في الصحراء وجهل الطريق فإنه ينحرف عنه ذات اليمين وذات الشمال.

وليس بإمكانه من دون العلم أن يلتزم بالطريق المستقيم، ولقد كانت الجاهلية تعيش بين خطي الفوضى المطلقة، حيث لا شيء حرام عندهم، كما كانت الحال عند عرب الجزيرة غالباً حيث خط (الجمود المطلق) فهم يحرمون على أنفسهم طيبات الدنيا (كما كانت الحال عند بعض المسيحيين والمترهبين من العرب) وجاء الإسلام بالقول الفصل، فحرم ما يضر البشر صحيًّا أو خلقيًّا أو اجتماعيًّا، وحلل الطيبات وجعل القاعدة الأساسية أن كل شيء طيب حلال حتى تعلم حرمته بالذات.

وسائل الكسب والطيب هو كل ما يستطيبه العقل السليم.

﴿يَسْـَٔلُونَكَ مَاذَآ أُحِلَّ لَهُمْۖ قُلْ أُحِلَّ لَكُمُ ٱلطَّيِّبَٰتُۙ﴾ وسألوا عن بعض الوسائل التي يحصلون بها على الطيبات، فأجاب القرآن عن وسيلتين:

الأولى: نموذج لوسائل الحيازة والاستفادة من الطبيعة، ولكنه نموذج يثير الشك ويدعو إلى التساؤل إذ أنه غريب على الطبيعة وهو صيد الكلب. فهل يمكن استخدام الحيوانات في حيازة المباحاة، والكلب بالذات حيوان نجس ومكروه في الدين فهل تحل ذبيحته؟.

وحين أجاب القرآن عن هذا التساؤل بالايجاب تبين أن الطرق الأخرى التي قد تستخدم في حيازة المباحات طرق مشروعة (كاستخدام اليد أو الالآت الحادة كالسكين أو الحيوانات المحبية الأليفة وما أشبه).

الثانية: وسيلة من وسائل التعاون في الحياة، وتبادل المنافع والتجارات وهي أيضاً وسيلة قد يثار حولها بعض التساؤلات: هل يجوز التعامل التجاري مع أهل الكتاب أم لا؟.

فلما أجاب القرآن بالإباحة تبين بالطبع حرية التجارة مع كافة المسلمين. هكذا خصصت هذه الآيات عن ضرورة التخلص من الرهبنة واتخاذ كل شيء حراماً، بل بالعكس كل شيء حلال، حتى يتلى فيه نص صريح.

﴿وَمَا عَلَّمْتُم مِّنَ الْجَوَارِحِ مُكَلِّبِينَ تُعَلِّمُونَهُنَّ مِمَّا عَلَّمَكُمُ اللَّهُ﴾ فهذا إرشاد بأن تعليم الجوارح ليس فقط مباحاً، بل ومستحبًّا أيضاً، لأنه يساعد على رفاه الإنسان.

﴿فَكُلُوا مِمَّا أَمْسَكْنَ عَلَيْكُمْ وَاذْكُرُوا اسْمَ اللَّهِ عَلَيْهِ﴾ بأن يذكر الصياد اسم الله حين يبعث كلبه ﴿وَاتَّقُوا اللَّهَ إِنَّ اللَّهَ سَرِيعُ الْحِسَابِ﴾.

[٥] وإذا كانت الطيبات أو بعضها محرمة على بعض أهل الكتاب بسبب سوء أفعالهم، وظلمهم لأنفسهم فإنها قد أحلت لكم حيث انتهى السبب الداعي إلى التحريم.

﴿الْيَوْمَ أُحِلَّ لَكُمُ الطَّيِّبَاتُ﴾ والوسيلة التجارية التي تحصلون بها على الطيبات محللة لكم هي الأخرى حتى ولو كانت التجارة مع غير ملتكم مثل (أهل الكتاب).

﴿وَطَعَامُ الَّذِينَ أُوتُوا الْكِتَابَ حِلٌّ لَّكُمْ وَطَعَامُكُمْ حِلٌّ لَّهُمْ﴾ وبالرغم من أن الطعام يعم الحبوب والفواكه ويشمل الذبيحة والمطبوخات الجاهزة للأكل، بالرغم من ذلك فإن سياق الآية يدل على التبادل التجاري والتبادل التجاري لا يكون عادة إلا في المأكولات غير الجاهزة مثل الحبوب والبهائم غير المذبوحة، أما المأكولات الجاهزة فهي قليلة التداول خصوصاً في ذلك الوقت.

والمحصنات من أهل الكتاب

﴿وَالْمُحْصَنَاتُ مِنَ الْمُؤْمِنَاتِ وَالْمُحْصَنَاتُ مِنَ الَّذِينَ أُوتُوا الْكِتَابَ مِن قَبْلِكُمْ﴾ أي يجوز لكم التمتع بهن في عقد دائم أو عقد مؤقت والجنس ليس خسة أو خبثاً، أو حالة بهيمية عند البشر، كلا إن الجنس لذة طيبة هيأها الله للإنسان. ولكن يجب أن يكون التمتع بالجنس في حدود الشرع المقدس.

أولاً: يجب أن تكون المرأة محصنة (أي عفيفة، أحصنت فرجها، وصانت كرامتها) ومن جانب ثان: أحصنها زوجها أي جعلها في حصن اللذة المشروعة حتى لا تفتش عن لذة حرام.

ثانياً: أن يلتزم الزوج بأداء حقوقها، وبالذات مهرها الذي هو أجر حصانتها وإخلاصها للزوج، وتمكينها للزوج أنى دعته إليها حاجة جنسية.

ثالثاً: ألا يهدف الزوج من وراء العلاقة مع المرأة السفاح، وضياع ماء الحياة، والتلذذ بالمقاربة الجنسية لفترة محدودة، بل يكون هدفه بناء حصن الزوجية الرصينة حيث يحافظ كل واحد على حقوق الثاني وحرماته.

رابعاً: ألا يكون الهدف من وراء العلاقة الصداقة المائعة، حيث يوفر كل واحد لصديقه الجنس مقابل توفير الثاني له ذلك من دون التزامات قانونية محدودة. كلا، يجب أن يكون تراضي الطرفين على أساس الأحكام الشرعية وبالتعهد على الالتزام بها.

أنك قادر على تبادل الهدايا مع أصدقائك أو أقاربك لأن ذلك التبادل لا يؤدي إلى الخلاف والنزاع، ولا يضعضع علاقاتك الاجتماعية الأخرى، ولكن لايجوز لك أن تبادل امرأة أجنبية الحب والجنس كهدية متقابلة، لأن الجنس قضية هامة في حياة البشر، وركن أساسي من أركان التعاون الاجتماعي، فلو سمح لنا القانون بأن يكون الجنس حسب أهواء الطرفين، ومن دون الضوابط القانونية لكانت نهايته تفكيك عروة من العرى الاجتماعية، ولتزلزلت أرسخ قاعدة من قواعد التماسك الاجتماعي، من هنا فرض الإسلام أحكاماً في العلاقة الجنسية، وأمر بأن يكون ترابط الطرفين بينهما على أساس هذه الأحكام، وليس لمجرد الصداقة واتخاذ العلاقة كهدايا متبادلة ﴿إِذَآ ءَاتَيْتُمُوهُنَّ أُجُورَهُنَّ مُحْصِنِينَ غَيْرَ مُسَٰفِحِينَ وَلَا مُتَّخِذِىٓ أَخْدَانٍ﴾ واعتبر القرآن الخروج عن هذه الأنظمة بمثابة الخروج عن الدين، إذ أن الفكر ليس قولاً إنما هو عمل وسلوك.

الإيمان قول وعمل

﴿وَمَن يَكْفُرْ بِٱلْإِيمَٰنِ فَقَدْ حَبِطَ عَمَلُهُۥ﴾ أي من يكفر بعد أن كان مؤمناً، أو مع التظاهر بالإيمان فإن أعماله الصالحة غير مقبولة عند الله بل تحبط وتقذف في وجهه، ولا تنفعه شيئاً.

﴿وَهُوَ فِى ٱلْـَٔاخِرَةِ مِنَ ٱلْخَٰسِرِينَ﴾ فلا يظن أحد أن بإمكانه الجمع بين العقيدة الصحيحة والعمل الفاسد، إذ أنه سوف يؤخذ بعمله ولا يؤبه بعقيدته التي يدعي أنه يلتزم بها فكرياً.

التطهر واجب إسلامي

﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ إِذَا قُمۡتُمۡ إِلَى ٱلصَّلَوٰةِ فَٱغۡسِلُواْ وُجُوهَكُمۡ وَأَيۡدِيَكُمۡ إِلَى ٱلۡمَرَافِقِ وَٱمۡسَحُواْ بِرُءُوسِكُمۡ وَأَرۡجُلَكُمۡ إِلَى ٱلۡكَعۡبَيۡنِۚ وَإِن كُنتُمۡ جُنُبٗا فَٱطَّهَّرُواْۚ وَإِن كُنتُم مَّرۡضَىٰٓ أَوۡ عَلَىٰ سَفَرٍ أَوۡ جَآءَ أَحَدٞ مِّنكُم مِّنَ ٱلۡغَآئِطِ أَوۡ لَٰمَسۡتُمُ ٱلنِّسَآءَ فَلَمۡ تَجِدُواْ مَآءٗ فَتَيَمَّمُواْ صَعِيدٗا طَيِّبٗا فَٱمۡسَحُواْ بِوُجُوهِكُمۡ وَأَيۡدِيكُم مِّنۡهُۚ مَا يُرِيدُ ٱللَّهُ لِيَجۡعَلَ عَلَيۡكُم مِّنۡ حَرَجٖ وَلَٰكِن يُرِيدُ لِيُطَهِّرَكُمۡ وَلِيُتِمَّ نِعۡمَتَهُۥ عَلَيۡكُمۡ لَعَلَّكُمۡ تَشۡكُرُونَ ٦﴾

هدى من الآيات:

أتي آية التطهر في إطار الحديث عن المجتمع الإسلامي للدلالة على الجانب الاجتماعي في الطهارة، ولبيان العلاقة بين طهارة القلب وطهارة الجسد، وقد رأينا في سورة النساء كيف جاءت آية التطهر (الآية: ٤٣) بعد آيات النهي عن البخل والرياء، وقبل آيات النهي عن تحريف الدين.

وهنا جاءت هذه الآية في سياق النهي عن طائفة أخرى من المنكرات بينها الزنا، فكان الحديث عن الوضوء والغسل مناسباً لطبيعة العلاقة بين حرمة الزنا وحرمة الميتة والدم و..، و...، وتنظيم العلاقة الجنسية مما يرتبط بصحة الجسم، وبين الطهارة التي تتصل هي الأخرى بالصحة، إضافة إلى العلاقة بين طهارة الظاهر التي تجسده واجبات الوضوء والغسل، وطهارة الباطن التي يمثلها الابتعاد عن المحرمات.

بينات من الآيات:

[٦] ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ إِذَا قُمۡتُمۡ إِلَى ٱلصَّلَوٰةِ فَٱغۡسِلُواْ وُجُوهَكُمۡ وَأَيۡدِيَكُمۡ إِلَى ٱلۡمَرَافِقِ﴾.

الوضوء

إن الشرط المسبق للتحدث مع الله في مراسيم العبادة، هو التطهر وذلك بغسل الوجه مما يصدق عليه الوجه عرفاً، وقد حدده الفقهاء بأنه من منابت الشعر إلى نهاية الذقن طولاً، وبما يشمل عليه الإبهام والوسطى عرضاً. أما اليد فإنها تطلق عادة على أي جزء من العضو المشهور. ولذلك حدد القرآن مقدار المغسول منها بالمرفق على أن يكون المرفق جزء منه.

الغسل

وقد سكت القرآن عن بيان طريقة الغسل وما يغسل به، ولكن بما أن القرآن يتحدث إلى الناس الذين يمارسون الغسل طبيعيًّا، ويعرفون كيفياته، فإن ذلك يكفينا دليلاً عن كافة التفاصيل.

شرائط الغسل

أولاً: الغسل يكون بالماء وليس بأي سائل آخر (فلا يجوز بعصير البرتقال أو بالكحول مثلاً).

ثانياً: إن الغسل يكون عادة من الأعلى إلى الأسفل لأن الهدف منه أن يحمل الماء الوسخ في جريانه، وبالطبع فالماء لا يجري إلى الأعلى بل يجري إلى الأسفل.

من هنا يجب أن نصب الماء أولاً على الجبهة ومن ثم ينحدر على الوجه، كذلك يجب أن نصبه على المرفق ومن ثم ينحدر إلى الذراع والكفين.

كيفية الغسل

وأتصور أن التفسير الذي يجعل كلمة ﴿إِلَى﴾ في هذه الآية بمعنى (نهاية عملية الغسل) ويزعم أن بدايتها الكفان وأن الغسل ينبغي أن يكون من تحت إلى الأعلى، أتصور أنه تفسير لايتفق مع بلاغة القرآن، كما أنه يخالف العرف العام.. أوليس إذا قال الأب لابنه اغسل يدك

إلى الرسغ، هل يفهم من ذلك أن الغسل يبدأ من الرسغ، فلا يتصور الإبن أن والده أمره بأن يقلب كفيه حين يغسل؟ أوليس إذا أمرت الصباغ بأن يصبغ غرفتك إلى السقف، أولست تضحك عليه إذا رأيته يأخذ بالصبغ من أسفل الغرفة صاعداً إلى السقف، بل قد تنهاه عن ذلك لأنه يسبب تشويه الغرفة، فإذا قال لك أنت أمرتني بأن أصبغ إلى السقف، أولاً ترد عليه بأني إنما أردت أن يكون نهاية المقدار المصبوغ عند السقف؟! ولم أرد أن يكون أسلوب الصباغة من تحت إلى فوق.. إذ أن الأسلوب شأنك أنت وليس من شأني.. وأنت تعرفه جيداً.

كذلك الأمر هنا، حيث العرف يعرف كيف تغسل الأشياء، ولكن على الشريعة أن تحدد لهم فقط المقادير.

كيفية المسح

﴿وَامْسَحُوا بِرُءُوسِكُمْ وَأَرْجُلَكُمْ إِلَى الْكَعْبَيْنِ﴾ أي امسحوا بجزء من رؤوسكم فتدل الباء هنا على ضرورة مسح جزء من الرأس، أما الرجل فبالرغم من أنها هي الأخرى يمسح عليها ولكن القرآن جعل الكلمة منصوبة من ناحية الإعراب ﴿وَأَرْجُلَكُمْ﴾ بفتح اللام لماذا؟ لأنه لو جعلها مجرورة ﴿أَرْجُلِكُمْ﴾ بكسر اللام اذاً لكان تقديره بـ﴿أَرْجُلِكُمْ﴾ ومن الطبيعي أن هناك اختلافاً كبيراً بين المسح بالرجل والمسح بالرأس، فالمسح بالرجل يعني عند العرف جعل الرجل أداة للمسح كأن نقول: امسح برجلك الأرض فقد قال الله تعالى: ﴿ارْكُضْ بِرِجْلِكَ هَذَا مُغْتَسَلٌ بَارِدٌ وَشَرَابٌ﴾ [ص: ٤٢].

بيد أن الرأس لا يصبح أداة للمسح فلا يتصور أن يكون معنى امسح برأسك أي اجعل رأسك أداة للمسح بشيء آخر، بل يتبادر إلينا معنى (البعضية) أي امسح بعض رأسك.

من هنا كان من البلاغة أن يفتح كلمة (الرجل) ليكون المعنى (امْسَحُوا أَرْجُلَكُمْ) فيجعل لفظ أرجلكم معطوفاً على محل ﴿بِرُءُوسِكُمْ﴾ وليس على لفظه، أو يقدر له كلمة امسحوا بدلالة السياق. ولو قال القرآن: (امْسَحُوا أَرْجُلَكُمْ) لكنا نتساءل أي شيء نمسحه بأرجلنا، وكأن الأرجل أداة للمسح. والكعبان هما قبتا الرجل.

التيمم

﴿وَإِن كُنتُمْ جُنُبًا فَاطَّهَّرُوا﴾ أي اغتسلوا.

﴿وَإِن كُنتُم مَّرْضَى أَوْ عَلَى سَفَرٍ أَوْ جَاءَ أَحَدٌ مِّنكُم مِّنَ الْغَائِطِ أَوْ لَامَسْتُمُ النِّسَاءَ فَلَمْ

﴿تَجِدُوا مَاءً فَتَيَمَّمُوا صَعِيدًا طَيِّبًا﴾ أي توجهوا إلى تراب طاهر أو أرض طاهرة لتتطهروا بها تيمماً.

﴿فَامْسَحُوا بِوُجُوهِكُمْ وَأَيْدِيكُم مِّنْهُ﴾ بأن تضربوا أيديكم على التراب، فإذا علقت به عالقة من التراب فامسحوا بها بعضاً من وجوهكم، وبعضاً من أيديكم، أما الوجه فهو الجبين والجبهة إلى بداية الأنف، أما اليدان فتمسح الكفان منهما ابتداء من الرسغ حتى رؤوس الأصابع.

إن حكم التطهير ليس الهدف منه ابتلاء المؤمنين بعمل شاق، بل الهدف منه تطهيرهم من النجاسات الظاهرة والباطنة.

الحرج

﴿مَا يُرِيدُ اللَّهُ لِيَجْعَلَ عَلَيْكُم مِّنْ حَرَجٍ﴾ إن أي حكم شرعي يصل في صعوبته إلى درجة الحرج (وهي الصعوبة الشديدة التي لاتحتمل) فإنه يلغى أو يبدل بما هو أخف منه فالحج والصوم والصلاة و. و... إذا كانت تحتوي على صعوبات جسدية لا يحتملها ولا يطيقها الشخص فإنها تخفف فيسقط بعض واجبات الحج ويبقى البعض فقط، وكذلك تصبح الصلاة عن جلوس بدل القيام، أو بالإيماء بدل الحركات، أو أنها تحذف فيما إذا كان الواجب لا يتحرز.. مثل الصوم، فإنه يحذف مرة واحدة إذا كان ذا صعوبة بالغة لا يطيقها الفرد.

وقد ضرب الله مثلاً لهذه القاعدة الفقهية التي تسمى بقاعدة (الحرج) من واقع التيمم الذي جاء بديلاً عن الوضوء والغسل في أوقات الحرج مثل المرض أو البرد القارص، أو قلة الوقت لعجلة السفر، أو فقدان الماء، أو الخوف من عدو قاهر.

ونستطيع أن نستأنس بهذه الأمثال التي ساقها القرآن الحكيم هنا في تفصيلات قاعدة الحرج وتعميماتها على الأحكام الجزئية الأخرى.

إنهم اناس يتطهرون

﴿وَلَٰكِن يُرِيدُ لِيُطَهِّرَكُمْ وَلِيُتِمَّ نِعْمَتَهُ عَلَيْكُمْ لَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ﴾ الهدف من الغسل والوضوء أو التيمم هو طهارة الجسد، وطهارة الروح، والجسد يطهره الماء والتراب أما الروح فإنها تتمرغ في أوحال الشهوات فتحتاج إلى أن تتطهر بتجدد الإيمان، وعمليات التطهير هي رمز هذا التجدد. كيف؟.

الرجل ينام ويلبي بالنوم حاجة جسدية ملحة، ولكن روحه غير راضية عن ذلك، إن الروح تتطلع إلى عمل دائب، وجهد مستمر لتحقيق مزيد من أهدافها في فرصة العمر لذلك فحين يقوم المرء من النوم يجد روحه كسولة غير راضية، فيذهب إلى الماء ويتطهر استعداداً للصلاة بهدف تحقيق مرضاة الله في العمل بواجبات الدين، وبالتالي في تحقيق أهداف الروح، فيرفع الكسل عن روحه بذلك ويجد أن روحه بدأت تسير في الاتجاه الصحيح.

إن قيمة التطهر الروحية آتية من أنه مقدمة وتمهيد للواجبات واستعداد نفسي لها.

والله حين يبين حكم التطهر فإنما يكمل الدين بذلك، ولا يدع الدين مرتبطاً بالجوانب المعنوية فقط، بل بكل الجوانب وهذا من تمام نعمة الله على الإنسان، ولكن هل يشكر البشر ربه بهذه النعمة التامة المتجسدة في دين كامل أنزله إليه، وهل يعمل به حتى يسعد في الدارين. هذا السؤال؟! ومنك الإجابة.

الميــثاق

﴿وَاذْكُرُوا نِعْمَةَ اللَّهِ عَلَيْكُمْ وَمِيثَاقَهُ الَّذِي وَاثَقَكُم بِهِ إِذْ قُلْتُمْ سَمِعْنَا وَأَطَعْنَا وَاتَّقُوا اللَّهَ إِنَّ اللَّهَ عَلِيمٌ بِذَاتِ الصُّدُورِ (٧) يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا كُونُوا قَوَّامِينَ لِلَّهِ شُهَدَاءَ بِالْقِسْطِ وَلَا يَجْرِمَنَّكُمْ شَنَآنُ قَوْمٍ عَلَىٰ أَلَّا تَعْدِلُوا اعْدِلُوا هُوَ أَقْرَبُ لِلتَّقْوَىٰ وَاتَّقُوا اللَّهَ إِنَّ اللَّهَ خَبِيرٌ بِمَا تَعْمَلُونَ (٨) وَعَدَ اللَّهُ الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ لَهُم مَّغْفِرَةٌ وَأَجْرٌ عَظِيمٌ (٩) وَالَّذِينَ كَفَرُوا وَكَذَّبُوا بِآيَاتِنَا أُولَٰئِكَ أَصْحَابُ الْجَحِيمِ (١٠) يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا اذْكُرُوا نِعْمَتَ اللَّهِ عَلَيْكُمْ إِذْ هَمَّ قَوْمٌ أَن يَبْسُطُوا إِلَيْكُمْ أَيْدِيَهُمْ فَكَفَّ أَيْدِيَهُمْ عَنكُمْ وَاتَّقُوا اللَّهَ وَعَلَى اللَّهِ فَلْيَتَوَكَّلِ الْمُؤْمِنُونَ (١١)﴾.

هدى من الآيات:

بين الرب والعبد

بين الإنسان المسلم وبين الله ميثاق اجتماعي عليه أن يلتزم به لأنه سبب مباشر لنعمة الله عليه، ونصره له، والالتزام يجب أن يكون نابعاً من القلب فلا يداخله تردد أو نفاق.

أما بنود هذا الميثاق فهو:

أولاً: العمل الدائب من أجل الله من دون كلل أو كسل.

ثانياً: الشهادة بالقسط لا بالزور ولا من أجل مصالح خاصة.

ثالثاً: إقامة العدل في المجتمع حتى مع الأعداء.

رابعاً: التقوى في تطبيق هذه البنود وغيرها من فرائض الدين.

وبالالتزام بهذه البنود يمنح الله المؤمنين مغفرة منه تمحو ذنوبهم السابقة، وتعرض عن تخلفهم وتكاسلهم في الماضي، وتفتح لهم آفاق التقدم والرفاه، بينما العكس يورد الجحيم.

تطبيق الميثاق

ولكي نطبق الميثاق بدافع قوي علينا أن نتذكر أبداً أن تطبيق هذا الميثاق في السابق هو الذي خلصنا من براثن العدو بعد أن امتدت إلينا، وفي المستقبل سيكون الوضع كذلك لو آمنا بالله، وتوكلنا عليه، ولم نخضع لأية ضغوط جاهلية تمنعنا عن تطبيق مناهج الدين وفي طليعتها الميثاق المقدس.

بينات من الآيات:

الرسالة

[٧] أكبر نعم الله على الإنسان نعمة الرسالة، إذ أنها الأداة التي تمكن البشر من الانتفاع بسائر نعم الله عليه، فمن دون مناهج الدين لا ينتفع البشر من نعمة الصحة، بل يفسدها بارتكاب الموبقات ولا ينتفع بنعمة العقل، بل يدسه في تراب الشهوات، ولا ينتفع بنعمة الحرية بل يكبلها بأغلال الشك، وعبودية الجبت والطاغوت.

من هنا يذكرنا الله بالنعمة الكبرى (نعمة الرسالة) التي وفرت لنا فرص الإنتفاع بنعم الحياة، يذكرنا بها مرة بعد مرة فيقول:

﴿وَاذْكُرُوا نِعْمَةَ اللَّهِ عَلَيْكُمْ﴾ بيد أن هذه النعمة بحاجة إلى ما يكرسها وهو الميثاق الذي تعهدنا مع الله في العمل به، فمن دون الالتزام بالميثاق لا نقدر على الاستفادة من نعمة الرسالة.

﴿وَمِيثَاقَهُ الَّذِي وَاثَقَكُم بِهِ إِذْ قُلْتُمْ سَمِعْنَا وَأَطَعْنَا﴾ لابد أن نتذكر يوم الميثاق حتى لا نتصور أن نعمة الرسالة وما وراءها من نعم الحياة سوف تبقى لنا أزلية، كلا.. إنما تبقى لنا ما دمنا ملتزمين -نحن بدورنا- بالميثاق وذلك هو التقوى.

﴿وَاتَّقُوا اللَّهَ إِنَّ اللَّهَ عَلِيمٌ بِذَاتِ الصُّدُورِ﴾ فأية نية لنقض الميثاق ترصد من قبل الله، ويؤاخذ صاحبها عليه أخذاً شديداً.

بنود الميثاق

[٨] لهذا الميثاق بنود ثلاث:

الأول: العمل النشيط من أجل الله، فعلينا ألا نتوانى عن تنفيذ واجباتنا الدينية، أو مسؤولياتنا الاجتماعية خالصة لله تعالى.

إن الله لا يحب الأمة الكسولة المتخلفة التي لا تنشط في الحياة، كما لا يحب الأمة التي تنشط لا من أجل الله بل من أجل مصالحها العدوانية. إن الله يريد منا أن نكون مجتمعاً دائم الحركة والفعالية ولكن باتجاه الأهداف السامية، وهذا معنى أن نكون كما قال الله: ﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ كُونُواْ قَوَّٰمِينَ لِلَّهِ﴾ أي أن نبالغ في القيام من أجل تحقيق أهداف الرسالة المتجسدة في عمارة الأرض وإشاعة الخير في أرجائها.

الثاني: أن تكون الأمة واعية لذاتها، ولما يجري حولها، وتمتلك موقفاً سلبياً، وتعلن عن هذا الموقف بإصرار.

فالأمة التي يلفها الجهل والغيبة عن الحياة، والأمة التي لا تملك المقياس الصحيح لتقييم أحداث الحياة، والأمة التي لا تعلن عن مواقفها السليمة. إنها ليست الأمة التي يريدها الله والتي يقول عنها: ﴿شُهَدَآءَ بِٱلْقِسْطِۖ ﴾ ذلك لأن الشهادة لا تكون إلا بعد العلم بالحقيقة وبعد الاستعداد لإعلان الموقف منها.

الثالث: يجب أن تكون الأمة عادلة حتى مع أعدائها، ولا تنمو فيها الحساسيات العدائية ضد هذا أو ذاك، ولا تنجر وراء هذه الحساسيات في سلب حرية الأمم الأخرى ونهب خيراتها ﴿وَلَا يَجْرِمَنَّكُمْ شَنَـَٔانُ قَوْمٍ عَلَىٰٓ أَلَّا تَعْدِلُواْۚ ٱعْدِلُواْ هُوَ أَقْرَبُ لِلتَّقْوَىٰۖ ﴾ العدل هو أقرب وسيلة لتحقيق مرضاة الله، واتقاء عذابه، أما الظلم فهو أقرب طريق إلى النار ﴿وَٱتَّقُواْ ٱللَّهَۚ إِنَّ ٱللَّهَ خَبِيرٌۢ بِمَا تَعْمَلُونَ ﴾.

مكتسبات تنفيذ الميثاق

[٩] وبسبب تنفيذ بنود الميثاق تجازى الأمة بجائزتين:

الأولى: إصلاح ماضيها السيء، وتصفية رواسب هذا الماضي.

الثانية: ضمان مستقبلها الحافل بالخيرات في الحياة الدنيا وفي الآخرة.

﴿وَعَدَ ٱللَّهُ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَعَمِلُواْ ٱلصَّٰلِحَٰتِۙ لَهُم مَّغْفِرَةٌ وَأَجْرٌ عَظِيمٌ ﴾ والله

لايخلف وعده وقد جاءت كلمة ﴿لَهُم﴾ تأكيداً على أن الله قرر هذا الجزاء لهؤلاء قراراً نهائيًا لارجعة فيه.

[١٠] أما من خالف هذه الصفة فبدلاً من الإيمان الكفر، وبدلاً من تطبيق مناهج الإسلام بالعمل الصالح التكذيب بهذه المناهج المنزلة في آيات القرآن وبذلك فإنه من المقيمين في الجحيم ﴿وَالَّذِينَ كَفَرُوا وَكَذَّبُوا بِآيَاتِنَا أُولَٰئِكَ أَصْحَابُ الْجَحِيمِ﴾.

[١١] إن نعمة الإيمان تستقطب سائر النعم وفي طليعتها نعمة العزة والمنعة، ولقد كانت العرب في الجاهلية أذلاء يطمع فيهم كل دنيء ورديء فجاء الإيمان ونفخ فيهم روح الشجاعة والوحدة، فانتصروا على أعدائهم.

إننا يجب أن نتذكر دائما كيف كنا قبل الإيمان أذلاء وكيف أصبحنا أعزة به، ذلك لأن هذا التذكر يجعلنا نعرف أكثر فأكثر قيمة الإيمان، وننطلق إلى العمل بواجباته وفروضه، ومن أبرزها العمل ببنود الميثاق الآنف الذكر.

﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا اذْكُرُوا نِعْمَتَ اللَّهِ عَلَيْكُمْ إِذْ هَمَّ قَوْمٌ أَن يَبْسُطُوا إِلَيْكُمْ أَيْدِيَهُمْ فَكَفَّ أَيْدِيَهُمْ عَنكُمْ﴾ لأن الله قذف في قلوبهم الرعب فتولوا هاربين.

سبيل الانتصار

﴿وَاتَّقُوا اللَّهَ﴾ بتطبيق مناهجه، وتنفيذ الميثاق الذي بينكم وبينه.

﴿وَعَلَى اللَّهِ فَلْيَتَوَكَّلِ الْمُؤْمِنُونَ﴾ فلا يخشون القوى الاجتماعية المناهضة أن تنحرف بهم عن العمل بمسؤولياتهم كأمة رسالية، بل يستمرون على طريق الحق برغم ضغوط الأعداء.

إن العامل الأساسي الذي سوف يحسم الصراع القائم بين الجاهلية والإسلام هو الخوف، فإذا استرهب الجاهليون جانب المسلمين انهزموا، وهذا ما كان يحدث دائماً، أما إذا تمكن الخوف من قلوب المؤمنين فإن العدو سيهزمهم، وتقوى الله (بتنفيذ برامجه) والتوكل عليه (بالشجاعة والإقدام) هما اللذات يطردان الخوف من الأمة ويقذفان به في قلوب العدو.

الأمة التي نقضت ميثاق ربها

﴿ وَلَقَدْ أَخَذَ ٱللَّهُ مِيثَٰقَ بَنِىٓ إِسْرَٰٓءِيلَ وَبَعَثْنَا مِنْهُمُ ٱثْنَىْ عَشَرَ نَقِيبًا ۖ وَقَالَ ٱللَّهُ إِنِّى مَعَكُمْ ۖ لَئِنْ أَقَمْتُمُ ٱلصَّلَوٰةَ وَءَاتَيْتُمُ ٱلزَّكَوٰةَ وَءَامَنتُم بِرُسُلِى وَعَزَّرْتُمُوهُمْ وَأَقْرَضْتُمُ ٱللَّهَ قَرْضًا حَسَنًا لَّأُكَفِّرَنَّ عَنكُمْ سَيِّـَٔاتِكُمْ وَلَأُدْخِلَنَّكُمْ جَنَّٰتٍ تَجْرِى مِن تَحْتِهَا ٱلْأَنْهَٰرُ ۚ فَمَن كَفَرَ بَعْدَ ذَٰلِكَ مِنكُمْ فَقَدْ ضَلَّ سَوَآءَ ٱلسَّبِيلِ (١٢) فَبِمَا نَقْضِهِم مِّيثَٰقَهُمْ لَعَنَّٰهُمْ وَجَعَلْنَا قُلُوبَهُمْ قَٰسِيَةً ۖ يُحَرِّفُونَ ٱلْكَلِمَ عَن مَّوَاضِعِهِۦ ۙ وَنَسُوا۟ حَظًّا مِّمَّا ذُكِّرُوا۟ بِهِۦ ۚ وَلَا تَزَالُ تَطَّلِعُ عَلَىٰ خَآئِنَةٍ مِّنْهُمْ إِلَّا قَلِيلًا مِّنْهُمْ ۖ فَٱعْفُ عَنْهُمْ وَٱصْفَحْ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ يُحِبُّ ٱلْمُحْسِنِينَ (١٣) وَمِنَ ٱلَّذِينَ قَالُوٓا۟ إِنَّا نَصَٰرَىٰٓ أَخَذْنَا مِيثَٰقَهُمْ فَنَسُوا۟ حَظًّا مِّمَّا ذُكِّرُوا۟ بِهِۦ فَأَغْرَيْنَا بَيْنَهُمُ ٱلْعَدَاوَةَ وَٱلْبَغْضَآءَ إِلَىٰ يَوْمِ ٱلْقِيَٰمَةِ ۚ وَسَوْفَ يُنَبِّئُهُمُ ٱللَّهُ بِمَا كَانُوا۟ يَصْنَعُونَ (١٤)﴾.

هدى من الآيات:

بعد أن بين القرآن في حديثه السابق أهمية الميثاق وضرورة الالتزام ببنوده عاد ليضرب مثلاً من واقع اليهود الذين نقضوا الميثاق، ومثلاً من واقع النصارى.

أما اليهود فقد أخذ الله منهم الميثاق، وأرسل اثني عشر رئيساً عليهم -باعتبارهم يشكلون اثنتي عشرة قبيلة- وفرض عليهم في الميثاق إقامة الصلاة، وإيتاء الزكاة، والإيمان بكل الرسل والسير وراءهم، والمبالغة في عمل الخير ووعدهم إنهم إن طبقوا هذه المواثيق، فسوف

يغفر الله ذنوبهم ويدخلهم الجنة، اما من كفر فسوف تلفه الضلالة وينحرف عن السبيل.

بيد أن اليهود نقضوا الميثاق، فلعنهم الله، وأول ما جازاهم بنقض الميثاق كانت قسوة القلب التي كانت العلة في سائر المحرمات ومنها:

أولاً: تحريف آيات الكتاب وعدم الاستفادة منها عمليًّا.

ثانياً: الخيانة التي أصبحت عادة شائعة فيهم، ولذلك نصح الله رسوله بأن يعفو عنهم، ويحسن إليهم لعلهم يرجعون.

هكذا لعن الله اليهود بنقض الميثاق

أما النصارى: فإنهم لما نقضوا الميثاق أوقع الله بينهم العداوة فأخذوا يتآكلون داخليًّا، ويضرب بعضه بعضاً، وسوف يظلون هكذا إلى يوم القيامة حيث يأخذهم الله بذنوبهم أخذ عزيز مقتدر.

إن هذا كان مصير اليهود والنصارى حين نقضوا الميثاق، ولكن دعنا نعتبر منهم ونلتزم بالميثاق التزاماً شديداً.

بينات من الآيات:

ميثاق بني اسرائيل

[١٢] لكل أمة ميثاقها المرتبط بظروفها الحياتية وبحاجاتها التشريعية، وبنو إسرائيل اتخذ الله منهم ميثاقاً مرتبطاً بظروفهم يعالج مشاكلهم، وأبرز مشاكلهم التي لازمتهم خلال تاريخهم كانت مخالفتهم لرسلهم، فإذا جاءهم رسول بما لا تهوى أنفسهم خالفوه، فقتلوه أو كذبوه.

وكان اتباع وتعزير الرسل أهم بنود الميثاق، بالإضافة إلى إقامة الصلاة وإيتاء الزكاة والتضحية بمزيد من المال في سبيل الله. هذا من جانب بني إسرائيل.

وأما من جانب الله فقد وعدهم بأن يكون معهم في الدنيا، ينصرهم في الحرب، وينعم عليهم في السلم والرخاء وأن يُكفر عنهم سيئاتهم، ويدخلهم الجنة في الآخرة.

﴿ ۞ وَلَقَدْ أَخَذَ ٱللَّهُ مِيثَٰقَ بَنِيٓ إِسْرَٰٓءِيلَ وَبَعَثْنَا مِنْهُمُ ٱثْنَيْ عَشَرَ نَقِيبًا ﴾ أي

جعل الله لكل طائفة منهم نبيًا أو قائداً يدبر شؤونهم.

لنستوجب رحمة الله

- ﴿وَقَالَ ٱللَّهُ إِنِّي مَعَكُمْ﴾.
- ﴿لَئِنْ أَقَمْتُمُ ٱلصَّلَوٰةَ﴾.
- ﴿وَءَاتَيْتُمُ ٱلزَّكَوٰةَ﴾.
- ﴿وَءَامَنتُم بِرُسُلِي وَعَزَّرْتُمُوهُمْ﴾.
- ﴿وَأَقْرَضْتُمُ ٱللَّهَ قَرْضًا حَسَنًا﴾.

البند الأخير يعني: الجهاد في سبيل الله بالمال وهو يختص بالظروف الاستثنائية (كحالة الحرب أو حالة المجاعة) حيث يجب على كل فرد أن يتنازل عن حقوقه المشروعة، وبطوع إرادته من أجل الصالح العام، أما الزكاة فهي حق واجب على المؤمن أن يدفعه في الظروف العادية.

إن الميثاق كان يأمرهم بهذه البنود ويعدهم بأن يكون الله معهم في الدنيا وأن يكون جزاؤهم في الآخرة حسناً ﴿لَأُكَفِّرَنَّ عَنكُمْ سَيِّـَٔاتِكُمْ وَلَأُدْخِلَنَّكُمْ جَنَّٰتٍ تَجْرِى مِن تَحْتِهَا ٱلْأَنْهَٰرُ﴾ وجاء في الميثاق إنذار صريح لمن لا يطبقه ﴿فَمَن كَفَرَ بَعْدَ ذَٰلِكَ مِنكُمْ فَقَدْ ضَلَّ سَوَآءَ ٱلسَّبِيلِ﴾ وكيف حال من يضيع الطريق المستقيم ويتيه في الصحراء؟.

القلب والتحريف

[١٣] بيد أن أغلب بني إسرائيل خالفوا الميثاق ولعنهم الله ﴿فَبِمَا نَقْضِهِم مِّيثَٰقَهُمْ لَعَنَّٰهُمْ﴾ فأبعدهم الله عن حظيرة الإيمان، ولم تعد قلوبهم تستوعب نور معرفة الله لعظمته، وتخشى عذابه، وترجو رحمته، لم تعد نفوسهم تندفع إلى الخير، وترهب عواقب الشر، فأصبحت قلوبهم جامدة لا تهزها متغيرات الحياة، ولا تؤثر فيها الأحداث، وبالتالي أصبحت قلوبهم قاسية ﴿وَجَعَلْنَا قُلُوبَهُمْ قَٰسِيَةً﴾ إن القلب يلين بالمعرفة والموعظة ويقسو بالجهل والغفلة.. إن معرفتك بالله تجعلك تخافه وترجوه، وبين الخوف والرجاء يلين قلبك ويستعد للتفكير الموضوعي ويتقبل الحق الذي يهديه إليه تفكيرك الموضوعي ويندفع للعمل الذي يستوجبه الخوف والرجاء، القلب اللين يحب ويكره يحب ما يسبب له السعادة ويكره ما يشقيه

فالقلب اللين كأرض لينة تنبت الزرع، وتستجيب للعمران.

أما إذا جهلت الحياة، ولم تؤمن بالله، ولم تع الأخطار التي تهددك ولم تعرف المنافع التي يمكن أن تأتيك فإن قلبك يقسو ويصبح صلباً لا يتحرك لرجاء ولا يهتز لخوف، إنك تشعر وكأن الكون جامد من حولك، وأن ما عندك من خير ونعمة لا يزول أبداً، وأن ما بك من نقص أو عجز لايزول أبداً، فلماذا الخوف إذن؟ ولماذا الرجاء؟ ولماذا التفكير الموضوعي؟، وبالتالي لماذا التحرك والنشاط؟.

القلب القاسي يقبع في زنزانة الذات، ولا يرى سبباً لمعرفة الحياة ولا للتوافق مع سننها وحقائقها، إذ أنه لا يخاف ولا يرجو، ومن هنا فإنه يستهين بالعلم ويستخف بالحق وبرسالات السماء بل ويلعب بها حسبما تملي عليه أوهامه.

إنه يحرف كلام الله لأنه لا يرى قيمة لكلام الله، ولا يشعر بأنه هو الذي يجلب الخير إليه ويدفع الضر عنه، ذلك لأنه أساساً لا يعقل زوال الخير عنه، ولا خطر نزول الضربة.

من هنا لعن الله اليهود بقسوة القلب فحرفوا كلام الله ﴿يُحَرِّفُونَ ٱلْكَلِمَ عَن مَّوَاضِعِهِۦ﴾ يحرفون كل كلام عن موضعه الصحيح، ويضعونه في موضع آخر إما بتحريف الكلمة ذاتها مثل ما فعلوا بما يخص بشارة نبوة نبينا محمد ﷺ فغيروا فيها بحيث لا تتوافق ودلائل بعثته، أو بتأويل الكلمة إلى غير معانيها الأصلية.

لقد قالت اليهود: إن كل ما جاء في التوراة من ذم الربا والسحت وأكل أموال الناس بالإثم والعدوان، إنها جميعاً تختص بعلاقة اليهود ببعضهم ولا تشمل علاقة اليهود بغيرهم من الأميين حيث زعموا أنه يجوز الاعتداء عليهم.

وبذلك حرفوا الكلم النازلة حول هذه الموبقات عن مواضعها الصحيحة، وهي علاقة الناس ببعضهم (اليهود وغيرهم) إلى مواضع أخرى تتوافق مع أهدافهم الخبيثة.

ولم يكتف اليهود بتحريف الكلم، بل وحرفوا بعض بنود الرسالة لأنهم حين قست قلوبهم لم يعطوا للرسالة قيمة فحرفوا منها ما خالف أهواءهم، ولم يقل القرآن حذفوا قسماً من الرسالة بل قال: ﴿وَنَسُواْ حَظًّا مِّمَّا ذُكِّرُواْ بِهِۦ﴾ لأن الرسالة باقية لا تتغير، ولا يقدر أحد أن يحذف منها شيئاً بل هم الذين نسوا وبالتالي ابتعدوا عن بعض بنود الرسالة.

ثم عبر القرآن بكلمة ﴿حَظًّا﴾ عن جانب للدلالة على أن القسم الذي نسوه من الرسالة كان بالتالي في صالحهم كسائر أقسام الرسالة.

وأخيراً قال الله: ﴿مِّمَّا ذُكِّرُوا۟ بِهِۦ﴾ لبيان أن عقولهم كانت تتوافق مع بنود الرسالة التي كانت تذكيراً لتلك العقول، بيد أنهم أداروا ظهورهم عن هدى عقولهم أيضاً.. فلم يحفلوا بالرسالة ولا بما ذكرت به. ولم تنته فصول اللعنة التي أحاطت باليهود بسبب نقض الميثاق عند هذا الحد، بل سيطرت اللعنة على سلوكهم العام.

﴿وَلَا تَزَالُ تَطَّلِعُ عَلَىٰ خَآئِنَةٍ مِّنْهُمْ إِلَّا قَلِيلًا مِّنْهُمْ﴾ لأنهم أصيبوا بقسوة القلب، والاستخفاف بالرسالة وتحريفها، ونسيان جانب منها، فقد توغلوا في الأنانية وما الأنانية سوى وليدة الاستهانة بقيم الحق، والتمحور حول الذات.

وهذه الأنانية ولدت عندهم خيانة بعضهم البعض الآخر، لأن الأمانة تأتي نتيجة الخوف والرجاء والالتزام بالقيم والتمحور حول الحق.

أما هؤلاء فكانت قلوبهم صخرية، ولم يجدوا حتى رائحة القيم فلماذا الأمانة؟.

بيد أن خيانة هؤلاء يجب ألا تدعونا إلى خيانة مضادة، إن الأمة الإسلامية يجب أن تحتفظ بأخلاقياتها السامية عند تعاملها مع الأمم الفاسدة خلقيًّا، وإلا تكتسب منها سيئات خلقها وسلوكها.

لذلك نبه القرآن إلى ذلك بالقول: ﴿فَٱعْفُ عَنْهُمْ وَٱصْفَحْ إِنَّ ٱللَّهَ يُحِبُّ ٱلْمُحْسِنِينَ﴾ العفو: هو عدم مؤاخذة المذنب بذنبه، والصفح: هو نسيان هذا الذنب كلية، والإحسان: هو محاولة إصلاح المذنب برفع أسباب ذنبه (كالفقر والجهل أو الحقد).

النصارى النموذج الآخر

[١٤] كانت تلك قصة نقض اليهود للميثاق، أما قصة النصارى في نقض الميثاق فهي تختلف جزئيًّا في قسوة القلب فلأن رسالة المسيح عليه السلام كانت منصبة على المواعظ والترغيب والترهيب فإن النصارى لم يصابوا بلعنة قسوة القلب.

بيد أن النصارى نسوا -مثل اليهود- جانباً من رسالتهم، واتبعوا في ذلك الجانب أوهامهم وشهواتهم ومصالحهم.

ولأن البشر حين يتبعون أوهامهم وشهواتهم ومصالحهم فإنهم يختلفون فيما بينهم بسبب اختلاف الأوهام والشهوات والمصالح من طائفة لأخرى بل من شخص لآخر لذلك فقد اختلف النصارى وانتهت حياتهم إلى جحيم.

﴿وَمِنَ ٱلَّذِينَ قَالُوٓاْ إِنَّا نَصَٰرَىٰٓ أَخَذۡنَا مِيثَٰقَهُمۡ فَنَسُواْ حَظّٗا مِّمَّا ذُكِّرُواْ بِهِۦ فَأَغۡرَيۡنَا بَيۡنَهُمُ ٱلۡعَدَاوَةَ وَٱلۡبَغۡضَآءَ إِلَىٰ يَوۡمِ ٱلۡقِيَٰمَةِۚ﴾ إن التزام الأمة كلها بالميثاق، يوحدها، ويصبح الميثاق بوتقة تصهر خلافاتها ومصالحها، فإذا تركوا الميثاق عادوا إلى الخلاف الأبدي، وليس هناك ما يوحد الناس مثل الالتزام بميثاق واحد.

﴿وَسَوۡفَ يُنَبِّئُهُمُ ٱللَّهُ بِمَا كَانُواْ يَصۡنَعُونَ﴾ لأن الله مهيمن عليهم، يحصي عليهم أعمالهم، ويسجلها ليحاسبهم بها في يوم القيامة.

الإسلام بصيرة هدى ومنهاج صلاح

﴿ يَٰٓأَهۡلَ ٱلۡكِتَٰبِ قَدۡ جَآءَكُمۡ رَسُولُنَا يُبَيِّنُ لَكُمۡ كَثِيرٗا مِّمَّا كُنتُمۡ تُخۡفُونَ مِنَ ٱلۡكِتَٰبِ وَيَعۡفُواْ عَن كَثِيرٖۚ قَدۡ جَآءَكُم مِّنَ ٱللَّهِ نُورٞ وَكِتَٰبٞ مُّبِينٞ ﴿١٥﴾ يَهۡدِي بِهِ ٱللَّهُ مَنِ ٱتَّبَعَ رِضۡوَٰنَهُۥ سُبُلَ ٱلسَّلَٰمِ وَيُخۡرِجُهُم مِّنَ ٱلظُّلُمَٰتِ إِلَى ٱلنُّورِ بِإِذۡنِهِۦ وَيَهۡدِيهِمۡ إِلَىٰ صِرَٰطٖ مُّسۡتَقِيمٖ ﴿١٦﴾ لَّقَدۡ كَفَرَ ٱلَّذِينَ قَالُوٓاْ إِنَّ ٱللَّهَ هُوَ ٱلۡمَسِيحُ ٱبۡنُ مَرۡيَمَۚ قُلۡ فَمَن يَمۡلِكُ مِنَ ٱللَّهِ شَيۡـًٔا إِنۡ أَرَادَ أَن يُهۡلِكَ ٱلۡمَسِيحَ ٱبۡنَ مَرۡيَمَ وَأُمَّهُۥ وَمَن فِي ٱلۡأَرۡضِ جَمِيعٗاۗ وَلِلَّهِ مُلۡكُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلۡأَرۡضِ وَمَا بَيۡنَهُمَاۚ يَخۡلُقُ مَا يَشَآءُۚ وَٱللَّهُ عَلَىٰ كُلِّ شَيۡءٖ قَدِيرٞ ﴿١٧﴾ وَقَالَتِ ٱلۡيَهُودُ وَٱلنَّصَٰرَىٰ نَحۡنُ أَبۡنَٰٓؤُاْ ٱللَّهِ وَأَحِبَّٰٓؤُهُۥۚ قُلۡ فَلِمَ يُعَذِّبُكُم بِذُنُوبِكُمۖ بَلۡ أَنتُم بَشَرٞ مِّمَّنۡ خَلَقَۚ يَغۡفِرُ لِمَن يَشَآءُ وَيُعَذِّبُ مَن يَشَآءُۚ وَلِلَّهِ مُلۡكُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلۡأَرۡضِ وَمَا بَيۡنَهُمَاۖ وَإِلَيۡهِ ٱلۡمَصِيرُ ﴿١٨﴾﴾.

هدى من الآيات:

لقد نقضت اليهود والنصارى الميثاق، وحرفت كتبها.. فما هو العمل الآن؟ إن عليهما الالتفاف حول رسالة الله الجديدة التي لا تزال بيضاء نقية ولم تدخلها شائبة الشرك بالله.

إن هذه الرسالة أوضحت الحقائق، التي حاول أهل الكتاب إخفاءها، وإلغاء بعض الأحكام المؤقتة التي استوجبتها ظروف خاصة، وهي بالتالي نور يذكر البشر بربه ويثير دفينة

عقله، ويزكي ضميره.

كما أنها كتاب مفصل، يحمل خريطة واضحة لدروب الحياة السالكة التي طالما تاهت البشرية فيها وكانت عاقبتها الهلاك.

لقد أصبح النصارى كفاراً بسبب قولهم في المسيح: إنه هو الله، وأصبح اليهود مشركين بقولهم نحن أبناء الله، ولم يبق للبشرية رسالة نقية سوى الإسلام فلم يكن المسيح سوى عبد لله، وليس اليهود سوى بشر كسائر البشر.

أما الله فهو رب السماوات والأرض، ولا يعقل أن يتجسد في شخص المسيح، كما لا يعقل أن يتخذ اليهود أبناء له سبحانه وتعالى عما يقولون علوًّا كبيراً.

بينات من الآيات:

رسالة الله بين التجديد والتكامل

[١٥] جاءت الرسالة الإسلامية مجددة لرسالة الأنبياء من قبل ومكملة لها، أما التجديد فلأن أهل الكتاب الذين استأمنهم الله على رسالته خانوا الأمانة، وأخفوا كثيراً من بنود الرسالة التي خالفت مصالحهم، فجاءت الرسالة لتجديد التأكيد على تلك البنود لأنها كانت ضرورة اجتماعية لسائر الأفراد.

فمثلاً: أن يكون العالم الديني المطاع، زاهداً في الدنيا، راغباً فيما عند الله. إن هذا الأمر أخفاه علماء أهل الكتاب عن الجماهير، لأنه كان يتناقض مع مصالحهم العاجلة فجاء القرآن يوضح هذا الأمر ويجدد التأكيد عليه، وأن على الناس التمرد على السلطان الجائر أمر آخر أخفاه أهل الكتاب، فجاء الإسلام يظهره إظهاراً.

وجاءت الرسالة مكملة، حيث ألغت بعض الأمور الهامشية، التي اقتضى تشريعها ظروف خاصة مثل تحريم أقسام من اللحم، كان يعقوب عليه السلام قد حرمها على نفسه، فحرمها الله على بني إسرائيل مرحليًّا، لمجرد التأسي بيعقوب عليه السلام أو لتأديب بني إسرائيل، فجاء الإسلام ليعفو عن هذا التحريم ﴿ يَٰٓأَهۡلَ ٱلۡكِتَٰبِ قَدۡ جَآءَكُمۡ رَسُولُنَا يُبَيِّنُ لَكُمۡ كَثِيرٗا مِّمَّا كُنتُمۡ تُخۡفُونَ مِنَ ٱلۡكِتَٰبِ وَيَعۡفُواْ عَن كَثِيرٖ ﴾.

رسالة الله الكنز الأعظم

والرسالة السماوية نور وكتاب، نور لأنها توقد في ضمير البشر مشعل العقل فيمشي في

ظلمات الحياة بصيراً سويًّا.

إن رسالات السماء تذكر الإنسان بربه، وتفتح نوافذ بصيرته على آيات الله في الكون، إنها تذكره بعقله، وتحذره من الهوى والشهوات والغضب والغفلة، وبالتالي من كل ما يسد عليه أبواب المعرفة، ويحجب عنه أنوار العقل.

وإذا فتح عقل الإنسان، واستثيرت بصيرته، فإنه سيعرف الكثير من خفايا الحياة، سواء تلك التي أوضحتها الرسالة السماوية وفصلتها، أم لا.

بيد أن الله لا يكتفي بإعطاء البشر نوراً، بل يكمل عليهم النعمة، بأن يرسم لهم خريطة متكاملة لدروب الحياة، ويوضح لهم المسالك المهلكة، والصراط المستقيم، وذلك عبر تشريعات مفصلة، وواضحة يسميها القرآن بـ ﴿ٱلْكِتَٰبِ﴾ ويقول: ﴿قَدْ جَآءَكُم مِّنَ ٱللَّهِ نُورٌ وَكِتَٰبٌ مُّبِينٌ﴾.

كيف تستحق هدى الله؟

[١٦] بيد أن نور الله وكتابه، وبالتالي رسالته، لا تنفع إلا الذين يتبعون مناهج الله التي فيها رضوانه، فالذي يتولى عنها سوف لاتعطيه رسالة الله نوراً في القلب، ولا شريعة في الحياة.

إن عقل الإنسان يتبع إرادته، فلو أراد الإنسان أن يفهم، لتحرك نحو أسباب الفهم ولفتح عينه وسمعه وقلبه، ولبحث عن وسائل المعرفة.

أما الذي لا يريد أن يفهم، فإن عقله يدس في تراب الجهل، ويخبت نوره إلى الأبد. والذي يريد الفهم عليه أن يجهد في سبيل ذلك، بأن يبحث عن العلم، فإذا وجده عمل به، وكلما زاد عمل الإنسان في شيء زاد علمه فيه. أما من علم علماً فلم يأبه به، ولم يعمل بهداه، فإن العلم سيرتحل عنه بلا توديع، وقد جاء في الحديث عن أمير المؤمنين عليه السلام: **«الْعِلْمُ مَقْرُونٌ بِالْعَمَلِ فَمَنْ عَلِمَ عَمِلَ والْعِلْمُ يَهْتِفُ بِالْعَمَلِ فَإِنْ أَجَابَهُ وإِلَّا ارْتَحَلَ عَنْهُ»**(١).

لذلك فإن هدى الله لا يُعطى إلا لمن عمل به، واستعد لبذل الجهد في سبيل تطبيقه، فإذا فعل البشر ذلك، فسوف تتوضح له دروب السلامة في مختلف حقول الحياة، درب السلامة في: الاجتماع، ودرب السلامة في السياسة، وفي الاقتصاد وهكذا..

(١) نهج البلاغة: حكمة: ٣٦٦.

ذلك لأن لكل حقل درباً سليماً، ودروبا مهلكة، تنتهي بسالكها إلى المأساة، وهذه الدروب لا يهتدي إليها إلا العاملون فقط..

﴿ يَهْدِى بِهِ ٱللَّهُ مَنِ ٱتَّبَعَ رِضْوَٰنَهُۥ سُبُلَ ٱلسَّلَٰمِ ﴾ إن الذين يتبعون مناهج الله، يهديهم ربهم للطرق السالمة في الحياة بعيداً عن الطرق المهلكة.

﴿وَيُخْرِجُهُم مِّنَ ٱلظُّلُمَٰتِ إِلَى ٱلنُّورِ بِإِذْنِهِۦ ﴾ أي أن الله لا يكتفي بأن يرسم للبشر خريطة للحياة توضح لهم دروب السلامة بل ويعطيهم مشعل العقل والإيمان، حتى يكتشفوا هم بأنفسهم هذه الدروب، ويتسوضحوا ما خفي عنهم منها.

﴿وَيَهْدِيهِمْ إِلَىٰ صِرَٰطٍ مُّسْتَقِيمٍ ﴾ أي أن سبل السلام تنتهي بالتالي إلى صراط واحد مستقيم لا عوج فيه ولا انحراف ينتهي بصاحبه إلى الجنة.

لقد كفر الذين قالوا

[١٧] وأبرز معالم الصراط المستقيم الذي هدى الله عباده إليه، وزودهم بنور العقل للمشي فيه، إنه صراط التوحيد الخالص، بينما الطرق الأخرى إنما هي سبل الشرك، والانحراف، وقد احتاجت البشرية جميعاً، وبالذات اليهود والنصارى لهداية الله، وتجديد رسالته لهم لأنهم انحرفوا عن هذا الصراط المستقيم فقالوا أقوالاً كافرة على أنبيائهم فمثلاً قالت النصارى (أو طائفة منهم): «إن الله قد حل في المسيح حلولاً، فأصبح المسيح هو الله»؟!.

إنها كلمة كفر، وصراط أعوج. أن يكون العبد العاجز الذي لا يملك لنفسه ضرًّا ولا نفعاً، إلها يملك السماوات والأرض؟!.

أية ضلالة أكبر من هذه الضلالة! أن يتصور البشر أن واحداً مثلهم يأكل ويشرب ويمشي في الأسواق وتعتريه أسباب الضعف والعجز هو إله يملك الشمس و القمر والنجوم والكواكب؟!.

﴿ لَّقَدْ كَفَرَ ٱلَّذِينَ قَالُوٓا۟ إِنَّ ٱللَّهَ هُوَ ٱلْمَسِيحُ ٱبْنُ مَرْيَمَ ۚ قُلْ فَمَن يَمْلِكُ مِنَ ٱللَّهِ شَيْـًٔا إِنْ أَرَادَ أَن يُهْلِكَ ٱلْمَسِيحَ ٱبْنَ مَرْيَمَ وَأُمَّهُۥ وَمَن فِى ٱلْأَرْضِ جَمِيعًا ﴾ هل يملك المسيح القدرة على منع الله من إهلاكه وإهلاك أمه، والناس الذين يقولون عنه أنه إله؟! كلا.. إن المسيح أعجز من ذلك، فكيف يدعي أنه إله سبحانه الله وهل يفهم الذين يزعمون أن المسيح هو الله، هل يفهمون ما يقولون؟ هل يعرفون مقام الألوهية..

وأن الله يملك السماوات والأرض وأنه يخلق، وأنه قادر على كل شيء؟!.

إنهم لو تصوروا قليلاً ضخامة السماوات والأرض لصغرت في أعينهم شخصية المسيح على عظمته، أعادوه إلى مرتبة عبودية الله.

هذه الأرض الواسعة بما فيها من قفار شاسعة، وبحار عظيمة، وجبال راسية، وأنهار وأحياء مختلفة، هل يملكها المسيح (من دون الله) أبداً هذا غير معقول!.

وهذه الشمس العملاقة التي لو وضعت أرضنا فيها لضاعت كما تضيع حلقة صغيرة في صحراء واسعة!.

هذه المجرات التي تحتوي على ألوف الملايين من الشموس بعضها أكبر من شمسنا بحيث لو وضعت فيها شمسنا لضاعت كما تضيع حبة الرمل في الصحراء.

وهذه الملايين من المجرات التي تسبح في الفضاء اللامتناهي، التي تضيع فيها مجرتنا على ضخامتها.

كل هذه يملكها الله، أم المسيح البشر الضعيف الذي لا يكاد يملأ حيزاً من الأرض؟! ومن هو الجدير بالألوهية الله أم المسيح بن مريم؟!.

﴿وَلِلَّهِ مُلْكُ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ وَمَا بَيْنَهُمَا﴾ إن أحد الأسباب الرئيسية للكفر أو الشرك هو جهل عظمة الله، وعدم معرفة سلطانه الواسع، وملكوته العظيم، ولذلك كلما تحدث القرآن عن الشرك بين جانبا من قدرته لينتزع من قلب الإنسان أهم أسباب الشرك به ﴿يَخْلُقُ مَا يَشَاءُ وَاللَّهُ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ﴾.

[١٨] وحين قالت النصارى: إن المسيح ابن الله، أو إنه هو الله، فإن دافعهم النفسي كان التملص من مسؤوليتهم كبشر.

إنهم قالوا: إن المسيح هو الله، ونحن أتباعه المقربون إليه، فهو لن يعذبنا، بل سوف يقف حاجزاً بين رب العرش وبيننا حتى لا نعذب بذنوبنا.

وهذه هي الضلالة الكبرى التي يقع فيها البشر، فماذا ترجو من بشر لا يرى نفسه مسؤولة عن الخطيئات التي يرتكبها؟ أفترجو منه سوى الجريمة والعدوان؟.

﴿وَقَالَتِ الْيَهُودُ وَالنَّصَارَى نَحْنُ أَبْنَاءُ اللَّهِ وَأَحِبَّاؤُهُ قُلْ فَلِمَ يُعَذِّبُكُم بِذُنُوبِكُم بَلْ أَنتُم بَشَرٌ مِّمَّنْ خَلَقَ﴾ انظر كيف أن الله فضحهم وأكذب أحدوثتهم رأساً، وبلا مقدمات،

فلم يناقش مسألة أنهم أبناؤه أم لا، بل ناقش قضية المسؤولية مباشرة فقال: إن الهدف الذي تبغونه من وراء هذه الدعاوى هو الخلاص من مسؤولية أعمالكم.. كلا.. إنكم مسؤولون عنها، وأبسط دليل على ذلك مسؤوليتكم في الدنيا عن أعمالكم. إن الواحد منكم يشرب الخمر فيسكر ويجرح نفسه، أو يمرض ويموت أو ليست هذه مسؤولية مباشرة لعمل شرب الخمر، والآخر منكم يأكل الميتة وهي حرام، فيموت متأثراً بالجراثيم التي كانت فيها أو ليست هذه مسؤولية لحقت به جراء عمله إذن فأنتم مسؤولون عن أعمالكم، معذبون بسيئاتكم، وهذا أبسط دليل على أنكم كسائر البشر خلقكم الله.

﴿يَغْفِرُ لِمَن يَشَآءُ وَيُعَذِّبُ مَن يَشَآءُ﴾ بلا حتم عليه من قبل الناس أنفسهم.

وعاد القرآن وذكرنا بقدرة الله، وملكوته، لعلنا نتذكر استحالة اتخاذ الله لبعض عباده أبناء له ﴿وَلِلَّهِ مُلْكُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ وَمَا بَيْنَهُمَا﴾ ثم ذكرنا مرة أخرى بالمسؤولية أمامه، تجاه أعمالنا قائلاً: ﴿وَإِلَيْهِ ٱلْمَصِيرُ﴾ وهناك يعذب من يشاء ويغفر لمن يشاء.

بنو إسرائيل في التيه

﴿ يَٰٓأَهۡلَ ٱلۡكِتَٰبِ قَدۡ جَآءَكُمۡ رَسُولُنَا يُبَيِّنُ لَكُمۡ عَلَىٰ فَتۡرَةٖ مِّنَ ٱلرُّسُلِ (١) أَن تَقُولُواْ مَا جَآءَنَا مِنۢ بَشِيرٖ وَلَا نَذِيرٖۖ فَقَدۡ جَآءَكُم بَشِيرٞ وَنَذِيرٞۗ وَٱللَّهُ عَلَىٰ كُلِّ شَيۡءٖ قَدِيرٞ ﴿١٩﴾ وَإِذۡ قَالَ مُوسَىٰ لِقَوۡمِهِۦ يَٰقَوۡمِ ٱذۡكُرُواْ نِعۡمَةَ ٱللَّهِ عَلَيۡكُمۡ إِذۡ جَعَلَ فِيكُمۡ أَنۢبِيَآءَ وَجَعَلَكُم مُّلُوكٗا وَءَاتَىٰكُم مَّا لَمۡ يُؤۡتِ أَحَدٗا مِّنَ ٱلۡعَٰلَمِينَ ﴿٢٠﴾ يَٰقَوۡمِ ٱدۡخُلُواْ ٱلۡأَرۡضَ ٱلۡمُقَدَّسَةَ (٢) ٱلَّتِي كَتَبَ ٱللَّهُ لَكُمۡ وَلَا تَرۡتَدُّواْ عَلَىٰٓ أَدۡبَارِكُمۡ فَتَنقَلِبُواْ خَٰسِرِينَ ﴿٢١﴾ قَالُواْ يَٰمُوسَىٰٓ إِنَّ فِيهَا قَوۡمٗا جَبَّارِينَ (٣) وَإِنَّا لَن نَّدۡخُلَهَا حَتَّىٰ يَخۡرُجُواْ مِنۡهَا فَإِن يَخۡرُجُواْ مِنۡهَا فَإِنَّا دَٰخِلُونَ ﴿٢٢﴾ قَالَ رَجُلَانِ مِنَ ٱلَّذِينَ يَخَافُونَ أَنۡعَمَ ٱللَّهُ عَلَيۡهِمَا ٱدۡخُلُواْ عَلَيۡهِمُ ٱلۡبَابَ فَإِذَا دَخَلۡتُمُوهُ فَإِنَّكُمۡ غَٰلِبُونَۚ وَعَلَى ٱللَّهِ فَتَوَكَّلُوٓاْ إِن كُنتُم مُّؤۡمِنِينَ ﴿٢٣﴾ قَالُواْ يَٰمُوسَىٰٓ إِنَّا لَن نَّدۡخُلَهَآ أَبَدٗا مَّا دَامُواْ فِيهَا فَٱذۡهَبۡ أَنتَ وَرَبُّكَ فَقَٰتِلَآ إِنَّا هَٰهُنَا قَٰعِدُونَ ﴿٢٤﴾ قَالَ رَبِّ إِنِّي لَآ أَمۡلِكُ إِلَّا نَفۡسِي وَأَخِيۖ فَٱفۡرُقۡ بَيۡنَنَا وَبَيۡنَ ٱلۡقَوۡمِ ٱلۡفَٰسِقِينَ ﴿٢٥﴾ قَالَ فَإِنَّهَا مُحَرَّمَةٌ عَلَيۡهِمۡۛ أَرۡبَعِينَ سَنَةٗۛ يَتِيهُونَ (٤) فِي ٱلۡأَرۡضِۚ فَلَا تَأۡسَ عَلَى ٱلۡقَوۡمِ ٱلۡفَٰسِقِينَ ﴿٢٦﴾﴾.

---

(١) الفترة: من الفتور وهو السكون عن العمل. والفترة هنا: هي انقطاع ما بين النبيين.

(٢) المقدسة: أصل التقديس التطهير.

(٣) الجبار (في صفات الخلق): المتكبر العاتي المتمرد، وهو لله تعالى صفة تعظيم تعني الاقتدار.

(٤) يتيهون: أصل التيه التحير الذي لا يهتدي لأجله للخروج عن الطريق إلى الغرض المقصود.

هدى من الآيات:

لقد استخدم القرآن أسلوب الترغيب في الدرس السابق، لتشجيع بني إسرائيل على اتباع رسالة الإسلام.

أما في هذا الدرس، فقد استعمل التهديد المبطن، وقال: لو لم يلتف بنو إسرائيل حول الرسالة، فإن أخطاراً كبيرة تهددهم، وسوف يندمون من دون جدوى.

وضرب لهم مثلاً من تأريخهم، كيف أصابهم السوء بسبب عصيانهم أمراً من أوامر الله، وهاهم اليوم يخالفون رسالة بكاملها فماذا ينتظرون؟.

لقد أمرهم الله على لسان موسى بن عمران بأن يتذكروا نعم الله عليهم، ويلتزموا بتعهداتهم تجاه هذه النعم، ويدخلوا الأرض المقدسة سلماً أو حرباً، ولكنهم أبوا القتال، وخافوا من بطش الذين كانوا يسكنون فيها، وطالبوا نبيهم بأن يقوم هو وربه بالقتال نيابة عنهم، بيد أن الله حرم المدينة عليهم، وجعلهم يتيهون في الصحراء، أربعين سنة.

وهكذا تكون عاقبة الذين يخالفون أوامر الله، وهكذا تكون عاقبة من لا يؤمن برسالاته.

بينات من الآيات:

استمرارية الرسالات

[١٩] الرسالة السماوية مستمرة سواء في شخص الرسول أو في أوصيائه، وحملة علمه وهديه، وبالتالي فإنها لا تنقطع في أي زمان، بيد أنها قد تغتر، وتتباطأ خطواتها وتقدمها في الحياة، وحينئذ يختار الله من عباده رسولاً جديداً يعطي دفعاً لمسيرة الرسالة، ويزيل عنها فترتها وتباطؤها.

وقد جاء الرسول ﷺ وفقاً لهذه السنة الإلهية، والهدف من بعثته توضيح المسيرة للناس بعد أن طمست التحريفات معالمها.

﴿ يَٰٓأَهۡلَ ٱلۡكِتَٰبِ قَدۡ جَآءَكُمۡ رَسُولُنَا يُبَيِّنُ لَكُمۡ عَلَىٰ فَتۡرَةٖ مِّنَ ٱلرُّسُلِ ﴾ والرسالة نعمة إضافية للإنسان، فقد زود الله البشر بالعقل والعلم، وعليه أن يتجنب المهالك بهما.

ولكنه مع ذلك من عليه بالرسالة إتماماً لنعمته، وتكميلاً لفضله، لكي لا يأتي غداً ويلقي بمسؤولية هلاكه على الله سبحانه ويقول مثلاً: يا رب لماذا لم تبعث رسلاً فقد كنا غافلين جهلة وهاهو الله قد بعث الرسل: ﴿أَن تَقُولُواْ مَا جَآءَنَا مِنۢ بَشِيرٖ وَلَا نَذِيرٖۖ فَقَدۡ جَآءَكُم بَشِيرٞ وَنَذِيرٞۗ ﴾

وإذا أشهدوا على أنفسكم أن لو هلكتم فإنما بسبب عملكم وسوء اختياركم.

﴿وَٱللَّهُ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٖ قَدِيرٌ﴾ فهو قادر على أن يعذبكم متى شاء إذا خالفتم الرسل، كما هو قادر على أن يبعث عليكم رسلاً بالغيب وبصورة مخالفة لطبيعة الأشياء.

دور الأنبياء عليهم السلام ومسئوليتهم

ما هو دور الأنبياء وما هي مسؤولية الأمة تجاههم؟.

[٢٠] دور الأنبياء هو توجيه البشر إلى ما فيه خيرهم، أما مسؤولية الأمة فهي العمل بذلك التوجيه، ومن دون التوجيه لا توجد فرصة أمام الناس للعمل، ومن دون العمل لا يكفي التوجيه وحده وهذه قصة بني إسرائيل مع رسلهم.

﴿وَإِذۡ قَالَ مُوسَىٰ لِقَوۡمِهِۦ يَٰقَوۡمِ ٱذۡكُرُواْ نِعۡمَةَ ٱللَّهِ عَلَيۡكُمۡ إِذۡ جَعَلَ فِيكُمۡ أَنۢبِيَآءَ وَجَعَلَكُم مُّلُوكٗا﴾ الأنبياء عليهم السلام جاؤوا بتوصيات اتبعها الناس، فأصبحوا بسببها ملوكاً في الأرض، فلما أصبحوا ملوكاً دبت فيهم آثار الرخاء فظنوا أن وصولهم إلى الملك إنما هو من أنفسهم أو من الله، ولكن بسبب أن الله فضل عنصرهم على غيرهم تفضيلاً عبثاً وبدون حكمة، لذلك أوصاهم موسى عليه السلام بتذكر نعمة النبوة وأنها لو أهملت فإن الملك سوف ينزاح عنهم إلى غيرهم.

﴿وَءَاتَىٰكُم مَّا لَمۡ يُؤۡتِ أَحَدٗا مِّنَ ٱلۡعَٰلَمِينَ﴾ ليس عبثاً! بل بسبب اتباعكم للرسل الذين جعل الله فيكم.

[٢١] بعد أن بين موسى عليه السلام لقومه دور الأنبياء عليهم السلام ومسؤولية الأمة تلقاء الأنبياء، وبعد أن ذكرهم بأن في اتباع الأنبياء يصبح بنو إسرائيل ملوكاً في الأرض، أمرهم بدخول الأرض المقدسة (فلسطين) بعد أن قادهم من مصر عبر البحر إلى تلك الأرض، وكان أمر موسى عليه السلام حازماً يشبه الأوامر العسكرية إذ قال: ﴿يَٰقَوۡمِ ٱدۡخُلُواْ ٱلۡأَرۡضَ ٱلۡمُقَدَّسَةَ ٱلَّتِي كَتَبَ ٱللَّهُ لَكُمۡ وَلَا تَرۡتَدُّواْ عَلَىٰٓ أَدۡبَارِكُمۡ فَتَنقَلِبُواْ خَٰسِرِينَ﴾ إن الله كتب لبني إسرائيل آنئذ بدخول فلسطين، لأنهم كانوا يمثلون الأمة المؤمنة الوحيدة ولأن حكام فلسطين كانوا قوماً جبارين يفسدون في الأرض.

ثم حذرهم موسى من أن رجوعهم يسبب لهم الخسارة.

التبرير أفيون الحضارة

[٢٢] أما رد بني إسرائيل فكان جباناً بما فيه الكفاية، وفوق ذلك وعلى أساس فكري فهو خاطئ، وهو أن على الأنبياء عليهم السلام أن يهيئوا غيبيًّا كل وسائل التقدم المادي بعيداً عن جهد

البشر ولذلك قال بنوا إسرائيل وبلا خجل: ﴿ قَالُواْ يَٰمُوسَىٰٓ إِنَّ فِيهَا قَوْمًا جَبَّارِينَ ﴾.

وإنما كرروا كلمة موسى استعطافاً وتذكيراً بدوره الغيبي في عبور البحر، وهلاك فرعون، ولذلك شبهوا حكام فلسطين بحاكم مصر السابق، وأن كليهما كان جباراً.

﴿وَإِنَّا لَن نَّدْخُلَهَا حَتَّىٰ يَخْرُجُواْ مِنْهَا فَإِن يَخْرُجُواْ مِنْهَا فَإِنَّا دَٰخِلُونَ ﴾ وكأن دخولهم المدينة بعد خروج الجبارين منة منهم على الله، أو أنها طاعة يبتغون من ورائها ثواباً منه. والواقع أن هذا تفكير موجود عند كثير من الناس، إنهم يتبعون الأنبياء عليهم السلام فقط فيما يخدم شهواتهم العاجلة، ثم يعتبرون ذلك عملاً عظيماً.

[٢٣] بعد جوابهم الفاتر لأمر موسى عليه السلام سكت عنهم، وتولى مهمة إقناعهم بعض الحواريين من أصحابه.

﴿ قَالَ رَجُلَانِ مِنَ ٱلَّذِينَ يَخَافُونَ أَنْعَمَ ٱللَّهُ عَلَيْهِمَا ٱدْخُلُواْ عَلَيْهِمُ ٱلْبَابَ فَإِذَا دَخَلْتُمُوهُ فَإِنَّكُمْ غَٰلِبُونَ ﴾ إذ أنكم أنتم أصحاب الحق وإنكم تتبعون آنئذ خطة المبادرة بالهجوم، وتملكون ناصية الموقف بالإقدام، ثم إنكم تهدفون من وراء الحرب تحرير شعب هذه المدينة من أيدي الجبارين، وبذلك تنتصرون عليهم، بتعاون الشعوب معكم ضد الجبارين.

﴿وَعَلَى ٱللَّهِ فَتَوَكَّلُوٓاْ إِن كُنتُم مُّؤْمِنِينَ ﴾ ذلك أن التوكل على الله يزيدكم ثقة وروحاً معنوية عالية.

القيادة مشعل هداية لا واقع تبرير

[٢٤] لقد كان هذا الرأي موقف رجلين فقط منهم، حيث حاولا إقناع الآخرين بضرورة اتباع أوامر الرسول، أما الأكثرية الساحقة فقد خالفت انطلاقاً من فكرة سلبية متخلفة، حيث زعموا أن على الله أن يوفر لهم النصر ويقدمه إليهم في طبق من ذهب.

﴿قَالُواْ يَٰمُوسَىٰٓ إِنَّا لَن نَّدْخُلَهَآ أَبَدًا مَّا دَامُواْ فِيهَا ﴾ واستخدموا أنواعاً من التأكيد اللفظي في رفض دخولهم المدينة لقتال الجبارين فيها فقالوا: ﴿لَن﴾ الدالة على نفي الأبد، وأضافوا إليها كلمة أبداً للدلالة على أن كل المحاولات المبذولة لإقناعهم بضرورة الجهاد، ستذهب سدى، وان الحل الوحيد هو صنع النصر وإعطاؤهم إياه جاهزاً.

﴿فَٱذْهَبْ أَنتَ وَرَبُّكَ فَقَٰتِلَآ إِنَّا هَٰهُنَا قَٰعِدُونَ ﴾ إن نظرة الناس إلى الدين تختلف اختلافاً يكاد يكون متناقضاً فبينما يؤمن البعض بالدين ليجدوا فيه برنامجاً للعمل الصادق،

وأسلوباً للتضحية السخية، وقيادة رشيدة للجهاد من أجل التحرر والتطوير، نجد آخرين يؤمنون بالدين وبالقيادة الدينية لتحمل عنهم مشاكل الحياة وتقوم بدلاً عنهم بالعمل من أجل حلها.

وإذا لم تحل مشاكلهم بالدين صبوا عليه جام غضبهم، وكفروا به وبقيادته كما يفعل المسلمون اليوم الذين نبذوا الدين لأنه لم يمنحهم التقدم، بينما السبب في تخلفهم إنما هو تقاعسهم عن العمل الصادق.

النصارى الذين زعموا أن المسيح يفديهم بنفسه ويخلصهم من شرور أنفسهم، ومن سيئات أعمالهم كانوا من هذا النوع، واليهود الذين وكلوا الله عنهم في الحرب كانوا هكذا أيضاً من أصحاب هذه الفكرة.

بينما المسلمون الصادقون استجابوا للرسول ﷺ عندما شاورهم في الحرب (في بدر) فقال له المقداد: «يَا رَسُولَ الله ﷺ إِنَّهَا قُرَيْشٌ وَخُيَلاؤُهَا وَقَدْ آمَنَّا بِكَ وَصَدَّقْنَاكَ وَشَهِدْنَا أَنَّ مَا جِئْتَ بِهِ حَقٌّ مِنْ عِنْدِاللهِ وَاللهِ لَوْ أَمَرْتَنَا أَنْ نَخُوضَ جَمْرَ الْغَضَا وشَوْكَ الْهَرَاسِ لَخُضْنَا مَعَكَ وَلَا نَقُولُ لَكَ مَا قَالَتْ بَنُو إِسْرَائِيلَ لِمُوسَى ﴿فَٱذْهَبْ أَنتَ وَرَبُّكَ فَقَـٰتِلَآ إِنَّا هَـٰهُنَا قَـٰعِدُونَ﴾ وَلَكِنَّا نَقُولُ: اذْهَبْ أَنْتَ وَرَبُّكَ فَقَاتِلَا إِنَّا مَعَكُمَا مُقَاتِلُون»[1].

[٢٥] إن اتباع القيادة بصدق هو هذا الاتباع لا ذاك، لذلك تبرأ موسى من قومه، وقال: ﴿قَالَ رَبِّ إِنِّي لَآ أَمْلِكُ إِلَّا نَفْسِي وَأَخِيۖ فَٱفْرُقْ بَيْنَنَا وَبَيْنَ ٱلْقَوْمِ ٱلْفَـٰسِقِينَ﴾ إن أخطر بلاء ينزل على الأمة اللامسؤولة التي تلقي بأعبائها على كاهل قيادتها وتتقاعس عن العمل هو: حرمانها من تلك القيادة، حيث ينفصل عنها قادتها المصلحون بعد التأكد من أن لا رجاء في إصلاحهم. لقد تبرأ موسى من قومه وانفصل عنهم ورماهم بالفسق.

[٢٦] أما الجزاء الثاني: فهو البقاء في التخلف لأن هذه الأمة لم ترض بدفع ضريبة التقدم وهي الجهاد، لذلك كان جزاء بني إسرائيل عندما تقاعسوا عن حرب الجبارين أن بقوا في التيه، كما أن جزاء كل أمة لاتتبع قيادتها الرسالية، هو بقاؤها في مستنقع الضلالة والتخلف حتى تعرف أهمية القيادة، وتعود إلى رشدها ﴿قَالَ فَإِنَّهَا مُحَرَّمَةٌ عَلَيْهِمْۛ أَرْبَعِينَ سَنَةًۛ يَتِيهُونَ فِي ٱلْأَرْضِۚ فَلَا تَأْسَ عَلَى ٱلْقَوْمِ ٱلْفَـٰسِقِينَ﴾ إن موسى عليه السلام تبرأ من قومه وطلب من ربه بأن يفرق بينهم وبينه، وقد استجاب له الله عز وجل وطلب منه أن ينسى هموم قومه، ولا يأسف على ما يصل إليهم.

---

(١) بحار الأنوار: ج١٩ ص٢٤٧.

دوافع الصراع وآثاره النفسية

﴿ ۞ وَٱتْلُ عَلَيْهِمْ نَبَأَ ٱبْنَيْ ءَادَمَ بِٱلْحَقِّ إِذْ قَرَّبَا قُرْبَانًا[1] فَتُقُبِّلَ مِنْ أَحَدِهِمَا وَلَمْ يُتَقَبَّلْ مِنَ ٱلْآخَرِ قَالَ لَأَقْتُلَنَّكَ قَالَ إِنَّمَا يَتَقَبَّلُ ٱللَّهُ مِنَ ٱلْمُتَّقِينَ ﴿٢٧﴾ لَئِنۢ بَسَطتَ إِلَيَّ يَدَكَ لِتَقْتُلَنِي مَآ أَنَا۠ بِبَاسِطٍ[2] يَدِيَ إِلَيْكَ لِأَقْتُلَكَ إِنِّيٓ أَخَافُ ٱللَّهَ رَبَّ ٱلْعَٰلَمِينَ ﴿٢٨﴾ إِنِّيٓ أُرِيدُ أَن تَبُوٓأَ[3] بِإِثْمِي وَإِثْمِكَ فَتَكُونَ مِنْ أَصْحَٰبِ ٱلنَّارِ وَذَٰلِكَ جَزَٰٓؤُاْ ٱلظَّٰلِمِينَ ﴿٢٩﴾ فَطَوَّعَتْ[4] لَهُۥ نَفْسُهُۥ قَتْلَ أَخِيهِ فَقَتَلَهُۥ فَأَصْبَحَ مِنَ ٱلْخَٰسِرِينَ ﴿٣٠﴾ فَبَعَثَ ٱللَّهُ غُرَابًا يَبْحَثُ[5] فِي ٱلْأَرْضِ لِيُرِيَهُۥ كَيْفَ يُوَٰرِي[6] سَوْءَةَ أَخِيهِ[7] قَالَ يَٰوَيْلَتَىٰٓ[8] أَعَجَزْتُ أَنْ أَكُونَ مِثْلَ هَٰذَا ٱلْغُرَابِ فَأُوَٰرِيَ سَوْءَةَ أَخِي فَأَصْبَحَ مِنَ ٱلنَّٰدِمِينَ ﴿٣١﴾ مِنْ أَجْلِ ذَٰلِكَ كَتَبْنَا عَلَىٰ بَنِيٓ إِسْرَٰٓءِيلَ أَنَّهُۥ مَن قَتَلَ نَفْسًۢا بِغَيْرِ نَفْسٍ أَوْ فَسَادٍ فِي ٱلْأَرْضِ فَكَأَنَّمَا قَتَلَ ٱلنَّاسَ جَمِيعًا وَمَنْ أَحْيَاهَا فَكَأَنَّمَآ أَحْيَا ٱلنَّاسَ جَمِيعًا وَلَقَدْ جَآءَتْهُمْ رُسُلُنَا بِٱلْبَيِّنَٰتِ ثُمَّ إِنَّ كَثِيرًا مِّنْهُم بَعْدَ ذَٰلِكَ فِي ٱلْأَرْضِ لَمُسْرِفُونَ ﴿٣٢﴾ ﴾.

---

(١) قرباناً: القربان ما يقصد به القرب من رحمة الله من أعمال البر.
(٢) بسطت: البسط: المد وهو ضد القبض.
(٣) تبوء: ترجع.
(٤) فطوعت: انقادت له وسولت.
(٥) البحث: طلب الشيء في التراب.
(٦) يواري: يقال واريت كذا إذا سترته، وتوارى استتر.
(٧) سوءة أخي: جيفته أو عورته.
(٨) الويل: كلمة تقال عند الهلكة (للذم).

هدى من الآيات:

قصة ابني آدم تحتوي على عبر حقة، فبالإضافة إلى أنها بذاتها قصة واقعية، فإن الهدف منها واقعي وحق، وهو تحقيق السلام بين أبناء آدم عليه السلام.

وكما لا نرضى أن يعتدي أخ على أخيه وكلاهما ابنان لآدم، كذلك علينا أن لانرضى اعتداء بشر على بشر، لأنهما من أبناء آدم وهما بالتالي أخوان.

بينات من الآيات:

الاستعلاء في قصة الاعتداء الأول

[٢٧] ﴿ ۞ وَٱتۡلُ عَلَيۡهِمۡ نَبَأَ ٱبۡنَيۡ ءَادَمَ بِٱلۡحَقِّ إِذۡ قَرَّبَا قُرۡبَانٗا﴾ وضحيا بأضحية في سبيل الله.

﴿فَتُقُبِّلَ مِنۡ أَحَدِهِمَا وَلَمۡ يُتَقَبَّلۡ مِنَ ٱلۡأٓخَرِ قَالَ لَأَقۡتُلَنَّكَۖ﴾ إن الدافع الذي بعث قابيل إلى ارتكاب أول جريمة قتل في تأريخ البشرية هو الحسد، وغريزة الحرص على التفوق والاستعلاء.

إن البشرية بإمكانها أن تتقاسم بينها خيرات الأرض دون الحاجة إلى الاقتتال، إذ أن الله وفر للبشرية ضرورات حياتها فهي لا تحتاج إلى الصراع مع بعضها من أجل الحصول على هذه الضرورات.

ولكن الحروب إنما كانت من ثورة غريزة الاستعلاء الشيطانية التي يجب لجمها وتحديدها.

إن قابيل لم يقتل أخاه من أجل الصراع على البقاء كما يزعم المذهب الدارويني، ولا من أجل الحصول على بنت أجمل كما يزعم المذهب الفرويدي، ولا من أجل سوء التربية وضغوط الاجتماع، أو الصراع الطبقي أو غيرها مما تزعمها المذاهب الاجتماعية المختلفة، كلا، ولكنه قتله لحب الاستعلاء والحسد، وإذا سيطرت البشرية على غريزة الاستعلاء في ذاتها فقد وفقت للعيش بسلام مع بعضها وانتزعت من نفسها فتيل الحروب.

لقد كان موقف هابيل أمام التهديد بالاعتداء موقف المسالم ﴿قَالَ إِنَّمَا يَتَقَبَّلُ ٱللَّهُ مِنَ ٱلۡمُتَّقِينَ﴾.

عبرتان

الأولى: إن كثيراً من الحروب تقع بدافع الخوف من الاعتداء فمثلاً: تخشى دولة معينة من

اعتداء جارتها عليها، فتتسلح، وحين ترى جارتها عملية التسلح تخشى هي بدورها فتتسلح هي الأخرى فتخشى إحداهما من مبادرة الأخرى بالهجوم فتهجم، فتدافع الأخرى عن ذاتها، وبالتالي تجد أن كلتا الدولتين أقحمت في أتون الحرب من دون إرادة مسبقة لها، بل استسلاماً لدافع الخوف.

من هنا توحي إلينا قصة ابني آدم بأن الخوف من الاعتداء، ليس سبباً معقولاً للاعتداء حيث أن هابيل (القتيل) أجاب على التهديد بالقتل بكلام تربوي، وصرح بعدئذ (في الآية التالية) بأنه لن يمد يده لقتل أخيه.

الثانية: إن الاستعلاء ليس طريقاً للعلو فمن يريد الصعود إلى الجبل لا يكفيه أن يقف على السفح ويمني نفسه بالصعود، أو يعارض من يصعد، بل عليه أن يحرك نفسه ويعمل على تغيير ذاته حتى يصعد. والله لا يتقبل عمل أحد، وبالتالي لا يباركه، ولا يوفقه للنجاح إذا لم يغير ذاته ويتق الله.

فمن يعمل من أجل تحصيل العلم ثم لا يصل إليه، ويرى الآخرين أصبحوا علماء فليس الطريق الأفضل له أن يعارض العلماء ويناصبهم العداء، بل من الأفضل والأنفع له أن يراجع نفسه ليجد أن فيها خللاً ما منعه عن الوصول إلى العلم، فيصححه، وهكذا إذن يكون منطلق التقدم هو هذا المبدأ ﴿إِنَّمَا يَتَقَبَّلُ ٱللَّهُ مِنَ ٱلْمُتَّقِينَ﴾ إذ أنهم وحدهم الذين يصلحون أنفسهم فيساعدهم الله على ذلك.

[٢٨] ﴿لَئِنۢ بَسَطتَ إِلَىَّ يَدَكَ لِتَقْتُلَنِى مَآ أَنَا۠ بِبَاسِطٍ يَدِىَ إِلَيْكَ لِأَقْتُلَكَ﴾.

وبذلك صرح القرآن بأن التهديد ليس مسوغاً للمبادرة بالجريمة، وإذا استطاع الإنسان أن يقاوم إغراء التهديد فلا يقتل الناس ولا يشن الحروب الابتدائية ضد الآخرين، لأن نصف الحروب تصبح بلا مبرر وبلا دافع إليها. إذن فما الذي يساعدنا على ضبط الشعور بالخوف من الآخرين، وبالتالي تحديد غريزة المبادرة بعد التهديد؟.

الجواب: هو الخوف من الله فهو خوف يقاوم الخوف من البشر، فلأنك تخشى الناس تريد أن تشن الحرب عليهم ولكنك من جهة أخرى تخاف الله فتحجم عن شن الحرب على عباده، ولذلك قال هابيل: ﴿إِنِّىٓ أَخَافُ ٱللَّهَ رَبَّ ٱلْعَٰلَمِينَ﴾ ولأن الله هو رب العباد فهو يحبهم، ولا يرضى لواحد أن يعتدى عليهم.

وكلمة أخيرة: إن هذا الموقف من هابيل لايدل على الاستسلام للظلم فالإسلام يأمر بكل وضوح وجدية بضرورة مقاومة الظالمين، ولكن بعد أن يبدؤوا فعلاً في ظلمهم أو فيما يؤدي إليه بالتأكيد.

وهابيل لم يكن يصدق أن قابيل قاتله، بل ربما كان يظن أن كلامه كان مجرد تهديد أو لا أقل كان يحتمل ذلك، وقد قتل غيلة.

[٢٩] ثم قال هابيل الذي لم يشأ أن يصبح المجرم. حتى ولو كان ذلك يؤدي به إلى أن يصبح الضحية: ﴿ إِنِّيٓ أُرِيدُ أَن تَبُوٓأَ بِإِثۡمِي وَإِثۡمِكَ ﴾ حيث أن القاتل بغير حق سيتحمل أوزار القتيل يوم القيامة، بينما يغفر الله للقتيل ذنوبه رحمة به.

﴿فَتَكُونَ مِنۡ أَصۡحَٰبِ ٱلنَّارِۚ وَذَٰلِكَ جَزَٰٓؤُاْ ٱلظَّٰلِمِينَ﴾ حيث يتضاعف إثمهم بسبب ظلمهم للناس.

[٣٠] النفس الأمارة بالسوء تُهوِّن في عين الإنسان الجرائم الكبيرة إرضاء للشهوات العاجلة، وقابيل كان يستعظم في البدء الاعتداء على حياة أخيه، حيث أودع الله في فطرة الإنسان احترام الحياة وتكريم الآخرين، بيد أن نفسه طوعت له، وذللت هذه الجريمة.

﴿ فَطَوَّعَتۡ لَهُۥ نَفۡسُهُۥ قَتۡلَ أَخِيهِ فَقَتَلَهُۥ فَأَصۡبَحَ مِنَ ٱلۡخَٰسِرِينَ﴾ خسر فطرته النقية، وخسر أخاه الكريم، وخسر حياته الهادئة، وخسر مستقبله في الآخرة.

[٣١] قتل أخاه وتورط في الأمر، ماذا يفعل بجسد أخيه.. بهذه العلامة الواضحة لجريمته؟!. وهنا بعث الله غُراباً، يثير الأرض بمنقاره فانهار كبرياء قابيل الكاذب، وتهاوى صرح غروره، وعادت إليه فطرته، وقد خمدت جذوة الغضب السابقة التي كانت قد حجبت عنه عقله، وقال لنفسه: كم أنا عاجز وكم كنت مغروراً بنفسي فهذا الغراب عرَّفني كيف أدفن جسد أخي! ﴿فَبَعَثَ ٱللَّهُ غُرَابٗا يَبۡحَثُ فِي ٱلۡأَرۡضِ لِيُرِيَهُۥ كَيۡفَ يُوَٰرِي سَوۡءَةَ أَخِيهِۚ قَالَ يَٰوَيۡلَتَىٰٓ أَعَجَزۡتُ أَنۡ أَكُونَ مِثۡلَ هَٰذَا ٱلۡغُرَابِ فَأُوَٰرِيَ سَوۡءَةَ أَخِيۖ فَأَصۡبَحَ مِنَ ٱلنَّٰدِمِينَ﴾.

[٣٢] أرأيت كيف قضى قابيل على حياة أخيه، وكيف ندم على فعلته دون أن ينفعه الندم؟، أرأيت كم هي عظيمة ومؤلمة جريمة القتل؟، لذلك احترمت الشرائع السماوية حياة الإنسان وجعلت حياة كل فرد مساوية لحياة الناس جميعا. ﴿مِنۡ أَجۡلِ ذَٰلِكَ كَتَبۡنَا عَلَىٰ بَنِيٓ إِسۡرَٰٓءِيلَ أَنَّهُۥ مَن قَتَلَ نَفۡسَۢا بِغَيۡرِ نَفۡسٍ أَوۡ فَسَادٖ فِي ٱلۡأَرۡضِ﴾ حيث يجوز القتل قصاصاً أو لمنع الفساد كما يُبينه الدرس القادم، أما في غير ذلك فإن قتل نفس واحدة، تكون بمثابة قتل النفوس جميعاً ﴿فَكَأَنَّمَا قَتَلَ ٱلنَّاسَ جَمِيعٗا وَمَنۡ أَحۡيَاهَا فَكَأَنَّمَآ أَحۡيَا ٱلنَّاسَ جَمِيعٗاۚ﴾ إن احترام الحياة عند الشرائع السماوية والإسلام بالذات، لا تعود إلى حياة هذا الشخص أو ذاك، بل إلى الحياة كحياة أيًّا كانت خصائصها وميزاتها، لا فرق بين الطفل الرضيع، ورئيس البلاد، أو بين المؤمن الصالح أو الإنسان العادي، أو بين عدوي وصديقي، المهم أن

الحياة محترمة، ولو استهان المجتمع بحياة واحد منهم فإن الحياة كلها في خطر.

﴿وَلَقَدْ جَآءَتْهُمْ رُسُلُنَا بِٱلْبَيِّنَٰتِ ثُمَّ إِنَّ كَثِيرًا مِّنْهُم بَعْدَ ذَٰلِكَ فِى ٱلْأَرْضِ لَمُسْرِفُونَ﴾ يتجاوزن حدودهم، حتى ينتهي ذلك بهم إلى الجريمة الفاحشة.

جزاء المحارب

﴿ إِنَّمَا جَزَٰٓؤُاْ ٱلَّذِينَ يُحَارِبُونَ ٱللَّهَ وَرَسُولَهُۥ وَيَسۡعَوۡنَ فِي ٱلۡأَرۡضِ فَسَادًا أَن يُقَتَّلُوٓاْ أَوۡ يُصَلَّبُوٓاْ أَوۡ تُقَطَّعَ أَيۡدِيهِمۡ وَأَرۡجُلُهُم مِّنۡ خِلَٰفٍ أَوۡ يُنفَوۡاْ[1] مِنَ ٱلۡأَرۡضِۚ ذَٰلِكَ لَهُمۡ خِزۡيٞ[2] فِي ٱلدُّنۡيَاۖ وَلَهُمۡ فِي ٱلۡأٓخِرَةِ عَذَابٌ عَظِيمٌ (٣٣) إِلَّا ٱلَّذِينَ تَابُواْ مِن قَبۡلِ أَن تَقۡدِرُواْ عَلَيۡهِمۡۖ فَٱعۡلَمُوٓاْ أَنَّ ٱللَّهَ غَفُورٞ رَّحِيمٞ (٣٤) ﴾

هدى من الآيات:

في الآيات السابقة تحدث القرآن الحكيم عن القتل الذي يقع بسبب الفساد في الأرض، وفي هذا الدرس يفصل الحديث ويبين ضرورة قتل هذه الفئة المفسدة أو صلبهم أو إخراجهم من الأرض، إلا أن الله يذكرنا بأن العقوبة لا تكفي وحدها في ردع المجرمين، بل لابد أن يعرف المجرم أن جزاء عمله الحقيقي هو عذاب الله في يوم القيامة، ثم يفتح الله باب رحمته حين يلغي العقوبة لأولئك الذين يتوبون قبل أن يقدر عليهم النظام الإسلامي، وهذا بدوره طريق لردع المجرمين عن التمادي في فسادهم.

بينات من الآيات:

الجريمة والعقاب

[٣٣] ﴿ إِنَّمَا جَزَٰٓؤُاْ ٱلَّذِينَ يُحَارِبُونَ ٱللَّهَ وَرَسُولَهُۥ وَيَسۡعَوۡنَ فِي ٱلۡأَرۡضِ فَسَادًا ﴾.

ما هي محاربة الله عزوجل ورسوله صلى الله عليه وآله؟.

---

(١) ينفوا: النفي هو الطرد.

(٢) الخزي: الفضيحة.

إن محاربة الله ليست بشهر السلاح ضده سبحانه، كما أن محاربة الرسول ﷺ ليست دائما بشهر السلاح ضده، إنما المحاربة الحقيقية هي: مقاومة النظام الإسلامي الذي يقوده الرسول أو خلفاؤه مقاومة مسلحة، مما يسبب الفساد في الأرض وتغييرا في النظام الذي يصلح الأشياء.

إن فساد المجتمع هو: تغيير نظامه القائم، وإشاعة الفوضى فيه، وتعكير صفو الأمن، وإفساد الزراعة بتغيير نظام الري والمساقاة فيها، وعدم تطبيق واجبات الزراعة من تسميد وتشذيب، واختيار الموسم المناسب.

ومثل الزراعة الصناعة والتجارة وغيرها من حقول الحياة المختلفة، وجزاء من يشيع الفساد بمقاومة الأنظمة الطبيعية أو التشريعية التي وضعها الله سبحانه هو واحد من الأمور التالية: إما القتل بالسيف أو الصلب أو قطع الأيدي والأرجل من اليمين واليسار، وإما إخراجهم من الأرض.

﴿أَن يُقَتَّلُوٓاْ أَوۡ يُصَلَّبُوٓاْ أَوۡ تُقَطَّعَ أَيۡدِيهِمۡ وَأَرۡجُلُهُم مِّنۡ خِلَٰفٍ أَوۡ يُنفَوۡاْ مِنَ ٱلۡأَرۡضِۚ ذَٰلِكَ لَهُمۡ خِزۡيٞ فِي ٱلدُّنۡيَاۖ﴾ وهؤلاء الذين يقاومون النظام الصالح بالقوة إنما يطغون طمعا في العزة، وهذه العقوبات تسبب لهم خزيا وذلة وصغارا..

﴿وَلَهُمۡ فِي ٱلۡأٓخِرَةِ عَذَابٌ عَظِيمٌ﴾ فإن لم يرتدعوا بالعقوبة الدنيوية أو يزعموا أنهم يفلتون من يد العدالة في الدنيا، فإن الآخرة قريبة، وعذاب الله العظيم ينتظرهم.

الهروب إلى التوبة أسلم

[٣٤] ويفتح الله أمام المفسدين في الأرض باب التوبة لكي يرجعوا إلى رشدهم ولا يهرقوا دماء أبناء الأمة، ويقول سبحانه: ﴿إِلَّا ٱلَّذِينَ تَابُواْ مِن قَبۡلِ أَن تَقۡدِرُواْ عَلَيۡهِمۡۖ فَٱعۡلَمُوٓاْ أَنَّ ٱللَّهَ غَفُورٞ رَّحِيمٞ﴾ وأمر قبول توبة هؤلاء أو ردها إنما هو إلى الإمام الذي يمثل القائد الأعلى للدولة، لأنه قد لا تكون التوبة إلا تكتيكاً مؤقتاً لجمع السلاح والأموال للعودة إلى القتال.

وكلمة أخيرة: إن هذه الفئة تشمل قطاع الطرق والمتمردين ضد النظام الإسلامي بالسلاح، كما تشمل القوات المسلحة التي تدعم أنظمة الطاغوت المستبدة بمصير الشعوب، والمفسدة في الأرض لذلك لو انتصرت الأمة الإسلامية، سيكون لها الحق في ملاحقة هؤلاء جميعاً بتهمة الفساد في الأرض، ومحاربة الله ورسوله، والنظام الإسلامي الصالح، وبالتالي انزال أشد العقوبات عليهم، ومثل القوات المسلحة، كل أركان الأنظمة الطاغوتية مثل كبار رجال الأمن، والإعلام، والوزراء العاملين بالفساد.

الحسرة الكبرى

﴿ يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا اتَّقُوا اللَّهَ وَابْتَغُوا إِلَيْهِ الْوَسِيلَةَ [1] وَجَاهِدُوا فِي سَبِيلِهِ لَعَلَّكُمْ تُفْلِحُونَ (٣٥) إِنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا لَوْ أَنَّ لَهُمْ مَا فِي الْأَرْضِ جَمِيعًا وَمِثْلَهُ مَعَهُ لِيَفْتَدُوا بِهِ مِنْ عَذَابِ يَوْمِ الْقِيَامَةِ مَا تُقُبِّلَ مِنْهُمْ وَلَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ (٣٦) يُرِيدُونَ أَنْ يَخْرُجُوا مِنَ النَّارِ وَمَا هُمْ بِخَارِجِينَ مِنْهَا وَلَهُمْ عَذَابٌ مُقِيمٌ (٣٧) ﴾

هدى من الآيات:

إن النظام الإسلامي الذي يصلح الأرض وما فيها بحاجة إلى التعهد والالتزام والتقوى وبحاجة إلى النشاط في سبيل الله بهدف الوصول إلى رضوانه، وإلى الكمال الرفيع الذي هو فيه سبحانه، وبحاجة إلى الجهاد ومقاومة العقبات البشرية والطبيعية التي تعترض طريق تطبيق النظام، هذه الشروط لو توفرت لأثمرت بالفلاح والحياة السعيدة.

أما الذين لا يطبقون هذا النظام الصالح، ويكفرون به، فإن عذاب الله ينتظرهم ولا مناص لهم حتى لو دفعوا كل أموالهم فدية ليتخلصوا منه، إنهم يحاولون عبثاً بصورة مستمرة التخلص منه، ولكن عذاب الله مقيم دائم.

بينات من الآيات:

حقيقة النظام الإسلامي

[٣٥] النظام الإسلامي الذي يعبر عن وحي الفطرة وسنن الحياة، لا يمكن تطبيقة

(١) الوسيلة: الوصلة والقربة.

بالقوة، بل بالالتزام الذاتي (وهو التقوى) بالحذر من عذاب الله يتجنب الفرد المزالق التي تؤدي به إلى الهلاك.

الكمال المنشود

﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ ٱتَّقُواْ ٱللَّهَ ﴾ والتقوى يجب ألا تكون طريقاً إلى الجمود والسكون، بل وسيلة للتحرك المستمر للوصول إلى الكمال الأرفع، الذي هو عند الله سبحانه، فلله الأسماء الحسنى، والكون كله يسعى من أجل الكمال الذي لا يبلغ إلا عند ربه، ولذلك نجد موكب الوجود متصاعداً إلى ذلك الرفيق الأعلى، والإنسان لا يشذ عن هذه الحركة لو سلمت فطرته الأولية، فهو بفطرته يسعى من أجل العلم والقدرة والمحبة والجمال وسائر الأسماء الحسنى التي هي لله وحده.

وعلى البشر ألا يترك طريقه يمكن أن تصل به إلى تلك الأسماء إلا اتبعها وسار فيها دون أي توان أو كسل، لأن ذلك هو الهدف الأسمى له في الحياة، إن النشاط المكثف والحركة الدائمة في طريق الله وبلوغ أسمائه الحسنى هو الكفيل بتكامل البشر وتصاعده، لذلك قال ربنا: ﴿وَٱبْتَغُوٓاْ إِلَيْهِ ٱلْوَسِيلَةَ ﴾.

الوسيلة إلى الله

ترك السياق كلمة الوسيلة عامة مطلقة تشمل كل الوسائل الحقيقية والشرعية التي تؤدي بنا إلى الله، وإلى أسمائه الحسنى من العلم والقدرة والمحبة والجمال وغيرها، فالصلاة والصيام والحج والزكاة والصدقة والفداء، وسيلة، والتأليف والخطابة والتوجيه إلى الله وسيلة وهكذا.

وكما تتنوع الوسائل إلى الله تختلف مواهب الإنسان التي يجب على كل شخص أن يفجرها جميعاً وإلا يدخر منها شيئاً.. فإن الموهبة التي تدخرها تبلى وتفنى، والطاقة التي لا تصرفها اليوم لا تستطيع أن تصرفها غداً لأنها فنيت، لذلك يجب الجهاد ومقاومة كل العقبات النفسية التي تعترض طريق الإنسان الصاعد إلى الله.. إلى الرفيق الأعلى ﴿وَجَٰهِدُواْ فِى سَبِيلِهِۦ لَعَلَّكُمْ تُفْلِحُونَ ﴾.

لا للفداء

[٣٦] إن هذه الطاقات والإمكانات التي نملكها اليوم، إنما هي وقود مسيرتنا المتصاعدة وكدحنا إلى ربنا العزيز، فلو بخلنا بها فلنعلم أنها لا تخلد لنا ولا تبقى، ونبقى نحن وذنوبنا التي

نود غداً -في يوم البعث- أن ينقذنا منها الله، حتى ولو كان ذلك بإعطاء كل ما نملك، ولكن هل نملك في ذلك اليوم شيئاً؟!.

﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ لَوْ أَنَّ لَهُم مَّا فِي ٱلْأَرْضِ جَمِيعًا وَمِثْلَهُۥ مَعَهُۥ لِيَفْتَدُواْ بِهِۦ مِنْ عَذَابِ يَوْمِ ٱلْقِيَٰمَةِ مَا تُقُبِّلَ مِنْهُمْ وَلَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ﴾ إذن دعنا نستخدم ما خوله الله لنا من طاقات وإمكانات في سبيل الوصول إلى الله، ونجعلها وسيلة التصاعد، ولا نجعلها -كما يفعل الكفار- حجاباً بيننا وبين ربنا العزيز.

[٣٧] من شدة الألم في عذاب يوم القيامة، لا ينفك الكفار المعذبون هناك من محاولاتهم اليائسة للخلاص من العذاب، وتلك المحاولات التي لو بذلوا شيئاً بسيطاً منها في الدنيا، لأنقذهم الله بها في هذا اليوم ﴿يُرِيدُونَ أَن يَخْرُجُواْ مِنَ ٱلنَّارِ وَمَا هُم بِخَٰرِجِينَ مِنْهَا وَلَهُمْ عَذَابٌ مُّقِيمٌ﴾ مستمر وغير منقوص.

كيف نحقق الأمن الاجتماعي؟

﴿ وَالسَّارِقُ وَالسَّارِقَةُ فَاقْطَعُوا أَيْدِيَهُمَا جَزَاءً بِمَا كَسَبَا نَكَالًا مِّنَ اللَّهِ وَاللَّهُ عَزِيزٌ حَكِيمٌ (٣٨) فَمَن تَابَ مِن بَعْدِ ظُلْمِهِ وَأَصْلَحَ فَإِنَّ اللَّهَ يَتُوبُ عَلَيْهِ إِنَّ اللَّهَ غَفُورٌ رَّحِيمٌ (٣٩) أَلَمْ تَعْلَمْ أَنَّ اللَّهَ لَهُ مُلْكُ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ يُعَذِّبُ مَن يَشَاءُ وَيَغْفِرُ لِمَن يَشَاءُ وَاللَّهُ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ (٤٠) ﴾.

هدى من الآيات:

في سياق ذكر الجرائم وعقوبتها، التي بدأها القرآن في الدروس السابقة، يبين القرآن جريمة السرقة التي هي اعتداء غير مسلح على أمن المجتمع، فيحكم بضرورة قطع اليد جزاء لما ارتكبت من جريمة، نكالاً من الله.

ولكن لا يعني انزال هذه العقوبة الشديدة على السارق إلغاء شخصه من قائمة المجتمع، بل إذا تاب وأصلح ماضيه فإن الله غفور رحيم، وكذلك ليست العقوبات في الإسلام تشفيًّا وانتقاماً.

ومغفرة الله تتناسب مع مقدرته وملكوته، وأن له مافي السماوات والأرض لذلك يعذب من يشاء ويغفر لمن يشاء، ولذلك يجب أن لا يبخل البشر في كرم ربه الواسع.

بينات من الآيات:

[٣٨] حين تمتد يد خائنة إلى ملك الآخرين فإنها تمتد إلى الأمن في البلد وتجعل كل فرد قلقاً على مصير جهوده التي حصل بها على هذا المال، بالضبط كما أن قتل نفس واحدة بمثابة قتل الناس جميعاً، لأنه يهدد أمن المجتمع كله، وحين ينعدم الأمن في البلد لا يجد الناس ذلك

الدافع القوي نحو بناء وطنهم، وتفجير طاقاتهم، وتخزين ثروتهم للمستقبل -من هنا كان جزاء السارق شديداً في الإسلام- بالرغم من أنه لايبلغ قساوة العقوبات التي فرضتها بعض الأنظمة بقتل السارق، إنما يوجب قطع يد السارق لتكون جزاء وعبرة. ﴿ وَٱلسَّارِقُ وَٱلسَّارِقَةُ فَٱقْطَعُوٓاْ أَيْدِيَهُمَا جَزَآءًۢ بِمَا كَسَبَا نَكَٰلًا مِّنَ ٱللَّهِ وَٱللَّهُ عَزِيزٌ حَكِيمٌ ﴾.

حد القطع

ويقول الفقهاء إنه تقطع أصابع اليد اليمنى فيما لو كانت السرقة من حرز[1] مع توفر سائر الشروط الأخرى، ويبدو لي أن العقوبة يجب أن تقتصر على أقل قدر ممكن، وأقل ما في اليد الأصابعُ، كما أن السرقة من غير حرز قد لا تعتبر سرقة في مفهوم العرف.

والدولة الإسلامية مظهر لعزة الله وقوته وقدرته وحاكميته، كما هي مظهر لحكمة الله، وهداه وصلاح نظامه وتشريعه.

الهروب إلى التوبة اسلم

[٣٩] إن الهدف الأساسي للإسلام في عملية مكافحة الجريمة هو تزكية المجتمع منها ومن آثارها، وليس الهدف الانتقام من الفاعلين، من هنا يفتح الله أمام المجرمين باب التوبة، ولكن يشترط عليهم ألا تكون توبتهم لفظية، بل توبة نصوحاً تتجلى في إصلاح الفساد الذي عملوه بجريمتهم ﴿ فَمَن تَابَ مِنۢ بَعْدِ ظُلْمِهِۦ وَأَصْلَحَ فَإِنَّ ٱللَّهَ يَتُوبُ عَلَيْهِ إِنَّ ٱللَّهَ غَفُورٌ رَّحِيمٌ ﴾.

حقيقة التوبة

أما من ترك السرقة ولم يدفع الأموال المسروقة إلى أصحابها، أو ترك السرقة لصعوبتها واشتغل بالاحتيال والرشوة والفسق فإن توبته ليست حقيقية، ولا تسعه رحمة الله التي وسعت كل شيء، والله غفور يطهر قلب الإنسان ووجدان المجتمع، وصحيفة الأعمال، يطهر كل ذلك من آثار الذنب الذي ارتكبه الفرد حتى كأنه لم يرتكب ذنباً، والله رحيم يتفضل على التائب الذي تستقيم سيرته بالنعم والرخاء والسعادة التي زعم أنه يجدها في ارتكاب المعصية.

[٤٠] والله لا يخشى الناس، ولذلك لا يتعامل معهم بظلم أو بقسوة، والدولة الإسلامية

---

(١) الحرز: هو كل موضع لم يكن لغير المتصرف الدخول إليه والتصرف فيه إلا بإذن المالك.

يجب أن تكون كذلك لا تندفع نحو الإرهاب خشية الناس، وخوفاً من قيامهم ضدها. كلا. بل يجب عليها أن تتوب عليهم إذا أصلحوا، وتعتمد على قدرة الله الواسعة.

﴿ أَلَمْ تَعْلَمْ أَنَّ ٱللَّهَ لَهُۥ مُلْكُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ يُعَذِّبُ مَن يَشَآءُ وَيَغْفِرُ لِمَن يَشَآءُ وَٱللَّهُ عَلَىٰ كُلِّ شَىْءٍ قَدِيرٌ ﴾ ولأن قدرة الله واسعة وملكه عظيم، فعلى الإنسان أن يرهب جانبه ويتقيه ولا يستهين بأوامره وتعاليمه سبحانه، كما أن عليه أن يتوكل على الله في اكتساب المعاش دون خوف من فشل أو انتكاس.

وبكلمة: إن معرفة أسماء الله الحسنى ومن أبرزها.. رحمته وقدرته، تنعكس على السلوك البشري في صورة صفات مثلى. لذلك يذكرنا القرآن بها قبل وبعد بيان الأحكام، وعلينا أن نتذكرها كلما أردنا تربية أنفسنا أو مجتمعنا على السلوك الحسن.

حواجز تطبيق الشريعة

﴿ ۞ يَٰٓأَيُّهَا ٱلرَّسُولُ لَا يَحْزُنكَ ٱلَّذِينَ يُسَٰرِعُونَ فِى ٱلْكُفْرِ مِنَ ٱلَّذِينَ قَالُوٓا۟ ءَامَنَّا بِأَفْوَٰهِهِمْ وَلَمْ تُؤْمِن قُلُوبُهُمْ ۛ وَمِنَ ٱلَّذِينَ هَادُوا۟ ۛ سَمَّٰعُونَ [1] لِلْكَذِبِ سَمَّٰعُونَ لِقَوْمٍ ءَاخَرِينَ لَمْ يَأْتُوكَ ۖ يُحَرِّفُونَ ٱلْكَلِمَ مِنۢ بَعْدِ مَوَاضِعِهِۦ ۖ يَقُولُونَ إِنْ أُوتِيتُمْ هَٰذَا فَخُذُوهُ وَإِن لَّمْ تُؤْتَوْهُ فَٱحْذَرُوا۟ ۚ وَمَن يُرِدِ ٱللَّهُ فِتْنَتَهُۥ فَلَن تَمْلِكَ لَهُۥ مِنَ ٱللَّهِ شَيْـًٔا ۚ أُو۟لَٰٓئِكَ ٱلَّذِينَ لَمْ يُرِدِ ٱللَّهُ أَن يُطَهِّرَ قُلُوبَهُمْ ۚ لَهُمْ فِى ٱلدُّنْيَا خِزْىٌ ۖ وَلَهُمْ فِى ٱلْـَٔاخِرَةِ عَذَابٌ عَظِيمٌ ﴿٤١﴾ سَمَّٰعُونَ لِلْكَذِبِ أَكَّٰلُونَ لِلسُّحْتِ [2] ۚ فَإِن جَآءُوكَ فَٱحْكُم بَيْنَهُمْ أَوْ أَعْرِضْ عَنْهُمْ ۖ وَإِن تُعْرِضْ عَنْهُمْ فَلَن يَضُرُّوكَ شَيْـًٔا ۖ وَإِنْ حَكَمْتَ فَٱحْكُم بَيْنَهُم بِٱلْقِسْطِ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ يُحِبُّ ٱلْمُقْسِطِينَ ﴿٤٢﴾ وَكَيْفَ يُحَكِّمُونَكَ وَعِندَهُمُ ٱلتَّوْرَىٰةُ فِيهَا حُكْمُ ٱللَّهِ ثُمَّ يَتَوَلَّوْنَ مِنۢ بَعْدِ ذَٰلِكَ ۚ وَمَآ أُو۟لَٰٓئِكَ بِٱلْمُؤْمِنِينَ ﴿٤٣﴾ ﴾.

هدى من الآيات:

في سياق الحديث عن الأحكام الإسلامية يبين القرآن الحكيم طائفة من الحواجز النفسية والاجتماعية التي تقف في طريق تنفيذ هذه الأحكام وهي كالتالي:

أولاً: النفاق وانعدام الإيمان الحقيقي الذي يجعل صاحبه يسارع في خرق القوانين

---

(١) سماعون للكذب: قابلون له، يقال: لا تستمع من فلان قوله أي لا تقبل، ومنه سمع الله لمن حمده أي تقبل الله منه.

(٢) للسحت: أصل السحت الاستئصال يقال سحته وأسحته أي استأصله.

والعمل بأنظمة الكفر.

ثانياً: الكفر الذي يبديه بعض أهل الكتاب مثل اليهود الذين يسمعون أبداً الكذب، ويستلهمون أفكارهم من الأجانب، الذين يحرفون الكلم بعد أن وضعت مواضعها الصحيحة يخططون لهؤلاء ويأمرونهم باتباع أفكار معينة..

وهؤلاء أراد الله فتنتهم وإضلالهم لأنهم سلفاً اختاروا ذلك، فلا ينفع معهم الكلام، والسبب أن قلوبهم مريضة غير نظيفة، ولهؤلاء خزي وذلة في الدنيا، وعذاب مؤلم في الآخرة.

ثالثاً: ومن صفات هذه الفئة أنهم يرتاحون للكذب ويأكلون السحت، وعلى الرسول ألا يهادنهم فإما يحكم بينهم بالحق أو يعرض عنهم دون أن يرهب جانبهم، والله يحب المقسطين الذين يحكمون بالعدل.

ومن الواضح أن مجيء هؤلاء إلى الرسول ﷺ ليس قربة إلى الله، بل لكي يجدوا مهرباً من الأحكام الموجودة في التوراة.

بينات من الآيات:

لا يحزنك الذين يسارعون في الكفر

[٤١] حين يكون الإسلام مجرد لقلقة لسان نجد الكثيرين يدعون الإسلام، ولكن إذا حانت مرحلة العمل تجد الكثيرين منهم يسارعون في الكفر، ويخالفون تعاليم السماء، ويتبعون الأنظمة الطاغوتية الفاسدة، وعلى القيادة الإسلامية ألا تشعر بوهن بسبب مسارعة هؤلاء في الكفر لأن ذلك لا يدل على أن جبهتها قد ضعفت الآن، بل على أنها كانت هكذا بسبب وجود هذه الفئة المنافقة فيها.

﴿ ۞ يَـٰٓأَيُّهَا ٱلرَّسُولُ لَا يَحْزُنكَ ٱلَّذِينَ يُسَـٰرِعُونَ فِى ٱلْكُفْرِ مِنَ ٱلَّذِينَ قَالُوٓا۟ ءَامَنَّا بِأَفْوَٰهِهِمْ وَلَمْ تُؤْمِن قُلُوبُهُمْ ﴾ والكفر في هذه الآية هو الكفر في الآية (٤٤) حسبما يدل عليه السياق، والذين يسارعون في الكفر قد يكونون من المنافقين، أو من الذين هادوا (الطابور الخامس في المجتمع الإسلامي) وهؤلاء يستلهمون أفكارهم ومناهجهم من الأجانب غير الحاضرين في الساحة.

اليهود وصناعة الأفكار

﴿وَمِنَ ٱلَّذِينَ هَادُوا۟ سَمَّـٰعُونَ لِلْكَذِبِ سَمَّـٰعُونَ لِقَوْمٍ ءَاخَرِينَ لَمْ

يَأْتُوكَ ﴾ كلمة (السماع) تدل على حالة نفسية تدفعهم إلى البحث عن الكذب لتقبله، وذلك بسبب انحرافهم النفسي من الحقيقية، ووراء هذه الفئة مجموعة أخرى هم كبارهم وأسيادهم وأولئك يضعون لهؤلاء ثقافة منحرفة، ويأمرونهم بأن يتخذوها مقياساً لهم. فإن كانت الأفكار التي يسمعونها من الرسول ﷺ تتفق وإياها، فليأخذوها وإلا فليرفضوها.

﴿يُحَرِّفُونَ ٱلْكَلِمَ مِنۢ بَعْدِ مَوَاضِعِهِۦ﴾ أي بعد أن استقرت الكلمة في مستقرها. مثل أن تكون الكلمة قد توضح معناها، ثم يحرفونها أو تكون الكلمة قد حرفت مصاديقها الواضحة، ثم ابتدعوا لها مصاديق أخرى غير صحيحة.

﴿يَقُولُونَ إِنْ أُوتِيتُمْ هَٰذَا فَخُذُوهُ وَإِن لَّمْ تُؤْتَوْهُ فَٱحْذَرُوا۟﴾ ويبقى سؤال لماذا لم يستفد هؤلاء شيئاً من الرسالة الجديدة، أليست الرسالة هدى ونوراً؟!.

لأن قلوب هؤلاء مملوءة بثقافات غريبة وبعيدة عن الحقيقة قد اختاروها لأنفسهم ولتحقيق أطماعهم وشهواتهم، لذلك اختار الله لهم الضلالة، ومن اختار الله تضليله فإن الناس لا يمكنهم هدايته.

﴿وَمَن يُرِدِ ٱللَّهُ فِتْنَتَهُۥ فَلَن تَمْلِكَ لَهُۥ مِنَ ٱللَّهِ شَيْـًٔا ۚ أُو۟لَٰٓئِكَ ٱلَّذِينَ لَمْ يُرِدِ ٱللَّهُ أَن يُطَهِّرَ قُلُوبَهُمْ ۚ لَهُمْ فِى ٱلدُّنْيَا خِزْىٌ ۖ وَلَهُمْ فِى ٱلْءَاخِرَةِ عَذَابٌ عَظِيمٌ﴾ وتوحي هذه الآية بأن تطهير القلب شرط مسبق لهداية الله.

[٤٢] والفئة الضالة التي تفسد آراء الناس، هم كبار الأحبار الفساق، ورجال البلاط وكبار الإقطاعيين ومن أشبه. وهم بؤرة الفساد التي تتجمع فيها ضلالات الأولين والآخرين، لأنهم يبحثون عنها ليجعلوا منها حجاباً بينهم وبين الرسالة فهم: ﴿سَمَّٰعُونَ لِلْكَذِبِ﴾.

لأنهم يعرفون أن الرسالة تحمل هدى ونوراً وبالتالي تعطي الناس ثقافة غنية سليمة، والناس لا يمكنهم أن يعيشوا في الفراغ، ولذلك لابد من خلق ثقافة باطلة أو استيراد ثقافة باطلة لتملأ فراغ الناس الفكري، وليزعم الناس: أنهم وصاحب الرسالة سواء في الفكر والعمل، حتى لايستهوي علم صاحب الرسالة وهداه جماهيرهم، وحين يريد الطاغوت صناعة ثقافة باطلة ليجعل أمام كل حق رسالي باطلاً من نفسه، فإنه يبحث عن الكذابين والدجالين في كل مكان حتى يستخدمهم في هذه المهمة القذرة. من هنا يصبح سماعاً للكذب.

وإنما يهدف من وراء ذلك الوصول إلى أهدافه الرخيصة في بعض المتاع الذي يسميه القرآن بالسحت فيقول: ﴿أَكَّٰلُونَ لِلسُّحْتِ﴾ السحت لغويًّا: القشرة العفنة المنفصلة عن

الجسد، المليئة بالجراثيم الفاسدة، وما يأكله هؤلاء من أموال المستضعفين. هو ذلك السحت الذي يفرزه الوضع الفاسد، والذي لا يزيد صاحبه إلا تباراً.

واجب الرسول ﷺ

ويأتي هؤلاء إلى الرسول ﷺ لا لكي يستفيدوا بل ليجدوا عنده ما يبرر لهم ترك دينهم، ورفض أحكامه السليمة.

﴿فَإِن جَآءُوكَ فَٱحْكُم بَيْنَهُمْ أَوْ أَعْرِضْ عَنْهُمْ وَإِن تُعْرِضْ عَنْهُمْ فَلَن يَضُرُّوكَ شَيْـًٔا وَإِنْ حَكَمْتَ فَٱحْكُم بَيْنَهُم بِٱلْقِسْطِ إِنَّ ٱللَّهَ يُحِبُّ ٱلْمُقْسِطِينَ﴾ وأمام هؤلاء يتخذ الرسول والقيادة الإسلامية موقفاً حازماً، فإما يعرض عنهم دون خوف من هجره لهم واستهانته بهم، أو يحكم بينهم بالقسط الذي هو محض العدالة.

[٤٣] ودليل كذب هؤلاء وريائهم -حين يجيئون الرسول ﷺ دليل ذلك- أنهم يتركون كتابهم المقدس ﴿ٱلتَّوْرَىٰةُ﴾ التي فيها حكم الله ولكنهم يرفضون الاحتكام إليها ويأتون لينافقوا مع الرسول ﷺ ﴿وَكَيْفَ يُحَكِّمُونَكَ وَعِندَهُمُ ٱلتَّوْرَىٰةُ فِيهَا حُكْمُ ٱللَّهِ ثُمَّ يَتَوَلَّوْنَ مِنۢ بَعْدِ ذَٰلِكَ وَمَآ أُو۟لَـٰٓئِكَ بِٱلْمُؤْمِنِينَ﴾ لأنهم لا يطبقون كتابهم المقدس حين يخالف آراءهم وأهواءهم.

وحدة الرسالات الإلهية

﴿إِنَّا أَنزَلْنَا التَّوْرَاةَ فِيهَا هُدًى وَنُورٌ يَحْكُمُ بِهَا النَّبِيُّونَ[١] الَّذِينَ أَسْلَمُوا لِلَّذِينَ هَادُوا وَالرَّبَّانِيُّونَ وَالْأَحْبَارُ[٢] بِمَا اسْتُحْفِظُوا مِن كِتَابِ اللَّهِ وَكَانُوا عَلَيْهِ شُهَدَاءَ فَلَا تَخْشَوُا النَّاسَ وَاخْشَوْنِ وَلَا تَشْتَرُوا بِآيَاتِي ثَمَنًا قَلِيلًا وَمَن لَّمْ يَحْكُم بِمَا أَنزَلَ اللَّهُ فَأُولَٰئِكَ هُمُ الْكَافِرُونَ (٤٤) وَكَتَبْنَا عَلَيْهِمْ فِيهَا أَنَّ النَّفْسَ بِالنَّفْسِ وَالْعَيْنَ بِالْعَيْنِ وَالْأَنفَ بِالْأَنفِ وَالْأُذُنَ بِالْأُذُنِ وَالسِّنَّ بِالسِّنِّ وَالْجُرُوحَ قِصَاصٌ فَمَن تَصَدَّقَ بِهِ فَهُوَ كَفَّارَةٌ لَّهُ وَمَن لَّمْ يَحْكُم بِمَا أَنزَلَ اللَّهُ فَأُولَٰئِكَ هُمُ الظَّالِمُونَ (٤٥) وَقَفَّيْنَا[٣] عَلَىٰ آثَارِهِم[٤] بِعِيسَى ابْنِ مَرْيَمَ مُصَدِّقًا لِّمَا بَيْنَ يَدَيْهِ مِنَ التَّوْرَاةِ وَآتَيْنَاهُ الْإِنجِيلَ فِيهِ هُدًى وَنُورٌ وَمُصَدِّقًا لِّمَا بَيْنَ يَدَيْهِ مِنَ التَّوْرَاةِ وَهُدًى وَمَوْعِظَةً لِّلْمُتَّقِينَ (٤٦) وَلْيَحْكُمْ أَهْلُ الْإِنجِيلِ بِمَا أَنزَلَ اللَّهُ فِيهِ وَمَن لَّمْ يَحْكُم بِمَا أَنزَلَ اللَّهُ فَأُولَٰئِكَ هُمُ الْفَاسِقُونَ (٤٧)﴾.

هدى من الآيات:

في سياق الحديث التوجيهي الذي بدأه الدرس السابق حول أهمية الالتزام بأحكام

(١) الربانيون: هم العلماء البصراء بسياسة الأمور وتدبير الناس.
(٢) الأحبار: جمع حبر وهو العالم، مشتقة من التحبير وهو التحسين، فالعالم يحسن الحسن ويقبح القبيح.
(٣) وقفينا: القفو اتباع الأثر، وإنما سميت قافية الشعر قافية لأنها تتبع الوزن.
(٤) آثارهم: جمع أثر وهو العلم الذي يظهر للحس.

الشريعة، يذكرنا الله بكتاب التوراة، الذي أنزله الله هدى إلى الصراط المستقيم، ونوراً يطهر القلوب ويجلي البصائر وبالتالي قيماً يحكم وفقها النبيون عليهم السلام الذين أسلموا لله وخضعوا كليًّا لرسالاته، وجعلت أحكام الله أمانة في أعناقهم يراقبون تطبيقها ولا يخشون أحداً وهم يطبقونها ولا يساومون عليها أبداً.

وفي مقابل هؤلاء هناك فئة لا تحكم بما أنزل الله، بل تخضع للقوى أو للضغوط أو للإغراء.

ومن بين أبرز الأحكام الموجودة في التوراة القصاص: أن النفس بالنفس، و العين بالعين، والأنف بالأنف، والأذن بالأذن والسن بالسن، والجروح قصاص. دون أية علاقة بانتماءات الشخص وطبيعته وعنصره وقومه. بلى، يمكن أن يتصدق صاحب الحق على الجاني وهذه الصدقة تعتبر كفارة لذنوبه، أما أولئك الذين يخالفون حكم القصاص، ولا يقاصون من الأشراف للضعفاء فإنهم ظالمون، وجاء بعد موسى عليه السلام عيسى ابن مريم عليه السلام يصدق ما سبقه من التوراة ويحمل معه الانجيل الذي كان هدى ونوراً، وكان على خط التوراة تماماً فيه هدى ومواعظ للمتقين، بيد أن فريقاً من الناس لم يطبقوا الانجيل، وهم الفاسقون.

بينات من الآيات:

التوراة نور وهدى

[٤٤] لماذا أنزل الله التوراة وماذا كان فيها؟ ومن الذي حمل أمانتها بصدق؟.

أولاً: لقد انزل ربنا التوراة للهداية إلى الصراط القويم، وللتزود برؤى وبصائر ومناهج وتوجيهات يتمكن الإنسان إذا استوعبها أن يرى الحقائق بنفسه، لا أن يهتدي إليها فقط وهكذا كانت التوراة هدى ونوراً ﴿ إِنَّآ أَنزَلْنَا ٱلتَّوْرَىٰةَ فِيهَا هُدًى وَنُورٌ ﴾ ولذلك يجب احترام التوراة واحترام من يعمل بها حقيقة.

ثانياً: كان النبيون عليهم السلام يحكمون بالتوراة، ويشرعون الأحكام الدائمة والتوجيهات اليومية انطلاقاً من قيم التوراة وإنما أوتي النبيون الحكومة والقيادة لأنهم أسلموا لله وكانوا معصومين عن الخطأ والزلل.

ثالثاً: الذين كانوا يخضعون للتوراة هم الذين هادوا، والحكم إنما كان لمصلحة هذه الفئة وليس في ضررهم.

رابعاً: بعد النبيين عليهم السلام كان الأولياء والعلماء يحكمون الناس وفق التوراة.

الأئمة عليهم السلام والعلماء

﴿يَحْكُمُ بِهَا ٱلنَّبِيُّونَ ٱلَّذِينَ أَسْلَمُوا۟ لِلَّذِينَ هَادُوا۟ وَٱلرَّبَّـٰنِيُّونَ وَٱلْأَحْبَارُ﴾ والربانيون -حسبما يبدو لي- هم أولياء الله الذين ينسبون إلى الرب، لأنهم كانوا في منتهى الإخلاص والتضحية، وكانوا يجسدون روح الرسالة كأمثال الأئمة عليهم السلام، والحواريين في التاريخ، والصفة الظاهرة لهؤلاء هي قيامهم لله، وتمحضهم في ذات الله، بالرغم من انهم كانوا علماء بالدين ايضا، وقد جاء في حديث مأثور عن الإمام جعفر بن محمد الصادق عليه السلام في تفسير هذه الآية الكريمة: «أَنَّ مِمَّا اسْتُحِقَّتْ بِهِ الْإِمَامَةُ التَّطْهِيرَ وَ الطَّهَارَةَ مِنَ الذُّنُوبِ وَالْمَعَاصِي الْمُوبِقَةِ الَّتِي تُوجِبُ النَّارَ ثُمَّ الْعِلْمَ الْمُنَوَّرَ بِجَمِيعِ مَا يَحْتَاجُ إِلَيْهِ الْأُمَّةُ مِنْ حَلَالِهَا وَ حَرَامِهَا وَالْعِلْمَ بِكِتَابِهَا خَاصِّهِ وَعَامِّهِ وَالْمُحْكَمِ وَالْمُتَشَابِهِ وَدَقَائِقِ عِلْمِهِ وَغَرَائِبِ تَأْوِيلِهِ وَنَاسِخِهِ وَمَنْسُوخِهِ».

(يقول راوي الحديث) قُلْتُ: «وَمَا الْحُجَّةُ بِأَنَّ الْإِمَامَ لَا يَكُونُ إِلَّا عَالِماً بِهَذِهِ الْأَشْيَاءِ الَّذِي ذَكَرْتَ قَالَ: «قَوْلُ الله فِيمَنْ أَذِنَ اللهُ لَهُمْ فِي الْحُكُومَةِ وَ جَعَلَهُمْ أَهْلَهَا: ﴿إِنَّآ أَنزَلْنَا ٱلتَّوْرَىٰةَ فِيهَا هُدًى وَنُورٌ يَحْكُمُ بِهَا ٱلنَّبِيُّونَ ٱلَّذِينَ أَسْلَمُوا۟ لِلَّذِينَ هَادُوا۟ وَٱلرَّبَّـٰنِيُّونَ وَٱلْأَحْبَارُ﴾ فَهَذِهِ الْأَئِمَّةُ دُونَ الْأَنْبِيَاءِ الَّذِينَ يُرَبُّونَ النَّاسَ بِعِلْمِهِمْ وَ أَمَّا الْأَحْبَارُ فَهُمُ الْعُلَمَاءُ دُونَ الرَّبَّانِيِّينَ»[1].

أما الأحبار فهم الفقهاء العدول الذين كانوا دون الربانيين درجة لكن وجب على الناس اتباعهم في غياب من الربانيين.

صفات العلماء

وقد كانت قيادة هذه الفئة للناس على أساس وجود صفات الفقه والعدالة والتصدي فيهم، أما الفقه والعدالة فتدل عليها كلمة ﴿بِمَا ٱسْتُحْفِظُوا۟ مِن كِتَـٰبِ ٱللَّهِ﴾ أي بسبب أنهم كانوا أمناء على كتاب الله، وأيضاً بقدر حفظهم لكتاب الله، دراسةً وتطبيقاً فكلما كان الشخص أوسع فقهاً وأشد تقوى كانت قيادته أكبر وأوسع مدى، وأما التصدي للقيادة فيدل عليها قوله سبحانه: ﴿وَكَانُوا۟ عَلَيْهِ شُهَدَآءَ﴾ أي شهداء على تطبيقه ورقباء على الناس في مدى تنفيذهم له، ولكن لا يمكن أن يبلغ العلماء هذا المستوى الأرفع إلا إذا تجاوزوا عقبتين:

الأولى: خشية الناس.

الثانية: اغراءات الدنيا.

---

(١) تفسير العياشي: ج١ ص٣٢٢.

﴿فَلَا تَخْشَوُاْ ٱلنَّاسَ وَٱخْشَوْنِ وَلَا تَشْتَرُواْ بِـَٔايَٰتِي ثَمَنًا قَلِيلًا﴾ أي بما لديهم من الزهد في زخرف الدنيا، وعدم الإنهيار أمام ترغيب الأثرياء.

﴿وَمَن لَّمْ يَحْكُم بِمَآ أَنزَلَ ٱللَّهُ فَأُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْكَٰفِرُونَ﴾ أي أولئك العلماء الذين يستسلمون لإغراءات الدنيا، أو خشية الناس فلا يحكمون بما أنزل الله فـ﴿هُمُ ٱلْكَٰفِرُونَ﴾، لأنهم يهلكون ويهلكون الناس.

التشريعات التوراتية

[٤٥] ما هي أحكام الله التي أنزلها في التوراة؟ هل هي مجرد الصلاة والصيام؟ -كلا-.. إنها شرائع وأنظمة للحياة مثل القصاص الذي تتجلى في تطبيقه سائر الأحكام الإجماعية مثل المساواة والعدالة، ذلك لأن المجتمع الطبقي لا يقتص للفقير من الغني، والمجتمع العنصري لا يقتص للدني من الشريف وللأسود من الأبيض، والمجتمع الحزبي لا يقتص للفرد البسيط من المسؤول المتنفذ، وهكذا، أما إذا أجرى المجتمع حكم القصاص فهو دليل على إيمانه بالعدالة، وترفعه عن سلبيات التمايز بأي نوع كان.

ولذلك فإن بني اسرائيل فسدوا ليس بسبب عدم صلاتهم أو صيامهم، بل بسبب عدم تطبيقهم الكامل لحكم القصاص، حتى إذا قتل الشريف وضيعا لم يقتصوا منه[1] لذلك جاء في الآية الكريمة: ﴿وَكَتَبْنَا عَلَيْهِمْ فِيهَآ أَنَّ ٱلنَّفْسَ بِٱلنَّفْسِ﴾ دون أن يؤخذ في الاعتبار الطبقة أو شرفها أو علمها أو ما أشبه.

﴿وَٱلْعَيْنَ بِٱلْعَيْنِ وَٱلْأَنفَ بِٱلْأَنفِ وَٱلْأُذُنَ بِٱلْأُذُنِ وَٱلسِّنَّ بِٱلسِّنِّ وَٱلْجُرُوحَ قِصَاصٌ﴾ فكل جرح يمكن تقديره يجب القصاص له.

والقصاص حق من حقوق المجني عليهم، ويجوز لهم العفو عنه تقرباً إلى الله وتصديقاً بوعده ولمن عفا عن أخيه مغفرة وكفارة لذنوبه ﴿فَمَن تَصَدَّقَ بِهِۦ فَهُوَ كَفَّارَةٌ لَّهُۥ وَمَن لَّمْ يَحْكُم بِمَآ أَنزَلَ ٱللَّهُ فَأُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلظَّٰلِمُونَ﴾.

---

(١) جاء في الحديث المأثور عن الإمام الباقر عليه السلام: «إِنَّ امْرَأَةً مِنْ خَيْبَرَ ذَاتَ شَرَفٍ بَيْنَهُمْ زَنَتْ مَعَ رَجُلٍ مِنْ أَشْرَافِهِمْ، وَهُمَا مُحْصَنَانِ فَكَرِهُوا رَجْمَهُمَا فَأَرْسَلُوا إِلَى يَهُودِ الْمَدِينَةِ، وَكَتَبُوا لَهُمْ أَنْ يَسْأَلُوا النَّبِيَّ صلى الله عليه وآله عَنْ ذَلِكَ طَمَعاً فِي أَنْ يَأْتِيَ لَهُمْ بِرُخْصَةٍ، فَانْطَلَقَ قَوْمٌ مِنْهُمْ كَعْبُ بْنُ الْأَشْرَفِ وَ كَعْبُ بْنُ أَسِيدٍ وَ شُعْبَةُ بْنُ عَمْرٍو وَمَالِكُ بْنُ الضَّيْفِ وَكِنَانَةُ بْنُ أَبِي الْحَقِيقِ وَغَيْرُهُمْ، فَقَالُوا: يَا مُحَمَّدُ أَخْبِرْنَا عَنِ الزَّانِيَةِ وَالزَّانِي إِذَا أُحْصِنَا مَا حَدُّهُمَا؟. فَقَالَ صلى الله عليه وآله: وَهَلْ تَرْضَوْنَ بِقَضَائِي فِي ذَلِكَ؟. قَالُوا: نَعَمْ. فَنَزَلَ جَبْرَئِيلُ عليه السلام بِالرَّجْمِ فَأَخْبَرَهُمْ بِذَلِكَ فَأَبَوْا أَنْ يَأْخُذُوا بِهِ» بحار الأنوار: ج٢٢ ص٢٥.

حقيقة التبديل

يبدو لي أن تبديل حكم مثل القصاص في المجتمع يعتبر ظلماً اجتماعيًّا، لأنه يقضي على العدالة والمساواة في المجتمع، ولكن هذا التبديل إذا كان في مستوى التشريع وقام به العلماء والأمراء فهو كفر كما سبق في الآية السابقة، بينما إذا كان تبديل حكم مثل الصدق والوفاء والأمانة وسائر المواعظ الموجودة في الإنجيل، فهو فسق كما يأتي في الآيات التالية.

الإنجيل صنو التوراة

[٤٦] وأرسل الله عيسى ابن مريم عليه السلام يتبع آثار النبيين السابقين في خط الهي واحد لا ينحرف وصدق عيسى برسالات الأنبياء، وجاء بالمزيد منها، فمثلاً في الإنجيل الذي كان فيه -كما في التوراة- هدى يهدي الناس إلى سبيل السلام كما كان فيه نور يثير دفينة العقل، ويستجلي غبار الضمير، ويبلور قيم الفطرة، حتى يرى الناس بأنفسهم السبل التي هداهم إليها الله برسالاته.

﴿وَقَفَّيْنَا عَلَىٰٓ ءَاثَٰرِهِم بِعِيسَى ٱبْنِ مَرْيَمَ﴾ أي جعلناه يقفو ويتبع أثر الأنبياء عليهم السلام.

﴿مُصَدِّقًا لِّمَا بَيْنَ يَدَيْهِ مِنَ ٱلتَّوْرَىٰةِ ۖ وَءَاتَيْنَٰهُ ٱلْإِنجِيلَ فِيهِ هُدًى وَنُورٌ﴾ وهذا يدل على وحدة الرسالة الإلهية، وتكاملها مع الأنبياء عليهم السلام وضرورة احترام أهل الكتاب وكان الإنجيل يحمل بين دفتيه تصديقاً بما تقدمه من كتب وفيما بينها التوراة، ويضرب الأمثال الواقعية ليتذكر الناس وليتعظوا وليعتبروا.

﴿وَمُصَدِّقًا لِّمَا بَيْنَ يَدَيْهِ مِنَ ٱلتَّوْرَىٰةِ وَهُدًى وَمَوْعِظَةً لِّلْمُتَّقِينَ﴾ إذا اتقى الفرد أولا أقل أراد أن يكون بعيداً عن الشر استمع إلى الموعظة واستفاد منها، اما الشقي فإنه يصم عن المواعظ.

[٤٧] وإذا كانت رسالات السماء واحدة مع اختلاف بسيط في التفاصيل التي بالرغم من أهميتها من الناحية التشريعية، إلا أن الأحكام اللاحقة تنسخ الأحكام السابقة لأنها أولى بالظروف المتجددة وهي بالرغم من ذلك غير هامة، إذا لاحظنا محتوى الرسالات وروحها التوحيدية، وأهدافها السامية من الإطارات والطقوس، وكذلك إذا لاحظنا هذه الحقيقة وهي أن خضوع البشر لرسالات السماء يجعله يقترب شيئاً فشيئاً إلى الإيمان بها جميعاً، فمن آمن واقعاً بروح رسالة الله الهابطة على موسى وعيسى عليهما السلام لايمكنه الكفر برسالة محمد صلى الله عليه وآله، لإنهما تصدران من منطلق واحد وتشعان من مشكاة واحدة، لذلك أمر الله أهل الكتاب باتباع رسالاتهم ﴿وَلْيَحْكُمْ أَهْلُ ٱلْإِنجِيلِ بِمَآ أَنزَلَ ٱللَّهُ فِيهِ ۚ وَمَن لَّمْ يَحْكُم بِمَآ أَنزَلَ ٱللَّهُ فَأُو۟لَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْفَٰسِقُونَ﴾.

فاستبقوا الخيرات

﴿ وَأَنزَلْنَآ إِلَيْكَ ٱلْكِتَٰبَ بِٱلْحَقِّ مُصَدِّقًا لِّمَا بَيْنَ يَدَيْهِ مِنَ ٱلْكِتَٰبِ وَمُهَيْمِنًا(١) عَلَيْهِ ۖ فَٱحْكُم بَيْنَهُم بِمَآ أَنزَلَ ٱللَّهُ ۖ وَلَا تَتَّبِعْ أَهْوَآءَهُمْ عَمَّا جَآءَكَ مِنَ ٱلْحَقِّ ۚ لِكُلٍّ جَعَلْنَا مِنكُمْ شِرْعَةً(٢) وَمِنْهَاجًا(٣) ۚ وَلَوْ شَآءَ ٱللَّهُ لَجَعَلَكُمْ أُمَّةً وَٰحِدَةً وَلَٰكِن لِّيَبْلُوَكُمْ فِى مَآ ءَاتَىٰكُمْ ۖ فَٱسْتَبِقُوا۟(٤) ٱلْخَيْرَٰتِ ۚ إِلَى ٱللَّهِ مَرْجِعُكُمْ جَمِيعًا فَيُنَبِّئُكُم بِمَا كُنتُمْ فِيهِ تَخْتَلِفُونَ (٤٨) وَأَنِ ٱحْكُم بَيْنَهُم بِمَآ أَنزَلَ ٱللَّهُ وَلَا تَتَّبِعْ أَهْوَآءَهُمْ وَٱحْذَرْهُمْ أَن يَفْتِنُوكَ عَنۢ بَعْضِ مَآ أَنزَلَ ٱللَّهُ إِلَيْكَ ۖ فَإِن تَوَلَّوْا۟ فَٱعْلَمْ أَنَّمَا يُرِيدُ ٱللَّهُ أَن يُصِيبَهُم بِبَعْضِ ذُنُوبِهِمْ ۗ وَإِنَّ كَثِيرًا مِّنَ ٱلنَّاسِ لَفَٰسِقُونَ (٤٩) أَفَحُكْمَ ٱلْجَٰهِلِيَّةِ يَبْغُونَ ۚ وَمَنْ أَحْسَنُ مِنَ ٱللَّهِ حُكْمًا لِّقَوْمٍ يُوقِنُونَ (٥٠) ﴾.

هدى من الآيات:

أنزل الله القرآن ليبين ذات الرسالة الإلهية الواحدة التي هبطت على موسى وعيسى والنبيين عليهم السلام، وليكشف الحق القائم في واقع الحياة، وفي ذات الوقت الذي يصدق القرآن بالكتب السابقة فهو يكملها ويهيمن عليها ويحمل من القيم والشرائع أكثر وأفضل منها ولذلك يجب اتباعه ورفض أهواء الناس التي تخالف الحق.

(١) مهيمناً: الهيمنة السيطرة. هيمن الرجل إذا ارتقب وحفظ وشهد.

(٢) شرعة: الشرعة ابتداء الطريق. وهي الطريق الموصل إلى الماء، وفي الدين هي الطريقة التي توصل إلى الحياة في النعيم (الجنة).

(٣) منهاجاً: المنهاج الطريق المستقيم. نهج الطريق إذا وضح واستمر.

(٤) استبقوا: السباق يكون بين اثنين فصاعداً يجتهد كل منهم أن يسبق غيره.

ولقد جعل الله لكل أمة شريعة ومنهاجاً وطريقاً يصلون عبره إلى الحق، وكان من الممكن أن يجعل الناس في صورة أمة واحدة، ولكن لاختلاف إنما هو من أجل إبتلاء الناس وبهذا الاختلاف الذي لو استغل حسب سنة الله، لأصبح وسيلة للتنافس البناء، وتسارع الجميع نحو الخيرات، وغدا عند الله يعرف كل فرد هل كان على حق أو باطل.

وعلينا جميعا اتباع أحكام الله دون أهواء هذا أو ذاك من الذين يحاولون تضليل البشر، أما أولئك الذين يتولون عن الرسالة، فإن سبب ذلك ذنوبهم التي رانت على قلوبهم، حتى حجبتها عن الحقيقة، وأنهم فاسقون.

إنهم يريدون تطبيق أحكام الجاهلية التي هي انعكاس عن التخلف والرجعية والظلم، ويتركون أحكام الله تعتمد على العلم والإيمان وبالتالي اليقين.

بينات من الآيات:

الكتاب الحق

[٤٨] كما أنزل الله التوراة والإنجيل ولنفس الأهداف، أنزل الكتاب (القرآن) الذي يتصل بالحق اتصالاً عضويًّا، فهو حق يتطابق وسنن الحياة وأنظمة الكون وفطرة الإنسان؛ ووسيلته الحق وهو العمل الصالح والإيمان والفداء؛ وهدفه الحق وهو فلاح البشر وسعادته، وربما كانت لفظة (الباء) دالة على هذا التفاعل بل الوحدة التامة بين الكتاب والحق، لأنه حق أصلاً ووسيلة وهدفاً.

﴿ وَأَنزَلْنَآ إِلَيْكَ ٱلْكِتَـٰبَ بِٱلْحَقِّ ﴾ والكتاب يصدق ما أنزل في الكتب السابقة، مما يدل على وحدتها سلفا، ولكنه يهيمن عليها، ويكمل ما سبق منها ويسيطر عليها.

﴿مُصَدِّقًا لِّمَا بَيْنَ يَدَيْهِ مِنَ ٱلْكِتَـٰبِ وَمُهَيْمِنًا عَلَيْهِ ﴾ فإذا كان الإنجيل غامضا فيما يتصل بمنهج ما، فإن تفصيله في القرآن.

لماذا الاختلاف؟!.

ويبدو لي: أن القرآن الكريم أخذ يعالج مسألة الخلافات البشرية بصفة عامة هنا، بمناسبة الاختلاف القائم بين كتب السماء، واتباع الديانات السماوية، وأجاب على هذا السؤال لماذا يختلف الناس في ممارساتهم؟!.

بإجابة واضحة نفصلها في عدة نقاط:

ألف: إن كل أمة تتميز بممارسات حياتية مادية ومعنوية خاصة، فاقتصاد كل أمة واجتماعياتها وسلوكياتها الفردية (وسائر ما تسمى بالشرعة) تختلف عن غيرها، كما أن لغتتها وثقافتها وتطلعاتها (وسائر ما يسمى بالمنهاج) تختلف عن غيرها.

بـاء: إن هذا الاختلاف فطري نابع من خلقة البشر، وطبيعة اختلاف الحياة، وانعكاس هذا الاختلاف على كيان البشر، وإلا فإن الله قادر على أن يجعل البشر -كما الطيور والأسماك وما أشبه- أمة واحدة دون اختلاف يذكر فيما بينهم.

جيم: والاختلاف نافع للحياة البشرية لأنه يدعو إلى التنافس والتسارع إلى الخيرات، إذ كل طائفة تسعى من أجل معرفة أفضل بأنظمة الحياة، ووسائل أفضل لتسخير إمكاناتها بهدف تحقيق التقدم على الطوائف الأخرى، ولذلك نجد الحضارات الكبرى في التاريخ إنما نشأت بسبب تصارع وتدافع الطوائف مع بعضها، تصارعاً خفيًّا لايدعو إلى التدمير داخل الأمة الواحدة.

دال: إن هذا الاختلاف ينبغي ألا يجعل عدوًّا رئيسيًّا يتسهدف كل فريق القضاء عليه بالقضاء على صاحبه أو بالجدليات الكلامية كلا. بل ينبغي أن يترك الحكم على عاقبة الاختلاف ونهاية الصراع أن يكون لهذا أو لذاك يترك ذلك إلى الله واليوم الآخر حتى لا توجه هذه الطاقة البناءة (طاقة الصراع والتنافس) إلى الدمار والهلاك، فيصبح هدف كل فريق القضاء على مكاسب الفريق الآخر كلا. بل ليكن هم كل فريق الحصول على مكاسب أكبر من صاحبه في ميدان الحياة الرحيب الذي يسع الجميع دون تضايق.

إن حكمة الله في إيجاد الناس مختلفين هي اختبارهم في مدى القوى الذاتية والإمكانات الطبيعية التي وفرها لهم لكي يعلم أي الفريقين أكثر معرفة وعلماً بالحياة، وأفضل تسخيرا لها وبالتالي أكثر إيماناً، وأفضل عملاً صالحاً ﴿فَٱحْكُم بَيْنَهُم بِمَآ أَنزَلَ ٱللَّهُ وَلَا تَتَّبِعْ أَهْوَآءَهُمْ عَمَّا جَآءَكَ مِنَ ٱلْحَقِّ﴾ ويجعل العلم في القرآن في مقابل الهوى لأن الأهواء هي الحجب الكثيفة التي تمنع الإنسان من الوصول إلى الحق.

﴿لِكُلٍّ جَعَلْنَا مِنكُمْ شِرْعَةً وَمِنْهَاجًا﴾ بالرغم من أن الشرعة والمنهاج بمعنى واحد وهو الطريقة حتى قالوا: بأنهما مترادفان بالرغم من ذلك فإن المنهاج هو: الطريق المستقيم، بينما الشريعة هي: الطريق العريض الواضح، فيتبادر أن المراد بالمنهاج هو ما يخص الأمور المعنوية (والتي نسميها بالثقافة) باعتبارها لحاظ الاستقامة في الحكمة، بينما المراد من الشريعة هو الأمور المادية والله أعلم.

الأهداف البعيدة للاختلاف

﴿وَلَوْ شَآءَ ٱللَّهُ لَجَعَلَكُمْ أُمَّةً وَٰحِدَةً وَلَٰكِن لِّيَبْلُوَكُمْ فِى مَآ ءَاتَىٰكُمْ﴾ ليخرج طاقاتكم وطبائعكم الكامنة، ومدى استقامتكم.

﴿فَٱسْتَبِقُوا۟ ٱلْخَيْرَٰتِ﴾ وهذا هو هدف الاختلاف البعيد وهو: التنافس البناء من أجل الوصول إلى الخيرات، أما الخلافات فلأن: ﴿إِلَى ٱللَّهِ مَرْجِعُكُمْ جَمِيعًا فَيُنَبِّئُكُم بِمَا كُنتُمْ فِيهِ تَخْتَلِفُونَ﴾ لذلك دعوها جانباً، ولا تتعبوا أنفسكم في محاولة انهائها أو إثبات كل فريق بأنه أحق من غيره.

[٤٩] ولا يعني السلام مع سائر الأمم وفق هذه الرؤية الرسالية البناءة، التنازل لأهوائهم وانحرافهم أو الخضوع لضغوطهم بل يعني المزيد من الالتزام بالأحكام والتطبيق العملي لاستباق الخيرات والتنافس البناء ﴿وَأَنِ ٱحْكُم بَيْنَهُم بِمَآ أَنزَلَ ٱللَّهُ وَلَا تَتَّبِعْ أَهْوَآءَهُمْ وَٱحْذَرْهُمْ أَن يَفْتِنُوكَ عَنۢ بَعْضِ مَآ أَنزَلَ ٱللَّهُ إِلَيْكَ﴾.

تسريب الثقافة الباطلة

إن المنافسين والأعداء يسعون من أجل تسريب أفكارهم وثقافاتهم إلى الأمة الإسلامية في حالات السلم القائمة بينهم وبين المسلمين، لذلك فإن القرآن يوصي بضرورة اتخاذ جانب الحذر حتى لا يتأثر المسلمون بتلك الأفكار.

وعلى المسلمين ألا ينبهروا بالحياة الآمنة التي يظهر وجودها عند الكفار أو الأمم الأخرى، لأن هذه الحياة سوف تتحول إلى جحيم بسبب ذنوبهم، ولذلك يجب التحصن ضد التأثر بهم، وتقليد أفكارهم أو عاداتهم ﴿فَإِن تَوَلَّوْا۟ فَٱعْلَمْ أَنَّمَا يُرِيدُ ٱللَّهُ أَن يُصِيبَهُم بِبَعْضِ ذُنُوبِهِمْ وَإِنَّ كَثِيرًا مِّنَ ٱلنَّاسِ لَفَٰسِقُونَ﴾.

تصدير الإسلام

[٥٠] إن الأمة الإسلامية تسعى من أجل تصدير برنامجها ورسالتها بالنموذج المتكامل الذي تصنعه حياتها الخاصة، ولذلك فهي لا تحتاج دائماً إلى شن الحروب ضد الأمم الأخرى ولكن هذا التصدير غير ممكن من دون تحصن أبناء الأمة عن تسرب أفكار وبرامج الآخرين الجاهلية إليها، وذلك بان تعرف الأمة أن حكم أولئك حكم جاهلي عفن قد أكل الدهر عليه وشرب وأنه لايمكن أن يستمع إليه المسلمون.

﴿أَفَحُكْمَ الْجَاهِلِيَّةِ يَبْغُونَ﴾ يريدون الجاهلية، والجاهلية هي الحكم الذي لا يستمد أصوله من العلم. والعلم بدوره نابع من أحد المصدرين العقل أو الوحي.

﴿وَمَنْ أَحْسَنُ مِنَ اللَّهِ حُكْمًا لِقَوْمٍ يُوقِنُونَ﴾ أي لأولئك الذين يبلغ بهم العلم درجة اليقين، وهذا أرقى درجات العلم بالحقيقة، فقد يكون هناك علم من دون يقين كأن تطمئن نفسك إلى الحق بعيداً عن دواعي الشهوة والغضب.

والحكم المثالي في رؤية الإسلام هو: الحكم الذي تكون برامجه نابعة من العلم (الآتي بدوره من العقل أو الوحي) بشرط أن يكون تطبيق هذه البرامج من قبل الناس معتمداً على الالتزام الذاتي والواعي الذي يوفره اليقين، لذلك أكدت الآية على أن أحسن أنواع الحكومة هو حكم الله بشرط أن يطبقه أهل الوعي واليقين لا أن يفرض على الناس فرضاً.. أو يتبعه الناس تقليداً أعمى.

الكفار بعضهم أولياء بعض

﴿ يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لَا تَتَّخِذُوا الْيَهُودَ وَالنَّصَارَى أَوْلِيَاءَ بَعْضُهُمْ أَوْلِيَاءُ بَعْضٍ وَمَن يَتَوَلَّهُم مِّنكُمْ فَإِنَّهُ مِنْهُمْ إِنَّ اللَّهَ لَا يَهْدِي الْقَوْمَ الظَّالِمِينَ (٥١) فَتَرَى الَّذِينَ فِي قُلُوبِهِم مَّرَضٌ يُسَارِعُونَ فِيهِمْ يَقُولُونَ نَخْشَى أَن تُصِيبَنَا دَائِرَةٌ فَعَسَى اللَّهُ أَن يَأْتِيَ بِالْفَتْحِ أَوْ أَمْرٍ مِّنْ عِندِهِ فَيُصْبِحُوا عَلَى مَا أَسَرُّوا فِي أَنفُسِهِمْ نَادِمِينَ (٥٢) وَيَقُولُ الَّذِينَ آمَنُوا أَهَٰؤُلَاءِ الَّذِينَ أَقْسَمُوا بِاللَّهِ جَهْدَ أَيْمَانِهِمْ إِنَّهُمْ لَمَعَكُمْ حَبِطَتْ أَعْمَالُهُمْ فَأَصْبَحُوا خَاسِرِينَ (٥٣) ﴾.

هدى من الآيات:

بالرغم من ضرورة إقامة السلام، بين الفئات المؤمنة بالله، على اختلاف مناهجهم وشرائعهم -كما أكده الدرس السابق- فإن ذلك لا يعني الخضوع لهم، واتخاذهم أولياء، وهم لا يهتدون السبيل الأقوم لأنهم ظالمون لأنفسهم.

وأولئك الذين يسارعون إلى اتخاذهم أولياء، مبتلون بمرض قلبي، وهو الخوف منهم لكي لا تصيبهم دائرة بسبب مخالفتهم لأولئك والسؤال هو: إذا جاء الله بالفتح ونصر المسلمين على أولئك أفليس يندم هؤلاء على ما كتموه؟.

وقد يمكن أن يغلب أولئك فيخونوا باتباعهم لأنهم لا يعتبرونهم منهم، والذين آمنوا يشمتون بالمنافقين. كيف أنهم وصلوا إلى الطريق المسدود؟ فهؤلاء الكفار دارت عليهم الدائرة وحبطت أعمالهم وأصبحوا خاسرين، خسروا الصراع كما خسروا أولياءهم.

بينات من الآيات:

الولاء المنحرف

[٥١] يزعم بعض ضعفاء الإيمان من المسلمين انه يمكن أن يحتموا بقوة أجنبية لمقاومة قوة أجنبية أخرى، مثلاً يعتمدون على النصارى لمقاومة اليهود،وهذا زعم خاطئ لسببين:

الأول: أن الأجنبي أقرب إلى الأجنبي في الواقع منك، وان اليهود والنصارى سوف يتحالفان ضدك، وبالنسبة إليك كمسلم تملك شريعة مختلفة عنهما ومنهاجاً متضاداً معهما فإنه يتساوى اليهود والنصارى، أو الشرق والغرب فهما معا بعيدان عنك، وعن مجتمعك.. مخالفان لك.

الثاني: إنك حين تتحالف مع هؤلاء أو أولئك تصبح جزءاً من مجتمعهم، وامتداداً لوجودهم وهذا يفصلك عن مجتمعك المسلم، لأن أهم ما يحدد هوية الشخص هو ولاؤه فلا يجتمع ولاءان لفردٍ واحد، لذلك قال ربنا: ﴿ يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لَا تَتَّخِذُوا الْيَهُودَ وَالنَّصَارَىٰ أَوْلِيَاءَ بَعْضُهُمْ أَوْلِيَاءُ بَعْضٍ وَمَن يَتَوَلَّهُم مِّنكُمْ فَإِنَّهُ مِنْهُمْ ﴾ وربما يزعم مثل هذا الرجل أنه يتمكن من ربح الجهتين معاً، فهو في الظاهر من المسلمين، وفي الباطل يوالي الأجنبي، ولكنه خاطئ، لأنه بفعله هذا يظلم مجتمعه، ولذلك لايهديه الله لأن القلب المليء بالنفاق والغش والغل لا يشع فيه نور العقل ﴿إِنَّ اللَّهَ لَا يَهْدِي الْقَوْمَ الظَّالِمِينَ ﴾.

[٥٢] من الذي يوالي الأجنبي؟.

إنه الفرد أو الطبقة المنهزمة نفسيًّا أمامه، والتي تخشى قوة الأجنبي، وسيطرته في المستقبل على أوضاع البلد فتتعاون معه ﴿ فَتَرَى الَّذِينَ فِي قُلُوبِهِم مَّرَضٌ يُسَارِعُونَ فِيهِمْ يَقُولُونَ نَخْشَىٰ أَن تُصِيبَنَا دَائِرَةٌ ﴾ أي مكروه، أو سلطة العدو.

إنتظار الفرج

ولكن ربنا يقول: إن هناك احتمالاً وجيهاً آخر هو الانتصار الكاسح للمسلمين عليهم أفلا يخشون المسلمين إذن!.

﴿فَعَسَى اللَّهُ أَن يَأْتِيَ بِالْفَتْحِ ﴾ بأن ينصر المسلمين على أعدائهم. ﴿أَوْ أَمْرٍ مِّنْ عِندِهِ ﴾ كعذاب شديد يصيب الكفار ليس على أيدي المؤمنين، بل عن طريق زلزال أو خسف أو مرض ﴿فَيُصْبِحُوا عَلَىٰ مَا أَسَرُّوا فِي أَنفُسِهِمْ نَادِمِينَ ﴾ لأنهم اعتمدوا على قوة ضعيفة، وتركوا ولاءهم

المقدس لسراب خادع.

[٥٣] وآنئذ حين ينصر الله المسلمين أو يهلك الكفار بأمره، يشمت المسلمون بالمنافقين ويقولون لهم: أكان هؤلاء الكفار هم القوة التي تحالفتم معها بقوة،

فهذه مكاسبهم قد ضاعت في سراب الشرك، وبقي رأسمالهم الوحيد الخسارة والندم!

﴿وَيَقُولُ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓا۟ أَهَٰٓؤُلَآءِ ٱلَّذِينَ أَقْسَمُوا۟ بِٱللَّهِ جَهْدَ أَيْمَٰنِهِمْ إِنَّهُمْ﴾ أي بكل أيمانهم، وبأشد أنواع الحلف وكان محتوى حلفهم ﴿لَمَعَكُمْ حَبِطَتْ أَعْمَٰلُهُمْ﴾ جميعاً لأنهم كانوا مشركين ﴿فَأَصْبَحُوا۟ خَٰسِرِينَ﴾.

حزب الله

﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ مَن يَرۡتَدَّ مِنكُمۡ عَن دِينِهِۦ فَسَوۡفَ يَأۡتِي ٱللَّهُ بِقَوۡمٖ يُحِبُّهُمۡ وَيُحِبُّونَهُۥٓ أَذِلَّةٍ [١] عَلَى ٱلۡمُؤۡمِنِينَ أَعِزَّةٍ [٢] عَلَى ٱلۡكَٰفِرِينَ يُجَٰهِدُونَ فِي سَبِيلِ ٱللَّهِ وَلَا يَخَافُونَ لَوۡمَةَ لَآئِمٖۚ ذَٰلِكَ فَضۡلُ ٱللَّهِ يُؤۡتِيهِ مَن يَشَآءُۚ وَٱللَّهُ وَٰسِعٌ عَلِيمٌ (٥٤) إِنَّمَا وَلِيُّكُمُ ٱللَّهُ وَرَسُولُهُۥ وَٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ ٱلَّذِينَ يُقِيمُونَ ٱلصَّلَوٰةَ وَيُؤۡتُونَ ٱلزَّكَوٰةَ وَهُمۡ رَٰكِعُونَ [٣] (٥٥) وَمَن يَتَوَلَّ ٱللَّهَ وَرَسُولَهُۥ وَٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ فَإِنَّ حِزۡبَ [٤] ٱللَّهِ هُمُ ٱلۡغَٰلِبُونَ (٥٦) ﴾.

هدى من الآيات:

وجود عناصر منافقة توالي اليهود والنصارى في الأمة، لا يعني أن الأمة الإسلامية قد انتهت بل إن ربنا سبحانه سوف يهدي جماعة يتميزون بصفات الأعضاء الواقعيين لحزب الله، وللمجتمع المسلم.

إن الله يحبهم وهم يحبون الله، والله يتفضل عليهم، وهم يضحون في سبيله، وانسجامهم مع بعضهم يبلغ درجة التواضع والإيثار، فهم أذلة على المؤمنين، ولكنهم يشعرون بالقوة والمنعة أمام الأجنبي الكافر فهم أعزة على الكافرين، وجهادهم في سبيل الله دائم ونابع من إيمانهم الصادق بربهم وليس من تيار اجتماعي، ولذلك فهم لا يخافون لومة لائم، وهذه الصفات كلها من الله.. من الإيمان به والتوكل عليه، وبالتالي من نعمته على البشر التي يتفضل بها على من

---

(١) أذلة: الذّل بالكسر السهولة، وبالضم ضد العز، فالأول من اللين والانقياد، والثاني من الهوان والاستخفاف.
(٢) أعزة: العزة الشدة وأصل الباب الامتناع.
(٣) الراكع: الركوع هو الانحناء المخصوص.
(٤) الحزب: الطائفة والجماعة.

يشاء من عباده، والله واسع النعمة عليم بمن يستحقها.

وهؤلاء هم الذين يستحقون الولاية في المجتمع الإسلامي، لأنه الولاية الأساسية هي لله ثم لرسوله ثم للذين ﴿ءَامَنُواْ ٱلَّذِينَ يُقِيمُونَ ٱلصَّلَوٰةَ وَيُؤْتُونَ ٱلزَّكَوٰةَ وَهُمْ رَٰكِعُونَ﴾ ومن يتخذ هذه الولاية حقًّا فإنه من حزب الله، وإن ﴿حِزْبَ ٱللَّهِ هُمُ ٱلْغَٰلِبُونَ﴾ .

أما الكفار فحرام على المسلمين أن يتخذوهم أولياء لأنهم ليس فقط لا يصلون، بل يستهزئون بالصلاة، ولابد أن يلتزم المسلم بعهده مع الله ويتقيه ولا يتولى الكفار أو أهل الكتاب.

وإنما يستهزئ هؤلاء بالصلاة لأنهم لا يعقلون واقع الصلاة وعلاقتها بتزكية الإنسان، وتربية المجتمع الفاضل.

بينات من الآيات:

صفات المجتمع الفاضل

[٥٤] لاتزعم أنك لو واليت الأجانب فإن المجتمع الإسلامي سوف ينطبع بطابعك، أو سوف يصبح أقرب إلى الأجنبي، كلا.. بل إنك سوف ترتد عن دينك، وتنفصل عن واقع المجتمع المسلم حتى ولو كنت ذا سمة بارزة فيه وذا منصب كبير، إذ أن الله سوف يأتي بقوم يجسدون ذلك المجتمع الفاضل الذي يتسم بالصفات التالية..

أولاً: إن الله يحبهم، ولا يحب الله الشخص لذاته بل لتكامل الصفات الحسنة فيه، من الإيمان والعمل الصالح، وحين يحب الله أحداً تحبه ملائكته وأولياؤه ويسخر له ما في السماء والأرض لأنها مطيعة لله.

ثانياً: وهم يحبون الله، ويشعرون بأن الله متفضل عليهم، وأن عليهم شكر ربهم بالعطاء وبالصلاة والزكاة والجهاد، وحين يصلون أو يزكون ويجاهدون فإن عطاءهم هذا ليس جبراً عليهم وإكراهاً بل طوعاً واختياراً لأنه نابع من حبهم لله.

ثالثاً: ولأن علاقتهم بالله هي علاقة حب وهي أرفع درجات الانسجام والتوافق فإنهم يحبون بعضهم ويتساهلون في علاقاتهم. حتى يزعم الناظر إليهم من بعيد أن الواحد منهم عبد للآخرين في علاقة التواضع والإيثار والابتعاد عن الذاتيات، فهم أذلة على المؤمنين.

رابعاً: أما علاقتهم مع الكفار فهي علاقة المنعة والتحدي، فهم أعزة عليهم صامدون

أمامهم غير متأثرين بأفكارهم، وغير خائفين منهم.

خامساً: ونشاط المجتمع المسلم مكثف، ويتحدى الصعوبات الداخلية والخارجية، فهم أبداً يجاهدون في سبيل الله ضد سلبياتهم الداخلية وضد الأعداء الخارجين.

سادساً: إن سلوكهم لايتأثر بما يقوله الآخرون، بل بما تمليه عليهم أفكارهم السليمة وبصائرهم النافذة لذلك فإن الإشاعات لا تنال من جهادهم.

﴿ يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا مَن يَرْتَدَّ مِنكُمْ عَن دِينِهِ ﴾ فإنه يخسر انتماءه إلى المجتمع المسلم، بينما المجتمع المسلم موجود ليس به وبأمثاله بل بمن يأتي به الله.

﴿فَسَوْفَ يَأْتِي اللَّهُ بِقَوْمٍ ﴾ عن طريق هدايته لهم.

﴿يُحِبُّهُمْ وَيُحِبُّونَهُ أَذِلَّةٍ عَلَى الْمُؤْمِنِينَ أَعِزَّةٍ عَلَى الْكَافِرِينَ يُجَاهِدُونَ فِي سَبِيلِ اللَّهِ وَلَا يَخَافُونَ لَوْمَةَ لَائِمٍ ﴾ لأن انتماءهم إلى المجتمع المسلم يغنيهم عن الارتباط بسائر الناس غير المسلمين، فلذلك لا تؤثر فيهم الشائعات والدعايات وما يبثه المغرضون حول أهدافهم المقدسة.

وهذا النموذج المتكامل يصنعه الإيمان الصادق بالله، وتطبيق مناهج الرسالة التربوية.

﴿ذَلِكَ فَضْلُ اللَّهِ يُؤْتِيهِ مَن يَشَاءُ وَاللَّهُ وَاسِعٌ عَلِيمٌ ﴾ لأنه واسع فإن نعمه كبيرة لا تحصى، لأنه عليم فهو يعلم من الذي يستحق بأعماله وبنيته الطيبة.. فضل الله سبحانه.

ولاية الله أهم مظاهر حزب الله

[٥٥] تلك كانت الصفات الظاهرة للمجتمع المسلم أو بالأحرى -الطليعة المسلمة- أما واقع هذه الطليعة فهو قبول ولاية الله في السماء والأرض.. في الغيب والشهود.. في أمور الآخرة والدين، كما في شؤون الدنيا والحياة، وولاية الله تعني:

أولاً: إخلاص العبودية له.

ثانياً: إتباع مناهجه.

ثالثاً: أن يكون حب الفرد وبغضه لله وفي الله.

وولاية الله في الدنيا تتجسد في قيادة الرسول ﷺ وخلفائه الأئمة عليهم السلام، والربانيين، والأحبار الصالحين ﴿إِنَّمَا وَلِيُّكُمُ اللَّهُ وَرَسُولُهُ وَالَّذِينَ آمَنُوا الَّذِينَ يُقِيمُونَ الصَّلَاةَ وَيُؤْتُونَ الزَّكَاةَ وَهُمْ رَاكِعُونَ ﴾.

فإن حزب الله هم الغالبون

[٥٦] والذين ءامنوا هم المجتمع الرسالي الأمثل الذي لا يتجاوز انتماء الفرد عن حدودهم، بل يقتصر عليهم لكي تتشكل هذه الولاية بالإضافة إلى تلك القيادة -الحزب الإلهي-: ﴿ وَمَن يَتَوَلَّ ٱللَّهَ وَرَسُولَهُۥ وَٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ فَإِنَّ حِزْبَ ٱللَّهِ هُمُ ٱلْغَـٰلِبُونَ ﴾.

والسؤال: لماذا يغلب حزب الله سائر التجمعات؟.

أولاً: لأن إرادة الله العليا تشاء ذلك بأن ينتصر حزبه على سائر الأحزاب، وفي صراع المجتمعات الإسلامية والجاهلية شواهد على أن ما نسميه بالصدفة (أو بالأحرى القدر الإلهي) يلعب دوراً أساسيًّا في انتصار الرسالة، وما هي سوى إرادة الله العليا التي عبر سبحانه عنها بقوله: ﴿إِن تَنصُرُوا۟ ٱللَّهَ يَنصُرْكُمْ وَيُثَبِّتْ أَقْدَامَكُمْ﴾ [محمد: ٧].

ثانياً: إن حزب الله يعتمد على أساس القيم الحياتية التي تربي الفرد على اليقين والعمل الصالح والانضباط، وهذه القيم قادرة على صنع الحضارة..

ثالثاً: أساس التنافس داخل المجتمع الإسلامي ليس بالشخصيات ولا الغنى ولا العنصر، وإنما العلم والعمل، اللذان يعتبران القيمتين الأساسيتين في هذا المجتمع، بينما أساس التنافس في سائر المجتمعات هي واحدة من تلك القيم الزائفة، ومن الطبيعي أن يرتقي ذلك المجتمع الذي يتنافس أصحابه على العلم والعمل.

رابعاً: أبرز ما يعطي المجتمعات التقدم والاستمرار هو قدرتها على تجاوز التحديات التي تتعرض لها من قبل الآخرين، والمجتمع الإسلامي يتكئ على الجهاد والشهادة في مقاومة التحديات وتجاوز الصراعات، فيكون أقدر على الاستمرار والتقدم.

من هنا كان حزب الله -بالرغم من قلة أبنائه وضآلة موارده في البداية- أقوى من حزب الشيطان على كثرة عدده وعدته وهو الغالب عليهم.

عبد الطاغوت

﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ لَا تَتَّخِذُواْ ٱلَّذِينَ ٱتَّخَذُواْ دِينَكُمْ هُزُوًا(١) وَلَعِبًا(٢) مِّنَ ٱلَّذِينَ أُوتُواْ ٱلْكِتَٰبَ مِن قَبْلِكُمْ وَٱلْكُفَّارَ أَوْلِيَآءَ ۚ وَٱتَّقُواْ ٱللَّهَ إِن كُنتُم مُّؤْمِنِينَ (٥٧) وَإِذَا نَادَيْتُمْ(٣) إِلَى ٱلصَّلَوٰةِ ٱتَّخَذُوهَا هُزُوًا وَلَعِبًا ۚ ذَٰلِكَ بِأَنَّهُمْ قَوْمٌ لَّا يَعْقِلُونَ (٥٨) قُلْ يَٰٓأَهْلَ ٱلْكِتَٰبِ هَلْ تَنقِمُونَ(٤) مِنَّآ إِلَّآ أَنْ ءَامَنَّا بِٱللَّهِ وَمَآ أُنزِلَ إِلَيْنَا وَمَآ أُنزِلَ مِن قَبْلُ وَأَنَّ أَكْثَرَكُمْ فَٰسِقُونَ (٥٩) قُلْ هَلْ أُنَبِّئُكُم بِشَرٍّ مِّن ذَٰلِكَ مَثُوبَةً عِندَ ٱللَّهِ ۚ مَن لَّعَنَهُ ٱللَّهُ وَغَضِبَ عَلَيْهِ وَجَعَلَ مِنْهُمُ ٱلْقِرَدَةَ وَٱلْخَنَازِيرَ وَعَبَدَ ٱلطَّٰغُوتَ ۚ أُوْلَٰٓئِكَ شَرٌّ مَّكَانًا وَأَضَلُّ عَن سَوَآءِ ٱلسَّبِيلِ (٦٠) ﴾.

هدى من الآيات:

لكي يصنع الإسلام سدًّا منيعا بين المجتمع الإسلامي، والمجتمعات الجاهلية، حتى لا يبتلى المجتمع بازدواجية الولاء، يحرم اتخاذ غيرهم أولياء من أولئك الذين يتخذون الدين الإسلامي هزواً ولعباً، سواء كانوا كفاراً مشركين أو كانوا من أهل الكتاب، ويأمرهم بالتقوى والخوف من الله، والحذر من عقابه.

ويذكرهم القرآن بأن أولئك يتخذون الصلاة هزواً ولعباً وبسبب عدم انتفاعهم بعقولهم لم يعرفوا مدى أهمية الصلاة، وهم ينكرون على المسلمين إيمانهم بالله وبما أنزله الله من كتاب، بينما أولئك أكثرهم فاسقون.

---

(١) هزواً: سخريةً.

(٢) لعباً: اللعب الأخذ على غير طريق الحق.

(٣) النداء: الدعاء بمد الصوت.

(٤) تنقمون: نقم الأمر نكره، والعقاب نقمة: لأنّه يجب على ما ينكر من الفعل.

وعند التقييم العادل يطرح هذا السؤال: من الذي شر مكاناً؟ المسلمون أم اليهود الذين لعنهم الله، وغضب عليهم، وهم يعبدون الطاغوت؟؟.

من الطبيعي أن هؤلاء اليهود هم شر مكانا وموقفا في الحياة الدنيا، وابعد عن طريق الحق، وأبعد عن الهدى.

بينات من الآيات:

لا توال هؤلاء!

[٥٧] حين يكون مقياس الإنسان في تقييم الأشخاص والمجتمعات هو مبدؤه ودينه ورسالته، يكون ولاؤه للناس بقدر ولائهم لذلك المبدأ والدين أو تلك الرسالة، اما إذا كان المقياس مصالحة العاجلة فإنه قد يوالي من يخالف دينه ورسالته، أو حتى يستهزئ بها او يحاول الانتقاص منها، والاستهزاء هو أسوأ أنواع الانتقاص من فكرة أو شخص، حيث يزعم المستهزئ أن سخافة الفكرة أو رذالة الشخص قد بلغت حداً لا يحتاج إلى دليل لردها، بل إلى كلمات ساخرة ينتبه الفرد بعدها إلى واقعه وواقع فكرته غير الصالحين.

والقرآن الحكيم ينهى المؤمنين من تكوين علاقات ولائية بينهم وبين من لا يحترم دينهم ويقول: ﴿يَـٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ لَا تَتَّخِذُوا۟ ٱلَّذِينَ ٱتَّخَذُوا۟ دِينَكُمْ هُزُوًا وَلَعِبًا مِّنَ ٱلَّذِينَ أُوتُوا۟ ٱلْكِتَـٰبَ مِن قَبْلِكُمْ وَٱلْكُفَّارَ أَوْلِيَآءَ﴾ الهزء: السخرية الظاهرة، بالكلام واللعب، واتخاذ الشيء مادة للتلهية عملياً كتقليد حركات الصلاة استهزاء، أو أداء الصلاة نفاقاً (كما قال بعض المفسرين) ومن المعلوم أن جميع اليهود والنصارى أو أهل الكتاب ليسوا كذلك بل إن بعضهم هو الذي يستهزئ بالدين ﴿وَٱتَّقُوا۟ ٱللَّهَ إِن كُنتُم مُّؤْمِنِينَ﴾ فلا تدفعكم المصالح العاجلة إلى الارتباط بمثل هذه الفئات، فإن كرامة الإنسان واستقلاله أعز شيء عنده ولا يجوز التنازل عنهما لأسباب مصلحية مؤقتة، كما تفعل بعض الأنظمة في بلاد المسلمين اليوم، حيث يرتبطون بالقوى المعادية للإسلام والمسلمين، ويعقدون معهم أحلاف الولاء لبعض المصالح العاجلة، في الوقت الذي لاتَني مؤسسات الأعداء الإعلامية وأحزابهم عن النيل من الإسلام أهله.

والسؤال الذي يفرض علينا عبر التاريخ ودروس الحضارات البائدة والمجتمعات المتخلفة هو: كيف يحترم العالم مجتمعاً لايحترم نفسه، وكم يفي العالم لمثل هذا المجتمع الناقد لكرامته واستقلاله، وكم يفي له بالعهود، وإلى متى تستمر له هذه المصالح العاجلة، وأساساً هل تعني المصالح شيئاً لمجتمع فقد كرامته؟!.

[٥٨] وحين ينادي المؤذن بالصلاة ترى هؤلاء يستهزئون بها ويتغامزون بينهم ويقولون لبعضهم: انظروا إلى المسلمين يتركون أعمالهم لأداء شيء غير نافع، وهذا مثل ظاهر لما ذكرت في الآية السابقة.

﴿وَإِذَا نَادَيْتُمْ إِلَى ٱلصَّلَوٰةِ ٱتَّخَذُوهَا هُزُوًا وَلَعِبًا ۚ ذَٰلِكَ بِأَنَّهُمْ قَوْمٌ لَّا يَعْقِلُونَ﴾ انهم لا ينتفعون بما وهب الله لهم من نعمة العقل التي تدعوهم إلى التفكر في فوائد الصلاة، ومدى ارتباط سعادة البشر وفلاحه بها.

[٥٩] بل إنْ هَزْأ هؤلاء وإنكارهم على المسلمين وتناقضهم معهم ليس من أجل المصالح المتضادة ولا من أجل الاختلاف في الدم واللغة كما يزعمون بل من أجل الاختلاف في القيم والمبادئ، وأن المسلمين آمنوا بالله وبالرسالات.

بينما ظل أولئك كافرين عمليًّا بها. حيث أنهم مع تظاهرهم بالإيمان بالرسالة فهم لا ينفذون تعاليم الرسالة إلا فسقاً وتهاوناً ﴿قُلْ يَٰٓأَهْلَ ٱلْكِتَٰبِ هَلْ تَنقِمُونَ مِنَّآ إِلَّآ أَنْ ءَامَنَّا بِٱللَّهِ وَمَآ أُنزِلَ إِلَيْنَا وَمَآ أُنزِلَ مِن قَبْلُ وَأَنَّ أَكْثَرَكُمْ فَٰسِقُونَ﴾.

سوء العاقبة

[٦٠] والواقع إن العاقبة للمؤمنين المتقين، أما الفساق فإن نهايتهم سيئة، ومثوبتهم وجزاءهم شر عليهم، بالنهم ملعونون عند الله بعيدون عن رحمته، ولأن الله غضب عليهم وأنزل عليهم العذاب الظاهر حيث جعل منهم القردة والخنازير، وجعل منهم عبدة الطاغوت، أي ابتلاهم، بسبب فقدان كرامتهم واستقلالهم، بالطاغوت وبالسلطات الظالمة.

﴿قُلْ هَلْ أُنَبِّئُكُم بِشَرٍّ مِّن ذَٰلِكَ مَثُوبَةً عِندَ ٱللَّهِ ۚ﴾ أي جزاء عند الله وعاقبة.

﴿مَن لَّعَنَهُ ٱللَّهُ وَغَضِبَ عَلَيْهِ﴾ اللعنة -حسبما يبدو لي- الابتعاد عن رحمة الله بينما الغضب: انزال العذاب، وقد تمثل في الدنيا بأمرين:

- ﴿وَجَعَلَ مِنْهُمُ ٱلْقِرَدَةَ وَٱلْخَنَازِيرَ وَعَبَدَ ٱلطَّٰغُوتَ ۚ أُو۟لَٰٓئِكَ شَرٌّ مَّكَانًا﴾ من الناحية المادية.
- ﴿وَأَضَلُّ عَن سَوَآءِ ٱلسَّبِيلِ﴾ أي أبعد عن الجادة... من الناحية المعنوية.

اليهود.. غلت أيديهم

﴿ وَإِذَا جَاءُوكُمْ قَالُوا آمَنَّا وَقَد دَّخَلُوا بِالْكُفْرِ وَهُمْ قَدْ خَرَجُوا بِهِ وَاللَّهُ أَعْلَمُ بِمَا كَانُوا يَكْتُمُونَ (٦١) وَتَرَىٰ كَثِيرًا مِّنْهُمْ يُسَارِعُونَ فِي الْإِثْمِ[١] وَالْعُدْوَانِ وَأَكْلِهِمُ السُّحْتَ لَبِئْسَ مَا كَانُوا يَعْمَلُونَ (٦٢) لَوْلَا يَنْهَاهُمُ الرَّبَّانِيُّونَ وَالْأَحْبَارُ عَن قَوْلِهِمُ الْإِثْمَ وَأَكْلِهِمُ السُّحْتَ لَبِئْسَ مَا كَانُوا يَصْنَعُونَ (٦٣) وَقَالَتِ الْيَهُودُ يَدُ[٢] اللَّهِ مَغْلُولَةٌ غُلَّتْ أَيْدِيهِمْ وَلُعِنُوا بِمَا قَالُوا بَلْ يَدَاهُ مَبْسُوطَتَانِ يُنفِقُ كَيْفَ يَشَاءُ وَلَيَزِيدَنَّ كَثِيرًا مِّنْهُم مَّا أُنزِلَ إِلَيْكَ مِن رَّبِّكَ طُغْيَانًا وَكُفْرًا وَأَلْقَيْنَا بَيْنَهُمُ الْعَدَاوَةَ وَالْبَغْضَاءَ إِلَىٰ يَوْمِ الْقِيَامَةِ كُلَّمَا أَوْقَدُوا نَارًا لِّلْحَرْبِ أَطْفَأَهَا اللَّهُ وَيَسْعَوْنَ فِي الْأَرْضِ فَسَادًا وَاللَّهُ لَا يُحِبُّ الْمُفْسِدِينَ (٦٤) وَلَوْ أَنَّ أَهْلَ الْكِتَابِ آمَنُوا وَاتَّقَوْا لَكَفَّرْنَا[٣] عَنْهُمْ سَيِّئَاتِهِمْ وَلَأَدْخَلْنَاهُمْ جَنَّاتِ النَّعِيمِ (٦٥) وَلَوْ أَنَّهُمْ أَقَامُوا التَّوْرَاةَ وَالْإِنجِيلَ وَمَا أُنزِلَ إِلَيْهِم مِّن رَّبِّهِمْ لَأَكَلُوا مِن فَوْقِهِمْ وَمِن تَحْتِ أَرْجُلِهِم مِّنْهُمْ أُمَّةٌ مُّقْتَصِدَةٌ[٤] وَكَثِيرٌ مِّنْهُمْ سَاءَ مَا يَعْمَلُونَ (٦٦) ﴾.

هدى من الآيات:

في مقابل المجتمع الإسلامي نجد المجتمع الفاسد، الذي يمثله اليهود، ويتميزون بعدة صفات سلبية:

---

(١) الإثم والعدوان: الفرق بينهما: أن الإثم هو الحرام كائناً ما كان والعدوان هو الظلم.
(٢) يد: تذكر في اللغة على أوجه خمس، الجارحة، والنعمة، والقوة، والملك، وتحقيق إضافة الفعل.
(٣) لكفرنا: أصل التكفير التغطية.
(٤) أمة مقتصدة: أمة معتدلة في العمل من غير غلو ولا تقصير.

الأولى: النفاق، حيث يتظاهرون بالإيمان، ولكن دخولهم في محضر الرسول ﷺ يتم بالكفر، كما أن خروجهم يتم بالكفر ايضاً، والله يعلم انهم يكتمون الكفر.

الثانية: أنهم يتسابقون إلى قول الإثم، وإلى الاعتداء على حرمة الناس وعلى أكل أخبث الحرام.

الثالثة: أن رجال العلم والدين قد فسدوا ولم يتناهوا عن الإثم وأكل السحت.

الرابعة: أنهم قدريون آيسون من رحمة الله، ويزعمون أن يد الله مغلولة.

الخامسة: أن رسالة الله تزيدهم طغياناً وكفراً.

السادسة: أنهم مختلفون بعضهم يعادي بعضاً.

السابعة: أن طبيعتهم تنزع إلى الحرب والفساد.

إن هذه الصفات هي التي تدمر الكفار لأنه إذا آمن أهل الكتاب إيماناً حقيقيًّا واتقوا الكفَّر الله عنهم سيئاتهم ولأدخلهم جنات النعيم في الآخرة، اما في الدنيا فلو أنهم طبقوا الرسالة، ونفذوا أوامر الله في التوراة والإنجيل إذن، لعاشوا في الرفاه بحيث يأكلون من فوقهم ومن تحت أرجلهم، ولكن منهم أمة مقتصدة تطبق تعاليم السماء، وكثير منهم فاسقون ويعملون عملاً سيئاً لذلك ابتلوا بهذه الصفات السيئة.

بينات من الآيات:

تارك الرسالة صفات وتقييم

[٦١] لكي لا يتخذ المؤمنون الأجانب أولياء، يعدد الله صفات طائفة من اليهود التي تنطبق أيضاً على كل أمة تركت رسالات الله، ونافقت في إيمانها كالأنظمة المسيحية في العالم الغربي، او أدعياء الإسلام في عالمنا الإسلامي، وأبرز تلك الصفات السيئة التي تنشأ منها سائر الصفات الرذيلة، هي النفاق ﴿وَإِذَا جَآءُوكُمْ قَالُوٓاْ ءَامَنَّا وَقَد دَّخَلُواْ بِٱلْكُفْرِ وَهُمْ قَدْ خَرَجُواْ بِهِۦ﴾ فالكفر كان يصاحبهم قبل وبعد دخولهم على الرسول ﷺ أو في الإسلام ظاهراً ﴿وَٱللَّهُ أَعْلَمُ بِمَا كَانُواْ يَكْتُمُونَ﴾ من النفاق والدجل.. والله لا يرى ظاهر الناس فقط، بل يرى واقعهم الكامن أيضاً.

[٦٢] والإيمان يردع الفرد عن التهمة والغيبة وقول الزور وكل الأفكار المفسدة للضمير

والداعية إلى الكسل والجبن والعداء... أما المنافقون فلأنهم لايتمتعون برادع الإيمان لذلك تجدهم يسارعون في الإثم ﴿وَتَرَىٰ كَثِيرًا مِّنْهُمْ يُسَٰرِعُونَ فِى ٱلْإِثْمِ﴾ أي لا يترددون من قول الإثم والباطل.

كما أن الإيمان وازع نفسي عن الاعتداء على حرمة الآخرين بشن الحروب العدوانية، او إشاعة جو الإرهاب بالقتل والاعتقال، أو التهجير، أما من لايملك هذا الوازع فهو يسارع في التجاوز ﴿وَٱلْعُدْوَٰنِ﴾ وما يستهدفه هؤلاء من قول الإثم والعدوان هو أكل أموال الناس بالحرام: ﴿وَأَكْلِهِمُ ٱلسُّحْتَ ۚ لَبِئْسَ مَا كَانُوا۟ يَعْمَلُونَ﴾ والسُّحت هو ما خَبُث من المكاسب وحَرُم.

[٦٣] والفساد في هذا المجتمع قد تسرب إلى الجهاز الأعلى فيه إلى رجال العلم والدين الذين من المفروض أن يكونوا جهازاً إصلاحيًّا في المجتمع ولكنهم يسكتون عن الفساد ﴿لَوْلَا يَنْهَىٰهُمُ ٱلرَّبَّٰنِيُّونَ وَٱلْأَحْبَارُ عَن قَوْلِهِمُ ٱلْإِثْمَ وَأَكْلِهِمُ ٱلسُّحْتَ ۚ لَبِئْسَ مَا كَانُوا۟ يَصْنَعُونَ﴾.

بل يداه مبسوطتان

[٦٤] من الأفكار الخرافية الفاسدة التي شاعت في مثل هذا المجتمع كما عند اليهود أنهم يقولون: يد الله مغلولة وأنه خلق الخلق ثم تركه دون قدرة على تغيير أو تطوير، وبهذه الفكرة ألغوا دور الدين في الحياة، ودور الإيمان بالله والتوكل عليه في بناء الحضارات.

﴿وَقَالَتِ ٱلْيَهُودُ يَدُ ٱللَّهِ مَغْلُولَةٌ ۚ﴾ ولأن اليهود زعموا بأن قدرة الله محدودة فإنهم جمدوا وتخلفوا، لأن الإيمان بقدرة الله الواسعة تنعكس على البشر انطلاقاً وتقدماً، لأنه يستتبع الإيمان بلا محدودية الإمكانات عند البشر المؤمن المتصل ببحر قدرة الله التي لا تحد ولذلك قال ربنا: ﴿غُلَّتْ أَيْدِيهِمْ﴾ فالذي يتصور الحياة بصورة جامدة لاتتطور إلى الأفضل، والذي لا يؤمن بقدرة الله على انقاذه من ويلاته هو مغلول اليدين، والذي لا يتوكل على الله هو الآخر مغلول اليدين يعيش أبداً في أوحال الرجعية والتخلف.

وأكثر من هذا فإن اليهود ملعونون مطرودون من رحمة الله وغير قادرين على الانتفاع بالإمكانات الحاضرة لديهم، لذلك قال ربنا: ﴿وَلُعِنُوا۟ بِمَا قَالُوا۟﴾ أي لعنوا وأبعدوا من بركات الله بسبب قولهم الفاسد، أما ربنا سبحانه فإن قدرته لامحدودة، وهو ينفق من هذه القدرة حسبما تقتضيه حكمته البالغة.

﴿بَلْ يَدَاهُ مَبْسُوطَتَانِ يُنفِقُ كَيْفَ يَشَآءُ ۚ﴾ إن رؤية اليهود الجامدة إلى الرسالة الجديدة وإلى

كل جديد، وكفرهم بإمكانية التجديد أصبح حجاباً بينهم وبين نور الرسالة لذلك كلما تليت عليهم آيات الرسالة ازدادوا طغياناً.

﴿وَلَيَزِيدَنَّ كَثِيرًا مِّنْهُم مَّآ أُنزِلَ إِلَيْكَ مِن رَّبِّكَ طُغْيَٰنًا وَكُفْرًا﴾ لأنهم كانوا يزعمون أن كل جديد بدعة يجب محاربته، فلذلك كانوا يتوغلون أكثر فأكثر في خرافاتهم القديمة.

وربما بسبب الرؤية الجامدة والثابتة إلى الحياة، واعتقادهم الراسخ بأن الله لا يطور الحياة ارتبطوا بألفاظ وقوالب معينة جمدوا عليها واختلفوا فيها، واستمرت الخلافات هذه بينهم إلى يوم القيامة، ولم يدفعهم تطور الحياة إلى العودة إلى جوهر رسالتهم وترك القوالب الجامدة التي تشبث كل فريق بجانب منها وتعصب لها، لذلك أعقب القرآن الحكيم على السلبيات السابقة سلبية الخلافات الداخلية وقال: ﴿وَأَلْقَيْنَا بَيْنَهُمُ ٱلْعَدَٰوَةَ وَٱلْبَغْضَآءَ إِلَىٰ يَوْمِ ٱلْقِيَٰمَةِ كُلَّمَآ أَوْقَدُوا۟ نَارًا لِّلْحَرْبِ أَطْفَأَهَا ٱللَّهُ﴾ وإطفاء الله لنيران الحرب التي أوقدوها دليل على التدبير المباشر لربنا لشؤون الحياة، كما أن كل خطة محكمة تفشل بما يسمى بالصدفة، وكل رأي سديد ينقض بسبب ما يقال: بأنه الدهر والليل والنهار وكل تقدم وانتصار يتحقق ينسب إلى الحظ، كل ذلك دليل على الدبير المباشر لربنا في الحياة ولذلك جاء في حديث الإمام علي عليه السلام: «عَرَفْتُ اللهَ سُبْحَانَهُ بِفَسْخِ الْعَزَائِمِ وحَلِّ الْعُقُودِ ونَقْضِ الْهِمَمِ»[1].

﴿وَيَسْعَوْنَ فِى ٱلْأَرْضِ فَسَادًا وَٱللَّهُ لَا يُحِبُّ ٱلْمُفْسِدِينَ﴾ وفسادهم في الأرض نتيجة واضحة لرؤيتهم الباطلة والجامدة تجاه الحياة، فهم لا يؤمنون بضرورة العمل لمستقبل أفضل حتى يصلحوا الحياة، كما لا يؤمنون بأن فسادهم سوف يتسبب في دمار الحياة وتحول عيشهم إلى جحيم لا يطاق حتى يرتدعوا عن الفساد.

والواقع إن فكرتهم باطلة، ذلك لأن الله لا يحب المفسدين، فهو يجازيهم شرًّا بفسادهم.

[٦٥] إن كل تلك السلبيات التي تواترت على اليهود لم تكن بسبب رسالات الله الهابطة عليهم في الكتب، بل بسبب عدم عملهم بتلك الرسالات.

﴿وَلَوْ أَنَّ أَهْلَ ٱلْكِتَٰبِ ءَامَنُوا۟ وَٱتَّقَوْا۟ لَكَفَّرْنَا عَنْهُمْ سَيِّـَٔاتِهِمْ وَلَأَدْخَلْنَٰهُمْ جَنَّٰتِ ٱلنَّعِيمِ﴾ وذلك في الآخرة، والتقوى هو الالتزام بما يوجبه الإيمان من العمل الصالح والسلوك الحسن.

[٦٦] كما أن تطبيق تعاليم السماء سوف ينشر عليهم الرفاه والرخاء.

---

(١) نهج البلاغة: حكمة: ٢٥٠.

﴿وَلَوْ أَنَّهُمْ أَقَامُوا۟ ٱلتَّوْرَىٰةَ وَٱلْإِنجِيلَ وَمَآ أُنزِلَ إِلَيْهِم مِّن رَّبِّهِمْ﴾ كالقرآن الحكيم، حتى لا يكون تطبيقهم للتوراة والإنجيل بل لأنه نازل من ربهم.

﴿لَأَكَلُوا۟ مِن فَوْقِهِمْ وَمِن تَحْتِ أَرْجُلِهِم﴾ حيث تنزل السماء بركات عليهم، وتنبت الأرض خيراتها، وسلطاتهم ستكون عادلة، وكبار القوم يرحمون صغارهم، والصغار يوقرون كبارهم ولم تكن تشيع بينهم الطبقية المقيتة، ولا ينمو في مجتمعهم الطغيان بيد أن أهل الكتاب لم يطبق كلهم كتاب الله بل ﴿مِّنْهُمْ أُمَّةٌ مُّقْتَصِدَةٌ﴾ معتدلون في تفنيذ الأوامر غير سباقين فيها ولا مقصرين ﴿وَكَثِيرٌ مِّنْهُمْ سَآءَ مَا يَعْمَلُونَ﴾ فلا ينفذون واجبات ربهم، وعاقبتهم هي تلك التي أشار إليها ربنا في الآيات السابقة.

الولاية ذروة الإيمان

﴿ يَا أَيُّهَا الرَّسُولُ بَلِّغْ مَا أُنزِلَ إِلَيْكَ مِن رَّبِّكَ وَإِن لَّمْ تَفْعَلْ فَمَا بَلَّغْتَ رِسَالَتَهُ وَاللَّهُ يَعْصِمُكَ مِنَ النَّاسِ إِنَّ اللَّهَ لَا يَهْدِي الْقَوْمَ الْكَافِرِينَ (٦٧) قُلْ يَا أَهْلَ الْكِتَابِ لَسْتُمْ عَلَىٰ شَيْءٍ حَتَّىٰ تُقِيمُوا التَّوْرَاةَ وَالْإِنجِيلَ وَمَا أُنزِلَ إِلَيْكُم مِّن رَّبِّكُمْ وَلَيَزِيدَنَّ كَثِيرًا مِّنْهُم مَّا أُنزِلَ إِلَيْكَ مِن رَّبِّكَ طُغْيَانًا وَكُفْرًا فَلَا تَأْسَ[1] عَلَى الْقَوْمِ الْكَافِرِينَ (٦٨) إِنَّ الَّذِينَ آمَنُوا وَالَّذِينَ هَادُوا وَالصَّابِئُونَ وَالنَّصَارَىٰ مَنْ آمَنَ بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الْآخِرِ وَعَمِلَ صَالِحًا فَلَا خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلَا هُمْ يَحْزَنُونَ (٦٩) لَقَدْ أَخَذْنَا مِيثَاقَ بَنِي إِسْرَائِيلَ وَأَرْسَلْنَا إِلَيْهِمْ رُسُلًا كُلَّمَا جَاءَهُمْ رَسُولٌ بِمَا لَا تَهْوَىٰ أَنفُسُهُمْ فَرِيقًا كَذَّبُوا وَفَرِيقًا يَقْتُلُونَ (٧٠) وَحَسِبُوا أَلَّا تَكُونَ فِتْنَةٌ فَعَمُوا وَصَمُّوا ثُمَّ تَابَ اللَّهُ عَلَيْهِمْ ثُمَّ عَمُوا وَصَمُّوا كَثِيرٌ مِّنْهُمْ وَاللَّهُ بَصِيرٌ بِمَا يَعْمَلُونَ (٧١) ﴾.

هدى من الآيات:

بعد أن أمر القرآن الحكيم المسلمين بالولاية التامة للمجتمع الإسلامي، ونهاهم بشدة عن قبول ولاية الكفار والمشركين، وبين سبب ذلك في الدرس السابق، جاء في هذا الدرس يؤكد للرسول ﷺ، وعموما لكل من تحمل تبليغ رسالات الله، كالربانيين والأحبار بألا يهادنوا أحداً، ولا يساوموا أحداً في تبليغ الرسالة عموماً، ومن الطبيعي أن يكون سياق الحديث في هذا الموضوع الولاية أو القيادة لأنها هي التي قد يخشى الرسول ﷺ من تبليغها

(١) فلا تأس: فلا تحزن.

خوف ارتداد الناس، ذلك أن القيادة أهم ما تطمح إليها القوى الاجتماعية.

وأكد ربنا سبحانه على أن التقصير في هذا الجانب يكون بمعنى عدم تبليغ الرسالة رأساً، ووعد المبلغين لرسالات الله، وحفظهم من شر الناس، وأنه لا يهدي القوم الكافرين.

ثم حذر أهل الكتاب من أنكم لستم على شيء حتى تقيموا التوراة والإنجيل والقرآن ثم بين أن الرسالة الجديدة سوف تزيد الكفار طغياناً وكفراً فلا تحزن عليهم.

ولكن ذلك كله لا يعني أن اليهود والنصارى أو الصابئين يدخلون النار، لأنهم أصحاب كتب. كلا. بل إنهم لو آمنوا بالله واليوم الآخر وعملوا عملاً صالحاً فإنه لا خوف عليهم ولا هم يحزنون.

بينات من الآيات:

وهل الدين إلا الولاية؟

[٦٧] السياسة في أي نظام اجتماعي هي القمة، والقيادة في السياسة هي سنام القمة ومن دون سياسة صالحة فإن سائر الأنظمة الاجتماعية لاتعني أكثر من حبر على ورق، كما أنه من دون القيادة الصالحة فإن السياسة لا تعني شيئاً لذلك فإن الله سبحانه يذكر نبيه - هنا - بإن أي تقصير في أمر تبليغ أي بند من بنود الرسالة، ومن أبرزها وأهمها أمر الولاية من بعده يعتبر وكأنه لم يبلغ الرسالة أساساً. يقول ربنا: ﴿ ۞ يَـٰٓأَيُّهَا ٱلرَّسُولُ بَلِّغْ مَآ أُنزِلَ إِلَيْكَ مِن رَّبِّكَ ۖ وَإِن لَّمْ تَفْعَلْ فَمَا بَلَّغْتَ رِسَالَتَهُۥ ﴾.

وهنا يطرح سؤالان:

الأول: لماذا جاء هذا التحذير في هذا السياق؟.

الثاني: لماذا ارتبط تبليغ جزء مما أنزل بسائر الأجزاء؟.

للإجابة على السؤال الأخير لابد أن نعرف: أن احتمال تقصير الرسول ﷺ أو أي مبلغ لرسالات الله إنما يكون بدافع اجتماعي. مثل الخوف من ذوي البطش ومراكز القوى أو الطمع في جذب الناس وعموماً لا يكون ذلك إلا في القضايا الحساسة مثل القيادة أو مخالفة عادات راسخة أو ما أشبه، وإذا لم يبلغ الرسول ﷺ رسالة ربه في مثل هذه القضايا فإن الرسالة لن تحقق هدفها إذ أن هدف الرسالة هو مقاومة السلبيات الأساسية في المجتمع، أما القضايا

البسيطة فإن إصلاحها لا يغير من واقع المجتمع شيئاً.

ثم إن الرسالة التي تعجز عن مقاومة سلبيات المجتمع، أو معالجة القضايا الأساسية فيه لا تنفع شيئاً، لأن كل ظاهرة تخالفها الرسالة قد تصبح في يوم من الأيام ذات حساسية في المجتمع ولا تستطيع الرسالة آنئذ من مخالفتها.. حتى الصلاة قد تصبح ذات يوم قضية تستتبع الخوف والاستهزاء، فهل على الرسالة التنازل عنها؟!.

ومن هنا نعرف الإجابة على السؤال الأول، إذ أن السياق القرآني يحدثنا عن الولاية، والولاية قضية حساسة بل هي أهم قضية حساسة، لذلك أكد القرآن على هذا الحكم في هذا السياق بالذات.. لذلك جاء في الحديث المروي عن الإمام الباقر عليه السلام: «**أَنَّ اللهَ أَوْحَى إِلَى نَبِيِّهِ صلى الله عليه وآله أَنْ يَسْتَخْلِفَ عَلِيًّا عليه السلام فَكَانَ يَخَافُ أَنْ يَشُقَّ ذَلِكَ عَلَى جَمَاعَةٍ مِنْ أَصْحَابِهِ، فَأَنْزَلَ اللهُ سُبْحَانَهُ هَذِهِ الْآيَةَ تَشْجِيعًا لَهُ عَلَى الْقِيَامِ بِمَا أَمَرَهُ بِأَدَائِهِ**»[1].

والمعنى: إن تركت تبليغ ما انزل إليك بخصوص أمر الولاية من بعدك وكتمته، كنت كأنك لم تبلغ شيئا من رسالات ربك في استحقاق العقوبة ﴿وَٱللَّهُ يَعۡصِمُكَ مِنَ ٱلنَّاسِۗ إِنَّ ٱللَّهَ لَا يَهۡدِي ٱلۡقَوۡمَ ٱلۡكَٰفِرِينَ﴾.

موقف اهل الكتاب من الولاية

[٦٨] والقضية لا تخص المسلمين فقط، إذ أن على جميع أهل الكتب السماوية أن يطبقوا كل تعاليم الرسالات السماوية وإلا فإن مثلهم مثل الذي لا يملك رسالة أبداً ولا فرق بينهم وبين الكفار.

﴿قُلۡ يَٰٓأَهۡلَ ٱلۡكِتَٰبِ لَسۡتُمۡ عَلَىٰ شَيۡءٍ حَتَّىٰ تُقِيمُواْ ٱلتَّوۡرَىٰةَ وَٱلۡإِنجِيلَ وَمَآ أُنزِلَ إِلَيۡكُم مِّن رَّبِّكُمۡۗ﴾ بينما أهل الكتاب أصبحوا يتخذون موقفاً معادياً من رسالات ربهم لذلك فهم يزدادون بها طغياناً وكفراً.

﴿وَلَيَزِيدَنَّ كَثِيرٗا مِّنۡهُم مَّآ أُنزِلَ إِلَيۡكَ مِن رَّبِّكَ طُغۡيَٰنٗا وَكُفۡرٗاۖ فَلَا تَأۡسَ عَلَى ٱلۡقَوۡمِ ٱلۡكَٰفِرِينَ﴾ أي لا تحزن عيهم.

[٦٩] وإذا طبق أهل الكتاب كل ما أنزل عليهم من ربهم فإن رحمة الله واسعة.. وفضله عظيم فهو يدخلهم جناته كالمسلمين ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَٱلَّذِينَ هَادُواْ وَٱلصَّٰبِـُٔونَ وَٱلنَّصَٰرَىٰ مَنۡ

(١) بحار الأنوار: ج٣٧ ص٢٥٠.

ءَامَنَ بِٱللَّهِ وَٱلْيَوْمِ ٱلْءَاخِرِ وَعَمِلَ صَٰلِحًا فَلَا خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلَا هُمْ يَحْزَنُونَ ﴾.

[٧٠] لقد أمر بنو إسرائيل، وكل أهل الكتاب أن يؤمنوا بالحق أنى كان، وأين كان، ومن دون تجزئته، ولكنهم لم يطبقوا ذلك وخانوا عهدهم.

فأخذوا يبعِّضون إيمانهم بالرسل حسب أهوائهم المصلحية، أو حسب تصنيفاتهم العنصرية فإذا جاءهم رسول يخالف مصالحهم، أو من غير عنصرهم، كفروا به مما يدل على إنهم لم يؤمنوا أساساً بالحق، بل ءامنوا بالأهواء والعنصرية.

﴿ لَقَدْ أَخَذْنَا مِيثَٰقَ بَنِىٓ إِسْرَٰٓءِيلَ وَأَرْسَلْنَآ إِلَيْهِمْ رُسُلًا ۖ كُلَّمَا جَآءَهُمْ رَسُولٌۢ بِمَا لَا تَهْوَىٰٓ أَنفُسُهُمْ فَرِيقًا كَذَّبُوا۟ وَفَرِيقًا يَقْتُلُونَ ﴾ عملية التكذيب للرسول هي قتل له، لأن أهم شيء عنده هي رسالته، فلو أنها كُذبت فكأنه قد قُتل قتلاً.

[٧١] وكان يزعم هؤلاء: أن قتل الأنبياء عليهم السلام أو تكذيبهم سوف لا يخلف آثاراً سلبية عليهم، فاندفعوا إلى ذلك دون أن يبصروا الحقائق بأنفسهم أو يسمعوها من ذوي النصيحة.

﴿وَحَسِبُوٓا۟ أَلَّا تَكُونَ فِتْنَةٌ فَعَمُوا۟ وَصَمُّوا۟ ثُمَّ تَابَ ٱللَّهُ عَلَيْهِمْ ثُمَّ عَمُوا۟ وَصَمُّوا۟ كَثِيرٌ مِّنْهُمْ ۚ وَٱللَّهُ بَصِيرٌۢ بِمَا يَعْمَلُونَ ﴾ إن الدعاة والمصلحين هم عيون الأمة فإذا قتلوهم، فكأنهم أعموا أعينهم، وإذا أعمى الإنسان عينه، فهل يعني ذلك أن الحقائق تزول، أو تتغير لمجرد أنه لا يراها،كلا، بل يعني أنه سوف يتناقض معها ويدفع الثمن غالياً، أمامك صخرة تراها عينك وتخبرك بذلك ولكنك بدل أن تصدق عينك وتنحرف عن الصخرة تغرز بمسمار في عينك فتعميها جزاء نصيحتها لك بما لا يرضاه غرورك وتكبرك وطغيانك ثم ماذا، هل تنتهي المشكلة - كلا بل بالعكس بعد لحظات تجد نفسك وقد ارتطمت بالصخرة وتكسرت ساقك وتحطم رأسك، كذلك فعل أهل الكتاب بأنبياء الله عليهم السلام الذين أسْدَوْا إليهم النصح فقتلوا الناصحين، وزعموا أن ذلك يخلصهم، مما يحذرهم الناصحون منه، فإذا بهم يجدونها أمامهم، هنالك تاب فريق منهم، ولكن توبة أكثرهم كانت وقتية، إذ أنهم ما لبثوا أن عادوا إلى عنادهم مرة أخرى.

إن هذا بعض آثار الكفر بالحق، الذي مارسه اليهود، وعلينا ألا نتولى اليهود لهذا السبب.

انحرافات النصارى شرك وغلو

﴿ لَقَدْ كَفَرَ الَّذِينَ قَالُوا إِنَّ اللَّهَ هُوَ الْمَسِيحُ ابْنُ مَرْيَمَ وَقَالَ الْمَسِيحُ يَا بَنِي إِسْرَائِيلَ اعْبُدُوا اللَّهَ رَبِّي وَرَبَّكُمْ إِنَّهُ مَنْ يُشْرِكْ بِاللَّهِ فَقَدْ حَرَّمَ اللَّهُ عَلَيْهِ الْجَنَّةَ وَمَأْوَاهُ النَّارُ وَمَا لِلظَّالِمِينَ مِنْ أَنْصَارٍ (٧٢) لَقَدْ كَفَرَ الَّذِينَ قَالُوا إِنَّ اللَّهَ ثَالِثُ ثَلَاثَةٍ وَمَا مِنْ إِلَٰهٍ إِلَّا إِلَٰهٌ وَاحِدٌ وَإِنْ لَمْ يَنْتَهُوا عَمَّا يَقُولُونَ لَيَمَسَّنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا مِنْهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ (٧٣) أَفَلَا يَتُوبُونَ إِلَى اللَّهِ وَيَسْتَغْفِرُونَهُ وَاللَّهُ غَفُورٌ رَحِيمٌ (٧٤) مَا الْمَسِيحُ ابْنُ مَرْيَمَ إِلَّا رَسُولٌ قَدْ خَلَتْ مِنْ قَبْلِهِ الرُّسُلُ وَأُمُّهُ صِدِّيقَةٌ[١] كَانَا يَأْكُلَانِ الطَّعَامَ انْظُرْ كَيْفَ نُبَيِّنُ لَهُمُ الْآيَاتِ ثُمَّ انْظُرْ أَنَّىٰ يُؤْفَكُونَ[٢] (٧٥) قُلْ أَتَعْبُدُونَ مِنْ دُونِ اللَّهِ مَا لَا يَمْلِكُ لَكُمْ ضَرًّا وَلَا نَفْعًا وَاللَّهُ هُوَ السَّمِيعُ الْعَلِيمُ (٧٦) قُلْ يَا أَهْلَ الْكِتَابِ لَا تَغْلُوا فِي دِينِكُمْ غَيْرَ الْحَقِّ وَلَا تَتَّبِعُوا أَهْوَاءَ قَوْمٍ قَدْ ضَلُّوا مِنْ قَبْلُ وَأَضَلُّوا كَثِيرًا وَضَلُّوا عَنْ سَوَاءِ السَّبِيلِ (٧٧) ﴾.

---

(١) الصديق: المبالغة في الصدق كما يقال رجل سكّيت أي مبالغ في سكوته.

(٢) يؤفكون: يقال أفكه يأفكه أفكاً إذا صرفه، والإفك الكذب لأنه صرف عن الحق، وقد أفكت الأرض إذا صرف عنها المطر، وكل مصروف عن شيء مأفوك عنه.

هدى من الآيات:

الأمة الإسلامية المتمثلة في حزب الله هي أمة طليعية مستقيمة على الحق وعليها أن تبقى كذلك، وتتجنب المزالق، ولا تتولى اليهود أو النصارى، الذين انحرفوا عن الحق، كل باتجاه، ولكن مادمت منحرفاً عن الطريق فلا فرق أن تكون يميناً أو يساراً.

لقد رأينا في الدرس السابق كيف أن اليهود أصيبوا بالجمود باسم المحافظة على التقاليد، وتحدوا الحق الجديد وطغوا عليه وكفروا به.

وهاهم النصارى نراهم في هذا الدرس يخالفون الحق بصورة أخرى، حيث أنهم يؤمنون بالأساطير ويُميِّعون الحق، فهم يشركون بالله، ويرفعون مستوى المسيح إلى مستوى الربوبية الروبية للكفار الذين ضلوا الطريق من قبلهم، إنهم انفتاحيون ولكن دون مقياس صحيح وأصيل.

والقرآن يندد بهذه الفكرة ويقول بأنها شرك تسبب حرمان الجنة، ثم إنها تؤدي إلى الكفر بالله رأساً. ولماذا نشرك بالله، هل لكي نجد من يخلصنا من عذاب الله؟ أليس من الأفضل أن نعود إلى الله لنجد عنده المغفرة الواسعة، أما المسيح عليه السلام فلن يغني شيئاً عن الله عزوجل. إنه بشر مثلنا يأكل الطعام، وهو لايضر ولا ينفع من دون الله تعالى، والواقع أن تأليه المسيح جاء نتيجة تقليد الأساطير الكافرة: وهو غلو مرفوض في الدين.

بينات من الآيات:

دوافع الشرك بالله لدى النصارى

[٧٢] لماذا انحرف النصارى عن المسيحية الصحيحة، ولماذا قالوا: إن الله هو المسيح، هل لأنهم لم يفهموا حقيقة الإيمان بالغيب؟ ولم يرتفعوا إلى مستوى هذا الإيمان فحسبوا أن الله هو المسيح؟، أو لأنهم أرادوا أن يتمسكوا بالدين تمسكاً شديداً فغالوا فيه فضلوا، فلكي يرفعوا منزلة المسيح أشركوه بالله سبحانه؟ أو لأنهم انفتحوا على الثقافات المشركة - خصوصاً الثقافة اليونانية- التي عشعشت في الإسكندرية، وتسربت منها إلى المسيحية؟ أو لأنهم تصوروا عظمة الله، وشدة باسه وصرامة أحكامه فلكي يجدوا لأنفسهم مخلصاً يسمحون لأنفسهم به فعل الذنوب قالوا: إن الله أكثر من واحد، وأنه إذا أراد أحدهم عقابنا فسوف يخلصنا الثاني؟.

كل هذه الدوافع قد تكون وراء الشرك عموماً، وشرك النصارى خصوصاً وقد لا يكون الشرك نوعاً واحداً، إذ أن الضلالة والانحراف قد تكون عبر آلاف الطرق، أما صراط الحق

فلن يكون سوى صراط واحد.

وفي الآيات التالية إشارات إلى كل هذه الدوافع التحريفية التي علينا أن نتحذر منها عندما نريد أن نبني أمتنا ﴿ لَقَدْ كَفَرَ الَّذِينَ قَالُوا إِنَّ اللَّهَ هُوَ الْمَسِيحُ ابْنُ مَرْيَمَ وَقَالَ الْمَسِيحُ يَا بَنِي إِسْرَائِيلَ اعْبُدُوا اللَّهَ رَبِّي وَرَبَّكُمْ إِنَّهُ مَنْ يُشْرِكْ بِاللَّهِ فَقَدْ حَرَّمَ اللَّهُ عَلَيْهِ الْجَنَّةَ وَمَأْوَاهُ النَّارُ وَمَا لِلظَّالِمِينَ مِنْ أَنْصَارٍ ﴾.

كيف ينهى الله عن عبادة نفسه؟ فإذا كان المسيح هو الله فكيف أمرنا بعبادة غيره؟.

كلا. إنه داعية إليه قالها بكل صراحة: ﴿اعْبُدُوا اللَّهَ رَبِّي وَرَبَّكُمْ ﴾ ثم حذر من الشرك بالله، وبين جزاء المشرك، أكد بأنه لا هو ولا غيره قادرين على مقاومة إرادة الله في نصرة الظالم، وانقاذه من النار.

ما من إله الا الله

[٧٣] إن المسيحية المنحرفة، انقسمت على نفسها في أن الله هو المسيح، أو أنه شريك للمسيح، وذلك انطلاقا من اختلاف الأفكار الجاهلية القديمة، التي قالت حينا بوحدة الوجود، وحيناً بتعدد الوجود، وسواء كان قولهم الأول أو الثاني فهو كفر ﴿لَقَدْ كَفَرَ الَّذِينَ قَالُوا إِنَّ اللَّهَ ثَالِثُ ثَلَاثَةٍ ﴾ إذ أن الله يعني الأحدية المطلقة التي لو أنكرها الفرد فقد أنكر الألوهية ذاتها ﴿وَمَا مِنْ إِلَٰهٍ إِلَّا إِلَٰهٌ وَاحِدٌ ﴾

لذلك فمن أنكر التوحيد، فقد أنكر الله، إذ ليس هذا الذي يتقبل الشريك إلهاً. أ إله هذا الذي لا يقدر على شريكه؟! أم إله هذا الذي يعجز عن بعض الأعمال من دون شريكه؟! وإذا ما الفرق بينه وبين خلقه؟! وإذن لماذا أساسا نؤمن بالإله؟!.

إننا حين نرى عجز الخلق عن بعض الأفعال، نعرف أن هناك إلهاً لا يدخل في طبيعته العجز، ولا تحد قدرته حدود.

وإذا رأينا الإله عاجزاً أيضاً، فلا يبقى مبرر للإيمان به.

﴿وَإِنْ لَمْ يَنْتَهُوا عَمَّا يَقُولُونَ لَيَمَسَّنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا مِنْهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ ﴾ تخصص العذاب بالكفار منهم بالرغم من أن هذه الفكرة تنسب الكفر لكل من يتقبلها ولكن تخصص العذاب ببعضهم. لأن من يقول بهذا الكلام دون وعي كاف قد لا يحكم عليه بالكفر، مثل بعض المتصوفة من المسلمين، الذين يغالون في أوليائهم حتى مرتبة الألوهية من دون شعور

منهم بحقيقة ما يقولون، وإنه لكفر بالله العظيم.

عيسى ليس باله

[٧٤] يزعم بعض النصارى أنهم يحتمون بعيسى (ابن الله) عن عذاب أبيه، لأنه أرحم منه بنا، ويفند الله سبحانه هذا الزعم بطريقتين:

الأولى: جذرية، حيث يقول: ﴿ أَفَلَا يَتُوبُونَ إِلَى ٱللَّهِ وَيَسْتَغْفِرُونَهُۥ وَٱللَّهُ غَفُورٌ رَّحِيمٌ ﴾ أن لا يجد من هو أرحم به من الله وأكثر غفراناً. فلماذا يتصور أن هناك من يخلصه من الله مادام الله لم يسد عليه أبواب رحمته.. فليعد إلى ربه ليجد في رحابه كل خير.

[٧٥] الثاني: إن المسيح ليس سوى بشر، وهل البشر قادر على أن ينقذ الناس من غضب الله.

إن المسيح كان قد ولد من أم، وهذا أول وأبرز أدلة عجزه ومحدوديته، وبالتالي فهو مخلوق، ثم إنه كان يأكل الطعام ومن دون الطعام كان سيموت، مما يدل أيضاً على أنه لم يكن سوى بشر، وهل يقدر من يحتاج إلى الطعام، أن يقاوم إرادة الله، خالق الطعام، والشراب، ومالكهما.

﴿مَّا ٱلْمَسِيحُ ٱبْنُ مَرْيَمَ إِلَّا رَسُولٌ قَدْ خَلَتْ مِن قَبْلِهِ ٱلرُّسُلُ ﴾ لذلك لاتصبح معاجزة أو علومه دليلاً على أنه إله، لأن كل الرسل أيضاً مثله يملكون معاجز ويعلمون بعض الغيب.

﴿وَأُمُّهُۥ صِدِّيقَةٌ كَانَا يَأْكُلَانِ ٱلطَّعَامَ﴾ فليس هو أو أمه من نوع الآلهة الذين لابد أن يكونوا بغنى عن الطعام ﴿ٱنظُرْ كَيْفَ نُبَيِّنُ لَهُمُ ٱلْءَايَٰتِ ثُمَّ ٱنظُرْ أَنَّىٰ يُؤْفَكُونَ ﴾.

[٧٦] ثم ماذا يغني عنكم المسيح، ما دام لايغني عن نفسه غائلة الجوع، إلا بالجهد وبوسيلة مادية أي بالطعام ﴿ قُلْ أَتَعْبُدُونَ مِن دُونِ ٱللَّهِ مَا لَا يَمْلِكُ لَكُمْ ضَرًّا وَلَا نَفْعًا وَٱللَّهُ هُوَ ٱلسَّمِيعُ ٱلْعَلِيمُ ﴾ وهل بإمكانكم أن تحتموا به عن الله عزوجل الذي يسمع ما تقولونه ظاهراً ويعلم ما في قلوبكم.

الغلو محراب الشرك

[٧٧] إن أهم الدوافع وراء تأليه المسيح عيسى ابن مريم عليه السلام، كان الغلو في الدين،

وبقدر ما تكون اللامبالاة بالدين خطر، فإن الغلو خطر بقدره، لأن هذا وذاك مخالفان للحق والحق هو محور الكون ويجب أن يكون محور حياة الإنسان أيضاً.

﴿قُلْ يَٰٓأَهْلَ ٱلْكِتَٰبِ لَا تَغْلُوا۟ فِى دِينِكُمْ غَيْرَ ٱلْحَقِّ﴾ وحين أراد قادة الكنيسة دعم المبادئ الدينية توجهوا إلى الغلو في الدين سعياً وراء ترسيخ مبادئه في النفوس، ولكن الغلو بحاجة إلى أيدلوجية تدعمه لذلك اتجهوا إلى الثقافات الجاهلية، وطعموا دينهم بها، التي لم تكن سوى خرافات، أملتها أهواء أهل الضلالة كمثل خرافات اليونانيين عن تعدد الآلهة، ووجود قدرة غيبية لكل شيء هي وراء ما نرى في الطبيعة من تناقضات، أو تفاعلات إن هذه الخرافات،هي التي تسربت إلى المسيحية، فحولتها إلى دين المغالين.

والله نهى عن ذلك بشدة قائلاً: ﴿وَلَا تَتَّبِعُوٓا۟ أَهْوَآءَ قَوْمٍ قَدْ ضَلُّوا۟ مِن قَبْلُ وَأَضَلُّوا۟ كَثِيرًا وَضَلُّوا۟ عَن سَوَآءِ ٱلسَّبِيلِ﴾.

تأثير الولاء على قيم الرسالات

﴿ لُعِنَ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ مِنۢ بَنِىٓ إِسْرَٰٓءِيلَ عَلَىٰ لِسَانِ دَاوُۥدَ وَعِيسَى ٱبْنِ مَرْيَمَ ذَٰلِكَ بِمَا عَصَواْ وَّكَانُواْ يَعْتَدُونَ ﴿٧٨﴾ كَانُواْ لَا يَتَنَاهَوْنَ عَن مُّنكَرٍ فَعَلُوهُ لَبِئْسَ مَا كَانُواْ يَفْعَلُونَ ﴿٧٩﴾ تَرَىٰ كَثِيرًا مِّنْهُمْ يَتَوَلَّوْنَ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ لَبِئْسَ مَا قَدَّمَتْ لَهُمْ أَنفُسُهُمْ أَن سَخِطَ ٱللَّهُ عَلَيْهِمْ وَفِى ٱلْعَذَابِ هُمْ خَٰلِدُونَ ﴿٨٠﴾ وَلَوْ كَانُواْ يُؤْمِنُونَ بِٱللَّهِ وَٱلنَّبِىِّ وَمَآ أُنزِلَ إِلَيْهِ مَا ٱتَّخَذُوهُمْ أَوْلِيَآءَ وَلَٰكِنَّ كَثِيرًا مِّنْهُمْ فَٰسِقُونَ ﴿٨١﴾ ﴾.

هدى من الآيات:

جدد القرآن الكريم في نهاية هذه السلسلة من الدروس تنديده بتولي الكفار، محذراً أن من يتولى الكفار سيكون مثلهم، حتى ولو كان منحدراً من سلالة مؤمنة كبني إسرائيل.

فهذا داود عليه السلام -النبي الملك-، وهذا عيسى عليه السلام الزاهد، كلاهما يلعنان طائفة من بني اسرائيل. علماً بأن داود وعيسى عليهما السلام كانا من بني إسرائيل أيضاً، ولكن اللعنة على بني إسرائيل إنما كانت بسبب عصيانهم واعتدائهم..

لقد ماتت في مجتمعهم، قيم الرسالة فلم يعد أحد يهتم بها أو يدافع عنها، ولذلك ضاعت وحدتهم الفكرية، وتشرذم مجتمعهم.

فأصبح فريق منهم يتولى الكفار بكل صراحة، ويجر إلى نفسه سخط الله العظيم.

وإذا كانت قيم الرسالة حية في قلوبهم، إذا لم يزدوج ولاؤهم، ولم يكونوا يخونون

مجتمعهم ولكن نفوسهم خوت من الإيمان وعملوا بالفسوق والعصيان.

لقد جاء هذا الدرس منسجماً مع الدروس السابقة التي كانت تؤكد على أهمية الولاء للمجتمع المسلم ولحزب الله الواحد.

بينات من الآيات:

لعنة بني إسرائيل

[٧٨] اللعنة لا تلحق البشر بسبب طينته، كما أن الرحمة لا تصيبه بهذا السبب، بل كل ما يصيب الإنسان فهو بسبب عمله.. وبنو إسرائيل كان فيهم مسلمون، وكان فيهم كفار - طردهم أنبياء بني اسرائيل - ويمثل القرآن بمثلين من أنبياء بني اسرائيل داود عليه السلام وهو ملك وحاكم -والمفروض أن يأخذ الملك رعاياه بالسياسة واللين، خصوصاً وأن داود كان صاحب الزبور، ويدعو أبداً إلى الرحمة والصلاح- وبعد داود عليه السلام لعنهم عيسى عليه السلام، بالرغم من أن دعوته كانت إلى السلام والرحمة، وكان سبب طردهما الكفار بني اسرائيل هو: أن الكفار منهم كانوا يعصون الله ويعتدون على الناس ﴿ لُعِنَ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ مِنۢ بَنِيٓ إِسۡرَٰٓءِيلَ عَلَىٰ لِسَانِ دَاوُۥدَ وَعِيسَى ٱبۡنِ مَرۡيَمَۚ ذَٰلِكَ بِمَا عَصَواْ وَّكَانُواْ يَعۡتَدُونَ ﴾.

عوامل انهيار المجتمع

[٧٩] وانهيار المجتمع، يبدأ بعدم التزام كل فرد بواجبه، وبالتالي عصيان الله فيما يخص نفسه (ترك الصلاة، لكذب) ثم يتطور إلى الاعتداء على حقوق الآخرين، ثم يتطور إلى اللامبالاة بالقيم، وينتهي بتشرذم المجتمع وتعدد الولاءات فيه. خصوصاً الولاءات الأجنبية.

﴿كَانُواْ لَا يَتَنَاهَوۡنَ عَن مُّنكَرٖ فَعَلُوهُۚ﴾ كان لا ينهى بعضهم بعضاً عن المنكر، مما يدل على أنهم لم يعودوا يحترمون القيم حتى على صعيد الحياة الاجتماعية.

﴿لَبِئۡسَ مَا كَانُواْ يَفۡعَلُونَ﴾ إن ترك النهي عن المنكر يعجل في انهيار الأمة.

[٨٠] وأدى عدم الاهتمام بالقيم إلى اهتمام كل فرد بمصالحه وشهواته التي وجدها عند غير قومه، فباع نفسه لهم، وخان قومه.. لعدم وجود رادع من ضمير أو قيمة من دين، وكان يجد في أفكار الأجانب ما يملأ بها فراغه الفكري، لذلك كان ينتمي إليهم ﴿ تَرَىٰ كَثِيرٗا مِّنۡهُمۡ يَتَوَلَّوۡنَ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْۚ لَبِئۡسَ مَا قَدَّمَتۡ لَهُمۡ أَنفُسُهُمۡ أَن سَخِطَ ٱللَّهُ عَلَيۡهِمۡ وَفِي

ٱلْعَذَابِ هُمْ خَٰلِدُونَ ﴾.

[٨١] إن كل ذلك الانهيار الذي حصل في مجتمع بني إسرائيل كان بسبب عدم الإيمان إذ أن الإيمان هو المحور السليم لربط الناس ببعضهم.

﴿ وَلَوْ كَانُوا۟ يُؤْمِنُونَ بِٱللَّهِ وَٱلنَّبِىِّ وَمَآ أُنزِلَ إِلَيْهِ مَا ٱتَّخَذُوهُمْ أَوْلِيَآءَ وَلَٰكِنَّ كَثِيرًا مِّنْهُمْ فَٰسِقُونَ ﴾ أي غير مؤمنين حقًّا، ولذلك تشرذم مجتمعهم وأصبح مجتمعاً ذليلًا.

المسلمون بين عداوة اليهود ومودة النصارى

﴿لَتَجِدَنَّ أَشَدَّ النَّاسِ عَدَاوَةً لِّلَّذِينَ آمَنُوا الْيَهُودَ وَالَّذِينَ أَشْرَكُوا وَلَتَجِدَنَّ أَقْرَبَهُم مَّوَدَّةً لِّلَّذِينَ آمَنُوا الَّذِينَ قَالُوا إِنَّا نَصَارَىٰ ذَٰلِكَ بِأَنَّ مِنْهُمْ قِسِّيسِينَ وَرُهْبَانًا وَأَنَّهُمْ لَا يَسْتَكْبِرُونَ (٨٢) وَإِذَا سَمِعُوا مَا أُنزِلَ إِلَى الرَّسُولِ تَرَىٰ أَعْيُنَهُمْ تَفِيضُ مِنَ الدَّمْعِ مِمَّا عَرَفُوا مِنَ الْحَقِّ يَقُولُونَ رَبَّنَا آمَنَّا فَاكْتُبْنَا مَعَ الشَّاهِدِينَ (٨٣) وَمَا لَنَا لَا نُؤْمِنُ بِاللَّهِ وَمَا جَاءَنَا مِنَ الْحَقِّ وَنَطْمَعُ أَن يُدْخِلَنَا رَبُّنَا مَعَ الْقَوْمِ الصَّالِحِينَ (٨٤) فَأَثَابَهُمُ اللَّهُ بِمَا قَالُوا جَنَّاتٍ تَجْرِي مِن تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ خَالِدِينَ فِيهَا وَذَٰلِكَ جَزَاءُ الْمُحْسِنِينَ (٨٥) وَالَّذِينَ كَفَرُوا وَكَذَّبُوا بِآيَاتِنَا أُولَٰئِكَ أَصْحَابُ الْجَحِيمِ (٨٦)﴾.

هدى من الآيات:

اليهود تطرفوا في المحافظة على أفكارهم وتقاليدهم، فاستكبروا عن الحق، وعاندوا صاحب الرسالة، ولم تزدهم الرسالة الجديدة الا جحوداً وإنكاراً. أما النصارى: فقد انحرفوا عن الحق بطريقة مغايرة حيث أنهم فقدوا مقياس الحق والباطل فآمنوا بكل الأفكار التي وجدوا عليها صبغة دينية، وبالرغم من أن هذا الانفتاح الواسع جرهم إلى الضلالة، فإنه من الممكن أن يصبح وسيلة للهداية إلى الحق.. حيث أنهم يستقبلون الأفكار الجديدة بصدر رحب، ويستعدون للإيمان بها فور سماعها.

من هنا نجد عند النصارى استقبالا يكاد يوازي في المقدار عناد اليهود، ولذلك فاليهود هم أشد الناس عداوة للذين آمنوا، بينما النصارى أقربهم مودة، أما المشركون فهم كاليهود في

استكبارهم وعنادهم، وبالتالي في عداوتهم للرساليين الجدد.

وبسبب الانفتاح عند النصارى -وبالذات عند علمائهم الأبرار- ولعدم الاستكبار عن الحق.. تراهم إذا سمعوا آيات الله الجديدة فاضت أعينهم بالدموع للتأثير الكبير الذي تخلفه آيات القرآن في أنفسهم.

إن بعض قساوسة النصارى لا يستهدفون (كأحبار اليهود) الذهب والفضة، بل إن منتهى تطلعهم تزكية الذات وإصلاح النفس، لذلك حين يجدون وسيلة إلى ذلك يسارعون إليه.

بينات من الآيات:

أشد الناس عداوة وأقربهم مودة

[٨٢] ﴿ ۞ لَتَجِدَنَّ أَشَدَّ ٱلنَّاسِ عَدَٰوَةً لِّلَّذِينَ ءَامَنُواْ ٱلْيَهُودَ وَٱلَّذِينَ أَشْرَكُواْ ﴾ أما اليهود فلأنهم تركوا الحق جانباً، وتمحوروا حول ذواتهم، فألهوا عنصر بني إسرائيل واعتبروه عنصراً مقدساً يدور معه الحق أنى دار، وليس العكس، ولذلك فهم لا يقيمون أنفسهم بمقياس الحق، بل يقيمون الأفكار بمقياس ذواتهم. لذلك فهم لا يمكن إلا أن يعادوا الذين آمنوا بالحق.

وأما المشركون، فهم بدورهم تركوا الحق، واتبعوا الهوى فعبدوا الثروة، والسلطة، وكل ما يرمز إلى الثروة أو السلطة. هؤلاء أيضاً انحرفوا عن الحق، عن سابق تصميم وإصرار، فهم ايضا يعادون المؤمنين ﴿ ۞ لَتَجِدَنَّ أَشَدَّ ٱلنَّاسِ عَدَٰوَةً لِّلَّذِينَ ءَامَنُواْ ٱلْيَهُودَ وَٱلَّذِينَ أَشْرَكُواْ وَلَتَجِدَنَّ أَقْرَبَهُم مَّوَدَّةً لِّلَّذِينَ ءَامَنُواْ ٱلَّذِينَ قَالُوٓاْ إِنَّا نَصَٰرَىٰ ذَٰلِكَ بِأَنَّ مِنْهُمْ قِسِّيسِينَ وَرُهْبَانًا وَأَنَّهُمْ لَا يَسْتَكْبِرُونَ ﴾ هؤلاء كانوا يفتشون عن الحق ولكنهم لا يجدونه.. لذلك تجدهم لا يستكبرون على الحق إذا سمعوه وتوفرت لديهم فرصة الهداية.

[٨٣] ﴿وَإِذَا سَمِعُواْ مَآ أُنزِلَ إِلَى ٱلرَّسُولِ تَرَىٰٓ أَعْيُنَهُمْ تَفِيضُ مِنَ ٱلدَّمْعِ مِمَّا عَرَفُواْ مِنَ ٱلْحَقِّ ﴾ إن تأثير الحق في النفوس الطيبة شديد بحيث يحرك كل المشاعر الخيرة فيها. فتلتهب النفس إيماناً وشوقاً، وأملاً، وخشية، وتتفجر العيون دموعاً وبريقاً، وروعةً وجمالاً، أما الألسن فهي الأخرى لا تستطيع أن تخفي المشاعر الجياشة.

﴿يَقُولُونَ رَبَّنَآ ءَامَنَّا فَٱكْتُبْنَا مَعَ ٱلشَّٰهِدِينَ ﴾ إنهم يخشون أن يفوتهم قطار المؤمنين لذلك

يسارعون إلى الإيمان، ويدعون الله بأن يحسبهم من المؤمنين.

[٨٤] والسبب الذي يدعوهم إلى الأيمان انهم كانوا يبحثون سلفا عن الحق والصلاح، وان هدفهم في الحياة لم يكن تأليه ذواتهم، والبحث عن العلو في الأرض، والفساد، (كما كان اليهود) كما لم يكن هدفهم الوصول إلى شهواتهم العاجلة بالثروة والسلطة، إنما كان هدفهم إصلاح أنفسهم وإرضاء ربهم، فنياتهم كانت طيبة وقلوبهم نظيفة.

﴿ وَمَا لَنَا لَا نُؤْمِنُ بِٱللَّهِ وَمَا جَآءَنَا مِنَ ٱلْحَقِّ وَنَطْمَعُ أَن يُدْخِلَنَا رَبُّنَا مَعَ ٱلْقَوْمِ ٱلصَّٰلِحِينَ ﴾
إنهم يهدفون الصلاح ويعرفون أن الوسيلة إلى ذلك هو الإيمان بالله وبالحق لذلك فهم يسارعون إلى الوسيلة التي تحقق هدفهم.

[٨٥] ووفى الله بما وعدهم فجزاهم بإيمانهم الذي عبروا عنه بالقول الصادق جنات يخلدون فيها ﴿ فَأَثَٰبَهُمُ ٱللَّهُ بِمَا قَالُواْ جَنَّٰتٍ تَجْرِى مِن تَحْتِهَا ٱلْأَنْهَٰرُ خَٰلِدِينَ فِيهَاۚ وَذَٰلِكَ جَزَآءُ ٱلْمُحْسِنِينَ ﴾.

[٨٦] اما أولئك اليهود، والمشركون فأنهم كفروا بسبب عبادة ذواتهم، واتباع شهواتهم ثم كذبوا بالحق نتيجة لكفرهم، لذلك كان جزاؤهم جهنم ﴿ وَٱلَّذِينَ كَفَرُواْ وَكَذَّبُواْ بِـَٔايَٰتِنَآ أُوْلَٰٓئِكَ أَصْحَٰبُ ٱلْجَحِيمِ ﴾.

ابدأ بنفسك يصلح مجتمعك

﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لَا تُحَرِّمُوا طَيِّبَاتِ مَا أَحَلَّ اللَّهُ لَكُمْ وَلَا تَعْتَدُوا إِنَّ اللَّهَ لَا يُحِبُّ الْمُعْتَدِينَ (٨٧) وَكُلُوا مِمَّا رَزَقَكُمُ اللَّهُ حَلَالًا طَيِّبًا وَاتَّقُوا اللَّهَ الَّذِي أَنْتُمْ بِهِ مُؤْمِنُونَ (٨٨) لَا يُؤَاخِذُكُمُ اللَّهُ بِاللَّغْوِ(١) فِي أَيْمَانِكُمْ وَلَكِنْ يُؤَاخِذُكُمْ بِمَا عَقَّدْتُمُ(٢) الْأَيْمَانَ فَكَفَّارَتُهُ إِطْعَامُ عَشَرَةِ مَسَاكِينَ مِنْ أَوْسَطِ مَا تُطْعِمُونَ أَهْلِيكُمْ أَوْ كِسْوَتُهُمْ أَوْ تَحْرِيرُ رَقَبَةٍ فَمَنْ لَمْ يَجِدْ فَصِيَامُ ثَلَاثَةِ أَيَّامٍ ذَلِكَ كَفَّارَةُ أَيْمَانِكُمْ إِذَا حَلَفْتُمْ وَاحْفَظُوا أَيْمَانَكُمْ كَذَلِكَ يُبَيِّنُ اللَّهُ لَكُمْ آيَاتِهِ لَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ (٨٩)﴾.

هدى من الآيات:

في هذه المجموعة من الآيات نرى تبياناً لأحكام الإسلام في السلوك الشخصي ومدى علاقته بالسلوك الاجتماعي.

فالخمر -مثلاً- ليس شراباً يتناوله الشخص باختياره، بل هي -في الواقع- ممارسة اجتماعية إذ تسبب الأضرار بالمجتمع، واعتداء الناس على بعضهم، وكذلك الميسر. إن هذه العلاقة الوثيقة بين السلوك الشخصي والمجتمع تفرض على الإنسان مزيداً من الانضباط فيما يتعلق بحياته الشخصية، بيد أن المحرمات ليست هي الأصل في سلوك الإنسان كما تزعم الشعوب المتخلفة التي تحسب كل شيء حراماً إلا بعض ما يتلى عليهم، وينص على حليته، بل بالعكس، يرغب الإسلام في ممارسة الحياة بحرية وانطلاق، حتى يثبت بالدليل القاطع أن الله

(١) باللغو: لغو اليمين هو الحلف على وجه الغلط من غير قصد، مثل قول القائل: لا والله.
(٢) عقّدتم: وثّقتم بالقصد والنية.

حرم هذا الشيء المعين.

وهذه الفكرة فكرة الحلية العامة حتى يثبت العكس، هي مجمل ما توحي إليه هذه الدروس التي سوف نشير إليها.

بينات من الآيات:

تحريم الطيبات

[٨٧] جاء في حديث عن رسول الله ﷺ: «إِنَّ اللهَ يُحِبُّ أَنْ يُؤْخَذَ بِرُخَصِهِ كَمَا يُحِبُّ أَنْ يُؤْخَذَ بِعَزَائِمِهِ»(١).

إن هذا الحديث المأثور ليدل دلالة حاسمة على أن المبالغة في تحريم الطيبات التي ولع بها بعض المتنسبين إلى الدين إنما هي من عمل الشيطان إذ أنها تسبب:

أولاً: في التشريع الحرام عند الله: وهو نسبة حكم إلى الشريعة، ما أنزل الله بها من سلطان!.

ثانياً: تسبب في ابتعاد فريق من الناس عن الدين، لأنهم يرون تناقضاً بينه وبين فطرتهم، التي تدعوهم إلى التنعم، بما وفره الله للإنسان من طيبات.

وقد كانت المسيحية المنحرفة هي السبب في نشوء التيار المناهض للدين في أوربا مع بداية التقدم العلمي، لأن المسيحية المنحرفة كانت تحرم طلب العلم وتنسب ذلك إلى الدين، وطائفة من علماء الدين المسلمين ساعدوا من حيث يعلمون أو لا يعلمون هذا التيار الغربي على النفوذ في البلاد الإسلامية، لهذا السبب بالذات.

من هنا حرم القرآن وبكل إصرار تحريم ما أحل الله. سواء كان التحريم قولاً أو عمليًّا وقال: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ لَا تُحَرِّمُواْ طَيِّبَٰتِ مَآ أَحَلَّ ٱللَّهُ لَكُمْ﴾ بيد أن الاستفادة من الطيبات ينبغي أن تكون في حدود الحقوق الواجبة، فهناك حقوق للجسد يجب الوقوف عندها وعدم تجاوزها في الاستفادة من الطيبات، مثلاً الإسراف في الأكل نوع من الاعتداء على حق الجسد في أن يبقى سالماً.

كما أن هناك حقوقاً للناس، تجب رعايتها عندما يستفيد المرء من الطيبات، من هنا

(١) وسائل الشيعة: ج١ ص١٠٨.

أكد القرآن على الحقوق في سياق حديثه عن الطيبات وقال: ﴿وَلَا تَعْتَدُوٓاْ إِنَّ ٱللَّهَ لَا يُحِبُّ ٱلْمُعْتَدِينَ﴾

[٨٨] والاستفادة من الطيبات. كل الطيبات يجب ألا يتحدد إلا بحدود الشريعة التي جاءت لمصلحة الإنسان كفرد وكمجتمع، وهذا هو التقوى ﴿وَكُلُواْ مِمَّا رَزَقَكُمُ ٱللَّهُ حَلَٰلًا طَيِّبًا وَٱتَّقُواْ ٱللَّهَ ٱلَّذِىٓ أَنتُم بِهِۦ مُؤْمِنُونَ﴾.

كفارة العهد واليمين

[٨٩] وهناك حد آخر للاستفادة من الطيبات، هو حد الالتزام الشخصي بعدم الاستفادة من واحدة من الطيبات لسبب أو آخر، وهذا يسمى باليمين.

فلك أن تحلف ألا تستفيد مثلاً من نعمة الفواكه، وذلك لمصلحة الفقراء والمساكين ولكن لا يعني ذلك أن تحرم على نفسك كل شيء.. ولمجرد التقشف والتزهد ومن دون مصلحة أو رجحان أو سبب معقول، آنئذ يحرم عليك شرعاً أن تعود إلى ذلك الشيء. لأنه يعني التنازل عن عهدك، والتنازل بالتالي عن إرادتك وعن نفسك بذاتك.

بيد أن هناك مشكلة هي أن بعض الناس، يستعجلون الحلف بالله، وهم لا يقصدون الالتزام الحقيقي والإرادة الثابتة.

من هنا بدأ القرآن حديثه عن حل هذه المشكلة ثم أوجب الالتزام باليمين وقال: ﴿لَا يُؤَاخِذُكُمُ ٱللَّهُ بِٱللَّغْوِ فِىٓ أَيْمَٰنِكُمْ وَلَٰكِن يُؤَاخِذُكُم بِمَا عَقَّدتُّمُ ٱلْأَيْمَٰنَ فَكَفَّٰرَتُهُۥٓ إِطْعَامُ عَشَرَةِ مَسَٰكِينَ مِنْ أَوْسَطِ مَا تُطْعِمُونَ أَهْلِيكُمْ أَوْ كِسْوَتُهُمْ أَوْ تَحْرِيرُ رَقَبَةٍ فَمَن لَّمْ يَجِدْ فَصِيَامُ ثَلَٰثَةِ أَيَّامٍ ذَٰلِكَ كَفَّٰرَةُ أَيْمَٰنِكُمْ إِذَا حَلَفْتُمْ وَٱحْفَظُوٓاْ أَيْمَٰنَكُمْ كَذَٰلِكَ يُبَيِّنُ ٱللَّهُ لَكُمْ ءَايَٰتِهِۦ لَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ﴾ تشكرون الله على هدايته لكم، وتبيانه طريقة الاستفادة من الطيبات.

كيف نبلغ الفلاح

﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ إِنَّمَا ٱلْخَمْرُ وَٱلْمَيْسِرُ وَٱلْأَنصَابُ[1] وَٱلْأَزْلَٰمُ رِجْسٌ[2] مِّنْ عَمَلِ ٱلشَّيْطَٰنِ فَٱجْتَنِبُوهُ لَعَلَّكُمْ تُفْلِحُونَ (٩٠) إِنَّمَا يُرِيدُ ٱلشَّيْطَٰنُ أَن يُوقِعَ بَيْنَكُمُ ٱلْعَدَٰوَةَ وَٱلْبَغْضَآءَ فِى ٱلْخَمْرِ وَٱلْمَيْسِرِ وَيَصُدَّكُمْ عَن ذِكْرِ ٱللَّهِ وَعَنِ ٱلصَّلَوٰةِ ۖ فَهَلْ أَنتُم مُّنتَهُونَ (٩١) وَأَطِيعُواْ ٱللَّهَ وَأَطِيعُواْ ٱلرَّسُولَ وَٱحْذَرُواْ ۚ فَإِن تَوَلَّيْتُمْ فَٱعْلَمُوٓاْ أَنَّمَا عَلَىٰ رَسُولِنَا ٱلْبَلَٰغُ ٱلْمُبِينُ (٩٢) لَيْسَ عَلَى ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَعَمِلُواْ ٱلصَّٰلِحَٰتِ جُنَاحٌ فِيمَا طَعِمُوٓاْ إِذَا مَا ٱتَّقَواْ وَّءَامَنُواْ وَعَمِلُواْ ٱلصَّٰلِحَٰتِ ثُمَّ ٱتَّقَواْ وَّءَامَنُواْ ثُمَّ ٱتَّقَواْ وَّأَحْسَنُواْ ۗ وَٱللَّهُ يُحِبُّ ٱلْمُحْسِنِينَ (٩٣) ﴾.

هدى من الآيات:

البشر عقل وإرادة

في البشر عقل وإرادة تقابلها الشهوات والجهل، وعلى الإنسان أن يحكم عقله على شهواته بقدرة الإرادة، وقد جاءت رسالات السماء بهدف تنمية قدرة الإرادة في البشر وتنمية قدرة العقل حتى يتمكن من ضبط شهواته، وتوجيه حياته حسب هدى عقله.

وقد حرمت رسالات السماء كلما يضر بالعقل وبالإرادة ضرراً بالغاً، لأنه يتسبب بالطبع في سيطرة الشهوات على حياة الإنسان.

---

(١) الأنصاب: الأصنام وسميت بذلك لأنها كانت تنصب للعبادة. والانتصاب القيام.

(٢) رجس: الرجس في اللغة اسم لكل ما استقذر من عمل.

بينات من الآيات:

[٩٠] في طليعة ما حرمته الشرائع السماوية الخمر والميسر لأنهما يهبطان بإرادة الإنسان وعقله إلى أدنى مستوى، وهما بالتالي رجس وحرام لأنهما من عمل الشيطان الذي يثير الشهوات وينقص العقل ويضعف الإرادة.

﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ إِنَّمَا ٱلۡخَمۡرُ وَٱلۡمَيۡسِرُ وَٱلۡأَنصَابُ وَٱلۡأَزۡلَٰمُ رِجۡسٞ مِّنۡ عَمَلِ ٱلشَّيۡطَٰنِ فَٱجۡتَنِبُوهُ لَعَلَّكُمۡ تُفۡلِحُونَ﴾ إن الفلاح الذي هو الهدف الأسمى لكل ابن أنثى في الحياة لا يتحقق إلا بالسيطرة على شهوات الذات بقوة الإرادة.

أما اللهو فإنه يضعف هذه الإرادة ويثير المشاكل للبشر واللهو هو ذلك الرجس الذي يدعمه الشيطان.

الخمر والميسر من جنود إبليس

[٩١] والخمر والميسر يسببان الفرقة بين الناس، بينما الإسلام يأمر بالوحدة ويدعم هذه الوحدة بتحريم كل أسباب الفرقة.

﴿إِنَّمَا يُرِيدُ ٱلشَّيۡطَٰنُ أَن يُوقِعَ بَيۡنَكُمُ ٱلۡعَدَٰوَةَ وَٱلۡبَغۡضَآءَ فِي ٱلۡخَمۡرِ وَٱلۡمَيۡسِرِ﴾ العداوة تأتي بسبب سيطرة الشهوات على الإنسان، فيحاول كل واحد أن يعتدي على حقوق الآخرين ليحقق هو شهواته، بينما يجب أن يقف غريمه في موقف الدفاع، فإن لم يستطع دفع الظلم عن نفسه انقلب ظالماً لمن هو أضعف منه.

وهكذا يتحول المجتمع إلى سلسلة من الظالمين والمظلومين، والعداوة تتحول إلى بغضاء إذ سرعان ما يبحث كل طرف عن تبرير نفسي لظلمة، فينشر الحقد في كل قلب فكل من يصبح مظلوماً يحقد على ظالمه.

ولكن المشكلة: أن هذا الحقد قد يتحول إلى غير الظالم، بل إلى كل أبناء المجتمع فيبحث له عن متنفس يصب حقده فيه فإذا به يظلم الناس بلا سبب، وبلا مصلحة ذاتية بل متشفيًّا لنفسه الحاقدة ويبقى سؤال: كيف تتسبب الخمرة في العداوة؟

الجواب: إن الخمرة تذهب بالعقل، وتضعف الإرادة، فيفقد الإنسان السيطرة على شهواته فتصبح شهواته هي المسيطرة عليه، تسوقه إلى حيث الاعتداء والظلم.

أما الميسر فإنه يعتمد على محاولة كل فريق التغلب على الآخرين، ليس بالعمل الصالح وانما بالصدفة أو بالمكر والشطارة.

ومعلوم كيف تنتهي حالة مجتمع تسود علاقاته: المغالبة والمنافسة الماكرة؟!.

وسبب آخر لحرمة الخمر والميسر هو: الإلهاء عن ذكر الله، وذكر الله هو طريق فلاح الإنسان.

إن الشيطان الذي يجسد قوى الشر في الطبيعة ويثير قوى الشر في النفس، لا يريد توحيد كلمة البشر، بل يحاول تقوية شهوات البشر، ودعم أهوائه الذاتية، وليس هدف الشيطان الذي يدعو الناس إلى اللهو واللعب وإلى معاقرة الخمر ونسيان المسؤوليات، ويدعوهم إلى لعب القمار والابتعاد عن العمل الصالح، وكذلك فهو لا يهدف أبداً إلى إسعاد البشر.

والله يريد من الإنسان أن يكون واعياً لمسؤولياته، عالماً بأن هناك رقابة مشددة عليه من الله حتى يطبق واجباته متذكراً أبداً تلك الرقابة.

أما الشيطان فيريد تناسي الله والابتعاد عن ذكر الله بالخمر والميسر.

ومن هنا قال الله عن هدف الشيطان من الخمر والميسر: ﴿وَيَصُدَّكُمْ عَن ذِكْرِ ٱللَّهِ وَعَنِ ٱلصَّلَوٰةِ فَهَلْ أَنتُم مُّنتَهُونَ﴾ هل أنتم منتهون عن السير في خط اللاوعي والتناسي والغفلة. أن اثمن ما في البشر هو ذكر الله، وتذكر المسؤولية والتعهد بأدائها.

والشيطان يدفع بالبشر في الخط المعاكس. أفلا نتوب إلى الله ونطرد الشيطان ونهجر كأس الغفلة، وأدوات العداوة؟!.

طريق العودة

[٩٢] ونعود إلى حظيرة الطاعة والالتزام بالمسؤولية.

﴿وَأَطِيعُواْ ٱللَّهَ وَأَطِيعُواْ ٱلرَّسُولَ﴾ وبدلاً من الغفلة والتناسي نلتزم بالحذر ونتسلح بالتقوى.

إذا كنت في غابة كثيفة الظلمات كثيرة السباع فهل من الصحيح أن تنام وتتناسى واقعك، والأخطار المحدقة بك فالشيطان يدفع البشر باتجاه الغفلة، وخط الله يدعو إلى الحذر.

﴿وَٱحْذَرُواْ فَإِن تَوَلَّيْتُمْ فَٱعْلَمُوٓاْ أَنَّمَا عَلَىٰ رَسُولِنَا ٱلْبَلَٰغُ ٱلْمُبِينُ﴾ نحن لسنا مسؤولين عنكم، ولا رسولنا مسؤول عنكم، إنما أنتم المسؤولون عن أنفسكم، وإنما على رسولنا: مسؤولية إبلاغكم فقط بما يجري ثم تتحملون أنتم المسؤولية.

كل شيء حلال

[٩٣] ولا يعني تحريم الخمرة أن الله يريد للإنسان أن يعيش في ضنك العيش، لأن الله لم يحرم الطيبات على الإنسان.

﴿ لَيْسَ عَلَى ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ ... ٱلصَّٰلِحَٰتِ جُنَاحٌ فِيمَا طَعِمُوٓا۟ ﴾ إنما يعني ذلك التحريم أن يبقي الإنسان في حذر دائم من ارتكاب الجرائم، وفي وعي دائم، وتحمل المسؤولية والحذر، لذلك قال الله: ﴿إِذَا مَا ٱتَّقَوا۟ وَّءَامَنُوا۟ وَعَمِلُوا۟ ٱلصَّٰلِحَٰتِ ﴾

إن الهدف من التقوى هو العمل الصالح، ولكن العمل الصالح لابد أن يسبقه الإيمان، والإيمان يأتي قبل وبعد العمل الصالح أما قبله فلكي يدفع بالبشر إلى اختيار العمل الصالح، اما بعده فلان العمل الصالح يدعم الإيمان ويقويه في القلب مما يمهد لمرحلة متقدمة جديدة من العمل الصالح. من هنا جاء الإيمان هدفاً للتقوى عندما قال ربنا: ﴿ثُمَّ ٱتَّقَوا۟ وَّءَامَنُوا۟ ﴾

إن التقوى (أي التحسس بالمسؤولية) تدعو إلى العمل الصالح وتدعو في ذات الوقت إلى مستوى جديد ومرتفع من مستويات الإيمان.

ذلك المستوى هو الإحسان إلى الناس لذلك جاء الإحسان نتيجة للتقوى في هذه الآية: ﴿ثُمَّ ٱتَّقَوا۟ وَّأَحْسَنُوا۟ وَٱللَّهُ يُحِبُّ ٱلْمُحْسِنِينَ ﴾

وهكذا يتدرج المؤمن عبر المراحل التالية:

أولاً: التقوى بهدف العمل الصالح.

ثانياً: التقوى بهدف تقوية الإيمان

ثالثاً: التقوى بهدف الإحسان إلى الناس.

وعموماً. الطعام هو وقود الإنسان المادي للقيام بهذه المراحل، بينما التقوى هي وقوده المعنوي. وفرق كبير بين الطعام في المفهوم التوحيدي حيث يكون تحت سيطرة التقوى، وبهدف تحمل المسؤولية والإحسان.

والطعام في المفهوم الشيطاني حيث يكون ضد التقوى وضد تحمل المسؤولية.

الصيد في الحج

﴿ يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لَيَبْلُوَنَّكُمُ اللَّهُ بِشَيْءٍ مِنَ الصَّيْدِ تَنَالُهُ أَيْدِيكُمْ وَرِمَاحُكُمْ لِيَعْلَمَ اللَّهُ مَنْ يَخَافُهُ بِالْغَيْبِ فَمَنِ اعْتَدَى بَعْدَ ذَلِكَ فَلَهُ عَذَابٌ أَلِيمٌ (٩٤) يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لَا تَقْتُلُوا الصَّيْدَ وَأَنْتُمْ حُرُمٌ وَمَنْ قَتَلَهُ مِنْكُمْ مُتَعَمِّدًا فَجَزَاءٌ مِثْلُ مَا قَتَلَ مِنَ النَّعَمِ يَحْكُمُ بِهِ ذَوَا عَدْلٍ مِنْكُمْ هَدْيًا بَالِغَ الْكَعْبَةِ أَوْ كَفَّارَةٌ طَعَامُ مَسَاكِينَ أَوْ عَدْلُ ذَلِكَ صِيَامًا لِيَذُوقَ وَبَالَ أَمْرِهِ عَفَا اللَّهُ عَمَّا سَلَفَ وَمَنْ عَادَ فَيَنْتَقِمُ اللَّهُ مِنْهُ وَاللَّهُ عَزِيزٌ ذُو انْتِقَامٍ (٩٥) أُحِلَّ لَكُمْ صَيْدُ الْبَحْرِ وَطَعَامُهُ مَتَاعًا لَكُمْ وَلِلسَّيَّارَةِ[١] وَحُرِّمَ عَلَيْكُمْ صَيْدُ الْبَرِّ مَا دُمْتُمْ حُرُمًا وَاتَّقُوا اللَّهَ الَّذِي إِلَيْهِ تُحْشَرُونَ (٩٦) ﴾.

هدى من الآيات:

الطعام يجب أن يكون بهدف العمل الصالح والإيمان والإحسان إلى الناس ولذلك يحرم من الطعام ما يخالف هذا الهدف مثل الخمر.

وقد يكون الطعام وسيلة لدعم أهدافه بصورة النفي مثل ترك الطعام في الصيام. حيث أنه يقوي التقوى والإحساس بالمسؤولية، وبالتالي الإحسان والعمل الصالح وكذلك ترك الطعام في الحج.

فحرمة الصيد في الحرم أو خلال القيام بمراسم الإحرام لا تعني أن في الطعام جرثومة بل تعني أن الطعام ذاته اصبح مادة لاختبار إرادة الإنسان ولدعم قدرتها على ضبط الشهوات.

في هذه المجموعة من الآيات يبين الله فلسفة حرمة الصيد في الحج.

ويضع مجموعة من الروادع المادية لمن يصطاد في الحج أو في الحرم حيث يجب عليه أن

(١) السيارة: المسافرون.

يكفر عن ذنبه بمثل ما اصطاد من الحيوان، وبالتالي يجب عليه أن يقهر شهواته التي حاولت الاستفادة من الحياة بالعطاء لها مجدداً حتى يعرف أن اتباع الشهوات يؤدي إلى الوبال.

وفي الوقت الذي حرم صيد البر، أحل الله صيد البحر في حالة الإحرام لأن الهدف هو تنمية الإرادة وتربية روح التقوى، وليس الهدف تجويع الإنسان.

بينات من الآيات:

الصيد وامتحان الإرادات

[٩٤] بالرغم من أن عملية الاصطياد في الحج تتم بصورة مشروعة وليست استثماراً لجهد الآخرين، إذ أن صاحب الصيد هو صاحب العمل، بالرغم من ذلك فقد حرم الله هذا لصيد لا لأنه استثمار لجهد الناس (كما في حرمة الربا) ولا لأنه يضر بعقل الإنسان، ولا لأنه يضر بجسمه (كما في حرمة لحم الخنزير)، ولكنه لمجرد اختبار إرادة الإنسان وتنمية روح التقوى فيه ﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ لَيَبْلُوَنَّكُمُ ٱللَّهُ بِشَىْءٍ مِّنَ ٱلصَّيْدِ تَنَالُهُۥٓ أَيْدِيكُمْ وَرِمَاحُكُمْ لِيَعْلَمَ ٱللَّهُ مَن يَخَافُهُۥ بِٱلْغَيْبِ ﴾ إذا، فهو امتحان، والهدف منه معرفة الذي يخشى الله بالغيب، وهو ذلك الذي استفاد من نور عقله في اكتشاف عاقبة عمله ولم يحدد رؤيته بما يراه أمام عينه، بل نظر بعيداً بعيداً. نظر إلى الله الذي يراقب عمله، ويحصي عليه ذنوبه، فيجازيه عليها فخشيه.

﴿فَمَنِ ٱعْتَدَىٰ بَعْدَ ذَٰلِكَ فَلَهُۥ عَذَابٌ أَلِيمٌ ﴾ من اعتدى على حرمات الله بعد أن بينها ربنا فإنه يستحق عذاباً أليماً.

أهداف الحرمة

[٩٥] الحكم الذي جعله الله مقياساً للامتحان هو: حرمة قتل الصيد في حالة الإحرام، أو في منطقة الحرم ﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ لَا تَقْتُلُواْ ٱلصَّيْدَ وَأَنتُمْ حُرُمٌ ﴾.

لماذا هذا الحكم؟.

لأن الإحرام يهدف التجرد عن الذات، وتنمية روح التقوى، ولا تتناسب هذه الحالة مع الانتشار في الأرض طلباً للصيد بما يحمل ذلك من اهتمامات بين الوافدين من مختلف بقاع الأرض من أجل أداء فريضة الحج فلو اهتموا وهم يسيرون إلى مكة بالصيد إذن لازدادت احتمالات الصراع بينهم على الصيد، وبالتالي تناقض ذلك مع هدف الحج الذي هو توحيد الأمة الإسلامية.

كفارة الصيد

﴿وَمَن قَتَلَهُۥ مِنكُم مُّتَعَمِّدًا فَجَزَآءٌ مِّثْلُ مَا قَتَلَ مِنَ ٱلنَّعَمِ﴾ ذلك لان لكل حيوان وحشي يصاد مثيلاً من الحيوانات الآهلة ونظيرا له في الحجم والشكل والفصيلة.

من هنا يجب دفع الكفارة حسب حجم الحيوان وشباهه، فمثلاً الغزال نظير الشاة في الحجم.

والمرجع القانوني لتمييز المثيل المناسب للصيد هو الناس أنفسهم (العرف العام) الذي يعبر عنه اثنان من العدول.

﴿يَحْكُمُ بِهِۦ ذَوَا عَدْلٍ مِّنكُمْ﴾ ويصرف فهذا الجزاء للكعبة وزوارها الحجاج إليها.

﴿هَدْيًۢا بَٰلِغَ ٱلْكَعْبَةِ﴾ وبإمكان الشخص أن يؤدي التعويض المادي وذلك بإطعام المساكين، حسب الصيد، وبعدد ما يشبع الصيد أو كفارته (من الناس) فلو كان الصيد يشبع عشرة أطعم عشرة مساكين.

﴿أَوْ كَفَّٰرَةٌ طَعَامُ مَسَٰكِينَ﴾ وباستطاعته أن يصوم بقدر الأيام التي يشبعها الصيد فمثلاً: بدل أن يقدم شاة تشبع عشرة رجال، أو يطعم عشرة رجال مساكين، بدل هذا وذاك، باستطاعته أن يصوم عشرة أيام كفارة لصيد الغزال الذي يعادل الشاة.

﴿أَوْ عَدْلُ ذَٰلِكَ صِيَامًا لِّيَذُوقَ وَبَالَ أَمْرِهِۦ﴾

وخلاصة القول: أن على الإنسان أن يعوض عن صيده بقدر ما استفاده من ذلك.

أما إذا كان الصيد قبل الحكم بحرمته، أو قبل العلم بهذا الحكم فإنه يعفى عنه ﴿عَفَا ٱللَّهُ عَمَّا سَلَفَ﴾.

بيد أن من اصطاد، ثم كفر، ثم اصطاد بصورة متعهدة فإن الكفارة لا تزيل ذنبه بل يبقى مذنباً حتى يلاقي ربه فيجازيه على ذنبه ﴿وَمَنْ عَادَ فَيَنتَقِمُ ٱللَّهُ مِنْهُ وَٱللَّهُ عَزِيزٌ ذُو ٱنتِقَامٍ﴾.

احل لكم صيد البحر

[٩٦] ليس الهدف من حرمة صيد البر تجويع الوافدين إلى البيت الحرام، بل تنمية إرادتهم وتقواهم، ومنع التشاجر بينهم من هنا أحل لهم صيد البحر لأنه لا يسبب عداء عادة.

﴿أُحِلَّ لَكُمْ صَيْدُ ٱلْبَحْرِ وَطَعَامُهُۥ مَتَٰعًا لَّكُمْ وَلِلسَّيَّارَةِ﴾ أي متاعاً لكم أنتم المقيمون في الحرم، وللسيارة المسافرين إلى الحرم ﴿وَحُرِّمَ عَلَيْكُمْ صَيْدُ ٱلْبَرِّ مَا دُمْتُمْ حُرُمًا وَٱتَّقُوا۟ ٱللَّهَ ٱلَّذِىٓ إِلَيْهِ تُحْشَرُونَ﴾.

الحج أيام الحرية

﴿ جَعَلَ ٱللَّهُ ٱلْكَعْبَةَ ٱلْبَيْتَ ٱلْحَرَامَ قِيَٰمًا لِّلنَّاسِ وَٱلشَّهْرَ ٱلْحَرَامَ وَٱلْهَدْىَ[1] وَٱلْقَلَٰٓئِدَ ۚ ذَٰلِكَ لِتَعْلَمُوٓا۟ أَنَّ ٱللَّهَ يَعْلَمُ مَا فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَمَا فِى ٱلْأَرْضِ وَأَنَّ ٱللَّهَ بِكُلِّ شَىْءٍ عَلِيمٌ ﴿٩٧﴾ ٱعْلَمُوٓا۟ أَنَّ ٱللَّهَ شَدِيدُ ٱلْعِقَابِ وَأَنَّ ٱللَّهَ غَفُورٌ رَّحِيمٌ ﴿٩٨﴾ مَّا عَلَى ٱلرَّسُولِ إِلَّا ٱلْبَلَٰغُ ۗ وَٱللَّهُ يَعْلَمُ مَا تُبْدُونَ وَمَا تَكْتُمُونَ ﴿٩٩﴾ قُل لَّا يَسْتَوِى ٱلْخَبِيثُ وَٱلطَّيِّبُ وَلَوْ أَعْجَبَكَ كَثْرَةُ ٱلْخَبِيثِ ۚ فَٱتَّقُوا۟ ٱللَّهَ يَٰٓأُو۟لِى ٱلْأَلْبَٰبِ لَعَلَّكُمْ تُفْلِحُونَ ﴿١٠٠﴾ ﴾.

هدى من الآيات:

كان القرآن الكريم يبين لنا طائفة من الأحكام المرتبطة بتنظيم الحياة الاجتماعية وطائفة من المحرمات التي استهدفت المحافظة على وحدة الناس.

ومنها ضرورة الالتزام بالأيمان وحرمة نقضها، وحرمة الخمر والميسر باعتبارهما معولي هدم للمجتمع، وحرمة الصيد في الحج.

في هذه المجموعة من الآيات يبين لنا:

أولاً: الهدف من الحج الذي يلخصه في أمرين يلتقيان بالتالي ليصبحا أمراً واحداً وهما: إقامة حياة الناس، وتنظيمها تنظيماً صالحاً.

ثانياً: إيجاد وازع داخلي لدى الناس يأمرهم باتباع هدى الله وقبول أوامره.

(١) الهدي والقلائد: الهدي ما يهدى من الأنعام إلى الكعبة، والقلائد ما يقلد به الهدي علامة له.

ذلك الوازع هو العلم بالحقائق التالية:

أولاً: بأن الله رقيب عليهم ويعلم ما يجري عندهم.

ثانياً: الرسول ليس مسؤولا عن أعمالهم، بل هم المسؤولون أولاً وأخيراً، وما على الرسول إلا أداء الرسالة إليهم.

ثالثاً: بأن هناك طيبًا في الحياة وخبيثاً، وأنهما لا يستويان. فليس الإنسان طيبًا بذاته وخبيثاً بذاته بل قد يكون طيبًا وقد يكون خبيثاً، وعليه أن يختار لنفسه وعلى الإنسان أن يستخدم عقله ويختار لنفسه إما باتجاه الطيب أو الخبيث.

وبمناسبة الحديث عن هذا الوازع يحدثنا القرآن في الدرس القادم عن العلم بالأحكام الشرعية حسبما نأتي إلى ذكره:

بينات من الآيات:

رموز الحرية

[٩٧] لماذا الكعبة ولماذا الحج إليها، هل الكعبة مقام عبادة يتقرب بها الناس إلى ربهم أم هي مدرسة تزكي النفس البشرية.. أم هي أكثر من ذلك (مركز تجمع للأمة الإسلامية) تنظم حياتهم على الأرض وتعدهم لدخول الجنة في الآخرة؟ هي في الواقع كل ذلك.

يقول الله عن الكعبة: ﴿ ۞ جَعَلَ ٱللَّهُ ٱلْكَعْبَةَ ٱلْبَيْتَ ٱلْحَرَامَ قِيَـٰمًا لِّلنَّاسِ وَٱلشَّهْرَ ٱلْحَرَامَ وَٱلْهَدْىَ وَٱلْقَلَـٰٓئِدَ ﴾ هذه المناسك تجعل الكعبة كمنطقة حرة، والشهر الحرام أيام الحرية، والهدي و القلائد كأشياء مادية محترمة (أي محررة لله لا لعباد الله).

هذه الأمور كلها رموز الحرية جعلها الله للناس قياماً أي تنظيماً لحياتهم، إذ أن الحرية هي أساس تنظيم الحياة الاجتماعية ففي المنطقة الحرة تجتمع الجماهير لتعبر كل طائفة عن رأيها الصريح، ويتفق الناس فيما بينهم حول ما يشاءون، ويتعاونون من أجل بناء حياتهم الكريمة، ويتحدون من أجل مقاومة الطاغوت.

أما الشهر الحرام فهو الوقت الذي يحرم فيه التجاوز على الآخرين، ويجب أن يسمح لكل الفئات خلاله بالمسير إلى الحج، ولا يتعرض أحد، لهم بسوء أنى كانت الدوافع إلى هذا التعرض.

أما الهدي والقلائد فهذه الأشياء لا يجوز لأحد الاعتداء عليها لأنها ليست لأحد بل هي لله وللجميع، أي لكل الوافدين إلى الحج. إنها رمز الملكية الجماهيرية، إنها رمز التعاون في الاستفادة من أشياء هذه الأرض من أجل رفاه الناس جميعاً.

الحرية بين الفوضى والتحرك

ويبقى سؤال: كيف تصبح الحرية سبباً لقيام المجتمع ونحن نعلم أن الحرية قد تسبب الفوضى؟.

الجواب:

أولاً: إن الحرية تعني أن كل الناس أحرار ولا يعني بالطبع أن تكون طائفة واحدة او شخص واحد فقط هو الحر. وإذا طبقنا هذه القيمة (أي الحرية للمجتمع) فإن ذلك يعني انضباط الجميع في نفس الوقت. إذ لا يجوز لأحد أن يسلب حرية الآخرين بل عليه أن يحترمها.

وهذا الاحترام المتبادل لحقوق الآخرين هو أكثر ما يوفر الانضباط والتقيد. من هنا تصبح الحرية نظاماً عادلاً ومستقراً.

معنى الحرية

ثانياً: سمى القرآن الحرية هنا بالإحرام والحرمة (البيت الحرام الشهر الحرام) وهذا يعني أن الحرية هي: الكف عن الاعتداء قبل أن يكون المطالبة بالحق.

فأنت حر إذا لم تتجاوز حقوق غيرك، والحقوق هذه يحددها الله ففي الحرم أنظمة جعلها الله، وعلى الجميع أن يلتزموا بها حتى تتوفر لهم جميعاً الحرية الكافية.

هذا هدف من أهداف الحج، ولكنه ليس كل أهدافه، إذ أن هناك قضية تزكية الذات التي لا يمكن أن تحدث إلا عن طريق وجود وازع في القلب، وهذا الوازع يأتي عن طريق إحساس كل فرد أنه مراقب من قبل الله رقابة شاملة، وبذلك يزداد شعوراً بالمسؤولية وبالتالي التزاماً بها، من هنا يقول ربنا: ﴿ذَٰلِكَ لِتَعۡلَمُوٓاْ أَنَّ ٱللَّهَ يَعۡلَمُ مَا فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَمَا فِي ٱلۡأَرۡضِ وَأَنَّ ٱللَّهَ بِكُلِّ شَيۡءٍ عَلِيمٌ﴾.

[٩٨] والله لا يراقب الناس فقط بل ويجازيهم بشدة، أو يرحمهم برحمته الواسعة، فالعبد

بين أن يسقط إلى الحضيض، مرة واحدة أو يحلق في السماء عالياً.

﴿ اعْلَمُوا أَنَّ اللَّهَ شَدِيدُ الْعِقَابِ وَأَنَّ اللَّهَ غَفُورٌ رَحِيمٌ ﴾ وهذه المعادلة تجعل النفس تندفع بسرعة هائلة إلى الأمام. إذ تجد أنها بين قطبين متضادين بقوة، فإما عقاب شديد وإما مغفرة ورحمة فيصبح الإنسان وكأنه في معركة حاسمة تؤدي إما إلى نصر مؤزر وإما إلى هزيمة نكراء. فكيف يكون اندفاع هذا ا لشخص وحذره وتحسسه بمسؤولياته وبالتالي تقواه؟!.

من المسؤول؟

[٩٩] وليس من الممكن أن يلقي الإنسان بمسؤولياته على الآخرين، فمثلاً يقول: إن الله ورسوله هو المسؤول عني، وعن تربيتي وتزكيتي وهدايتي. كلا، إن المسؤول الأول هو الإنسان نفسه، أما الرسول فهو مسؤول في حدود الدعوة فقط.

﴿ مَا عَلَى الرَّسُولِ إِلَّا الْبَلَاغُ ﴾ فإذا بلغ الدعوة إلى الشخص فإن مسؤوليته قد انتهت ويبقى الإنسان مسؤولا أمام الله ﴿وَاللَّهُ يَعْلَمُ مَا تُبْدُونَ وَمَا تَكْتُمُونَ ﴾.

[١٠٠] والناس فريقان، طيب وخبيث، وبينهما مسافة بعيدة وعلى المرء أن يختار لنفسه أحد الفريقين، ولكن ليعرف مسبقاً أن الفريق الطيب هو الأفضل على رغم قلة أبنائه.

﴿ قُل لَّا يَسْتَوِي الْخَبِيثُ وَالطَّيِّبُ وَلَوْ أَعْجَبَكَ كَثْرَةُ الْخَبِيثِ ﴾ والتقوى هو زاد الإنسان للوصول إلى مستوى الطيب فعلى الإنسان أن يتقي الله ويتحمل كل مسؤولياته بوعي وحذر إذا كان عاقلاً وإذا أراد السعادة ﴿فَاتَّقُوا اللَّهَ يَا أُولِي الْأَلْبَابِ لَعَلَّكُمْ تُفْلِحُونَ ﴾.

الجهل والتقليد آفة الصلاح

﴿ يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لَا تَسْأَلُوا عَنْ أَشْيَاءَ إِنْ تُبْدَ لَكُمْ تَسُؤْكُمْ وَإِنْ تَسْأَلُوا عَنْهَا حِينَ يُنَزَّلُ الْقُرْآنُ تُبْدَ لَكُمْ عَفَا اللَّهُ عَنْهَا وَاللَّهُ غَفُورٌ حَلِيمٌ (١٠١) قَدْ سَأَلَهَا قَوْمٌ مِنْ قَبْلِكُمْ ثُمَّ أَصْبَحُوا بِهَا كَافِرِينَ (١٠٢) مَا جَعَلَ اللَّهُ مِنْ بَحِيرَةٍ [1] وَلَا سَائِبَةٍ [2] وَلَا وَصِيلَةٍ [3] وَلَا حَامٍ [4] وَلَكِنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا يَفْتَرُونَ عَلَى اللَّهِ الْكَذِبَ وَأَكْثَرُهُمْ لَا يَعْقِلُونَ (١٠٣) وَإِذَا قِيلَ لَهُمْ تَعَالَوْا إِلَى مَا أَنْزَلَ اللَّهُ وَإِلَى الرَّسُولِ قَالُوا حَسْبُنَا مَا وَجَدْنَا عَلَيْهِ آبَاءَنَا أَوَلَوْ كَانَ آبَاؤُهُمْ لَا يَعْلَمُونَ شَيْئًا وَلَا يَهْتَدُونَ (١٠٤) يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا عَلَيْكُمْ أَنْفُسَكُمْ لَا يَضُرُّكُمْ مَنْ ضَلَّ إِذَا اهْتَدَيْتُمْ إِلَى اللَّهِ مَرْجِعُكُمْ جَمِيعًا فَيُنَبِّئُكُمْ بِمَا كُنْتُمْ تَعْمَلُونَ (١٠٥) ﴾.

هدى من الآيات:

العلم بالحكم الشرعي يورث الإنسان مسؤولية العمل به، ولحكمة الله سبحانه فإنه

---

(١) بحيرة: أصل الباب السعة، وسمي البحر بحراً لسعته، وفرسٌ بحرٌ: واسع الجري، وفي الحديث أنه ﷺ قال لفرس له: وجدتها بحراً.

(٢) السائبة: فاعلة من ساب الماء إذا جرى على وجه الأرض، ويقال سَيَّبْتُ الدابة أي تركتُها تسيب حيث شاءت، وأصلها المخلاة وهي المسيَّبة، وأخذت من قولهم سابت الحيّة وانسابت إذا مضت مستمرة (والسائبة هي التي تسيبت في المرعى فلا ترد عن حوض ولا علف إذا ولدت خمسة أبطن).

(٣) وصيلة: إذا وصلت بمعنى الموصولة، كأنها وصلت بغيرها، ويجوز أن يكون بمعنى الواصلة، لأنها وصلت أخاها وهذا أظهر في الآية (وهو أن يكون أحدهم كان إذا ولدت له شاته ذكراً أو أنثى قالوا وصلت أخاها فلا يذبح من أجلها.

(٤) حام: هو العجل إذا ضرب عشرة أبطن يحمى ظهره فلا يركب.

يتدرج في بيان الأحكام الشرعية حتى يستوعبها الناس بصورة مرحلية.

ولكن بعض الناس يستعجلون في الأمر فيحاولون معرفة الأحكام أو الحقائق مرة واحدة، وقد لا يستوعبون فيكفرون بالحقائق أو لايطبقون الأحكام فيكفرون بها.

إنما على الإنسان أن ينتظر الوحي حتى يهبط بالحكم الشرعي أو بالحقيقة فيسأل عنها لأن الله لاينزل العلم الا في حينه، وبقدر استيعاب الناس له.

وبسبب الاستعجال بالعلم بالأحكام ترى بعض الناس يصدرون أحكاماً من عند أنفسهم ثم ينسبونها إلى الله، أو يتقبلون التقاليد الجاهلية كأحكام، ثم لا يتركونها بالرغم من مخالفتها لهدى العقل والعلم.

إن تقليد الآباء عقبة كأداء في طريق تحمل المسؤولية، كذلك تقليد المجتمع حيث أن بعض الناس يتخذون من المجتمع عقبة لأعمالهم فيتركون بعض الواجبات لمجرد أن الناس لا يستحسنونها.

إن القرآن في هذه المجموعة من الآيات يقوم بتصفية العقبات النفسية من أمام المسؤولية وهي العجلة وعدم المرحلية وتقليد الآباء، واتباع المجتمع.

بينات من الآيات:

المرحلية في التشريع القرآني

[١٠١] الاستعجال في فهم الحقائق سواء كانت مرتبطة بالأحكام الشرعية أو التقاليد الاجتماعية، قد لا يكون القلب مستعداً لتقبل تلك الحقائق فيسبب كراهية القلب لها او قد يسبب كفر المسلم بها. لذلك نهى الله عن السؤال المبكر عن الحقائق قائلاً: ﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ لَا تَسۡـَٔلُواْ عَنۡ أَشۡيَآءَ إِن تُبۡدَ لَكُمۡ تَسُؤۡكُمۡ ﴾ إنما علينا أن نسأل عن تلك الحقائق حين يحين موعدها أي حين تشاء إرادة الله بيانها وبما أن الله لا يريد ذلك إلا حين تقتضي حكمة المرحلة: أي حين يستعد المجتمع لتقبل ذلك الحكم أو تلك الحقيقة العلمية، فإن وقت نزول القرآن يكون ملائماً للسؤال.

﴿وَإِن تَسۡـَٔلُواْ عَنۡهَا حِينَ يُنَزَّلُ ٱلۡقُرۡءَانُ تُبۡدَ لَكُمۡ﴾ ثم إن القرآن لا يبين الحكم في مرحلة فحسب، بل ويدعم ذلك بذكر الموعظة المناسبة للحكم، والفلسفة التي استوجبته. كذلك يبين أن الله قد عفا عما سلف من الأعمال السيئة التي تأتي الأحكام الشرعية لإصلاحها وتزكية

الإنسان منها ﴿عَفَا ٱللَّهُ عَنْهَا وَٱللَّهُ غَفُورٌ حَلِيمٌ﴾.

ومن آيات غفرانه.. عفوه عن سابق الذنوب، ومن دلائل حلمه أنه لا يبين الحقائق إلا حسب المراحل.

الاستعجال طريق الكفر

[١٠٢] ثم بين ربنا سبب نهيه عن السؤال المبكر وقال: ﴿قَدْ سَأَلَهَا قَوْمٌ مِّن قَبْلِكُمْ ثُمَّ أَصْبَحُوا بِهَا كَافِرِينَ﴾ إنهم كفروا بتلك الحقائق لأنها جاءت قبل موعدها، وفوق مستواهم المرحلي لإدراك تلك الحقيقة.

إن الله أنزل الأحكام بصورة تدريجية حتى أنه حرم الخمر عبر ثلاث مراحل، ولم يشرع فريضة الزكاة إلا متأخراً ولم يأذن بالجهاد إلا بعد فترة حتى يكون المجتمع مهيأً نفسيًّا للحكم الشرعي.

تحريم الطيبات

[١٠٣] ومن الأمثلة التي كان الجاهليون لا يكفون عن السؤال عنها هي تلك النعم التي كانوا يحرمونها على أنفسهم بسبب من الأسباب.. مثل البحيرة والسائبة و.. وحيث أنها كانت تنذر للآلهة، ثم بعد أن يذبحها أصحابها تترك في أرض الله لا يمسها أحد بسوء.

وقد بين القرآن الحكيم أن هذه النعم حلال على الناس، وأن الله لم يحرمها عليهم ذلك:

أولاً: لأن النذر للآلهة حرام، وحرام كل شيء يمت بعبادة الأصنام، وحتى الذبيحة إذا كانت باسم الآلهة فإنها تحرم حتى لو استوفت سائر شروط الذبح الإسلامية لمجرد أنها ذبحت باسم الأصنام.

ثانياً: لأن ذلك تشريع من دون إذن الله، وهو بدعة وضلالة وشرك.

ثالثاً: لأن الله لا يحرم على البشر الطيبات وحتى الهدي والقلائد ليست محرمة على الناس بل هي للناس جميعاً، وفرق كبير بين التشريع الجاهلي الذي كان يذبح البهائم الحلال باسم الآلهة، وبين التشريع الإسلامي الذي يأمر بذبحها من أجل استفادة جميع أبناء المجتمع منها.

الإسلام يحرر الطيبات من الملكية الخاصة -في بعض المناسبات- من أجل أن تكون فوائدها مشاعة، اما الجاهلية فإنها تحرمها على كل الناس وتدعها بلا فائدة على أحد:

﴿مَا جَعَلَ ٱللَّهُ مِنۢ بَحِيرَةٍ وَلَا سَآئِبَةٍ وَلَا وَصِيلَةٍ وَلَا حَامٍ﴾ لأنها جميعاً تخالف سنة الله في الحياة التي تقضي بتسخير الأشياء لخدمة الإنسان.

ولأنها تخالف تشريع الإسلام بالاستفادة من الطيبات.

﴿وَلَٰكِنَّ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ يَفْتَرُونَ عَلَى ٱللَّهِ ٱلْكَذِبَ ۖ وَأَكْثَرُهُمْ لَا يَعْقِلُونَ﴾ ودليل ذلك أنهم يحرمون على أنفسهم الطيبات بلا سبب معقول.

رسالة السماء لا تقليد الآباء

[١٠٤] إن الله يريد من الإنسان الاستفادة من موهبة العلم والعقل ولكن الكفر يغل قلب صاحبه ويدعه مغلقاً لا يدخله نور العقل، لذلك لا يستفيد من عقله بل يروح يقلد من هم أقل عقلاً منه وهدى.

والواقع إن التقليد سواء كان من المجتمع أو من الآباء فهو أكثر ما يصد البشر عن التقدم والرقي.

﴿وَإِذَا قِيلَ لَهُمْ تَعَالَوْا۟ إِلَىٰ مَآ أَنزَلَ ٱللَّهُ وَإِلَى ٱلرَّسُولِ﴾ هذا ما أنزله الله على رسوله الجديد يأتيكم نقيًا صافياً ﴿قَالُوا۟ حَسْبُنَا مَا وَجَدْنَا عَلَيْهِ ءَابَآءَنَآ﴾ أنظر إنهم يقولون: ﴿حَسْبُنَا﴾: (أي نكتفي بما نجده عند الآباء) إن حركة الحياة قد توقفت في أنفسهم وأصبحوا يكتفون بالماضي دون أي إبداع أو تطوير.

﴿أَوَلَوْ كَانَ ءَابَآؤُهُمْ لَا يَعْلَمُونَ شَيْـًٔا وَلَا يَهْتَدُونَ﴾ أي حتى لو أن آباءهم كانوا قد ضلوا الطريق بسبب غياب مصدري التقدم عن حياتهم وهما العلم: وهو ما يكتشفه الإنسان بنفسه، والهدى: وهو ما ينزل عليه من ربه.

مع ذلك يقلدونهم وقد توفرت لهم فرصتا العلم والهدى.

الإنسان بين الهداية وتحدي المجتمع

[١٠٥] وتقليد المجتمع هو الآخر يقف أمام تطور الإنسان وتقدمه وكم من الناس كانوا يكتشفون طرقاً جديدة لحياتهم تركوها خشية المجتمع أو حتى حياء من الناس.

﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ عَلَيْكُمْ أَنفُسَكُمْ ۖ لَا يَضُرُّكُم مَّن ضَلَّ إِذَا ٱهْتَدَيْتُمْ﴾ إن الذي يضل الطريق يجب أن يخشى على نفسه السباع، كما أن عليه أن يقلد الذي اهتدى إلى الطريق وليس العكس.

إن المهتدي يسير وفق حركة الحق، ووفق سنة الله في الكون وبالتالي فهو الذي سيصل عاجلاً أم آجلاً إلى أهدافه، وعندئذ يخسر الضالون ويندمون على تفريطهم في مصالحهم.

ثم إن نهاية حركة الإنسان هي إلى الله مالك السماوات والأرض حيث يبين لنا من ضل ومن اهتدى، وذلك من خلال جزائه العادل، فيعاقب من ضل، ويثيب من اهتدى.

﴿إِلَى ٱللَّهِ مَرْجِعُكُمْ جَمِيعًا فَيُنَبِّئُكُم بِمَا كُنتُمْ تَعْمَلُونَ﴾ قد يصل الإنسان إلى جزائه دون أن يعرف أن هذا هو جزاء عمله.

فمثلاً: يشرب الماء الملوث فيصاب بمرض دون أن يعرف أن سبب مرضه هو ذلك الشراب، بيد أن الله لا يدع الإنسان يضل أو يهتدي حتى ينبئه ويخبره به يقيناً، أنه كان على ضلال وإن ما يعانيه من عقاب هو ثمن ضلالته أو أنه كان على هدى وأن ما اكتسبه من الثواب هو جزاء هداه.

إننا كبشر نخشى لوم الناس، فإذا سخر منا أحد انهزمنا نفسيًّا أمام سخريته وقد نفقد الثقة بأنفسنا ونفقد الاطمئنان إلى ديننا لمجرد أن أحداً سخر منا.

وقد يترك البعض طريق الهدى لمجرد أن الناس يقولون له إن هذا ضلالة.

والقرآن يبين لنا هنا بأن المستقبل كفيل ببيان صاحب الحق وصاحب الباطل، فلماذا ننظر إلى أقوال الناس، ولماذا لا نثق بعقولنا وبما نكشفه بأنفسنا من حقائق، ولماذا لا نهتدي إلى الصواب بحجة أن الآخرين لم يهتدوا إليه؟! دع الآخرين يتبعونك لأنك أنت وليسوا هم على صواب ولا تخش أقوالهم لأن الحقائق ستظهر قريباً.

الإشهاد والتوثيق

﴿ يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا شَهَادَةُ بَيْنِكُمْ إِذَا حَضَرَ أَحَدَكُمُ الْمَوْتُ حِينَ الْوَصِيَّةِ اثْنَانِ ذَوَا عَدْلٍ مِنْكُمْ أَوْ آخَرَانِ مِنْ غَيْرِكُمْ إِنْ أَنْتُمْ ضَرَبْتُمْ فِي الْأَرْضِ فَأَصَابَتْكُمْ مُصِيبَةُ الْمَوْتِ تَحْبِسُونَهُمَا مِنْ بَعْدِ الصَّلَاةِ فَيُقْسِمَانِ بِاللَّهِ إِنِ ارْتَبْتُمْ لَا نَشْتَرِي بِهِ ثَمَنًا وَلَوْ كَانَ ذَا قُرْبَىٰ وَلَا نَكْتُمُ شَهَادَةَ اللَّهِ إِنَّا إِذًا لَمِنَ الْآثِمِينَ (١٠٦) فَإِنْ عُثِرَ عَلَىٰ أَنَّهُمَا اسْتَحَقَّا إِثْمًا فَآخَرَانِ يَقُومَانِ مَقَامَهُمَا مِنَ الَّذِينَ اسْتَحَقَّ عَلَيْهِمُ الْأَوْلَيَانِ فَيُقْسِمَانِ بِاللَّهِ لَشَهَادَتُنَا أَحَقُّ مِنْ شَهَادَتِهِمَا وَمَا اعْتَدَيْنَا إِنَّا إِذًا لَمِنَ الظَّالِمِينَ (١٠٧) ذَٰلِكَ أَدْنَىٰ أَنْ يَأْتُوا بِالشَّهَادَةِ عَلَىٰ وَجْهِهَا أَوْ يَخَافُوا أَنْ تُرَدَّ أَيْمَانٌ بَعْدَ أَيْمَانِهِمْ وَاتَّقُوا اللَّهَ وَاسْمَعُوا وَاللَّهُ لَا يَهْدِي الْقَوْمَ الْفَاسِقِينَ (١٠٨) ﴾.

هدى من الآيات:

بمناسبة الحديث عن المسؤولية وعن دور العلم فيها (إذ العلم لا ينفصل عن المسؤولية) جاء الحديث في الآيات هذه، عن الشهادة التي ليست بعلم، ولكنها قائمة مقامها في إيجاد المسؤولية الدينية، وحسب منهج القرآن، الذي لا يتحدث عن حقيقة إلا عبر الحديث عن واقعة خارجية متصلة بالحياة مباشرة، وبالتالي يعطي مثلاً حيًّا للأحكام وللحقائق.

حسب هذا المنهج تحدث القرآن هنا عن الشهادة بعد الموت، حيث ينبغي أن يشهد الشخص إذا اقترب الموت منه، شخصين عادلين، وينقل إليهم مسؤولية الشهادة بعد الموت، وإذا كانا موضع تهمة فعليهما أن يحلفا بالله بعد أداء الفريضة قسماً بأنهما لا يكذبان في الشهادة.

وإذا تبين كذبهما فلا يمكن الحكم بكذبهما إلا إذا حلف اثنان من المعارضين المدعين عليهما الإثم يحلفان على التهمة الموجهة للشاهدين كما يحلفان على انهما ليسا بظالمين في توجيه

التهمة إلى هذين الشخصين.

إن هذا العمل أفضل طريقة لصدق الشهادة وعدم رد الأيمان.

وعلى الإنسان إذا أراد أن يصل إلى الحقيقة، وبالذات على القاضي، إذا أراد أن يتوصل إلى الحق فعليه أن يقوم بأمرين:

ألف: تقوى الله واتباع أوامره.

بـــاء: أن يستمع إلى كل الآراء.

وأما إذا افتقد القاضي التقوى، فإنه لا ينتفع بالسماع أبداً.

بينات من الآيات:

الشهادة والشهود

[١٠٦] كيف يثبت الحكم الشرعي؟.

أولاً: بالعلم البعيد عن تقليد الآباء، أو تقليد المجتمع، أو استعجال الأحكام الشرعية، وهذا ما تحدثت به الآيات السابقة.

ثانياً: بالشهادة وهي تختص بالعدل من المؤمنين، وهو الرجل المستقيم الذي ينفذ تعاليم ربه، ولا يكفي في العادل (كما توحي به كلمة العدل ذاتها) أن يكون مؤمناً أو حتى متقياً، بل عليه أن يكون مستقيماً في تفكيره وسلوكه، فلو كان الشخص سريع الاقتناع بسيطاً في فهم الحقائق مما يضر بالشهادة فإن شهادته غير مقبولة.

ومن أبرز موارد الشهادة، الشهادة على الوصية حيث ينبغي أن يستشهد المرء حين تحضره الوفاة رجلين عادلين على وصيته، والأفضل أن يكونا من المسلمين وإن لم يمكن فيكفي أن يكونا عادلين.

إثبات الشهادة

﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ شَهَٰدَةُ بَيۡنِكُمۡ إِذَا حَضَرَ أَحَدَكُمُ ٱلۡمَوۡتُ حِينَ ٱلۡوَصِيَّةِ ٱثۡنَانِ ذَوَا عَدۡلٖ مِّنكُمۡ أَوۡ ءَاخَرَانِ مِنۡ غَيۡرِكُمۡ ﴾.

أما إذا وجهت تهمة إلى هذين الشاهدين كما إذا حصلت الوفاة في السفر، فجاء الشاهدان

من غير المسلمين من رفاق الميت في الطريق وشهدا على وصية معينة، فهنا تطرح عادة علامة استفهام إذ قد تكون الوصية ملفقة رأسا فهنا لا نكتفي بالعدالة الظاهرة (الشهادة) بل نطلب منهما أن يحلفا عقيب الفريضة انهم صادقان:

﴿إِنْ أَنتُمْ ضَرَبْتُمْ فِي ٱلْأَرْضِ فَأَصَـٰبَتْكُم مُّصِيبَةُ ٱلْمَوْتِ﴾ وجاء اثنان من غير المسلمين فهنا: ﴿تَحْبِسُونَهُمَا مِنۢ بَعْدِ ٱلصَّلَوٰةِ فَيُقْسِمَانِ بِٱللَّهِ إِنِ ٱرْتَبْتُمْ﴾ إذا كانت طريقة إدلائهم بالشهادة أو حتى ملابسات الوفاة التي يتحدثان عنها، إذا كانت مثيرة للشك، ولأنه ليس هناك أي دليل عيني على أنهما كاذبان، وبما أنهما ينكران التهمة الموجهة ضدهما، فعليكم أن تستحلفوهما حلفا مغلظا بعد الصلاة ويكون مضمون الحلف هو أننا: ﴿لَا نَشْتَرِى بِهِۦ ثَمَنًا وَلَوْ كَانَ ذَا قُرْبَىٰ﴾ أي حتى ولو كان الأمر في صالح بعض أقاربنا فإننا لا نكذب للحصول على بعض المال ليس ذلك فقط بل: ﴿وَلَا نَكْتُمُ شَهَـٰدَةَ ٱللَّهِ﴾.

إذ قد لا يكذب الشخص بالكلام، بل قد يكذب بالصمت كأن يسكت عن الحقيقة التي يعرفها وبسكوته لا يدع الحقيقة تظهر، وبذلك يرتكب إثما مبينا ﴿إِنَّآ إِذًا لَّمِنَ ٱلْـَٔاثِمِينَ﴾.

[١٠٧] فإذا تبين أن هذين الشخصين قد ارتكبا إثما، فهناك لايمكن إثبات الإثم هذا إلا إذا شهد رجلان ضدهما، وفي مصلحة أصحاب الحق المهضوم.

﴿فَإِنْ عُثِرَ عَلَىٰٓ أَنَّهُمَا ٱسْتَحَقَّآ إِثْمًا فَـَٔاخَرَانِ يَقُومَانِ مَقَامَهُمَا﴾ أي يقفان على منصة الشهادة، ويشهدان لمصلحة صاحب الحق إن عثر على دليل خيانتهما.

﴿مِنَ ٱلَّذِينَ ٱسْتَحَقَّ عَلَيْهِمُ ٱلْأَوْلَيَـٰنِ﴾ أي من أصحاب الدم أو أولى الناس به من ناحية القرابة ﴿فَيُقْسِمَانِ بِٱللَّهِ لَشَهَـٰدَتُنَآ أَحَقُّ مِن شَهَـٰدَتِهِمَا﴾ أي يجب أن يحلفا قبل الشهادة بصدقهما ويشهدا على أن الشاهدين غير صادقين في الشهادة.

﴿وَمَا ٱعْتَدَيْنَآ إِنَّآ إِذًا لَّمِنَ ٱلظَّـٰلِمِينَ﴾ أي ما ارتكبنا عدواناً، وإذا كنا قد ارتكبنا عدواناً أو تجاوزنا الحد فإن ذلك يثبت علينا صفة الظلم ونحن سوف نستعد لمواجهة العقوبة المفروضة على الظالم.

[١٠٨] إن هذا النوع من الاستشهاد سيكون أفضل أنواع الشهادة. لأنها تستنهض ضمير الشاهد وتثير فيه وازعه الديني.

﴿ذَٰلِكَ أَدْنَىٰٓ أَن يَأْتُوا۟ بِٱلشَّهَـٰدَةِ عَلَىٰ وَجْهِهَآ﴾ أي أقرب إلى الشهادة المأتية على الوجه الصحيح. وفي ذات الوقت سيكون ذلك سبباً لاطمئنان الناس بالشهادة إذ أن الشهادة تتأكد

بالحلف.

﴿أَوْ يَخَافُوٓاْ أَن تُرَدَّ أَيْمَٰنٌۢ بَعْدَ أَيْمَٰنِهِمْ﴾ أي يخشوا من عاقبة رد اليمين على الورثة بعد شهادة الشاهدين فيفتضح أمرهما. وعلى العموم، الشهادة طريق الإنسان إلى العلم، ولكنها بحاجة إلى التقوى والسماع من قبل المستمع للشهادة، إذ أن التقوى ستمنع من الحكم المسبق على الشاهد أو في القضية من دون دليل، وستمنعه من الميل نحو أحد طرفي القضية لأن صاحبه من أقارب الميت، أو لأن مصلحته ستكون في ذلك أو لمجرد الاستعجال في الحكم من دون معرفة أن ذلك يخالف روح التقوى.

أما السماع فإنه الشرط المادي لمعرفة الحقائق بعد توفر الشرط النفسي والعقلي وهو التقوى لذلك قال ربنا: ﴿وَٱتَّقُواْ ٱللَّهَ وَٱسْمَعُواْ﴾.

ثم أكد القرآن على أهمية التقوى في فهم الحقائق وقال: ﴿وَٱللَّهُ لَا يَهْدِى ٱلْقَوْمَ ٱلْفَٰسِقِينَ﴾ فإذا كان الإنسان ظالماً لحقوق الناس فإن ظلمهم سيكون حجاباً أمام عينه فلا يرى الحق حقا لإنه يحاول دائماً أن يبرر ظلمه أما الناس، وليتخلص من وخز الضمير الذي أقض عليه مضجعهُ.

الأنبياء عليهم السلام في حضرة الله

﴿ يَوْمَ يَجْمَعُ ٱللَّهُ ٱلرُّسُلَ فَيَقُولُ مَاذَآ أُجِبْتُمْ قَالُواْ لَا عِلْمَ لَنَآ إِنَّكَ أَنتَ عَلَّٰمُ ٱلْغُيُوبِ ﴿١٠٩﴾ إِذْ قَالَ ٱللَّهُ يَٰعِيسَى ٱبْنَ مَرْيَمَ ٱذْكُرْ نِعْمَتِى عَلَيْكَ وَعَلَىٰ وَٰلِدَتِكَ إِذْ أَيَّدتُّكَ بِرُوحِ ٱلْقُدُسِ تُكَلِّمُ ٱلنَّاسَ فِى ٱلْمَهْدِ وَكَهْلًا وَإِذْ عَلَّمْتُكَ ٱلْكِتَٰبَ وَٱلْحِكْمَةَ وَٱلتَّوْرَىٰةَ وَٱلْإِنجِيلَ وَإِذْ تَخْلُقُ مِنَ ٱلطِّينِ كَهَيْـَٔةِ ٱلطَّيْرِ بِإِذْنِى فَتَنفُخُ فِيهَا فَتَكُونُ طَيْرًۢا بِإِذْنِى وَتُبْرِئُ ٱلْأَكْمَهَ وَٱلْأَبْرَصَ بِإِذْنِى وَإِذْ تُخْرِجُ ٱلْمَوْتَىٰ بِإِذْنِى وَإِذْ كَفَفْتُ بَنِىٓ إِسْرَٰٓءِيلَ عَنكَ إِذْ جِئْتَهُم بِٱلْبَيِّنَٰتِ فَقَالَ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ مِنْهُمْ إِنْ هَٰذَآ إِلَّا سِحْرٌ مُّبِينٌ ﴿١١٠﴾ وَإِذْ أَوْحَيْتُ إِلَى ٱلْحَوَارِيِّۦنَ أَنْ ءَامِنُواْ بِى وَبِرَسُولِى قَالُوٓاْ ءَامَنَّا وَٱشْهَدْ بِأَنَّنَا مُسْلِمُونَ ﴿١١١﴾ إِذْ قَالَ ٱلْحَوَارِيُّونَ يَٰعِيسَى ٱبْنَ مَرْيَمَ هَلْ يَسْتَطِيعُ رَبُّكَ أَن يُنَزِّلَ عَلَيْنَا مَآئِدَةً مِّنَ ٱلسَّمَآءِ قَالَ ٱتَّقُواْ ٱللَّهَ إِن كُنتُم مُّؤْمِنِينَ ﴿١١٢﴾ قَالُواْ نُرِيدُ أَن نَّأْكُلَ مِنْهَا وَتَطْمَئِنَّ قُلُوبُنَا وَنَعْلَمَ أَن قَدْ صَدَقْتَنَا وَنَكُونَ عَلَيْهَا مِنَ ٱلشَّٰهِدِينَ ﴿١١٣﴾ قَالَ عِيسَى ٱبْنُ مَرْيَمَ ٱللَّهُمَّ رَبَّنَآ أَنزِلْ عَلَيْنَا مَآئِدَةً مِّنَ ٱلسَّمَآءِ تَكُونُ لَنَا عِيدًا[1] لِّأَوَّلِنَا وَءَاخِرِنَا وَءَايَةً مِّنكَ وَٱرْزُقْنَا وَأَنتَ خَيْرُ ٱلرَّٰزِقِينَ ﴿١١٤﴾ قَالَ ٱللَّهُ إِنِّى مُنَزِّلُهَا عَلَيْكُمْ فَمَن يَكْفُرْ بَعْدُ مِنكُمْ فَإِنِّىٓ أُعَذِّبُهُۥ عَذَابًا لَّآ أُعَذِّبُهُۥٓ أَحَدًا مِّنَ ٱلْعَٰلَمِينَ ﴿١١٥﴾ ﴾.

(١) عيداً: العيد اسم لما عاد إليك من شيء في وقت معلوم حتى قالوا للخيال عيد، ولما يعود إليك من الحزن عيد.

هدى من الآيات:

أنى كانت نتيجة المحاكمات على وجه الأرض في الدنيا في صالح أصحاب الحق أم في صالح أصحاب الباطل فإن هناك محكمة أخرى تعدل ولا تجور وهي محكمة الله في الآخرة.

وهناك لا يهدي الله القوم الفاسقين، وهناك يجمع الله جميع الناس وفيما بينهم رسل الله، فيسألهم ماذا كان جواب الناس لكم (وبذلك لا مناص من المحكمة حتى لأنبياء الله) فهذا النبي العظيم عيسى ابن مريم عليه السلام يسأله الله هناك هل أنه قال للناس اعبدوني من دون الله بالرغم من أن الله عالم بأن عيسى لم يقل ذلك أبداً.

ولكن قبل أن يسأله الله يذكره ويذكر الناس بالنعم التي أنعم بها عليه وعلى أمه. حيث انه أيده بروح القدس، وعلمه الكتاب والحكمة، وأجرى بيده المعاجز مثل إحياء الموتى، وحفظه من كيد بني إسرائيل.

وأمر الناس بالإيمان به، ودعم موقف عيسى في بني إسرائيل بأن أنزل عليهم مائدة من السماء بطلب من بني إسرائيل وهكذا..

والهدف من سرد القصة هذه في نهاية سورة المائدة، ليس فقط بيان مسؤولية العالم الشاهد الذي عليه -حين إدلائه بالشهادة- أن يتصور موقفه أمام الله، ليس هذا هو الهدف، بل إنه مجرد مناسبة للحديث.

أما الهدف فهو أعم منه، وهو بيان مسؤولية الإنسان في الحياة، ولعله يشعر بتلك المسؤولية التي تتجسد يوم القيامة في محكمة العدل الإلهية.

بينات من الآيات:

الرسل بين يدي الرحمن

[١٠٩] يوم القيامة تظهر حقائق الأمور فهناك حقائق موجودة وثابتة ولا تنتفي بمجرد نفيها أو بالسكوت عنها، إنها حقائق إن سكتنا عنها تزداد قوة ورسوخاً، وبالتالي تحيط بنا وتدمرنا.

والإحساس بوجود الحقيقة وظهورها في يوم من الأيام يدفع صاحب العلم بأن يكون شاهد صدق لعلمه، ولا يكتم من العلم ما يخالف مصالحه.

إن أبرز العلماء هم الرسل، الذين حملهم الله رسالاته، وعلمه وحكمته، وهؤلاء

سوف يسألون عن نتائج عملهم، بالرغم من عظمتهم: ﴿يَوْمَ يَجْمَعُ اللَّهُ الرُّسُلَ فَيَقُولُ مَاذَا أُجِبْتُمْ﴾ إن الله بعث الرسل بهداية الناس، وبتبليغ دعوته إليهم، والآن يسألهم عن نتيجة أعمالهم؟ ولكن بما أن عمر الرسل قصير في الحياة، وربما أن علمهم ببواطن الناس كان في حدود تعليم الله لهم لذلك: ﴿قَالُوا لَا عِلْمَ لَنَا﴾ أي أن علمنا ليس كاملاً بالجواب الحقيقي الذي تلقيناه من الناس: ﴿إِنَّكَ أَنتَ عَلَّامُ الْغُيُوبِ﴾.

إذا لو خدعنا الرسل -فرضاً- ولو تظاهرنا أمامهم بالإيمان كذبا ونفاقا، فسكتوا عنا، يجب الا نتصور أننا طمسنا الحقيقة.. كلا. فالله هو علام الغيوب وسوف يحاكمنا.

[١١٠] وهذه قصة عيسى عليه السلام مع الله انظروا كيف يسأله الله باعتباره الشاهد على قومه، وكيف يكشف زيف دعاوي أتباعه: بأن قال لهم اعبدوني من دون الله: ﴿إِذْ قَالَ اللَّهُ يَا عِيسَى ابْنَ مَرْيَمَ اذْكُرْ نِعْمَتِي عَلَيْكَ وَعَلَىٰ وَالِدَتِكَ إِذْ أَيَّدتُّكَ بِرُوحِ الْقُدُسِ تُكَلِّمُ النَّاسَ فِي الْمَهْدِ وَكَهْلًا﴾ كل تلك نعم الله سبحانه على عيسى التي من دونها لم يكن عيسى شيئاً.

إن روح القدس، وهو الروح الذي يعصم صاحبه من المعصية، والذي يؤيد به الرسل والأئمة عليهم السلام فقط إنه أهم نعمة يزود الله بها عبداً من عباده، وحينئذ لا يرتكب خطيئة فيزعم الجاهلون: إنه ابن الله أو ابن فيه روح من ذات الله سبحانه.. كلا.

إن الله هو الذي أيد عيسى عليه السلام بهذه الروح، ولو وكله إلى نفسه لكان منه أمراً آخر. إن الله أوكل يونس بن متى لحظات إلى نفسه (لحكمة بالغة) فدعا على قومه، فسجنه الله في بطن الحوت جزاءً لزلته -التي لم تصل -بالطبع- إلى مستوى الذنب- وكذلك معجزة عيسى الظاهرة وهي كلامه في المهد لم تكون دليلاً على ألوهيته، بل على عبوديته لله، وكذلك علمه وحكمته: ﴿وَإِذْ عَلَّمْتُكَ الْكِتَابَ وَالْحِكْمَةَ وَالتَّوْرَاةَ وَالْإِنجِيلَ﴾، يبدو أن الكتاب هو الدستور التشريعي المتمثل في التوراة، بينما الحكمة هي المواعظ السلوكية المتمثلة في الإنجيل.

﴿وَإِذْ تَخْلُقُ مِنَ الطِّينِ كَهَيْئَةِ الطَّيْرِ بِإِذْنِي فَتَنفُخُ فِيهَا فَتَكُونُ طَيْرًا بِإِذْنِي وَتُبْرِئُ الْأَكْمَهَ وَالْأَبْرَصَ بِإِذْنِي وَإِذْ تُخْرِجُ الْمَوْتَىٰ بِإِذْنِي﴾ لقد كرر القرآن الحكيم كلمة بإذني للدلالة على أن عيسى عليه السلام إنما كان عبداً لله عزوجل.

﴿وَإِذْ كَفَفْتُ بَنِي إِسْرَائِيلَ عَنكَ إِذْ جِئْتَهُم بِالْبَيِّنَاتِ فَقَالَ الَّذِينَ كَفَرُوا مِنْهُمْ إِنْ هَٰذَا إِلَّا سِحْرٌ مُّبِينٌ﴾ لقد حاول بنو إسرائيل محاربة عيسى عليه السلام بكل طريقة ممكنة، وكان عيسى عليه السلام كأي شخص عاجزاً عن مقاومة ذلك لولا أن الله أيده، إذن فليس عيسى عليه السلام إلهاً كما يزعم النصارى.

معجزة المائدة بين الإيمان بالغيب والشهود

[١١١] وأهم من ذلك أن الله اعتمده اعتماداً وجعله رسولاً ﴿ وَإِذْ أَوْحَيْتُ إِلَى الْحَوَارِيِّينَ أَنْ آمِنُوا بِي وَبِرَسُولِي قَالُوا آمَنَّا وَاشْهَدْ بِأَنَّنَا مُسْلِمُونَ ﴾

[١١٢] ودعم الله موقف عيسى عليه السلام بأن استجاب دعاءه حين طلب منه بنو إسرائيل بأن يأتيهم بالمعجزة البينة، وذلك للدلالة على أنه نبي فعلاً.

﴿ إِذْ قَالَ الْحَوَارِيُّونَ يَا عِيسَى ابْنَ مَرْيَمَ هَلْ يَسْتَطِيعُ رَبُّكَ أَنْ يُنَزِّلَ عَلَيْنَا مَائِدَةً مِنَ السَّمَاءِ قَالَ اتَّقُوا اللَّهَ إِنْ كُنْتُمْ مُؤْمِنِينَ ﴾ أمرهم عيسى عليه السلام بالتقوى، لأن التقوى، تزيد الإنسان يقيناً، وإيماناً وصدقاً وإذا زكى الإنسان نفسه استطاع أن يفهم الحقائق بدون معاجز إضافية.

[١١٣] ولكن بني إسرائي ازدادوا إصرارا في طلبهم: ﴿ قَالُوا نُرِيدُ أَنْ نَأْكُلَ مِنْهَا وَتَطْمَئِنَّ قُلُوبُنَا وَنَعْلَمَ أَنْ قَدْ صَدَقْتَنَا وَنَكُونَ عَلَيْهَا مِنَ الشَّاهِدِينَ ﴾ إنهم قالوا: إننا بحاجة إلى اطمئنان القلب وليس غيره، كما قال إبراهيم عليه السلام لربه: ﴿بَلَى وَلَٰكِنْ لِيَطْمَئِنَّ قَلْبِي ﴾ [البقرة: ٢٦٠].

ثم نريد أن تطمئن قلوبنا بصدق الرسالة وصدق الرسول قالوا: إننا نريد أن يكون موقفنا في الدعوة إلى الله، موقفاً حاسماً. إذ فرق بين أن يكون الإنسان مؤمناً بشيء إيماناً غيبيًّا وبين أن يكون إيمانه إيماناً بالشهود، فآنئذ يستطيع أن يكون كلامه أكثر حسماً وقاطعية إذ قليلاً ما يشك الناس في صدق المؤمنين إذا ادعوا بأنهم رأوا البراهين بعينهم، بينما قد يتشككون في الإيمان الغيبي وقد ينسبون ذلك إلى صفاء النية، وبساطة الفكر، وسذاجة النفس.

[١١٤] ﴿قَالَ عِيسَى ابْنُ مَرْيَمَ اللَّهُمَّ رَبَّنَا أَنْزِلْ عَلَيْنَا مَائِدَةً مِنَ السَّمَاءِ تَكُونُ لَنَا عِيدًا لِأَوَّلِنَا وَآخِرِنَا ﴾ أي يكون يوماً مشهوداً يتذكره الناس ويجددون ذكراه عاماً بعد عام، لتبقى ذكرى المائدة عالقة في أذهان الجميع، وبالتالي تكون القصة عبرة لكل الأجيال.

﴿وَآيَةً مِنْكَ وَارْزُقْنَا وَأَنْتَ خَيْرُ الرَّازِقِينَ ﴾ إنها آية تدل على معجزة الله، ولكن عيسى عليه السلام طلب الرزق الدائم لقومه.

[١١٥] ﴿ قَالَ اللَّهُ إِنِّي مُنَزِّلُهَا عَلَيْكُمْ فَمَنْ يَكْفُرْ بَعْدُ مِنْكُمْ فَإِنِّي أُعَذِّبُهُ عَذَابًا لَا أُعَذِّبُهُ أَحَدًا مِنَ الْعَالَمِينَ ﴾ لأن هناك فرقاً بين الكفر الصريح بعد الإيمان النابع من الشهود العيني، وبين الكفر بعد الإيمان الغيبي الذي قد لا يكون عميقاً.

إن الله ينعم على عباده ليمتحن مدى شكرهم له عليها، ومدى تقديرهم للنعم واستفادتهم منها فإذا كفروا بالنعمة فإنه سبحانه لا يسلبها منهم فقط، بل ويسلب منهم سائر النعم حتى يقولوا ياليت الله لم ينعم علينا بهذه النعمة قط.

مثلاً: النفط في بلادنا نعمة كبيرة من الله، ورزق عظيم لشعوبنا، فإذا شكرنا هذه النعمة بأداء حقوق المحرومين، وتقسيم الثروة بين الناس بالقسط فسوف تستمر هذه النعمة وتزداد.

أما إذا كفرنا بهذه النعمة، فاستأثر بها الكبار، وحرم منها المستضعفون، وأترف فيها الأغنياء، فإن الله لا يسلب ثروة النفط منا فقط، بل وأيضا يسلط بعضنا على بعض فينتشر بيننا الحقد والبغضاء فيقتل بعضنا بعضاً، حتى يأتي يوم نتبرأ فيه من النفط ومن ثرواته ونقول: ياليتنا كنا مجتمعاً زراعيًّا تسود فينا المحبة والوئام.

عيسى: اعبدوا الله ربي

﴿وَإِذْ قَالَ اللَّهُ يَا عِيسَى ابْنَ مَرْيَمَ أَأَنتَ قُلْتَ لِلنَّاسِ اتَّخِذُونِي وَأُمِّيَ إِلَٰهَيْنِ مِن دُونِ اللَّهِ قَالَ سُبْحَانَكَ مَا يَكُونُ لِي أَنْ أَقُولَ مَا لَيْسَ لِي بِحَقٍّ إِن كُنتُ قُلْتُهُ فَقَدْ عَلِمْتَهُ تَعْلَمُ مَا فِي نَفْسِي وَلَا أَعْلَمُ مَا فِي نَفْسِكَ إِنَّكَ أَنتَ عَلَّامُ الْغُيُوبِ (١١٦) مَا قُلْتُ لَهُمْ إِلَّا مَا أَمَرْتَنِي بِهِ أَنِ اعْبُدُوا اللَّهَ رَبِّي وَرَبَّكُمْ وَكُنتُ عَلَيْهِمْ شَهِيدًا مَّا دُمْتُ فِيهِمْ فَلَمَّا تَوَفَّيْتَنِي كُنتَ أَنتَ الرَّقِيبَ عَلَيْهِمْ وَأَنتَ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ شَهِيدٌ (١١٧) إِن تُعَذِّبْهُمْ فَإِنَّهُمْ عِبَادُكَ وَإِن تَغْفِرْ لَهُمْ فَإِنَّكَ أَنتَ الْعَزِيزُ الْحَكِيمُ (١١٨) قَالَ اللَّهُ هَٰذَا يَوْمُ يَنفَعُ الصَّادِقِينَ صِدْقُهُمْ لَهُمْ جَنَّاتٌ تَجْرِي مِن تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ خَالِدِينَ فِيهَا أَبَدًا رَّضِيَ اللَّهُ عَنْهُمْ وَرَضُوا عَنْهُ ذَٰلِكَ الْفَوْزُ الْعَظِيمُ (١١٩) لِلَّهِ مُلْكُ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ وَمَا فِيهِنَّ وَهُوَ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ (١٢٠)﴾.

هدى من الآيات:

في حوار بين الله وبين عبده ورسوله عيسى ابن مريم سأل الله عيسى: هل أنه قال لاتباعه أن يعبدوه؟ والله يعلم أن عيسى عليه السلام لم يقل ذلك أبداً، ولكنه يسأله ليبين لنا أن عيسى عليه السلام ليس بعيداً عن المسؤولية بالرغم من أنه عبد مخلص لله، ولرسوله مبعوث إلى خلقه.

فكيف بنا ونحن عباد الله المذنبون؟.

بينات من الآيات:

[١١٦] ﴿وَإِذْ قَالَ اللَّهُ يَا عِيسَى ابْنَ مَرْيَمَ أَأَنتَ قُلْتَ لِلنَّاسِ اتَّخِذُونِي وَأُمِّيَ إِلَٰهَيْنِ مِن

﴿دُونِ ٱللَّهِ﴾ إن أولئك الذين اتخذوا عيسى وأمه إلهين من دون الله، إنما أرادوا التهرب من مسؤولية أعمالهم، والادعاء: بأن عيسى وأمه عليهما السلام سوف ينقذانهم من عذاب الله حتى ولو عملوا بالجرائم، فأراد الله أن يبين لهم: أن هذين العبدين لا يمكنهما، تحدي أوامر الله، فيما يخصهما فكيف بما يتعلق ببعض من يدعون أنهم أتباعهما.

﴿قَالَ سُبۡحَٰنَكَ﴾ أي أنك أجل من أن يعبد أحد من دونك، بل أنت أجل وأعلى من أن يدعي أحد أنه ند لك.

﴿مَا يَكُونُ لِيٓ أَنۡ أَقُولَ مَا لَيۡسَ لِي بِحَقٍّۚ﴾ إذ أني مجرد رسول من قبلك للناس، ومسؤولية الرسول هو التقيد بتعاليم من أرسله بلا زيادة ولا نقيصة، حتى ولو كان كلام الرسول حقاً فإن حدود مسؤوليته تستوجب ألا يتجاوز حدود ما أمر الله بتبليغه، فمثلاً: رسول الله لم يكن يستطيع أن يشرح من القرآن ما لم يحن وقته، بالرغم من أن القرآن ذاته كلام الله الحق المبين.

﴿إِن كُنتُ قُلۡتُهُۥ فَقَدۡ عَلِمۡتَهُۥۚ تَعۡلَمُ مَا فِي نَفۡسِي وَلَآ أَعۡلَمُ مَا فِي نَفۡسِكَۚ إِنَّكَ أَنتَ عَلَّٰمُ ٱلۡغُيُوبِ﴾ إن مسؤولية الإنسان أمام ربه ليست كمسؤوليته أمام شخص كعيسى عليه السلام، أو أمام نظام أو قانون، إذ قد يغيب على الشخص العلم ببعض أعمال الفرد، بينما الله سبحانه علام الغيوب، لا يعلم فقط أعمال الإنسان، بل يعلم أيضاً خلفيات هذه الأعمال.

دور الرسول

[١١٧] إن دور الرسول هو دور المبلغ والشهيد، أما التبليغ، فإن مسؤوليته هي: نقل رسالة الله بلا زيادة أو نقيصة، وأما الشهادة فتعني: مراقبة مدى تطبيق الأفراد لهذه الرسالة، ومحاولة هدايتهم إلى الصراط المستقيم ببيان طريقة تطبيق المبادئ، وقد أدى عيسى عليه السلام هاتين المسؤوليتين بأمانة وقال: ﴿مَا قُلۡتُ لَهُمۡ إِلَّا مَآ أَمَرۡتَنِي بِهِۦٓ أَنِ ٱعۡبُدُواْ ٱللَّهَ رَبِّي وَرَبَّكُمۡۚ وَكُنتُ عَلَيۡهِمۡ شَهِيدٗا مَّا دُمۡتُ فِيهِمۡۖ﴾ بيد أن شهادة الرسول هي شهادة محدودة، إنها شهادة وقتية، تختص بأيام حياته أما بعدئذ فإن الله هو الشهيد.

﴿فَلَمَّا تَوَفَّيۡتَنِي كُنتَ أَنتَ ٱلرَّقِيبَ عَلَيۡهِمۡۚ﴾ تراقب أعمالهم لتحاسبهم عليها في الدنيا والآخرة، أما رقابة الله لأعمال العباد فتنعكس في جزائه لهم عليها جزاءً عاجلاً في الدنيا، أو آجلاً في الآخرة، من دون أن يقدر أحد على الفرار منها، وهذا يدفعنا إلى فرض رقابة ذاتية على أنفسنا ألا تصدر منا غلطة، يسجلها ربنا ويحاسبنا عليها سريعاً.

﴿وَأَنتَ عَلَىٰ كُلِّ شَيۡءٖ شَهِيدٌ﴾ شهادة الله هي: هيمنته المباشرة على الحياة التي تتجسد بنصر

المؤمنين المخلصين في أعمالهم، وخذلان الكافرين والمنافقين، وهداية المجاهدين والمحسنين. إن الله هو السلطان الحقيقي للحياة، وعلينا أن نتوكل عليه ولا نخشى أحداً أبداً من دونه.

سلطان الله

[١١٨] إن سلطان الله ليس سلطاناً فعليًّا فقط بل ويمتد إلى المستقبل، فبيده العذاب والمغفرة ﴿إِن تُعَذِّبْهُمْ فَإِنَّهُمْ عِبَادُكَ وَإِن تَغْفِرْ لَهُمْ فَإِنَّكَ أَنتَ الْعَزِيزُ الْحَكِيمُ﴾ في مواجهة الفكرة الخاطئة التي اعتقد بها النصارى في عيسى وأرادوا أن يتهربوا من المسؤولية تحت غطائها، وهي: أن عيسى وأمه إلهان يخلصانهم من عذاب الله، في مواجهة هذه الفكرة، نجد القرآن يشرح لنا حقيقة المسؤولية، ويبين أن الإنسان مسؤول أمام ربه على أعماله، وعلامة مسؤوليته علم الله به، ورقابته عليه، وشهادته عليه، وجزاؤه على أعماله.

[١١٩] وأكد الله هذه الفكرة وبين الجانب الإيجابي من المسؤولية وهو الجزاء الحسن الذي أعده ربنا لمن أحسن عملاً.

﴿قَالَ اللَّهُ هَٰذَا يَوْمُ يَنفَعُ الصَّادِقِينَ صِدْقُهُمْ﴾ وبذلك بين أن الصدق هو الابتعاد عن التبرير والنفاق والتهرب من المسؤولية بأسلوب أو آخر، إن هذا الصدق، هو أهم عمل صالح يقوم به الإنسان، إذ انه يدفعك إلى تحمل مسؤولياتك وأدائها أداء حسناً.

﴿لَهُمْ جَنَّاتٌ تَجْرِي مِن تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ خَالِدِينَ فِيهَا أَبَدًا رَّضِيَ اللَّهُ عَنْهُمْ وَرَضُوا عَنْهُ ذَٰلِكَ الْفَوْزُ الْعَظِيمُ﴾ لأنهم سعوا من أجل تطبيق أعمالهم حسب أوامر الله والتزموا الصدق، ووافقت أفكارهم وأقوالهم الحق، فإن الله جزاهم بالرضا، فهو رضي عنهم وهم رضوا عنه. إن تبادل الرضا بين العبد وبين ربه، يأتي نتيجة انسجام العبد مع الحق، في ممارسته.. في تفكيره.. في كلامه، وفي علمه.

[١٢٠] الله هو الحق.. الله هو ضمير الكون الشاهد.. الله هو مدبر الكون وربه، وحين ينفذ العبد أوامر الله، فإن الله يسخر له الكون. إذ انه يتصل بالحق.. يتصل بالضمير الشاهد.. يتصل بالقدرة.. بالعلم.. بالعزيمة..

أما حين يخالف العبد ربه فإنه سيواجه كل ما في الكون فهل يقدر على ذلك؟.

﴿لِلَّهِ مُلْكُ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ وَمَا فِيهِنَّ وَهُوَ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ﴾.

سُورَةُ الأنعَامِ

* مكية.

* عدد آياتها: ١٦٥.

* ترتيبها النزولي: ٥٥.

* ترتيبها في المصحف: ٦.

* نزلت بعد سورة الحجر.

قال أبو عبد الله عليه السلام: «**سُورَةَ الأَنْعَامِ نَزَلَتْ جُمْلَةً وَشَيَّعَهَا سَبْعُونَ أَلْفَ مَلَكٍ حِينَ أُنْزِلَتْ عَلَى رَسُولِ اللهِ صلى الله عليه وآله فَعَظِّمُوهَا وَبَجِّلُوهَا، فَإِنَّ اسْمَ اللهِ تَبَارَكَ وَتَعَالَى فِيهَا فِي سَبْعِينَ مَوْضِعاً، وَلَوْ يَعْلَمُ النَّاسُ بِمَا فِي قِرَاءَتِهَا مِنَ الْفَضْلِ مَا تَرَكُوهَا**».

(مستدرك الوسائل: ج٤ ص٢٩٦، ثواب الأعمال: ص١٠٥).

***

روي عن العالم عليه السلام أَنَّهُ قَالَ: «**إِذَا بَدَأَتْ بِكَ عِلَّةٌ تَخَوَّفْتَ عَلَى نَفْسِكَ مِنْهَا فَاقْرَأِ الأَنْعَامَ فَإِنَّهُ لَا يَنَالُكَ مِنْ تِلْكَ الْعِلَّةِ مَا تَكْرَهُ**».

(بحار الأنوار: ج٨٩ ص٢٧٥)

***

عَنْ أَبِي بَصِيرٍ قَالَ كُنْتُ جَالِساً عِنْدَ أَبِي جَعْفَرٍ عليه السلام وَهُوَ مُتَّكٍ عَلَى فِرَاشِهِ إِذْ قَرَأَ الآيَاتِ الْمُحْكَمَاتِ الَّتِي لَمْ يَنْسَخْهُنَّ شَيْءٌ مِنَ الأَنْعَامِ قَالَ عليه السلام: «**شَيَّعَهَا سَبْعُونَ أَلْفَ مَلَكٍ: ﴿قُلْ تَعَالَوْا أَتْلُ مَا حَرَّمَ رَبُّكُمْ عَلَيْكُمْ أَلَّا تُشْرِكُوا بِهِ شَيْئًا﴾**».

(بحار الأنوار: ج٨٩ ص٢٧٥، تفسير العياشي: ج١ ص٣٨٣)

الإطار العام

معرفة الله

إن معرفة الطبيعة من دون إله لها يعني أن المادة بلا روح، وبلا قيم، وبلا نظام. ومعرفة الله بعيداً عن الطبيعة يعني البحث في فراغ، في التجريد، في اللاشيء. وسواء كانت هذه أو تلك فهي تنتهي بالإنسان إلى اللامسؤولية واللاإلتزام، وبالتالي إلى اللاوعي.

إنّ المادي الذي يختصر حياته في الأشياء، ولا ينظر عبر المادة إلى ما ورائها من هيمنة الله، وقيامه وملكه وسلطانه، إنه لا يشعر بالتزام تجاه المادة، لأن المادة لا حياة لها ولا عزة لها ولا حكمة. فالمادة لا تراقبه، ولا تحاسبه، ولا تجازيه، بل لا يشعر بها، فلذلك فهو ينفلت عن التقيد بالمسؤوليات.

وكذلك الصوفي الذي يؤمن بالألفاظ، والكلمات، والخلسات، والهمسات، ولا يؤمن بإله الحياة والنظام، والتدبير، والملك، الحساب والعقاب، إنه لا يؤمن بالطبيعة كمظهر سامٍ من مظاهر الحياة التي وهبها الله، والنظام الذي قام عليه وأجراه سبحانه، وبالتالي لا يؤمن بالطّبيعة كاسم من أسماء الله سبحانه. إن هذا الصوفي هو الآخر لا يشعر بمسؤولية أمام الحياة التي فصلها عن الله.

والحقيقة في معرفة المادة والروح هي الإيمان بواقع الطبيعة، وبحقيقة القيم التي تهيمن عليها، والاعتقاد بوجود الطبيعة المدبَّرة بسلطان ربها، وبالتالي الاهتداء إلى الله عبر أسمائه وآياته المنتشرة في رحاب الطبيعة.

إن القرآن باعتباره كتاب الله الذي لاريب فيه يتحدث إلينا عن الطبيعة باعتبارها جسراً يسير عبرها الفكر إلى معرفة الله، وباعتبارها مظهراً سامياً لأسماء الله وآياته، وباعتبارها أداةً للإنسان لاكتشاف نفسه، والاهتداء إلى ربه، والتكامل حتى يكون إلى الله المنتهى.

فعليك -أيها الإنسان- أن تنظر إلى السماوات، ولا تجلس في غرفة مظلمة تبحث عن الله، ولكن إياك أن تنظر إلى السماوات كأنها أشياء ثابتة جامدة جاهلة. كلا؛ بل باعتبارها حقائق تسبح بحمد الله خالقها، وتسجد لهيمنة ربها.

لماذا اسم الأنعام؟

إن سورة الأنعام هي مثل كل سور القرآن التي تشع بنور التوحيد، وتنساب في ضمير الإنسان بضياء الإيمان بالله، ولكنها لم تُسم باسم مجرد. فلم يكن اسمها مثلاً؛ سورة الحي القيوم، أو سورة الصمد الأحد، أو سورة القدوس الأعلى، أو سورة الحمد والتسبيح..كلا؛ بل سميت بسورة الأنعام.

الأنعام التي يضرب الله بها مثل الغباء، ويعتقد الإنسان أنها لا تعني شيئاً في حقل الإيمان والعرفان، مع ذلك سمى الله هذه السورة باسم الأنعام ليجعلنا نغير نظرتنا إلى الأنعام، ونعرف أنها نعمة من نعم الله، وأنها بالتالي تهدينا إلى الله من جهة، وتفرض علينا من جهة مسؤولية معينة، وهي تلك المسؤولية التي يشعر بها المؤمن أمام ربه، وبذلك يخرج المادة (وهنا الأنعام مثل لها) من النظر إليها بنظرة الشيئية دون الالتفات إلى دور المادة في تكامل الروح والعلم والقيم، كما يخرج بذلك أيضاً الروح والعلم والقيم والإيمان من عالم التجريد والمثالية إلى عالم الحقيقة.

جاءت (الآيات: ١-١١) تحقيقاً للهدف العام لسورة الأنعام الذي هو تنمية روح الإيمان بالله في النفوس وجعله مصباحاً يهدي الإنسان في ظلمات الحياة.. لتفضح الدافع الأساسي لتكذيب الآيات والرسالات، لعل الإنسان يتذكر بنفس ه ويحاول تطهيرها من شر هذا الدافع الذي هو الاستهزاء بالحق والإعراض عن آياته، ويعرف أن العلاج الوحيد للمعرضين هو أن يتذكروا مصير المكذبين عبر السير في الأرض.

أما (الآيات: ١٢-١٦) فتؤكد لنا أن أبسط فكرة تقفز إلى ذهن الإنسان حين يلقي نظرة إلى السماوات والأرض هي أنهما مسيّرتان وليستا مختارتين. فإذن هما مملوكتان لله تعالى، الأمر الذي يفتح أمامه آفاقاً جديدة من العلم الذي سينتج عنه الإيمان.

ولما كانت أزمّة الكون بيد الله تعالى، فعلى ابن آدم أن يعلم بأن الله إذا مسّه بضر فلا كاشف له، وبالتالي فإنه سبحانه هو الركن الشديد الذي ينبغي أن يُتوجه إليه دون غيره (الآيات: ١٧-١٩).

ثم إن الحق -كالركن الشديد- تعتمد عليه إذا اعترفت به وصدقته، أما الباطل فهو سراب. والقرآن حق تعرفه كما تعرف أبناءك، فمن كذب به كان الشقاء من نصيبه، لأنه سيبحث عن أراجيف يؤمن بها، بل وسيبدأ في خلقها ليكفر بآيات الله الصحيحة. وليعلم الإنسان أنه يعيش على الحق ويستفيد منه، بينما الباطل يعيش عليه ويستهلكه (الآيات: ٢٠-٢٤).

و(الآيات: ٢٥-٢٨) توضح عوامل الكفر النفسية، إذ تشير هذه الآيات إلى أن مجرد الاستماع إلى الحق لا يكفي للإيمان به، باعتبار أن المهم هو قلب الإنسان الذي لو لم يزك من عوامل الانحراف، فإن أذنه تثقل وعينه لا تبصر ولسانه لا يلهج إلا بالجدل والبهتان، فلا يفرق صاحب القلب المريض بين الرسالة الجديدة وبين الأساطير القديمة..

(والآيات: ٢٩-٣١) يتضح منها أن النظرة القاصرة التي تحصر حياة الإنسان بالدنيا، هي المسؤولة، وإلى حد كبير عن كفر ابن آدم بالحق. وفوق ذلك، فإن أمام عين البشر غشاوة من زينة الشهوات، تمنعه عن الإيمان بالآخرة، فتنسيه أنه واقف لامحالة أمام الله ذات يوم!.

ولكي يبقى المؤمن جبلاً أشماً يتحدى الصعاب، فلابد أن يعرف حقيقة الدنيا التي ماهي إلا لعب ولهو. أما دار الإقامة؛ فهي الآخرة، ومن ذلك أن قلب الرسول ﷺ يجب أن لا يتأثر بسبب كفر المشركين، ومن الواضح أن هدفهم ليس الرسول ﷺ بقدر ما هو الحق والإيمان، وليس من خيار آخر للرسول في الأمر (الآيات: ٣٢-٣٥).

وحين يموت قلب الإنسان، فإن المزيد من الدلائل لا تنفعه. فالمشكلة -إذن- في خطل فهم الكفار، وليس في كمية الآيات والمعاجز الإلهية.. إن الكفار فقدوا القدرة على التفاعل مع الحياة، فتاهوا في صحراء الضلالة (الآيات: ٣٦-٣٩).

أما (الآيات: ٤٠-٤٥) فتعلمنا أن الإنسان الكافر قد تتطور حالته فيصلح ما عطب من قابليته على فهم حقيقةالحياة وحكمة الوجود، وذلك حينما يواجه الحقيقة مجردة وبلا غموض.. لا سيما وأن العلة في تعريض ابن آدم لبعض الشدائد هي الكشف عن الحقائق له وإعادته إلى فطرته التوحيدية النقية.

لقد أعطى الله سبحانه وتعالى البشر مصباح العقل ليهتدي إلى سبيل النور والمعرفة، ولو شاء سلبه هذه النعمة، فاضطره إلى التخبط الدائم، كما أنه قادر على أن ينزل عليه العذاب جهرة دون أن يملك البشر له رداً. ولكن الله -برحمته الواسعة- لم يكتفِ بنعمة العقل، بل بعث أنبياء مبشرين ومنذرين لا يتخذون قرارات بدلاً عن الناس، أو يكرهونهم على اتباع العقل.. فكانت وظيفتهم مساعدة الناس على الرؤية السليمة وتحمل المسؤولية (الآيات: ٤٦-٥٠).

وتشير (الآيات: ٥١-٥٥) إلى أن الصالح من الناس هو من يوجه خوفه نحو المصدر الحقيقي، وهو الله عز وجل، حيث يحشر الإنسان إليه وحيداً، دون أن ينفعه أولياء أو شفعاء. إلا أن هناك من الضالين من يحجبهم عن الحقيقة التفاف البسطاء والمستضعفين حولهم، فيقولون: إما أن يطرد هؤلاء، أو لا نقبل الحقيقة.. ولكن القرآن نهى عن طرد أهل الحق، باعتباره ظلماً، وباعتبار أن حساب كل فردٍ على نفسه.

و(الآيات: ٥٦-٥٨) تؤكد أن القيمة الحقيقية للمبدأ، وحتى شخص الرسول قد شملته الدعوة كأي فرد آخر، حيث نُهي -كالآخرين- عن عبادة الشركاء.

وتتطرق (الآيات: ٥٩-٦٢) إلى أن المستقبل عند الله، وهو الذي يجري عليه سننه. ولذلك؛ فهو يعلم ما سيكون، كما أن علمه محيط بالحياة، وكذلك قدرته محيطة بالعباد، بما في ذلك الموت الذي لا يحدث بعيداً عن قدرة الله وقضائه.

وتتابع (الآيات: ٦٣-٦٥) ذات الموضوع من زاوية فطرية إنسانية، وذلك عندما ترتفع غشاوة الغفلة والكبر، ويتحسس الإنسان بالخطر، فيصبح آنذاك أقرب إلى الحقيقة. ولكن متى يشعر المرء بالأمان المطلق؟ إنه لا يتم ذلك ما لم يؤمن بأن الله هو القادر على كشف الكروب ودرء أنواع العذاب.

ثم تبين (الآيات: ٦٦-٦٩) اختلاف الناس في مواقفهم الرافضة وغير المبالية بآيات الله في الأرض والسماء، فهناك من يكذب بالحق من قوم الرسول ﷺ الذي لن يغني عنهم شيئاً بداعي أنهم من قومه. أما الحق؛ فإنه إذا حلَّ موعد تطبيقه مستقبلاً، فسوف يعلم الناس ماذا يعني، وما هي أهميته. ثم إن من الناس من يتخذ آيات الله هزواً يتسلى بها، دون أن يتخذها برنامجاً ويعمل بها، وهؤلاء يجب التباعد عنهم، لأنهم قوم ظالمون مهما تنوع مظهرهم وما يتظاهرون به منطق أو مظهر..

و(الآيات: ٧٠-٧٣) توضح أن الحالة قد تبلغ بالواحد من هؤلاء القوم الظالمين وضعاً مزرياً، حيث يتخذ من دون الله أرباباً -هم أصحاب المال والزينة- ويترك هدى الله، ويكون مثله كمن اخترق الصحراء مع صحبه، ولكنه ابتلي بالشياطين وفقد وعيه وأخذ يدور حول نفسه دون وعي، فيترك الصراط المستقيم والتسليم لرب العالمين، ويتبع الشياطين.

أما كيف يتدرج الإنسان في مراحل الإيمان؟ فهذا ما تعالجه (الآيات: ٧٤-٧٩) إذ تشير إلى أن الإنسان يبدأ رحلته الإيمانية من نقطة الشك الذي يرفع حجاب الأفكار المسبقة ويحرك فكره ويضيء عقله، فيرى ما وراء السماوات والأرض من علم وقدرة وحكمة وملكوت.

فالعقل يهدي صاحبه إلى أن الإله لن يكون متغيراً، وأنه فوق القوى.. ومن خلال التطلع والتأكد بأن الظواهر الكونية لا تصلح لأن تكون إلهاً، سيعرف المرء أن الرب الحق هو الذي يهديه إلى نفسه، وأن ما لا يصلح أن يكون رباً،لا يصلح أيضاً أن يكون نصف رب، وأن يشرك به شيئاً، ولذلك يجب رفض جميع الآلهة إلا الله سبحانه وتعالى.

وبعد أن تبين الآيات السالفة قصة المعاناة الشخصية لإبراهيم عليه السلام؛ قام هذا النبي الجليل بردّ أقاويل قومه ببساطة حكيمة، إذ أكد لهم في (الآيات: ٨٠-٨٣) أن الخوف يجب أن يكون من الله لا من القوى المخلوقة له سبحانه، لأن تلك القوى تقع ضمن دائرة إذن الله وعلمه، وأمر أن يعودوا إلى فطرتهم ليتذكروا الحقيقة.

ومن جانب آخر، فإن تلك الرسالة التي أهبطها الله على قلب النبي إبراهيم عليه السلام بعد أن وجده أهلاً لها، ثم بعد دخولها مرحلة الصراع المرير، أصبحت اليوم تياراً يهدي به الله مجموعة من الأنبياء العظام.. ولم يكن هؤلاء وحدهم في الساحة، وإنما كان معهم الآباءوالذرية والإخوة الذين اجتباهم الله على علم منه بهم، نظراً لصلاحيتهم للعمل الرسالي (الآيات: ٨٤-٨٨).

وتذكرنا (الآيات: ٨٩-٩٢) بحقائق عن الذين يشكلون خط الرسالة، بعد أن أخذ الله على نفسه أن يحفظ ويديم سلامته واستقامته، ليكون قدوة للناس من دون أن يحملهم أجراً، بل ليذكرهم بالحقيقة فقط. ثم هذا الكتاب الذي أنزله، إنما ليكون منهجاً للنمو والرشد والتكامل، وهو في ذات الخط الرسالي المستقيم.

و(الآيات: ٩٣-٩٤) تشير إلى أن الظلم ظلمان؛ فقد يغتصب الفرد حق صاحبه المادي، وقد يغتصب فكر الناس ويضلهم ويضل نفسه عن الحق ويحرف مسيرة البشرية، وهذا النوع الثاني أكبر خيانة وأخطر ضرراً.

ولكن كيف يختار لنا الشيطان طريق الضلالة والإفك والانحراف عن مسيرة التوحيد و الله هو الذي فلق الحب والنوى، وهو الذي يحيي الموتى ويميت الأحياء.. وغير ذلك من آيات الخلقة العظيمة المباركة؟(الآيات: ٩٥-٩٩).

وجاء في (الآيات: ١٠٠-١٠٣) ما يذكرنا ببعض الصفات الإلهية في إطار ما يعطينا الله من المعرفة بذاته، وأنه كلماازدادت معرفة الإنسان بربه، زادت معرفته بصفاته وأسمائه الحسنى، ومن ثم معرفته بسائر المعارف التوحيدية، كالعدل والنبوة والإمامة والمعاد وغيرها..

وعادت (الآيات: ١٠٤-١٠٨) لتذكر المؤمنين بأن الشرك مضلل لأهله، حتى أنهم

أصبحوا يقدسون أصنامهم، كما لايجوز سب هذه الأصنام، لأن الضالين سيسبون الله ظلماً وعدواناً، وأن الله الذي سيرجعون إليه سوف يجزيهم بما فعلوا.

وفي سياق الحديث عن ضرورة الإعراض عن المشركين لعنادهم تتابع السورة عبر (الآيات: ١٠٩-١١١) القول بأنه لا ضمان لقبول المعاندين ما يطلبون من آيات جديدة ماداموا يرفضون التسليم حتى للآيات الواضحة. ثم إن الكفر بالآيات سبب مباشر في تبديل القيم والمقاييس وعجز الفكر عن التمييز، لأن الكفر طغيان على الحقيقة وجهل محيط بصاحبه.

ومهما يكن؛ فالدنيا دار ابتلاء للجميع، الهدف منه بيان جوهر الأشخاص، حتى يكون الثواب والعقاب وفق العمل لا وفق علم الباري ء سبحانه. ومن آيات هذا الابتلاء أن جعل الله لكل رسول عدواً، ليعرف الناس رموز الخير ورموز الشر، في خضم صراع الأنبياء عليهم السلام مع أعدائهم (الآيات: ١١٢-١١٣).

وحيث تمت الإشارة سلفاً إلى قضية التضليل الشيطاني، فإن (الآيات: ١١٤-١١٧) ذكّرت بالوحي الإلهي الذي لايجوز اتخاذ غيره، لأنه كتاب فيه تفصيل كل شيء، وعلاج كل داء. أما تخرصات الناس فلا نجد فيها إلا الظنون والخيالات التي لايقطعون هم بصحتها.. و الله تعالى أعلم باتجاهات الناس، لأنه هو المقياس والميزان والحكم العدل.

ويضرب الله مثلاً على حقيقة أن الهداية هي هداية الله لا غير، ببيانه حكم الطعام الذي هو أبسط الضرورات، ومع ذلك ترى جماعة يحرمون أنفسهم منه لبعض الظنون دونما سلطان.. وتؤكد الآيات أن المحرم هو الإثم والشرك بخالق الطعام.. (الآيات: ١١٨-١٢١).

وتبين (الآيات: ١٢٢-١٢٧) أن فريقاً من الناس يرفض رسالة الله التي تبعث على الحياة ويفضل البقاء في الظلمات،فما جزاء هؤلاء إلا الذل والصغار، ذلك لأنهم ضيقوا الصدر، قليلوا الاستيعاب، ضعيفو الإرادة، عديمو الإيمان.

أما أضرار الكفر؛ فمنها الولاية الباطلة. فإذا كانت للمؤمنين ولاية الله، فإن شياطين الجن هو أولياء الكفار، حيث يحشرهم الله وإياهم، فتتكشف آنذاك أسباب الولاية (الآيات: ١٢٨-١٣٢).

وحيث كانت لله الأسماء الحسنى، فهو الغني ذوالرحمة، ولأنه غني، فهو قادر على أن يفني جميع الخلق، ثم يخلق مكانه ما يشاء..ولكنه لا يفعل ذلك، لأنه ذو رحمة، ولكن يوماً من الأيام سينتهي فيه أجل البشر حيث لايفلح الظالمون (الآيات: ١٣٣-١٣٥).

ولفرط ما شرع الكافرون من تشريعات باطلة، فإنهم حرموا حتى الطيبات على أنفسهم، ودفعهم إلى ذلك افتراؤهم الذي سيجزون عليه، كما سيجزون على تشريعهم قتل الأولاد ظلماً وضلالةً (الآيات: ١٣٦-١٤٠).

أما (الآيات ١٤١-١٤٤) فتؤكد على أن الله الذي أنعم على البشر بشتى النعم، هو أعلم بسبل الانتفاع بها، بينما الجاهلية تحرم أو تحلل حسب أهوائها.

وفي (الآيات: ١٤٥-١٤٧) تنديد بالانغلاق الذي أصيب به البعض. وليس تحريم الله على بني إسرائيل بعض الطيبات إلا لبغي صدر من بعضهم على بعضٍ، فحيث يزداد البغي تتضاءل النعم..

وحيث تكون الذات -لدى البعض- معياراً للحق والباطل، دون الواقع والحقيقة، فإن من الحري توقع التعرض لعذاب الدنيا قبل عذاب الآخرة، ليظهر خطأ هذا المذهب غير القائم على علم (الآيات: ١٤٨-١٥٠).

وتبين (الآيات: ١٥١-١٥٣) جملة من المحرمات الاجتماعية الأكثر أهمية والأكثر مصداقية؛ مثل الشرك ب الله، وحرمةإيذاء الوالدين، وحرمة إهمال حقوق الأولاد، وحرمة الفواحش بأنواعها، وحرمة وفضاعة قتل النفس المحرمة، وأكل مال اليتيم بالباطل، والبخس في الموازين، ونقض العهود.. وأن الالتزام بهذه القوانين هو الضمان الوحيد لنيل مرضاة الرب.

و(الآيات: ١٥٤-١٥٧) تشير إلى أن الله تعالى قد أنزل الكتاب على النبي موسى عليه السلام لكي يكون نعمة تامة للمحسنين، ولكي يفصل به شرائع الحياة تفصيلاً، فيهدي الناس إلى الحقائق مباشرة وتتم الحجة عليهم.

ولكن (الآيات: ١٥٨-١٦٥) تنوه إلى العقبات التي من الممكن أن تعترض طريق الاستجابة للرسالة الجديدة، وهي ثلاث: التردّد وانتظار شيء خارق للعادة، والمعطيات الطائفية، ووجود الذنوب المتراكمة.

ولكي يشجع الله الناس على الإيمان بالكتاب الحق؛ ضرب لهم مثلاً برسوله الذي هداه إلى الصراط المستقيم، والذي يتطلع إليه الجميع، وهو النبي إبراهيم عليه السلام الذي وجه الحياة برمتها إلى خط التوحيد، ونفي الشركاء، والتسليم لرب العالمين، وتحمل مسؤوليات الإيمان.

هكذا تجلى الرب

بسم الله الرحمن الرحيم

﴿الْحَمْدُ لِلَّهِ الَّذِي خَلَقَ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضَ وَجَعَلَ الظُّلُمَاتِ وَالنُّورَ ثُمَّ الَّذِينَ كَفَرُوا بِرَبِّهِمْ يَعْدِلُونَ[1] (١) هُوَ الَّذِي خَلَقَكُمْ مِنْ طِينٍ ثُمَّ قَضَى أَجَلًا وَأَجَلٌ مُسَمًّى عِنْدَهُ ثُمَّ أَنْتُمْ تَمْتَرُونَ[2] (٢) وَهُوَ اللَّهُ فِي السَّمَاوَاتِ وَفِي الْأَرْضِ يَعْلَمُ سِرَّكُمْ وَجَهْرَكُمْ وَيَعْلَمُ مَا تَكْسِبُونَ (٣)﴾.

هدى من الآيات:

ثلاث حقائق؛ الله، الإنسان، الكون

في بداية هذه السورة امتزجت حقائق الكون ببعضها وفق البصيرة التوحيدية التي بالرغم من اهتمامها بالفواصل الواقعية بين الأشياء إلا أنها تعلق أهمية كبيرة على مدى علاقة الأشياء ببعضها، وتذكرنا هذه السورة بطائفة من حقائق الكون كمثل لعبودية الله الواحد، تلك الحقائق هي:

ألف: الله سبحانه باعتباره سيداً مطاعاً من قبل الخليقة ومهيمناً عليها.

بـــاء: الإنسان باعتباره عبداً مخلوقاً لله، وسيداً على الطبيعة، وأن عليه أن يقف أمام عظمة الله ويقول: ﴿الْحَمْدُ لِلَّهِ﴾ حامداً عظمة الله، ليس لأنه قدير واسع الرحمة فحسب، بل لأنه سبحانه أغدق عليه من رحمته الواسعة الشيء الكثير، فلذلك يحمده.

جيم: الكون؛ أي السماوات والأرض، والظلمات والنور.. باعتبارها مخلوقات لله، ومدبرات

(١) يعدلون: عدلت عنه أي أعرضتُ.

(٢) تمترون: الامتراء الشك، وأصله من مرات الناقة إذا مسح ضرعها لاستخراج، اللبن، ومنه ماراه يماريه مراءً ومماراةً إذا استخرج ما عنده بالمناظرة، فالامتراء استخراج الشبهة المشكلة من غير حل.

بأمره، والرابطة الوثيقة بين الإنسان وبين الكون هي أنهما معاً مخلوقان لله، مدبَّران بأمره سبحانه.

ولكن الإنسان يملك -بإذن ربه- ميزة أساسية بين الخلائق، وهي أنه سيدها الذي سخرها الله له، ولذلك فهو يحمد ربه. وإذا أراد الإنسان أن يكرس في ذاته صفة السيادة على الكون، فليس عليه سوى المزيد من الارتباط بربه الذي سخر الكون لأمره.

بينات من الآيات:

[١] ﴿ٱلْحَمْدُ لِلَّهِ ٱلَّذِى خَلَقَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ﴾ إن الله سبحانه لم يهب السماوات والأرض خلقهما فقط، بل قدر لهما أمورهما، ونظم شؤونهما، فكل شيء في السماوات والأرض محدود بحدود معينة حددتها حكمة الله، وعلمه الواسع، وقدرته المطلقة.

فالشمس لها وزنها وسعتها، وحرارتها وكثافتها، ومدارها ومجراها، ونهايتها وبعدها عن سائر الشموس السابحة في الفضاء. كذلك الأرض والقمر والكواكب والنجوم، وهكذا الحال لكل شيء موجود في الأرض، حتى الذرة لها حدودها التي لا تتجاوزها.

وعندما نقول: حدودها نعني: أن كل شيء ينتهي وجوده عند حد معين، وبعدئذ لا يملك وجوداً أو بتعبير آخر: ينعدم في خارج حده، مثلاً: التفاحة موجودة في مساحة معينة وفي وقت محدود. أما فيما وراء تلك المساحة، وذلك الوقت فلا وجود للتفاحة، كذلك فإن الله قدر - بحكمته وقدرته - الوجود والعدم، فجعل كل شيء موجوداً في حدود معينة، وجعله معدوماً فيما وراء ذلك. إذن فهو جاعل العدم والوجود، ومقدرهما ومدبرهما.

وربما يشير إلى هذه الحقيقة قوله تعالى: ﴿وَجَعَلَ ٱلظُّلُمَٰتِ وَٱلنُّورَ﴾ ذلك لأن الظلمات رمز لكل عدم، بينما النور رمز لكل وجود.

أمام هذه القدرة والحكمة المطلقة، لا يسعنا إلا الحمد، والحمد هو ذلك الموقف الرشيد الذي لابد أن نتخذه من ربنا، ولكن كم هو بعيد وشاذ موقف الكفار حيث يشركون بربهم، ويضعون الله سبحانه عدلاً للأنداد من دونه. تعالى ربنا عما يصفه المشركون! ﴿ثُمَّ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ بِرَبِّهِمْ يَعْدِلُونَ﴾.

الشك لماذا وكيف؟

[٢] إن الإنسان في هذا الكون الواسع محاط بقدرة الله، وما عليه إلا أن يعرف هذه الحقيقة، ويعترف بها، ولا يرتاب فيها ولا يشكك نفسه في ذلك، لان الشك قد يكون عفويًا،

وقد يكون شكًّا نابعاً من الهوى أو الحساسية وما أشبه، وفي قضية الإيمان بالله لا نجد ذلك النوع من الشك، إن الله أظهر من أن يشك فيه بشر[1]، إن هذا الشك هو الشك الذي مصدره إغماض العين عن الشواهد، والانصراف عن الأدلة والمجادلة في الحق بعد اليقين به.

﴿هُوَ ٱلَّذِى خَلَقَكُم مِّن طِينٍ ثُمَّ قَضَىٰٓ أَجَلًا ۖ وَأَجَلٌ مُّسَمًّى عِندَهُۥ ۖ ثُمَّ أَنتُمْ تَمْتَرُونَ﴾ إن خلقة الإنسان كانت من طين فلذلك هو ينزع إليه ويهوى الخلود إليه، ومن الصعب عليه أن ينبعث إلى الحق ولأن الإنسان خلق من طين فأولى به أن يخشع لخالقه وإلا يستكبر.

ثم إن للإنسان قدراً مقدوراً. ذلك أن خلايا جسمه تتحلل، وعظامه تهن وتضعف، وينتهي بالتالي إلى الموت. وقد يأتيه قبل ذاك الموت بحادث سيارة أو مرض سرطان، أو قتل في حرب أو غير ذلك من الأسباب.

الميتة الأولى قدر مقدور عليه، كما هو قدر مقدور على كل حي وعلى كل مادة، أما الميتة الثانية فهي قضاء يقدرها الله عليه، ويكتبها في سجله الأسمى، وذلك وفقاً لاختيارات الفرد نفسه لأنماط حياته المادية والمعنوية. إذن فهو إله السماوات وإله الأرض، وهو ملكهما ومرجع أمورهما.

[٣] ﴿وَهُوَ ٱللَّهُ فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَفِى ٱلْأَرْضِ ۖ﴾ ولأنه يدبر أمور السماوات والأرض، فهو عليم بهما لأنه من المستحيل أن يدبر عليك الكون دون أن يعلم بخفاياه ﴿يَعْلَمُ سِرَّكُمْ وَجَهْرَكُمْ﴾.

إنه يعلم السر كما يعلم الجهر بعكس الإنسان لأن السر هو الذي يتكون أولاً، ثم يبرز أمام الناس، كالحبة تحت التراب، تتحول عبر تفاعلات كيماوية إلى زرع قبل أن يراها الناس، ثم إذا اخضرت الأرض أصبحت جهراً والله يعلم سرها وجهرها.

ولذلك فإن علمه بالسر يسبق علمه بالجهر بالرغم من أن علم الله لا زمان له. والله يعلم خفايا الحبة التي تتفاعل مع أملاح الأرض، ثم إذا تفاعلت يعلمها خبراء الزراعة ثم يراها المزارعون.

كذلك يعلم الله إرادة الإنسان قبل أن تتحول إلى عمل، ويعلم العوامل المؤثرة فيها.

---

(١) جاء في دعاء عرفة للإمام الحسين عليه السلام: «إِلَهِي تَرَدُّدِي فِي الْآثَارِ يُوجِبُ بُعْدَ الْمَزَارِ فَاجْمَعْنِي عَلَيْكَ بِخِدْمَةٍ تُوصِلُنِي إِلَيْكَ كَيْفَ يُسْتَدَلُّ عَلَيْكَ بِمَا هُوَ فِي وُجُودِهِ مُفْتَقِرٌ إِلَيْكَ أَ يَكُونُ لِغَيْرِكَ مِنَ الظُّهُورِ مَا لَيْسَ لَكَ حَتَّى يَكُونَ هُوَ الْمُظْهِرَ لَكَ مَتَى غِبْتَ حَتَّى تَحْتَاجَ إِلَى دَلِيلٍ يَدُلُّ عَلَيْكَ وَمَتَى بَعُدْتَ حَتَّى تَكُونَ الْآثَارُ هِيَ الَّتِي تُوصِلُ إِلَيْكَ عَمِيَتْ عَيْنٌ لَا تَرَاكَ عَلَيْهَا رَقِيباً وَخَسِرَتْ صَفْقَةُ عَبْدٍ لَمْ تَجْعَلْ لَهُ مِنْ حُبِّكَ نَصِيباً». بحار الأنوار، ج٩٥، ص٢٢٥.

عاملاً عاملاً، ويعلم طبيعة الظروف ومدى استعداد الإنسان لتحديها، أو استسلامه لها. لذلك فهو يعلم ماذا يريد الإنسان أن يعمله في المستقبل بالرغم من أن هذه الإرادة لا يعلمها حتى الإنسان نفسه: «عَرَفْتُ اللهَ سُبْحَانَهُ بِفَسْخِ الْعَزَائِمِ وَحَلِّ الْعُقُودِ وَنَقْضِ الْهِمَمِ»[1].

﴿وَيَعْلَمُ مَا تَكْسِبُونَ﴾ ما تكسبون من خير أو شر، الآن ومستقبلاً، وهكذا.. فعلى الإنسان أن يصلح ما في نفسه من عقد ونزوات، ويطهرها من صفاتها السيئة، تلك التي يحاسبه عليها ربنا، وهو عليم بكل تفاصيلها ومقاديرها، كما عليه أن يصلح ظاهره، ويراقب أعماله.

(١) نهج البلاغة: حكمة: ٢٥٠.

وهكذا يحتجب الخلق عن الرب

﴿وَمَا تَأْتِيهِم مِّنْ ءَايَةٍ مِّنْ ءَايَٰتِ رَبِّهِمْ إِلَّا كَانُوا۟ عَنْهَا مُعْرِضِينَ ﴿٤﴾ فَقَدْ كَذَّبُوا۟ بِٱلْحَقِّ لَمَّا جَآءَهُمْ ۖ فَسَوْفَ يَأْتِيهِمْ أَنۢبَٰٓؤُا۟ مَا كَانُوا۟ بِهِۦ يَسْتَهْزِءُونَ ﴿٥﴾ أَلَمْ يَرَوْا۟ كَمْ أَهْلَكْنَا مِن قَبْلِهِم مِّن قَرْنٍ مَّكَّنَّٰهُمْ فِى ٱلْأَرْضِ مَا لَمْ نُمَكِّن لَّكُمْ وَأَرْسَلْنَا ٱلسَّمَآءَ عَلَيْهِم مِّدْرَارًا وَجَعَلْنَا ٱلْأَنْهَٰرَ تَجْرِى مِن تَحْتِهِمْ فَأَهْلَكْنَٰهُم بِذُنُوبِهِمْ وَأَنشَأْنَا مِنۢ بَعْدِهِمْ قَرْنًا ءَاخَرِينَ ﴿٦﴾ وَلَوْ نَزَّلْنَا عَلَيْكَ كِتَٰبًا فِى قِرْطَاسٍ فَلَمَسُوهُ بِأَيْدِيهِمْ لَقَالَ ٱلَّذِينَ كَفَرُوٓا۟ إِنْ هَٰذَآ إِلَّا سِحْرٌ مُّبِينٌ ﴿٧﴾ وَقَالُوا۟ لَوْلَآ أُنزِلَ عَلَيْهِ مَلَكٌ ۖ وَلَوْ أَنزَلْنَا مَلَكًا لَّقُضِىَ ٱلْأَمْرُ ثُمَّ لَا يُنظَرُونَ ﴿٨﴾ وَلَوْ جَعَلْنَٰهُ مَلَكًا لَّجَعَلْنَٰهُ رَجُلًا وَلَلَبَسْنَا عَلَيْهِم مَّا يَلْبِسُونَ ﴿٩﴾ وَلَقَدِ ٱسْتُهْزِئَ بِرُسُلٍ مِّن قَبْلِكَ فَحَاقَ بِٱلَّذِينَ سَخِرُوا۟ مِنْهُم مَّا كَانُوا۟ بِهِۦ يَسْتَهْزِءُونَ ﴿١٠﴾ قُلْ سِيرُوا۟ فِى ٱلْأَرْضِ ثُمَّ ٱنظُرُوا۟ كَيْفَ كَانَ عَٰقِبَةُ ٱلْمُكَذِّبِينَ ﴿١١﴾﴾.

هدى من الآيات:

تحقيقاً للهدف العام لسورة الأنعام الذي هو تنمية روح الإيمان بالله في النفوس، وجعله مصباحاً يهدي الإنسان في ظلمات الحياة، تحقيقاً لهذا الهدف العظيم جاءت آيات هذا الدرس لتفضح الدافع الأساسي لتكذيب آيات الله ورسالاته، لعل الإنسان يتذكر بنفسه ويحاول تطهيرها من شر هذا الدافع الأساسي الذي هو الاستهزاء بالحق، والإعراض عن آياته، وما دام البشر يستخف بالحق ولا يقدره حق قدره فإنه لن يستمع إلى آيات الحق، ولن يحاول استيعاب هذه الآيات.

ولكي يطهر البشر قلبه من هذا الدافع فعلينا أن نذكره (كما عليه هو أن يتذكر) بمصير المستهزئين بالحق، المعرضين عن آياته كيف أنهم دمروا شر تدمير.

وتبين آيات هذا الدرس انه ما دام الاستهزاء موجوداً، أي ما دام البشر غير مهتم بالحق. فإنه لاينتفع بأية آية، بل يحاول أن يتشبث ببعض الحجج الواهية حتى يرد الحق وآياته، ومتى ما فشلت حجة من حججه، فإنه يسارع إلى حجة واهية أخرى.

فلو جاءته الآيات على شكل كتاب منزل من السماء، فإنه يقول: أنها سحر، ثم يطالب ربه بأن ينزل عليه الملائكة، ولكن هل هذا ينفعه؟ كلا، لأن الملك عندما يأتيه مثلاً فإنما يأتيه بصورة إنسان أو شبهه، ولكن مادام يكفر بالرسل. فكيف لا يكفر بالملائكة؟!.

إن الحل الوحيد للمعرض عن آيات الحق، أو المستهزئ بها هو أن يتذكر مصير المكذبين بها والمعرضين عنها، وذلك بالسير في الأرض، لأن الحق ينتصر من المكذبين والمعرضين.

بينات من الآيات:

الاستعداد النفسي

[٤] لكي نعرف الحق نحتاج إلى الانفتاح عليه والبحث الجدي عن آياته، وإنك تحتاج إلى البحث السليم عن طريقك وأنت تسير في الصحراء أو في الجبال حتى تكشفه من خلال المعالم الموجودة على الرمال، أو بين الصخور.

فإذا أراد الإنسان أن يعرف طريقه في الحياة من أين جاء، وإلى أين يسير، وكيف ومتى، وأين ينتهي به المطاف، وكيف يسعد، وكيف يمارس أعماله بشكل لا تتعارض ومصالحه الحقيقية وهكذا؟

أفلا يحتاج إلى البحث، وهل يمكن أن يكشف أحدنا طريقه في الحياة بلا تعب؟! كلا..

ومن حسن حظنا نحن البشر أن الله عزوجل منَّ علينا بتوضيح طرق الحياة، وهدانا إلى أوضح الطرق، والمطلوب منا أن نفتح أعيننا جيدا لنهتدي بهدى ربنا، أما إذا أغمضنا أعيننا فحتى نور الشمس لا يستطيع أن ينفذ إلى عين مغمضة. إذا فالشرط الأول للهداية؛ هو الاستعداد النفسي لتقبلها إذا توفرت آياتها، أما إذا لم يكن عند الإنسان هذا الاستعداد، وقرر سلفاً الكفر بالحق؛ فإنه سوف يعرض عن آيات الحق، ومثلاً على ذلك الذي ينتمي إلى جماعة ما، ولا يفكر أبدا في ترك هذه الجماعة لأنه قد اتخذ قراره سلفاً لإنكار الحق، كذلك الكافرون

يعرضون عن آيات الحق لأنهم قد اتخذوا قرارهم الخاطئ سلفاً بالكفر.

﴿وَمَا تَأْتِيهِم مِّنْ ءَايَةٍ مِّنْ ءَايَٰتِ رَبِّهِمْ إِلَّا كَانُواْ عَنْهَا مُعْرِضِينَ﴾ إنهم لا يحضرون عند من يتلو الآيات، وإن حضروا فهم لا يستمعون إلى تلك الآيات، وإن استمعوا إليها فليس للاهتداء بها بل من أجل ردها.

عاقبة الاستهزاء بالحق

[٥] يستخف الكفار بآيات ربهم، والواقع أنهم يستخفون بالحق الذي تدل عليه تلك الآيات. إن من لا يحضر عند من يذكر بالله، ويقول: من هذا حتى أحضر عنده؟! إنه لا يستخف بهذا الرجل. بل بالحق الذي يحمله.

كذلك من لا يقرأ كتاباً يهديه إلى الحق ويقول مستخفًّا. به: ما هذا؟! إنه يستخف بالحق لا بالكتاب. كذلك من لا ينظر إلى آيات الله في الكون نظراً عبرياً، وكذلك الذي لا يتدبر في القرآن.

﴿فَقَدْ كَذَّبُواْ بِالْحَقِّ لَمَّا جَآءَهُمْ﴾ إن فطرة الإنسان تدفعه إلى البحث عن الحق، ولكن الذي دنس فطرته بوسخ الشرك. ينكر الحق، ويكذب به حتى وإن جاءه بدون بحث أو صعوبة.

﴿فَسَوْفَ يَأْتِيهِمْ أَنبَٰٓؤُاْ مَا كَانُواْ بِهِۦ يَسْتَهْزِءُونَ﴾ إن مثل هؤلاء لا يعرفون أهمية الحق ودوره في فلاحهم وسعادتهم، ومدى حاجتهم إليه، وهذا الجهل سيرديهم، لأن الحق الذي يستخفون به، وينكرون دوره في حياتهم سوف ينتقم منهم غداً حين يخالفونه.

إنك إذا أنكرت حقيقة الجاذبية في الأرض وأعرضت عمداً عن كل الآيات التي تدل عليها. وإذا قيل لك: إن سقوط التفاح من الشجر وانحدار السيل، وتساقط المطر كل ذلك يدل على الجاذبية، وإنك لو قفزت من عل فسوف تسحبك الأرض وتحطم عظامك؛ قلت: كلا.. ولم تستمع إلى الأدلة، بل أعرضت عنها.

ماذا ستكون النتيجة؟ بالطبع إن هذا الحق الذي أنكرته اليوم، سيأتيك غداً لينتقم منك، بأن تسقط في يوم من الأيام فإذا بعظامك محطمة.

كذلك لو أنكرت حقيقة أن السكوت على حكم الظالم سيحطم سعادة الشعب، ولم تستمع إلى آيات هذا الحق المتمثلة في مئات العبر التاريخية الغابرة، والتجارب البشرية الحاضرة،

فسوف تسكت عن الظالم، وتكون أنت أول من يحيط به ظلم الظالم، ويحطم سعادته.

[٦] هكذا كان مصير كل أولئك الذين أعرضوا عن آيات الله، وكذبوا بالحق، واستهزؤا به كتعبير عن استخفافهم به، واستهانتهم بدوره في سعادتهم.

سنة العذاب

إننا إذا نظرنا إلى تاريخ البشرية فأننا نرى حقيقة بارزة هي أن مصير كل المكذبين بالحق كانت المأساة.

﴿أَلَمْ يَرَوْا كَمْ أَهْلَكْنَا مِن قَبْلِهِم مِّن قَرْنٍ﴾ هل أهلكوا لأنهم كانوا ضعفاء؟ كلا بل بالعكس: ﴿مَّكَّنَّاهُمْ فِي الْأَرْضِ مَا لَمْ نُمَكِّن لَّكُمْ﴾ أي أنهم سيطروا على موارد الأرض، وسخروها في مصلحتهم بإذن الله، واستقروا في الأرض، واطمأنوا بها حتى ليكاد يحسبهم الناظر أنهم خالدون فيها.

﴿وَأَرْسَلْنَا السَّمَاءَ عَلَيْهِم مِّدْرَارًا وَجَعَلْنَا الْأَنْهَارَ تَجْرِي مِن تَحْتِهِمْ﴾ لقد استقروا في الأرض وتجاوزوا مرحلة البداوة، والارتحال من منطقة لأخرى طلباً للرزق، خوفاً من الوحوش، أو من نكبات الطبيعة، ثم كانت موارد الرزق عندهم كبيرة وسهلة وهذه هي أسباب قيام الحضارات البشرية.

ولكن هذه الحضارة (التمكين) لم تشفع لهم. إذ أنهم حين أعرضوا عن آيات الحق، وكذبوا بها واستهزؤا. آنئذ خالفوا الحق عمليًّا، وأكثروا من الذنوب التي هي تعبير ديني عن مخالفة الحق.

إنهم ظلموا أنفسهم، وطغوا على الآخرين، ولم يستفيدوا من موارد الطبيعة، بل أفسدوها، وفعلوا مثلما فعل قوم عاد أو قوم لوط أو قوم شعيب، وكانت النتيجة: أن تلك الذنوب تكاثرت حتى أحاطت بهم، وأنهت حضاراتهم. ﴿فَأَهْلَكْنَاهُم بِذُنُوبِهِمْ وَأَنشَأْنَا مِن بَعْدِهِمْ قَرْنًا آخَرِينَ﴾ إن هذه عبرة كافية للبشر إذا أراد أن يعتبر.

[٧] ولكن البشر قد يغلق على نفسه منافذ قلبه. فلا يقبل الحق ولو جاءه بطريقة إعجازية ﴿وَلَوْ نَزَّلْنَا عَلَيْكَ كِتَابًا فِي قِرْطَاسٍ فَلَمَسُوهُ بِأَيْدِيهِمْ﴾ أي في أوراق ملموسة يرونها تهبط عليهم من السماء كما ينزل المطر إنهم لا يفكرون أن ذلك إعجاز، فكيف ينزل من السماء قرطاس فيه هدى ونور، إذن: ﴿لَقَالَ الَّذِينَ كَفَرُوا إِنْ هَٰذَا إِلَّا سِحْرٌ مُّبِينٌ﴾ وكيف يمكن إقناع من يخلط المعجزة

بالسحر؟ هل بمعجزة أقوى وأكبر؟! إنه آنئذ سيزعم أنها سحر أكبر؟!.

إن إقناع هذا الشخص أصعب من إقناع من يخلط بين المتناقضات في تفكيره كالبدائي الذي يزعم: أن من الممكن أن يوجد شخص في مكانين في زمان واحد، ذلك لان هذا يعاني من نقص في تفكيره. يمكن إزالته بالتعليم أما ذاك فهو مصمم على ألا يقتنع بالحق لأنه لا يرى أهمية لذلك أصلاً.

[٨] إن هذه الطائفة تطالب أبدا بمعاجز جديدة. تهرباً من الاقتناع بالحق، وليس هدفهم من هذه المطالب بريئا.

﴿وَقَالُوا لَوْلَا أُنزِلَ عَلَيْهِ مَلَكٌ﴾ من السماء نراه بأعيننا حتى نصدق به، ولكن إذا جاء هل يصدقون به أم يعودون ويقولون: إنه ﴿سِحْرٌ مُّبِينٌ﴾؟!.

إن لله سنناً وأنظمة في الكون يجري عليها أمور الكون، ولا يخرق هذه السنن بطلب كل أحد.

ومن تلك السنن: أنه قدر ألا ينزل الملائكة إلا في يوم المعاد. حيث يظهر الجزاء فوراً وبصورة واضحة. في ذلك اليوم تظهر الملائكة لكي يجازوا الناس بأعمالهم، وتظهر حقائق الكون للجميع. لذلك قال ربنا: ﴿وَلَوْ أَنزَلْنَا مَلَكًا لَّقُضِيَ الْأَمْرُ ثُمَّ لَا يُنظَرُونَ﴾ في ذلك اليوم تنتهي فرصة الاختبار للإنسان، ويأتي يوم الجزاء العاجل الذي لا يمهل صاحبه، أما الآن فنحن في يوم المهلة.

[٩] ثم ما الفرق بين أن ينزل الله ملكاً أو ينزل رجلاً، فما دام الفرد كافراً وجاحداً. لا فرق بين أن يأتيه رجل رسول، أو يأتيه ملك رسول. انه سوف يكفر بهما جميعاً.

﴿وَلَوْ جَعَلْنَاهُ مَلَكًا لَّجَعَلْنَاهُ رَجُلًا وَلَلَبَسْنَا عَلَيْهِم مَّا يَلْبِسُونَ﴾ إن الهدف من بعث الرسل ليس إكراه الناس على الالتزام بطريق الحق، بل إتمام الحجة عليهم وذلك بتوفير فرصة الهداية لهم كي لا يقولوا يوم القيامة: لم نكن نعلم.

ولذلك لو بعث الله ملكاً إذا لجعله الله يشبه الناس حتى في ملابسه حتى يستطيع أن يتفاهم معهم، ويهديهم.

[١٠] إن مشكلة الكافر هي استخفافه بالحق واستهزاؤه به. والسبب هو: أن الكافر - كما قلنا سابقاً- لا يعرف مدى أهمية الحق في حياته وإن علينا أن نبين له تلك الأهمية من خلال تجارب التاريخ.

﴿ وَلَقَدِ ٱسْتُهْزِئَ بِرُسُلٍ مِّن قَبْلِكَ فَحَاقَ بِٱلَّذِينَ سَخِرُوا۟ مِنْهُم مَّا كَانُوا۟ بِهِۦ يَسْتَهْزِءُونَ ﴾ إن الحق الذي كفر به هؤلاء واستهزءوا بمن هداهم إليه تحول إلى واقع مر، ودمر حياتهم.

[١١] إن الرسل قالوا لهم: إن الإستسلام للطاغوت حرام، وعلى البشر أن يرفضه، فهذا هو الحق الذي حمله الرسل إلى الناس، ولكنهم كفروا بهم، واستهزئوا بهذه الحقيقة. فماذا كانت النتيجة؟.

إن الحق تحول إلى واقع فسيطر الطاغوت على البشر، وأفسد عليهم الحياة، وجعلها جحيماً لا تطاق.

ولكي نفهم هذه التجربة العظيمة علينا أن نراجع التاريخ: ﴿قُلْ سِيرُوا۟ فِى ٱلْأَرْضِ ثُمَّ ٱنظُرُوا۟ كَيْفَ كَانَ عَـٰقِبَةُ ٱلْمُكَذِّبِينَ ﴾ إن حياتهم انتهت إلى جحيم بسبب تكذيبهم للحق، واستهزائهم بالرسل.

آيات الله بشائر رحمة ونذير عذاب

﴿قُلْ لِمَنْ مَا فِي السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ قُلْ لِلَّهِ كَتَبَ عَلَى نَفْسِهِ الرَّحْمَةَ لَيَجْمَعَنَّكُمْ إِلَى يَوْمِ الْقِيَامَةِ لَا رَيْبَ فِيهِ الَّذِينَ خَسِرُوا أَنْفُسَهُمْ فَهُمْ لَا يُؤْمِنُونَ (١٢) وَلَهُ مَا سَكَنَ فِي اللَّيْلِ وَالنَّهَارِ وَهُوَ السَّمِيعُ الْعَلِيمُ (١٣) قُلْ أَغَيْرَ اللَّهِ أَتَّخِذُ وَلِيًّا فَاطِرِ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ وَهُوَ يُطْعِمُ وَلَا يُطْعَمُ قُلْ إِنِّي أُمِرْتُ أَنْ أَكُونَ أَوَّلَ مَنْ أَسْلَمَ وَلَا تَكُونَنَّ مِنَ الْمُشْرِكِينَ (١٤) قُلْ إِنِّي أَخَافُ إِنْ عَصَيْتُ رَبِّي عَذَابَ يَوْمٍ عَظِيمٍ (١٥) مَنْ يُصْرَفْ عَنْهُ يَوْمَئِذٍ فَقَدْ رَحِمَهُ وَذَلِكَ الْفَوْزُ الْمُبِينُ (١٦)﴾.

هدى من الآيات:

أبسط فكرة تقفز إلى ذهنك حين تلقي نظرة إلى السماوات والأرض هي أنهما مسيرتان وليستا مخيرتين، فإذن هي مملوكة لله، ولكن الله ذا المشيئة المطلقة، المالك للسماوات والأرض يعطي عباده من خلال عطاياه ونعمه التي لا تحصى ثقة بأنه لن يقطع الحبل عنهم، بل كتب على نفسه الرحمة لهم، فما أفضل الالتجاء إليه، والتمتع برحمته.

هذه فكرة الآية الأولى من هذا الدرس الذي يعرفنا بربنا معرفة تجعلنا نكاد نراه بها سبحانه، والله هو المالك لكل ما سكن له واطمأن إلى رحمته في مسيرة الليل والنهار رغم تحركهما، إذ أن رحمة الله تدع الخلق يسيرون وفق نظام يثقون به، يسكنون إليه رغم تدفق الزمان الهائل القوة، لأن الكون كله يستند إلى القدرة المطلقة التي فطرت السماوات والأرض في البدء، والتي لا تزال تغذي الوجود دون أن يتغذى بشيء سبحانه، وفي هذا الطوفان الهائل التغيير يسلم العبد لربه ليتخذ منه ركناً شديداً، ثم لا تكونن -أيها العبد الضعيف- من المشركين لأن

الشرك -وهو أعظم درجة- سيجعلك تواجه نهاية مأساوية في يوم غاية كل إنسان فيه هو الخلاص من عذابه ﴿فَمَن زُحْزِحَ عَنِ ٱلنَّارِ وَأُدْخِلَ ٱلْجَنَّةَ فَقَدْ فَازَ﴾ [آل عمران: ١٨٥].

وتأتي هذه المجموعة التوحيدية من الآيات في سياق دروس إيمانية متتالية. هدفها التعريف الأعمق بآيات الله في الحياة.

بينات من الآيات:

عالم الخلق دليل رحمة الله

[١٢] إن للحياة التي نعيشها لحظة بلحظة، ودفعة بدفعة، وموجة بعد موجة، هذا المهرجان العظيم من النور، والدفء، والانطلاق من العظمة والروعة والجلال، لهذه الحياة تنظيم بديع لطيف متين إذا نظرت إليها ككل راعتك آيات التنسيق بين أجزائها، وإذا أمعنت النظر في أصغر أجزائها أعجبتك متانة الصنع، ومدى ما فيها من دقة التنظيم، وعظمة الحركة، كل ذلك يزيدك معرفة: بأن للسماوات والأرض ربًّا يملك ناصيتها، ويدبر شؤونها ويسيرها، ولو كانت حرة طليقة من دون مسير، إذن لتحركت وسارت كل جزيئة منها في اتجاه، ولانهارت وتفتتت وتلاشت، فمن يملك ناصية الحياة غير ربها، الله الذي خلقها!!.

﴿قُل لِّمَن مَّا فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ قُل لِّلَّهِ﴾ إنها ليست الحقيقة التي نحتاج فيها إلى إثبات، بل نحتاج إلى معايشتها وملامسة أبعادها لنصبح كلما استطعنا أقرب إليها لأنها الحقيقة الأم التي تتفجر الحقائق من خلالها تفجيراً، ومن خلال معرفة حقيقة المالكية الإلهية نعرف أن الله قد كتب على نفسه الرحمة لأنه لو لم يكتب على نفسه الرحمة (ونعترف بعدم دقة التعبير) إذن فمن الذي يمسك السماوات والأرض أن تزولا.

علماً بأن الله يجبر الكون على المسير وفق الأنظمة، فمن يجبره سبحانه. إنه هو الذي: ﴿كَتَبَ عَلَىٰ نَفْسِهِ ٱلرَّحْمَةَ﴾ ولكن لرحمة الله حدود، وحدود رحمة الله هي حكمته.. فكما أنه رحيم حين يضع السنن العادلة، إلا أنه شديد على من يخالفها، فهو حين يحفظك -مثلاً- من أن تسقط عليك حجارة ضخمة من السماء تدمر بيتك على من فيه، فإنه بعدئذ فرض عليك أن تلتزم بواجب العدالة، فلا تهدم بيوت الخلق بأسلحة مدمّرة، فلو فعلت فإن جزاءك سيأتيك عاجلاً في الدنيا، أو آجلاً في الآخرة. هنالك لا تحاسب وحدك، بل سوف تحاكم أمام الناس جميعاً، وسوف يؤتى بمن ظلمته لكي يستوفي كل جزائه العادل: ﴿لَيَجْمَعَنَّكُمْ إِلَىٰ يَوْمِ ٱلْقِيَٰمَةِ لَا رَيْبَ فِيهِ﴾ أويشك أحد: أن الله هو الذي أمسك كل شيء في حدود معينة عادلة حكيمة،

وذلك برحمته التي كتبها على نفسه، أو يشك أحد أنه سوف يترك الإنسان حرًا في تدمير نفسه، والعالم من حوله دون جزاء عادل له؟.

كلا: ﴿ٱلَّذِينَ خَسِرُوٓاْ أَنفُسَهُمۡ فَهُمۡ لَا يُؤۡمِنُونَ﴾ لأنهم يتصورون أن الحياة بلا بداية ولا نهاية، ولا مالك ولا شيء.. إنهم يخسرون أنفسهم، ويفقدون ما من الله عليهم به من فرصة السعادة الأبدية، إلى الشقاء الأبدي الخالد.

السكون والحركة في الكون

[١٣] غداً حين تشرق الشمس، وينتشر الضوء والحرارة. أذهب أنا وأولادي وسائر أبناء القرية جميعا للحصاد.. إذ أننا قبل أشهر كنا قد ملأنا الحقل بذوراً، والآن أصبحت حقلاً زاهراً وفي العام القادم سنزوج الأولاد، ونسافر إلى الحج، هذه الأفكار التي تراود ذهن فلاح بسيط لدليل على أن هناك ثقة بالحياة يسكن إليها البشر - بل كلها في الحياة - تلك ثقة نابعة من أن سنن الله لا تتغير رغم تطور آياته، فالشمس تطلع لتغرب، والليل يلاحق النهار، والضوء يهزم الظلام، ثم ينهزم أمام جيوشه، ولكن كل ذلك يجري وفق نظام يطمئن إليه الإنسان وسائر الأحياء لا فرق. من يملك النظام؟ من ينفذه؟ من يشرف عليه ألا تخرقه الأهواء النزقة؟ إنه الله الذي يهيمن على السماوات والأرض، وهو يسمع ويعلم فلا يهرب من سوط عدالته وسلطان تدبيره شيء سبحانه: ﴿۞ وَلَهُۥ مَا سَكَنَ فِي ٱلَّيۡلِ وَٱلنَّهَارِۚ وَهُوَ ٱلسَّمِيعُ ٱلۡعَلِيمُ﴾ والمقابلة المبدعة بين الليل والنهار من جهة، وبين السكون من جهة ثانية مقابلة توضح بعدي السكون والحركة في الحياة الواحدة التي يهيمن عليها الرب.

دوافع الإيمان

[١٤] قلنا -ونكرر- إنك حين تعرف حقيقة أن لله ملك السماوات والأرض، تعطيك هذه المعرفة آفاقاً جديدة من العلم، وهذا واحد منها: إنك تجلس لتفكر. إذا كان الله هو مالك السماوات والأرض. فلماذا لا نتخذه صديقنا وصاحبنا، وقائدنا وولينا، نحبه ويحبنا. أوليس هو الذي يملك -فيما يملك- رزقنا. وهو بذلك لا يطالبنا بثمن، فنحن لا نطعمه. بل هو الذي يطعمنا؟!.

هناك توجه السؤال التالي إلى نفسك: ﴿قُلۡ أَغَيۡرَ ٱللَّهِ أَتَّخِذُ وَلِيّٗا فَاطِرِ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلۡأَرۡضِ وَهُوَ يُطۡعِمُ وَلَا يُطۡعَمُۗ﴾ ويأتيك الجواب وبكل بساطة: ﴿قُلۡ إِنِّيٓ أُمِرۡتُ أَنۡ أَكُونَ أَوَّلَ مَنۡ أَسۡلَمَۖ وَلَا تَكُونَنَّ مِنَ ٱلۡمُشۡرِكِينَ﴾ تقول نفسك، وتقول لك كل حقائق الحياة: كلا. إن من الأفضل

لك الخضوع لله، وليس لأحد سواه.

[١٥] وغداً حين يجازي الرب عباده المذنبين، كيف نهرب من جزائه العادل وهو ذو القوة التي سخرت السماوات والأرض؟ ﴿ قُلْ إِنِّيٓ أَخَافُ إِنْ عَصَيْتُ رَبِّى عَذَابَ يَوْمٍ عَظِيمٍ ﴾.

[١٦] إن الرحمة التي شملتنا في الدنيا والتي ظهرت آثارها في كل مظاهر الحياة. هذه الرحمة كيف تفوتنا، وتتحول في الآخرة بسبب أعمالنا الفاسدة إلى عذاب.. أو ليس هذا جنون؟.

﴿ مَّن يُصْرَفْ عَنْهُ يَوْمَئِذٍ فَقَدْ رَحِمَهُۥ ﴾ رحمه لأنه هداه إلى الحق، وألزمه كلمة التقوى، ورحمه لأنه غفر له ذنوبه البسيطة، لأنه أطاع الله في أعظم العبادات: ﴿وَذَٰلِكَ ٱلْفَوْزُ ٱلْمُبِينُ ﴾ أن ترسو سفينة الإنسان على شاطئ السعادة الأبدية برحمة الله.

بالله يفلح الإنسان

﴿وَإِن يَمْسَسْكَ ٱللَّهُ بِضُرٍّ فَلَا كَاشِفَ لَهُۥٓ إِلَّا هُوَ ۖ وَإِن يَمْسَسْكَ بِخَيْرٍ فَهُوَ عَلَىٰ كُلِّ شَىْءٍ قَدِيرٌ ﴿١٧﴾ وَهُوَ ٱلْقَاهِرُ فَوْقَ عِبَادِهِۦ ۚ وَهُوَ ٱلْحَكِيمُ ٱلْخَبِيرُ ﴿١٨﴾ قُلْ أَىُّ شَىْءٍ أَكْبَرُ شَهَٰدَةً ۖ قُلِ ٱللَّهُ ۖ شَهِيدٌۢ بَيْنِى وَبَيْنَكُمْ ۚ وَأُوحِىَ إِلَىَّ هَٰذَا ٱلْقُرْءَانُ لِأُنذِرَكُم بِهِۦ وَمَنۢ بَلَغَ ۚ أَئِنَّكُمْ لَتَشْهَدُونَ أَنَّ مَعَ ٱللَّهِ ءَالِهَةً أُخْرَىٰ ۚ قُل لَّآ أَشْهَدُ ۚ قُلْ إِنَّمَا هُوَ إِلَٰهٌ وَٰحِدٌ وَإِنَّنِى بَرِىٓءٌ مِّمَّا تُشْرِكُونَ ﴿١٩﴾﴾.

هدى من الآيات:

إن كنت تبحث عن المصالح الحقيقية لذاتك أو لمجتمعك، فإن بيد الله سبحانه أزمّة الكون كله، فإذا مسَّك الله بضر لا يستطيع الناس ولو اجتمعوا أن ينقذوك منه -إلا بإذنه- وإن أنعم عليك نعمة، فإن الله وحده القادر على إبقاء أو إزالة النعم عنك.. وإن كنت تخشى طوفان الأحداث، وتبحث عن ركن شديد تأوي إليه، فإن الله هو القاهر فوق عباده ويدبر شؤونهم بحكمته وخبرته.. وإن كنت تبحث عن الحقيقة، فإن الله هو الحق، وهو أكبر شهيد.

بينات من الآيات:

وهو القاهر فوق عباده

[١٧] انك تحب نفسك وتبحث عن مأمن لها عن الشركاء، وتبحث عن مصدر الخير لها، فاعلم بأن الله هو الذي يقدر لك الخير والشر معاً، وانه لو قدر الله لك أمراً فإنه لا أحد يملك تغيير أقدار الله.

﴿وَإِن يَمْسَسْكَ ٱللَّهُ بِضُرٍّ فَلَا كَاشِفَ لَهُۥٓ إِلَّا هُوَ﴾ حين يصيبك المرض ويشتد حتى

تشعر بمسه. آنئذ يستيقظ ضميرك، ويتوجه إلى الله القادر على كشف المرض عنك، بينما قد تكون قبل ذلك غافلاً عن ربك.

﴿وَإِن يَمْسَسْكَ بِخَيْرٍ فَهُوَ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ﴾ وحين تشعر بلذة الخير الذي يهبط عليك من دون جهد كاف، هنالك لا تَطْغَ. لأن الله الذي قدر لك الخير قادر على أن يسلبه منك، كما أنه قادر على أن يزيدك خيراً، أو حتى على أن يحوله إلى سوء في النهاية..

والتعبير القرآني يؤكد على كلمة، المساس للدلالة على الضر الذي يشعر بألمه الفرد، والخير الذي يحس بلذته..

[١٨] والله يقهر عباده، ويخضعهم لمشيئته شاؤا أم أبوا. إنه يقدر لهم السبات فلا أحد منهم يغلب النوم على ذاته إلى ما لا نهاية، ويقدر عليهم الموت وهم كارهون، ويأخذهم على تطبيق أنظمة معينة في الحياة، لا يستطيعون الفرار منها: ﴿وَهُوَ ٱلْقَاهِرُ فَوْقَ عِبَادِهِۦ﴾ ولكن تقدير الله للبشر ليس عبثا، بل وفق حكمة بالغة، وخبرة أزلية.

﴿وَهُوَ ٱلْحَكِيمُ ٱلْخَبِيرُ﴾ فإذا علمت بأن الله القاهر، فلا تخف! لأن الله حكيم فإذا سلمت الأمور إليه، فإنه سيبلغك إلى شاطئ الأمان..

قل أيُّ شيءٍ أكبرُ شهادة

[١٩] تتلاحق الأحداث، وتترى الظواهر، وتجري سفينة الحياة في بحر عالي الموج، عاصف الريح، ولكن وراء تلك الظواهر أنظمة حكيمة تمسكها، والله من وراء تلك الأنظمة يمسك زمامها ويوجهها، فالله هو ضمير الكون -الذي لا يخلو منه مكان- تجد آثاره في قطرات المطر الزاخر، فتجد وراء كل قطرة -قدرته. حكمته. هيمنته. سلطانه. نعمته. رحمته. وفضله- والأرض حين تهش لقطرات المطر تشربها، وتحتضن حبات القمح تداعبها، حتى يتفجر الحقل روعة وخضرة ونعيماً، إن هناك يتجلى الله الحق.. في السماء، والأرض والدواب..

كل شيء شاهد على ذاته، الشجر يشهد على ذاته بالمساحة التي يأخذها من الأرض، ومن الفراغ، وبالثمر الذي يقدمه لك، ولكن الله لا يغيب عنه شيء، لأنه وراء كل شيء. إنه الذي يمسك كل شيء بما أعطاه من الحركة والفاعلية والسنن والأقدار، فالله شاهد على كل شيء، وحاضر عند كل شيء، وكل شيء آية له لأنه منه ومعه وإليه، فالله إذن أكبر شهادة من أي شيء: ﴿قُلْ أَيُّ شَيْءٍ أَكْبَرُ شَهَٰدَةً قُلِ ٱللَّهُ شَهِيدٌۢ بَيْنِي وَبَيْنَكُمْ﴾ إنه يدل على ذاته بذاته، ويدل على كل شيء، إنه يعطيك السمع والبصر والبصيرة، ويتجلى بآياته في مهرجان الحياة حتى تعيش معه في

كل لحظة ومع كل شيء. يبقى أنت الذي قد تغيب عن ربك (دون أن يغيب عنك) إنه قريب المسافة، بينك وبينه لحظة الالتفات والتوجه، ولكي لا تغيب عنه، ولكي تتكامل ذاتك إلى مستوى العيش مع ربك. أرسل الأنبياء، وزودهم بالكتاب لينذرك لأن الإنذار أقرب الطرق إلى قلب البشر إن البشر غافل بطبعه، وسلاح الخوف أفضل وسيلة لخرق حجب الغفلة عن قلبه.

﴿وَأُوحِيَ إِلَيَّ هَٰذَا ٱلْقُرْءَانُ لِأُنذِرَكُم بِهِۦ وَمَنۢ بَلَغَ ۚ أَئِنَّكُمْ لَتَشْهَدُونَ أَنَّ مَعَ ٱللَّهِ ءَالِهَةً أُخْرَىٰ ۚ قُل لَّآ أَشْهَدُ ۚ قُلْ إِنَّمَا هُوَ إِلَٰهٌ وَٰحِدٌ وَإِنَّنِي بَرِىٓءٌ مِّمَّا تُشْرِكُونَ﴾ إنني لا أرى أثراً يذكر لغير الله سبحانه، فكيف يمكنني أن أشرك بالله؟ إنني لا أشهد بغير الله، وإني أحارب بكل صراحة ما تشركون.

القرآن عصمة البشر

﴿ٱلَّذِينَ ءَاتَيْنَٰهُمُ ٱلْكِتَٰبَ يَعْرِفُونَهُۥ كَمَا يَعْرِفُونَ أَبْنَآءَهُمُ ٱلَّذِينَ خَسِرُوٓاْ أَنفُسَهُمْ فَهُمْ لَا يُؤْمِنُونَ ﴿٢٠﴾ وَمَنْ أَظْلَمُ مِمَّنِ ٱفْتَرَىٰ عَلَى ٱللَّهِ كَذِبًا أَوْ كَذَّبَ بِـَٔايَٰتِهِۦٓ ۗ إِنَّهُۥ لَا يُفْلِحُ ٱلظَّٰلِمُونَ ﴿٢١﴾ وَيَوْمَ نَحْشُرُهُمْ جَمِيعًا ثُمَّ نَقُولُ لِلَّذِينَ أَشْرَكُوٓاْ أَيْنَ شُرَكَآؤُكُمُ ٱلَّذِينَ كُنتُمْ تَزْعُمُونَ ﴿٢٢﴾ ثُمَّ لَمْ تَكُن فِتْنَتُهُمْ إِلَّآ أَن قَالُواْ وَٱللَّهِ رَبِّنَا مَا كُنَّا مُشْرِكِينَ ﴿٢٣﴾ ٱنظُرْ كَيْفَ كَذَبُواْ عَلَىٰٓ أَنفُسِهِمْ ۚ وَضَلَّ عَنْهُم مَّا كَانُواْ يَفْتَرُونَ ﴿٢٤﴾﴾.

هدى من الآيات:

الحق -كالركن الشديد- تعتمد عليه إذا اعترفت به وصدقته، أما الباطل فهو سراب، لا وجود له إلا في خيال من يؤمن به، فهو الذي يعتمد عليك، ويكلفك عناءه.

والقرآن حق تعرفه كما تعرف أبناءك، فكما أن أبناءك امتداد لشخصيتك، تستعين بهم في حياتك، كذلك القرآن انه من يكذب بالقرآن، أو يختلق لذاته كتاباً كاذباً يفقد هذه القدرة الهائلة ولا ينال السعادة بتلك الأكذوبة.

وفي الآخرة تتوضح الحقيقـة كاملة. إذ يضل عن الكفار الشركاء فلا ترى لهم أثراً، وآنئذ يتبرأ منهم المؤمنون وهم أيضاً يحلفون بالله أنهم لم يكونوا يؤمنون بهم، ولكن هل ينفعهم ذلك اليوم هذا التبري.. كلا.

حول هذه النقاط.. تتحدث آيات هذا الدرس.

بينات من الآيات:

علاقة القرآن بالشخصية الإنسانية

[٢٠] الكتاب نعمة من الله على المؤمنين، والمؤمنون يعرفون قدر الكتاب. إذ أنه بالنسبة إليهم كما أبنائهم، يعرفون انه حقيقة كما أن الأبناء حقيقة، وأن -ملامحه، بيناته ومتشابهاته، ناسخه ومنسوخه، بصائره وأحكامه- واضحة لهم، كما هي ملامح أبنائهم الذين هم أقرب الخلق إليهم، وأنه يزيدهم قوة وأملاً، كما الأبناء يزيدون الآباء قوة في الحاضر، وأملاً في المستقبل، وأهم من ذلك كله أن الأبناء هم امتداد لشخصية الأب، يجد الأب فيهم صورة ثانية من ذاته، ومرآة لقدراته وقيمه، وتحقيقاً لإرادته، وكذلك القرآن يبلور شخصية المؤمن، ويحقق ذاته، ويصبح إذا عرفه الإنسان صورة عن قيمه وتطلعاته ومستقبله.

من هنا فإن الكفر بالقرآن يساوي الكفر بالشخصية الإنسانية، وبالتالي يعني خسران الذات وفقدانها، انك حين تفقد -لا سمح الله- ابنك تشعر وكأنك قد خسرت جزءاً من ذاتك، بيد أنك حين تكفر بكتاب الله فإنك تخسر نفسك أيضاً ﴿ٱلَّذِينَ ءَاتَيْنَـٰهُمُ ٱلْكِتَـٰبَ يَعْرِفُونَهُۥ كَمَا يَعْرِفُونَ أَبْنَآءَهُمُ ٱلَّذِينَ خَسِرُوٓا۟ أَنفُسَهُمْ فَهُمْ لَا يُؤْمِنُونَ﴾.

ولكن كانوا انفسهم يظلمون

[٢١] حين يكذب المرء بآيات الله لا يعيش في فراغ، بل يبحث عن أراجيف يؤمن بها وكأنها آيات من الله، بل ويبدأ المرء في خلق الأراجيف، أو تقليد آبائه أو مجتمعه في الإيمان بها، وافترائها على الله، ثم يكفر بآيات الله الصحيحة، وبذلك يكون أظلم الناس، إذ قد يكون مجمل سلوك الشخص صحيحاً، ولكنه ينحرف في جانب من حياته، أو في بعض الأوقات فحسب، أما من يتخذ مسيرة منحرفة ويؤمن بنهج خاطئ، فإنه لا يخطو خطوة إلا ويبتعد عن الحق بقدرها، ويظلم نفسه والآخرين، وإذا كان الظالم لا يسعد بالظلم فكيف بهذا الذي يبني كل حياته على الظلم من بدايتها حتى نهايتها؟! ﴿وَمَنْ أَظْلَمُ مِمَّنِ ٱفْتَرَىٰ عَلَى ٱللَّهِ كَذِبًا أَوْ كَذَّبَ بِـَٔايَـٰتِهِۦٓ ۗ إِنَّهُۥ لَا يُفْلِحُ ٱلظَّـٰلِمُونَ﴾.

[٢٢] الحق تعيش عليه، والباطل يعيش عليك، فأنت الذي تصنع الباطل، وتجهد نفسك في الدفاع عنه، ولكنه يزول دون أن ينفعك في ساعة العسرة، بينما الحق يبقى ينصرك دون عناء منك.

وعندما تبلى السرائر في يوم القيامة وتتعرى الحقائق. آنئذ تكتشف أن الباطل يضيع عنك، فلا تجد له أمراً -وكذلك كان في الدنيا- إلا أن أهل الباطل يخلقون الباطل بأساطيرهم وبخيالاتهم، فيزعمون: انه موجود فعلاً، كما لو أنك ترى سراباً في الصحراء تحسبه ماء، وإنما هو سراب، لا وجود له إلا في بؤبؤة عينيك.

﴿ وَيَوْمَ نَحْشُرُهُمْ جَمِيعًا ثُمَّ نَقُولُ لِلَّذِينَ أَشْرَكُوٓا۟ أَيْنَ شُرَكَآؤُكُمُ ٱلَّذِينَ كُنتُمْ تَزْعُمُونَ ﴾ فيلتفت المبطل يمنة ويسرة فلا يجد لهم أثراً..

[٢٣] آنئذ يتراجع عن شركائه، ويحلف بالله: انه لم يتخذهم بديلاً عن الله وعن الحق!.

﴿ ثُمَّ لَمْ تَكُن فِتْنَتُهُمْ إِلَّآ أَن قَالُوا۟ وَٱللَّهِ رَبِّنَا مَا كُنَّا مُشْرِكِينَ ﴾ هكذا خدعوا وضلوا وأضلوا. هذه كانت نتيجة ضلالتهم وفتنتهم وخداعهم. إنهم يتبرءون من الشركاء. إذن لماذا لا يتبرؤن عنها اليوم. وقبل فوات الوقت؟!.

[٢٤] وكانت عاقبة هؤلاء أنهم كفروا بالباطل الذي كانوا يؤمنون به، وحلفوا الأيمان المغلظة أنهم لم يكونوا -حتى في السابق- يؤمنون به، أما الباطل فقد ضل عنهم، ولم يبق له أثر ﴿ ٱنظُرْ كَيْفَ كَذَبُوا۟ عَلَىٰٓ أَنفُسِهِمْ ﴾ بالأمس كانوا متحمسين للباطل، والآن ينكرونه، ويكذبون على أنفسهم بهذه الأفكار ﴿ وَضَلَّ عَنْهُم مَّا كَانُوا۟ يَفْتَرُونَ ﴾ دعنا إذن لا نخلق أصناماً نؤمن بها، ولا نفتري على الله أفكاراً باطلة ندان بها.

حينما تكون القلوب في اكنة

﴿وَمِنْهُم مَّن يَسْتَمِعُ إِلَيْكَ وَجَعَلْنَا عَلَىٰ قُلُوبِهِمْ أَكِنَّةً[1] أَن يَفْقَهُوهُ وَفِي آذَانِهِمْ وَقْرًا[2] وَإِن يَرَوْا كُلَّ آيَةٍ لَّا يُؤْمِنُوا بِهَا حَتَّىٰ إِذَا جَاءُوكَ يُجَادِلُونَكَ يَقُولُ الَّذِينَ كَفَرُوا إِنْ هَٰذَا إِلَّا أَسَاطِيرُ الْأَوَّلِينَ (٢٥) وَهُمْ يَنْهَوْنَ عَنْهُ وَيَنْأَوْنَ[3] عَنْهُ وَإِن يُهْلِكُونَ إِلَّا أَنفُسَهُمْ وَمَا يَشْعُرُونَ (٢٦) وَلَوْ تَرَىٰ إِذْ وُقِفُوا عَلَى النَّارِ فَقَالُوا يَا لَيْتَنَا نُرَدُّ وَلَا نُكَذِّبَ بِآيَاتِ رَبِّنَا وَنَكُونَ مِنَ الْمُؤْمِنِينَ (٢٧) بَلْ بَدَا لَهُم مَّا كَانُوا يُخْفُونَ مِن قَبْلُ وَلَوْ رُدُّوا لَعَادُوا لِمَا نُهُوا عَنْهُ وَإِنَّهُمْ لَكَاذِبُونَ (٢٨)﴾.

هدى من الآيات:

في سياق الآيات التي توضح عوامل الكفر النفسية، يأتي هذا الدرس ليبين: أن مجرد الاستماع إلى الحق لا يكفي للإيمان به، إذ أن المهم هو قلب الإنسان الذي لو لم يَزْكُ من عوامل الانحراف فإن أذنه تثقل، وعينه لا تبصر، ولسانه لا يلهج إلا بالجدل والبهتان -فمثلاً- لا يفرق صاحب القلب المريض بين الرسالة الجديدة، وبين الأساطير القديمة، وهؤلاء لا يبتعدون عن الحق فقط، بل وينهون الناس عنه وهم لا يعرفون قيمة الحق، وأنه يساوي أنفسهم.

وفي يوم القيامة يدين هؤلاء أنفسهم على فعلتهم السابقة والتي تمثلت في الكفر بالحق بالرغم من وضوحه أمامهم، ولو ردوا إلى الدنيا لعادوا إلى كفرهم، والسبب هو أن الكفر ليس نتيجة غموض في الحق، أو عدم صحة آياته، بل هو نابع من مرض في قلوبهم وما دام المرض موجوداً فإن التوبة الظاهرية لا تكفي.

---

(١) أكنّة: الأكنة جمع كنان، وهو ما وقى شيئاً وستره، واستكن الرجل من الحر، واكتن استتر.
(٢) وقراً: الوقر الثقل في الأذن، والوقر بكسر الواو الحمل.
(٣) ينأون: النأي البعد، ومنه أخذ النوى وهو الحاجز حول البيت لئلا يدخله الماء.

بينات من الآيات:

العوامل النفسية للكفر

[٢٥] بالرغم من أن الإنسان يملك العقل والسمع والبصر، وبالرغم من أن آيات الحق وعلاماته ودلائله واضحة للعقل، فإن ذلك لا يكفي في إيمان الشخص بالحقيقة، إذ أن هناك إرادة حرة فوق العقل، توجه العقل والإحساس، وفي الطرف الآخر هناك النفس البشرية المليئة بالعواطف والعقد والأمراض. من حب الذات، إلى الاهتمام بالمجتمع، إلى الاسترسال مع التقاليد.

فإذا اختار البشر بإرادته الحرة جانب النفس وأهوائها وعقدها وتقاليدها وأمراضها، فإنها سوف تلغي دور العقل عنده، وتسد منافذ الإحساس لديه، وتغلف قلبه بكثافة حتى لا يتسرب إليه نور الحقيقة.

﴿وَمِنْهُم مَّن يَسْتَمِعُ إِلَيْكَ وَجَعَلْنَا عَلَىٰ قُلُوبِهِمْ أَكِنَّةً أَن يَفْقَهُوهُ﴾ إذ أن الإحساس وحده لا يكفي، فقد تسمع آية ولكنك بحاجة إلى قلب متفتح حتى تؤمن بها، فمثلاً إنك بحاجة إلى عدم الإيمان المسبق بكذب الآية، وإلا فإنك لا ترى حاجة للتفكير فيها، وبحاجة إلى سكينة نفسية، وهدوء داخلي يسمح لك بالتفكير في الآية، وكل ذلك غير موجود عند الكافر.

بل قد يتسبب الكفر في أن يتبلد إحساس الشخص أيضاً، فيشعر أن في أذنه وقراً، وفي عينيه ضعفاً، إذ ما دام القلب مغلقاً عن فهم الحقيقة، فإنه لا يشعر بحاجة إلى استخدام الإحساس.

﴿وَفِي آذَانِهِمْ وَقْرًا﴾ أي ثقلاً لا يمكنهم أن يسمعوا بوضوح.

﴿وَإِن يَرَوْا كُلَّ آيَةٍ لَّا يُؤْمِنُوا بِهَا حَتَّىٰ إِذَا جَاءُوكَ يُجَادِلُونَكَ يَقُولُ الَّذِينَ كَفَرُوا إِنْ هَٰذَا إِلَّا أَسَاطِيرُ الْأَوَّلِينَ﴾ إن القلب المغلق يجعل أحاسيسه في خدمة انغلاقه، وأفكاره الميتة، فالأذن تثقل عن سماع الحقيقة، والعين تعمى عنها، واللسان يجادل ويغالط فيها.

[٢٦] الحق هو ضمان حياة النفس، وتحقيق الذات يتحول في عين هؤلاء إلى بعبع ينهون الناس عنه، ويبعدون عنه بأنفسهم، وبذلك يخسرون ما به حياتهم وشخصيتهم واستمرار كيانهم.

﴿وَهُمْ يَنْهَوْنَ عَنْهُ وَيَنْأَوْنَ عَنْهُ وَإِن يُهْلِكُونَ إِلَّا أَنفُسَهُمْ وَمَا يَشْعُرُونَ﴾ لا يشعرون أي خسارة كبرى تلحقهم بابتعادهم عن الحق.

على شفير الهاوية

[٢٧] وحين يمس المكذبين العذاب يدركون مدى الخسارة التي لحقتهم بترك الحق.

﴿وَلَوْ تَرَىٰٓ إِذْ وُقِفُواْ عَلَى ٱلنَّارِ فَقَالُواْ يَٰلَيْتَنَا نُرَدُّ وَلَا نُكَذِّبَ بِـَٔايَٰتِ رَبِّنَا وَنَكُونَ مِنَ ٱلْمُؤْمِنِينَ﴾ حين يشتد المرض بابنك البكر، ويشرف على الهلاك، يعمل آنئذ فكرك بسلامة بعيداً عن مؤثرات الخطأ فمثلاً: آنئذ لا تفكر في أن الدكتور القريب من بيتك صديقك، وأنك تستحي منه، ولهذا تفضله -مثل سائر الأوقات- على غيره من الأطباء، ولا تزعم أن طبيب الأسرة الذي تعودت عليه خير من غيره، ولا تنظر إلى أقوال الناس فتتبعهم بالرغم من علمك بأنهم لا يعقلون، بل تبحث عن طبيب حاذق يخرج مريضك من دائرة الخطر حتى ولو كان عدوك، فإنك تذهب إليه صاغراً ذلك لأنك آنئذ تبحث فقط وفقط عن الحقيقة. بعيداً عن أي اعتبار آخر.

[٢٨] وحين يشافي الله ابنك من المرض الخطير، فإن كل تلك الاعتبارات السخيفة تعود إليك. لماذا؟ لأنها راسخة في ذهنك، وما استطعت أن تنظف نفسك من آثارها، كذلك حال الكفار حين يقفون على النار يتمنون لو يعودون إلى الدنيا، فيصححون أخطاءهم، ولكن هل يفعلون ذلك. كلا.

﴿بَلْ بَدَا لَهُم مَّا كَانُواْ يُخْفُونَ مِن قَبْلُ﴾ أي ظهرت لهم الحقائق التي أخفوها عن أنفسهم وعن الناس تعمداً ﴿وَلَوْ رُدُّواْ لَعَادُواْ لِمَا نُهُواْ عَنْهُ وَإِنَّهُمْ لَكَٰذِبُونَ﴾ إذ أن نفوسهم مريضة ولا تزال تعاني من انغلاق، فلا بد إذن من تطهيرها، وفتح منافذها على نور الحقيقة.

حينما يقصر النظر

﴿وَقَالُوٓاْ إِنْ هِىَ إِلَّا حَيَاتُنَا ٱلدُّنْيَا وَمَا نَحْنُ بِمَبْعُوثِينَ ﴿٢٩﴾ وَلَوْ تَرَىٰٓ إِذْ وُقِفُواْ عَلَىٰ رَبِّهِمْ ۚ قَالَ أَلَيْسَ هَٰذَا بِٱلْحَقِّ ۚ قَالُواْ بَلَىٰ وَرَبِّنَا ۚ قَالَ فَذُوقُواْ ٱلْعَذَابَ بِمَا كُنتُمْ تَكْفُرُونَ ﴿٣٠﴾ قَدْ خَسِرَ ٱلَّذِينَ كَذَّبُواْ بِلِقَآءِ ٱللَّهِ ۖ حَتَّىٰٓ إِذَا جَآءَتْهُمُ ٱلسَّاعَةُ بَغْتَةً(١) قَالُواْ يَٰحَسْرَتَنَا(٢) عَلَىٰ مَا فَرَّطْنَا(٣) فِيهَا وَهُمْ يَحْمِلُونَ أَوْزَارَهُمْ(٤) عَلَىٰ ظُهُورِهِمْ ۚ أَلَا سَآءَ مَا يَزِرُونَ ﴿٣١﴾﴾

هدى من الآيات:

إن النظرة القاصرة التي تحصر حياة الإنسان بالدنيا. إنها مسؤولة إلى حد بعيد عن كفر الإنسان بالحق، وفوق ذلك إن أمام عين البشر غشاوة من زينة وشهوات تمنعه عن الإيمان بالآخرة، ولكن ألا يتصور البشر أنه غداً حين يواجه الحق بكل عنفه وقدرته وهيمنته..

فماذا يمكن أن يفعل حين يقف أمام الله ليرى النار اللاهبة؟!. حينها يندم على تكذيبه في الدنيا للقاء ربه في الآخرة، وحينها يجر آهات الحسرة على ماضيه الذي خسره، ويثقل ظهره بذنوبه.

بينات من الآيات:

[٢٩] دعنا نعقل الحقيقة قبل فوات الأوان. الحقيقة هي أن الدار الدنيا ليست سوى

(١) بغتة: كل شيء أتى فجاةً فقد بغت.
(٢) يا حسرتنا: الحسرة شدة الندم.
(٣) ما فرطنا: التفريط التقصير وأصله التقديم، والإفراط التقديم في مجاوزة الحد، والتفريط التقديم في العجز والتقصير.
(٤) أوزارهم: الوزر الثقل واشتقاقه من الوزر وهو الحبل الذي يعتصم به، ومنه قيل وزر فهو موزور إذا فعل به ذلك، وحيث أن الذنوب ثقلٌ تسمى أوزاراً.

لعب ولهو وما الحياة الحقيقية إلا في الآخرة لمن اتقى ربه من هنا قال ربنا سبحانه: ﴿وَقَالُوٓاْ إِنْ هِىَ إِلَّا حَيَاتُنَا ٱلدُّنْيَا وَمَا نَحْنُ بِمَبْعُوثِينَ﴾ وهذه كما سبق -وإن قلنا- أصل الفساد الفكري عند الإنسان..

كيف تستوعب الغيب؟

[٣٠] إذا قدمت إليك تفاحة، فـأردت أن تعرفها جيداً، فلابد أنك تقلبها من أطرافها، وإذا فكرت في شراء بيت فإنك تتفقد جميع جوانبه، أما إذا أردت التعرف على حادثة اجتماعية أو ظاهرة طبيعية، فإن عليك أن تبحث عن مبتدئها ونهايتها، عن أولها وآخرها، فلرب حادثة أولها خير وعاقبتها شر، ولرب ظاهرة تبدأ نافعة وتنتهي ضارة مفسدة، والعكس صحيح، كذلك الحياة لا تعرف بنيانها، ومرسى سفينتها، وساعة قيامتها، وكل حادثة أو ظاهرة تدخل ضمن إطار الحياة تقاس هي الأخرى بهذا الميزان. أي بنهاية الدنيا. ذلك أن مصير ركاب السفينة متعلق بمصير السفينة. كذلك سفينة الحياة تتعلق بها كل الحوادث التي تقع ضمنها.

والقرآن الحكيم يدعنا أبداً نتصور نهاية الحياة لنعرف بدقة أكثر ذات الحياة، وما بها من أحداث، وبالتالي ليكون لدينا مقياس نستطيع أن نحكم بسببه على الاحداث حكماً سليماً.

والسؤال: لماذا يستخدم القرآن أسلوب التصوير في هذا الجانب؟.

الجواب: لأننا من الناحية العلمية قد نكون مقتنعين بالغيب وبالعاقبة أو حتى بالقيامة ولكن ثقل الشهود وحضور الأحداث والظواهر التي نعايشها الآن تمنعنا عن التوجه إلى الآخرة، وهنا نحتاج إلى قوة التصور لنعبر فوق جسره إلى شاطئ الغيب، هناك حيث لا يثقل أحاسيسنا حضوره الفعلي، لذلك تجد القرآن يقول هنا: ﴿وَلَوْ تَرَىٰٓ إِذْ وُقِفُواْ عَلَىٰ رَبِّهِمْ ۚ قَالَ أَلَيْسَ هَٰذَا بِٱلْحَقِّ ۚ قَالُواْ بَلَىٰ وَرَبِّنَا ۚ قَالَ فَذُوقُواْ ٱلْعَذَابَ بِمَا كُنتُمْ تَكْفُرُونَ﴾.

إنك حين تقف فوق تل مشرفاً على رابية، يمتد بصرك إلى أبعاد الرابية وأطرافها، وتصبح وكأن الرابية ورقة في يدك.

وفي يوم القيامة حين نشهد آيات ربنا، هنا جهنم تلتهب ناراً وعذاباً، وهنالك الجنة تنبسط بنعيمها وجمالها، وهنا الميزان الحق، وهناك الكتاب الذي أحصى كل شيء. آنئذ نقف على ربنا، وتكرهنا القضايا الساخنة على الإيمان به، ويستشهدنا الله على نفسه تعالى:

﴿قَالَ أَلَيْسَ هَٰذَا بِٱلْحَقِّ ۚ﴾؟!.

﴿قَالُواْ بَلَىٰ وَرَبِّنَاۚ﴾.

﴿قَالَ فَذُوقُواْ ٱلْعَذَابَ بِمَا كُنتُمْ تَكْفُرُونَ﴾ إنه الحق الذي سوف نضطر إلى الإيمان به يوماً ما، فلماذا لا نؤمن به الآن حتى ينفعنا إيماننا، لماذا نكفر به، لنذوق العذاب إذن؟.

شيء من الواقع

[٣١] إن التكذيب بالمعاد يشوش على البشر رؤية الحقائق في الدنيا، ويدفعه إلى التكذيب بالحقائق جميعاً، ويكون مثله كمن يكذب بالموت ويرى أنه لن يموت، فهو يكذب بآثار مرض السرطان، يتورم جسمه فيقول: كلا إنه لا يدل على الموت المرتقب،. يتألم جسمه ويحرقه، ولكنه يصر قائلاً: ليس ذاك دليلاً على الانتهاء، فيؤكد له الطبيب وسائر العقلاء ذلك، ولكنه يصر مستكبراً على قوله. ذلك لأنه لم ينظم زاوية فكره وفق الموت الحق، فاختلطت عليه الحقائق جميعا. كذلك الذي لا يؤمن بلقاء الله يكفر بكل شيء حتى يخسر نفسه نهائياً.

﴿قَدْ خَسِرَ ٱلَّذِينَ كَذَّبُواْ بِلِقَآءِ ٱللَّهِۖ حَتَّىٰٓ إِذَا جَآءَتْهُمُ ٱلسَّاعَةُ بَغْتَةً قَالُواْ يَٰحَسْرَتَنَا عَلَىٰ مَا فَرَّطْنَا فِيهَا وَهُمْ يَحْمِلُونَ أَوْزَارَهُمْ عَلَىٰ ظُهُورِهِمْۚ﴾ وزر التكذيب بالآخرة، ووزر الأعمال السيئة التي ارتكبوها بهذا السبب ﴿أَلَا سَآءَ مَا يَزِرُونَ﴾.

كيف تحدى الرسل إعراض الجاحدين؟

﴿وَمَا ٱلْحَيَوٰةُ ٱلدُّنْيَآ إِلَّا لَعِبٌ وَلَهْوٌ وَلَلدَّارُ ٱلْـَٔاخِرَةُ خَيْرٌ لِّلَّذِينَ يَتَّقُونَ أَفَلَا تَعْقِلُونَ ﴿٣٢﴾ قَدْ نَعْلَمُ إِنَّهُۥ لَيَحْزُنُكَ ٱلَّذِى يَقُولُونَ فَإِنَّهُمْ لَا يُكَذِّبُونَكَ وَلَٰكِنَّ ٱلظَّٰلِمِينَ بِـَٔايَٰتِ ٱللَّهِ يَجْحَدُونَ ﴿٣٣﴾ وَلَقَدْ كُذِّبَتْ رُسُلٌ مِّن قَبْلِكَ فَصَبَرُوا۟ عَلَىٰ مَا كُذِّبُوا۟ وَأُوذُوا۟ حَتَّىٰٓ أَتَىٰهُمْ نَصْرُنَا وَلَا مُبَدِّلَ لِكَلِمَٰتِ ٱللَّهِ وَلَقَدْ جَآءَكَ مِن نَّبَإِى۟ ٱلْمُرْسَلِينَ ﴿٣٤﴾ وَإِن كَانَ كَبُرَ عَلَيْكَ إِعْرَاضُهُمْ فَإِنِ ٱسْتَطَعْتَ أَن تَبْتَغِىَ نَفَقًا[1] فِى ٱلْأَرْضِ أَوْ سُلَّمًا[2] فِى ٱلسَّمَآءِ فَتَأْتِيَهُم بِـَٔايَةٍ وَلَوْ شَآءَ ٱللَّهُ لَجَمَعَهُمْ عَلَى ٱلْهُدَىٰ فَلَا تَكُونَنَّ مِنَ ٱلْجَٰهِلِينَ ﴿٣٥﴾﴾.

هدى من الآيات:

لكي يبقى المؤمن جبلاً أشمّا يتحدى الصعاب، لابد أن يعرف حقيقة الدنيا التي ما هي سوى لعب ولهو، أما دار الإقامة الدائمة فهي الآخرة، ومن ذلك أن قلب الرسول يجب ألا يتأثر بسبب كفر المشركين الذي يجحدون بآيات الله حين يكذبون به، وهدفهم ليس الرسول بقدر ما هو الحق والإيمان، وكما يكذب الظالمون اليوم بالرسول ﷺ فأن رسل الله السابقين قد كذبوا أيضاً، ولكنهم صبروا حتى أتاهم نصر الله.

وهل هناك حيلة أخرى للرسول في الأمر. هل يسلك نفقا في الأرض، أو يصعد بسلم إلى السماء ليأتيهم بآية، ولو فعل ذلك فهل ينفعهم؟! علما بأن الله لا يريد أن يجبرهم على الهدى،

(١) نفقاً: النفق سربٌ في الأرض له مخلص إلى مكان آخر، وأصله الخروج، ومنه المنافق لخروجه من الإيمان إلى الكفر.

(٢) سُلّماً: السُلم الدرج وهو مأخوذ من السلامة.

ولو شاء لفعل ذلك بقدرته التامة.

بينات من الآيات:

واقع الحياة وحقيقة الآخرة

[٣٢] هل نستطيع أن نحدد هدفاً معقولاً للحياة الدنيا لو لم نجعلها مقدمة للآخرة، وعموما هل نستطيع أن نخطط لهذه الحياة التي تنتهي في أية لحظة، وربما دون تحذير مسبق، وتتفاعل فيها عوامل ومؤثرات غير محدودة؟.

إن كانت الحياة الدنيا تمهيداً للآخرة، ودورة تدريبية لتكامل البشر، لإعداده لدخول الجنة خالداً فيها، فإن كل ما فيها سوف يصبح معقولاً وحكيماً، وتكون الآخرة لا الدنيا هي الدار الدائمة للإقامة، ولكنها لا تكون إلا لمن اتقى في الدنيا.

﴿وَمَا ٱلْحَيَوٰةُ ٱلدُّنْيَآ إِلَّا لَعِبٌ وَلَهْوٌ﴾ اللعب هو العمل بوعي وهدف، ولكن دون هدف حكيم، أما اللهو فإنه من دون وعي أو هدف.

﴿وَلَلدَّارُ ٱلْءَاخِرَةُ خَيْرٌ لِّلَّذِينَ يَتَّقُونَ أَفَلَا تَعْقِلُونَ﴾ العقل يحكم بأن الدنيا ليست بدار الإقامة، وأنها ليست هدفاً نهائيًا للبشرية.

لماذا الحزن؟

[٣٣] إذا كانت الدنيا قاعة امتحانات يتخرج منها المتقون بنجاح، ويستلمون شهادة الإيمان، وبطاقة دخول الجنة، فعلينا ألا نحزن لإعراض الظالمين الذين يعادون الرسول، وقبل الرسول يعادون الحق، ويجحدون بآيات الله، وبالتالي يظلمون أنفسهم فلماذا نحزن عليهم؟!.

﴿قَدْ نَعْلَمُ إِنَّهُۥ لَيَحْزُنُكَ ٱلَّذِى يَقُولُونَ﴾ من التكذيب بك وبرسالتك، ولكن مهلاً.

﴿فَإِنَّهُمْ لَا يُكَذِّبُونَكَ وَلَٰكِنَّ ٱلظَّٰلِمِينَ بِـَٔايَٰتِ ٱللَّهِ يَجْحَدُونَ﴾ مع علم مسبق بأنه حق، فلا ينبغي الجزم عليهم ولا بسببهم.

[٣٤] وللرسول في الرسل السابقين أسوة حسنة، فكم قد كذبوا وكم أوذوا، ولكنهم صبروا حتى جاءهم نصر الله، وتلك هي سنة الله لا تبديل لها، وتلك هي كلمته التي لا تبديل فيها وها هي أنباء الرسل تذكر للرسول في القرآن ليتخذ منها عبراً كافية.

﴿وَلَقَدْ كُذِّبَتْ رُسُلٌ مِّن قَبْلِكَ فَصَبَرُوا۟ عَلَىٰ مَا كُذِّبُوا۟ وَأُوذُوا۟ حَتَّىٰٓ أَتَىٰهُمْ نَصْرُنَا ۚ وَلَا مُبَدِّلَ لِكَلِمَـٰتِ ٱللَّهِ ۚ﴾ ومنها هذه الكلمة أن صاحب الرسالة حين يتعرض للصعاب ويصبر، فإن الله ينصره بالتالي ﴿وَلَقَدْ جَآءَكَ مِن نَّبَإِى۟ ٱلْمُرْسَلِينَ﴾.

[٣٥] وماذا يمكن أن يفعله الرسول ما دام الظالمون يجحدون بآيات الله بعد اليقين بصدقها ظلماً لأنفسهم، فهل يسلك طريقاً في الأرض خارقاً للعادة، أو يصعد إلى السماء بسلم، ثم يأتيهم بآية، أو ليست الآيات الهابطة كافية لهم لو كانوا يريدون الإيمان بالله وبرسالاته؟!.

﴿وَإِن كَانَ كَبُرَ عَلَيْكَ إِعْرَاضُهُمْ﴾ وكان ذلك عظيماً في عينك.

﴿فَإِنِ ٱسْتَطَعْتَ أَن تَبْتَغِىَ نَفَقًا فِى ٱلْأَرْضِ أَوْ سُلَّمًا فِى ٱلسَّمَآءِ فَتَأْتِيَهُم بِـَٔايَةٍ ۚ﴾ أي تفتش عن طريق تحت الأرض أو فوق السماء من أجل الحصول على آية خارقة لكي يؤمنوا بها، فإن استطعت أن تفعل ذلك فافعل، فهل فيها فائدة؟

نعم هناك سبيل واحد لهداية هؤلاء، وهو أن يجبرهم ربهم على الهدى، ولكن هل يفعل ربنا ذلك؟ كلا.. لأنه لو شاء لفعل ذلك بأهل الأرض جميعاً.. ﴿وَلَوْ شَآءَ ٱللَّهُ لَجَمَعَهُمْ عَلَى ٱلْهُدَىٰ ۚ فَلَا تَكُونَنَّ مِنَ ٱلْجَـٰهِلِينَ﴾ الذين يريدون تحقيق شيء معين بالرغم من سنن الله وحكمته، وأنظمة الكون التي جعلها الله، إن عليك أن تتحرك في حدود هذه السنن القائمة، والأنظمة السائدة في الكون.

هكذا يستجيب المستمع، ويضل الأصم

﴿إِنَّمَا يَسْتَجِيبُ الَّذِينَ يَسْمَعُونَ وَالْمَوْتَى يَبْعَثُهُمُ اللَّهُ ثُمَّ إِلَيْهِ يُرْجَعُونَ (٣٦) وَقَالُوا لَوْلَا نُزِّلَ عَلَيْهِ آيَةٌ مِنْ رَبِّهِ قُلْ إِنَّ اللَّهَ قَادِرٌ عَلَى أَنْ يُنَزِّلَ آيَةً وَلَكِنَّ أَكْثَرَهُمْ لَا يَعْلَمُونَ (٣٧) وَمَا مِنْ دَابَّةٍ فِي الْأَرْضِ وَلَا طَائِرٍ يَطِيرُ بِجَنَاحَيْهِ إِلَّا أُمَمٌ أَمْثَالُكُمْ مَا فَرَّطْنَا فِي الْكِتَابِ مِنْ شَيْءٍ ثُمَّ إِلَى رَبِّهِمْ يُحْشَرُونَ (٣٨) وَالَّذِينَ كَذَّبُوا بِآيَاتِنَا صُمٌّ وَبُكْمٌ فِي الظُّلُمَاتِ مَنْ يَشَإِ اللَّهُ يُضْلِلْهُ وَمَنْ يَشَأْ يَجْعَلْهُ عَلَى صِرَاطٍ مُسْتَقِيمٍ (٣٩)﴾.

هدى من الآيات:

حين يعطب جهاز الاستقبال، فإن كثافة الأمواج لا تزيده إلا عطباً، وحين يموت قلب الإنسان فإن المزيد من الدلائل لاتنفع صاحبها. إنك ترى الكفار يطالبون بالمزيد من الآيات، والمشكلة ليست في قدرة الله على أن ينزل المزيد منها، ولكن المشكلة في فائدة الآيات للذين تعطل عندهم جهاز الفهم، إن نظرة واحدة إلى الحياة وما فيها من دابة، أو طائر في السماء لا فرق، تكفينا دليلاً على عظمة الخالق، حيث أنها جميعاً تسير وفق نظام اجتماعي معين، وتنتهي إلى الله، ولكن هل تكفي هذه الآيات العظيمة لأولئك الذين فقدوا القدرة على التعبير لأنهم فقدوا السماع والتفاعل مع الحياة الحقيقية؟! إنهم صمٌّ بكمٌ يعيشون في ظلمات الجهل والجهالة، لأن الله سلب منهم نعمة العلم والهداية (بعد أن رفضوا الانتفاع بها) فتاهوا في صحراء الضلالة، أما الصالحون فقد هداهم الله إلى الصراط المستقيم الذي يسير بهم إلى أهدافهم السامية من أقرب الطرق.

بينات من الآيات:

حينما يكون الإنسان أصماً

[٣٦] لقد زود الله عباده جميعاً بالفهم، فالكل زود مثلاً بالسمع، ولكن البعض منهم فقط هو الذي يسمع. أي ينتفع بوسيلة السمع، لأنه يريد ذلك، وحين يسمع المرء نداء ربه إلى الخير يستجيب لهذا النداء، فيعمل بها يأمره الله، أما حين يموت القلب وتسترخي الإرادة، ويتعطل جهاز السمع، فإن الأمل مفقود في هداية الإنسان آنئذ. إلا إذا شاء الله ذلك بمشيئته الخارقة لسنن الطبيعة، ولكن هل يفعل ذلك ربنا في الدنيا. أم أن الله إنها يهدي الناس للحقائق بهذه الصورة في الآخرة حين يحشرهم جميعاً ليحاسبهم. آنئذ لا تنفع الهداية شيئاً ﴿۞إِنَّمَا يَسْتَجِيبُ ٱلَّذِينَ يَسْمَعُونَ وَٱلْمَوْتَىٰ يَبْعَثُهُمُ ٱللَّهُ ثُمَّ إِلَيْهِ يُرْجَعُونَ﴾.

[٣٧] ولا يزال الكفار يطالبون بالمزيد من الآيات، والله قادر على أن يستجيب لطلبهم، ولكن ماذا ينفعهم ما داموا فاقدين لجهاز العلم؟!.

﴿وَقَالُواْ لَوْلَا نُزِّلَ عَلَيْهِ ءَايَةٌ مِّن رَّبِّهِۦ قُلْ إِنَّ ٱللَّهَ قَادِرٌ عَلَىٰٓ أَن يُنَزِّلَ ءَايَةً﴾ كما أنزل الآيات السابقة، بيد أن المشكلة ليست في قلة أو كثرة الآيات، بل في العلم بها، فلو كانت عين الفرد عمياء.. فهل تنفع إضاءة المزيد من المصابيح ﴿وَلَٰكِنَّ أَكْثَرَهُمْ لَا يَعْلَمُونَ﴾.

[٣٨] والدليل على أن العبرة ليست في زيادة الآيات، بل في العلم بها وإدراك ما وراءها من حقائق.. الدليل الأحياء الذين لو أمعنت النظر في حياتهم لرأيت أمة مثل البشر، لهم نظامهم وعلاقاتهم وأهدافهم في الحياة، ثم إنهم كما البشر يحشرون إلى ربهم، أفلا تكفي تلك الآيات العظيمة، ولكن قليلاً من الناس يفهمون هذه الآيات؟! لذلك يقول ربنا: ﴿وَمَا مِن دَآبَّةٍ فِي ٱلْأَرْضِ﴾ أي ما من متحرك من الأحياء، النملة وأصغر منها، والفيل وأكبر منه.

﴿وَلَا طَٰٓئِرٍ يَطِيرُ بِجَنَاحَيْهِ﴾ أي كل طائر في السماء، وإنما ذكرت كلمة يطير بجناحيه هنا للدلالة على التعميم، كما ذكرت كلمة في الأرض هنا لنفس السبب.

﴿إِلَّآ أُمَمٌ أَمْثَالُكُم﴾ إلا أمم مثل سائر الأمم البشرية، لها أنظمتها وقوانينها، وسيدها ومسودها.

﴿مَّا فَرَّطْنَا فِي ٱلْكِتَٰبِ مِن شَيْءٍ﴾ إن الكتاب هو كتاب الله، والله لا يبالغ ولا يتطرف في كلامه، بل إن كلامه تعبير دقيق عن الحق دون زيادة أبداً، لأن الحق الذي خلقه الله، ويعلم أبعاده أكبر بكثير من المقدار المناسب لفهم الإنسان، على أن فهم الإنسان عظيم، وإن هذه الأمم

تسير وفق نظام قدرة الله في الدنيا أما في الآخرة: ﴿ثُمَّ إِلَىٰ رَبِّهِمْ يُحْشَرُونَ﴾ والذين كذبوا في الظلمات.

[٣٩] هذه آيات الله منتشرة في الكون، فمن ينكرها ومن يكذب بها؟.

إنما يكذب بها من فقد تفاعله مع الحياة. فهو أصم وأبكم يعيش في ظلمات لا يرى شيئاً ﴿وَالَّذِينَ كَذَّبُوا بِآيَاتِنَا صُمٌّ وَبُكْمٌ فِي الظُّلُمَاتِ﴾ الظلمات هنا هي: الجهل والجهالة والشهوات، وكل واحدة منها حجاب بين الإنسان وبين الحقيقة، والله سبحانه هو الذي يزود الإنسان بنور الهداية، ومستحيل أن يصل الإنسان إلى الهداية من دون التوسل به، فبدون السعي للهداية يترك الله الإنسان لنفسه فتضل. وتخلية الله للإنسان مساوية للإضلال لعدم الاستغناء عن توفيقه تعالى: ﴿مَن يَشَإِ اللَّهُ يُضْلِلْهُ وَمَن يَشَأْ يَجْعَلْهُ عَلَىٰ صِرَاطٍ مُّسْتَقِيمٍ﴾.

هكذا ترفع المآسي حجب الضلال

﴿ قُلْ أَرَءَيْتَكُمْ إِنْ أَتَىٰكُمْ عَذَابُ ٱللَّهِ أَوْ أَتَتْكُمُ ٱلسَّاعَةُ أَغَيْرَ ٱللَّهِ تَدْعُونَ إِن كُنتُمْ صَٰدِقِينَ ﴿٤٠﴾ بَلْ إِيَّاهُ تَدْعُونَ فَيَكْشِفُ مَا تَدْعُونَ إِلَيْهِ إِن شَآءَ وَتَنسَوْنَ مَا تُشْرِكُونَ ﴿٤١﴾ وَلَقَدْ أَرْسَلْنَآ إِلَىٰٓ أُمَمٍ مِّن قَبْلِكَ فَأَخَذْنَٰهُم بِٱلْبَأْسَآءِ وَٱلضَّرَّآءِ [1] لَعَلَّهُمْ يَتَضَرَّعُونَ [2] ﴿٤٢﴾ فَلَوْلَآ إِذْ جَآءَهُم بَأْسُنَا تَضَرَّعُوا۟ وَلَٰكِن قَسَتْ قُلُوبُهُمْ وَزَيَّنَ لَهُمُ ٱلشَّيْطَٰنُ مَا كَانُوا۟ يَعْمَلُونَ ﴿٤٣﴾ فَلَمَّا نَسُوا۟ مَا ذُكِّرُوا۟ بِهِۦ فَتَحْنَا عَلَيْهِمْ أَبْوَٰبَ كُلِّ شَىْءٍ حَتَّىٰٓ إِذَا فَرِحُوا۟ بِمَآ أُوتُوٓا۟ أَخَذْنَٰهُم بَغْتَةً فَإِذَا هُم مُّبْلِسُونَ [3] ﴿٤٤﴾ فَقُطِعَ دَابِرُ ٱلْقَوْمِ ٱلَّذِينَ ظَلَمُوا۟ ۚ وَٱلْحَمْدُ لِلَّهِ رَبِّ ٱلْعَٰلَمِينَ ﴿٤٥﴾ ﴾.

هدى من الآيات:

في الدرس السابق ذكرنا الله بأن النقص ليس في آيات الله، بل في فهم الآيات والاهتداء عن طريقها إلى الحقيقة، وفي هذا الدرس يبين القرآن: كيف أن البشر قد تتطور حالته، فيصلح جهاز الاستقبال عنده، فيهتدي بهذه الآيات التي كان يكفر بها سابقاً، يهتدي بها ذاتها إلى الله مما يدل:

أولاً: على أن الخلل كان من عند البشر نفسه.

ثانياً: على أن الإنسان كان مخطئًا تمام الخطأ حينما كفر بربه. ولكن متى تتطور حالة الإنسان؟.

تتطور حالة الإنسان عندما يواجه الحقيقة عارية، وبلا غموض في حالات مواجهة

(١) البأساء والضراء: البأساء من البأس والخوف، والضراء من الضر، وقد يكون البأساء من البؤس أي الفقر.

(٢) يتضرعون: التضرع التذلل.

(٣) مبلسون: المبلس الشديد الحسرة، وقيل المبلس المنقطع الحجة.

شدائد الحياة، هنالك يدعو الإنسان ربه وينسى كل أولئك الشركاء المزعومين، وأساساً الحكمة من بعض الشدائد التي تصيب الناس هي كشف الحقائق لهم، وإعادتهم إلى فطرتهم التوحيدية النقية، ولكن كثيراً من الأمم السابقة قست قلوبهم، فلم تعد تتقبل حتى الصدمات القوية الآتية من الشدائد، فلا يلبثون بعد انتهاء فترة المصيبة أن يعودوا إلى عاداتهم السيئة، وهناك يستدرجهم الله الجبار ببعض الرخاء حتى يفقدوا كل ما عندهم من وجدان وإيمان وهناك يأتيهم العذاب المدمر، الذي يقطع دابرهم وينهي حياتهم.

بينات من الآيات:

وتنسون ما تشركون

[٤٠] قَالَ رَجُلٌ لِلصَّادِقِ عليه السلام يَا ابْنَ رَسُولِ الله دُلَّنِي عَلَى الله مَا هُوَ فَقَدْ أَكْثَرَ عَلَيَّ الْمُجَادِلُونَ وَحَيَّرُونِي. فَقَالَ لَهُ: «**يَا عَبْدَالله هَلْ رَكِبْتَ سَفِينَةً قَطُّ**. قَالَ: نَعَمْ. قَالَ عليه السلام: **فَهَلْ كُسِرَ بِكَ حَيْثُ لَاسَفِينَةَ تُنْجِيكَ وَ لَاسِبَاحَةَ تُغْنِيكَ**. قَالَ: نَعَمْ. قَالَ عليه السلام: **فَهَلْ تَعَلَّقَ قَلْبُكَ هُنَالِكَ أَنَّ شَيْئاً مِنَ الْأَشْيَاءِ قَادِرٌ عَلَى أَنْ يُخَلِّصَكَ مِنْ وَرْطَتِكَ**. قَالَ: نَعَمْ. قَالَ الصَّادِقُ عليه السلام: **فَذَلِكَ الشَّيْءُ هُوَ الله الْقَادِرُ عَلَى الْإِنْجَاءِ حَيْثُ لَامُنْجِيَ وَعَلَى الْإِغَاثَةِ حَيْثُ لَا مُغِيثَ**»[1].

في الحالات العادية، تتراكم ظلمات الغفلة والتكبر والجهل حول فطرة البشر، أما حين يجد الجد، ويواجه الخطر الحقيقي، آنئذ تنحسر الظلمات من حول القلب، ويتوسل الإنسان بربه (الحق) دون غفلة أو تكبر أو جهل.

﴿ قُلْ أَرَءَيْتَكُمْ إِنْ أَتَىٰكُمْ عَذَابُ ٱللَّهِ أَوْ أَتَتْكُمُ ٱلسَّاعَةُ أَغَيْرَ ٱللَّهِ تَدْعُونَ إِن كُنتُمْ صَٰدِقِينَ ﴾ عذاب الله المتمثل في الشدائد، والساعة المتمثلة في الخطر.

إن كل واحد منا يمر بمثل هذه اللحظات الصعبة التي يكتشف فيها ربه، ولكن بعضنا فقط يبقى يتذكر تلك اللحظات بعدئذ.

[٤١] نعم هناك يدعو الإنسان ربه، ويستجيب الله دعاءه، حينما تقتضي الحكمة ذلك.

﴿ بَلْ إِيَّاهُ تَدْعُونَ ﴾ يعني تدعون الله فقط دون غيره من الشركاء.

﴿فَيَكْشِفُ مَا تَدْعُونَ إِلَيْهِ﴾ حين تدعون الله وتتوسلون إليه لبلوغ الهدف.

﴿إِن شَآءَ﴾ الله حسب حكمته ينقذكم، مما يدل على أن الله لا يحتم عليه الدعاء، ولا يؤثر

(١) بحارالأنوار، ٣، ص٤١.

فيه، بل برحمته وحسب حكمته يفعل ما يشاء.

﴿وَتَنسَوْنَ مَا تُشْرِكُونَ﴾ ما تشركون به من أهواء، وقوى مادية شريرة، فالإنسان يعبد أهواءه، يعبد شهوة الراحة في ذاته، شهوة النزوة، والجنس والخلود، ثم يزعم أن قوى الطاغوت توفر له هذه الشهوات، فيعبد تلك القوى ويصنع لها رموزاً مثل الأصنام وما أشبه، وربما لذلك عبر القرآن الحكيم هنا بكلمة ﴿مَا﴾ للدلالة على أن ما تشركون به الله هو من الأشياء التي لا تعقل! وهي تعود بالتالي إلى شهوات الإنسان، تلك الشهوات إنما يخضع لها البشر، ويخضع لمن يملكها لأنها -في زعمه- تنفعه، وتحافظ على وجوده وكيانه، وتحقق تطلعاته، فإذا جد الجد عرف أن كل تلك الشهوات لا تنفعه شيئاً، وإنما خالق البشر ومقدر أموره ومدبر شؤونه هو الذي يكشف ضره، فينسى كل تلك الشهوات ويتوب إلى الله سبحانه.

حكمة الشدائد

من الشدائد البسيطة وحتى الآلام، التي تصيب البشر هي توعيته بحقائق الأمور بدءاً من الشدائد البسيطة وحتى الآلام وإلى أن يصل إلى العذاب فالساعة، فمثلاً الحكمة من الإحساس بالجوع هو التفتيش عن مصدر الغذاء، والتحرك إليه، ومن خلال الإحساس والتفتيش والتحرك تنفتح أمامك أبواب المعرفة، ولو لم يكن البشر يحس بالجوع إذا لما كان يعرف جزءاً كبيراً من الحياة ولم يكن يعرف الزراعة والري والصيد.. الخ، وكلما كان حصول البشر على الغذاء أسهل كلما كانت معرفته بالحياة أقل، والألم يجعلك تحس بالحياة بشكل أعمق من ذي قبل إنك لا تعرف أساساً موقع كبدك أو كليتك أو حتى قلبك إلا بعد أن يتألم هذا العضو أو ذاك، وعندئذ تتحسس ليس فقط بوجود العضو، وإنما بأهميته أيضاً، وتتشبث به أكثر.

إن المريض أشد تعلقاً بالحياة، وأرهف إحساساً بأهميتها من غيره، والشدائد في الحياة تكشف نقاط ضعف الإنسان. سواء الفرد أو الأمة، مثلاً. الهزيمة تكشف عيوب الأمة أكثر مما يكشفه ألف كتاب وكتاب.

[٤٢] ولذلك يذكرنا القرآن هنا، بأن الهدف من إصابة الإنسان بالمشاكل، هو نفس الهدف من بعث الرسالات والرسل، إن الهدف من الرسالة هي توعية الإنسان بحقيقة العبودية المطلقة التي يعيشها، والتي هي في الواقع مفتاح صلاح الإنسان وقدرته ورفضه الخضوع للجبت والطاغوت، وكذلك الهدف من الشدائد.

﴿وَلَقَدْ أَرْسَلْنَآ إِلَىٰٓ أُمَمٍ مِّن قَبْلِكَ فَأَخَذْنَٰهُم بِٱلْبَأْسَآءِ﴾ بالشدائد الآتية من ظلم الناس لبعضهم.

﴿وَٱلضَّرَّآءِ﴾ بالشدائد التي مصدرها غضب الطبيعة. إنما أخذهم الله بذلك بعد بعث الرسل، وربما بسبب عدم انتفاعهم بالرسالات.

أما الهدف فقد كان ﴿لَعَلَّهُمْ يَتَضَرَّعُونَ﴾.

[٤٣] وبالرغم مما أخذهم الله به من العذاب فإن أولئك الذين قست قلوبهم، ولم تستوعب دروس التجربة المرة، عادوا بعد النكبة إلى سابق أعمالهم وعاداتهم السيئة.

﴿فَلَوْلَآ إِذْ جَآءَهُم بَأْسُنَا تَضَرَّعُواْ﴾ أي لماذا لم تلن قلوبهم، ولم تعد إلى حالتها العادية، حيث تتأثر بالتجارب بعيداً عن نزوة الغرور، وظلام التكبر.

﴿وَلَٰكِن قَسَتْ قُلُوبُهُمْ﴾ ولم تتفاعل مع الحياة، وانغلقت على مفاهيم ثابتة جامدة وصخرية، والسبب قد يكون هو التمحور حول الذات، وعدم الالتفات إلى الحق، وحين تكون النقطة المركزية في حياة الإنسان هي ذاته، تصبح حياته بعيدة عن التطور ذلك لأن كل عمل يقوم به الشخص يصبح حسناً لا بشيء، وإنما لأنه هو الذي عمله، وحتى لو عمل هذا الشخص عملاً من دون وعي، فإنه سوف يقدسه لأنه صدر منه، ونسب إلى ذاته، وهذا هو الذي يجعلك تحتفظ بالعادات السيئة، فإذا بك متعصب لها لأنها من صنع ذاتك.

﴿وَزَيَّنَ لَهُمُ ٱلشَّيْطَٰنُ مَا كَانُواْ يَعْمَلُونَ﴾ ولكن على البشر أن يعرف: أن الأعمال السيئة ليست جزءاً من ذاته، ولا تصبح كذلك حتى ولو صدرت هذه الأعمال منه، لأن الإنسان قد خلق في أحسن تقويم، وإنما الأعمال السيئة هي من عمل الشيطان ومن وحيه، ومما يزينه للإنسان.

اشراط العذاب

[٤٤] لقد أتم الله حجته على هذه الفئة، أرسل إليهم رسالة ورسولاً، وأخذهم بالبأساء والضراء ليكون ذلك رسالة واقعية وعملية لهم، ولكنهم لم ينتفعوا بواحدة من الحجتين.. وها هي ساعة العذاب، فكيف يعذبهم الله؟.

إن الله يمهد للانتقام بفتح أبواب الرزق عليهم من كل صوب، ثم حين يصلون إلى مرحلة الإشباع التام، ولا تبقى في قلوبهم ذرة من إنما يأتيهم العذاب فجأة.

﴿فَلَمَّا نَسُواْ مَا ذُكِّرُواْ بِهِۦ فَتَحْنَا عَلَيْهِمْ أَبْوَٰبَ كُلِّ شَيْءٍ﴾ مما تصوروا انه خير لهم، ولم يكن خيراً، بل هو شر عظيم، ففتح الله عليهم أبواب الطعام، والجنس والشهرة، لأنهم

لم يتقيدوا بشيء اسمه دين أو ضمير أو نظام، بل أخذوا يتمتعون بها في الحياة من دون قيد أو شرط. أسرفوا في كل ما هو لذيذ. طيباً كان أو خبيثاً، وأسرفوا في الجنس مشروعاً كان أو شذوذاً، وأسرفوا في التظاهر بالصلاح أو الفساد، ولكن إلى متى تبقى موارد الطعام والجنس والشهوة، وكم هي قدرة البشر على استيعابها؟! بالطبع أن هناك حدوداً تنفد عندها موارد الطبيعة، وتنهك قدرة البشر على استيعابها، وهي التي نسميها مرحلة الإشباع، والتي تنعكس على النفس في حالة (الفرح) أي الشعور بالكمال والغنى والإشباع، وعندها يكون السقوط المفاجئ.

﴿حَتَّىٰٓ إِذَا فَرِحُواْ بِمَآ أُوتُوٓاْ أَخَذْنَٰهُم بَغْتَةً فَإِذَا هُم مُّبْلِسُونَ﴾ ويكون السقوط المفاجئ نتيجة تراكمات الإسراف الدائم، ولكن لحظة السقوط لا يشعر بها المغرور الفرح إلا بعدئذ. لذلك عبر القرآن عن حالتهم: بأنهم كانوا آنئذ مبلسين، وكانوا في ظلام دامس.

إن مَثَل الأمة مثل الشاب الذي يسرف في -الطعام والشراب والجنس والبطش والفساد- ويستمر لفترة من الوقت حتى يشعر بأن كل لذائذ الدنيا في متناول يده، وهو لا يدري أن أنواعاً من المرض قد أحاطت بجسده، وأن سحباً داكنة من حقد المظلومين، وأنصار الحق تقترب منه، وفي لحظة سوداء، وربما وهو جالس على مائدة الشراب، ولذائذ الطعام، وإلى جانبه فتيات الهوى، وغلمان الشذوذ، وهو في غمرة من الفرح والإشباع، فإذا بالشرطة تداهم بيته، وإذا به يشعر بأنواع الألم وهو في غياهب السجون، وإذا به في موقع لعنة الناس جميعا، وأخيرا يسلم إلى حبل المشنقة غير مأسوف عليه.

كذلك الأمة التي تنفلت من قيود الدين والأخلاق، وتعمل بالظلم والبطش وتسرف في كل شيء، إنها تشعر بالغرور والكبرياء، ولكن في لحظة واحدة يهجم عليها عدوها فيهزمها شر هزيمة ويذيقها الأمرَّين.

[٤٥] وحين تنتهي هذه الجولة ينحسر غبار المعركة عن أمة سادت ثم بادت، ولم يبق منها سوى الذكر السيئ.

﴿فَقُطِعَ دَابِرُ ٱلْقَوْمِ ٱلَّذِينَ ظَلَمُواْ وَٱلْحَمْدُ لِلَّهِ رَبِّ ٱلْعَٰلَمِينَ﴾ وهذا الحمد، هو حمد الناس حين يشعرون بأن كابوساً عظيماً ارتفع عنهم، وهو حمد الناس حين يعرفون أن رحمة الله هي التي أنقذتهم من هذا الكابوس بفضله العظيم.

ولولا رحمة الله الذي أجرى هذه السنة الحكيمة إذن لبقي الناس يرزحون تحت وطأة الطغاة.

هل يستوي الأعمى والبصير

﴿قُلْ أَرَءَيْتُمْ إِنْ أَخَذَ ٱللَّهُ سَمْعَكُمْ وَأَبْصَٰرَكُمْ وَخَتَمَ عَلَىٰ قُلُوبِكُم مَّنْ إِلَٰهٌ غَيْرُ ٱللَّهِ يَأْتِيكُم بِهِ ٱنظُرْ كَيْفَ نُصَرِّفُ ٱلْأَيَٰتِ ثُمَّ هُمْ يَصْدِفُونَ (١) ﴿٤٦﴾ قُلْ أَرَءَيْتَكُمْ إِنْ أَتَىٰكُمْ عَذَابُ ٱللَّهِ بَغْتَةً أَوْ جَهْرَةً هَلْ يُهْلَكُ إِلَّا ٱلْقَوْمُ ٱلظَّٰلِمُونَ ﴿٤٧﴾ وَمَا نُرْسِلُ ٱلْمُرْسَلِينَ إِلَّا مُبَشِّرِينَ وَمُنذِرِينَ فَمَنْ ءَامَنَ وَأَصْلَحَ فَلَا خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلَا هُمْ يَحْزَنُونَ ﴿٤٨﴾ وَٱلَّذِينَ كَذَّبُوا۟ بِـَٔايَٰتِنَا يَمَسُّهُمُ ٱلْعَذَابُ بِمَا كَانُوا۟ يَفْسُقُونَ ﴿٤٩﴾ قُل لَّآ أَقُولُ لَكُمْ عِندِى خَزَآئِنُ ٱللَّهِ وَلَآ أَعْلَمُ ٱلْغَيْبَ وَلَآ أَقُولُ لَكُمْ إِنِّى مَلَكٌ إِنْ أَتَّبِعُ إِلَّا مَا يُوحَىٰٓ إِلَىَّ قُلْ هَلْ يَسْتَوِى ٱلْأَعْمَىٰ وَٱلْبَصِيرُ أَفَلَا تَتَفَكَّرُونَ ﴿٥٠﴾﴾.

هدى من الآيات:

إن الله سبحانه خلق الحياة وجعل فيها الظلمات والنور، والعذاب والمغفرة، والشقاء والرفاه، ثم أعطى البشر مصباح العقل ليهتدي به إلى سبيل النور والمغفرة، والرفاه، وفي وسع ربنا القدير أن يسلب نعمة العقل، فيتخبط البشر في سبل الحياة، كما أنه قادر على أن ينزل عليه العذاب جهرة دون أن يملك البشر له ردًّا.

ولكن الله برحمته الواسعة لم يكتف بنعمة العقل، بل بعث أنبياء مبشرين ومنذرين ووعدوه بأنه إن آمن فإن مصيبات الحياة لا تصيبه، وإلا فإن عذاب الله سوف يمسه ويشبع أحاسيسه ألماً ورعباً.

(١) يصدفون: صدف عن الشيء صدوفاً إذا مال عنه، والصدف والصدفة الجانب والناحية، والصدف كل بناء مرتفع.

وعند هذه النقطة تنتهي وظائف الأنبياء عليهم السلام، فإنهم لم يأتوا ليتخذوا قرارات بديلاً عن الناس، أو يكرهوا الناس على اتباع الحق، أو ليوفروا لهم الخير، كلا. بل إنما جاءوا ليساعدوا الإنسان على الرؤية السليمة، ثم يكون هو المسؤول عن ذاته. وعلاقة هذا الدرس بما مضى هو بيان أن: الضراعة إلى الله لا تختص بحين نزول المصيبة، بل نحن بحاجة إلى الضراعة إلى الله في كل حال.

بينات من الآيات:

أسباب الهداية

[٤٦] لكي نصل إلى الغاية -أية غاية- لابد أن يتوفر لدينا شرطان:

الأول: أن يكون أمامنا سبيل معبد ينتهي إلى تلك الغاية.

والثاني: أن نملك الرؤية الكافية التي نكشف بها ذلك السبيل، والله هو الذي سن السنن، وعبد السبل أمام البشر للوصول إلى أهدافه النبيلة، وهو الذي زود الإنسان بالرؤية الكافية، أما لو سلبه هذه الرؤية فأنه سوف يصطدم بالعقبات أو يقع في واد سحيق، وليس فقط يضل الطريق: ﴿قُلْ أَرَءَيْتُمْ إِنْ أَخَذَ ٱللَّهُ سَمْعَكُمْ وَأَبْصَٰرَكُمْ وَخَتَمَ عَلَىٰ قُلُوبِكُم مَّنْ إِلَٰهٌ غَيْرُ ٱللَّهِ يَأْتِيكُم بِهِۦ﴾ السمع جاء مفرداً في آيات القرآن. ربما لأن ما يسمعه الإنسان أقرب إلى العقل، وأنسب إلى المجردات والكليات. خصوصاً إذا فسرنا السمع بـ (الأقوال) التي نسمعها من الآخرين حول الحقائق، بينما الأبصار جاء جمعاً في القرآن، ربما لأن ما يراه الإنسان متنوع ومختلف، وأقرب إلى الواقعيات الخارجية.

وسواء ما يسمعه البشر وينقل إليه من تجارب الآخرين وعلومهم، أو ما يراه بنفسه ويحصل عليه من علم وخبرة بصورة مباشرة، فإنهما نافذتان إلى القلب أو العقل فلو ختم الله على قلب البشر، وأزال عنه مقاييسه العقلية، ومسبقاته الفطرية، فماذا يبقى عنده؟ إنه سوف يفقد القدرة على تعقل الأحاسيس، ويتجمد على ما يسمعه أو يراه دون أن يستنبط منهما حقائق جديدة، أو يستدل بهما إلى ما ورائهما من حقائق وواقعيات. إنه آنئذ يرى شعلة النار دون أن يعقل أن الشعلة نذير الحرارة والحرارة سبيل الاحتراق والانتشار، وأنها لا تنشأ بلا سبب، وأن الذي أشعل النار كانت له دوافعه وأهدافه. كلا.. إنه يرى الشعلة فقط، وقد يقع فيها ويحترق. كذلك الذي يختم الله على قلبه. يقف في فهم الحقائق عند حد معين دون أن يصل إلى الجذور البعيدة لها. يرى الفقر دون أن يعرف إن النظام الاقتصادي هو وراء الفقر. يرى المرض دون أن يعرف أن اللامبالاة في الوقاية هي السبب. يرى العجز الحضاري دون أن يهتدي إلى أن الطاغوت هو السبب المباشر أو غير المباشر له، وهكذا يبقى في العذاب أبداً.

﴿انظُرْ كَيْفَ نُصَرِّفُ الْآيَاتِ﴾ إن الله يبين الآيات بصورة تفصيلية وواضحة ومع ذلك:

﴿ثُمَّ هُمْ يَصْدِفُونَ﴾ أي انهم بعد تصريف الآيات وبيانها تراهم يعرضون عنها كأنها لا تهمهم.

بينها لو فكروا قليلاً لأدركوا أن الإله الذي يتضرعون إليه عندما تضرب سفينتهم الأمواج العاتية التي تحمل في طياتها الموت، أو عندما يلفهم التيه في الصحراء ويستبد بهم خوف الموت، إن هذا الإله هو الذي وفر لهم هذه الحياة الآمنة، وإنه لو شاء لسلب الأمان من حياتهم، بل إن كل لحظة تمر بهم هي لحظة رعب، ولو لا أمان الله القادر لسلب منهم رحمته، وآنئذ يكون أبسط شيء في الحياة سبباً في هلاكهم فلماذا لا يتضرعون إلى ربهم في هذه الأوقات التي يزعمون إنها عادية؟!.

[٤٧] أو تكون للإنسان أوقات عادية، وأخرى استثنائية، أو لا يحتمل البشر في كل لحظة -أن يأتيه الموت- أو ينزل عليه عذاب المرض أو المسكنة؟! ولمَ لا؟ أو ليست الحياة مليئة بهذه المفاجآت، كم لحظة حملت معها رعباً ودماراً. ونحن لم نكن نحسب لها حساباً، أو كنا نعرفها ولكن دون أن نستطيع مقاومتها، فلماذا الغرور إذن؟.

﴿قُلْ أَرَأَيْتَكُمْ إِنْ أَتَاكُمْ عَذَابُ اللَّهِ بَغْتَةً أَوْ جَهْرَةً﴾ بغتة أي: مفاجأة، مما يدل على أن علم الإنسان بالحياة علمٌ محدودٌ، أما ﴿جَهْرَةً﴾ فتدل على العلن، مما يدل على إن قدرة الإنسان محدودة حتى ولو كان بالغاً وشاملاً.

﴿هَلْ يُهْلَكُ إِلَّا الْقَوْمُ الظَّالِمُونَ﴾ إذا كان عذاب الله لا مرد له، بقدرتنا المحدودة، إذن كيف نحصل على الأمان؟.

يجيب القرآن على هذا السؤال ويقول: إن الله حكيم لا يعذب عباده بلا سبب.. إنما يعذب الظالمين. فإذا أحببت تجنب عذاب الله، فبإمكانك أن تعدل وتستقيم، ولا تظلم نفسك ولا الآخرين، حتى تحصل على الأمان.

مهمات الرسل وواجب الناس

[٤٨] ثم إن الله لا يعذب الظالم مباشرة ودون أن ينذره مسبقاً برسالة ورسول، بيد أن البشر قد يخطأ في فهم دور الرسول، فيزعم أن الرسول إنما يأتي ليكون مسؤولاً بدلاً عنهم، أو ليجبرهم على الهدى، أو حتى ليؤمن لهم عمليًّا كل وسائل السعادة، بيد أن الله سبحانه يفند هذا الزعم قائلاً: ﴿وَمَا نُرْسِلُ الْمُرْسَلِينَ إِلَّا مُبَشِّرِينَ وَمُنذِرِينَ﴾ والهدف من بعثهم هو توفير وسيلة الأمان في النفوس وفي الواقع.

﴿فَمَنْ ءَامَنَ وَأَصْلَحَ فَلَا خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلَا هُمْ يَحْزَنُونَ﴾ لا خوف لهم من المستقبل. مما يدل على وجود حالة السلام في أنفس الذين يملكون الإيمان والعمل الصالح، ولا هم يحزنون من الماضي مما يدل على وجود السلام في الواقع الخارجي، حيث لا يصيبهم ما يحزنون بسببه.

[٤٩] تعرضنا للبشارة، أما الإنذار فيتلخص في عاقبة الذين يكذبون بآيات الله، ولا يهتدون إلى الحقائق بالرغم من وجود دلائل واضحة تدل عليها، وهؤلاء مصيرهم العذاب.

﴿وَالَّذِينَ كَذَّبُوا بِآيَاتِنَا يَمَسُّهُمُ الْعَذَابُ بِمَا كَانُوا يَفْسُقُونَ﴾ ولم يقل القرآن بما كانوا يكذبون ربما لأن التكذيب قد لا يكون وحده سبباً للعذاب، بل الفسق الذي ينتهي إليه التكذيب هو السبب المباشر للعذاب، والفسق هو تجاوز أحكام الله.

حكمة الرسالات

[٥٠] الهدف من بعث الرسل ليس سلب المسؤولية عن الناس، وإلقائها على عاتق الرسل، كما كان يزعم البعض، وقد تطرف فريق من الناس فزعموا أن أنبياء الله مكلفون بتوفير السعادة لهم والرفاه، وأنه لو لم يكن النبي مالكاً للذهب والفضة فسوف لا تكتمل نبوته، بينما القرآن بين أن الهدف من بعث الرسل هو توفير الرؤية للإنسان، وعن طريق الرؤية الواضحة يكون البشر قادراً على معرفة الطريق السليم، وحين يسير فيه يصل إلى الفلاح: ﴿قُل لَّا أَقُولُ لَكُمْ عِندِي خَزَائِنُ اللَّهِ﴾ إن خزائن الله موجودة في الأرض وفي الإنسان نفسه.

﴿وَلَا أَعْلَمُ الْغَيْبَ﴾ إلا بقدر ما يعلمني الله بحكمته، بل العلم يحصل لكم بالتعلم وتزكية النفس.

﴿وَلَا أَقُولُ لَكُمْ إِنِّي مَلَكٌ﴾ حتى أقوم بالخارق للعادة إلا في حدود تبليغ الرسالة، فأنا بدوري محتاج إلى الطعام والشراب وسوف أموت.

﴿إِنْ أَتَّبِعُ إِلَّا مَا يُوحَىٰ إِلَيَّ﴾ فما عندي هو من عند الله، وذلك عن طريق الوحي، فلو كنتم أنتم أيضاً تستفيدون من ذلك الوحي. إذن لأصبحتم سعداء. ولأني أتبع مايوحى إليَّ فإني أسير في الحياة بصيراً، فأعرف سنن الحياة وأتبعها، فأسعد في الحياة.

﴿قُلْ هَلْ يَسْتَوِي الْأَعْمَىٰ وَالْبَصِيرُ أَفَلَا تَتَفَكَّرُونَ﴾ ولأولئك لا يستوي الأعمى والبصير، فإن نعمة البصر هي أفضل نعمة، ومن أراد البصر فليتفكر، فإن الفكر مرآة صافية.

حقيقة الإيمان وامتياز المؤمنين

﴿ وَأَنذِرْ بِهِ ٱلَّذِينَ يَخَافُونَ أَن يُحْشَرُوٓاْ إِلَىٰ رَبِّهِمْ لَيْسَ لَهُم مِّن دُونِهِۦ وَلِيٌّ وَلَا شَفِيعٌ لَّعَلَّهُمْ يَتَّقُونَ ﴿٥١﴾ وَلَا تَطْرُدِ ٱلَّذِينَ يَدْعُونَ رَبَّهُم بِٱلْغَدَوٰةِ وَٱلْعَشِيِّ يُرِيدُونَ وَجْهَهُۥ مَا عَلَيْكَ مِنْ حِسَابِهِم مِّن شَىْءٍ وَمَا مِنْ حِسَابِكَ عَلَيْهِم مِّن شَىْءٍ فَتَطْرُدَهُمْ فَتَكُونَ مِنَ ٱلظَّٰلِمِينَ ﴿٥٢﴾ وَكَذَٰلِكَ فَتَنَّا بَعْضَهُم بِبَعْضٍ لِّيَقُولُوٓاْ أَهَٰٓؤُلَآءِ مَنَّ ٱللَّهُ عَلَيْهِم مِّنۢ بَيْنِنَآ أَلَيْسَ ٱللَّهُ بِأَعْلَمَ بِٱلشَّٰكِرِينَ ﴿٥٣﴾ وَإِذَا جَآءَكَ ٱلَّذِينَ يُؤْمِنُونَ بِـَٔايَٰتِنَا فَقُلْ سَلَٰمٌ عَلَيْكُمْ كَتَبَ رَبُّكُمْ عَلَىٰ نَفْسِهِ ٱلرَّحْمَةَ أَنَّهُۥ مَنْ عَمِلَ مِنكُمْ سُوٓءًۢا بِجَهَٰلَةٍ ثُمَّ تَابَ مِنۢ بَعْدِهِۦ وَأَصْلَحَ فَأَنَّهُۥ غَفُورٌ رَّحِيمٌ ﴿٥٤﴾ وَكَذَٰلِكَ نُفَصِّلُ ٱلْـَٔايَٰتِ وَلِتَسْتَبِينَ سَبِيلُ ٱلْمُجْرِمِينَ ﴿٥٥﴾ ﴾

هدى من الآيات:

من الذي يتقي ربه فيصبح صالحاً؟ إنه الذي يوجه خوفه نحو المصدر الحقيقي للخوف وهو الله. حيث يحشر إليه الإنسان وحيداً، دون أن ينفعه هنالك ما يتخذه من دونه أولياء، أو شفعاء.

إلا أن هناك رجالاً يحجبهم عن الحقيقة التفاف البسطاء والفقراء حولها، يقولون: إما أن يطرد هؤلاء أو لا نقبل بالحقيقة، والقرآن نهى عن طرد أهل الحق لأن ذلك ظلم، علماً بأن حساب كل واحد على نفسه.

إن الله امتحن الناس في الدنيا بأنواع التنافس ومنها أنه امتحنهم ببعضهم فإذا بالمؤمنين المسارعين إلى الحق ينافسهم المستكبرون الذين يعادون الفقراء بصفة دائمة، وبما أن المؤمنين

يبادرون إلى الإيمان، فإن المستكبرين يتخذون ذلك ذريعة لعدم الإيمان بالله، وعلى الرسول أن يخفض جناح الرحمة للمؤمنين، ويعدهم بالمغفرة.

هذه هي الآيات التي يفصلها الله سبحانه لكي يتميز طريق المؤمنين عن طريق الكافرين.

بينات من الآيات:

أصحاب الرسالة

[٥١] إن هناك شريحة خاصة في المجتمع هي التي تستجيب لرسالة السماء، وهم الذين يخافون من العاقبة، فعلى الرسول أن يفتش عنهم وينذرهم من عاقبة الضلالة دون النظر إلى طبقتهم، أو لونهم أو مستوى ثقافتهم.

﴿ وَأَنذِرْ بِهِ ٱلَّذِينَ يَخَافُونَ أَن يُحْشَرُوٓاْ إِلَىٰ رَبِّهِمْ لَيْسَ لَهُم مِّن دُونِهِۦ وَلِىٌّ وَلَا شَفِيعٌ ﴾ هؤلاء الأولياء الذين يتخذهم البشر في الدنيا قادة، ويحتمون بضلالهم لا ينفعونه في الآخرة شيئاً، كما أنه في الآخرة ليس هناك من يستطيع أن يفرض على الله سبحانه إرادته، فلا شفيع من دون إذنه، وما دام الله حكماً مطلقاً، فيجب أن يخشاه البشر من بعد أن ينذر، والهدف من الخوف ليس الجمود والانسحاب بل الهدف هو التقوى.

﴿لَّعَلَّهُمْ يَتَّقُونَ﴾ وهو العمل الإيجابي في سبيل الخلاص من العاقبة السوء في الآخرة.

[٥٢] والمؤمنون يشكلون حزباً واحداً مقياسه العمل الصالح، من دون أثر للفوارق المادية فيه، وعلى الرسول أن يكوّن علاقات مبدئية مع أفراد هذا الحزب، وألا يطرد واحداً منهم بأي اسم كان.

﴿وَلَا تَطْرُدِ ٱلَّذِينَ يَدْعُونَ رَبَّهُم بِٱلْغَدَوٰةِ وَٱلْعَشِىِّ يُرِيدُونَ وَجْهَهُۥ ﴾ فما داموا متوجهين إلى ربهم فإن الأخطاء الصغيرة التي يرتكبونها بسبب عدم وضوح الرؤية عندهم، أو عدم علمهم بالأحكام الشرعية فإنها سوف.. تغتفر.

﴿مَا عَلَيْكَ مِنْ حِسَابِهِم مِّن شَىْءٍ وَمَا مِنْ حِسَابِكَ عَلَيْهِم مِّن شَىْءٍ ﴾ إن هذه الأخطاء البسيطة لا تسجل في حسابك أنت، وليس لأحد أن يحاسبك عليها بمجرد أنك تقربهم إليك.

﴿فَتَطْرُدَهُمْ فَتَكُونَ مِنَ ٱلظَّٰلِمِينَ ﴾ إن طرد هؤلاء يعتبر ظلماً لهم، ولا يبرر هذا الطرد أن بعض المؤمنين القدماء أو بعض المتكبرين ينتقدونك أو حتى يبتعدون عن الدين بهذا السبب.

حقيقة الانتماء

[٥٣] والتنافس بين الناس متجذر في فطرتهم حتى في الدين، حيث يسعى كل فريق أن يكون هو الأقرب إلى صاحب الرسالة، وأن يكون الفريق الثاني الأبعد، ولذلك فإن كثيراً من الناس يبتعدون عن الدين فقط لهذا السبب، لذلك حذر القرآن الحكيم من هذا الأمر وقال:

﴿وَكَذَٰلِكَ فَتَنَّا بَعْضَهُم بِبَعْضٍ لِّيَقُولُوٓا۟ أَهَٰٓؤُلَآءِ مَنَّ ٱللَّهُ عَلَيْهِم مِّنۢ بَيْنِنَآ﴾ فكانوا هم السابقين إلى اعتناق الدين الجديد؟!.

ويجيب الله على هذا السؤال الذي يطفح بالاستنكار: ﴿أَلَيْسَ ٱللَّهُ بِأَعْلَمَ بِٱلشَّٰكِرِينَ﴾ نعم إن الله منَّ على هؤلاء بأن وفقهم لقبول الرسالة، ولكن ليس عبثاً، بل لأنه عرف أنهم أشكر من غيرهم لنعمة الرسالة، وأي فرد كان شاكراً لله وعارفاً بحق الرسالة فسوف يوفقه الله سبحانه أيضاً.

[٥٤] إن انتهاء البسطاء إلى الرسالة لا يعني الغض عن سيئاتهم، بل الإغماض عن تلك السوابق، التي ارتكبوها بجهالة، وقبل أن يصل مستوى وعيهم وإيمانهم وتربيتهم حدًّا كافياً يردعهم عنها، أما في المستقبل فليس عليهم التوبة فقط، وإنما إصلاح أنفسهم أيضاً.

﴿وَإِذَا جَآءَكَ ٱلَّذِينَ يُؤْمِنُونَ بِـَٔايَٰتِنَا فَقُلْ سَلَٰمٌ عَلَيْكُمْ﴾ أي إنكم في أمان، لا خوف عليكم ﴿كَتَبَ رَبُّكُمْ عَلَىٰ نَفْسِهِ ٱلرَّحْمَةَ أَنَّهُۥ مَنْ عَمِلَ مِنكُمْ سُوٓءًۢا بِجَهَٰلَةٍ ثُمَّ تَابَ مِنۢ بَعْدِهِۦ وَأَصْلَحَ فَأَنَّهُۥ غَفُورٌ رَّحِيمٌ﴾ وهذه هي الرحمة التي كتبها الله على نفسه، وهذا هو السلام، فالإسلام يَجُبُّ ما قبله، ويبدأ الفرد معه حياة جديدة.

[٥٥] ومع العفو العام الذي تقتضيه هذه الرحمة الربانية الشاملة، يتميز المجرمون المعاندون عن الجاهلين. حيث أن الفرد الذي يستمر في الخيانة والظلم، ولا يصلح نفسه بعد العفو العام فليستعد للعقوبة.

﴿وَكَذَٰلِكَ نُفَصِّلُ ٱلْـَٔايَٰتِ وَلِتَسْتَبِينَ سَبِيلُ ٱلْمُجْرِمِينَ﴾ الذين يختارون طريقاً غير طريق الله بعمد وسبق إصرار.

دور الرسل في مسيرة التوحيد

﴿قُلْ إِنِّي نُهِيتُ أَنْ أَعْبُدَ الَّذِينَ تَدْعُونَ مِن دُونِ اللَّهِ قُل لَّا أَتَّبِعُ أَهْوَاءَكُمْ قَدْ ضَلَلْتُ إِذًا وَمَا أَنَا مِنَ الْمُهْتَدِينَ (٥٦) قُلْ إِنِّي عَلَىٰ بَيِّنَةٍ مِّن رَّبِّي وَكَذَّبْتُم بِهِ مَا عِندِي مَا تَسْتَعْجِلُونَ بِهِ إِنِ الْحُكْمُ إِلَّا لِلَّهِ يَقُصُّ الْحَقَّ وَهُوَ خَيْرُ الْفَاصِلِينَ (٥٧) قُل لَّوْ أَنَّ عِندِي مَا تَسْتَعْجِلُونَ بِهِ لَقُضِيَ الْأَمْرُ بَيْنِي وَبَيْنَكُمْ وَاللَّهُ أَعْلَمُ بِالظَّالِمِينَ (٥٨)﴾.

هدى من الآيات:

لكيلا يحجب التنافس الشخصي طائفة من الناس عن الإيمان بالله، أوضح الدرس السابق، أن استقبال الرسول للمؤمنين المبادرين لايجب أن يكون متأثرا بانتماءاتهم السابقة أو طبقتهم أو ما أشبه، إنما بسبب الإيمان وحده، ولذلك فلا داعي للقلق، وفي هذه الآيات بين في القرآن الحكيم: أن الدعوة إلى الرسالة ليست دعوة إلى شخص الرسول. إذ أن القيمة إنما هي للمبدأ وحتى شخص الرسول شملته الدعوة كأي فرد آخر، فهو قد نهي عن عبادة الشركاء، وأنه لو اتبع أهواء الناس لأصبح ضالاً، وما عند الرسول إنما هو من عند الله، والعقوبة التي يهدد بها الرسول أعداء الدين قادمة من عند الله، والحاكم فيها هو الله الذي يوضح الحق، ويفصل أهله عن أهل الباطل، وذلك بحكمه الحاسم، أما الرسول ذاته فهو إن كان مالكاً للعقوبة ملكاً ذاتيًا وكان بشراً متفوقاً على سائر البشر. إذن لأنزل العقوبة بأعدائه. كلا إن الله هو الذي يحكم وهو أعلم بالظالمين من سائر البشر.

بينات من الآيات:

من هو الرسول؟

[٥٦] كأي بشر آخر نهاه الله عن عبادة الشركاء من دونه ﴿قُلْ إِنِّي نُهِيتُ أَنْ أَعْبُدَ الَّذِينَ

تَدْعُونَ مِن دُونِ ٱللَّهِ﴾ والنهي عن عبادة هؤلاء يعني التمرد على سلطات الطاغوت المتمثلة في السلطان الجائر، أو شيخ العشيرة الفاسد، أو رئيس الحزب المتجبر، وهكذا.

﴿قُل لَّآ أَتَّبِعُ أَهْوَآءَكُمْ﴾ أي لا أتبع الجبت أيضاً ﴿قَدْ ضَلَلْتُ إِذًا﴾ حين أعبد الطاغوت أو أتبع الجبت ﴿وَمَآ أَنَا۠ مِنَ ٱلْمُهْتَدِينَ﴾ آنئذ، ذلك أن هداية الله للرسول ليست ذاتية، بل قائمة بالله، وهي تزول إذا انحرف الرسول -حاشا لله- عن الخط المستقيم.

إطار التحرك الرسالي

[٥٧] ويتميز الرسول عن الكفار، بأنه على بينة واضحة من ربه، إنه يعرف الطريق جيداً بينما أولئك ليس فقط لا يعرفون الطريق بل ويكذبون بذلك تكذيباً ﴿قُلْ إِنِّي عَلَىٰ بَيِّنَةٍ مِّن رَّبِّي وَكَذَّبْتُم بِهِۦ﴾ أما العقوبة فهي عند الله وأنتم تستعجلونها، والله هو الذي يحكم بها لأولئك يقص سبحانه الحق، ويعلم لمن هو.

﴿مَا عِندِي مَا تَسْتَعْجِلُونَ بِهِۦٓ إِنِ ٱلْحُكْمُ إِلَّا لِلَّهِ يَقُصُّ ٱلْحَقَّ وَهُوَ خَيْرُ ٱلْفَٰصِلِينَ﴾
إن الله يقص الحق ربما معناه: إن الله سبحانه يقسم الحق الكلي العام على أقسام الحياة، أو الموضوعات الخاصة المنفصلة عن بعضها، والله سبحانه (خير الفاصلين) ربما معناه أن الله خير من يقضي لتطبيق الحق على الشخص المعين.

ولنضرب مثلاً يقرب إلى أذهاننا معنى الآية فالحق الكلي مثلاً هو أن العدالة قيمة صحيحة ولكننا بحاجة إلى قص هذا الحق، وذلك بتقسيمه إلى مختلف الموضوعات. مثل أن العدالة تقتضي انزال العقوبة على من يظلم صاحبه، ولكن من الذي ظلم صاحبه؟ هذا الأمر بحاجة إلى فصل (يسمى بالقضاء) والله هو الذي يفصل ويحدد بالضبط من الذي ظلم، ومن الذي وقع عليه الظلم.

[٥٨] إذن فالله هو الذي يملك العقوبة، ويعلم الحكم، وهو خير من يقضي، أما الرسول فهو بشر لو لم يكن رسولاً من الله، وكان يملك العقوبات التي يهدد بها الأعداء. إذن كان يستخدمها عمليًّا في دحر الأعداء.

وهو حين لا يفعل فإن ذلك يدل على أنه رسول متصل بالله، وأنه لا يقول ولا يعمل شيئاً إلا بإذنه، بل هو لا يملك شيئاً من دون الله سبحانه ﴿قُل لَّوْ أَنَّ عِندِي مَا تَسْتَعْجِلُونَ بِهِۦ لَقُضِيَ ٱلْأَمْرُ بَيْنِي وَبَيْنَكُمْ وَٱللَّهُ أَعْلَمُ بِٱلظَّٰلِمِينَ﴾ فهو الذي يقضي بين العباد ويعاقب المتجاوزين على القانون ولست أنا.

مفتاح الغيب بين العلم والقدرة

﴿وَعِندَهُۥ مَفَاتِحُ ٱلْغَيْبِ لَا يَعْلَمُهَآ إِلَّا هُوَ ۚ وَيَعْلَمُ مَا فِى ٱلْبَرِّ وَٱلْبَحْرِ ۚ وَمَا تَسْقُطُ مِن وَرَقَةٍ إِلَّا يَعْلَمُهَا وَلَا حَبَّةٍ فِى ظُلُمَٰتِ ٱلْأَرْضِ وَلَا رَطْبٍ وَلَا يَابِسٍ إِلَّا فِى كِتَٰبٍ مُّبِينٍ ﴿٥٩﴾ وَهُوَ ٱلَّذِى يَتَوَفَّىٰكُم بِٱلَّيْلِ وَيَعْلَمُ مَا جَرَحْتُم[1] بِٱلنَّهَارِ ثُمَّ يَبْعَثُكُمْ فِيهِ لِيُقْضَىٰٓ أَجَلٌ مُّسَمًّى ۖ ثُمَّ إِلَيْهِ مَرْجِعُكُمْ ثُمَّ يُنَبِّئُكُم بِمَا كُنتُمْ تَعْمَلُونَ ﴿٦٠﴾ وَهُوَ ٱلْقَاهِرُ فَوْقَ عِبَادِهِۦ ۖ وَيُرْسِلُ عَلَيْكُمْ حَفَظَةً حَتَّىٰٓ إِذَا جَآءَ أَحَدَكُمُ ٱلْمَوْتُ تَوَفَّتْهُ رُسُلُنَا وَهُمْ لَا يُفَرِّطُونَ ﴿٦١﴾ ثُمَّ رُدُّوٓا۟ إِلَى ٱللَّهِ مَوْلَىٰهُمُ ٱلْحَقِّ ۚ أَلَا لَهُ ٱلْحُكْمُ وَهُوَ أَسْرَعُ ٱلْحَٰسِبِينَ ﴿٦٢﴾﴾.

هدى من الآيات:

المستقبل عند الله، وما ينفتح إليه عنده، فهو الذي يخلقه حسب ما يشاء، ويجري عليه سننه ولذلك فهو يعلم ماذا سيكون، فإذا تحقق علم بأصوله وقواعده العامة والحكيمة، كما علم بجزئياته الصغيرة، فمن الورقة التي تذبل وتسقط، إلى الحبة التي تدفن في باطن الأرض يعلمها الله سبحانه، بل كل شيء حي أو ميت. مسجل في كتاب مبين.

وعلم الله محيط بالحياة، فهو الذي يسترد في الليالي روح الإنسان، ويراقبه على أعماله في النهار حيث يبعثه ليستمر إلى فترة محدودة، فإذا انتهت يعود البشر إلى الله حيث يخبره بما فعل.

وكما علم الله فكذلك قدرته محيطة بالعباد. إنك من دون هذه القدرة التي تحيط بك وتحفظك من المهالك تتعرض لألف مشكلة ومشكلة. أما الموت فهو لا يحدث بعيداً عن قدرة

---

(١) جرحتم: الجرح بالجارحة، والاجتراح الاكتساب.

الله بل عبرها، فرسل الله هم الذين يَتَوَفَّونَك دون أن يخرجوا عن حدود الطاعة لله، وتعود إلى الله حيث يحاسبك على أعمالك وهو أسرع الحاسبين.

بينات من الآيات:

مظاهر علم الله

[٥٩] للغيب (وهو المستقبل) مفاتح. أي سبل تؤدي إليه، أو أسباب تحققه، وكلها عند الله في قبضته وتحت هيمنته، ولأن الله هو الذي يفتح الغيب؛ يحققه ويخلقه فإنه عالم به دون الخلائق لأنهم دون مستوى الخالق.

﴿۞ وَعِندَهُۥ مَفَاتِحُ ٱلْغَيْبِ لَا يَعْلَمُهَآ إِلَّا هُوَ﴾ وإذا كانت مفاتح الغيب عند الله فكيف بحقائق الشهود، أي التي تجري الآن في الواقع، إن ربنا محيط بها علماً.

﴿وَيَعْلَمُ مَا فِى ٱلْبَرِّ وَٱلْبَحْرِ﴾ علما شهوديًا محيطاً، وربما نستطيع القول: أن الإحاطة بعلم الشهود هو أحد مفاتح الغيب الأساسية، والمفتاح الثاني هو، القدرة على قهر الواقع كما يأتي في الآية التالية، ولكن كيف العلم بالشهود مقدمة لفتح غيبه؟.

الجواب: العلم بالجرثومة -مثلاً- في جسد الإنسان طريق لمعرفة المرض، والعلم بالفيتامين أو المضاد الحيوي طريق لمعرفة الدواء، والعلم بالمرض وبالدواء طريق للسيطرة عليها، ولصنع المستقبل وهو الغيب.

﴿وَمَا تَسْقُطُ مِن وَرَقَةٍ إِلَّا يَعْلَمُهَا﴾ إنها ورقة انتهى أجلها وسقطت، ولكن علم الله محيط حتى بتلك اللحظة. لحظة الموت والسقوط بالنسبة إلى الورقة التافهة التي لا أهمية لها أبداً ﴿وَلَا حَبَّةٍ فِى ظُلُمَٰتِ ٱلْأَرْضِ﴾ إنها الحبة الصغيرة المستورة في الأرض التي لا يأبه بها أحد، ولكن الله محيط بها علماً.

﴿وَلَا رَطْبٍ وَلَا يَابِسٍ﴾ الرطب كالحبة النشيطة التي تنمو، واليابس كالورقة التي سقطت. إن إحاطة علم الله بالحبة وبالورقة الميتة إنما يعني علمه بابتداء كل شيء وانتهائه، بيد أن علم الله ثابت، ومسجل في كتاب واضح ومفصل ﴿إِلَّا فِى كِتَٰبٍ مُّبِينٍ﴾.

آيات قدرة الله

[٦٠] ما هو النوم؟ وكيف يحدث؟.

لا تزال معلوماتنا ناقصة في هذا الحقل، إلا أن المعلوم أن جزءاً من قدرتنا وحيويتنا نفقدها عند المنام، والسؤال: هل نفقد ذلك أم أن قدرة عليا هي التي تنتزعها منا؟.

بالطبع إن الله هو الذي يتوفى الأنفس، أو بتعبير آخر يستعيد جزءاً مما وهبه للإنسان عند النوم، وكلما وهبه له عند الموت. لأولئك صاحب تلك القدرة العليا المهيمنة على كل جزء، بل كل جزء من الحياة.

﴿وَهُوَ ٱلَّذِى يَتَوَفَّىٰكُم بِٱلَّيْلِ﴾ فسبحان من يملك ناصية الطبيعة، يوجهها كيف يشاء.

﴿وَيَعْلَمُ مَا جَرَحْتُم بِٱلنَّهَارِ﴾ كل أثر يخلقه الإنسان بعمله يعلمه الله، بالرغم من أن الإنسان نفسه، قد لا يعلمه، وكما أن الليل سكون ووفاة، فإن النهار تحرك وتعب. حيث يشعر الفرد بأن قواه تجددت واستعدت لتحقيق الأهداف.

﴿ثُمَّ يَبْعَثُكُمْ فِيهِ لِيُقْضَىٰٓ أَجَلٌ مُّسَمًّى﴾ ستبقى دورة الليل والنهار مستمرة إلى أجل مسمى يبلغه الفرد شاء أم أبى، وهذا الأجل ينتهي إلى الله.

﴿ثُمَّ إِلَيْهِ مَرْجِعُكُمْ﴾ وعندما يعود الناس إلى ربهم يستيقضون وكأنهم كانوا في سبات، بيد أن الشريط الرقيب قد سجل كل أحداث حياتك، فيعاد عليك ﴿ثُمَّ يُنَبِّئُكُم بِمَا كُنتُمْ تَعْمَلُونَ﴾.

[٦١] سبق القول: إن للغيب مفتاحين، أحدهما العلم والثاني القدرة أو القهر، والله عالم وقاهر.

﴿وَهُوَ ٱلْقَاهِرُ فَوْقَ عِبَادِهِۦ﴾ وقهر الله ليس كقهر العباد بعضهم لبعض مؤقتاً ومحدوداً، إنما قهره دائم وشامل ومطلق، وربما لذلك عبر الله عنه ﴿فَوْقَ عِبَادِهِۦ﴾ كما أن قهره إنما هو (بالقوة) ولا يجب بالضرورة أن يكون (بالفعل) فالله بالرغم من أنه قاهر فهو رحيم، ولذلك فهو لا يستخدم قهره أحياناً كثيرة، ومن هنا فلربما لو عبر القرآن بـ (وهو القاهر عباده) كان المعنى مختلفاً وناقصاً. إن قهر الله ليس قهراً فعليًّا، بل قد يكون بالقوة فقط، والدليل يكمن في أن الله سبحانه يحيط البشر بالحراس الذين يحفظونه.

﴿وَيُرْسِلُ عَلَيْكُمْ حَفَظَةً﴾ الغلاف الواقي الذي يحيط بالفضاء لكي لا تسقط نيازك السماء على رؤوسنا، والجبال الراسية التي تحفظ الأرض من أن تميد بأهلها، والمحيطات الواسعة التي تمتص الغازات. كلها رسل الله الحفظة لعباده، والغدد المنتشرة في جسم البشر التي تسبب

توازنه، وطريقة توزيع المواد، ونظام مقاومة الميكروبات التي يقوم بها جنود الجسم، والكريات البيض و.. و.. ومئات الأنظمة الدقيقة التي تحرص على سلامة الجسم، كلها حفظة.

ولكن لا يقتصر حفظ الله للبشر على هذه الأمور. بل هناك آلاف الحوادث التي يتعرض لها الإنسان في حياته مما يحتمل أن تكون الواحدة منها كافية للقضاء عليه، فقد يقع الإنسان من علو، أو حتى يعثر في الطريق فيرتطم بالأرض، ولو صادف واصطدم به حجر إذن لقتل، وقد تنحرف سيارته بسبب طبقة ثلجية يميناً أو يساراً لتصطدم بالسيارة الأخرى، ولو زاد انحرافها لارتطمت بالجبل، ولو كان انحرافها بعد ألف متر لوقعت في الوادي لضيق الشارع، ترى كم احتمالاً للهلاك كان قائماً أنجاك الله منه بلطفه.

إن حفظة الله هم الذين يحيطون بك ويدفعون عنك المهالك، ولكن إلى متى؟ إلى حين موعدك، حيث يصبح الحفظة أنفسهم قابضين لروحك ﴿حَتَّىٰٓ إِذَا جَآءَ أَحَدَكُمُ ٱلْمَوْتُ تَوَفَّتْهُ رُسُلُنَا﴾.

والسؤال الذي يقفز إلى الذهن أفلا يخطأ الحفظة، فيقصرون أو يعجزون عن الحفظ حيناً، أو يتوفون الفرد قبل موعده؟.

يجيب القرآن: كلا ﴿وَهُمْ لَا يُفَرِّطُونَ﴾ فالله هو الذي أرسل حفظته، ويحولهم إلى قابضي أرواح، فمن هو المولى الحق للإنسان؟. ومن هو القائد والمعين؟. أليس الله؟!.

[٦٢] إننا سنعود إليه ليحاسبنا على هذه الفترة البسيطة التي أمهلنا فيها دون أن يهملنا ﴿ثُمَّ رُدُّوٓاْ إِلَى ٱللَّهِ مَوْلَىٰهُمُ ٱلْحَقِّۚ أَلَا لَهُ ٱلْحُكْمُ﴾ الحكم هو استعمال حق الولاية ﴿وَهُوَ أَسْرَعُ ٱلْحَٰسِبِينَ﴾ أي القضاة الذين يقضون بالحق.

الاقتراب من الحقيقة في الشدائد

﴿قُلْ مَن يُنَجِّيكُم مِّن ظُلُمَٰتِ ٱلْبَرِّ وَٱلْبَحْرِ تَدْعُونَهُۥ تَضَرُّعًا[1] وَخُفْيَةً[2] لَّئِنْ أَنجَىٰنَا مِنْ هَٰذِهِۦ لَنَكُونَنَّ مِنَ ٱلشَّٰكِرِينَ ﴿٦٣﴾ قُلِ ٱللَّهُ يُنَجِّيكُم مِّنْهَا وَمِن كُلِّ كَرْبٍ ثُمَّ أَنتُمْ تُشْرِكُونَ ﴿٦٤﴾ قُلْ هُوَ ٱلْقَادِرُ عَلَىٰٓ أَن يَبْعَثَ عَلَيْكُمْ عَذَابًا مِّن فَوْقِكُمْ أَوْ مِن تَحْتِ أَرْجُلِكُمْ أَوْ يَلْبِسَكُمْ[3] شِيَعًا[4] وَيُذِيقَ بَعْضَكُم بَأْسَ بَعْضٍ ٱنظُرْ كَيْفَ نُصَرِّفُ ٱلْءَايَٰتِ لَعَلَّهُمْ يَفْقَهُونَ ﴿٦٥﴾﴾.

هدى من الآيات:

في الدروس السابقة بين القرآن جوانب من هيمنة الله على الكون، والبشر بالذات ليزداد الإنسان معرفة بربه، وحبًّا له، وتقرباً إليه، ويستجيب بإرادته الحرة لواقع الولاية الحق التي تنتشر في الحياة وفي أنفسنا آياتها وعلائمها.

وتتابع الآيات في هذا الدرس في ذات الموضوع من زاوية فطرية يعيشها كل منا في حياته، وذلك عندما ترتفع غشاوة الكبر والغفلة، ويتحسس الإنسان بالخطر فيصبح آنئذ اقرب إلى الحقيقة.

ولكن متى نشعر بالأمان المطلق. أولسنا في لحظة الأمان يساورنا الخوف من تجدد ظروف الخطر، أوليس الله -الذي ندعوه عندما تحيط بنا ظلمات البر والبحر، وندعوه تضرعاً وخفية، ودون رياء- قادراً على أن ينزل علينا عذاباً من السماء أو الأرض، أو حتى من أفراد البشر إذن لماذا ندعو الله فقط في أوقات الكرب الظاهر، ولا ندعوه في كل حالة ما دامت كل

(١) تضرعاً: معلنين الضراعة والتذلل.
(٢) خُفية: مسرّين بالدعاء.
(٣) يلبسكم: لبستُ عليهم الأمر ألبسةً إذا لم أبينه، وخلطت بعضه ببعض، ولبستُ الثوب ألبسه، واللبس اختلط الأمر واختلط الكلام، ولابستُ الأمر خالطته.
(٤) شيعاً: الشيع الفرق، وكل فرقة شيعةٍ على حدة، وشيعت فلاناً اتبعته، والتشيع هو الاتباع.

لحظة تحمل في طياتها مخاوف كروب عظيمة؟!.

ولكن فهم هذه الحقيقة بحاجة إلى فقه ومعرفة عميقة بالحقيقة.

بينات من الآيات:

مع الله

[٦٣] اصطدمت سيارتنا بأخرى في طريق صحراوي بعيد.. والوقت بعد منتصف الليل والسحب المتراكمة حجبت ومضات النور المنبعثة عن النجوم، وأخي قطعت ذراعه، وأخذ الدم يتفجر منه كالميزاب، بعضنا أخذ يحاول إيقاف الدم النازف، والبعض الآخر أخذ يتطلع في الظلام لعله يبشر بمرور سيارة. ولكن لا شيء نستطيع فعله ولا ندري هل تأتي سيارة. أم لا؟ الكل حبس أنفاسه في صدره، ويكاد لا يتكلم إلا همساً. القلوب تحلق في فضاء آخر، اتصلت بعالم آخر بالله القادر على أن يرسل من عالم الغيب سيارة أو يلهمنا طريقة ما لوقف الدم.

فجأة يعلو صراخ: حبل، حبل، صاحب الجرح النازف يدعو رفاقه بجلب الحبل، ثم يأمر بشده فوق جرحه.. بشدة، ثم ينقطع الدم إلا قليلاً، ومن وراء الأكَمَة يشع الفضاء بنور خافت، ثم ينكشف هذا النور عن سيارة، وسرعان ما نحمل جريحنا إلى اقرب مركز للطوارئ، وتنتهي الأزمة، ويتبين بعدئذ أن خبراً خاطئاً دعا سيارة الإسعاف التي قدمت أن تسرع إلى المنطقة، ولولاها لما جاءت، وبالتالي تبين أن يداً غيبية هي التي دفعتها إلى هذا الطريق. ترى كيف كنا نعيش في تلك اللحظة، ما الذي كنا نقوله لله في مناجاتنا الخفية؟.

كما نقول لربنا: «اللَّهُمَّ فَرِّجْ كَرْبِي». فسوف تجد أي عباد شاكرين سنكون نحن، سنترك الذنوب مرة واحدة، ولا نظلم الناس، ونتصدق بأموالنا في سبيلك. يا رب يا رب يا رب! كنا نشعر آنئذ بأننا عباد ضعفاء لا نملك لأنفسنا شيئاً، والله رب قوي رحيم، مالك لكل شيء.

إن هذه القصة غير الواقعية هي حقيقة تقع بأشكال مختلفة لكل واحد منا، ولكنه سرعان ما ينساها، والله سبحانه يذكرنا بها في هذه الآية قائلاً: ﴿قُلْ مَن يُنَجِّيكُم مِّن ظُلُمَٰتِ ٱلْبَرِّ وَٱلْبَحْرِ﴾ حين تكاد الأمواج العاتية ابتلاع قارب الصيد الذي نمتطيه.. ولا أمل إلا بالله ﴿تَدْعُونَهُۥ تَضَرُّعًا وَخُفْيَةً﴾.

بسبب شدة الخوف نقول لربنا آنئذ:

﴿لَّئِنْ أَنجَىٰنَا مِنْ هَٰذِهِۦ لَنَكُونَنَّ مِنَ ٱلشَّٰكِرِينَ﴾.

﴿قُلِ ٱللَّهُ يُنَجِّيكُم مِّنۡهَا وَمِن كُلِّ كَرۡبٖ ثُمَّ أَنتُمۡ تُشۡرِكُونَ﴾.

حيث أننا مستعدون بعدئذ لأن ننسب خلاصنا حتى إلى الصدفة دون أن نذكر أن الله هو الذي أنقذنا، وسوف نشكر سيارة الاسعاف، ونشكر الطريق المعبد، ونشكر حتى مبضع الجراح دون أن نشكر ربنا الذي كان المنقذ الحقيقي، والذي توسلنا إليه حين اشتد بنا الكرب.

احتمال عودة الخطر

[٦٥] ولكن هل انتهى الخطر.. أفلا نعود إلى ذات المشكلة، أو لا يمكن أن يهبط علينا عذاب، من السماء أو الأرض.. فمثلاً هل نأمن أن ينفجر البركان قريباً من قريتنا فيقذفنا بحمم، أو يزلزل الأرض بنا فتخسف بنا وبما نملكه.

﴿قُلۡ هُوَ ٱلۡقَادِرُ عَلَىٰٓ أَن يَبۡعَثَ عَلَيۡكُمۡ عَذَابٗا مِّن فَوۡقِكُمۡ أَوۡ مِن تَحۡتِ أَرۡجُلِكُمۡ﴾ وهناك خطر آخر وأشد هو خطر الناس بعضهم ضد بعض، حيث يختلفون على بعضهم.

﴿أَوۡ يَلۡبِسَكُمۡ شِيَعٗا وَيُذِيقَ بَعۡضَكُم بَأۡسَ بَعۡضٍۗ﴾ كم دمرت الحروب البلاد، وأجرت أنهر الدم. هل كان يستطيع هذا الفريق أو ذاك النجاة من ويلاتها؟! إن الله هو القادر على إقامة الصلح العادل أو إلقاء الرعب المتبادل في نفوس المتخاصمين لئلا يبادر أحدهما بالهجوم على الآخرين حتى يأذن الله بغير ذلك.

﴿ٱنظُرۡ كَيۡفَ نُصَرِّفُ ٱلۡأٓيَٰتِ لَعَلَّهُمۡ يَفۡقَهُونَ﴾ إن الله يوضح آياته حتى لا يكون البشر سطحيًّا ينظر إلى ظواهر الحوادث بل يتعمق إلى أغوارها البعيدة، ويبقى على البشر أن يتذكر بتلك الآيات.

مواقف الناس من آيات الله

﴿وَكَذَّبَ بِهِ قَوْمُكَ وَهُوَ الْحَقُّ قُل لَّسْتُ عَلَيْكُم بِوَكِيلٍ (٦٦) لِّكُلِّ نَبَإٍ مُّسْتَقَرٌّ وَسَوْفَ تَعْلَمُونَ (٦٧) وَإِذَا رَأَيْتَ الَّذِينَ يَخُوضُونَ فِي آيَاتِنَا فَأَعْرِضْ عَنْهُمْ حَتَّىٰ يَخُوضُوا فِي حَدِيثٍ غَيْرِهِ وَإِمَّا يُنسِيَنَّكَ الشَّيْطَانُ فَلَا تَقْعُدْ بَعْدَ الذِّكْرَىٰ مَعَ الْقَوْمِ الظَّالِمِينَ (٦٨) وَمَا عَلَى الَّذِينَ يَتَّقُونَ مِنْ حِسَابِهِم مِّن شَيْءٍ وَلَٰكِن ذِكْرَىٰ لَعَلَّهُمْ يَتَّقُونَ (٦٩)﴾.

هدى من الآيات:

في الدروس السابقة حدثنا القرآن الحكيم عن مجموعة من الآيات، وفي هذا الدرس يبين اختلاف الناس في مواقفهم من هذه الآيات، وهو موقف الرفض أو اللامبالاة أو الاستجابة، فهناك من يكذب بالحق من قوم الرسول ﷺ، بيد أن الرسول ﷺ لن يغني عنهم شيئاً بحجة أنهم قومه، أما الحق فإنه إذا جاء موعد تطبيقه في المستقبل فسوف يعلم الناس ماذا يعني وما هي أهميته.

ومن الناس من يتخذ آيات الله هزواً يتسلى بها دون أن يتخذها ويعمل بها. هؤلاء يجب التباعد عنهم لأنهم قوم ظالمون، وقد ينخدع الإنسان الساذج بمظهرهم حيث يتظاهرون بأنهم لا يخالفون الحق، وآنئذ يجب أن يقرر ألا يعود إلى القعود معهم.

ومنهم من يستجيب للحق، ويتقي الله وهم السعداء الذين سوف يغفر الله لهم.

بينات من الآيات:

التكذيب والمسؤولية

[٦٦] للإنسان أمام الحق ثلاثة مواقف. موقف الاستجابة أو الرفض أو اللامبالاة،

وفي هذه الآية يناقش القرآن الموقف الثاني فيقول: ﴿وَكَذَّبَ بِهِۦ قَوْمُكَ وَهُوَ ٱلْحَقُّ ۚ قُل لَّسْتُ عَلَيْكُم بِوَكِيلٍ﴾ فالإنسان نفسه هو المسؤول المباشر عن قبوله أو رفضه للحق وليس مبلغ رسالة الحق، والواقع أن علم الإنسان بمسئوليته أمام تصرفاته سوف يساعده كثيراً على اتخاذ الموقف السليم، أما لو زعم أن بإمكانه أن يبرر موقفه، ويلقي بمسئوليته على هذا أو ذاك، فإنه سيكون سبباً لعدم الاهتمام بالحق.

[٦٧] والقرآن يهدد المكذبين بما يرونه في المستقبل. حيث يتجلى الحق في شكل واقع قائم ويقول: إن النبأ الذي عبر عنه الله وهو الحق سيتحقق في الوقت المحدد له سلفا، وآنئذ يعلم الإنسان كم خسر بتكذيبه بالنبأ. إن الطبيب يخبرك بوجود خلية فاسدة في رجلك ويأمرك بالإسراع في العلاج، ولكنك قد تكذبه فيتخذ المرض خطه المتصاعد، فينتشر السرطان في الجسد في الوقت المحدد له حسب سنة الحياة، وأنظمة الجسم وآنئذ يعلم الإنسان مدى خطئه عندما كذب بالنبأ، كذلك رسالة الله مجموعة أنباء صادقة، ولها أوقاتها المحددة (مستقرها) التي تتحقق فيها، وآنئذ يعلم المكذب حقيقة الأمر ﴿لِّكُلِّ نَبَإٍ مُّسْتَقَرٌّ ۚ وَسَوْفَ تَعْلَمُونَ﴾.

تمييع الأحكام

[٦٨] والموقف الثاني من الحق وهو موقف اللامبالاة، واستخدام الآيات مادة للحديث اللامسئول، أو حتى للتسلية.

وهؤلاء أخطر من المكذبين إذ أنهم يميعون الحق، ويفرغون الحديث من محتواه الحقيقي، ويحولونه إلى مادة للجدل، وقضاء للوقت، والمباراة وإظهار الوجود، وبذلك يغيرون نظرة الإنسان إلى الكلام من نظرة عبرية هدفها العمل، إلى نظرة ذاتية هدفها التسلية، ولذلك يجب مقاطعة مجالس هؤلاء وعدم الخوض معهم في جدلياتهم الفارغة، وتركهم وحدهم يأكل بعضهم بعضاً.

﴿وَإِذَا رَأَيْتَ ٱلَّذِينَ يَخُوضُونَ فِىٓ ءَايَٰتِنَا فَأَعْرِضْ عَنْهُمْ حَتَّىٰ يَخُوضُوا۟ فِى حَدِيثٍ غَيْرِهِۦ ۚ﴾ ولكن كثيراً ما ينسى الإنسان هذا الحكم بسبب تظاهر هذه الفئة بالعلمية وأنهم إنما يبحثون عن الحقيقة بهذه الجدليات. لذلك ذكرنا القرآن بخطورة النسيان قال: ﴿وَإِمَّا يُنسِيَنَّكَ ٱلشَّيْطَٰنُ فَلَا تَقْعُدْ بَعْدَ ٱلذِّكْرَىٰ مَعَ ٱلْقَوْمِ ٱلظَّٰلِمِينَ﴾ لقد سمى الله هؤلاء بالظالمين بالرغم من تظاهرهم بالبحث عن الحقيقة. لأن من يبحث عن الحق فعلاً سيجده من دون تعب ولا حاجة إلى الجدال.

الموقف السليم

[٦٩] أما الموقف السليم من الحق فهو: الاستجابة له عمليًّا، وهي التقوى، واحترام الحق الذي نبأ به الله، وحينئذ يكون خط المتقي سليماً في اتجاهه العام بالرغم من بعض الانحرافات البسيطة، أو بعض الأخطاء العملية، ومع سلامة الخط العام لا يحاسب الشخص بشيء من الأخطاء البسيطة.

﴿وَمَا عَلَى ٱلَّذِينَ يَتَّقُونَ مِنْ حِسَابِهِم مِّن شَيْءٍ﴾ وهدف الوحي من هؤلاء هو إيصالهم إلى مستوى التقوى، وإبقاؤهم على هذا المستوى، وذلك عن طريق تذكرهم المستمر حتى لا يغلبهم نعاس النسيان، أو سكر الغفلة ﴿وَلَٰكِن ذِكْرَىٰ لَعَلَّهُمْ يَتَّقُونَ﴾.

أسباب حيرة المبلسين

﴿ وَذَرِ ٱلَّذِينَ ٱتَّخَذُواْ دِينَهُمْ لَعِبًا وَلَهْوًا وَغَرَّتْهُمُ ٱلْحَيَوٰةُ ٱلدُّنْيَا ۚ وَذَكِّرْ بِهِۦٓ أَن تُبْسَلَ[1] نَفْسٌۢ بِمَا كَسَبَتْ لَيْسَ لَهَا مِن دُونِ ٱللَّهِ وَلِىٌّ وَلَا شَفِيعٌ وَإِن تَعْدِلْ كُلَّ عَدْلٍ لَّا يُؤْخَذْ مِنْهَآ ۗ أُوْلَٰٓئِكَ ٱلَّذِينَ أُبْسِلُواْ بِمَا كَسَبُواْ ۖ لَهُمْ شَرَابٌ مِّنْ حَمِيمٍ وَعَذَابٌ أَلِيمٌۢ بِمَا كَانُواْ يَكْفُرُونَ ﴿٧٠﴾ قُلْ أَنَدْعُواْ مِن دُونِ ٱللَّهِ مَا لَا يَنفَعُنَا وَلَا يَضُرُّنَا وَنُرَدُّ عَلَىٰٓ أَعْقَابِنَا بَعْدَ إِذْ هَدَىٰنَا ٱللَّهُ كَٱلَّذِى ٱسْتَهْوَتْهُ[2] ٱلشَّيَٰطِينُ فِى ٱلْأَرْضِ حَيْرَانَ[3] لَهُۥٓ أَصْحَٰبٌ يَدْعُونَهُۥٓ إِلَى ٱلْهُدَى ٱئْتِنَا ۗ قُلْ إِنَّ هُدَى ٱللَّهِ هُوَ ٱلْهُدَىٰ ۖ وَأُمِرْنَا لِنُسْلِمَ لِرَبِّ ٱلْعَٰلَمِينَ ﴿٧١﴾ وَأَنْ أَقِيمُواْ ٱلصَّلَوٰةَ وَٱتَّقُوهُ ۚ وَهُوَ ٱلَّذِىٓ إِلَيْهِ تُحْشَرُونَ ﴿٧٢﴾ وَهُوَ ٱلَّذِى خَلَقَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ بِٱلْحَقِّ ۖ وَيَوْمَ يَقُولُ كُن فَيَكُونُ ۚ قَوْلُهُ ٱلْحَقُّ ۚ وَلَهُ ٱلْمُلْكُ يَوْمَ يُنفَخُ فِى ٱلصُّورِ ۚ عَٰلِمُ ٱلْغَيْبِ وَٱلشَّهَٰدَةِ ۚ وَهُوَ ٱلْحَكِيمُ ٱلْخَبِيرُ ﴿٧٣﴾ ﴾.

هدى من الآيات:

فيما مضى سبق القول في أن وجود الآيات في الكون وظهورها لا يكفي لهداية البشر،

(١) تبسلَ: يقال أبلسته بجريرته أي أسلمته بها، والمستبسل المستسلم الذي يعلم أنه لا يقدر على التخلص، وهذا بسلٌ عليك أي حرام عليك، ولتضمنه لمعنى المنع قيل للمحرم والمرتهن بسل أي حرم الثوب، والفرق بين الحرام والبسل أن الحرام عامٌ فيما كان ممنوعاً منه بالحكم والقهر، والبسل هو الممنوع منه بالقهر.

(٢) استهوته: حملته على اتباع الهدى.

(٣) حيران: المتردد في أمر لا يهتدي إلى الخروج منه.

إذ لابد أن يكون جهاز الإدراك عنده سليماً، فمثلاً لو اتخذ الفرد دينه لعباً ولهوا فكم تستطيع الآيات أن تكون نافعة له.. لا شيء، هؤلاء هم الذين أبسلت أنفسهم، بما كسبت من سيئات، وحجبت الشهوات نور عقولهم، فلا تنفعهم الموعظة بل يجب تركهم إلى حين بلوغهم جزائهم عند الله. حيث يعذبون بشراب من حميم، وعذاب أليم. جزاء ما طعموا من الشهوات الحرام، وبما كفروا بالرسالة.

وقد يبلغ حال الواحد منهم وضعاً مزرياً حيث يتخذ من دون الله أرباباً -هم أصحاب المال والزينة- ويترك هدى الله، ويكون مثله كمن اخترق الصحراء مع أصحابه، ولكنه ابتلي بالشياطين، وفقد وعيه، وأخذ يدور من دون فهم ويتبع الشياطين ويترك الصراط المستقيم، والتسليم لله رب العالمين.

بينات من الآيات:

موقفنا منهم

[٧٠] إننا كبشر نشعر بفطرتنا النقية. أن الطعام والجنس والراحة كلها وسائل للإبقاء على الحياة، أما هدف الحياة فهو شيء آخر، قد نختلف في تحديده تبعاً لاختلاف ثقافتنا، ولكننا نكاد لا نختلف في أصله، بيد أن هناك من يتخذ دينه وهدفه الشهوات، ويزعم أن اللذة هي الهدف الأساسي من الحياة، أما الدين الحق فيتخذه لعباً يفسره كيف تشاء شهواته، ولهواً يتسلى بطقوسه، أو بالحديث حوله، أما إذا جد الجد فإنه يتبرأ من الدين، وموقف المؤمن من هؤلاء هو المقاطعة.

﴿ وَذَرِ ٱلَّذِينَ ٱتَّخَذُواْ دِينَهُمْ لَعِبًا وَلَهْوًا وَغَرَّتْهُمُ ٱلْحَيَوٰةُ ٱلدُّنْيَا ﴾ وإنما يهبط البشر إلى هذا الحضيض بسبب تورطه في الشهوات، وتعوده على اللذات والراحة والكسل، حيث أبسلت نفسه.

والخلاص الوحيد من ظلمات الجهل والعادة هو التذكر المستمر الذي هو بمثابة حزمة نور، تخرق حجاب العادة إلى القلب ﴿وَذَكِّرْ بِهِۦٓ أَن تُبْسَلَ نَفْسٌۢ بِمَا كَسَبَتْ ﴾ أما إذا أبسلت النفس فإن الله سبحانه سوف يلعنها، ولا يقبل منها شفيعاً، وليس لها ولي من دونه.

﴿لَيْسَ لَهَا مِن دُونِ ٱللَّهِ وَلِيٌّ وَلَا شَفِيعٌ وَإِن تَعْدِلْ كُلَّ عَدْلٍ لَّا يُؤْخَذْ مِنْهَآ ﴾ إن العدل لا يقبل من هذه النفس التي أبسلت، وهذا هو مصير الذين أحاطت بهم ذنوبهم التي اكتسبوها.

﴿أُوْلَٰٓئِكَ ٱلَّذِينَ أُبْسِلُواْ بِمَا كَسَبُواْۖ﴾ مصيرهم في الدنيا ظلمات في قلوبهم، أما في الآخرة فـ: ﴿لَهُمْ شَرَابٌ مِّنْ حَمِيمٍ وَعَذَابٌ أَلِيمُۢ بِمَا كَانُواْ يَكْفُرُونَ﴾ بآيات الله، ويتخذونها لعباً ولهوا. إذ أن الذنوب سبب ظلمات القلب، وهي سبب الكفر، والكفر يؤدي إلى النار.

[٧١] وهناك فئة ضالة قد اتخذت أرباباً من دون الله، والتزمت بطقوس لم ينزل الله بها سلطاناً، وربما تكون هذه الفئة هي امتداد نوعي للفئة الأولى، إذ حين يكتسب الفرد السيئات، ويحتجب عنه نور العقل تتحول فطرة التدين عند هذا الشخص إلى الأرباب التي تعبد من دون الله، فيزعم صاحبها أن تلك الأرباب هي تطبيق لفطرة الإيمان التي يشعر بهـا، وربما لذلك ذكر القرآن هذه الفئة بعد تلك الفئة قائلاً: ﴿قُلْ أَنَدْعُواْ مِن دُونِ ٱللَّهِ مَا لَا يَنفَعُنَا وَلَا يَضُرُّنَا﴾ لماذا يعبد البشر شيئاً لايضر ولا ينفع ما دام لا يمثل الحق، ولماذا يتقيد به إذن، ويخضع له؟!

وما هي المنفعة من وراء ذلك؟! إنه ليس إلا ردة في مسيرة البشر، ومسخ لطبيعته الحرة الكريمة ﴿وَنُرَدُّ عَلَىٰٓ أَعْقَابِنَا بَعْدَ إِذْ هَدَىٰنَا ٱللَّهُ﴾ وهداية الله تتمثل:

أولاً: في الهداية الفطرية.

ثانياً: في هداية الرسل.

وكثيراً من الناس ينحرفون بعد الهداية الفطرية، أما بعد الهداية الرسالية فإن الانحراف ضلالة كبرى يشبهها القرآن الحكيم بالذي يسير في الصحراء، ثم يضل السبيل بسبب تضليل الشياطين له، حيث يدلونه على الطرق المنحرفة، وفي هذا الوقت يجد الرجل من يدعوه إلى الهدى، متمثلاً في أصحابه الذين يدعونه إلى السبيل القويم الذي يسيرون فيه، فإنه لو لم يقبل نصيحة أصحابه فسوف لا تكون لديه أية حجة في البقاء في الضلالة، إذ أن أصحابه قد أتموا عليه الحجة ووفروا له فرصة الخلاص من استهواء الشياطين.

﴿كَٱلَّذِى ٱسْتَهْوَتْهُ ٱلشَّيَٰطِينُ فِى ٱلْأَرْضِ حَيْرَانَ لَهُۥٓ أَصْحَٰبٌ يَدْعُونَهُۥٓ إِلَى ٱلْهُدَى ٱئْتِنَاۗ﴾ هذا الرجل يشبه الإنسان في تيه الحياة، وقد أحاطت به شياطين الشهوات، وأضلوه عن سواء السبيل، وحجبوا فطرته النقية بركام من الخرافات الباطلة، ثم جاءه هدى الله مساعداً لفطرته، موضحاً له سبيل الهداية.

﴿قُلْ إِنَّ هُدَى ٱللَّهِ هُوَ ٱلْهُدَىٰۖ﴾ وعلينا أن نتبع سبيل الله، ونسلم له الذي أسلمت له السماوات والأرض ﴿وَأُمِرْنَا لِنُسْلِمَ لِرَبِّ ٱلْعَٰلَمِينَ﴾.

الصلاة معراج المؤمن

[٧٢] ولكي نتبعه، ونخضع له ونسلم، فعلينا أن نقيم الصلاة نصليها بخضوع وخشوع، ونديم عليها مع العمل بضروراتها، في حياتنا الاجتماعية، ومن ضروراتها التقوى إذ أن الصلاة معراج المؤمن وهي تنهى عن الفحشاء والمنكر، ومن شروط إقامتها الانتهاء فعلاً عن الفحشاء والمنكر، كما أن الخوف من الآخرة حين يحشر الفرد إلى ربه واحدة من فوائد الصلاة المهمة ﴿وَأَنْ أَقِيمُوا الصَّلَوٰةَ وَاتَّقُوهُ وَهُوَ الَّذِي إِلَيْهِ تُحْشَرُونَ﴾.

إرادة الله بين الكاف والنون

[٧٣] والله الذي يجب التسليم له، هو الذي يمثل الحق، والحق يعني أن هناك واقعيات قائمة خارج الفكر، وأنها تدار بأنظمة (السنن) ثابتة، وأن على الإنسان أن يسعى من أجل توفيق نفسه، وتطبيق أعماله على أساس الحق، ولكن دون أن يزعم أن هذه الأنظمة هي آلهة، فيعبدها كما يعبد الغرب اليوم أنظمة الحياة القائمة.. كلا.. عليه أن يعرف: أن فوق الحق إرادة الله التي تخلق ما تشاء بكلمة واحدة هي ﴿كُن﴾ فليعبد الله الذي له ملك الحياة الآن ومستقبلاً، وهو الذي يجازي الناس على أعمالهم، وهو العالم بالغيب (المستقبل والماضي) والعالم بالشهادة، فعلمه بالحقائق القائمة، علم شامل ماذا كانت سابقاً، وماذا تكون عليه مستقبلاً.

﴿وَهُوَ الَّذِي خَلَقَ السَّمَٰوَٰتِ وَالْأَرْضَ بِالْحَقِّ وَيَوْمَ يَقُولُ كُن فَيَكُونُ قَوْلُهُ الْحَقُّ﴾ لأولئك بقوله هذا خلق الأشياء، وأجرى فيها الأنظمة، وبقوله تطمئن الحياة، وتستمر وفق الأنظمة.

﴿وَلَهُ الْمُلْكُ يَوْمَ يُنفَخُ فِي الصُّورِ عَٰلِمُ الْغَيْبِ وَالشَّهَٰدَةِ وَهُوَ الْحَكِيمُ الْخَبِيرُ﴾ فمن أولى به معبوداً نسلم له الأمور؟.

الشك المنهجي طريق إلى اليقين

﴿ وَإِذْ قَالَ إِبْرَٰهِيمُ لِأَبِيهِ ءَازَرَ أَتَتَّخِذُ أَصْنَامًا ءَالِهَةً إِنِّىٓ أَرَىٰكَ وَقَوْمَكَ فِى ضَلَـٰلٍ مُّبِينٍ ﴿٧٤﴾ وَكَذَٰلِكَ نُرِىٓ إِبْرَٰهِيمَ مَلَكُوتَ ٱلسَّمَـٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ وَلِيَكُونَ مِنَ ٱلْمُوقِنِينَ ﴿٧٥﴾ فَلَمَّا جَنَّ عَلَيْهِ ٱلَّيْلُ رَءَا كَوْكَبًا ۖ قَالَ هَـٰذَا رَبِّى ۖ فَلَمَّآ أَفَلَ قَالَ لَآ أُحِبُّ ٱلْـَٔافِلِينَ ﴿٧٦﴾ فَلَمَّا رَءَا ٱلْقَمَرَ بَازِغًا[1] قَالَ هَـٰذَا رَبِّى ۖ فَلَمَّآ أَفَلَ[2] قَالَ لَئِن لَّمْ يَهْدِنِى رَبِّى لَأَكُونَنَّ مِنَ ٱلْقَوْمِ ٱلضَّآلِّينَ ﴿٧٧﴾ فَلَمَّا رَءَا ٱلشَّمْسَ بَازِغَةً قَالَ هَـٰذَا رَبِّى هَـٰذَآ أَكْبَرُ ۖ فَلَمَّآ أَفَلَتْ قَالَ يَـٰقَوْمِ إِنِّى بَرِىٓءٌ مِّمَّا تُشْرِكُونَ ﴿٧٨﴾ إِنِّى وَجَّهْتُ وَجْهِىَ لِلَّذِى فَطَرَ ٱلسَّمَـٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ حَنِيفًا ۖ وَمَآ أَنَا۠ مِنَ ٱلْمُشْرِكِينَ ﴿٧٩﴾ ﴾.

هدى من الآيات:

كيف يتدرج الإنسان في مراحل الإيمان؟.

يبدأ الإنسان رحلته الإيمانية ابتداء من نقطة الشك، وعدم الثقة المطلقة بما يتخيله هذا أو ذاك من أفكار أو أهواء.

والشك يرفع عن بصيرة الفرد حجاب الأفكار المسبقة، ويحرك فكره ويضيء عقله، فيرى بذاته ما وراء السماوات والأرض من علم وقدرة وحكمة، وبذلك يهتدي بإذن الله إلى الحق فيصبح موفقاً.

---

(١) بازغاً: البزوغ: الطلوع، يقال بزغت الشمس إذا طلعت.
(٢) أفل: غاب.

العقل يهدي الفرد إلى أن الإله لن يكون متغيراً، وأنه فوق القوى، وأن لا سلطان على سلطانه، وحين يرى الفرد الكواكب والقمر والشمس كل يأفل عندما يصل وقت أفوله يتيقن أن كل أولئك ليسوا بآلهة.

ومن خلال التطلع إلى الظواهر الكونية والإيمان بأنها لا تصلح أن تكون آلهة. وقد عرف إبراهيم حقائق أخرى منها: أن الذي يهديك إلى الله هو الله ذاته، وأن ما لا يصلح أن يكون إلهاً لا يصلح أن يكون نصف إله، وأن يشرك به شيئاً، ولذلك يجب رفض جميع الآلهة إلا الله.

بينات من الآيات:

نعم للاحترام لا للعبودية

[٧٤] من دون تضحية لاتبلغ الحقائق، والعلم كأي مكسب آخر بحاجة إلى جهد بل إلى جهاد وتحد، إن البشر معرض لأن تستعبده القوى الطاغوتية أو الطبيعية، لذلك يبدأ البشر تحرره بالتحرر العقائدي. وإبراهيم كأي شخص آخر في مجتمع الجاهلية قد عرض لعبودية الطاغوت، ولكنه رفضها وتحداها. إن الطاغوت يصنع جوًّا فكريًّا في المجتمع، يؤيده ويبرر أخطاءه. وهذا الجو يضغط على الإنسان من خلال تعامله مع أقرب الناس إليه، أي من والديه ومربيه الذين يغذونه بالأفكار الباطلة، ويدعون أنهم محترمون، ولذلك فإن أفكارهم يجب أن تحترم هي الأخرى. وإبراهيم كمثل أعلى للمؤمن الرسالي رفض هذه الأفكار، وكان شعاره الاحترام للوالد نعم. أما للعبودية فلا ﴿وَإِذْ قَالَ إِبْرَٰهِيمُ لِأَبِيهِ ءَازَرَ أَتَتَّخِذُ أَصْنَامًا ءَالِهَةً﴾ لم يقل هذا الكلام الفض لأخيه الأصغر منه، أو لرفيقه أو لزميله، كلا.. لأن الضغط الذي كان يمارسه عليه المجتمع النزوة كان بسبب أبيه آزر.

وآزر لم يلد إبراهيم، فهو لم يكن والده -حسب الكثير من الروايات المفسرة لآيات قصة إبراهيم- بل هو عمه الذي رباه، فخاطبه إبراهيم بالأبوة، وذكره القرآن ليذكرنا بأن الإيمان يبدأ من رفض الخضوع لأقوى سلطة اجتماعية على الفرد، وهي سلطة المربي والكفيل، ثم أعقب إبراهيم رفضه لأبيه برفضه لسلطة المجتمع الجاهلي وقال: ﴿إِنِّيٓ أَرَىٰكَ وَقَوْمَكَ فِي ضَلَٰلٍ مُّبِينٍ﴾.

إن الخوف من المجتمع لا يدعك تفهم الحقائق، لأنك آنئذ لا تشكك نفسك بتلك الأفكار الباطلة، فتستمر عليها، ولذلك تجد الناس عادة يؤمنون بأفكار مجتمعهم، حتى قيل: بأن المجتمع صنم الفرد، حتى أن بعضهم آمن بالحتمية الاجتماعية، لذلك فعليك أن تتشبع بالثقة بذاتك حتى تتحدى الناس جميعاً.

كيف نحصل على اليقين؟

[٧٥] حين تخلص إبراهيم من ضغط مجتمعه أراه الله ملكوت السماوات والأرض المتمثلة في فهم تلك القوة التي تملكها وتدبرها.

﴿ وَكَذَٰلِكَ نُرِيٓ إِبۡرَٰهِيمَ مَلَكُوتَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلۡأَرۡضِ وَلِيَكُونَ مِنَ ٱلۡمُوقِنِينَ ﴾ أي ليخرج من الشك إلى اليقين. إن الذي أوتي قدرة الشك قادر على أن يصل بإذن الله إلى ذروة اليقين، والشك لا يختص بالمجتمع، أو بالمربي، بل وأيضاً بالأفكار السابقة والخاطئة التي يزعم الفرد أنها صحيحة في بعض مراحل حياته، كما نَرَى في قصة إبراهيم عليه السلام الشجاعة الكافية في إعلان رفض أفكار مجتمعه السابقة كما نرى لاحقاً، والقصة تستعرض هذه الحقائق في خطوات رمزية قام بها الخليل عليه السلام.

[٧٦] حين يهيمن الظلام على الكون يبحث الفرد عن أي نور، فيرى الكوكب فيزعم أنه إله لأنه أنقذه من ظلام دامس، وهذه العقيدة العاجلة قد تكون نتيجة هيبة الظلام، والخشية منه.

﴿فَلَمَّا جَنَّ عَلَيۡهِ ٱلَّيۡلُ رَءَا كَوۡكَبٗاۖ قَالَ هَٰذَا رَبِّيۖ ﴾ وقد يكون هذا رمزاً لحالة الشك، التي تزعج البشر، فيبحث عن مخلص له منه، فيتعجل بقبول أية ومضة نور تخلصه من حالة الشك، فإذا به يعتقد بأول فرضية تطرأ على ذهنه أو تبرق أمام عينه، ولكن وجود الفرضيات الباطلة عند الفرد ليس عيباً، إنما العيب هو أن يستمر عليها بعد أن تثبت عنده أنها باطلة، وإبراهيم عليه السلام كانت له هذه الشجاعة أن يتحدى البيئة الثقافية المحيطة به ويعلن كفره بعبادة الكواكب بعد أن تظاهر بقبولها مقدمة لرفضها[1].

---

(١) روى الشيخ الصدوق في التوحيد ص٧٥ عن علي بن محمد بن الجهم قَالَ: حَضَرْتُ مَجْلِسَ الْمَأْمُونِ وَعِنْدَهُ الرِّضَا عَلِيُّ بْنُ مُوسَى عليه السلام فَقَالَ لَهُ الْمَأْمُونُ: «يَا ابْنَ رَسُولِ اللَّهِ أَلَيْسَ مِنْ قَوْلِكَ أَنَّ الْأَنْبِيَاءَ مَعْصُومُونَ. قَالَ عليه السلام: بَلَى. قَال فَسَأَلَهُ عَنْ آيَاتٍ مِنَ الْقُرْآنِ فَكَانَ فِيمَا سَأَلَ أَنْ قَالَ لَهُ: فَأَخْبِرْنِي عَنْ قَوْلِ اللَّهِ عَزَّ وَجَلَّ فِي إِبْرَاهِيمَ عليه السلام: ﴿فَلَمَّا جَنَّ عَلَيۡهِ ٱلَّيۡلُ رَءَا كَوۡكَبٗاۖ قَالَ هَٰذَا رَبِّيۖ ﴾ فَقَالَ الرِّضَا عليه السلام: إِنَّ إِبْرَاهِيمَ عليه السلام وَقَعَ إِلَى ثَلَاثَةِ أَصْنَافٍ صِنْفٍ يَعْبُدُ الزُّهَرَةَ وَصِنْفٍ يَعْبُدُ الْقَمَرَ وَ صِنْفٍ يَعْبُدُ الشَّمْسَ وَذَلِكَ حِينَ خَرَجَ مِنَ السَّرَبِ الَّذِي أُخْفِيَ فِيهِ فَلَمَّا جَنَّ عَلَيْهِ اللَّيْلُ فَرَأَى الزُّهَرَةَ فَقَالَ هَذَا رَبِّي عَلَى الْإِنْكَارِ وَالِاسْتِخْبَارِ فَلَمَّا أَفَلَ الْكَوْكَبُ قَالَ: ﴿لَآ أُحِبُّ ٱلۡأٓفِلِينَ ﴾ لِأَنَّ الْأُفُولَ مِنْ صِفَاتِ الْحَدَثِ لَا مِنْ صِفَاتِ الْقِدَمِ ﴿فَلَمَّا رَءَا ٱلۡقَمَرَ بَازِغٗا قَالَ هَٰذَا رَبِّيۖ ﴾ عَلَى الْإِنْكَارِ وَالِاسْتِخْبَارِ فَلَمَّا أَفَلَ قَالَ: ﴿لَئِن لَّمۡ يَهۡدِنِي رَبِّي لَأَكُونَنَّ مِنَ ٱلۡقَوۡمِ ٱلضَّآلِّينَ ﴾ يَقُولُ لَوْ لَمْ يَهْدِنِي رَبِّي لَكُنْتُ مِنَ الْقَوْمِ الضَّالِّينَ فَلَمَّا أَصْبَحَ وَ رَأَى الشَّمْسَ بازِغَةً: ﴿قَالَ هَٰذَا رَبِّي هَٰذَآ أَكۡبَرُۖ ﴾ مِنَ الزُّهَرَةِ وَ الْقَمَرِ عَلَى الْإِنْكَارِ وَ الِاسْتِخْبَارِ لَا عَلَى الْإِخْبَارِ وَ الْإِقْرَارِ فَلَمَّا أَفَلَتْ قَالَ: لِلْأَصْنَافِ الثَّلَاثَةِ مِنْ عَبَدَةِ الزُّهَرَةِ وَالْقَمَرِ وَالشَّمْسِ ﴿قَالَ يَٰقَوۡمِ =

الفطرة هي الدليل

إن الفرضيات الباطلة قد يكون بطلانها واضحاً بدرجة أن ردها لا يحتاج إلى دليل، بل يكفي أن تراجع فطرتك لتوضح لك بطلانها، لذلك قال إبراهيم عليه السلام بعد أن أفل الكوكب: إني لا أحبه.

﴿فَلَمَّآ أَفَلَ قَالَ لَآ أُحِبُّ ٱلْآفِلِينَ﴾ الحب هو الفطرة النقية قبل أن يصبح فكرة مستدلة متكاملة، وحين تكون علاقة الإنسان بربه علاقة الحب، حيث يحب الإنسان ربه بصورة طبيعية. ما دام ربه سبحانه قد أغدق عليه نعمه ظاهرة وباطنة فيكون عدم وجود هذا الحب بالنسبة إلى الكوكب دليلا على أنه ليس بآلهة حتماً! لأن الله ينعم على البشر ليلاً نهاراً، أما الكوكب فإنه يأفل نهاراً.

ومن المعلوم أن بعض الناس لا يزالون يعبدون النجوم، ويزعمون أنها ذات أثر فعال في مصير الإنسان، وقد كان عمل إبراهيم ردًّا صارخاً لمثل هؤلاء الذين كانوا موجودين آنئذ.

[٧٧] ثم انتظر إبراهيم حتى بزغ القمر، فإذا بذلك النور الهادئ الذي ينساب على الطبيعة بعفوية وسخاء يعجب الجاهلين، فقال إبراهيم مسايرة لهم تمهيداً لمواجهة جهلهم أو قال استنكاراً: ﴿فَلَمَّا رَءَا ٱلْقَمَرَ بَازِغًا قَالَ هَٰذَا رَبِّي﴾ وربما يكون بزوغ القمر هو السبب في عدم الرفض المباشر له، وقد يكون تعلق الإنسان بالقمر رمزاً للفرضية الباطلة التي هي ليست إلا مجرد ضغط حالة الشك، وعذاب الفراغ الفكري عند الإنسان.

﴿فَلَمَّآ أَفَلَ قَالَ لَئِن لَّمْ يَهْدِنِي رَبِّي لَأَكُونَنَّ مِنَ ٱلْقَوْمِ ٱلضَّآلِّينَ﴾ وهكذا بيَّن إبراهيم عليه السلام أن الهدى لابد أن يكون من الله، ذلك أن الشك مفيد في رفض الباطل ولكنه لا ينفع في الوصول إلى الحق وإنما بالتوكل على الله وطلب الهداية منه يتسنى للإنسان الوصول إلى الحقيقة.

بك عرفتك

أما كيف يدرك الإنسان أن القوة التي يجب انتظار دعمها وهو يبحث عن الحقيقة هي قوة الله؟.

= إِنِّي بَرِيٓءٌ مِّمَّا تُشْرِكُونَ ﴿٧٨﴾ إِنِّي وَجَّهْتُ وَجْهِيَ لِلَّذِي فَطَرَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ حَنِيفًا وَمَآ أَنَا۠ مِنَ ٱلْمُشْرِكِينَ﴾ وَإِنَّمَا أَرَادَ إِبْرَاهِيمُ بِمَا قَالَ أَنْ يُبَيِّنَ لَهُمْ بُطْلَانَ دِينِهِمْ وَيُثْبِتَ عِنْدَهُمْ أَنَّ الْعِبَادَةَ لَا تَحِقُّ لِمَا كَانَ بِصِفَةِ الزُّهَرَةِ وَالْقَمَرِ وَ الشَّمْسِ وَإِنَّمَا تَحِقُّ الْعِبَادَةُ لِخَالِقِهَا وَخَالِقِ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ وَكَانَ مَا احْتَجَّ بِهِ عَلَى قَوْمِهِ بِمَا أَلْهَمَهُ اللَّهُ عَزَّ وَجَلَّ وَآتَاهُ كَمَا قَالَ عَزَّ وَجَلَّ ﴿وَتِلْكَ حُجَّتُنَآ ءَاتَيْنَٰهَآ إِبْرَٰهِيمَ عَلَىٰ قَوْمِهِۦ﴾. فَقَالَ الْمَأْمُونُ: لِلَّهِ دَرُّكَ يَا ابْنَ رَسُولِ اللَّهِ».

فإن فطرة الإنسان تهديه إلى وجود سنن ونظم في هذا الكون المهيب، وأن الطبيعة تسير وفق نظام. الشمس والقمر والنجوم كلها تسير وفق خطة مرسومة. من الذي يهدي الشمس إلى مسيرتها، والقمر إلى فلكه، والنجوم إلى مراسيها؟ إنه الله. إنه خالقها، إذن فعلينا نحن أيضاً أن نبحث عن الهدى هنالك عند الله، لا سيما في موضوع الإله. إذ قد يكون (وهذا واقع فعلا) البشر عاجزاً عن معرفة ربه، ولكن ربه سبحانه ليس بعاجز عن تعريف ذاته له.

ومن جهة أخرى: حين تكرر تجربة الإنسان الفاشلة في الوصول إلى الحقيقة، تعتريه حالة اليأس ويقول: أنا أقل من أن أعرف الحقيقة، فلماذا البحث؟!.

وهذا اليأس هو أخطر عدو للبحث، وهو وراء اكثر من نصف الجهل الموجود لدى الناس، واليأس لا يزول إلا بالتوكل على الله، لذلك قال إبراهيم عليه السلام: ﴿لَئِن لَّمْ يَهْدِنِي رَبِّي لَأَكُونَنَّ مِنَ الْقَوْمِ الضَّالِّينَ﴾.

[٧٨] إذا كان جمال القمر قد دفع البعض إلى اتخاذه إلهاً مؤقتاً فإن كبر الشمس وضخامتها، بالإضافة إلى جمالها يدفعهم هذه المرة إلى مثل ذلك.

﴿فَلَمَّا رَءَا الشَّمْسَ بَازِغَةً قَالَ هَٰذَا رَبِّي هَٰذَا أَكْبَرُ﴾ وكانت صدمة الفشل الهائلة والمتكررة حيث اختفت الشمس العملاقة وراء الأفق.

﴿فَلَمَّا أَفَلَتْ قَالَ يَٰقَوْمِ إِنِّي بَرِيٓءٌ مِّمَّا تُشْرِكُونَ﴾ فتجعلون الشمس وهي خلق مما خلق الله شريكة لرب العالمين، بينما شريك الألوهية يجب أن يكون قادراً حرًّا مريداً ما يشاء، والشمس مسخرة بأمر ربها، لا تستطيع أن تخالف أمر الله في الطلوع والغروب.

التسليم المطلق المرحلة الأخيرة

[٧٩] ترك إبراهيم عليه السلام الخلق واستقبل بوجهه الخالق، ترك الطبيعة إلى مسخرها ومدبر أمرها، وقال: ﴿إِنِّي وَجَّهْتُ وَجْهِيَ﴾ أي اتخذت الله طريقاً، ومرضاته هدفاً.

﴿لِلَّذِي فَطَرَ السَّمَٰوَٰتِ وَالْأَرْضَ﴾ خلقها وحدد مسارها، ورسم حدودها، وأظهر بذلك هيمنته التامة عليها.

وحين عبد إبراهيم ربه كفر بكل الشركاء، ورفض الأنداد جميعاً وكان: ﴿حَنِيفًا﴾ مائلاً عما اعتمده الناس متمرداً على عاداتهم وتقاليدهم، وسلم أموره جميعا إلى الله رافضاً الانتماء إلى المجتمع الكافر وقال: ﴿وَمَآ أَنَا۠ مِنَ الْمُشْرِكِينَ﴾.

هكذا يتحدى الإيمان ثقافة الشرك

﴿وَحَآجَّهُۥ قَوْمُهُۥ ۚ قَالَ أَتُحَٰٓجُّوٓنِّى فِى ٱللَّهِ وَقَدْ هَدَىٰنِ ۚ وَلَآ أَخَافُ مَا تُشْرِكُونَ بِهِۦٓ إِلَّآ أَن يَشَآءَ رَبِّى شَيْـًٔا ۗ وَسِعَ رَبِّى كُلَّ شَىْءٍ عِلْمًا ۗ أَفَلَا تَتَذَكَّرُونَ (٨٠) وَكَيْفَ أَخَافُ مَآ أَشْرَكْتُمْ وَلَا تَخَافُونَ أَنَّكُمْ أَشْرَكْتُم بِٱللَّهِ مَا لَمْ يُنَزِّلْ بِهِۦ عَلَيْكُمْ سُلْطَٰنًا ۚ فَأَىُّ ٱلْفَرِيقَيْنِ أَحَقُّ بِٱلْأَمْنِ ۖ إِن كُنتُمْ تَعْلَمُونَ (٨١) ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَلَمْ يَلْبِسُوٓا۟ إِيمَٰنَهُم بِظُلْمٍ أُو۟لَٰٓئِكَ لَهُمُ ٱلْأَمْنُ وَهُم مُّهْتَدُونَ (٨٢) وَتِلْكَ حُجَّتُنَآ ءَاتَيْنَٰهَآ إِبْرَٰهِيمَ عَلَىٰ قَوْمِهِۦ ۚ نَرْفَعُ دَرَجَٰتٍ مَّن نَّشَآءُ ۗ إِنَّ رَبَّكَ حَكِيمٌ عَلِيمٌ (٨٣)﴾.

هدى من الآيات:

بعد المعاناة الشخصية، وبعد الشك البريء (الرمزي) الذي انتهى بإبراهيم عليه السلام إلى الاهتداء إلى ربه بدأ الصراع بينه وبين قومه حيث حذروه مغبَّة الكفر بالآلهة، فردهم ببساطة: إن الخوف أنما هو من الله عزوجل، لا من القوى المخلوقة له سبحانه. إذ أن تلك القوى تقع ضمن دائرة إذن الله سبحانه وعلمه، وأمرهم بأن يعودوا إلى فطرتهم ليتذكروا الحقيقة، وبين لهم أن حذرهم واحتياطهم من الآلهة لا معنى له. إذ لو لم ينزل الله عزوجل حجة واضحة بالسماح بطاعة أحد، فإنه سيعاقب من يطيع غيره، وعقابه أشد وأبقى مما يخافه الإنسان على نفسه من ضرر الآلهة، إذن الحذر من الآلهة يقابل بحذر أكبر من الله لو قبلنا بها من دون إذنه.

وإنما الأمن لمن أرضى ربه ولم يخلط إيمانه بشرك، لأن هذا الشخص قد اهتدى إلى الطريق السليم، بيد أن فهم هذه الحقيقة ليس في وسع البشر. إنما الله سبحانه هو الذي يهدي إليها من يشاء ليرفع درجته، وهو الذي لا يفعل ذلك إلا حسب علمه بالفرد وحكمته البالغة بأنه يصلح للهداية ويستحقها.

بينات من الآيات:

مسؤولية الهداية

[٨٠] بعد رحلة الإيمان، تبدأ رحلة الرسالة. إذ فور ما يتنور قلبك بنور الإيمان. تجد نفسك أمام مسؤولية هي تنوير قلوب الآخرين، ولا يمكنك إلا أن تفعل ذلك. إذ أن الدنيا صراع فلو لم تذهب إلى الناس لهدايتهم جاءوا إليك لإضلالك، وبالتالي سوف يبدأ الصراع، من هنا قال ربنا عن إبراهيم عليه السلام بعد أن وحد الله ونزهه عن الشرك به.

﴿ وَحَآجَّهُۥ قَوْمُهُۥ ﴾ يبدو أنهم قالوا له:

أولاً: أين الله؟ وكيف آمنت به؟ وبأي دليل؟ وبالتالي أخذوا يشككونه في ربه، فأجابهم ببساطة:

أنتم لا تعرفون الله. أليس كذلك؟ أما أنا فأعرف الله لأنه قد هداني إليه، ومن لا يعرف لا يستطيع أن يحاج من يعرف، لأنه هو الجاهل، وهذا عالم، وهو الضال، وهذا المهتدي.

ثانياً: قالوا له: لماذا تشرك بالآلهة هذه وهي قوية، وقد تضر بك، انك تكفر بالقوى الاجتماعية (التي يمثلها الطاغوت)، وبالقوى الثقافية التي تمثلها قيم المجتمع، وكهنة المعابد، وبالقوى الاقتصادية التي يمثلها أصحاب الثروة والإقطاع، وآلهة البركة.. و.. و..، أفلا تخشى هذه القوى؟!.

فأجابهم إبراهيم عليه السلام: كلا.. أنا لا أخاف كل أولئك، لأن مشيئة الله هي الحاكمة عليها، صحيح أن الطاغوت قد يؤذيني، ولكن أذى الطاغوت إنما هو ضمن دائرة إرادة الله وإذنه، فلو لم يرد شيئاً لا يمكن أن يقع، والله محيط علمه بالجبت والطاغوت ومن في فلكهما، فهم أضعف من الله، وأضاف إبراهيم عليه السلام قائلاً: عودوا إلى فطرتكم النقية وتذكروا أن الله أقوى من خلقه، وأن علينا أن نخشاه ولا نخشى خلقه. ﴿قَالَ أَتُحَٰٓجُّوٓنِّي فِي ٱللَّهِ وَقَدْ هَدَىٰنِۚ وَلَآ أَخَافُ مَا تُشْرِكُونَ بِهِۦٓ إِلَّآ أَن يَشَآءَ رَبِّي شَيْـًٔاۗ وَسِعَ رَبِّي كُلَّ شَيْءٍ عِلْمًاۗ أَفَلَا تَتَذَكَّرُونَ ﴾

[٨١] للآلهة رموز وإن ما يخافه البشر هو القوى الطبيعية أو الاجتماعية التي ترمز إليها الآلهة، والخضوع لهذه الآلهة إنما هو رمز الخضوع لتلك القوى، ولا يمكن أن يتحرر البشر من هذا الخوف إلا بخوف أقوى، وهو الخوف من رب القوى الموجودة في الكون، لذلك حذر إبراهيم قومه من غضب الله، وقال: ﴿ وَكَيْفَ أَخَافُ مَآ أَشْرَكْتُمْ وَلَا تَخَافُونَ أَنَّكُمْ أَشْرَكْتُم بِٱللَّهِ مَا لَمْ يُنَزِّلْ بِهِۦ عَلَيْكُمْ سُلْطَٰنًاۚ ﴾ وربما يتصور البعض منا أن الله رحيم بعباده، إذن لا خوف منه، أما الطبيعة فهي قاسية فعلينا الخضوع لها لنتجنب ضررها، هذه

الفكرة هي التي دفعت بعض الناس لعبادة الشيطان حيث قالوا: إن الله رحيم بنا لأن طبيعته الخير، أما الشيطان فإن طبيعته الشر فعلينا عبادته.

ولكن إبراهيم بين أن الله لا يرضى بطاعة أحد من دون أن يأذن هو بذلك، ولن يأذن، وإلا فهو ينزل غضبه ولعنته على البشر، وإنه لو أرادت الآلهة أو الذين يطاعون من دون الله الفتك بالناس والتجأ الناس إلى الله -رب الآلهة والناس- لتخلصوا من شرورهم، إذن فالأمن الحقيقي لمن يخشى الله ﴿فَأَيُّ الْفَرِيقَيْنِ أَحَقُّ بِالْأَمْنِ إِن كُنتُمْ تَعْلَمُونَ﴾.

مضار الشرك

[٨٢] وعاد إبراهيم وأضاف دليلاً جديداً على ضرورة التوحيد الخالص وهو: أن الشرك ظلم، بينما الخضوع لله هو العدل، وأن للظلم ضررين:

الأول: الابتعاد عن الأمن.

الثاني: الابتعاد عن الهدى، بينما المؤمن الموحد يملك الأمن والهدى.

﴿الَّذِينَ آمَنُوا وَلَمْ يَلْبِسُوا إِيمَانَهُم بِظُلْمٍ أُولَٰئِكَ لَهُمُ الْأَمْنُ وَهُم مُّهْتَدُونَ﴾.

دعنا نتصور: مجتمعاً يسوده الطاغوت، ويخشى الطبيعة، ويقدم قرابينه لإله البحر وإله الحرب وإله الربيع، كما كان يفعل أهل مصر، ومجتمعاً تسوده حكومة عادلة، ويتحدى الطبيعة ويقهرها. أيهما سيكون المجتمع الآمن؟ هل الظلم الطاغوتي والخضوع للطبيعة يوفر الأمن، أم العدالة والحضارة (قهر الطبيعة وتسخيرها)؟! ثم إن التحرر من خوف الطاغوت وخوف الطبيعة يجعلنا نفكر بحريتنا، نبحث عن الحقيقة بكل أمان، ولا نخشى من الحقيقة، ولا تسودنا دعاية الطاغوت، ومخاوف الطبيعة لنقتحم كل أسوار الطبيعة، لنكتشفها ونسخرها، وآنئذ نحصل على الهداية. إن بداية كل علم هو الشعور بالأمن. لذلك جاء الهدى بعد الأمن في الآية الكريمة.

[٨٣] لقد حاج إبراهيم عليه السلام قومه فإنتصر عليهم، والسؤال هو من آتاه هذه الحجة؟ إنه الله، إذ أن إبراهيم عليه السلام كشخص إذا لم يكن نبياً يوحى إليه يعيش ضمن حدود المجتمع، وتقهره الطبيعة لابد أن يتقولب حسب أفكار المجتمع وحتميات الطبيعة بنسبة ما، إلا أن الله سبحانه يرسل رسالته على الإنسان لكي ينقذه من الحتميات الاجتماعية والطبيعية التي تحيط به. ﴿وَتِلْكَ حُجَّتُنَا آتَيْنَاهَا إِبْرَاهِيمَ عَلَىٰ قَوْمِهِ ۚ نَرْفَعُ دَرَجَاتٍ مَّن نَّشَاءُ ۗ إِنَّ رَبَّكَ حَكِيمٌ عَلِيمٌ﴾ ولحكمته ولعلمه لا يرفع كل شخص إلى رفيع الدرجات عبثاً، إنما يرفع من يكون مؤهلاً لذلك بجده واجتهاده، وبحثه عن الحقيقة، وعدم خوفه من الحتميات الباطلة.

خُطى ابراهيم عليه السلام التوحيدية نهج الأنبياء عليهم السلام

﴿وَوَهَبْنَا لَهُ إِسْحَاقَ وَيَعْقُوبَ كُلًّا هَدَيْنَا وَنُوحًا هَدَيْنَا مِن قَبْلُ وَمِن ذُرِّيَّتِهِ دَاوُودَ وَسُلَيْمَانَ وَأَيُّوبَ وَيُوسُفَ وَمُوسَى وَهَارُونَ وَكَذَلِكَ نَجْزِي الْمُحْسِنِينَ (٨٤) وَزَكَرِيَّا وَيَحْيَى وَعِيسَى وَإِلْيَاسَ كُلٌّ مِّنَ الصَّالِحِينَ (٨٥) وَإِسْمَاعِيلَ وَالْيَسَعَ وَيُونُسَ وَلُوطًا وَكُلًّا فَضَّلْنَا عَلَى الْعَالَمِينَ (٨٦) وَمِنْ آبَائِهِمْ وَذُرِّيَّاتِهِمْ وَإِخْوَانِهِمْ وَاجْتَبَيْنَاهُمْ وَهَدَيْنَاهُمْ إِلَى صِرَاطٍ مُّسْتَقِيمٍ (٨٧) ذَلِكَ هُدَى اللَّهِ يَهْدِي بِهِ مَن يَشَاءُ مِنْ عِبَادِهِ وَلَوْ أَشْرَكُوا لَحَبِطَ عَنْهُم مَّا كَانُوا يَعْمَلُونَ (٨٨)﴾.

هدى من الآيات:

تلك الرسالة التي أهبطها الله على قلب إبراهيم عليه السلام، بعد أن وجده أهلاً لها، ثم بعد أن دخلت مرحلة الصراع المرير، أصبحت اليوم تياراً يهدي به الله، مجموعة من الأنبياء العظام عليهم السلام، وقبلهم جميعاً نوح عليه السلام حيث هداه الله، وداود وسليمان و.. و..

ولم يكن هؤلاء وحدهم في الساحة، لقد كان معهم الآباء والذرية والإخوة الذين اجتباهم الله على علم منه بهم، نظراً لصلاحيتهم للعمل الرسالي.

وإذا كان هؤلاء على صراط مستقيم فإنما بإذن الله وبهداه، ولم يكن باستطاعتهم الوصول إلى هذا المستوى من دون التوحيد الخالص، إذ أنهم لو أشركوا لأحبط الله أعمالهم.

بينات من الآيات:

انتصار إبراهيم عليه السلام

[٨٤] ماذا كان عاقبة الصراع بين إبراهيم عليه السلام وقومه الذين أبطل حجتهم.

إن العاقبة كانت انتصاراً ساحقاً لإبراهيم عليه السلام حيث أن الله أمده بأبناء وذرية وأنصار ﴿وَوَهَبْنَا لَهُۥٓ إِسْحَٰقَ وَيَعْقُوبَ ۚ كُلًّا هَدَيْنَا ۚ﴾ حيث كون إسحاق ويعقوب عليهما السلام -بني إسرائيل- تلك الأمة المؤمنة الصبورة ﴿وَنُوحًا هَدَيْنَا مِن قَبْلُ ۖ﴾ فلم يكن اهتداء إبراهيم عليه السلام بدعاً جديداً، بل كان سنة قائمة منذ مدة طويلة ﴿وَمِن ذُرِّيَّتِهِۦ دَاوُۥدَ وَسُلَيْمَٰنَ وَأَيُّوبَ وَيُوسُفَ وَمُوسَىٰ وَهَٰرُونَ ۚ﴾ هذه الأسماء التي تحولت في تاريخ البشرية إلى رموز لكل قيم الخير، إن نقطة البداية عندهم كانت الهداية إلى الله، والهداية بدورها جاءت نتيجة إحسانهم، وفعلهم الخير ﴿وَكَذَٰلِكَ نَجْزِى ٱلْمُحْسِنِينَ﴾ ونحن بدورنا لو فعلنا الخير لهدانا الله، ولأصبحنا بإذنه رموزاً لقيم الخير في التاريخ.

خط إبراهيم عليه السلام

[٥٨] وهناك رموز أخرى اتبعت ذات الطريقة القويمة والمنهج السليم، وكانت النتيجة أنهم أصبحوا صالحين. أفكارهم سليمة، وأخلاقهم قويمة، وأعمالهم خيرة، وأهدافهم نبيلة، وبالتالي كلما يراه الضمير السليم للإنسان أنه صلاح يتمثل فيهم ﴿وَزَكَرِيَّا وَيَحْيَىٰ وَعِيسَىٰ وَإِلْيَاسَ ۖ كُلٌّ مِّنَ ٱلصَّٰلِحِينَ﴾.

[٨٦] وآخرين اتبعوهم على الهدى -وفضلهم الله على الناس لهذا السبب- ﴿وَإِسْمَٰعِيلَ وَٱلْيَسَعَ وَيُونُسَ وَلُوطًا ۚ وَكُلًّا فَضَّلْنَا عَلَى ٱلْعَٰلَمِينَ﴾ بعلمهم وجهادهم.

إن هذه الأسماء اللامعة في سماء الإنسانية معروفة لمن يتلو آيات القرآن، حيث ذكرها الله أكثر من مرة، وفصل كثيراً من قصص حياتهم، وعبر تاريخهم، وإنما فعل ذلك ليصبحوا قدوات للبشر، وليقول لهم: أيها الناس أن هؤلاء كانوا بشراً مثلكم ولكنهم أحسنوا فهداهم الله، وأصبحوا ثناء على كل لسان، ومثلاً لكل فضيلة أفلا تقتدون بهم وتتبعون منهجهم؟!.

ويلاحظ المتدبر في نهايات هذه الآيات الثلاث إن الله سبحانه ذكر صفات ثلاث لهؤلاء الصفوة (الإحسان، والإصلاح، والتفضيل) ويبدو أنها صفات متدرجة، فالإحسان هو العطاء، والخروج عن سجن الذات، وقوقعة الأنانية إلى رحاب الحق، وخدمة الآخرين، إنه

سبب الهداية، بل سبب كل خير، أما الهداية فهي من الله سبحانه، وبالأسلوب الذي ذكره ربنا سبحانه بالنسبة إلى إبراهيم عليه السلام والصفة الثانية هي الصلاح، وهي عاقبة الهداية، وأثرها في حياة البشر، حيث تجعل منه إنساناً متكاملاً، أما الصفة الأخيرة، فهي نتيجة الهداية في الواقع الاجتماعي. حيث يصبح البشر أفضل العالمين.

[٨٧] لم تكن هذه الأسماء التي ذكرت سوى رموز، ولن تكون هي الوحيدة في هذا الطريق بالرغم من أنها كانت أبرزها، لذلك يذكرنا القرآن ببقية الذين ساروا على ذات النهج ﴿وَمِنْ ءَابَآئِهِمْ وَذُرِّيَّٰتِهِمْ وَإِخْوَٰنِهِمْ وَٱجْتَبَيْنَٰهُمْ وَهَدَيْنَٰهُمْ إِلَىٰ صِرَٰطٍ مُّسْتَقِيمٍ﴾.

قانون الهداية

[٨٨] ﴿ذَٰلِكَ هُدَى ٱللَّهِ يَهْدِى بِهِۦ مَن يَشَآءُ مِنْ عِبَادِهِۦ﴾ ولكن الهدى لن يجتمع مع الشرك، إذ أن الشرك بالله يعني سلب الألوهية من الله، ونسبة الضعف والعجز إليه سبحانه، وتحديد قدرته ومشيئته، وكل هذه الصفات بعيدة عن صفات الله، وبالتالي من يؤمن بها لابد أن يكفر بالله، لأنه ليس بإله من هو خاضع لخلقه، ومن هو غير قادر على أن يقهر صنماً حجريًّا منحوتاً، أو صنماً بشريًّا يتمثل في المجتمع الفاسد، أو في طاغوت جبار.

﴿وَلَوْ أَشْرَكُوا۟ لَحَبِطَ عَنْهُم مَّا كَانُوا۟ يَعْمَلُونَ﴾ من خير وإحسان وصلاح لأن الصلاة مثلاً: تعني الإيمان بالله، والإيمان بالله يعني بدوره الكفر بالطاغوت، إذ أنه لا إله ذلك الذي لا يستطيع قهر الطاغوت، ولذلك إذا خضع المصلي للطاغوت لم يكن لصلاته أي معنى، فلذلك فهي تحبط حبطاً.

على خُطى الأنبياء عليهم السلام

﴿أُوْلَٰٓئِكَ ٱلَّذِينَ ءَاتَيْنَٰهُمُ ٱلْكِتَٰبَ وَٱلْحُكْمَ وَٱلنُّبُوَّةَۚ فَإِن يَكْفُرْ بِهَا هَٰٓؤُلَآءِ فَقَدْ وَكَّلْنَا بِهَا قَوْمًا لَّيْسُواْ بِهَا بِكَٰفِرِينَ (٨٩) أُوْلَٰٓئِكَ ٱلَّذِينَ هَدَى ٱللَّهُۖ فَبِهُدَىٰهُمُ ٱقْتَدِهْۗ قُل لَّآ أَسْـَٔلُكُمْ عَلَيْهِ أَجْرًاۖ إِنْ هُوَ إِلَّا ذِكْرَىٰ لِلْعَٰلَمِينَ (٩٠) وَمَا قَدَرُواْ ٱللَّهَ حَقَّ قَدْرِهِۦٓ إِذْ قَالُواْ مَآ أَنزَلَ ٱللَّهُ عَلَىٰ بَشَرٍ مِّن شَيْءٍۗ قُلْ مَنْ أَنزَلَ ٱلْكِتَٰبَ ٱلَّذِي جَآءَ بِهِۦ مُوسَىٰ نُورًا وَهُدًى لِّلنَّاسِۖ تَجْعَلُونَهُۥ قَرَاطِيسَ تُبْدُونَهَا وَتُخْفُونَ كَثِيرًاۖ وَعُلِّمْتُم مَّا لَمْ تَعْلَمُوٓاْ أَنتُمْ وَلَآ ءَابَآؤُكُمْۖ قُلِ ٱللَّهُۖ ثُمَّ ذَرْهُمْ فِي خَوْضِهِمْ يَلْعَبُونَ (٩١) وَهَٰذَا كِتَٰبٌ أَنزَلْنَٰهُ مُبَارَكٌ مُّصَدِّقُ ٱلَّذِي بَيْنَ يَدَيْهِ وَلِتُنذِرَ أُمَّ ٱلْقُرَىٰ[1] وَمَنْ حَوْلَهَاۚ وَٱلَّذِينَ يُؤْمِنُونَ بِٱلْـَٔاخِرَةِ يُؤْمِنُونَ بِهِۦۖ وَهُمْ عَلَىٰ صَلَاتِهِمْ يُحَافِظُونَ (٩٢)﴾.

هدى من الآيات:

في الدرس السابق ذكر القرآن أسماء الأنبياء عليهم السلام العظام، وفي هذا الدرس يذكرنا بحقائق عنهم: فهم يشكلون خط الرسالة الذي لا انحراف فيه أبداً، حتى وإن انحرفت الخطوط الأخرى، وقد حافظ الله على سلامته واستقامته ليكون قدوة للناس من دون أن يحملهم أجراً، بل ليذكرهم بالحقيقة فقط.

وهناك من يشكك في بعث الأنبياء عليهم السلام، وهم الذين لم يعرفوا ربهم، وماله من حكمة وقدرة، وإنهم لم يشكروا ربهم على تلك الرسالات النيرة التي أنزلها على البشر على يد موسى عليه السلام.

ثم هذا الكتاب الذي أنزله لكي يكون منهجاً للنمو والرشد والتكامل وهو في ذات

(١) أم القرى: مكة.

الخط الرسالي المستقيم، والهدف منه أن ينذر به أم القرى ومن حولها. ومن يؤمن بالله واليوم الآخر لابد أن يؤمن بالرسالة، إذ أن الرسالة هي نتيجة الاعتقاد بها.

بينات من الآيات:

فبهداهم اقتده

[٨٩] تلك كانت رسالات الله بينها الله في الآيات السابقة، ورسله كانوا دعاة لتلك الرسالة.

﴿أُوْلَٰٓئِكَ ٱلَّذِينَ ءَاتَيْنَٰهُمُ ٱلْكِتَٰبَ وَٱلْحُكْمَ وَٱلنُّبُوَّةَ﴾ الكتاب هو الرسالة، والحكم هو القضاء والسلطة باسم الرسالة، أما النبوة فهي تحمل الرسالة لدعوة الناس إليها.

﴿فَإِن يَكْفُرْ بِهَا هَٰٓؤُلَآءِ فَقَدْ وَكَّلْنَا بِهَا قَوْمًا لَّيْسُواْ بِهَا بِكَٰفِرِينَ﴾ فلا خوف على الرسالة - أن تبقى غريبة- إذ سوف يقيض الله لها رجالاً يؤمنون بها، ويفدونها بأرواحهم، وانزال الخوف على هؤلاء الذين لا يؤمنون بها. وعلى امتداد التاريخ هناك رجال يؤمنون بخط الرسالة المستقيم دون أن يخالط إيمانهم شك أو وهن أو ارتداد.

[٩٠] والله سبحانه يبارك هذا الخط السليم بهدف أن يكون قدوة في الهدى.

﴿أُوْلَٰٓئِكَ ٱلَّذِينَ هَدَى ٱللَّهُ فَبِهُدَىٰهُمُ ٱقْتَدِهْ﴾ وهذه الهداية انزال هي للناس جميعاً وهؤلاء لا يتقاضون أجراً على تبليغها ﴿قُل لَّآ أَسْـَٔلُكُمْ عَلَيْهِ أَجْرًا إِنْ هُوَ إِلَّا ذِكْرَىٰ لِلْعَٰلَمِينَ﴾.

الإيمان بالرسالة جوهر الإيمان بالله

[٩١] الإيمان بالله، ومعرفته سبحانه هي النقطة المركزية للإيمان بسائر الحقائق ومعرفتها، وإن أبرز هذه الحقائق الإيمان برسالات الله التي من ينكرها فإنما ينكر الله أو لا يعرفه حق معرفته، فالله الذي خلق السماوات والأرض وكل شيء فيهما إنما خلقه بهدف وحكمة، وخلق الإنسان ولم يتركه سدى، بل بعث إليه رسلاً يوضحون له درب السعادة، فمن أراد السعادة اتبعهم، ومن لم يرد، فمصيره النار وساءت سبيلاً.

﴿وَمَا قَدَرُواْ ٱللَّهَ حَقَّ قَدْرِهِۦٓ إِذْ قَالُواْ مَآ أَنزَلَ ٱللَّهُ عَلَىٰ بَشَرٍ مِّن شَيْءٍ﴾ ثم إن أبسط دليل على أي شيء هو وجوده العيني الخارجي، والله قد أنزل رسالته على البشر متمثلة في كتاب موسى عليه السلام الذي يستحيل عقلاً أن يكون من غير الله، فإذا هو من الله.

﴿قُلْ مَنْ أَنزَلَ الْكِتَابَ الَّذِي جَاءَ بِهِ مُوسَىٰ نُورًا وَهُدًى لِّلنَّاسِ﴾ إنه من الله بدليل أنه نور يستجلي العقل، ويوقظ الضمير، وينبه الفطرة البشرية، ولأنه نور فهو كاشف للحقائق سواء تلك التي تمت إلى الدنيا أو الآخرة. والكتاب أيضاً هدى للناس يهدي به الله إلى سواء السبيل في الآخرة. والهدى أخص من النور، لأنه يهدي صاحبه حتى ولو لم يؤت نوراً شاملاً.

إن الأنبياء عليهم السلام والصديقين والعلماء يؤيدون بنور العقل فيكشفون بأنفسهم الحقائق. أما الناس فإنهم قد لا يؤتون النور ولكن يهديهم الله إلى الصراط المستقيم عن طريق توضيح السبل لهم كالأعمى الذي يأخذ بيده البصير ويقوده في مسيرته.

﴿تَجْعَلُونَهُ قَرَاطِيسَ تُبْدُونَهَا وَتُخْفُونَ كَثِيرًا﴾ لأنكم خشيتم منه على مصالحكم والآن تنكرون البقية رأساً، أو ليس في هذا التناقض دليلاً على بطلان كلامكم.

﴿وَعُلِّمْتُم مَّا لَمْ تَعْلَمُوا أَنتُمْ وَلَا آبَاؤُكُمْ﴾ فجاءت الأفكار بعيدة عن الجو الثقافي الذي كان سائداً عليكم، مما يدل على أنها كانت أفكاراً غيبية.

وأخيرا: إن جدل هؤلاء في رسالة النبي نابع من مرض قلبي دفين، لا ينفع معه إقامة الحجج، لذلك يجب أن يتركوا لشأنهم حتى يأتيهم جزاء أفعالهم.

﴿قُلِ اللَّهُ﴾ الله هو الحاكم بيني وبينكم، والله هو الشاهد والشهيد عليكم، والله هو الذي لو آمنا به حقًا لآمنا بالرسالات، ولأصلحنا عقد أنفسنا.

﴿ثُمَّ ذَرْهُمْ فِي خَوْضِهِمْ يَلْعَبُونَ﴾ أي يلعبون فيما يخوضون فيه، ويناقشون فيه من أفكار خاطئة وأهواء. إنهم لا يتبعون العلم، بل يتلاعبون بالألفاظ والأهواء.

خصائص رسالتنا وأهدافها

[٩٢] الإيمان بالرسالات عموماً، ركن من أركان الإيمان بالله، إلا أن ذلك لا يكفي. إذ يجب أن نؤمن بالرسالة التي تخص حياتنا بالذات، والرسالة الإسلامية هي تلك الرسالة التي لابد أن نؤمن بها لعدة أسباب.

أولاً: لأنها مباركة تحفز البشرية نحو التقدم والرقي، والنمو والخير، وهذا هو تطلع البشر الأسمى.

ثانياً: لأنها تتفق في أصولها مع سائر رسالات السماء، مما يدل على وحدة المشكاة التي انبعثت منها.

ثالثاً: لأنها جاءت لتحقيق يقظة في عالم يغط في سبات الجاهلية، وذلك في شبه الجزيرة العربية.

رابعاً: إن الهدف من اعتناقها ليس هدفاً ماديًّا كالوصول إلى السلطة أو الغنى، بل هدف معنوي بدليل أن حملة الرسالة هم رجال الله، فهم يحافظون على صلواتهم، وعموماً المؤمنون بهذه الرسالة هم المؤمنون باليوم الآخر الذين لا يهدفون من ورائه الدنيا وزينتها ﴿وَهَٰذَا كِتَٰبٌ أَنزَلْنَٰهُ مُبَارَكٌ مُّصَدِّقُ ٱلَّذِى بَيْنَ يَدَيْهِ وَلِتُنذِرَ أُمَّ ٱلْقُرَىٰ وَمَنْ حَوْلَهَا ۚ وَٱلَّذِينَ يُؤْمِنُونَ بِٱلْءَاخِرَةِ يُؤْمِنُونَ بِهِۦ ۖ وَهُمْ عَلَىٰ صَلَاتِهِمْ يُحَافِظُونَ﴾.

أشد الظلم الافتراء على الله

﴿وَمَنْ أَظْلَمُ مِمَّنِ افْتَرَىٰ عَلَى اللَّهِ كَذِبًا أَوْ قَالَ أُوحِيَ إِلَيَّ وَلَمْ يُوحَ إِلَيْهِ شَيْءٌ وَمَن قَالَ سَأُنزِلُ مِثْلَ مَا أَنزَلَ اللَّهُ وَلَوْ تَرَىٰ إِذِ الظَّالِمُونَ فِي غَمَرَاتِ الْمَوْتِ وَالْمَلَائِكَةُ بَاسِطُو أَيْدِيهِمْ أَخْرِجُوا أَنفُسَكُمُ الْيَوْمَ تُجْزَوْنَ عَذَابَ الْهُونِ بِمَا كُنتُمْ تَقُولُونَ عَلَى اللَّهِ غَيْرَ الْحَقِّ وَكُنتُمْ عَنْ آيَاتِهِ تَسْتَكْبِرُونَ ﴿٩٣﴾ وَلَقَدْ جِئْتُمُونَا فُرَادَىٰ كَمَا خَلَقْنَاكُمْ أَوَّلَ مَرَّةٍ وَتَرَكْتُم مَّا خَوَّلْنَاكُمْ[١] وَرَاءَ ظُهُورِكُمْ وَمَا نَرَىٰ مَعَكُمْ شُفَعَاءَكُمُ الَّذِينَ زَعَمْتُمْ أَنَّهُمْ فِيكُمْ شُرَكَاءُ لَقَد تَّقَطَّعَ بَيْنَكُمْ وَضَلَّ عَنكُم مَّا كُنتُمْ تَزْعُمُونَ ﴿٩٤﴾﴾.

هدى من الآيات:

الظلم ظلمان، فقد يغتصب الفرد حق صاحبه المادي، وهذا الظلم قد ينتهي بالتوبة وأداء الحق، ولكن قد يغتصب الفرد فكر الناس، ويضلهم ويضل نفسه عن الحق، ويحرف مسيرة البشرية، وهذا أكبر خيانة وأخطر ضرراً.

فإذا قال أحد: (إن الله يقول هذا)؛ كذباً وافتراء، أو ادعى النبوة وهو ليس بنبي أو ادعى قدرته على إبداع أفكار، ومناهج مثيلة لأفكار ومناهج الرسالات، فإنه آنئذ أظلمُ الناس، وجزاؤه عذاب الهون الذي يأتيه عندما تهبط عليه ملائكة الغضب بكل عنف وخشونة، ينتزعون منه نفسه، لأنه كذب على الله، ولأنه استكبر على الحق.

وإنما يعتمد الظالم على قدرته الجسدية أو المادية أو الاجتماعية، ولكن حين تنتزع الملائكة

(١) ما خولناكم: ما أعطيناكم من متاع الدنيا.

نفسه، تتبخر هذه القدرات، فالجسد خائر القوى، والأموال والممتلكات تنتظر الورثة، أما الناس الذين زعم أنهم وراءه فهم غير موجودين هناك، أو غير نافعين له، أما الأفكار الباطلة التي اخترعها فقد أصبحت كالسراب الزائل.

بينات من الآيات:

الجريمة المنظمة

[٩٣] في عالم الجريمة، السارق الوحيد عقوبته محدودة، بينما على العصابة عقوبات مشددة، لأن جريمتهم أخطر وأخطر من تلك السرقات الكبيرة التي تتستر تحت قناع الأفكار الباطلة، كسرقة الإقطاعيين والمترفين من المحرومين، أو سرقة الطواغيت والمستكبرين من الشعوب المستضعفة، وأكثر ما عانت البشرية في تاريخ الجريمة إنما كانت بسبب هذا الطراز من المجرمين.

إن هؤلاء يخترعون أولاً أفكاراً باطلة تساعدهم على استثمار الجماهير، واستغلال بساطتهم، ثم يبدؤون بامتصاص جهودهم إلى آخر قطرة دم في عروقهم.

وكثيراً ما ينسبون أفكارهم إلى الله لإعطائها المزيد من الشرعية، ولإتاحة الفرصة لأنفسهم للمزيد من الابتزاز، وقد يستخدمون رجال الدين المزيفين لهذا الغرض البشع.

وأخطر من ذلك أنهم قد يدعون النبوة، وأن الله يوحي لهم، أو حتى يكابرون على ربهم، ويزعمون أن خرافاتهم وضلالاتهم مثيلة لبصائر رسالات الله وهداها، هذا الفريق أظلم الناس جميعاً ﴿وَمَنْ أَظْلَمُ مِمَّنِ افْتَرَىٰ عَلَى اللَّهِ كَذِبًا﴾ ولعل هذه الكلمة تشمل كل من يدعي كذبا أنه قد فهم الحقيقة حتى ولو لم ينسب كلامه إلى الله مباشرة، إذ أن مجرد هذا الادعاء يجعل هذا العمل مرتبطاً بالله سبحانه. ﴿أَوْ قَالَ أُوحِيَ إِلَيَّ وَلَمْ يُوحَ إِلَيْهِ شَيْءٌ وَمَن قَالَ سَأُنزِلُ مِثْلَ مَا أَنزَلَ اللَّهُ﴾

عندما تنتزع الروح

أما جزاء هؤلاء فيصوره القرآن الحكيم، في لحظة مفارقة الدنيا، تلك التي من أجل متاعها الزائل تسبب هذا الفريق المجرم في حرمان الألوف من البشر حقوقهم، أو حتى في هلاكهم، عندما تهبط عليهم ملائكة العذاب وهم في أشد لحظات الفزع والاحتضار، حيث تغمرهم أمواج الموت موجة بعد أخرى، والملائكة واقفون على رؤوسهم، وقد بسطوا أيديهم الغليظة، وهم يقولون بكل عنف: أخرجوا أنفسكم، وينتظرون انتزاعها لتعذيبها بعذاب الهون.

﴿وَلَوْ تَرَىٰٓ إِذِ ٱلظَّٰلِمُونَ فِى غَمَرَٰتِ ٱلْمَوْتِ وَٱلْمَلَٰٓئِكَةُ بَاسِطُوٓا۟ أَيْدِيهِمْ أَخْرِجُوٓا۟ أَنفُسَكُمُ﴾ إن تصور هذه اللحظات الحاسمة ينفع كل واحد منا في ألا نتورط في ظلم الآخرين.

﴿ٱلْيَوْمَ تُجْزَوْنَ عَذَابَ ٱلْهُونِ﴾ أما العذاب فـ ﴿بِمَا كُنتُمْ تَقُولُونَ عَلَى ٱللَّهِ غَيْرَ ٱلْحَقِّ﴾ أما الهون والخزي والعار فإنه جزاء الاستكبار ﴿وَكُنتُمْ عَنْ ءَايَٰتِهِۦ تَسْتَكْبِرُونَ﴾.

من الضعف إلى الضعف

[٩٤] لماذا يستكبر الإنسان عن الحق، ويخترع أفكاراً باطلة، وينشرها بين الناس، ويمنع الجماهير من نعمة الله؟ هل لأنه يريد جاهاً أو مالاً أو قوة، وأين تذهب أمواله وشفعاؤه عندما تأتيه ملائكة الموت؟!.

﴿وَلَقَدْ جِئْتُمُونَا فُرَٰدَىٰ كَمَا خَلَقْنَٰكُمْ أَوَّلَ مَرَّةٍ﴾ أنتم ضعفاء، بدليل أن خلقكم الأول، مبني على الضعف والانفراد، وإنما بسبب نعم الله عليكم التي لم تصبح جزءاً من كيانكم، بل حتى لم تصبح ملككم أصبحتم كذلك وأنتم تحسبون أنكم أقوياء، لقد خول الله لكم هذه النعم. أي أعطاكم إذناً باستخدامها في طرق معينة، وسوف تذهب عنكم حينما يشاء الله.

﴿وَتَرَكْتُم مَّا خَوَّلْنَٰكُمْ وَرَآءَ ظُهُورِكُمْ﴾ أما المجتمع الفاسد الذي اعتمدتم عليه في اختراع هذه الأفكار وترويجها، أما الطبقة المترفة والمفسدة، فهم الآن غائبون عنكم، فأين هم؟!.

﴿وَمَا نَرَىٰ مَعَكُمْ شُفَعَآءَكُمُ ٱلَّذِينَ زَعَمْتُمْ أَنَّهُمْ فِيكُمْ شُرَكَٰٓؤُا۟ لَقَد تَّقَطَّعَ بَيْنَكُمْ﴾ أي انفصلت القوى الرابطة بينكم وبينهم، أما الأفكار الجامعة بينكم وبينهم كفكرة الطبقة الحاكمة أو الحزب الطليعي، أو النخبة المثقفة، هذه الخرافات التي اخترعتموها لاستثمار الناس قد تلاشت وغاصت في الرمال. ﴿وَضَلَّ عَنكُم مَّا كُنتُمْ تَزْعُمُونَ﴾ من الشرك بالله واعتقادكم بأفكار باطلة.

الطريق إلى معرفة الله

﴿۞ إِنَّ ٱللَّهَ فَالِقُ ٱلْحَبِّ وَٱلنَّوَىٰ يُخْرِجُ ٱلْحَيَّ مِنَ ٱلْمَيِّتِ وَمُخْرِجُ ٱلْمَيِّتِ مِنَ ٱلْحَيِّ ذَٰلِكُمُ ٱللَّهُ فَأَنَّىٰ تُؤْفَكُونَ ﴿٩٥﴾ فَالِقُ ٱلْإِصْبَاحِ وَجَعَلَ ٱلَّيْلَ سَكَنًا وَٱلشَّمْسَ وَٱلْقَمَرَ حُسْبَانًا ذَٰلِكَ تَقْدِيرُ ٱلْعَزِيزِ ٱلْعَلِيمِ ﴿٩٦﴾ وَهُوَ ٱلَّذِي جَعَلَ لَكُمُ ٱلنُّجُومَ لِتَهْتَدُوا۟ بِهَا فِي ظُلُمَٰتِ ٱلْبَرِّ وَٱلْبَحْرِ قَدْ فَصَّلْنَا ٱلْآيَٰتِ لِقَوْمٍ يَعْلَمُونَ ﴿٩٧﴾ وَهُوَ ٱلَّذِيٓ أَنشَأَكُم مِّن نَّفْسٍ وَٰحِدَةٍ فَمُسْتَقَرٌّ[1] وَمُسْتَوْدَعٌ[2] قَدْ فَصَّلْنَا ٱلْآيَٰتِ لِقَوْمٍ يَفْقَهُونَ ﴿٩٨﴾ وَهُوَ ٱلَّذِيٓ أَنزَلَ مِنَ ٱلسَّمَآءِ مَآءً فَأَخْرَجْنَا بِهِۦ نَبَاتَ كُلِّ شَيْءٍ فَأَخْرَجْنَا مِنْهُ خَضِرًا نُّخْرِجُ مِنْهُ حَبًّا مُّتَرَاكِبًا وَمِنَ ٱلنَّخْلِ مِن طَلْعِهَا قِنْوَانٌ دَانِيَةٌ وَجَنَّٰتٍ مِّنْ أَعْنَابٍ وَٱلزَّيْتُونَ وَٱلرُّمَّانَ مُشْتَبِهًا وَغَيْرَ مُتَشَٰبِهٍ ٱنظُرُوٓا۟ إِلَىٰ ثَمَرِهِۦٓ إِذَآ أَثْمَرَ وَيَنْعِهِۦٓ إِنَّ فِي ذَٰلِكُمْ لَآيَٰتٍ لِّقَوْمٍ يُؤْمِنُونَ ﴿٩٩﴾﴾.

هدى من الآيات:

كيف يختار لنا الشيطان طريق الضلالة والإفك والانحراف عن مسيرة التوحيد، والله هو الذي فلق الحب والنوى، وهو الذي يحيي الموتى ويميت الأحياء، وهو الذي يخرج الإصباح من رحم الظلام، ويجعل الليل مأوى للأحياء حيث يسكنون إلى ظلامه وهدوئه،

---

(١) فمستقرٌّ: مستقر في أرحام الأمهات.

(٢) ومستودع: في أصلاب الرجال، وجاء في الحديث عن أبي عبد الله عليه السلام: «الْمُسْتَقَرُّ الثَّابِتُ وَالْمُسْتَوْدَعُ الْمُعَارُ». أن المستقر هو: الثابت من الإيمان. والمستودع هو: الإيمان العواري الذي يبقى لفترة من الوقت ثم يزول.

وسواء الصباح أو الليل، فهما يجريان وفق نظام دقيق يدل على علم المدبر لها وقدرته.

ومواضع النجوم، وحركتها المنظمة مدبرتان بحكمة بالغة، لا يكشفها إلا أهل العلم والمعرفة، ولا يعرفون مدى ما فيها من حكمة، فيتساءلون: إذا كنا نهتدي بالنجوم على الطرق في الليالي المظلمة، فكيف لا نهتدي إلى الله بآياته الباهرة؟.

وإذا أمعن البشر النظر في طريقة تناسل الإنسان، وكيف أنشأ الله كل البشر من نفس واحدة، فمنهم من يستمر في البقاء، ومنهم من يموت، وما لهذا يموت وذاك يحيى؟! وإذا ما أوتينا الفقه عرفنا ما وراء الموت والحياة من حكم بالغة تدل على حكمة ربنا وقدرته.

والله هو الذي أنزل المطر، فإذا به يتحول بقدرة الله إلى شتى أنواع النباتات، من حقول خضراء إلى جنان النخيل والأعناب والزيتون والرمان بعضها متشابه وبعضها مختلف، وحين ينظر المرء إلى ساعة أثمارها، ولحظة ينعها ينبهر بها، وعموماً فإن البشر بحاجة إلى فطرة سليمة، وغير معقدة ضد الإيمان حتى يهتدي بهذه الحقائق إلى الرب الكريم.

ومن الملاحظ أن القرآن الحكيم قد قسم الآيات على أنواع: بعضها للعالمين، وبعضها للفقهاء، والبعض للمؤمنين، للدلالة على تدرج المراحل الكمالية، ففي البداية علينا ألا نكون في إفك وضلالة، وتكون القلوب نظيفة من العقد والعقائد الباطلة، ثم نحصل على العلم، ثم نتعمق في العلم، حتى نحصل على غور العلم، وعمقه وهو الفقه، وأخيراً ننظر إلى الحياة نظرة بسيطة، نابعة من الفطرة النقية، حتى نصبح مؤمنين بإذن الله.

هذا الدرس يأتي حلقة من مسلسل الدروس الإيمانية المباشرة، بينما كانت الدروس السابقة تمهد لمثل هذا الدرس.

بينات من الآيات:

النشأة الأولى

[٩٥] الفلق هو: أن ينشطر شيء فينكشف عن شيء خفي، والحب تكمن فيه المواد الحية، ولكنها تبقى خفية حتى تنفلق وتنشطر، فينكشف عن تلك المواد، ولكن هذه الحالة بحاجة إلى من يدبرها حتى ينفلق الحب بتنظيم ومتانة ورفق، حتى تتم الولادة سليمة، والله هو ذلك المدبر العزيز.

﴿ إِنَّ ٱللَّهَ فَالِقُ ٱلْحَبِّ وَٱلنَّوَىٰ ﴾ والكلمة تدل على طريقة النشأة، وهي أن نمو المواد

الحية يسبب في انقشاع الغلاف الظاهر الذي يخفي وراءه تلك المواد، فإذا بنا نشاهد الحياة، بينها كانت الحياة موجودة سابقاً، ولم تكن معدومة آنئذ، ولكنها كانت مخزونة إلى هذا الوقت.

وهذا النمو يتم بإضافة المواد الميتة إلى المادة الحية، فتصبح تلك المواد الميتة ذات حياة بإضافتها إلى تلك المادة الحية، فالحب فيه مادة حية تستقي من الأملاح الميتة، ومن النور الميت ومن الماء فتصبح حبة كبيرة، فإذا انتهت دورة الحياة، فإن تلك المواد الميتة تزال عن تلك المادة الحية. وربما يكون هذا المعنى قوله سبحانه: ﴿يُخْرِجُ ٱلْحَىَّ مِنَ ٱلْمَيِّتِ وَمُخْرِجُ ٱلْمَيِّتِ مِنَ ٱلْحَىِّ ذَٰلِكُمُ ٱللَّهُ﴾ أو يكون معناه: إن الله يخرج من ضمير الأشياء الميتة شيئاً حيًّا، ومن رحم الأشياء الحية شيئاً ميتاً، وبتعبير آخر يحول الحي إلى الميت، والميت إلى حي، سبحانه.

﴿فَأَنَّىٰ تُؤْفَكُونَ﴾ في أية ضلالة تتيهون، وأي إفك يحمل عليكم، ويفرض عليكم.

إن الخلاص من الإفك الذي تفرضه على البشر أهواؤه ومجتمعه والشيطان الرجيم شرط مسبق لفهم الحقائق ببصيرة الفطرة النقية.

[٩٦] والله سبحانه هو الذي خلق النور، وفلقه ونشره، ونظم انتشاره. كما جعل الظلام في حدود معينة ولهدف محدد وهو السكون إليه والراحة.

﴿فَالِقُ ٱلْإِصْبَاحِ وَجَعَلَ ٱلَّيْلَ سَكَنًا وَٱلشَّمْسَ وَٱلْقَمَرَ حُسْبَانًا﴾ جعلهما يسيران وفق نظام ثابت ومحسوب، لا يحيدان عنه قيد أنملة.

﴿ذَٰلِكَ تَقْدِيرُ ٱلْعَزِيزِ ٱلْعَلِيمِ﴾ فبعلمه سبحانه وضع الخطة، وبعزته أجراها.

بين العلم والهدى

[٩٧] مواقع النجوم، وما في السماء من كواكب سيارة، ونجوم ثوابت، بالرغم من دوران الشمس والقمر، إنها من آيات الله العظيمة، إننا نهتدي بها في ظلمات البر والبحر، وهذا الاهتداء يتم لعلمنا بثبات هذه المواقع، وبأنها دليل على وجود ثبات في سنن الكون، وبالتالي على أن للكون أنظمة بالغة الدقة، وأن هذه الآيات وضعها الله ليهتدي البشر إليها وليستفيد منها، أفلا تدل هذه الآيات على الواحد القهار؟! إذا كنا نهتدي بالنجوم على السبل السليمة في الحياة، أفلا نهتدي بها على من وضع هذه السنن ما دامت طريقة الاهتداء واحدة، وهي الانتقال من العلامة إلى ما ورائها من الحقيقة؟!.

﴿وَهُوَ ٱلَّذِى جَعَلَ لَكُمُ ٱلنُّجُومَ لِتَهْتَدُوا۟ بِهَا فِى ظُلُمَٰتِ ٱلْبَرِّ وَٱلْبَحْرِ قَدْ فَصَّلْنَا ٱلْآيَٰتِ

﴿لِقَوْمٍ يَعْلَمُونَ﴾ لأنكم من دون العلم والمعرفة لا يمكننا بلوغ معرفة الحقائق، وفي هذه الآية جاء التأكيد على دور العلم خصوصاً في معرفة الآيات المفصلة.

[٩٨] إن الله سبحانه هو الذي انشأ البشر جميعهم من نفس واحدة فلا اختلاف في المنشأ ومع ذلك يختلف الناس. فمنهم من تستقر حياته بالإيمان و منهم من لا يحظى بالإيمان إلا لفترة قليلة فهو مستودع الإيمان.

﴿وَهُوَ ٱلَّذِىٓ أَنشَأَكُم مِّن نَّفْسٍ وَٰحِدَةٍ﴾ وقالوا الإنشاء هو الإيجاد الذي تعقبه التربية، وهكذا خلق الله الإنسان من أصل واحد (فهو كان تراباً ثم خلق الله ادم منه ثم انتشرت ذريته).

﴿فَمُسْتَقَرٌّ وَمُسْتَوْدَعٌ﴾ قالوا معناه فمنهم مستقر كالذين يمشون على الأرض ومنهم مستودع كالذين هم في القبور ينتظرون نفخ الصور وفي الحديث الشريف: «**الْمُسْتَقَرُّ الْإِيمَانُ الَّذِي يَثْبُتُ فِي قَلْبِ الرَّجُلِ إِلَى أَنْ يَمُوتَ، وَالْمُسْتَوْدَعُ هُوَ الْمَسْلُوب مِنْهُ الْإِيمَانُ**»[1].

﴿قَدْ فَصَّلْنَا ٱلْأَيَٰتِ لِقَوْمٍ يَفْقَهُونَ﴾ فهم لا يكتفون بظاهر من القول بل يتجاوزون الظاهر إلى الباطن والشهود إلى الغيب.

الدورة المائية

[٩٩] التنوع في الحياة دليل آخر على حكمة الله وعلمه وقدرته، فبالرغم من وحدة الهدف العام، فإنك ترى كل شيء في الحياة يحقق هدفاً معيناً يتكامل مع سائر الأنفس في وحدة شاملة لها جميعاً، وإننا نجد الأنفس كلها تتحقق بذات الوسائل الواحدة، وذلك عن طريق إحداث تغييرات بسيطة في طريقة تركيبة المواد مع بعضها، وفي كمية كل مادة وما أشبه، فالأرض تسقى بماء السماء، فالماء هو الماء، والأرض هي الأرض، ولكن النبات يختلف لونه وطعمه وفائدته، والهدف من خلقه، وكل نبتة أنشئت لهدف محدد يتكامل، مع سائر أنواع النباتات.

﴿وَهُوَ ٱلَّذِىٓ أَنزَلَ مِنَ ٱلسَّمَآءِ مَآءً﴾ ترى كم هي حكمة رائعة أن ينزل الله من السماء ماء، والماء منبعه في الأرض، وهو مالح، ولكن الله يحليه بالتبخير، ثم يرفعه إلى السماء، ويضيف إليه هناك المواد الضرورية للزرع، بعضها عن طريق احتكاك السحب ببعضها مما يحدث الرعد، وبعضها عن طريق امتزاج الماء بالهواء، ثم حين تمطر السماء يتوزع هذا الماء في كل أرجاء الأرض السهل والجبل، والمدينة والصحراء ليحقق أهدافاً مختلفة.

(١) تفسير القمي: ج١، ص٢١٢.

أو لا تهدينا هذه الآية إلى ربنا القدير، ثم انظر إلى آثار الماء الذي يهبط من السماء.

﴿فَأَخْرَجْنَا بِهِۦ نَبَاتَ كُلِّ شَيْءٍ﴾ كل شيء ينمو بهذا الماء. الزرع والضرع والحيوانات.

﴿فَأَخْرَجْنَا مِنْهُ خَضِرًا نُّخْرِجُ مِنْهُ حَبًّا مُّتَرَاكِبًا﴾ كالحنطة والشعير والذرة وما أشبه مما يتراكم إلى بعضها لفائدة المجتمع، حتى يكاد البشر يعجز عن استيعاب الفائض منه، فإذا ببعض الدول تحرق المزيد منها، وبعضها تلقيه في البحر.

﴿وَمِنَ ٱلنَّخْلِ مِن طَلْعِهَا قِنْوَانٌ دَانِيَةٌ﴾ تعطيك تمرها بسهولة بالأسلوب إلى روعة جمالها، وسائر فوائدها.

﴿وَجَنَّٰتٍ مِّنْ أَعْنَابٍ وَٱلزَّيْتُونَ وَٱلرُّمَّانَ مُشْتَبِهًا وَغَيْرَ مُتَشَٰبِهٍ﴾ ولحظة ولادة الحياة لحظة رائعة، لأنها أقرب إلى الفهم العميق لطبيعة الحياة، ولما فيها من حكمة ونظام، ولما تحتوي عليها من شواهد عظيمة على طبيعتها المحدودة المحكومة بما فوقها من إرادة وعلم وقدرة، لذلك يأمرنا الله بالنظر إلى هذه اللحظة.

﴿ٱنظُرُوٓاْ إِلَىٰ ثَمَرِهِۦٓ إِذَآ أَثْمَرَ وَيَنْعِهِۦٓ﴾ إن هذه العبر المنتشرة في الحياة بحاجة إلى الإيمان بها حتى يعرفها ويستوعبها البشر إذ من دون الإيمان يقتصر نظر البشر إلى الحياة ذاتها، دون النظر إلى ما ورائها من حكمة وغاية معقولة، أو لما فيها من شهادة على الرب الكريم ﴿إِنَّ فِى ذَٰلِكُمْ لَأٓيَٰتٍ لِّقَوْمٍ يُؤْمِنُونَ﴾.

أسماء الله الحسنى

﴿وَجَعَلُوا لِلَّهِ شُرَكَاءَ الْجِنَّ وَخَلَقَهُمْ وَخَرَقُوا[1] لَهُ بَنِينَ وَبَنَاتٍ بِغَيْرِ عِلْمٍ سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى عَمَّا يَصِفُونَ (١٠٠) بَدِيعُ[2] السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ أَنَّى يَكُونُ لَهُ وَلَدٌ وَلَمْ تَكُنْ لَهُ صَاحِبَةٌ وَخَلَقَ كُلَّ شَيْءٍ وَهُوَ بِكُلِّ شَيْءٍ عَلِيمٌ (١٠١) ذَلِكُمُ اللَّهُ رَبُّكُمْ لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ خَالِقُ كُلِّ شَيْءٍ فَاعْبُدُوهُ وَهُوَ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ وَكِيلٌ (١٠٢) لَا تُدْرِكُهُ الْأَبْصَارُ وَهُوَ يُدْرِكُ الْأَبْصَارَ وَهُوَ اللَّطِيفُ الْخَبِيرُ (١٠٣)﴾.

هدى من الآيات:

إذا تدبرنا في الآيات الكونية التي أشار إليها القرآن الحكيم في الدروس الماضية، نجد أن الله يعطينا معرفة بذاته، ويأتي هذا الدرس ليذكرنا ببعض الصفات الإلهية التي يعرفها المؤمن بسبب معرفته بربه، وكلما زادت معرفة الإنسان بالله زادت معرفته بصفاته وأسمائه الحسنى، ومن ثم معرفته بسائر المعارف التوحيدية كالعدل والنبوة والإمامة والمعاد وما إليها.

في البداية يذكرنا القرآن بأن الله هو الذي خلق الجن، ولكن الساذجين من البشر يزعمون بأن الجن شريك، كما أنهم قالوا: (كذبا) إن لله بنين وبنات، وهذا يدل على عدم علم بالحقيقة، ولا معرفة بالله المتعالي عن الصفات السيئة.

هو الذي خلق الأشياء من العدم خلقاً إبداعيًّا دون أن تتولد منه الأشياء، حتى يحتاج إلى آخر مكمل له يتولد منهما معاً، كما البشر بحاجة إلى صاحبة حتى يتولد منهما الطفل.

---

(١) وخرقوا: حكموا.

(٢) بديع: بمعنى المبدع، والفرق بين الإبداع والاختراع أن الإبداع فعلُ ما لم يُسبقْ إلى مثله، والاختراع فعل ما لم يوجد سبب له، ولذلك يقال البدعة لما خالف السنة لأنه إحداث ما لم يُسبقْ إليه.

وأخيراً فإن الله هو الذي خلق كل شيء، وأحاط بكل شيء علماً، وعلى البشر أن يخلص عبادته لله، لأنه الرب، ولأنه الوحيد، ولأنه مهيمن على كل شيء يدبر أمر الخلق، ويجري فيه السنن والأنظمة فهو علينا وكيل.

بينات من الآيات:

حين يجهل المخلوق قدر خالقه؟!

[١٠٠] القوى الغيبية التي يشعر البشر بوجودها (بطريقة أو بأخرى) يجهل عادة طبيعتها، ويزعم أنها قوى منفصلة عن قدرة الله المهيمنة على الحياة، أو حتى أنها آلهة وشريكة للإله العظيم في العلم والقدرة، وقد يتطور هذا الزعم إلى خرافة عبادة الجن والمرتبطين بالجن، من الناس كالكهنة وسدنة المعابد، إلى جانب الإيمان بالله وبرسالاته.

بينما الحقيقة: أن هذه القوى الغائبة عن الأنظار، سواء كانت عاقلة ومريدة كالجن والملائكة، أو لا كقوة الكهرباء والجاذبية وما أشبه، إنما هي مخلوقات كسائر المخلوقات المادية، منتهى الأمر أن علمنا بها محدود.

﴿وَجَعَلُوا لِلَّهِ شُرَكَاءَ الْجِنَّ وَخَلَقَهُمْ﴾ الله خلق الجن، لأنهم يتميزون بذات الصفات التي تتمثل في سائر الموجودات مثل: المحدودية والجهل والتعدد والتكاثر، وكلها صفات المخلوق، والمخلوق سواء كان ظاهراً أو غائباً فهو المخلوق.

﴿وَخَرَقُوا لَهُ بَنِينَ وَبَنَاتٍ بِغَيْرِ عِلْمٍ﴾ نسبوا إلى الله تهمة بعيدة جدًّا عن الحقيقة، بل هي خرق للفطرة، ولما هو معلوم من سنن الحياة: تلك هي أن بعض هؤلاء الشركاء قريب إلى الله، فزعموا أنها أبناء لله أو بنات له -سبحانه- وليس أصحاب هذه التهمة على علم بهذه الفكرة الخرقاء، وهنا يظهر مدى بطلان كلامهم. إذ كيف يمكن ربط شيئين ببعضهما، والادعاء بأن هذا قريب من ذلك، من دون أي دليل أو شاهد، وربما تشير الآية إلى أن طاعة أحد باسم طاعة الله إنما هي شرك وضلالة ما دام الله لم ينزل على ذلك سلطان وبرهاناً مبيناً.

ثم إن نسبة شيء إلى الله سبحانه، باعتباره بنتاً أو ابناً له لدليل على عدم معرفتهم بالله، إذ أن من يعرف الله يعرف أنه منزه عن الشريك، ومتعال عن صفات الخلق، إن هذه الصفات هي صفات المخلوقين، ولأننا نجد مثل هذه الصفات في المخلوقات، نعرف أن الخالق منزه عنها، ولو نسبنا إلى الله سبحانه مثلها، إذن لاحتاج هو الآخر إلى رب أعلى، لإنها تدل على أنه بدوره مخلوق مثل سائر المخلوقات.

﴿سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى عَمَّا يَصِفُونَ﴾ وينسبون إلى ربهم من صفات المخلوقين.

الخلق وليست الولادة

[١٠١] يبدو أن الآية السابقة نفت الفكرة القائلة بأن هناك في عالم الألوهية درجات، كل إله له درجة، بعضها كالأب وبعضها كالإبن، بيد أن هذه الآية تنفي وجود التوالد والتناسل، فيذكرنا القرآن هنا: بأن نشوء الخلق ليس كما يزعم المبطلون من أنه عن طريق التوالد، بل هو عن طريق الخلق المباشر.

﴿ بَدِيعُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ أَنَّىٰ يَكُونُ لَهُۥ وَلَدٌ وَلَمْ تَكُن لَّهُۥ صَٰحِبَةٌ ﴾ إذ ما من شيء يلد إلاّ وكان له صاحبة، إذ من دون ذلك تستحيل الولادة، إذ يسبب في نقصان الشيء الأول وإنتهائه، وإذا كان ربنا بحاجة إلى جزء مكمل حتى يخلق الخلائق، فما الفرق بينه وبين أي مخلوق آخر، ولماذا أساساً نعتقد بوجود إله؟ إن المخلوقات تشهد على عجزها وحاجتها إلى الخالق وبحاجتها إلى بعضها، ولا بد أن يكون الخالق بريئاً من ذلك، ولنفرض مثلاً حاجة شيء إلى شيء آخر لتتم عملية خلق شيء ثالث، أفلا يحتاجان إذن إلى قوانين وأنظمة لهذا التزاوج حتى يتم وكيف وبأي قدر وكمية؟ بلى، ومن يضع هذه القوانين، ومن يجريها؟ أو ليس شخص ثالث؟ وهو أعلى منهما؟.

﴿وَخَلَقَ كُلَّ شَيْءٍ﴾ خلقاً مساوياً، فنسبة أي شيء إليه هي نسبة سائر الأشياء دون زيادة أو نقيصة فهو خالقهم جميعاً ﴿وَهُوَ بِكُلِّ شَيْءٍ عَلِيمٌ﴾.

[١٠٢] وهذه بالضبط، صفات الخالق من دون المخلوقين، إنه بريء عن نسبة البنين والبنات إليه وعن الأولاد والصاحبة، وعن الضعف والجهل، فهو الذي تشهد فطرتنا بأنه الخالق الذي نتطلع إليه.

﴿ذَٰلِكُمُ ٱللَّهُ رَبُّكُمْ لَآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ خَٰلِقُ كُلِّ شَيْءٍ فَٱعْبُدُوهُ وَهُوَ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ وَكِيلٌ﴾ والعبادة لا تنبغي إلا له، لأنه خالق الأشياء، ولأنه الذي بيده أمور الأشياء، فهو الذي جري عليها الأنظمة، ويهيمن على أمورها اليومية.

القريب البعيد

[١٠٣] وصفة حسنى لله، هي صفة القرب المتعالي، فبالرغم من أن الأبصار لا تدركه لأنه متعال عن الحدود والأبعاد والاتجاهات والأبصار، كما أن العقول لا تدرك شيئا مطلقا لا حدود له ولا أبعاد، بالرغم من ذلك فهو قريب من الأشياء، فهو يدرك الأبصار، ويحيط علمه بما في العقول والأفكار ﴿ لَّا تُدْرِكُهُ ٱلْأَبْصَٰرُ وَهُوَ يُدْرِكُ ٱلْأَبْصَٰرَ ﴾ وهذه الصفة تدل على منتهى اللطف، حيث أنه يدرك كل شيء لأنه يحيط بكل شيء ﴿وَهُوَ ٱللَّطِيفُ ٱلْخَبِيرُ ﴾.

مسؤولية البشر في الهداية

﴿قَدْ جَاءَكُم بَصَائِرُ مِن رَّبِّكُمْ فَمَنْ أَبْصَرَ فَلِنَفْسِهِ وَمَنْ عَمِيَ فَعَلَيْهَا وَمَا أَنَا عَلَيْكُم بِحَفِيظٍ ﴿١٠٤﴾ وَكَذَلِكَ نُصَرِّفُ الْآيَاتِ وَلِيَقُولُوا دَرَسْتَ[1] وَلِنُبَيِّنَهُ لِقَوْمٍ يَعْلَمُونَ ﴿١٠٥﴾ اتَّبِعْ مَا أُوحِيَ إِلَيْكَ مِن رَّبِّكَ لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ وَأَعْرِضْ عَنِ الْمُشْرِكِينَ ﴿١٠٦﴾ وَلَوْ شَاءَ اللَّهُ مَا أَشْرَكُوا وَمَا جَعَلْنَاكَ عَلَيْهِمْ حَفِيظًا وَمَا أَنتَ عَلَيْهِم بِوَكِيلٍ ﴿١٠٧﴾ وَلَا تَسُبُّوا الَّذِينَ يَدْعُونَ مِن دُونِ اللَّهِ فَيَسُبُّوا اللَّهَ عَدْوًا[2] بِغَيْرِ عِلْمٍ كَذَلِكَ زَيَّنَّا لِكُلِّ أُمَّةٍ عَمَلَهُمْ ثُمَّ إِلَى رَبِّهِم مَّرْجِعُهُمْ فَيُنَبِّئُهُم بِمَا كَانُوا يَعْمَلُونَ ﴿١٠٨﴾﴾.

هدى من الآيات:

بعد أن ذكرت آيات الدرس السابق بالله سبحانه، جاءت هذه الآيات لتؤكد المعنى الذي سبق في الدروس السابقة وهو أن وجود الآيات لا يكفي في هداية البشر، بل إذا لم يرد الإنسان لنفسه الاهتداء، فإنه لا يهتدي وهو المسؤول عن ذلك.

وتصريف الآيات أي ذكرها بصفة مكررة إنما هو بهدف توضيح الحقائق لمن يعلم أنه يجب عليه أن يتبع الحقائق، دون خوف ممن يخالفها كالذين أشركوا، والمشركون لا يعجزون الله إذ لو شاء الله ما أشركوا، فشركهم إنما هو بإذن الله (أي الإذن التكويني دون أن يكون برضاه سبحانه) والرسول ليس مسؤولاً عن شركهم، ولا هو وكيلهم، إنما عليه أن يبلغهم

(١) درسْت: الدرس أصله استمرار التلاوة، ودرس الأثر دروساً إذا انمحى لاستمرار الزمان به، ودرست الريح الأثر دروساً محته باستمرارها عليه.
(٢) عَدْواً: اعتداءاً وظلماً.

الرسالة، ثم إذا لم يستجيبوا يعرض عنهم إلى غيرهم.

إن الشرك مضلل لأهله حتى أنهم أصبحوا يقدسون أصنامهم، ولا يجوز سب هذه الآلهة المزيفة لأنهم آنئذ سوف يسبون الله ظلماً وعدواناً. وأن الله الذي سوف يرجعون إليه سوف يجزيهم بما فعلوا، وكيف أنهم خالفوا الحقائق.

ويبدو أن معرفة العلاقة المناسبة بين من يؤمن وبين من يشرك ومقدار مسؤولية المؤمنين في الهداية. هو أمر إيجابي في وعي المؤمنين للواقع. إذ من دونها ينشغل ذهن المؤمنين بمصير المشركين وربما يشعرون بتأنيب الضمير من أجلهم.

بينات من الآيات:

بصائر الرسالة ومسؤولية الاهتداء

[١٠٤] البصيرة هي الآلة التي تساعد على التبصر، والقرآن بصائر، لأنه يحتوي على مناهج للفكر وآيات للحقيقة، والقرآن يزكي النفس، ويرفع عنها حجاب الكبر حتى ترى الحقيقة.

﴿قَدْ جَآءَكُم بَصَآئِرُ مِن رَّبِّكُمْ﴾ والكلمة المشهورة في أدبنا الحديث والتي تستخدم مكان البصيرة هي الرؤية، بيد أن البصيرة (وجمعها بصائر) أقرب إلى المعنى المطلوب ذلك لأن الرؤية تطلق حيناً على الأبصار، وحيناً على اتخاذ رأي، بينما البصيرة هي التي تساعد على عملية الأبصار، ومشاهدة الحقائق عن كثب من دون احتمال للخطأ.

والقرآن لا يحملك رأيا، أو يفرض عليك اتجاهاً فكريًّا، بل يساعدك على تلمس الحقيقة مباشرة من دون وسائط، بيد أن لإرادتك دوراً في ذلك، فإن شئت استخدمت البصيرة، وإلا فأنت كمن لا يستخدم عينه فلا يرى ﴿فَمَنْ أَبْصَرَ فَلِنَفْسِهِۦ وَمَنْ عَمِىَ فَعَلَيْهَا﴾

والرسول هو الآخر لايهدف تحميل رؤية عليك لأنه ليس حفيظاً عليك. أي أن الله لم يكلفه بحفظك وهدايتك، بل أنت المسؤول عن نفسك ﴿وَمَآ أَنَا۠ عَلَيْكُم بِحَفِيظٍ﴾.

[١٠٥] والآيات هذه بيّنها الله ببيان واضح.

﴿وَكَذَٰلِكَ نُصَرِّفُ ٱلْآيَٰتِ وَلِيَقُولُوا۟ دَرَسْتَ وَلِنُبَيِّنَهُۥ لِقَوْمٍ يَعْلَمُونَ﴾ قالوا في معنى الآية: «إن تصريف الآيات، وذكر بعضها بعد بعض وتنزلها بصورة تدريجية يعتبر زيادة في شقاء

الضالين وزيادة بيان للمؤمنين».

ذلك لان الكفار كانوا يتخذون من تنظيم نزول القرآن ذريعة لكفرهم فيقولون: «إن النبي يتعلم من العلماء ويدرس عندهم ويتفكر في المسائل ويدرسها ثم يحولها إلى آيات». وإلاّ فَلِمَ لَمْ يأتِ بها جملة واحدة كما فعل موسى عليه السلام.

[١٠٦] وعلى البشر أن يتبع الوحي دون نظر للآخرين الذين لا يؤمنون، لأن أولئك مسؤولون عن أنفسهم، وأنا بدوري مسؤول عن نفسي، فالانشغال بهؤلاء قد يجعلني أنحرف قليلاً أو أترك جانباً من الوحي، إن المقياس الأول والآخر هو الحق وعلى البشر أن ينظر إليه فقط في مسيرته. ﴿ٱتَّبِعْ مَآ أُوحِىَ إِلَيْكَ مِن رَّبِّكَ ۖ لَآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ ۖ وَأَعْرِضْ عَنِ ٱلْمُشْرِكِينَ﴾.

[١٠٧] والتفكر في المشركين وفي مصيرهم، وأنه لماذا يذهبون إلى النار بالرغم من أنهم بشر مثلنا؟ هذا التفكر يجعلنا نشتبه في بعض الحقائق، أو لا أقل لا نتبع مسيرتنا إلى نهايتها، لذلك يذكرنا القرآن بأن شرك المشركين ليس بمعجز لله، بل هو ضمن إطار إذن الله وهيمنته على الكون، وإذا كان على البشر أمر أكثر من مجرد دعوتهم إلى الإيمان. لكان الله سبحانه يفعل لهم ذلك.

﴿وَلَوْ شَآءَ ٱللَّهُ مَآ أَشْرَكُوا۟ ۗ وَمَا جَعَلْنَٰكَ عَلَيْهِمْ حَفِيظًا ۖ وَمَآ أَنتَ عَلَيْهِم بِوَكِيلٍ﴾ فانتظارهم خطأ لأننا لسنا مكلفين بحفظهم أو وكلاء عنهم.

لا تسبوا المشركين

[١٠٨] دع المشركين في ضلالهم، إنهم بعد أن أرادوا الشرك واختاروه على الهدى، وكلهم الله إلى أنفسهم، وزين لهم الله أعمالهم، لذلك فهم يقدسون منهجهم في الحياة، ومن الخطأ أن يسب المؤمن مقدسات المشركين، لأنه سوف يسبب في رد الفعل من جانبهم، فيسبوا الله ظلماً وعدواناً، ولأنه قد زين لهم هذه الأعمال، فلماذا نكلف أنفسنا، وإننا نعلم أن مصير هؤلاء إلى الله حيث يحاسبهم ويجازيهم؟!.

﴿وَلَا تَسُبُّوا۟ ٱلَّذِينَ يَدْعُونَ مِن دُونِ ٱللَّهِ فَيَسُبُّوا۟ ٱللَّهَ عَدْوًۢا بِغَيْرِ عِلْمٍ ۗ كَذَٰلِكَ زَيَّنَّا لِكُلِّ أُمَّةٍ عَمَلَهُمْ ثُمَّ إِلَىٰ رَبِّهِم مَّرْجِعُهُمْ فَيُنَبِّئُهُم بِمَا كَانُوا۟ يَعْمَلُونَ﴾ إذن: يجب الإعراض عن المشركين والاستمرار في بناء الكيان الإسلامي، بعيداً عنهم لأنه لا أمل فيهم، وحسابهم غداً على الله.

لماذا المطالبة بالآيات الجديدة؟

﴿وَأَقْسَمُوا بِاللَّهِ جَهْدَ أَيْمَانِهِمْ لَئِن جَاءَتْهُمْ آيَةٌ لَّيُؤْمِنُنَّ بِهَا قُلْ إِنَّمَا الْآيَاتُ عِندَ اللَّهِ وَمَا يُشْعِرُكُمْ أَنَّهَا إِذَا جَاءَتْ لَا يُؤْمِنُونَ (١٠٩) وَنُقَلِّبُ أَفْئِدَتَهُمْ وَأَبْصَارَهُمْ كَمَا لَمْ يُؤْمِنُوا بِهِ أَوَّلَ مَرَّةٍ وَنَذَرُهُمْ فِي طُغْيَانِهِمْ يَعْمَهُونَ (١١٠) وَلَوْ أَنَّنَا نَزَّلْنَا إِلَيْهِمُ الْمَلَائِكَةَ وَكَلَّمَهُمُ الْمَوْتَىٰ وَحَشَرْنَا عَلَيْهِمْ كُلَّ شَيْءٍ قُبُلًا[1] مَّا كَانُوا لِيُؤْمِنُوا إِلَّا أَن يَشَاءَ اللَّهُ وَلَٰكِنَّ أَكْثَرَهُمْ يَجْهَلُونَ (١١١)﴾.

هدى من الآيات:

في سياق الحديث عن ضرورة الإعراض عن المشركين باعتبارهم معاندين، في هذا الدرس يتابع القرآن هذا الحديث ببيان أن المشركين يحلفون بالله -الأيمانَ المغلظة- انهم سوف يؤمنون بشرط نزول آية معينة عليهم، أو دليل قوي، بيد أنهم يكذبون، وبالرغم من أن الله قادر على أن ينزل آية مما يطالبون بها، ولكن ما الضمان لقبولها ما داموا يرفضون الآيات الواضحة، وتحدثنا الآية الثانية، عن أن الكفر بالآيات يسبب في تبديل القيم والمقاييس، وعدم قدرة الفكر على التمييز، ذلك لأن الكفار طغاة والطغيان يحجب العقل، ويدع القلب مظلماً.

وفي الآية الأخيرة: يذكر القرآن أنه حتى لو أنزل الله أكثر الآيات وضوحاً، مثل نزول الملائكة، وتكلم الموتى، وحشر كل شيء أمامهم، فإنهم لا يؤمنون لأن الجهل محيط بأكثرهم.

---

(١) قبلًا: معاينةً.

بينات من الآيات:

الأيمان الكاذبة

[١٠٩] التعرف على طبيعة المشركين، يساعدنا في اتخاذ موقف صحيح منهم، إنهم إنما يكفرون استجابة لشهواتهم، أو تسليماً لضغوط مجتمعهم، أو خشية من طاغوت حكومتهم أو ما أشبه، ولكنهم يبررون كفرهم بأنهم غير مقتنعين بالحق، أو أن الآيات والمعاجز غير كافية لهم، ولكي يبالغوا في تغطية كذبهم ونفاقهم، لا يدعون قسماً إلا ويحلفون به على صدق نواياهم وهم كاذبون.

﴿وَأَقْسَمُوا بِاللَّهِ جَهْدَ أَيْمَانِهِمْ﴾ أي بآخر ما يستطيعون عليه من الإيمان.

﴿لَئِن جَاءَتْهُمْ آيَةٌ لَّيُؤْمِنُنَّ بِهَا﴾ أي آية معينة يذكرونها أو آية يصدق عليها كلمة آية -في زعمهم- مثل أن تكون آية كبيرة جداً كإحياء الموتى.

﴿قُلْ إِنَّمَا الْآيَاتُ عِندَ اللَّهِ﴾ فالله قادر على أن يأتي بآية، ولكنه لا يأتي بها إلا حين تقتضي حكمته، وليس كلما شاءت أهواء الكفار، أو حتى إرادة الرسول ﷺ الحريص جدا على هداية الناس.

﴿وَمَا يُشْعِرُكُمْ أَنَّهَا إِذَا جَاءَتْ لَا يُؤْمِنُونَ﴾ وأي ضمان نملكه نحن لأيمانهم بعد مجيء مثل تلك الآية، علماً بأن هؤلاء كفروا سابقاً بكل الآيات الواضحة.

محكمة الفطرة

[١١٠] للإنسان فطرة أولية أنعم بها الله عليه، وبهذه الفطرة يميز البشر الخير من الشر، والهدى من الضلالة، وإليها يحتكم أهل الأرض حين يتنازعون، فالفداء والإحسان والشجاعة والسخاء والبطولة، صفات جيدة، وعكسها رذيلة، تجد هذا عند المسلم والكافر، والحضري والبدوي، وحتى الإنسان البدائي شبه الوحشي، إنها مقاييس عامة زود الله البشر بها ليتلمس بها طريقه.

وبهذه الفطرة الأولية عرف البشر ربه، وآمن به، ولكنه بعد أن تعرض لضغط الشهوات والطغاة والخرافات. استسلم لها وكفر بالله، وحين كفر بربه أرسل الله إليه الرسل، فمنهم من آمن وتحدى الضغوط، ومنهم من كفر، وهؤلاء لم يفقدوا نعمة الرسالة السماوية فحسب، بل أن الله سبحانه أفقدهم نعمة الفطرة الأولى أيضاً.

﴿وَنُقَلِّبُ أَفْئِدَتَهُمْ وَأَبْصَارَهُمْ﴾ الأفئدة هي القلوب التي كانت سابقاً محلاً للفطرة النقية، وللمقاييس السليمة، أما الأبصار فهي الحواس التي تتبع القلوب، فإذا تحولت وتبدلت معايير البشر، فإن حواسه هي الأخرى تتحول دون أن يقدر على الاستفادة السليمة منها، وآنئذ يصبح هؤلاء بسبب فقدان الفطرة.

﴿كَمَا لَمْ يُؤْمِنُوا بِهِ أَوَّلَ مَرَّةٍ﴾ والسبب أن هؤلاء طغوا، والطغيان يسبب قلب الأفئدة، وتبدل المقاييس.

فالبشر الذي يتبع عقله، ويتبع الحق، والحق هو هدفه، مزود بمقاييس لمعرفة هذا الحق، ولكنه حين يتبع شهوته، ويتبع ذاته، والذات الطاغية كل هدفه، ومقياسه في الحسن والقبح، والخير والشر، والفضيلة والرذيلة، هو الأقرب إلى نفع ذاته وتحقيق هدفه اللامقدس من وراء شهواته، وتكون أصول دينه ثلاثة: الطعام والشراب والجنس، وأحكام دينه هكذا: الحلال ما حل باليد، والحرام ما حرم منه الإنسان، لذلك يحذر القرآن من مغبة الكفر بالآيات ويقول:

﴿وَنَذَرُهُمْ فِي طُغْيَانِهِمْ يَعْمَهُونَ﴾ لا يتلمسون طريقهم لأنهم طغوا، بل إن هؤلاء يفقدون شيئاً فشيئاً المقاييس لمنفعة ذواتهم، فيخربون بيوتهم بأيديهم وأيدي المؤمنين.

[١١١] ودليل كذبهم ونفاقهم: أنهم لو أنزلت عليهم اكثر الآيات إثارة لم يؤمنوا.

﴿۞ وَلَوْ أَنَّنَا نَزَّلْنَا إِلَيْهِمُ الْمَلَائِكَةَ وَكَلَّمَهُمُ الْمَوْتَىٰ﴾ بل أكثر من هذا لو أن الله حشر عليهم الأموات حتى يواجهوهم بالحقيقة الصريحة، كما إذا حشر عليهم الطيور فآمنت بالرسالة مع ذلك ما آمنوا.

﴿وَحَشَرْنَا عَلَيْهِمْ كُلَّ شَيْءٍ قُبُلًا مَّا كَانُوا لِيُؤْمِنُوا إِلَّا أَن يَشَاءَ اللَّهُ﴾ فيهديهم هداية مفروضة عليهم ﴿وَلَٰكِنَّ أَكْثَرَهُمْ يَجْهَلُونَ﴾.

الإصغاء إلى زخرف القول

﴿وَكَذَٰلِكَ جَعَلْنَا لِكُلِّ نَبِيٍّ عَدُوًّا شَيَاطِينَ الْإِنسِ وَالْجِنِّ يُوحِي بَعْضُهُمْ إِلَىٰ بَعْضٍ زُخْرُفَ الْقَوْلِ غُرُورًا ۚ وَلَوْ شَاءَ رَبُّكَ مَا فَعَلُوهُ ۖ فَذَرْهُمْ وَمَا يَفْتَرُونَ (١١٢) وَلِتَصْغَىٰ إِلَيْهِ أَفْئِدَةُ الَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ بِالْآخِرَةِ وَلِيَرْضَوْهُ وَلِيَقْتَرِفُوا مَا هُم مُّقْتَرِفُونَ (١١٣)﴾.

هدى من الآيات:

الدنيا دار ابتلاء، والهدف مما فيها من صراع، فضح جوهر الأشخاص حتى يكون الثواب والعقاب وفق العمل لا وفق علم الباري سبحانه، ولقد قيض الله لكل رسول عدوًّا، ليكون قدوة لمن لا يؤمن بالآخرة، كما أن الرسول ﷺ قدوة وإمام للمؤمنين، وأعداء الرسالات يوحي بعضهم إلى البعض أقوالاً مزخرفة يتبعون بها غرور أنفسهم، وهذا الكلام يشبه الوحي الإلهي في انه مقدس عند من لا يؤمن بالآخرة.

وهنا جعل القرآن الخط الفاصل بين المؤمن والكافر الإيمان بالآخرة، وهذا يعني أن غير المؤمنين بالآخرة لا يمكنهم الإيمان بأي شيء آخر من الحقائق.

ويأتي هذا الدرس ليبين جانباً من فلسفة الشرك عند أولئك الذين يرفضون الإيمان بالله والرسالة. حتى ولو جاءتهم كل آية ممن ذكرهم القرآن الكريم في الدرس السابق.

بينات من الآيات:

المعارضة المنظمة

[١١٢] لنعرف أن هناك معاندين لا ينفع معهم الجدل، وأن موقف هؤلاء لا يعتمد

على دليل مضاد فلا يبعث موقفهم في أنفسنا الوهن والشك فنقول: لعل حديثهم ينطوي على جانب من الصحة فنخرج -لا سمح الله- من الإيمان، لذلك جاء هذا الدرس وما مضى ليؤكد على أن الله سبحانه ليس فقط حرم هؤلاء من نعمة الهداية، وسلبهم نعمة الفطرة النقية، وإنما أيضاً نظم هؤلاء في قيادة مناهضة لإمامة الرسول، وجعلهم يقلدون أساليب الرسالة حتى أن بعضهم يوحي إلى البعض الآخر ﴿وَكَذَٰلِكَ جَعَلْنَا لِكُلِّ نَبِيٍّ عَدُوًّا شَيَاطِينَ الْإِنسِ وَالْجِنِّ﴾.

والسؤال: كيف جعل الله ذلك، هل خلق أعداء ليكونوا مناهضين للرسالة؟

ربما الجواب السليم هو: أن هذه سنة من سنن الله في الحياة، يذكرها القرآن هنا لنكون على بصيرة منها لئلا نفاجأ بها، ولأن كل السنن في الكون من صنع الله لذلك يعبر عنها القرآن دائماً بمثل هذه التعبيرات.

إن الرسالة التي تنتشر دون مقاومة أعداء لابد أن يتهم أصحابها أنفسهم، لأن هذه السنة لم تتحقق فيهم، وإن الرساليين -الذي ينتظرون عملاً سهلاً وميسوراً- إنهم على خطأ؛ إن شيطان الإنس يتمثل في مجتمع الطاغوت، وشيطان الجن يتمثل في أهواء الجبت والمنافقين وما أشبه.

﴿يُوحِي بَعْضُهُمْ إِلَىٰ بَعْضٍ زُخْرُفَ الْقَوْلِ غُرُورًا﴾ وحي الرسالة يتمثل في البصائر التي تساعد البشر على رؤية حقائق الحياة، بينما وحي أعداء الرسالة وثقافاتهم الأسطورية (المقدسة عندهم) يتلخص في أقوال مزخرفة ذات أدب خاو مشبع بالكلمات المفخمة، غير ذات المحتوى، أما روح هذه الكلمات فيتمثل في الغرور، ونفخ الأنانية الباطلة، إن هذا مقياس صادق لتمييز الثقافة الرسالية عن الجاهلية.

حيث أن الأولى تدعو إلى تقديس الحق، والتواضع له، ونسيان الذات والأرض، والدم واللغة، والثروة وما أشبه من أجل إحقاق الحق، بينما الثانية تقدس كل شيء مادي غير الصدق والحق والخير وما أشبه.

﴿وَلَوْ شَاءَ رَبُّكَ مَا فَعَلُوهُ فَذَرْهُمْ وَمَا يَفْتَرُونَ﴾ فلا نتصور أن هناك ضرورة تدعو إلى إسكات هؤلاء، وتصفيتهم أو هدايتهم، إذ لو شاء الله لفعل ذلك، فهو قادر على ذلك وإنما لم يفعل لحكمة بالغة.

الإيمان بالآخرة ومسؤولية الضلال

[١١٣] ومن سنن الله في الحياة أنّ نعيق أئمة الضلال يستقطب الهمج الغثاء الذين

يفقدون الإيمان بالآخرة، فيكون امتحاناً لهم أيضاً.

﴿وَلِتَصْغَىٰٓ إِلَيْهِ أَفْـِٔدَةُ ٱلَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ بِٱلْـَٔاخِرَةِ﴾ إنما ركز القرآن على الإيمان بالآخرة، لأن السبب في عدم الإيمان بالله -وهو مصدر كل معرفة وإيمان- ليس عدم وضوح الشواهد، فالله أكبر شهادةً من كل شيء، وإنما عدم الخوف من العاقبة، وأساساً قصر النظر، ومحدودية الرؤية بما في عاجل الدنيا، بل عاجل اللحظة التي يعيشها الشخص من الدنيا.

﴿وَلِيَرْضَوْهُ وَلِيَقْتَرِفُوا۟ مَا هُم مُّقْتَرِفُونَ﴾ من الجرائم حتى يلاقوا جزاءهم العادل بعد عمل وعلم بذلك.

وإنما قال ربنا: ﴿وَلِتَصْغَىٰٓ إِلَيْهِ أَفْـِٔدَةُ﴾ ولم يقل أسماع؛ لأن هذه الأفكار المزخرفة تتناسب وخواءهم العقائدي فيتقبلونها بأفئدتهم.

اتباع الأكثرية الضالة

﴿ أَفَغَيْرَ ٱللَّهِ أَبْتَغِى حَكَمًا وَهُوَ ٱلَّذِىٓ أَنزَلَ إِلَيْكُمُ ٱلْكِتَٰبَ مُفَصَّلًا ۚ وَٱلَّذِينَ ءَاتَيْنَٰهُمُ ٱلْكِتَٰبَ يَعْلَمُونَ أَنَّهُۥ مُنَزَّلٌ مِّن رَّبِّكَ بِٱلْحَقِّ ۖ فَلَا تَكُونَنَّ مِنَ ٱلْمُمْتَرِينَ (١١٤) وَتَمَّتْ كَلِمَتُ رَبِّكَ صِدْقًا وَعَدْلًا ۚ لَّا مُبَدِّلَ لِكَلِمَٰتِهِۦ ۚ وَهُوَ ٱلسَّمِيعُ ٱلْعَلِيمُ (١١٥) وَإِن تُطِعْ أَكْثَرَ مَن فِى ٱلْأَرْضِ يُضِلُّوكَ عَن سَبِيلِ ٱللَّهِ ۚ إِن يَتَّبِعُونَ إِلَّا ٱلظَّنَّ وَإِنْ هُمْ إِلَّا يَخْرُصُونَ[١] (١١٦) إِنَّ رَبَّكَ هُوَ أَعْلَمُ مَن يَضِلُّ عَن سَبِيلِهِۦ ۖ وَهُوَ أَعْلَمُ بِٱلْمُهْتَدِينَ (١١٧) ﴾.

هدى من الآيات:

بعد أن ذكر القرآن الحكيم الوحي الشيطاني في الدرس السابق ذكرت هذه الآيات بالوحي الإلهي الذي لا يجوز اتخاذ غيره لأنه كتاب مفصل فيه تفصيل كل شيء، فلا نحتاج إلى غيره وهو لاريب فيه بالنسبة للمؤمنين. ففيه الثقة كلها، ثم انه يمثل الحق والعدالة. وهو كتاب دائم، لا يتغير وفق تطورات الزمان والمكان، لأن الذي وضعه هو الله الذي وضع سنن الحياة، وهو السميع العليم وعلمه جديد قديم.

وفي مقابل رسالة الله لا نجد سوى تخرصات الناس التي لانجد فيها إلا الظنون والخيالات الفارغة التي لا يقدرون هم أنفسهم من اليقين بها والإيمان بصحتها.

والله سبحانه أعلم باتجاهات الناس الضالين منهم والمهتدين لأن السبيل هو سبيل الله، والمقياس في الضلالة أو الهدى هو الله الحق، فهو أعلم بذلك الحق، وأولى بأن نسأله سبحانه في هدايتنا إلى السبيل الأقوم المؤدي إليه سبحانه.

---

(١) يخرصون: يكذبون.

إن البشر يبحث عادة عن الحق ولكنه يضل عنه، ولأن الناس يختلفون في الحق، ولا يمكن أن يجعل كلام بعضهم مقياساً وميزاناً لمعرفة وتمييز الحق عن الباطل، إذن فلنعد إلى الله رب الناس، ومن إليه منتهى طريق الحق ليهدينا إلى الحق.

بينات من الآيات:

انزل عليكم الكتاب مفصلاً

[١١٤] العالم يموج بالنظريات ذات الاتجاهات المتناقضة، والحياة تتزاحم فيها السبل المختلفة، والإنسان يولد مرة واحدة ويختار سبيله، والنظريات التي يعتنقها يتحمل شخصيًّا مسئوليتها، والناس لا يمكن أن يكونوا حكماً على بعضهم لأنهم يختلفون مع بعضهم اختلافاً واسعاً، إنما علينا أن نتوسل إلى قوة أعلى هي قوة الله لتكون مصدر إلهامنا بالنظرة الصحيحة، ومصدر هدايتنا إلى السبيل الأقوم.

﴿ أَفَغَيْرَ ٱللَّهِ أَبْتَغِى حَكَمًا ﴾ والله تعالى لم يبخل بالهداية على عباده، بل لم يكتف بالهداية المجملة، وإنما فصل الهداية تفصيلاً.

﴿وَهُوَ ٱلَّذِىٓ أَنزَلَ إِلَيْكُمُ ٱلْكِتَٰبَ مُفَصَّلًا﴾ فيه علم كل شيء بحدوده المتغيرة، وحسب مراحله الزمانية، فالقرآن لا يكتفي ببيان قبح الظلم وإنما أيضاً يفصل الحديث في أنواع الظلم وتفاصيل العدالة. والكتاب هذا لاريب فيه، فبإمكان البشر أن يؤمن به ببساطة، ودون تعقيد بشرط أن لا يكون معقداً ومعانداً.

﴿وَٱلَّذِينَ ءَاتَيْنَٰهُمُ ٱلْكِتَٰبَ يَعْلَمُونَ أَنَّهُۥ مُنَزَّلٌ مِّن رَّبِّكَ بِٱلْحَقِّ فَلَا تَكُونَنَّ مِنَ ٱلْمُمْتَرِينَ ﴾ الذين يجادلون في الحق بغير هدف سوى الجدل، لأنه لو لم يكن البشر ممترياً يستهدف بالمراء والجدل، فإنه سوف لا يشك في الكتاب.

الصدق والعدل وسيلة وهدف الرسالات

[١١٥] تتميز كلمات الله، وخلاصة وحيه إلى البشرية بأنها تامة، والتمام بمعنى وفائها بكل الحاجات البشرية، وأنها صادقة تطابق الحق، والحق هو ما في الكون من أنظمة وسنن، وبما أن ربنا هو جاعل هذه الأنظمة ومجريها، فإنه سبحانه هدى البشر إليها عبر كلماته بصدق.

إن كلمات ربنا سبحانه عدالة، حيث أنها تعطي لكل فرد حقه، ولكل طائفة وقوم وجيل حقه، ذلك لان الله فوق الميول والشهوات، وقادر وحكيم وعليم، لذلك لا يوجد لديه سبحانه

أي سبب للظلم، من عجز وما أشبه.

﴿ وَتَمَّتْ كَلِمَتُ رَبِّكَ ﴾ المحتوية على رسالاته ﴿صِدْقًا﴾ أي حقًا ﴿وَعَدْلاً ﴾ الصدق هو وسيلة الرسالة والعدل هو هدفها.

﴿لَا مُبَدِّلَ لِكَلِمَتِهِۦ وَهُوَ ٱلسَّمِيعُ ٱلْعَلِيمُ ﴾ فبسمعه يحيط علماً بكل صغيرة وكبيرة من حوادث الحياة، وبعلمه الواسع يحيط بأصل الحياة وأولها وآخرها و...، فعلمه جديد قديم. محيط بالجزئيات والكليات، فهو إذن تام الكلمات صدقاً وعدلاً.

عندما لا تتبع رسالتك

[١١٦] الرسالة الإلهية التامة قائمة على أساس الصدق والعدل، الصدق في القول والعمل، والعدل كهدف لهذا الصدق، أما الثقافات الجاهلية، فإنها قائمة على أساس الظن والتخرص، فما هو الظن؟.

الظن: هو التصور النابع من الأهواء الذاتية والشهوات والضغوط، أو هو ما تصنعه أنت في ذهنك. لا لكي تطبقه على الواقع الخارجي، بل ليكون بديلاً عنه، مثلاً: تصورات الشعراء عن الحياة ظنون. لأنها لا تهدف كشف الحياة كما هي، بل تهدف تصويرها حسب مذاق الشاعر، ولذلك قيل: «الشعر أعذبه أكذبه»، كذلك حين تتصور أن نظام الطاغوت يجب أن يبقى لا لشيء إلا لأنه يحقق مصالحك الذاتية، وقد تأتي بأدلة متشابهة لإثبات ذلك، ولكنها جميعاً تأتي لإثباتِ قصورٍ مصدرُهُ حبّ الذات لا كشف الحقيقة.

والظن يختلف عن العلم في أنه قائم بذاته، بينما العلم قائم بالحقيقة، مثلا: علمك ببزوغ القمر قائم على أساس وجوده، فإذا أفل زال علمك، أما إذا تصورت القمر علـى جدار بيتك، فإن هذا التصور قائم بذاته، ومثله كلوحة جميلة تصور القمر. سواء كان هناك قمر أم لا.

والبشر قد يتبع الخرص والاحتمال، وذلك حين لا يرى ضرورة لكشف الحقيقة، فيفترض افتراضات حولها، مثلما كان الناس يقولون عن السماء والنجوم أشياء لا برهان لهم بها سوى الاحتمال.

وأكثر البشر يتراوحون بين الظن والخرص، لأنهم لا يملكون الهدى الرسالي، ذلك لأن الهدى كمال لا يبلغه إلا من جاهد نفسه وزكاها ﴿ وَإِن تُطِعْ أَكْثَرَ مَن فِى ٱلْأَرْضِ يُضِلُّوكَ عَن سَبِيلِ ٱللَّهِ ۚ إِن يَتَّبِعُونَ إِلَّا ٱلظَّنَّ وَإِنْ هُمْ إِلَّا يَخْرُصُونَ ﴾.

[١١٧] وإذا كان أكثر البشر ضلالاً، لأنهم يتبعون الظن، فكيف يمكن أن يميز الإنسان طريق الحق عن الضلال. إن عليه أن يتوسل بالله لأنه الحق الذي يميز الضلال عن الهدى.

﴿ إِنَّ رَبَّكَ هُوَ أَعْلَمُ مَن يَضِلُّ عَن سَبِيلِهِۦ وَهُوَ أَعْلَمُ بِٱلْمُهْتَدِينَ ﴾ ولأن منتهى السبيل، هو الوصول إلى الله سبحانه، فهو دون غيره يهدي الناس إلى السبيل، ويحدد من يضل عنه أو يهتدي إليه.

اتباع الهوى واكتساب المآثم

﴿فَكُلُوا مِمَّا ذُكِرَ اسْمُ اللَّهِ عَلَيْهِ إِن كُنتُم بِآيَاتِهِ مُؤْمِنِينَ (١١٨) وَمَا لَكُمْ أَلَّا تَأْكُلُوا مِمَّا ذُكِرَ اسْمُ اللَّهِ عَلَيْهِ وَقَدْ فَصَّلَ لَكُم مَّا حَرَّمَ عَلَيْكُمْ إِلَّا مَا اضْطُرِرْتُمْ إِلَيْهِ وَإِنَّ كَثِيرًا لَّيُضِلُّونَ بِأَهْوَائِهِم بِغَيْرِ عِلْمٍ إِنَّ رَبَّكَ هُوَ أَعْلَمُ بِالْمُعْتَدِينَ (١١٩) وَذَرُوا ظَاهِرَ الْإِثْمِ وَبَاطِنَهُ إِنَّ الَّذِينَ يَكْسِبُونَ الْإِثْمَ سَيُجْزَوْنَ بِمَا كَانُوا يَقْتَرِفُونَ (١٢٠) وَلَا تَأْكُلُوا مِمَّا لَمْ يُذْكَرِ اسْمُ اللَّهِ عَلَيْهِ وَإِنَّهُ لَفِسْقٌ وَإِنَّ الشَّيَاطِينَ لَيُوحُونَ إِلَىٰ أَوْلِيَائِهِمْ لِيُجَادِلُوكُمْ وَإِنْ أَطَعْتُمُوهُمْ إِنَّكُمْ لَمُشْرِكُونَ (١٢١)﴾.

هدى من الآيات:

يضرب الله مثلاً على بصائر الدرس السابق، بأن السبيل إلى الحق هو السبيل الذي يؤدي إلى الله، والله سبحانه أعلم به، وأن ما سواه ضلالة وظن وتخرص، لذلك بين حكم الطعام الذي هو أبسط الضرورات، ومع ذلك يحرم جماعة أنفسهم منه لبعض الظنون التي لم ينزل الله بها سلطاناً، فجاء أمر صريح بأكل ما ذكر اسم الله عليه، ثم تساءل القرآن عن سبب الإحجام عن أكل ذلك بعد أن أعطانا الرب قائمة بالمحرمات التي تصبح هي الأخرى حلالاً عند الضرورة، ولكن مع ذلك فإن البعض يضلون بسبب أهوائهم.

إن المحرم هو الإثم الذي فصله القرآن (ظاهره وباطنه) وكذلك الشرك بالله، ومن مظاهره أن تذبح الذبيحة باسم الأصنام، وأولياء الشياطين يجادلون أهل الحق في ذلك بوحي من الشياطين، ويشككونهم في تحريم ما ذبح على النصب، أو الذي لم يذكر اسم الله عليه، وإن طاعة الشياطين في حكم الشرك بالله العظيم.

بينات من الآيات:

قاعدة الاضطرار

[١١٨] قد تميل النفس البشرية إلى الانطلاق (كما في بداية انفجار الحضارات) فتحلل كل حرام، ولا تتقيد بقيود الأخلاق والآداب، وقد تنعكس فتميل نحو الانغلاق فتنكمش (كما في حالات التخلف) فتحرم كل شيء، وتستقبح حتى الطيبات، أما المؤمنون فإنهم يتبعون الحق في حالات الانطلاق والانغلاق معاً، دون الاتباع لأهوائهم، ولطبيعة نفسياتهم في الظروف المختلفة، والحالات الاجتماعية المتباينة.

والقرآن يربط بين الإيمان بالله، وبين أكل ما ذكر اسم الله عليه، لكي يكون المؤمن ملتزماً في تصرفاته -سلباً وإيجاباً- بالمنهج السماوي.

﴿فَكُلُواْ مِمَّا ذُكِرَ ٱسْمُ ٱللَّهِ عَلَيْهِ إِن كُنتُم بِـَٔايَٰتِهِۦ مُؤْمِنِينَ﴾ أي تلك الآيات التي أشار إليها القرآن في الدرس السابق، وإذا كنتم مؤمنين بأن الله أعلم بسبيل الهدى عن الضلالة، فاتبعوه فيما يأمركم به.

[١١٩] يتساءل القرآن عما يدعو البشر إلى الامتناع عن أكل غير المحرمات.

﴿وَمَا لَكُمْ أَلَّا تَأْكُلُواْ مِمَّا ذُكِرَ ٱسْمُ ٱللَّهِ عَلَيْهِ وَقَدْ فَصَّلَ لَكُم مَّا حَرَّمَ عَلَيْكُمْ إِلَّا مَا ٱضْطُرِرْتُمْ إِلَيْهِ﴾ أي أنه بالرغم من حرمة بعض الطعام إلا أنه حلال لمن يسبب تركه له ضرراً كبيراً عليه فهو مضطر إليه، فكيف بالطعام الحلال الذي لا يجوز تركه لمجرد أهواء ونفسيات ضيقة.

ومن الناس من يتبع أهواءه دون هدى الله، ودون علمه، فيحرم على نفسه الطيبات، لا لأن الله حرمها، ولا لأنه يعلم بضررها.

﴿وَإِنَّ كَثِيرًا لَّيُضِلُّونَ بِأَهْوَآئِهِم بِغَيْرِ عِلْمٍ إِنَّ رَبَّكَ هُوَ أَعْلَمُ بِٱلْمُعْتَدِينَ﴾ الذين يتجاوزون حدود أحكام الله -زيادة أو نقصاناً- فهم لا يتبعون منهج الله، بينما المنهج القويم السالك بالبشرية إلى الله، هو منهج الله سبحانه لأنه خالق البشرية، فالمعيار هو ما عند الله، لا ما عند البشرية من أهواء.

الإثم بين الظاهر والباطن

[١٢٠] وكما لا يجوز التقوقع وترك الطيبات احتياطاً وحذراً. كذلك لا يجوز الاسترسال

وتناول الرطب واليابس معاً دون فرق، كما تفعله الجماعات البشرية في ظروف قوتهم وبطشهم (وحضارتهم) كلا.. هناك حدود يجب على البشر أن يقف عندها، هي حدود الإثم الذي فصله الله سبحانه ﴿وَذَرُواْ ظَٰهِرَ ٱلْإِثْمِ وَبَاطِنَهُۥٓ﴾ والإثم حرام لا لأنه يتشكل بهذه الصورة أو بتلك أو لأن اسمه (إثم) أو لأن الناس يتبرءون منه، بل لأنه خبيث وإثم في جوهره، ولذلك لا فرق بين ظاهره وباطنه، علنه وسره، سواء كان باسم الإثم، أو وضع له اسم آخر مثل الأسماء القانونية التي توضع اليوم للاحتكار أو الربا أو الغش، أو مثل الشرائع الوضعية التي تسمح للدول الكبرى نهب ثروات الشعوب تحت أسماء مشروعة، مثل الانتداب، وتدوير الثروات النفطية، والأمن الصناعي وما أشبه.. إن الإثم إثم مهما تبدل الاسم أو شُرِعَ من أجله قانون.

والإثم يولد الدمار، سواء سميناه كذلك أم لا ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ يَكْسِبُونَ ٱلْإِثْمَ سَيُجْزَوْنَ بِمَا كَانُواْ يَقْتَرِفُونَ﴾ من الإثم في عاجل الدنيا وآجل الآخرة.

[١٢١] والإثم هو ما يشرعه الله لا ما يوحيه الشيطان. مثلاً: لا يجوز أكل الذبيحة التي لم يذكر اسم الله عليها حين تذبح لأنها فسق، يدل على حالة الانفصال بين الإنسان ومبادئه. ومثال آخر: الزعم بأن الدين محصور في المسجد، أما الحياة سواء منها ما يرتبط بالأكل والشرب، أو الزواج والطلاق، أو السياسة والاقتصاد، فإنها منفصلة عن الدين. إن كل ذلك فسق وشرك بالله، وذلك يعني أن هناك إلاهان ووليان وقائدان للبشر، أحدهما للمسجد والثاني للسوق.

﴿وَلَا تَأْكُلُواْ مِمَّا لَمْ يُذْكَرِ ٱسْمُ ٱللَّهِ عَلَيْهِ وَإِنَّهُۥ لَفِسْقٌ﴾ والشياطين يجادلون في الحق، ويحاولون تمييع الواجبات وأن يقولوا: ما هو الفرق بين الذبيحة التي لم يذكر اسم الله عليها وبين الأخرى؟ دون أن يضعوا القضية في إطارها العام، ليعرفوا: أن ذلك مرتبط بكل سلوك البشر أن يكون سلوكاً توحيدياً فيقول: ﴿قُلْ إِنَّ صَلَاتِى وَنُسُكِى وَمَحْيَاىَ وَمَمَاتِى لِلَّهِ رَبِّ ٱلْعَٰلَمِينَ﴾ [الأنعام: ١٦٢]. أو سلوكاً شركيًّا فيقول: إن صلاتي ونسكي لله ومحياي ومماتي لنفسي ﴿وَإِنَّ ٱلشَّيَٰطِينَ لَيُوحُونَ إِلَىٰٓ أَوْلِيَآئِهِمْ لِيُجَٰدِلُوكُمْ وَإِنْ أَطَعْتُمُوهُمْ إِنَّكُمْ لَمُشْرِكُونَ﴾.

أولاً: لأن طاعة غير الله في حكم الشرك بالله.

ثانياً: لأن منهج الشياطين هو منهج الشرك، والفصل بين الدين والدنيا، بين الدين والسياسة، بين الجامع والجامعة، بين المسجد والسوق وهكذا.

أكابر المجرمين يضللون الناس

﴿أَوَمَن كَانَ مَيْتًا فَأَحْيَيْنَٰهُ وَجَعَلْنَا لَهُۥ نُورًا يَمْشِى بِهِۦ فِى ٱلنَّاسِ كَمَن مَّثَلُهُۥ فِى ٱلظُّلُمَٰتِ لَيْسَ بِخَارِجٍ مِّنْهَا ۚ كَذَٰلِكَ زُيِّنَ لِلْكَٰفِرِينَ مَا كَانُوا۟ يَعْمَلُونَ (١٢٢) وَكَذَٰلِكَ جَعَلْنَا فِى كُلِّ قَرْيَةٍ أَكَٰبِرَ مُجْرِمِيهَا لِيَمْكُرُوا۟ فِيهَا ۖ وَمَا يَمْكُرُونَ إِلَّا بِأَنفُسِهِمْ وَمَا يَشْعُرُونَ (١٢٣) وَإِذَا جَآءَتْهُمْ ءَايَةٌ قَالُوا۟ لَن نُّؤْمِنَ حَتَّىٰ نُؤْتَىٰ مِثْلَ مَآ أُوتِىَ رُسُلُ ٱللَّهِ ۘ ٱللَّهُ أَعْلَمُ حَيْثُ يَجْعَلُ رِسَالَتَهُۥ ۗ سَيُصِيبُ ٱلَّذِينَ أَجْرَمُوا۟ صَغَارٌ[1] عِندَ ٱللَّهِ وَعَذَابٌ شَدِيدٌۢ بِمَا كَانُوا۟ يَمْكُرُونَ (١٢٤) فَمَن يُرِدِ ٱللَّهُ أَن يَهْدِيَهُۥ يَشْرَحْ صَدْرَهُۥ لِلْإِسْلَٰمِ ۖ وَمَن يُرِدْ أَن يُضِلَّهُۥ يَجْعَلْ صَدْرَهُۥ ضَيِّقًا حَرَجًا[2] كَأَنَّمَا يَصَّعَّدُ فِى ٱلسَّمَآءِ ۚ كَذَٰلِكَ يَجْعَلُ ٱللَّهُ ٱلرِّجْسَ عَلَى ٱلَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ (١٢٥) وَهَٰذَا صِرَٰطُ رَبِّكَ مُسْتَقِيمًا ۗ قَدْ فَصَّلْنَا ٱلْءَايَٰتِ لِقَوْمٍ يَذَّكَّرُونَ (١٢٦) ۞ لَهُمْ دَارُ ٱلسَّلَٰمِ عِندَ رَبِّهِمْ ۖ وَهُوَ وَلِيُّهُم بِمَا كَانُوا۟ يَعْمَلُونَ (١٢٧)﴾.

هدى من الآيات:

البشر ميت، ورسالة الله روح تبعث فيه الحياة، وتعطيه نوراً يتحرك به في الحياة الاجتماعية، ولكن فريقا من أبناء البشر يرفضون هذه الحياة، ويفضلون البقاء في الظلمات، وذلك بسبب أنهم تعودوا على سلوك معين، وأنهم يستأنسون بذلك السلوك ويحبونه.

---

(١) صغار: الصغار الذل الذي يصغر إلى المرء نفسه، يقال صغر الإنسان يصغر صغاراً وصغراً.

(٢) حرجاً: الحرج أضيق الضيق، وحرج فلان إذا هاب أن يتقدم على الأمر.

ومخالفة الرسالة قد تكون لها عوامل فردية، مثل عامل العادة، وقد تكون له عوامل اجتماعية، مثل الثقافة الشركية، لكن الأكثر أهمية هو دور السلطة الطاغوتية، التي هي في واقعها إطار يضم مجموعة من المجرمين، ذات قيادة ماكرة ومخططة.

إن أكابر المجرمين ذوي كبر وتعالي وسلطة ولن يتنازلوا للرسالة الجديدة، بل يطمحون أن يحصلوا على امتيازات الرسالة من العلم ومحبة الناس. وما دامت الرسالة لم تهبط عليهم فإنهم سوف يكفرون بها والله يقول: ﴿ٱللَّهُ أَعۡلَمُ حَيۡثُ يَجۡعَلُ رِسَالَتَهُۥ﴾.

أما جزاء هؤلاء فهو الذل والصغار والعذاب الشديد بسبب خططهم المضادة للرسالة.

ومن عوامل الكفر بالرسالة ضيق الصدر، وقلة الاستيعاب، وضعف الإرادة، وبالتالي الضيق والحرج.

والواقع أن ذلك يصيب قلب الفرد بسبب عدم الإيمان، ومن عوامل الإيمان التذكر واستعادة الحقائق، حيث يهتدي الإنسان بهما إلى صراط الله الذي يوفر للبشر الاستقامة والسلامة، والولاية الإلهية (الدعم الإلهي).

وإنما يبلغ المؤمن هذه الأهداف بأعماله، وليس بمجرد التذكر أو العلم والمعرفة.

بينات من الآيات:

أومن كان ميتاً فاحييناه؟!

[١٢٢] كما أن البشر كان فاقداً للحركة والنمو، وبالتالي الحياة، حتى نفخ الله فيه روحاً، فأصبح بشراً سويًّا، كذلك فهو فاقد للعلم والهدى حتى يحييه الله، ويعطيه القدرة.

﴿أَوَمَن كَانَ مَيۡتٗا فَأَحۡيَيۡنَٰهُ وَجَعَلۡنَا لَهُۥ نُورٗا يَمۡشِي بِهِۦ فِي ٱلنَّاسِ﴾ إن الله يحيي قلب البشر بالعقل والوحي، وذلك لعله يستطيع أن يعرف ضره من نفعه، ويعرف من يضره ومن ينفعه، وكيف يتصرف مع الناس، وينظم علاقته معهم.

بيد أن هناك من لا ينتفع بالحياة هذه، فيبقى في ظلمات دون أن يخرج منها.

﴿كَمَن مَّثَلُهُۥ فِي ٱلظُّلُمَٰتِ لَيۡسَ بِخَارِجٖ مِّنۡهَا﴾ أما السبب الذي يجعل الفرد يفضل الظلمات على النور فقد يكون العادة حيث يحب الفرد السلوك الذي كان ينتهجه حتى ولو كان شائناً ﴿كَذَٰلِكَ زُيِّنَ لِلۡكَٰفِرِينَ مَا كَانُواْ يَعۡمَلُونَ﴾.

التنظيم الهرمي في جهاز الطغاة

[١٢٣] العامل الثاني للكفر هو وجود ماكرين في المجتمع والمكر هو: التخطيط من أجل تضليل الناس بهدف وصول جماعة أو فرد لمصالحهم الشخصية، وفي المجتمعات توجد دائماً شبكة من المجرمين تجمعهم قيادة واحدة تعمل ضد مصلحة الأمة. هذه الشبكة هي التي تشكل واقع السلطة الطاغوتية، وهي تنشأ من فرد أو عدة أفراد زين الشيطان لهم ما كانوا يعملون من سيئات، ثم نظموا أنفسهم في سلسلة هرمية على رأسها اكبر المجرمين.

﴿ وَكَذَٰلِكَ ﴾ ربما الإشارة توحي بآخر الآية السابقة، أو بها جميعاً، أي لأن هنا جماعة تستحب العمى على الهدى، فقد تشكلت منظمة في كل قرية للمجرمين.

﴿جَعَلْنَا فِي كُلِّ قَرْيَةٍ أَكَابِرَ مُجْرِمِيهَا لِيَمْكُرُوا فِيهَا ﴾ وقيادة هذه المنظمة الماكرة إنما هي لأكبرهم إجراماً، فالقيمة بينهم هي قيمة الإجرام، والهدف لها هو المكر والتخطيط ضد الجماهير.

﴿وَمَا يَمْكُرُونَ إِلَّا بِأَنفُسِهِمْ وَمَا يَشْعُرُونَ ﴾ إن الماكرين حين يخططون ضد الناس، فإما يأخذ الناس منهم موقفاً مضاداً ويقضون عليهم فيكون جزاؤهم خزياً وعذاباً أليماً، وإما تسترخي الجماهير، فينزل عليها وعليهم عذاب الله فيدمرهم جميعاً، إذن فعاقبة المكر تعود على صاحبه إما وحده أو مع الآخرين.

والآية هذه تفضح طبيعة السلطة الطاغوتية، وتبين أنها ليست سوى تجمع للمجرمين، وأن قوتها تكمن في خططها الماكرة، وأن قيادتها متمثلة في المجرم الأكبر، وأن الأمة لو عرفت هذه الطبيعة للسلطة الطاغوتية، إذن لتخلصت منها، إذ أن المجرم لو كشف مكره جرد منه سلاحه وسهل القضاء عليه.

[١٢٤] من مكر هذه الفئة السالفة الذكر أنها تتعالى عن الحق، بعد أن تضع على نفسها هالة من القداسة الباطلة، وتنشر بين البسطاء هذه الفكرة الرعناء: لو كانت الرسالة صحيحة، إذا لم يكن ربنا يختار لها إلا واحداً منا نحن الكبار، ولم يكن يفضل علينا واحداً من عامة الناس ﴿ وَإِذَا جَاءَتْهُمْ آيَةٌ قَالُوا لَن نُّؤْمِنَ حَتَّىٰ نُؤْتَىٰ مِثْلَ مَا أُوتِيَ رُسُلُ اللَّهِ﴾ ولكن الله يدحض حجتهم بقوله: ﴿اللَّهُ أَعْلَمُ حَيْثُ يَجْعَلُ رِسَالَتَهُ ﴾ يجعلها في أيد نظيفة، وجيوب طاهرة نقية، وقلوب زكية، ورجال مخلصين، وليس في أيدي هذه الفئة التي سرقت أموال الناس، وصنعت مجدها على أجسادهم، ثم يهددهم الله بالقول: ﴿سَيُصِيبُ الَّذِينَ أَجْرَمُوا صَغَارٌ عِندَ اللَّهِ﴾ بسبب تكبرهم ﴿وَعَذَابٌ شَدِيدٌ بِمَا كَانُوا يَمْكُرُونَ ﴾.

الشروط المساعدة للإيمان

[١٢٥] بعد أن بينت الآيات عوامل الكفر الفردية والجماعية، جاءت هذه الآية لتبين الشروط المساعدة للإيمان، وفوائده وأبرزها: شرح الصدر حيث أن الإيمان بالله يعني تفضيل المستقبل على الحاضر، وتفضيل الجماعة على الفرد، وتفضيل الحق على الشهوة لأن الحق خير عاقبة، وأفضل أملاً.

وهذه الصفات لا تعطى إلا لمن يتمتع ببعد الرؤية، ورصانة الفكر، وبالتالي سعة الصدر. بينما الكفر بعكس الإيمان تماماً، إن هو إلا نتيجة ضيق الصدر، وسبب له أيضاً.

﴿فَمَن يُرِدِ ٱللَّهُ أَن يَهْدِيَهُۥ يَشْرَحْ صَدْرَهُۥ لِلْإِسْلَٰمِ ۖ وَمَن يُرِدْ أَن يُضِلَّهُۥ يَجْعَلْ صَدْرَهُۥ ضَيِّقًا حَرَجًا كَأَنَّمَا يَصَّعَّدُ فِى ٱلسَّمَآءِ﴾ يبدو أن الضيق هو الجزع، ومحدودية الرؤية، وعدم استيعاب الأحداث، بينما الحرج هو التردد وعدم القدرة على اتخاذ رأي ما، وبالتالي أن يرى الشخص نفسه عاجزة عن أي شيء، والذي يصعد في السماء يشعر بالضيق لأنه يجد نفسه مقطوعاً عن أطرافه، ويشعر بالحرج لأنه يخشى الوقوع.

ومن المعروف أن الصعود في السماء يسبب قلة الأوكسجين، وبالتالي ضيق النفس، وسوء الخلق وقد يكون التشبيه من هذا الباب.

﴿كَذَٰلِكَ يَجْعَلُ ٱللَّهُ ٱلرِّجْسَ عَلَى ٱلَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ﴾ إنهم يعيشون في حدود ساعتهم وموقعهم، فلا يرون الأحداث القادمة، أو الظواهر المتفاعلة فيما وراء موقعهم المحدود فتأتيهم المشاكل والصعوبات من حيث لم يحتسبوا، ولأنهم كانوا يكفرون بالحقائق الغيبية والتي هي وراء زمانهم ومكانهم، فإذا بهم يواجهون بها دون أن يستعدوا لها.

منافع الإيمان

[١٢٦] كما سبق أن قلنا أن: العامل المساعد للإيمان هو شرح الصدر، أما منافع الإيمان فهي أربعة أبرزها:

ألف: الاهتداء إلى الصراط المستقيم الذي يؤدي بصاحبه إلى الله سبحانه، بما له من أسماء حسنى وأمثال عليا، أي إلى التحرر الكامل، والعدالة الشاملة والفلاح ﴿وَهَٰذَا صِرَٰطُ رَبِّكَ مُسْتَقِيمًا﴾.

بـاء: لا تنحرف به الأهواء العاجلة، والشهوات المؤقتة، ذات اليمين وذات الشمال،

لأن المؤمن شرح الصدر، لا تغره الظواهر الآنية والأحداث الزائلة، فيبقى على خطه وخطته البعيدة المدى.

﴿قَدْ فَصَّلْنَا الْآيَاتِ لِقَوْمٍ يَذَّكَّرُونَ﴾ فيعرفون الحقائق ولا ينسونها، أما الذين لا يذكرون فإنهم لا ينتفعون بالآيات لأنهم لا يربطون بين الآيات وبين الحقائق التي تدل عليها.

دار السلام

[١٢٧] جيم: وبعد الاستقامة، وأيضاً بسببها، يستفيد المؤمنون السلامة والأمن في الدنيا والآخرة.

﴿ ۞ لَهُمْ دَارُ السَّلَامِ عِندَ رَبِّهِمْ﴾ لأن ما يهدد سلامة البشر، هو التطرف في الشهوات. أما الاعتدال فإنه طريق الأمن لأن العدالة في المجتمع أفضل وسيلة للأمن، والاعتدال في الطعام والشراب هو الآخر طريق السلامة الصحية، وهكذا..

أما أهم فائدة للإيمان، فهي الانضواء تحت راية التوحيد والتنعم بعبادة الله وولايته.

﴿وَهُوَ وَلِيُّهُم بِمَا كَانُوا يَعْمَلُونَ﴾ وولاية الله هي التي توفر للبشر الاطمئنان الداخلي، ومضاء العزيمة، وسلامة النية، وبالتالي الانتصار في الدنيا والفلاح في الآخرة.

عاقبة تولي الظالمين

﴿وَيَوْمَ يَحْشُرُهُمْ جَمِيعًا يَا مَعْشَرَ الْجِنِّ قَدِ اسْتَكْثَرْتُمْ مِنَ الْإِنْسِ وَقَالَ أَوْلِيَاؤُهُمْ مِنَ الْإِنْسِ رَبَّنَا اسْتَمْتَعَ بَعْضُنَا بِبَعْضٍ وَبَلَغْنَا أَجَلَنَا الَّذِي أَجَّلْتَ لَنَا قَالَ النَّارُ مَثْوَاكُمْ خَالِدِينَ فِيهَا إِلَّا مَا شَاءَ اللَّهُ إِنَّ رَبَّكَ حَكِيمٌ عَلِيمٌ (١٢٨) وَكَذَلِكَ نُوَلِّي بَعْضَ الظَّالِمِينَ بَعْضًا بِمَا كَانُوا يَكْسِبُونَ (١٢٩) يَا مَعْشَرَ الْجِنِّ وَالْإِنْسِ أَلَمْ يَأْتِكُمْ رُسُلٌ مِنْكُمْ يَقُصُّونَ عَلَيْكُمْ آيَاتِي وَيُنْذِرُونَكُمْ لِقَاءَ يَوْمِكُمْ هَذَا قَالُوا شَهِدْنَا عَلَى أَنْفُسِنَا وَغَرَّتْهُمُ الْحَيَاةُ الدُّنْيَا وَشَهِدُوا عَلَى أَنْفُسِهِمْ أَنَّهُمْ كَانُوا كَافِرِينَ (١٣٠) ذَلِكَ أَنْ لَمْ يَكُنْ رَبُّكَ مُهْلِكَ الْقُرَى بِظُلْمٍ وَأَهْلُهَا غَافِلُونَ (١٣١) وَلِكُلٍّ دَرَجَاتٌ مِمَّا عَمِلُوا وَمَا رَبُّكَ بِغَافِلٍ عَمَّا يَعْمَلُونَ (١٣٢)﴾.

هدى من الآيات:

تلك كانت فوائد الإيمان كما ذكرت في الدرس السابق، أما أضرار الكفر فأهمها هي: الولاية الباطلة، فإذا كانت للمؤمنين ولاية الله فإن الكفار أولياؤهم الجن حيث يحشرهم الله وإياهم، ويحاسبهم ويجيبون أنهم إنما تولوا الجن طلباً للمتعة، باعتبار المتعة هي الهدف العام للمشركين.

ولكن المتعة لا تبقى إلا لفترة محدودة تنتهي في الأجل المحتوم، ثم يكون مصيره النار.

ولأن الظالمين يعملون السيئات، فإن الله يجعل بعضهم أولياء بعض، ويسلط بعضهم على بعض لأن هذه نتيجة أعمالهم في هذه الدنيا، أما في الآخرة فبعد أن يسألهم ربهم عن سبب

كفرهم، وأنه هل كان هناك نقص في أسباب الهداية؟ فيجيبون: كلا.. بل جاءت رسل الله ومعهم الآيات الواضحة وبالتالي بعد أن يشهدهم على أنفسهم يأخذهم بأعمالهم، ويبين القرآن السبب الحقيقي للكفر وهو: غرور الحياة الدنيا.

من هنا يبعث الله في كل قرية من ينذرها، حتى يهلك من يهلك عن بينة وحجة واضحة، وإنما ينقسم الناس درجات سواء في حقل الصلاح، أو الفساد بأعمالهم وليس عبثاً.

بينات من الآيات:

لماذا عبدوا الجن؟

[١٢٨] بعض الناس يعبدون الجن ويتخذونهم أولياء من دون الله. لماذا؟ وما هي حجتهم؟

أولاً: حجة هؤلاء أن الجن يمتون إلى الله سبحانه بصلة قربى، أو أنهم أقوياء، بيد أن الجن خلق من خلق الله، وسيحشرون يوم القيامة، وسيحاسبون كما الإنس لا فرق، فعبادتهم واتخاذهم أولياء لا معنى له.

ثانياً: السبب في عبادة الجن أو في اتخاذ بعض الإنس أولياء من قبل الآخرين هو فقدان الرؤية السليمة للحياة، حيث يحسب البشر أن الهدف الأساس من الحياة هي المتعة، ولكي يحقق رغباته في المزيد من التمتع يرتبط بالجن أو ببعض الإنس، وإنما يتبع هواه وشهواته باسم اتباع الجن والإنس، إننا حين نتبع الحق لا نعبد الجن أو الإنس، إنما نعبد الله، والسبب: أننا آنئذ نقيد شهواتنا، وننظمها وفق البرامج الإلهية، التي تهدينا إليها عقولنا، ولأننا لا نهدف آنئذ التمتع كهدف أعلى لحياتنا، بل نهدف تحقيق مسئوليتنا في الحياة وهي هدفنا.

من هنا نعرف: أن عبادة الجن ناتج من عدم الاستعداد لتحمل المسؤولية في الحياة.

﴿وَيَوْمَ يَحْشُرُهُمْ جَمِيعًا يَا مَعْشَرَ الْجِنِّ قَدِ اسْتَكْثَرْتُم مِّنَ الْإِنسِ﴾ يبدو أن معناه أنكم -أي الجن- قد جذبتم كثيراً من أبناء الإنس لعبادتكم، فما السبب؟.

ويجيب على هذا السؤال الإنس الذين التفوا حول الجن. لأنهم هم المسؤولون عن عبادة الجن، وليس الجن المعبودون: ﴿وَقَالَ أَوْلِيَاؤُهُم مِّنَ الْإِنسِ رَبَّنَا اسْتَمْتَعَ بَعْضُنَا بِبَعْضٍ﴾ أي إنما اتخذناهم أولياء لتحقيق رغباتنا باسم الجن، وإلا فإن المعبود الحقيقي هو الهوى وليس الجن المساكين؟.

﴿وَبَلَغْنَا أَجَلَنَا الَّذِي أَجَّلْتَ لَنَا﴾ فانتهت المتعة والمهلة التي أمهلتنا إياها ﴿قَالَ النَّارُ مَثْوَاكُمْ خَالِدِينَ فِيهَا إِلَّا مَا شَاءَ اللَّهُ﴾ حيث أنه قد يرحم بعض العباد، وينهي فترة عذابهم في جهنم حسب حكمته البالغة ﴿إِنَّ رَبَّكَ حَكِيمٌ عَلِيمٌ﴾.

كيف يهدم الظلم بناء المجتمع؟

[١٢٩] ونستخلص من ذلك: أن أحد الأسباب التي تجعل الكفار بعضهم أولياء بعض هو ابتغاء المتعة، والسبب الآخر هو الظلم، حيث أن الظالم سيف الله ينتقم به وينتقم منه، فإذا شاع الظلم في المجتمع وزالت قيم العدالة والحق، واستطاع القوي ظلم الضعيف، يصبح المجتمع خليطاً من الظالم والمظلوم، كل يظلم من تحته، ويظلم من فوقه، وهناك يقفز إلى السلطة أكثر الناس ظلماً، والسبب هو الوضع الذي صنعه الناس بأعمالهم.

﴿وَكَذَلِكَ نُوَلِّي بَعْضَ الظَّالِمِينَ بَعْضًا بِمَا كَانُوا يَكْسِبُونَ﴾ أي بأعمالهم التي يكسبونها، ولقد تكرر التعبير بالكسب للدلالة على العمل في القرآن، ربما لأن كل عمل يقوم به البشر يخلف أثراً ظاهراً وخفيًّا عنده، فكأنه يضيف ذلك الأثر إلى سائر أجزاء ذاته.

حب الدنيا رأس كل خطيئة

[١٣٠] تلك كانت عاقبة الظلم في الدنيا. إن بعض الظالمين يُوَلِّي بعضاً. أما عاقبة الظلم في الآخرة فإنه الهلاك بعد الإدانة والتوبيخ.

﴿يَا مَعْشَرَ الْجِنِّ وَالْإِنْسِ أَلَمْ يَأْتِكُمْ رُسُلٌ مِنْكُمْ يَقُصُّونَ عَلَيْكُمْ آيَاتِي وَيُنْذِرُونَكُمْ لِقَاءَ يَوْمِكُمْ هَذَا﴾ ربما قص الآيات بمعنى بيانها واحدة بعد أخرى، بطريقة تدخل القلب، وأهم بند في الدعوة هو الإنذار بالعاقبة. ﴿قَالُوا شَهِدْنَا عَلَى أَنْفُسِنَا﴾.

ولكن السؤال: لماذا إذن لم يقبلوا بالآيات، ولم يؤمنوا بربهم؟!.

السبب هو تعلقهم الشديد بالدنيا. لأن حب الدنيا رأس كل خطيئة.

﴿وَغَرَّتْهُمُ الْحَيَاةُ الدُّنْيَا وَشَهِدُوا عَلَى أَنْفُسِهِمْ أَنَّهُمْ كَانُوا كَافِرِينَ﴾ فلم يكن كفرهم من دون وعي منهم، بل بسبب اعتقاد راسخ بالفكرة المعاكسة لها.

إن تصور لقاء أي إنسان ربه، وموقفه الضعيف أمام هيبته البالغة، يكفيه عقلاً ورصانة وإيماناً، إذ أنه يكبح شهوات الفرد موقتاً، ويثير فيه حبه لذاته، وسعيه وراء تحقيق مستقبله.

لا نهلك القرى بظلم

[١٣١] ودليل وعي الكفار للحقيقة، وجحودهم بعد اليقين، أن حكمة الله البالغة ورحمته الواسعة الدائمة تأبيان الظلم للعباد، وأخذهم بجريمة ارتكبوها من دون وعي منهم، بل بغفلة وعدم انتباه، أو بسبب يقين مضاد.

﴿ذَٰلِكَ أَن لَّمْ يَكُن رَّبُّكَ مُهْلِكَ ٱلْقُرَىٰ بِظُلْمٍ وَأَهْلُهَا غَٰفِلُونَ﴾ الله قوي مقتدر، ولا يملك العباد دونه ملجأ، فإن كان يستخدم قوته وقدرته في إهلاك عباده دون أن يبلغ الدعوة الحقة إلى أعمق أعماقهم. أفلا يكون ظلماً؟!.

ولماذا يظلم ربنا عباده وهو الذي خلقهم، وأسبغ عليهم نعمه ظاهرة وباطنه؟ إذا حين يهلكهم فهم يستحقون، واستحقاقهم دليل واضح على علمهم بالحقيقة، وكفرهم بها، وشهادتهم على ذلك يوم القيامة، دليل آخر على ذلك.

[١٣٢] وعدالة الله في الحياة ظاهرة المعالم، ولكن من أبرز أدلة هذه العدالة هي: أن الله يعطي كل واحد من الناس قدراً من العلم والمال والجاه يتناسب مع مقدار عمله، ومن هنا فإنه سوف يثيب أو يعذب عباده يوم القيامة بأعمالهم، وبقدر تلك الأعمال أيضاً ﴿وَلِكُلٍّ دَرَجَٰتٌ مِّمَّا عَمِلُواْ وَمَا رَبُّكَ بِغَٰفِلٍ عَمَّا يَعْمَلُونَ﴾.

عاقبة الدار

﴿وَرَبُّكَ ٱلْغَنِيُّ ذُو ٱلرَّحْمَةِۚ إِن يَشَأْ يُذْهِبْكُمْ وَيَسْتَخْلِفْ مِنۢ بَعْدِكُم مَّا يَشَآءُ كَمَآ أَنشَأَكُم مِّن ذُرِّيَّةِ قَوْمٍ ءَاخَرِينَ ﴿١٣٣﴾ إِنَّ مَا تُوعَدُونَ لَأٓتٍۖ وَمَآ أَنتُم بِمُعْجِزِينَ ﴿١٣٤﴾ قُلْ يَٰقَوْمِ ٱعْمَلُواْ عَلَىٰ مَكَانَتِكُمْ إِنِّي عَامِلٌۖ فَسَوْفَ تَعْلَمُونَ مَن تَكُونُ لَهُۥ عَٰقِبَةُ ٱلدَّارِۗ إِنَّهُۥ لَا يُفْلِحُ ٱلظَّٰلِمُونَ ﴿١٣٥﴾﴾.

هدى من الآيات:

لله الأسماء الحسنى، فهو الغني ذو الرحمة، ولأنه غني فهو قادر على أن يفني الخلق جميعاً، ثم يخلق مكانه ما يشاء.

وآية أخرى على غناه سبحانه: أنه جاء بهذا الخلق في مكان خلق آخر كان قبله.

ولكن برحمته التامة لا يفعل ذلك فهو ذو رحمة، بيد أنه إذا لم يفعل ذلك الآن فليس ذلك دليلاً على أنه لن يفعل ذلك أبداً، إذ سيأتي يوم ينتهي أجل البشر فتأتيه عاقبته دون أن يستطيع مقاومتها.

والبشر تؤمن له الحرية لفترة معينة وذلك دليل رحمة الله به، ولكنه سوف يسلب منه هذه الحرية بعد انقضاء أجله، وذلك بسبب غنى ربه عنه، ولا يسلب الله رحمته إلا بسبب ظلمه لذاته.

بينات من الآيات:

الغني ذو الرحمة

[١٣٣] لربنا سبحانه أحسن الأسماء، وأعلى المثل، وأسماء الله منتشرة في الكون في آياته التي لا تحصى، ومعرفة أسماء الله ومظاهرها وتجلياتها في الحياة تعطينا بصيرة ورؤية واضحة،

وتهدينا إلى السبيل الأقوم.

والقرآن الحكيم يذكر هذه الأسماء، بعد أو قبل أن يذكر الآيات التي تدل عليها، والبصائر المستلهمة منها، والسلوك المعين التي تستوجبها.

والواقع أن هذا المنهج القرآني يعطي البصائر والرؤى الحياتية ركيزة عقلية، كما يعطي الأفكار أبعاداً واقعية، ونتائج سلوكية، وبالتالي يجمع هذا المنهج بين العقل والواقع والسلوك مما تتكامل به الشخصية البشرية.

وهنا يذكرنا القرآن باسمَي (الغني والرحمة) ﴿وَرَبُّكَ ٱلْغَنِيُّ ذُو ٱلرَّحْمَةِ﴾ وعند البشر لا يجتمع الغنى والرحمة عادة لأن الغنى عند الإنسان مصدره الغير، فيخشى البشر من فقدانه فيبخل به، بينما غنى الله مصدره القدرة المطلقة على الخلق، كما أن رحمته محدودة بحكمته لا تدعها تنفلت عن إطار العدالة.

﴿إِن يَشَأْ يُذْهِبْكُمْ وَيَسْتَخْلِفْ مِنۢ بَعْدِكُم مَّا يَشَآءُ﴾ وهذا دليل على غناه ورحمته معا، فلولا قدرته، وبالتالي غناه عنكم لما كان قادراً على تعويضكم وتبديلكم، ولولا رحمته لفعل ذلك أول ما ظلمتم أنفسكم، وهذا دليل قدرته، وأيضاً إن رحمة ربنا محدودة بإطار حكمته، انه فعل ذلك حين كان من قبلكم آخرون فذهب بهم وأتى بكم.

﴿كَمَآ أَنشَأَكُم مِّن ذُرِّيَّةِ قَوْمٍ ءَاخَرِينَ﴾ وعندما يتذكر البشر بهذه الحقيقة يرزق الرصانة في التفكير، والواقعية في الرؤية، والاستقامة في السلوك، أما رصانة الفكر فلأنه يعلم أن القدرة المهيمنة على هذا الكون الرحيب غنية عنه لكنها رحيمة به، فعليه ألا تستبد به الخفة والتكبر والغرور، وأما واقعية الرؤية فعليه ألا ينظر إلى حقائق الحياة على أنها ثابتة أبداً، أما استقامة السلوك فلأنه يتمتع بالخوف والأمل، الخوف من استبدال الله له بالآخرين، والأمل في رحمته، وبين الخوف والأمل يستقيم سلوك البشر.

التسليم أو العاقبة

[١٣٤] ومادام البشر عاجزا عن توقيف مسيرة الزمن، أو منع العاقبة السوى التي ينذر بها، ومادام عاجزا عن سلب قدرة الطرف الثاني وإعجازه، فعليه أن يسلم للحقيقة ولا يتكبر عنها ﴿إِنَّ مَا تُوعَدُونَ لَأَتٍ وَمَآ أَنتُم بِمُعْجِزِينَ﴾.

[١٣٥] وينذر الله الظالمين حين يقول: إن للحرية الممنوحة لكم وللقدرات المخولة لكم حدودا تقف عندها.

﴿قُلْ يَٰقَوْمِ ٱعْمَلُوا۟ عَلَىٰ مَكَانَتِكُمْ﴾ أي بقدر قوتكم ومكانتكم ﴿إِنِّى عَامِلٌ﴾ فهناك خطان من العمل ينتهيان عند العاقبة ﴿فَسَوْفَ تَعْلَمُونَ مَن تَكُونُ لَهُۥ عَٰقِبَةُ ٱلدَّارِ﴾ أي من سيسكن بالتالي في دار السعادة.

ولكن مجرد التفكر في العاقبة يهدي البشر إلى الحقيقة. إذ معلوم لمن تكون العاقبة ﴿إِنَّهُۥ لَا يُفْلِحُ ٱلظَّٰلِمُونَ﴾.

المظاهر التشريعية للشرك

﴿وَجَعَلُواْ لِلَّهِ مِمَّا ذَرَأَ[1] مِنَ ٱلْحَرْثِ وَٱلْأَنْعَٰمِ نَصِيبًا فَقَالُواْ هَٰذَا لِلَّهِ بِزَعْمِهِمْ وَهَٰذَا لِشُرَكَآئِنَا ۖ فَمَا كَانَ لِشُرَكَآئِهِمْ فَلَا يَصِلُ إِلَى ٱللَّهِ ۖ وَمَا كَانَ لِلَّهِ فَهُوَ يَصِلُ إِلَىٰ شُرَكَآئِهِمْ ۗ سَآءَ مَا يَحْكُمُونَ ﴿١٣٦﴾ وَكَذَٰلِكَ زَيَّنَ لِكَثِيرٍ مِّنَ ٱلْمُشْرِكِينَ قَتْلَ أَوْلَٰدِهِمْ شُرَكَآؤُهُمْ لِيُرْدُوهُمْ وَلِيَلْبِسُواْ عَلَيْهِمْ دِينَهُمْ ۖ وَلَوْ شَآءَ ٱللَّهُ مَا فَعَلُوهُ ۖ فَذَرْهُمْ وَمَا يَفْتَرُونَ ﴿١٣٧﴾ وَقَالُواْ هَٰذِهِۦٓ أَنْعَٰمٌ وَحَرْثٌ حِجْرٌ[2] لَّا يَطْعَمُهَآ إِلَّا مَن نَّشَآءُ بِزَعْمِهِمْ وَأَنْعَٰمٌ حُرِّمَتْ ظُهُورُهَا وَأَنْعَٰمٌ لَّا يَذْكُرُونَ ٱسْمَ ٱللَّهِ عَلَيْهَا ٱفْتِرَآءً عَلَيْهِ ۚ سَيَجْزِيهِم بِمَا كَانُواْ يَفْتَرُونَ ﴿١٣٨﴾ وَقَالُواْ مَا فِى بُطُونِ هَٰذِهِ ٱلْأَنْعَٰمِ خَالِصَةٌ لِّذُكُورِنَا وَمُحَرَّمٌ عَلَىٰٓ أَزْوَٰجِنَا ۖ وَإِن يَكُن مَّيْتَةً فَهُمْ فِيهِ شُرَكَآءُ ۚ سَيَجْزِيهِمْ وَصْفَهُمْ ۚ إِنَّهُۥ حَكِيمٌ عَلِيمٌ ﴿١٣٩﴾ قَدْ خَسِرَ ٱلَّذِينَ قَتَلُوٓاْ أَوْلَٰدَهُمْ سَفَهًۢا بِغَيْرِ عِلْمٍ وَحَرَّمُواْ مَا رَزَقَهُمُ ٱللَّهُ ٱفْتِرَآءً عَلَى ٱللَّهِ ۚ قَدْ ضَلُّواْ وَمَا كَانُواْ مُهْتَدِينَ ﴿١٤٠﴾﴾.

(١) ذرأ: الذرء الخلق على وجه الاختراع، وأصله الظهور ومنه ملحٌ ذرآني لظهور بياضه.

(٢) حجر: الحجر الحرام.

هدى من الآيات:

لأن الله حكيم عليم (بالإضافة إلى أنه غني رحيم) فهو لم يحرم الطيبات. بينما المشركون حرموا على أنفسهم كثيراً من الطيبات افتراء على الله، وفي البدء ذكر الله: إن الشرك في حكم الكفر بالله العظيم، لأن من ينذر لله ولغير الله، فإن نذره لغير الله سيحبط نذره لله، وسيجعله في نصيب الآلهة الشريكة.

والشرك هو الذي دفع بالمشركين إلى قتل أولادهم افتراء على الله، وهدف الطغاة والجبابرة الذين يشركون بهم من تشجيع الناس على قتل الأولاد يتلخص في إهلاك الشعب ماديًّا ومعنويًّا.

والله سبحانه ترك المشركين في هذا الوادي بسبب أنهم افتروا على الله سبحانه بالرغم من قدرته على ردهم بالقهر والجبر، ومنعهم من التسلط على مقدرات الشعب.

وهناك تشريعات باطلة أخرى كانت نتيجتها عليهم أن حرموا الطيبات على أنفسهم، ودفعهم إلى ذلك افتراؤهم على ربهم الذي سيجزون عليه، وكذلك تشريع المشركين الباطل الذي يميز بين الذكور والإناث في الانتفاع من الطيبات، أو قتل الأولاد، أو يُحَرِّمُون ما رزقهم الله كذباً عليه.

بينات من الآيات:

متى يكون الإنفاق لله شركا؟

[١٣٦] الشرك والكفر توأمان، بيد أن الشرك كفر مغلف، يستهدف إرضاء كل الأطراف، وهو ناتج عن ضعف الإرادة، وسوء الحكم والتقدير، والشرك حال نفسية تحاول خداع فطرة الإيمان بالله، وإشباع شهوات النفس في عملية تلفيقية مفضوحة.

﴿وَجَعَلُواْ لِلَّهِ مِمَّا ذَرَأَ مِنَ ٱلۡحَرۡثِ وَٱلۡأَنۡعَٰمِ نَصِيبٗا فَقَالُواْ هَٰذَا لِلَّهِ بِزَعۡمِهِمۡ وَهَٰذَا لِشُرَكَآئِنَا﴾ قالوا: هذا لله لإرضاء حس التدين الطبيعي في النفس، ولخداع المتدينين، ولان ما لله لا يعارض ما لشركائهم، فإذا كان يعارضهم فإنهم يسلبون حتى ما لله لشركائهم.

إنهم يبنون الجوامع الفخمة لله بزعمهم، إنهم يطبعون نسخاً من القرآن الكريم، إنهم يقيمون صلوات الجمعة والأعياد، حتى أنهم يحجون لربهم.

ولكنهم في ذات الوقت، يجعلون للشركاء نصيباً، فهم يبنون القصور من أموال المحرومين، ويبنون الدول على حساب المستضعفين، ويكنزون الذهب والفضة، ويدعمون الطاغوت، ويشيعون الإرهاب في البلاد، وبالتالي يعطون للشركاء كل ما في الحياة من لباب، ويدعون القشور لربهم، والله لا يرضى بالقشور.

﴿فَمَا كَانَ لِشُرَكَآئِهِمْ فَلَا يَصِلُ إِلَى ٱللَّهِ﴾ الحكم الذي جعلوه للطاغوت، لا يمكن أن يكون حكماً إلهيا يسكت عنه ربنا أو يرضى به، والمال الذي جعلوه دولة بين الأغنياء منهم لا يمكن أن يكون برضا الله سبحانه، بل إنه تعالى يمقته ويرفضه.

﴿وَمَا كَانَ لِلَّهِ فَهُوَ يَصِلُ إِلَىٰ شُرَكَآئِهِمْ﴾ الصلاة التي لا تنهى عن الفحشاء والمنكر، والزكاة التي تعمق الهوة بين الفقراء والأغنياء، وتدعم سلطة الطاغوت لأنها تعطى له، والحج الذي يتحول إلى سفرة سياحية، أو مورد مالي لجاهلية جديدة، والأمر بالمعروف والنهي عن المنكر اللذان يمارسان مع المستضعفين دون المستكبرين، أنها جميعاً من طقوس الطاغوت، وليست من شعائر الله تعالى ﴿سَآءَ مَا يَحْكُمُونَ﴾.

موقف الشريعة من تحديد النسل

[١٣٧] وهنا يطرح السؤال التالي: ما هدف الطاغوت ومن حوله من ملأ المستكبرين، وحاشية السلاطين وجلاوزة الأنظمة المفسدين؟.

إن هدفهم:

أولاً: استضعاف الناس.

ثانياً: تضليلهم.

ومن الطبيعي أن التضليل يأتي بهدف إبقاء واقع استثمارهم واستعبادهم، وكمثل بارز لهذين الهدفين أن الشركاء الذي يتقاسمون السلطة مع الله -في زعم هؤلاء- يشيعون بين صفوف المجتمع نوعاً من الثقافة الجاهلية تشجعهم على قتل أولادهم، فمن ناحية يضللونهم عن فطرتهم النقية في حب الأولاد، وضرورة الإبقاء عليهم ومن ناحية ثانية يهلكونهم بذلك، إذ أن الجيل الذي ينقطع نسله جيل أبتر، وبالتالي أصلح للاستثمار ﴿وَكَذَٰلِكَ زَيَّنَ لِكَثِيرٍ مِّنَ ٱلْمُشْرِكِينَ قَتْلَ أَوْلَٰدِهِمْ شُرَكَآؤُهُمْ﴾.

وكمثل لهذا الواقع المشين ثقافة الجاهلية الحديثة التي تشجع على تحديد النسل، وعلى الإجهاض في الوقت الذي تزداد الهوة الطبقية في تلك المجتمعات التي تأخذ بهذه الفكرة،

وتصرف البلايين في الحاجات الكمالية التافهة دون أن يفكروا في أن جزء بسيطاً من هذه الأموال يكفي لإعاشة الأولاد الذين منع من ولادتهم، ومن بركاتهم في الحياة.

علماً بأن التفجر السكاني وسيلة طبيعية للقضاء على الطبقات المستكبرة، لأن كل فم يحتاج إلى خبز سينفتح بالاحتجاج على الطبقية المقيتة.

لذلك يكون الهدف من قتل الأولاد هلاك الناس وتضليلهم.

﴿لِيُرْدُوهُمْ وَلِيَلْبِسُوا عَلَيْهِمْ دِينَهُمْ﴾ ذلك أن الدين الصحيح سلاح فعال ضد الطغاة، فتضليل الناس عنه هدف أساس للطغيان.

والله قادر على أن يحطم عرش الطغاة، بقدرته الغيبية، ولكنه لا يفعل ذلك مادام الناس غير واعين، ولا يفكرون في نجاة أنفسهم من الطغيان، وذلك بالكف عن الثقافة المشركة التي تفتري على الله سبحانه: ﴿وَلَوْ شَاءَ اللَّهُ مَا فَعَلُوهُ فَذَرْهُمْ وَمَا يَفْتَرُونَ﴾.

الخرافات إفراز للشرك

[١٣٨] حين يتمثل المنهج الشركي في نظام اجتماعي يتبين ضلالته وانحرافه أكثر فأكثر، وفي الجاهلية كانوا يحرمون طائفة من الطيبات على الناس، إلا من يشاءون حسب أفكارهم ومزاعمهم.

﴿وَقَالُوا هَٰذِهِ أَنْعَامٌ وَحَرْثٌ حِجْرٌ﴾ أي موقوف لا يمكن الانتفاع بها.

﴿لَا يَطْعَمُهَا إِلَّا مَنْ نَشَاءُ بِزَعْمِهِمْ﴾ أي إلا لمن تشاؤه أهواؤهم وخرافاتهم.

﴿وَأَنْعَامٌ حُرِّمَتْ ظُهُورُهَا﴾ لا لشيء إلا بسبب منهجهم الفكري الفاسد وأهم إفراز لهذا المنهج أنهم لا يذكرون اسم الله على بعض الأنعام ﴿وَأَنْعَامٌ لَا يَذْكُرُونَ اسْمَ اللَّهِ عَلَيْهَا افْتِرَاءً عَلَيْهِ﴾ فيتقربون بتلك الذبائح إلى الأصنام، أو إلى الجن أو الملائكة أو بعض أبناء الناس، وذلك حين كانوا يزعمون أن كل تلك آلهة يتقرب بها الإنسان إلى ربه سبحانه. حيث قالوا: ﴿مَا نَعْبُدُهُمْ إِلَّا لِيُقَرِّبُونَا إِلَى اللَّهِ زُلْفَىٰ﴾ [الزمر : ٣].

﴿سَيَجْزِيهِمْ بِمَا كَانُوا يَفْتَرُونَ﴾ على الله، ويزعمون: إن بعض الأشياء أو الأشخاص أبواب الله دون أن يكونوا كذلك.

ويبقى سؤال: ما هي علاقة الشرك بهذه الخرافات؟.

والجواب:

أولاً: إن الشرك بالله يحور القلب، ويحجب العقل، ويعمي البصيرة، فيرى البشر الأشياء مقلوبة، وقد يصل به الأمر إلى اعتبار الخير شرًّا، والنافع ضاراً.

ثانياً: إن كثيراً من المحرمات الاعتباطية نابعة من الإيمان بالشركاء، إذ أن خشية الشركاء تحرم المشركين من كثير من الطيبات.

ثالثاً: إن الواقع الاجتماعي الذي يفرزه نظام الشرك يحرم على الشعب كثيراً من الطيبات بسبب الطبقية المقيتة، بل العنصرية التي تسوده.

[١٣٩] وكان من مظاهر أحكامهم الباطلة، وتشريعاتهم السخيفة، التفرقة بين الرجال والنساء مما تأباه الفطرة السلمية.

﴿ وَقَالُواْ مَا فِى بُطُونِ هَٰذِهِ ٱلْأَنْعَٰمِ خَالِصَةٌ لِّذُكُورِنَا وَمُحَرَّمٌ عَلَىٰٓ أَزْوَٰجِنَا ﴾ وفي الوقت الذي كانوا يعترفون بعلاقة الزوجية التي هي في واقعها التكامل بين الذكر والأنثى ذلك التكامل الذي يدعو إلى المشاركة الكاملة في الحقوق والخيرات كما في المسؤوليات والواجبات، في ذات الوقت كانوا لا يكفون عن خرافة التفرقة بين الذكور والأزواج.

﴿وَإِن يَكُن مَّيْتَةً فَهُمْ فِيهِ شُرَكَآءُ ﴾ أي إن كان الجنين ولداً ميتاً فسوف يتقاسمه الذكور والإناث معاً.

﴿سَيَجْزِيهِمْ وَصْفَهُمْ إِنَّهُۥ حَكِيمٌ عَلِيمٌ ﴾ إنهم سينالون عقابهم بسبب وصفهم الباطل، وحكمهم غير العادل، حيث فرقوا بين الإناث والذكور في الانتفاع بالطيبات، والله حكيم يحكم بالعدل، وعليم يعلم من يخالف العدل الإلهي.

إعدام الطفولة البريئة

[١٤٠] وأسوء من التفرقة الطبقية والعنصرية -وحتى التفرقة بين الرجل والمرأة- منها قتل الأولاد، تلك العادة الجاهلية العريقة والمتجددة مع كل جاهلية، وسببها النظرة الشاذة إلى الحياة، والجهل والافتراء على الله، والضلالة عن الحق.

﴿ قَدْ خَسِرَ ٱلَّذِينَ قَتَلُوٓاْ أَوْلَٰدَهُمْ سَفَهًۢا بِغَيْرِ عِلْمٍ ﴾ وأي سفه أكبر وأخطر من أن يقوم الفرد بإلحاق الضرر والخسران بنفسه، وأن يقتل أولاده، وهذا السفه الذي يدل على قلة الشعور، وعدم معرفة ما يضر وما ينفع البشر، إنه مدعوم بالجهل أيضاً إذ أن العلم يزيد

الشعور، ويوقظ العقل في البشر.

﴿وَحَرَّمُوا مَا رَزَقَهُمُ اللَّهُ افْتِرَآءً عَلَى اللَّهِ﴾ لأن هؤلاء افتروا على الله وما اهتدوا بالمنهج الإلهي الذي يوضح للبشر كيف يستفيد من نعم الله عليه، وبالتالي لأنهم لم يجعلوا الحق محوراً لهم، ومقياسا لأعمالهم، وبصيرة لفهم الحياة.

لذلك حرموا على أنفسهم هذه الفرصة الطيبة، ولكن هل أن من يقتل أولاده هو الوحيد الذي يضيع على نفسه فرصة الانتفاع بالحياة، والاستفادة مما فيها. كلا.. فكل من لا ينتهج نهج الله إنه يخسر ما رزقه من الطيبات، فالذي لا يربي أبناءه حسب المنهج الإلهي القويم أفلا يحرم ما رزقه الله، والذي يسرف في الأكل فيعرض صحته للخطر، أو يأكل المحرمات، أو يشرب المسكرات، أو يتعاطى القمار والزنا، أو يظلم الناس، أو يكذب ويغتاب وما أشبه. إنه هو الآخر يضيع على نفسه نعم الله عليه، فهو الآخر مثل الذي يقتل أولاده سفهاً بغير علم ﴿قَدْ ضَلُّوا وَمَا كَانُوا مُهْتَدِينَ﴾.

كيف يحرم الشرك طيبات الحياة؟

﴿ وَهُوَ الَّذِي أَنشَأَ جَنَّاتٍ مَّعْرُوشَاتٍ وَغَيْرَ مَعْرُوشَاتٍ (١) وَالنَّخْلَ وَالزَّرْعَ مُخْتَلِفًا أُكُلُهُ وَالزَّيْتُونَ وَالرُّمَّانَ مُتَشَابِهًا وَغَيْرَ مُتَشَابِهٍ ۚ كُلُوا مِن ثَمَرِهِ إِذَا أَثْمَرَ وَآتُوا حَقَّهُ يَوْمَ حَصَادِهِ ۖ وَلَا تُسْرِفُوا ۚ إِنَّهُ لَا يُحِبُّ الْمُسْرِفِينَ (١٤١) وَمِنَ الْأَنْعَامِ حَمُولَةً وَفَرْشًا ۚ كُلُوا مِمَّا رَزَقَكُمُ اللَّهُ وَلَا تَتَّبِعُوا خُطُوَاتِ الشَّيْطَانِ ۚ إِنَّهُ لَكُمْ عَدُوٌّ مُّبِينٌ (١٤٢) ثَمَانِيَةَ أَزْوَاجٍ ۖ مِّنَ الضَّأْنِ اثْنَيْنِ وَمِنَ الْمَعْزِ اثْنَيْنِ ۗ قُلْ آلذَّكَرَيْنِ حَرَّمَ أَمِ الْأُنثَيَيْنِ أَمَّا اشْتَمَلَتْ عَلَيْهِ أَرْحَامُ الْأُنثَيَيْنِ ۖ نَبِّئُونِي بِعِلْمٍ إِن كُنتُمْ صَادِقِينَ (١٤٣) وَمِنَ الْإِبِلِ اثْنَيْنِ وَمِنَ الْبَقَرِ اثْنَيْنِ ۗ قُلْ آلذَّكَرَيْنِ حَرَّمَ أَمِ الْأُنثَيَيْنِ أَمَّا اشْتَمَلَتْ عَلَيْهِ أَرْحَامُ الْأُنثَيَيْنِ ۖ أَمْ كُنتُمْ شُهَدَاءَ إِذْ وَصَّاكُمُ اللَّهُ بِهَٰذَا ۚ فَمَنْ أَظْلَمُ مِمَّنِ افْتَرَىٰ عَلَى اللَّهِ كَذِبًا لِّيُضِلَّ النَّاسَ بِغَيْرِ عِلْمٍ ۗ إِنَّ اللَّهَ لَا يَهْدِي الْقَوْمَ الظَّالِمِينَ (١٤٤) ﴾.

هدى من الآيات:

الله سبحانه هو الذي أنعم على البشر نعماً لا تحصى، فهو أعلم بسبل الانتفاع بها، وما يضر وما ينفع منها، بينما الجاهلية تحرم وتحلل حسب أهوائها دون أن تعرف طبيعة الأشياء.

فالله هو الذي أنشأ البساتين والحدائق، وجعل فيها مختلف أنواع الشجر والثمر، ولذلك

(١) معروشات: العرش أصله الرفع ومنه سمي السرير عرشاً لارتفاعه، والعرش السقف والملك، وعرش الكرم (العنب) رفع بعض أغصانها على بعض، والعرش شبه الهودج يتخذ للمرأة.

فهو سبحانه عليم بأحكامها التي منها أن يأكل البشر من ثمراتها دون انتظار، وأن يعطي الفقراء منها يوم الحصاد، وألا يسرف في الأكل أو في العطاء، بل يعتدل في كافة التصرفات في الثمرات.

كما أن ربنا الكريم الحكيم هو الذي أنعم على البشر بالأنعام ليتخذ منها الإنسان ما يحمله في مسيره، وما يجلس عليه في بيته، وحكم هذه الأنعام هو الانتفاع بها بما رزقه الله منها، ولكن دون أن تصبح هذه الأنعام وسائل لتحقيق مطامح شيطانية كالاعتداء والبطش.

والله سبحانه رزقنا بأزواج الظأن والمعز والبقر والإبل، والبشر أخذ يحرم هذا ويحلل ذلك، بينما الجميع رزق الله، والله لم يوص بهذا، إنما المفترون هم الذين يضلون الناس بغير علم، وإنما يضلون الناس بسبب أنهم ظالمون، فالظلم هو المانع عن هداية الله.

بينات من الآيات:

الطيبات ما لك وما عليك

[١٤١] ملايين الأنظمة الطبيعية، والسنن الاجتماعية تفاعلت حتى أنشأ الله بها الجنات حيث اخضرت الأرض وأثمرت بمختلف أنواع الثمر، فمن دون وجود دوافع للبشر ركزها الله في غريزة الإنسان، ومن دون صلاحية التربة، ووجود مخازن المياه، وضوء الشمس لم يكن البشر يندفع نحو زراعة الأرض، أو يقدر عليها، ولكن الله أوجد تلك الدوافع، وهي تلك الوسائل، فهو إذن دون غيره فرش الأرض بسجادة خضراء من البساتين اليانعة.

﴿ ۞ وَهُوَ ٱلَّذِيٓ أَنشَأَ جَنَّٰتٖ مَّعۡرُوشَٰتٖ وَغَيۡرَ مَعۡرُوشَٰتٖ ﴾ فبعض الجنان مرتفعة عن الأرض كجنان النخيل، وبعضها مفروضة عليها كجنان الزرع.

﴿وَٱلنَّخۡلَ وَٱلزَّرۡعَ مُخۡتَلِفًا أُكُلُهُۥ وَٱلزَّيۡتُونَ وَٱلرُّمَّانَ مُتَشَٰبِهٗا وَغَيۡرَ مُتَشَٰبِهٖۚ﴾ بعض الثمار تتشابه مع بعضها، في اللون والطعم والصورة، وبعضها لا تتشابه، والتشابه قد يكون من جهة، وعدم التشابه من جهة أخرى، فكل الثمار ذات نكهة لذيذة في الطعم، ومتعة في المنظر والفائدة، ولكنها تتميز عن بعضها في نوع النكهة والمنظر والفائدة. إن روائع الإبداع تتجلى في التشابه، وعدم التشابه، فلو كانت الثمار من نوع واحد، أو كانت أنواعاً متفاضلة لما تجلت عظمة الخلقة كما تتجلى الآن، وقد جاءت الثمار أنواعاً مختلفة، ولكنها جميعاً ذات مستوى عال من ناحية الطعم والفائدة كل بصورة مختلفة.

وبما أن الله سبحانه، هو الذي أنعم علينا بالثمار، فإنه يفصل لنا كيفية الانتفاع بها، وبين الله هنا ثلاث من أحكامها:

الأول: حين يقول: ﴿كُلُواْ مِن ثَمَرِهِۦٓ إِذَآ أَثۡمَرَ﴾.

فإذا نضجت الثمرة، يكون أوان الاستفادة منها، وعلى البشر ألا يحرم نفسه من طيباتها بأوهام باطلة، بل بالعكس عليه أن ينتفع من الثمرات والانتفاع البسيط -كالأكل حين تثمر الشجرة- حق من حقوق كل شخص، أما الانتفاع الدائم كما إذا أراد تخزين الثمار وبيعها، أو الاستفادة منها مستقبلاً، فإن حق الآخرين يتعلق بها.

الثاني: ﴿وَءَاتُواْ حَقَّهُۥ يَوۡمَ حَصَادِهِۦۖ﴾ ففي ذلك اليوم ينتظر الفقراء حقوقهم من الزكاة أو الصدقة أو غيرهما. كحق الحصاد، بالرغم من أن حقوقهم تتعلق بها منذ نضوج الثمر، وربما تدل الآيات على أن الأكل يجوز قبل إخراج الزكاة. إذ أن الزكاة تتعلق بما يخزنه البشر لا بما ينتفع منه -والله العالم-.

الثالث: بيد أن الانتفاع بالطيبات يجب أن يكون في حدود الحاجة دون الإسراف، وهذا هو الحكم الثالث الذي يبينه القرآن الحكيم هنا: ﴿وَلَا تُسۡرِفُوٓاْۚ إِنَّهُۥ لَا يُحِبُّ ٱلۡمُسۡرِفِينَ﴾ ولأنه لا يحب المسرفين فسوف لا ينصرهم ولا يزيدهم من نعمه.

الأنعام وفوائدها

[١٤٢] كما في الثمرات التي تنبت من الأرض، فكذلك في الدواب التي ينتفع بها البشر طعاماً وحملاً وغير ذلك، والله هو الذي أنعم على الإنسان بالقدرة على تسخير الدواب والانتفاع بها، وجعل الأنعام قسمين: قسم منها الأنعام الكبيرة التي تحمل الأثقال من بلد إلى بلد كالإبل، وقسم منها الأنعام الصغيرة كالشاة التي يستفاد عادة منها في الطعام.

﴿وَمِنَ ٱلۡأَنۡعَٰمِ حَمُولَةٗ وَفَرۡشٗاۚ﴾ الكبار والصغار.

﴿كُلُواْ مِمَّا رَزَقَكُمُ ٱللَّهُ﴾ فلا تحرموا على أنفسكم الحيوانات كما كانت تفعله بعض المذاهب القديمة، ولكن من جانب آخر لا تسرفوا في الأكل، ولا تظلموا الأنعام باعتبارها مسخرات بأيديكم، فتقتلونها صبراً، أو تمنعون عنها الماء والكلأ كسلاً وما أشبه، كما لا تتخذوا هذه النعم وسيلة للبطش والاعتداء على بعضكم البعض.

﴿وَلَا تَتَّبِعُواْ خُطُوَٰتِ ٱلشَّيۡطَٰنِۚ إِنَّهُۥ لَكُمۡ عَدُوّٞ مُّبِينٞ﴾ وبالرغم من أن للشيطان خطوات متنوعة تقود البشر إلى النار، وكلها مشمولة للآية وممنوعة، إلا أن دلالة السياق تدعونا إلى افتراض أن أخطر هذه الخطوات هي الامتناع عن الاستفادة من بعض الأنعام افتراء على الله.

[١٤٣] يفصل ربنا أنواع النعم الكبيرة والصغيرة ليبين أنها جميعاً حلال لوحدة الملاك والفائدة والهدف، فلماذا يحرم البعض دون الآخر، هل لأن الله قال ذلك، أم اتباعاً لخطوات الشيطان؟!.

﴿ثَمَٰنِيَةَ أَزْوَٰجٍۖ مِّنَ ٱلضَّأْنِ ٱثْنَيْنِ﴾ الذكر والأنثى.

﴿وَمِنَ ٱلْمَعْزِ ٱثْنَيْنِۗ قُلْ ءَآلذَّكَرَيْنِ حَرَّمَ أَمِ ٱلْأُنثَيَيْنِ﴾ ذكر الشاة والماعز وأنثاهما.

﴿أَمَّا ٱشْتَمَلَتْ عَلَيْهِ أَرْحَامُ ٱلْأُنثَيَيْنِۖ﴾ من الجنين، إن هذا التساؤل يزيد الإنسان اهتماماً ويستجلي فطرته حتى يحس بعدم الفرق الحقيقي بين هذه الأنواع من نعم الله، لذلك قال سبحانه:

﴿نَبِّـُٔونِى بِعِلْمٍ إِن كُنتُمْ صَٰدِقِينَ﴾ أي لا تفرقوا بين الحقائق بأوهامكم، بل بعلم تتراهنون عليه.

[١٤٤] وكما في الفرش أي الأنعام الصغيرة مثل الضأن والمعز، فكذلك في الحمولة مثل الإبل والبقر لا يمكن التفريق بين ذكره وأنثاه إلا بعلم.

﴿وَمِنَ ٱلْإِبِلِ ٱثْنَيْنِ وَمِنَ ٱلْبَقَرِ ٱثْنَيْنِۗ﴾ الذكر والأنثى لكل واحد منها.

﴿قُلْ ءَآلذَّكَرَيْنِ حَرَّمَ أَمِ ٱلْأُنثَيَيْنِ أَمَّا ٱشْتَمَلَتْ عَلَيْهِ أَرْحَامُ ٱلْأُنثَيَيْنِۖ﴾ كلا.. لم يحرم الله أيا منهما، إذ لا أحد يشهد بصدق هذه التحريمات.

﴿أَمْ كُنتُمْ شُهَدَآءَ إِذْ وَصَّىٰكُمُ ٱللَّهُ بِهَٰذَاۚ﴾ وبالطبع لا يستطيع أحد أن يدعي هذه الشهادة.

﴿فَمَنْ أَظْلَمُ مِمَّنِ ٱفْتَرَىٰ عَلَى ٱللَّهِ كَذِبًا لِّيُضِلَّ ٱلنَّاسَ بِغَيْرِ عِلْمٍۗ﴾ لأن هؤلاء يحفرون خطًّا منحرفاً للناس، ويجعلونهم يظلمون أنفسهم، ويظلمون الناس آلاف المرات، وكل سيئات الظلم تكون على عاتق ذلك الذي افترى على الله. مثلاً: الذين يفلسفون الطبقية، ويجعلونها مشروعاً. كم يفترون من الإثم؟! إذ أنهم يتسببون في ألوف بل ملايين الجرائم، أليس كذلك؟!.

﴿إِنَّ ٱللَّهَ لَا يَهْدِى ٱلْقَوْمَ ٱلظَّٰلِمِينَ﴾ الذين يفترون على الله كذباً، ولذلك فهم يضلون السبيل القويم، وهنا لابد من التذكر بفكرة هي: أن السبب الذي يدعو فريقاً من الناس إلى اختراع الشرائع الباطلة هو اتباع الشهوة في ظلم الآخرين، كما أن السبب الذي يدعو الناس إلى الالتفاف حول هذا الفريق هو الظلم أيضاً، والظلم الصغير يولد الظلم الكبير إلى أن يضل الطريق رأساً.

الأفق الإيجابي في تشريعات التوحيد

﴿قُل لَّآ أَجِدُ فِي مَآ أُوحِيَ إِلَيَّ مُحَرَّمًا عَلَىٰ طَاعِمٍ يَطۡعَمُهُۥٓ إِلَّآ أَن يَكُونَ مَيۡتَةً أَوۡ دَمٗا مَّسۡفُوحًا أَوۡ لَحۡمَ خِنزِيرٖ فَإِنَّهُۥ رِجۡسٌ أَوۡ فِسۡقًا أُهِلَّ لِغَيۡرِ ٱللَّهِ بِهِۦۚ فَمَنِ ٱضۡطُرَّ غَيۡرَ بَاغٖ وَلَا عَادٖ فَإِنَّ رَبَّكَ غَفُورٞ رَّحِيمٞ ﴿١٤٥﴾ وَعَلَى ٱلَّذِينَ هَادُواْ حَرَّمۡنَا كُلَّ ذِي ظُفُرٖۖ وَمِنَ ٱلۡبَقَرِ وَٱلۡغَنَمِ حَرَّمۡنَا عَلَيۡهِمۡ شُحُومَهُمَآ إِلَّا مَا حَمَلَتۡ ظُهُورُهُمَآ أَوِ ٱلۡحَوَايَآ[1] أَوۡ مَا ٱخۡتَلَطَ بِعَظۡمٖۚ ذَٰلِكَ جَزَيۡنَٰهُم بِبَغۡيِهِمۡۖ وَإِنَّا لَصَٰدِقُونَ ﴿١٤٦﴾ فَإِن كَذَّبُوكَ فَقُل رَّبُّكُمۡ ذُو رَحۡمَةٖ وَٰسِعَةٖ وَلَا يُرَدُّ بَأۡسُهُۥ عَنِ ٱلۡقَوۡمِ ٱلۡمُجۡرِمِينَ ﴿١٤٧﴾﴾.

هدى من الآيات:

في مواجهة الانغلاق الذي أصيب به البعض، فحرموا على أنفسهم الطيبات إلا قليلاً ذكر القرآن الحكيم هنا أنه ليس تلك المحرمات الجاهلية موجودة في الكتاب إنما هي أشياء معدودة ذكرت في الآية وهي الميتة والدم والخنزير والفسق.

بيد أنه حرم الله على بني إسرائيل أنواعاً من الطيبات، وذلك مثل كل ذي ناب أو مخلب، وشحوم البقر والغنم، وذلك لأنهم بغوا على بعضهم البعض، وكلما زاد بغي البشر ضاقت عليه النعم.

والله سبحانه رحيم، ورحمته واسعة، ولكنه في ذات الوقت شديد العقاب، لا يستطيع المجرمون الفرار من عقابه.

---

(١) الحوايا: المباعر، ومفردها حاوية وهي ما يحوي في البطن ما اجتمع واستدار.

وتأتي هذه الآيات لتؤكد الفكرة السابقة وهي ضرورة الاستقامة على الخط السليم دون زيادة أو نقصان. لأن الأحكام الشرعية مرتبطة بالمصالح الواقعية التي لا تتغير.

بينات من الآيات:

حدود الحرام

[١٤٥] يزعم البعض إن الدين معتقل حصين لطاقات البشر، لا يدعها تنمو وتتكامل، وأن كل شيء في الدين حرام إلا ما استثناه الله، والله سبحانه ينفي هذه الفكرة الباطلة مرة بعد أخرى.

وفي هذه الآية يشرح الله سبحانه أصل الحلية التامة إلا في أشياء معينة، وبذلك يشجع البشر على التمتع بنعم الله، إلا إذا سبب ضرراً بالغاً عليه.

﴿قُل لَّآ أَجِدُ فِي مَآ أُوحِيَ إِلَيَّ مُحَرَّمًا عَلَىٰ طَاعِمٍ يَطْعَمُهُۥٓ إِلَّآ أَن يَكُونَ مَيْتَةً أَوْ دَمًا مَّسْفُوحًا﴾ أي خارجاً من الجسم باندفاع، أما الدم المتبقي في ثنايا اللحم فإنه معفو عنه.

﴿أَوْ لَحْمَ خِنزِيرٍ فَإِنَّهُۥ رِجْسٌ﴾ بالرغم من أن ظاهره طيب، ولكن واقعه رجس، يولد أنواعاً من المرض كما يطبع طاعمه ببعض الأخلاق الذميمة.

﴿أَوْ فِسْقًا أُهِلَّ لِغَيْرِ ٱللَّهِ بِهِۦ﴾ إن الذبيحة التي تهدى للصنم حرام لأنها جزء من واقع الشرك فلذلك هي فسق وحرام، ولكن مع كل ذلك فإن هذه المحرمات تصبح حلالاً في حالة الاضطرار إليها، والاضطرار يعني: أن يصيب الفرد في حالة تركه لها ضرر كبير لا يتحمله، فليس بضرر ذلك الذي يلحق الظالم حين يترك ظلمه أو يلحق المسرف والمتجاوز حده حين يعود إلى حده ونصابه، لأن الضرر إنما يقاس بمعيار الحق القائم على العقل والفطرة، وتمييز العرف العام، ولذلك فإن معايير الظالمين والبغاة أو المتجاوزين بالسرف والترف لا تعتبر معايير كافية، ولذلك جاء في تفاسير الصادقين عليهم السلام: «**الْبَاغِي الْخَارِجُ عَلَى الْإِمَامِ وَ الْعَادِي اللِّصُّ**»(١).

ولا ريب أن هذا واحد من المصاديق لهاتين الكلمتين في حين تشمل الآية كل باغ وعاد، وبكلمة إن البغي والعدوان في هذه الآية -حسب ما يبدو لي- مرتبط بالمعيار، فإذا كان معيار الاضطرار سليماً يجوز الاستفادة من هذا القانون وإلا فلا.

(١) تفسير العياشي: ج١، ص ٧٤.

﴿فَمَنِ ٱضْطُرَّ غَيْرَ بَاغٍ وَلَا عَادٍ فَإِنَّ رَبَّكَ غَفُورٌ رَّحِيمٌ﴾ مغفرته تتجلى في عدم أخذ من يأكل الميتة اضطراراً بالرغم من حرمته في الواقع، ورحمته تتجلى في خلقه سائر الطيبات.

ملحقات المحرمات

[١٤٦] مبدئياً لا يحرم الله الطيبات على البشر، بل الخبائث، وهي استثناء وليست أصلا، وبالتالي فهي معدودة كما عرفنا، بيد أن ربنا قد حرم وفقاً لحكمة معينة طائفة من الطيبات لأسباب خارجية مثل تأديب المجتمعات المائعة والظالمة، مثلاً: حرم الله على اليهود كل ذي ظفر، وهو الحيوان الذي يستخدم أظفاره سلاحاً لصيده. مثل السباع، والطيور ذات المخالب (كالعقاب) وقيل: إن هذه الكلمة تشمل الإبل والأنعام لأنها وأمثالها ليست بمنفرج الأصابع.

﴿وَعَلَى ٱلَّذِينَ هَادُوا حَرَّمْنَا كُلَّ ذِي ظُفُرٍ﴾ وشمل تحريم ربنا الاستثنائي على بني إسرائيل شحوم البقر والغنم، إلا تلك الشحوم المتراكمة على ظهورها، أو الموجودة على مقاعدها، أو تلك الشحوم المختلطة بعظم ﴿وَمِنَ ٱلْبَقَرِ وَٱلْغَنَمِ حَرَّمْنَا عَلَيْهِمْ شُحُومَهُمَآ إِلَّا مَا حَمَلَتْ ظُهُورُهُمَآ أَوِ ٱلْحَوَايَآ أَوْ مَا ٱخْتَلَطَ بِعَظْمٍ﴾.

والسؤال: لماذا حرم الله كل تلك الطيبات عليهم؟

يجيب ربنا: إن بني إسرائيل ظلموا وبغى بعضهم على بعض، فحرم الله عليهم بعضاً من الطيبات، ويبقى سؤال، لماذا يتسبب البغي في الحرمة؟

والجواب: إن السنن التي نسميها بالأنظمة الطبيعية لا تختلف عن الأحكام التشريعية إلا في شيء واحد هو أن تلك يجريها ربنا على الكون وعلى البشر قهراً ودون أي تغيير وتبديل، بينما الأحكام الشرعية. يأمر بها الناس، ويحذرهم من عاقبة تركها، لذلك فإن هاتين السنتين الطبيعية والتشريعية تلتقيان في الخطوط العامة، لأنهما تصدران من منبع واحد، وبما أن النهاية الطبيعية للبغي في المجتمع هو انحسار النعم عنه وتضييق الخناق عن أبنائه، فإن ذات النهاية يحكم بها الله سبحانه على مجتمع البغي، وذلك بتحريم طائفة من الطيبات عليه ﴿ذَٰلِكَ جَزَيْنَٰهُم بِبَغْيِهِمْ وَإِنَّا لَصَٰدِقُونَ﴾.

ذو الرحمة والبأس

[١٤٧] إن كل واحد من البشر يتصور الله على شاكلته وحسب مشتهياته، كما يتخذون

ذات الصورة لسائر الحقائق، والمذنبون من الناس يضخمون في أنفسهم صفة الرحمة والعفو لله دون أن يتذكروا صفات الغضب والبأس والعقاب له سبحانه، ولذلك فهم يكذبون من يحذرهم الآخرة، ويوعدهم العذاب.

﴿فَإِن كَذَّبُوكَ فَقُل رَّبُّكُمْ ذُو رَحْمَةٍ وَاسِعَةٍ﴾ وتكذيب رحمة الله مخالف للفطرة، ولما نشاهده في عالم الواقع، ولذلك أكد الأنبياء هذه الصفة الحسنى لله، ولكنهم أكدوا على الصفة الأخرى أيضاً ﴿وَلَا يُرَدُّ بَأْسُهُ عَنِ الْقَوْمِ الْمُجْرِمِينَ﴾.

الشرك بين التصور والتوهم

﴿سَيَقُولُ ٱلَّذِينَ أَشْرَكُوا۟ لَوْ شَآءَ ٱللَّهُ مَآ أَشْرَكْنَا وَلَآ ءَابَآؤُنَا وَلَا حَرَّمْنَا مِن شَىْءٍ ۚ كَذَٰلِكَ كَذَّبَ ٱلَّذِينَ مِن قَبْلِهِمْ حَتَّىٰ ذَاقُوا۟ بَأْسَنَا ۗ قُلْ هَلْ عِندَكُم مِّنْ عِلْمٍ فَتُخْرِجُوهُ لَنَآ ۖ إِن تَتَّبِعُونَ إِلَّا ٱلظَّنَّ وَإِنْ أَنتُمْ إِلَّا تَخْرُصُونَ ﴿١٤٨﴾ قُلْ فَلِلَّهِ ٱلْحُجَّةُ ٱلْبَٰلِغَةُ ۖ فَلَوْ شَآءَ لَهَدَىٰكُمْ أَجْمَعِينَ ﴿١٤٩﴾ قُلْ هَلُمَّ شُهَدَآءَكُمُ ٱلَّذِينَ يَشْهَدُونَ أَنَّ ٱللَّهَ حَرَّمَ هَٰذَا ۖ فَإِن شَهِدُوا۟ فَلَا تَشْهَدْ مَعَهُمْ ۚ وَلَا تَتَّبِعْ أَهْوَآءَ ٱلَّذِينَ كَذَّبُوا۟ بِـَٔايَٰتِنَا وَٱلَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ بِٱلْءَاخِرَةِ وَهُم بِرَبِّهِمْ يَعْدِلُونَ ﴿١٥٠﴾﴾.

هدى من الآيات:

حين يكون معيار الحق والباطل عند البشر ذاته، وليس الواقع والحقيقة، يزعم أن كلما يفعله يطابق الحقيقة عند الله، وإن أعماله وأقواله تستمد شرعيتها من الله عز وجل، إذ مادام يعتقد هو بها وإن ما تعتقده نفسه فهو صحيح. إذن فالله أيضاً أمر به لذلك ينسب المشركون من أهل الكتاب أو من غيرهم شركهم وتشريعاتهم إلى الله، ولكن الله سبحانه لم يصدقهم إذ عذبهم ببأسه في الدنيا قبل الآخرة حتى ظهر لهم ولغيرهم أنهم ليسوا على حق، ويتساءل القرآن كيف يزعمون أن أفكارهم صحيحة. هل علماً بذلك أم ظنًّا وتوهماً؟!.

الله هو الذي عنده الهدى، وله الحجة البالغة على الهدى، وهو قادر على هداية الناس إليه، أما هؤلاء فإنهم يكذبون بالحق ولا حجة لهم عليه، ولا شهود صادقين، ولذلك أمرهم القرآن بإحضار شهداءهم، ولكنه نهى عن الشهادة لهم لأنهم:

أولاً: يتمحورون حول ذواتهم وأهوائهم.

ثانياً: يكذبون سلفاً وبلا تردد بكل العلامات التي تدل على الحق لأنهم لا يهدفون بلوغ الحقيقة.

ثالثاً: إنهم يكفرون بالآخرة ويقصرون حياتهم على الدنيا.

رابعاً: إنهم لا يميزون بين الله وبين خلقه سبحانه.

بينات من الآيات:

جذور الانحراف

[١٤٨] ويأتي هذا الدرس في بيان الجذور الخبيثة للتشريعات البشرية الباطلة في القضايا الاجتماعية التي بسببها يتبع البشر هواه، ويعبد ذاته، ويترك الحق ومسئوليته، ويتشبث بتصورات باطلة وأوهام بعيدة تستمد شرعيتها من الهوى، فيقول بالحتميات الباطلة. مثلاً: إن الليل والنهار وحوادث الحياة هي التي تجبره على اتخاذ مواقفه، أو يقول: إن الله أجبره على ذلك لأن الله هو خالق ما في الوجود، والقاهر فوق العباد، فهو الذي اضطره إلى ذلك أو ما أشبه، أو يتشبث بالخرافة الباطلة التي تقول: إن الله فوض أمور العباد إلى أنفسهم، فهم يقررون لها ما شاءت عقولهم، (وهنا يخلطون بين العقل والهوى خلطاً متعمداً عجيباً).

وسواء تشبثوا بهذا النوع من التصور أو ذاك فإن الهدف منه شيء واحد هو إعطاء الشرعية لعبادة أهوائهم، والتمحور حول ذواتهم، واعتبار أفكارهم وتشريعاتهم مقدسة، بل ومدعومة من قبل الله من فوق عرشه سبحانه، وهذه آخر مرحلة من الضلالة عند البشر.

﴿سَيَقُولُ ٱلَّذِينَ أَشْرَكُواْ لَوْ شَآءَ ٱللَّهُ مَآ أَشْرَكْنَا وَلَآ ءَابَآؤُنَا وَلَا حَرَّمْنَا مِن شَيْءٍ﴾ فالله كان قادرا على منعنا من الشرك، والتشريع الباطل، فلم يفعل فهو راض بما نفعله ويجيب القرآن الحكيم على ذلك:

أولاً: إن هذا الفريق هو الذي يكذب بالحق لذلك فهم يتشابهون مع كل من يكذب بالحق في التاريخ -علما بأن أحد الطرق لكشف حقيقة جماعة هو الكشف عن التيار العام الذي يقعون فيه ويتسابقون معه-، فإذن مصدر هذا الزعم وسببه هو أنهم يكذبون بالحقائق. وإذا عرف الداعي النفسي إلى فكرة ما افتضحت طبيعتها وحقيقتها، مثلاً: إذا عرفت أن زيداً الذي يتحدث عن فكرة إنما يتحدث عنها لأنه ينتمي إلى حزب الكذائي، عرفت جوانب كثيرة من الفكرة.

ثانياً: إن النهاية التي جعلها الله لمثل هؤلاء هي العذاب الشديد. إذن فهم ليسوا بخارجين عن دائرة المسؤولية التي من أجل الهروب منها تشبثوا بمثل هـذه الأفكار الباطلة.

﴿كَذَٰلِكَ كَذَّبَ ٱلَّذِينَ مِن قَبْلِهِمْ حَتَّىٰ ذَاقُواْ بَأْسَنَا﴾

ثم -وبعد أن يشكك هؤلاء بأفكارهم- يطرح عليهم هذا السؤال: هل هـذا علم أم ظن؟، إن مجرد طرح هذا السؤال يعني جعل شرعية الأفكار مناطة بالعلم لا بالمصلحة، وبالتالي فضح جذور الفكرة، وأنها نابعة من الهوى، وبما أنهم لم يدعوا العلم لأنهم لا يعترفون بالحق (بل بذاتهم) حتى يبحثوا عن العلم الذي يهديهم إليه، ولكن مع ذلك لا يمكنهم إنكار شرعية العلم.

ثم يؤكد القرآن الحقيقة في أمر هؤلاء، ويقول: إن اعتماد هؤلاء هو على التصور والوهم والتصور (الظن) هو الكذب المتعمد، والوهم هو الشك (الخرص).

﴿قُلْ هَلْ عِندَكُم مِّنْ عِلْمٍ فَتُخْرِجُوهُ لَنَآ إِن تَتَّبِعُونَ إِلَّا ٱلظَّنَّ وَإِنْ أَنتُمْ إِلَّا تَخْرُصُونَ﴾
وهم لا يستطيعون إنكار ذلك. إذ أنهم لو أنكروه فقد فتحوا باب المباحثة البناءة، والحوار الفاعل على أنفسهم، وهو يضرهم لأنه يعيد الشرعية للحق والعلم لا للهوى والظن.

لا للحتمية

[١٤٩] لم يحتم الله على البشر الضلالة، ولا رضي بها. إذ لم يجبرهم على ترك ضلالتهم، بل وفر لهم فرصة الهداية كاملة، فأعطاهم الحجة البالغة، وبقي عليهم أن يقوموا بدورهم في استيعاب الهداية، كما أن الله قادر على أن يجبر الناس على الهداية، ولكنه لم يفعل، كما لم يجبر الناس على الشرك.. فليس تركه للناس دليلاً على رضاه سبحانه لأنه أتم الحجة عليهم ﴿قُلْ فَلِلَّهِ ٱلْحُجَّةُ ٱلْبَٰلِغَةُ فَلَوْ شَآءَ لَهَدَىٰكُمْ أَجْمَعِينَ﴾.

الاستشهاد

[١٥٠] إحدى الوسائل الفعالة لتمييز الحق عن الهوى، والعلم عن الظن، والصدق عن الكذب، هي طرح الأفكار على عقول الناس، واستشهادهم عليها، ذلك لأن الناس حتى ولو كانوا يتبعون الهوى والظن فإنهم حين يقيمون أفكار الآخرين، فليس من الضروري القبول بها أو التصديق، ذلك لأن مصالح الناس مختلفة، وأهواءهم متفاوتة، وبالتالي كل حزب بما لديهم فرحون. بيد أن شهادة الناس ليست دليلاً على الحق ولو كانت دليلاً على بطلان الهوى. فهي

مفيدة سلبيًّا فقط (تنفي ولكنها لا تثبت).

﴿قُلْ هَلُمَّ شُهَدَآءَكُمُ﴾ أي اجمعوا شهداءكم، لأنه بجمعهم تفترق كلمتهم، باعتبارها كلمة باطلة، ولذلك من وسائل كشف عصابة الإجرام جعلهم جميعاً يشهدون على الواقعة فنرى كم أنهم يختلفون، بل ويتناقضون مع بعضهم لأنهم إن اتفقوا على مخالفة الحق فلن يتفقوا على نوع الباطل، لذلك فصل القرآن وقال:

﴿ٱلَّذِينَ يَشْهَدُونَ أَنَّ ٱللَّهَ حَرَّمَ هَـٰذَا﴾ ولكن الاتفاق على الباطل لا يصبح دليلاً عليه.

﴿فَإِن شَهِدُواْ فَلَا تَشْهَدْ مَعَهُمْ وَلَا تَتَّبِعْ أَهْوَآءَ ٱلَّذِينَ كَذَّبُواْ بِـَٔايَـٰتِنَا﴾ والقرآن الحكيم يُبيّن هنا المزيد من جذور الشرك. حيث يبين أن السبب في عدم اتباع الحق لا تلفها الهوى هو عدم الإيمان بالآخرة هذا أولاً، ثانياً: عدم معرفة الله وخلط الله وخلط الله بخلقه.

﴿وَٱلَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ بِٱلْـَٔاخِرَةِ وَهُم بِرَبِّهِمْ يَعْدِلُونَ﴾ ومن يعدل الله بخلقه لا يعرف الله ولا خلق الله.

هكذا يفسد الشرك النظام الاجتماعي

﴿ ۞ قُلْ تَعَالَوْا أَتْلُ مَا حَرَّمَ رَبُّكُمْ عَلَيْكُمْ أَلَّا تُشْرِكُوا بِهِ شَيْئًا وَبِالْوَالِدَيْنِ إِحْسَانًا وَلَا تَقْتُلُوا أَوْلَادَكُم مِّنْ إِمْلَاقٍ[1] نَّحْنُ نَرْزُقُكُمْ وَإِيَّاهُمْ وَلَا تَقْرَبُوا الْفَوَاحِشَ مَا ظَهَرَ مِنْهَا وَمَا بَطَنَ وَلَا تَقْتُلُوا النَّفْسَ الَّتِي حَرَّمَ اللَّهُ إِلَّا بِالْحَقِّ ذَٰلِكُمْ وَصَّاكُم بِهِ لَعَلَّكُمْ تَعْقِلُونَ (١٥١) ﴾.

هدى من الآيات:

بعد بيان المحرمات المعدودة التي ترتبط بالماديات، جاء دور المحرمات الاجتماعية الأكثر أهمية والأكثر مصداقية والأكثر صعوبة، وهي كالتالي:

أولاً: الشرك بالله.

ثانياً: الإحسان إلى الوالدين، أي حرمة إيذائهم، وحرمة إهمال حقوقهم.

ثالثاً: حرمة إهمال حقوق الأولاد من الفقر.

رابعاً: الفواحش التي بينها الله في كتابه، سواء الخفية منها أو الظاهرة.

خامساً: قتل النفس المحرمة.

هذه وصايا ربنا التي تنفعنا، والتي يمكن لنا أن نعقلها ببساطة.

---

(١) املاق: الإملاق: الإفلاس من المال، ومنه الملق والتملق لأنه اجتهاد في تقرب المفلس للطمع في العطية.

بينات من الآيات:

حرمات الله

[١٥١] الجاهلية بشكلها القديم والجديد، الظاهر والمغلف تحاول تضخيم جوانب من الدين على حساب جوانب أخرى هي الأهم والأصعب، وهي المحتوى واللباب، ورسالة الله تذكر الناس بأن الدين لا يبعض، وأن ذلك التضخيم والمبالغة والاحتياط في غير محله، بل حرام أساساً، وفي الآيات السابقة رأينا كيف أن الله بين أن تحريم الجاهلية للطيبات من الرزق، باسم الدين كان باطلاً، بينما المحرمات تلك كانت محدودة بل وجانبية، أما المحرمات الكثيرة والأساسية التي تناساها الجاهليون القشريون عمداً ولخطورتها وأهميتها فهي التي تذكر بها هذه الآيات فعلينا الاهتمام بها إن كنا فعلاً مؤمنين ولا نخادع أنفسنا في الدين.

المحرمات الأساسية هي التي تنظم الحياة الاجتماعية للإنسان، ابتداء من حياة الأسرة وحتى السياسة، ولكن كل الأنظمة الاجتماعية في الإسلام مصطبغة بالتوحيد ورفض الشرك بالله سبحانه، لذلك بدء الله هويته به وقال:

﴿ ۞ قُلْ تَعَالَوْا أَتْلُ مَا حَرَّمَ رَبُّكُمْ عَلَيْكُمْ أَلَّا تُشْرِكُوا بِهِ شَيْئًا ﴾ يجب أن نخلص العبادة لله سبحانه، وألا نخضع أو نستسلم لشيء من دون الله، وألا نقبل ضغطاً أو زوراً، بل يكون بناء حياتنا على الحرية المطلقة (إلا فـي حدود القانون) والعزة والكرامة.

محتوى التوحيد هو الحرية والحرية ممارسة وسلوك وفعل يقوم به الشخص ذاته قبل أن تكون حقا، ونظاما وانفعالا. كلا.. فحريتي تبدأ حين أرفض الخضوع لشيء أنى كان اسمه لأني أعتبر كل شيء خاضعاً لله، وأنا أيضاً خاضع لله ولقانونه، ولمن أمرني باتباعه، وفيما وراءه لا شيء يمكن أن يخضعني لا الثروة ولا السلطة ولا الإرهاب الفكري أو التعذيب.

الشرك أولا ثم الروابط العائلية

وإذا ساد في المجتمع نظام الشرك، فإن القانون لا يمكن أن يكون إلهياً لأن كل بند من بنود القانون ينقض تحت ضغط الثروة أو السلطة أو الإرهاب الفكري. لذلك بدأ الله النهي عن المحرمات الاجتماعية بالنهي عن الشرك لأنه الشرط المسبق لتنفيذ سائر المحرمات.

وبعد أن نتعهد بالتسليم لله وحده لا لشيء آخر يأتي دور بناء العلاقات الاجتماعية وأهمها العلاقة بين الأجيال -بين الجيل السابق (الوالدين) والجيل اللاحق (الأبناء)- العلاقة

مع الوالدين يجب أن تكون علاقة الإحسان.

﴿وَبِالْوَالِدَيْنِ إِحْسَانًا﴾ والإحسان هو: العطاء الفضل الذي يتجاوز الحق إلى الخير، وهو بالتالي لا يعني التسليم المطلق (كما تعني العبادة) كما لا يعني الطاعة للوالدين. إذ أن الطاعة تعني بدورها الخضوع، والمؤمن لا يخضع لغير الله، نعم الطاعة بمعنى قبول رأيها دون أن يكون ذلك فرضاً من قبل الوالدين أو تسليماً من قبل الأولاد.

والمنطق المتخلف جعل التسليم للوالدين واجباً شرعيًّا، فكرس الروح العشائرية في النفوس، بينما لا نجد في الإسلام سوى الأمر بالإحسان إلى الوالدين، بل وجدنا بالعكس من ذلك تماماً، نهى الإسلام عن الاتباع الأعمى للآباء، وهذا ما يجرنا إليه المنطق المتخلف.

وكما يجب التسليم لله والإحسان إلى الوالدين لابد أن تكون علاقة الإحسان هي العلاقة السائدة بين أبناء المجتمع، أما العلاقة بين الإنسان وبين أبنائه وعموماً الذين هم أقل منه مستوى فهي علاقة المحافظة عليهم، وألا يزعم الأب أن أولاده منافسون له فيقتلهم خشية أن يتأثر وضعه الاقتصادي بهم.

﴿وَلَا تَقْتُلُوا أَوْلَادَكُم مِّنْ إِمْلَاقٍ نَّحْنُ نَرْزُقُكُمْ وَإِيَّاهُمْ﴾ الإملاق هو الفقر، والجاهلية هي التي تجعل الاختلاف صراعاً، والصراع حادًّا إلى درجة التناقض، فتجعل النظرة الجاهلية ضيقة (والتي هي نظرة الشرك) الآباء وكأن بينهم وبين الأبناء صراعاً على البقاء، ولذلك كانوا يقتلون أولادهم قديماً، أو يجهضون أولادهم بزعم أنهم يزاحمونهم في نعم الحياة، أو يمنعون النسل بهذه الحجة.

هذه النظرة الشركية هي التي أوحت إلى الماركسية بتصور التناقض الحاد بين أبناء المجتمع، كما أوحت الفرويدية بأن الابن الذكر ينازع أباه على أمه والأنثى تنازع أمها على أبيها.

بينما النظرة التوحيدية السماوية توحي إلى الإنسان بحقيقة التكامل في الحياة، وأن نعم الله ليس فقط تسع كل الناس من دون صراع حاد، بل وأيضاً تزداد كلما ازدادت العناصر الطالبة لها، وربما لذلك أشارت الآية إلى أن الرزق سيتناوله الآباء قبل الأبناء في حالة تواجدهم مع بعضهم.

ما هي الفواحش؟

العلاقة الحسنة بين الآباء والأولاد تتكامل مع العلاقة السليمة بين الزوجين، حيث يجب أن تكون علاقة البناء لا الهدم، والزواج لا الفاحشة، لذلك حرم الله الفواحش كلها.

﴿وَلَا تَقْرَبُوا الْفَوَاحِشَ مَا ظَهَرَ مِنْهَا وَمَا بَطَنَ﴾ قد تكون الفاحشة ظاهرة كالزنا والشذوذ، والعادة السرية وما إليها، وقد تكون باطنة وهي التي لا تحقق أهداف الزواج السامية كالصداقة مع النساء، أو حرف الغريزة بما تخدم أهداف الشيطان كالاكتفاء بالصور الجنسية أو بالأفلام الخليعة عن العلاقة الجنسية السليمة.

وقد يكون من مصاديق الفاحشة الباطنة عدم إيجاد جو التكامل في محيط البيت بما يخدم مصلحة الطرفين، أو عدم أداء الحقوق الواجبة من قبل أي واحد من الطرفين كالمهر والنفقة والتمكين، أو أن تكون نظرة أحد الزوجين متوجهة إلى غير زوجه من سائر الذكور والإناث.

وكذلك قد تكون من الفاحشة الباطنة أن يستهدف كل من الزوجين إشباع غرائزه دون أن يفكر في مصلحة الطرف الثاني، فلا يتبع غريزته في وقت هيجانها، أو لا يفكر في تكامله ونموه وراحته بقدر ما يفكر في نفسه فتكون قرارته ذاتية بحتة.

هذه علاقة الزوجين، أما علاقة الناس ببعضهم فيجب أن تكون تكاملية ولا تكون حدية نابعة من نظرة الشرك التي توحي أبداً بالصراع الباطل.

﴿وَلَا تَقْتُلُوا النَّفْسَ الَّتِي حَرَّمَ اللَّهُ إِلَّا بِالْحَقِّ﴾ فقتل النفس المحرمة مظهر من مظاهر الصراع الشركي، وحين يجب تصفية أحد جسديًا، كما إذا كان قاتلاً أو مفسداً في الأرض فإنه يجب ذلك.

إن هذه المحرمات هي مما يذكر بها الله ليفتح العقول بها. إذ أنها مرتكزة في فطرة البشر لذلك عبر القرآن عنها بالوصية التي هي خير ظاهرة للإنسان ﴿ذَٰلِكُمْ وَصَّاكُم بِهِ لَعَلَّكُمْ تَعْقِلُونَ﴾

وهكذا ينظم التوحيد الحياة الاجتماعية

﴿وَلَا تَقْرَبُوا مَالَ الْيَتِيمِ إِلَّا بِالَّتِي هِيَ أَحْسَنُ حَتَّى يَبْلُغَ أَشُدَّهُ[1] وَأَوْفُوا الْكَيْلَ وَالْمِيزَانَ بِالْقِسْطِ لَا نُكَلِّفُ نَفْسًا إِلَّا وُسْعَهَا وَإِذَا قُلْتُمْ فَاعْدِلُوا وَلَوْ كَانَ ذَا قُرْبَى وَبِعَهْدِ اللَّهِ أَوْفُوا ذَلِكُمْ وَصَّاكُمْ بِهِ لَعَلَّكُمْ تَذَكَّرُونَ (١٥٢) وَأَنَّ هَذَا صِرَاطِي مُسْتَقِيمًا فَاتَّبِعُوهُ وَلَا تَتَّبِعُوا السُّبُلَ فَتَفَرَّقَ بِكُمْ عَنْ سَبِيلِهِ ذَلِكُمْ وَصَّاكُمْ بِهِ لَعَلَّكُمْ تَتَّقُونَ (١٥٣)﴾.

هدى من الآيات:

بعد أن تحدث القرآن عن إدانة منطق الشرك الذي يدعو إلى الصراع والتناقض، فحرم القرآن جانباً من آثار هذا المنطق الباطل، بعدئذ نهى القرآن عن آثار هذا المنطق في الواقع الاقتصادي للمجتمع، حيث يسعى كل فريق نحو ابتزاز الآخرين، فحرم الله الاعتداء على أموال الآخرين وبالذات أكل أموال الضعفاء كالأيتام، وأكل الأموال بطرق ملتوية كالغش ونقص المكيال والميزان. صحيح أن الفرد حين المعاملة يتدخل ماله بأموال غيره من حيث لا يريد -وهو ليس بحرام- لأن الله لا يكلف الإنسان إلا بقدر طاقته، ولكن الحرام أن يتعمد ذلك تعمداً، أو على الأقل يعمل بالتطفيف في الميزان.

ولذلك أيضاً أوجب الله الاستقامة على الطريق، وعدم الانحراف عنه يميناً أو شمالاً، وذلك بقبول القيادات الباطلة، أو الخضوع للتيارات المنحرفة، وهذا هو لب التقوى، ومحتواها الحقيقي الذي لا يصل إليه الإنسان إلا باجتهاد عظيم، وجهاد أعظم.

---

(١) أشده: الأشد جمع شد، والشد القوة وهو استحكام قوة الشباب أي حتى يبلغ قوى شبابه، وهو إنما يحصل بالبلوغ والرشد.

بينات من الآيات:

كيف نتصرف في مال اليتيم؟

[١٥٢] من الميزات الهامة في التشريعات القرآنية هي الواقعية، فتأتي واجبات ومحرمات القرآن مطابقة لانحرافات الواقع الخارجي ومركزة عليها. مثلاً: في باب الاقتصاد لا يكتفي القرآن ببيان حق الملكية الخاصة، وحرمة الاعتداء على أموال الناس، بل ويهتم أبدا بتلك الحلقات الأكثر عرضة للاعتداء، فيركز حديثه عليها، ولذا يتوقف المجتمع عن الاعتداء في الحلقات الأكثر عرضة للاعتداء ويسراً، فإنه بالطبع لا يعتدي على غيره، ومن هنا ذكر القرآن الحكيم هنا مال اليتيم، والنقص في المكيال والميزان، أما مال اليتيم فلأن صاحبه ضعيف لا يقدر على المطالبة به، ولأنه أيسر وأقرب للضياع، وأما النقص في المكيال فلأنه أسلوب شائع وبعيد عن ملاحقة القانون لأن من الصعب التعرف عليه.

﴿وَلَا تَقْرَبُوا مَالَ الْيَتِيمِ إِلَّا بِالَّتِي هِيَ أَحْسَنُ﴾ أي من أجل تنميته، أو المحافظة عليه، وإلا فلا يجوز أساس وضع اليد على مال اليتيم لأنه لا يعرف رضا صاحبه بذلك.

﴿حَتَّىٰ يَبْلُغَ أَشُدَّهُ﴾ فإذا بلغ أشده، وبلغ سن الكمال وكان رشيداً فلابد أن تعاد إليه أمواله، ولا يجوز حتى التصرف بالتي هي أحسن فيها، كما جاء في آية أخرى: ﴿وَابْتَلُوا الْيَتَامَىٰ حَتَّىٰ إِذَا بَلَغُوا النِّكَاحَ فَإِنْ آنَسْتُم مِّنْهُمْ رُشْدًا فَادْفَعُوا إِلَيْهِمْ أَمْوَالَهُمْ وَلَا تَأْكُلُوهَا إِسْرَافًا وَبِدَارًا أَن يَكْبَرُوا﴾ [النساء: ٦].

وقد يكون بلوغ النكاح وحده نهاية السماح بالتصرف في أموال اليتيم، لأنه بعد ذلك سيصبح رشيداً ومسؤولاً عن أموال السفهاء (أبناءه قبل بلوغهم) من جهة أخرى.

﴿وَأَوْفُوا الْكَيْلَ وَالْمِيزَانَ بِالْقِسْطِ﴾ فيحرم الغش في المكيال لأنه نوع خفي للاعتداء على ثروة المجتمع، وعلاقة شركية وليست توحيدية بين أبناء المجتمع، والوفاء بالكيل واحد من مصاديق احترام حقوق الآخرين أشار إليه القرآن لمعرفة سائر المصاديق مثل الغش والغبن ومماطلة المدينين، واستعجال الدائن.

في المجتمع الإسلامي الذي تسود علاقاته نظرة توحيدية لا يقتصر الفرد في النظر إلى نفسه، بل إلى الآخرين أيضاً، ويرى أن بلوغ الآخرين إلى مآربهم جزء من أهدافه، بل هو طريق لبلوغه هو إلى مآربه.

﴿لَا نُكَلِّفُ نَفْسًا إِلَّا وُسْعَهَا﴾ الوفاء بالكيل وعدم بخس الميزان لا يعني ضرورة الدقة

العقلية في ذلك مما يصعب عملية التبادل التجاري، بل يعني أن يكون هدف الفرد القسط، ولا يعتمد التجاوز على حقوق الآخرين، ومن هنا جاء في الآية الكريمة: ﴿ لَا يُكَلِّفُ ٱللَّهُ نَفْسًا إِلَّا وُسْعَهَا ﴾ [البقرة: ٢٨٦]. أي حسب استطاعتها دون حرج أو عسر، ذلك لأن المجتمع المسلم تنتشر فيه روح المسامحة والإحسان إلى جانب الالتزام بالحقوق.

المسؤولية الاجتماعية

وحين يلتزم سائر الأفراد بالحقوق تنتهي المشكلة، ولكن إذا تعاسروا واختلفوا فإن أبناء المجتمع يجب أن يصبحوا قضاة عدولاً، ولا يحكموا ضد أو مع هذا وذاك، من دون دليل ثابت حتى ولو كان الشخص من أعدائي أو من أقاربي. لابد أن يكون كلامي عدلاً.

﴿وَإِذَا قُلْتُمْ فَٱعْدِلُوا۟ وَلَوْ كَانَ ذَا قُرْبَىٰ﴾ وإذا امتلك المجتمع روحاً قضائية عادلة حكم أبناؤه لصاحب الحق وضد الظالم أنى كان، فإنه يصبح ذا مناعة كافية عن انتشار الظلم فيه، وعن نمو الجريمة، إذ أن الظالم لا يبدأ ظلمه بظلم كبير، وكذلك المجرم لا يقترف جرائم كبيرة مرة واحدة، إنما يتدرج نحوها شيئاً فشيئاً، فإذا ظلم الشخص مرة فعارضه أقرب رفاقه وأقاربه فسوف ينسحب لصالح المظلوم، يتأدب، ويتخذ لمستقبله درساً لا ينساه، وكذلك المجرم لو قام في البدء بجريمة صغيرة في محيط معارض له فسوف يتوقف عن الاستمرار في الجريمة.

﴿وَبِعَهْدِ ٱللَّهِ أَوْفُوا۟﴾ هناك صلات طبيعية بين أبناء المجتمع كصلة الآباء بالأبناء، وقد سبق الحديث عنها في الدرس السابق، وهناك صلات حضارية أساسها التعاون على الخير والمصالح المشتركة، وقد تحدث عنها القرآن في هذا الدرس، بيد أن شرط بقاء هذه الصلات هو تحكيم النظرة التوحيدية في العلاقات، وذكرها الله سبحانه متمثلا في حرمة الحقوق، وعدالة القضاء، والآن ذكر الله سبحانه العهد باعتباره الحبل المتين الذي يشد المجتمع ببعضه، ومن دون تقديسه واحترامه لا يثق المجتمع ببعضه، فيختل التعاون، بل يستحيل التعاون، إذ لا يمكن أن يكون الإعتماد على القوانين المستوردة وأجهزة الضبط والمراقبة الالكترونية الحديثة عوضاً عن العهد، حيث أن البشر قادر على تجاوزها والالتفاف حولها، ولكنه لا يستطيع تجاوز ضميره، والالتفاف حول وجدانه.

وقد جعل الله العهد بين الناس وثيقة بينه وبينهم مباشرة فسماه عهد الله حتى يعطيه الضمانة الإيمانية لإجرائه.

إن هذه وصايا ربنا الاجتماعية التي لو أمعنا فيها النظر لرأينا أنها حقائق واضحة كنا

غافلين عنها، فذكرّنا ربنا بها: ﴿ذَٰلِكُمْ وَصَّىٰكُم بِهِۦ لَعَلَّكُمْ تَذَكَّرُونَ﴾.

الخطوط السياسية في المجتمع

[١٥٣] في الآيات السابقة بيّن الله ضرورات بناء المجتمع المتكامل، وعلاقاته الداخلية بينما يبين الله في هذه الآية وجهة هذا المجتمع العام، وتياراته السياسية وعلاقاته العامة، فيأمر الله المسلمين باتباع الصراط المستقيم الذي لا ينحرف مع ظروف سياسية متغيرة.

﴿وَأَنَّ هَٰذَا صِرَٰطِى مُسْتَقِيمًا فَٱتَّبِعُوهُ ۖ وَلَا تَتَّبِعُوا۟ ٱلسُّبُلَ فَتَفَرَّقَ بِكُمْ عَن سَبِيلِهِۦ ۚ﴾ الجماعة السياسية تعيش كما الفرد في المجتمع بين تيارات مختلفة منشؤها سائر المجموعات السياسية المجاورة لنا، وكما على الفرد أن يلتزم خط الاستقامة بين أفراد المجتمع كذلك المجموعة السياسية يجب أن تلتزم بالحق بين سائر المجموعات.

﴿ذَٰلِكُمْ وَصَّىٰكُم بِهِۦ لَعَلَّكُمْ تَتَّقُونَ﴾ وحيث يكون الخط السياسي العام خطًّا صحيحاً يكون من السهل على أبناء هذا المجتمع الالتزام بالواجبات الشرعية والتقوى عن المحرمات، بينما لو لم يكن الخط العام كذلك فإن مساعي الأفراد في الالتزام بالخط الإسلامي تكون قليلة الجدوى.

اتباع الكتاب شرط التوحيد

﴿ثُمَّ ءَاتَيْنَا مُوسَى ٱلْكِتَٰبَ تَمَامًا عَلَى ٱلَّذِىٓ أَحْسَنَ وَتَفْصِيلًا لِّكُلِّ شَىْءٍ وَهُدًى وَرَحْمَةً لَّعَلَّهُم بِلِقَآءِ رَبِّهِمْ يُؤْمِنُونَ (١٥٤) وَهَٰذَا كِتَٰبٌ أَنزَلْنَٰهُ مُبَارَكٌ فَٱتَّبِعُوهُ وَٱتَّقُوا۟ لَعَلَّكُمْ تُرْحَمُونَ (١٥٥) أَن تَقُولُوٓا۟ إِنَّمَآ أُنزِلَ ٱلْكِتَٰبُ عَلَىٰ طَآئِفَتَيْنِ مِن قَبْلِنَا وَإِن كُنَّا عَن دِرَاسَتِهِمْ لَغَٰفِلِينَ (١٥٦) أَوْ تَقُولُوا۟ لَوْ أَنَّآ أُنزِلَ عَلَيْنَا ٱلْكِتَٰبُ لَكُنَّآ أَهْدَىٰ مِنْهُمْ فَقَدْ جَآءَكُم بَيِّنَةٌ مِّن رَّبِّكُمْ وَهُدًى وَرَحْمَةٌ فَمَنْ أَظْلَمُ مِمَّن كَذَّبَ بِـَٔايَٰتِ ٱللَّهِ وَصَدَفَ عَنْهَا سَنَجْزِى ٱلَّذِينَ يَصْدِفُونَ عَنْ ءَايَٰتِنَا سُوٓءَ ٱلْعَذَابِ بِمَا كَانُوا۟ يَصْدِفُونَ (١٥٧)﴾.

هدى من الآيات:

هناك خطان في الحياة. خط الشرك والضلالة، وخط التوحيد والهدى، وفي الدرس السابق بين الله سبحانه جانباً من مفارقات هذين الخطين، وما فيهما من آثار سلوكية، وفي هذا الدرس يبين فكرة خط الرسالة عموماً. فيقول: إن الله سبحانه أنزل الكتاب على موسى عليه السلام لكي يكون نعمة تامة للمحسنين، ولكي يفصل به شرائع الحياة تفصيلاً، ولكي يهدي الناس إلى الحقائق مباشرة، ولكي يوفر لهم الحياة الآمنة السعيدة، وأخيراً لكي يربي فيهم التطلع الإنساني الأرفع الذي يتجاوز الدنيا إلى الآخرة.

وكذلك أنزل الله مثل ذلك الكتاب عليكم، فعليكم اتباعه، وأن تتقوا الله باتباع مناهجه ظاهراً وباطناً حتى تتوفر لكم حياة سعيدة، وهذا الكتاب فيه زيادة على كتاب موسى عليه السلام، فهو مبارك.

وإنما أنزل الله الكتاب أيضاً لكي يتم الله حجته عليكم، فلا تقولوا يوم القيامة تبريراً

لكفركم: إن الله أنزل كتابه على اليهود والنصارى دوننا، وإننا كنا غافلين عما يدرسون من الكتاب، أو تقولوا: إننا سنكون أكثر التزاماً بالرسالة لو أنزلت فينا، فهذه رسالته بينة جاءتكم من ربكم. فيها خصائص الرسالات السماوية السابقة من الهدى والرحمة، ولكن كم يكون ظلم المخالفين لأنفسهم عظيماً، وانحرافهم بعيداً لو تركوه.

بينات من الآيات:

أهداف رسالة موسى عليه السلام

[١٥٤] إن لم تكن تلك الحقائق كافية لكم فهاكم حقيقة أخرى هي رسالة موسى عليه السلام، كيف كانت؟.

إنها كانت رسالة تامة للمحسنين، حيث فتح لهم مجال العمل الأكثر من أجل الله والإنسانية ذلك لأن في كل مجتمع نوعين من الرجال (محسنين وظالمين) والمحسن أنى كان محترماً ومقبولاً اجتماعيًّا، ولكنه بحاجة إلى برامج لمضاعفة إحسانه ولتنظيمه، وجعله أكثر فاعلية وأبعد أثراً، تماماً كالمجاهد الذي ينذر نفسه لله ولكنه بحاجة إلى برامج ومناهج ليجعل عمله أكثر نفعاً، وأقرب إلى النتيجة، والله بعث برسالته التامة للمحسنين، وهذا بذاته دليل على طبيعة الرسالة الحقة.

﴿ثُمَّ ءَاتَيْنَا مُوسَى ٱلْكِتَٰبَ تَمَامًا عَلَى ٱلَّذِىٓ أَحْسَنَ﴾ أية رسالة تامة على من أحسن من الناس، والمحسنون كما قلنا: هم فئة من الناس يتجاوزون ذواتهم إلى الآخرين، فلا يكتفون بأداء حقوق الناس بل يضيفون عليها شيئاً من حقوقهم.

﴿وَتَفْصِيلًا لِّكُلِّ شَىْءٍ﴾ برامج الله ليست ذات بعد واحد يتصل مثلاً بالفرد دون المجتمع، أو الاقتصاد دون السياسة، أو الماديات دون المعنويات، أو الآن دون المستقبل، أو هذه الطبقة دون تلك، أو تهتم بالعواطف دون العقول، وهكذا. إن دليل صدق رسالات السماء أنها تتحدث عن كل شيء، ولكن بتكامل وتناسب وعدالة بين مختلف أبعاد الحياة البشرية.

﴿وَهُدًى﴾ والبرامج الإلهية تنتهي بالهداية لأنها حقة وواقعية، فلو طبقها البشر لوصل إلى الجذور الأساسية لها، والأصول العامة التي ابتنيت عليها، وبالتالي إلى الحقائق التي استهدفتها تلك البرامج.

إن البرامج الإلهية تختلف في هذه النقطة عن البرامج البشرية وهي أنك كلما طبقت

البرامج التي وضعها البشر. كلما تعرفت على نقاط الضعف فيها بعكس البرامج السماوية التي يقول عنها ربنا: ﴿ وَالَّذِينَ جَاهَدُوا فِينَا لَنَهْدِيَنَّهُمْ سُبُلَنَا ﴾ [العنكبوب: ٦٩].

﴿وَرَحْمَةً ﴾ وحين تطبق البرامج الإلهية تتحقق أهدافك وتطلعاتك بعكس البرامج البشرية، فلذلك فهي نقمة والبرامج السماوية رحمة.

ولكن الرسالات الإلهية لا تكتفي بتنمية الجوانب المادية لحياة البشر، بل وتنمي أيضا تطلعاته الأسمى من عالم المادة (عالم الدنيا الزائلة) إلا وهي التي تلامس حدود الغيب والآخرة.

﴿لَعَلَّهُم بِلِقَاءِ رَبِّهِمْ يُؤْمِنُونَ ﴾ إن الهدف من الرسالات السماوية هو تحقيق رفاه البشرية الذي يفرغ الإنسان للآخرة.

أهداف رسالة الرسول

[١٥٥] ولذات الأهداف أنزل الله كتابه الأكمل والأخير على محمد ﷺ.

﴿ وَهَذَا كِتَابٌ أَنزَلْنَاهُ مُبَارَكٌ ﴾ وبركته ونموه يتمثل في أنه أكمل من سائر الرسالات.

﴿فَاتَّبِعُوهُ وَاتَّقُوا لَعَلَّكُمْ تُرْحَمُونَ ﴾ واجب البشرية أمام القرآن اثنان:

الأول: الاتباع والتسليم الظاهر.

الثاني: التسليم الباطن (التقوى).

وإذا تحقق التسليم ظاهراً وباطناً تأهل البشر لرحمة الله تعالى.

إتمام الحجة

[١٥٦] من مظاهر رحمة الله أنه أتم حجته على عباده، فرفع عنهم كل حجاب يمكن أن يمنع عنهم نور الهدى، فحين عرف أن للعرب عصبية تحجبهم عن قبول رسالة الله التي أنزلت في غيرهم من اليهود والنصارى بعث فيهم نبيًّا من أنفسهم، كما أنه لكي لا يدعي هؤلاء أنهم كانوا مفصولين عن دائرة التأثير برسالات بني إسرائيل، لذلك بعث فيهم رسالة خاصة بهم ﴿ أَن تَقُولُوا إِنَّمَا أُنزِلَ الْكِتَابُ عَلَى طَائِفَتَيْنِ مِن قَبْلِنَا وَإِن كُنَّا عَن دِرَاسَتِهِمْ لَغَافِلِينَ ﴾ فلم ننتبه للرسالة، ومن الطبيعي أن الغفلة عذر عقلي، أو لا أقل أن رحمة الله أبت أن تعذب الناس

على ذنب اقترفوه غفلة.

[١٥٧] يزعم البشر: أنه متكامل، وأن ما به من نقص وعجز فإنما هو بأسباب خارجة عن إرادته، ولكي لا يزعم العرب هذا الزعم، ويتصوروا أنه لو أنزل الكتاب عليهم لكانوا أفضل من اليهود والنصارى في تطبيقه. أنزل الله الكتاب عليهم وقال سبحانه: ﴿ أَوْ تَقُولُواْ لَوْ أَنَّآ أُنزِلَ عَلَيْنَا ٱلْكِتَٰبُ لَكُنَّآ أَهْدَىٰ مِنْهُمْ ﴾ ويتحدى القرآن الحكيم فيقول: ها هو الكتاب نزل عليهم وفيه ثلاث مزايا:

الأولى: أنه حجة واضحة، ودلالة بينة على الحقيقة. كما المعالم تدل على الطريق، وكما الدخان يدل على وجود النار، والصوت على وجود صاحبه.

الثانية: أنه إذا طبقه الفرد هداه إلى الحقيقة، كما إذا سار الفرد في الطريق حتى وصل إلى غايته، أو استدل بالدخان فتحرك حتى رأى النار، ورأى صاحب الصوت مباشرة.

القرآن هدى للمتقين، فليس فقط يقود الفرد إلى الحقيقة، بل وأيضاً يجعل الفرد يلامس الحقيقة.

الثالثة: وحين يجد الفرد الحقيقة فإن جانباً أساسيًّا من تطلعه يتحقق وهو عطشه نحو الحقيقة. أما الجانب الثاني فهو السعادة والفلاح، وبالتالي الاستفادة من نعم الله سبحانه ورحمته، ويلخص القرآن هذه المزايا وهو يتحداهم بالقول: ﴿فَقَدْ جَآءَكُم بَيِّنَةٌ مِّن رَّبِّكُمْ وَهُدًى وَرَحْمَةٌ ﴾ البينة كما المعالم في طريق الحقيقة، والهدى الوصول إلى الحقيقة، والرحمة هي: نِعم الله ﴿فَمَنْ أَظْلَمُ مِمَّن كَذَّبَ بِـَٔايَٰتِ ٱللَّهِ وَصَدَفَ عَنْهَا ﴾ أعرض عن آيات الله التي تتضمن تلك المزايا التي فيها تطلع الإنسان الأساسي في الحياة، كما إذا عطش الفرد ولكنه حين وصل إلى الماء كذب بأنه ماء، وأعرض عنه، إن فطرة كل واحد منا تتعطش للحقيقة أكثر مما يتعطش الكبد الحار للماء البارد، وإن حاجات كل واحد منا الطبيعية تتطلب إشباعها وهذا التطلب وذاك التعطش قد يكون المراد من تعبير القرآن في بداية الآية: ﴿ أَوْ تَقُولُواْ لَوْ أَنَّآ أُنزِلَ عَلَيْنَا ٱلْكِتَٰبُ لَكُنَّآ أَهْدَىٰ مِنْهُمْ ﴾ ولكن كم يكون ظلم الفرد لنفسه كبيراً حين يخالف فطرته وحاجاته لأجل عقدة نفسية، أو استكباره عن الحقيقة، أو مراعاة ظروف اجتماعية أو ما أشبه؟! ﴿سَنَجْزِى ٱلَّذِينَ يَصْدِفُونَ عَنْ ءَايَٰتِنَا سُوٓءَ ٱلْعَذَابِ بِمَا كَانُواْ يَصْدِفُونَ ﴾.

عقبات في طريق التوحيد

﴿هَلْ يَنظُرُونَ إِلَّا أَن تَأْتِيَهُمُ الْمَلَائِكَةُ أَوْ يَأْتِيَ رَبُّكَ أَوْ يَأْتِيَ بَعْضُ آيَاتِ رَبِّكَ يَوْمَ يَأْتِي بَعْضُ آيَاتِ رَبِّكَ لَا يَنفَعُ نَفْسًا إِيمَانُهَا لَمْ تَكُنْ آمَنَتْ مِن قَبْلُ أَوْ كَسَبَتْ فِي إِيمَانِهَا خَيْرًا قُلِ انتَظِرُوا إِنَّا مُنتَظِرُونَ ﴿١٥٨﴾ إِنَّ الَّذِينَ فَرَّقُوا دِينَهُمْ وَكَانُوا شِيَعًا لَّسْتَ مِنْهُمْ فِي شَيْءٍ إِنَّمَا أَمْرُهُمْ إِلَى اللَّهِ ثُمَّ يُنَبِّئُهُم بِمَا كَانُوا يَفْعَلُونَ ﴿١٥٩﴾ مَن جَاءَ بِالْحَسَنَةِ فَلَهُ عَشْرُ أَمْثَالِهَا وَمَن جَاءَ بِالسَّيِّئَةِ فَلَا يُجْزَىٰ إِلَّا مِثْلَهَا وَهُمْ لَا يُظْلَمُونَ ﴿١٦٠﴾﴾.

هدى من الآيات:

في الدرس السابق ذكر القرآن، إن الكتاب جاء استجابة لحاجة ملحة، أما الآن فيبدو أن القرآن يبين العقبات التي تعترض طريق الاستجابة للرسالة الجديدة، وهي -في هذا الدرس- ثلاث:

الأولى: التردد وانتظار شيء خارق للعادة مثل هبوط الملائكة، أو وجود بعض الآيات، ويعظنا القرآن أن نبادر إلى الاستجابة للحقيقة. إذ أن انتظار ذلك اليوم الخارق معناه فوات الفرصة.

الثانية: هي المعطيات الطائفية، والقرآن يبين: أن هذا الذي يختلف في الرسالة ليس من الدين في شيء.

الثالثة: وجود الذنوب المتراكمة، ويقول القرآن: إن الحسنة الواحدة تنمو وكأنها عشر حسنات، أما السيئة فإن جزاءها واحد فقط.

بينات من الآيات:

عقبات الإيمان بالرسالة

السبب الأول:

[١٥٨] لقد زود الله البشر بعقل وفطرة ومعايير قادرة على فهم الحقيقة بعد التذكر بها من قبل الله سبحانه، ولكن عليه أن يبادر بالإقدام وتجاوز حاجز التردد والخوف والانتظار، إن هذه هي الشجاعة العلمية التي كانت وراء اكتشافات العلماء، وهي الشجاعة الإيمانية التي كانت وراء تضحيات الصالحين، ويتساءل ربنا عن هؤلاء الذين لا يؤمنون.

﴿هَلْ يَنظُرُونَ إِلَّآ أَن تَأْتِيَهُمُ ٱلْمَلَٰٓئِكَةُ﴾ هل ينتظرون هبوط الملائكة كأمر خارق حتى يثير فيهم الحماس ويدفعهم نحو الإيمان بالله.

﴿أَوْ يَأْتِىَ رَبُّكَ﴾ عبر آياته الكبرى، فالله سبحانه لا ينتقل من مكان لمكان لأنه لا يخلو منه مكان سبحانه.

﴿أَوْ يَأْتِىَ بَعْضُ ءَايَٰتِ رَبِّكَ﴾ حيث تتجسد الحقائق. مثل أن يكون النهي عن الإسراف لأنه يؤدي إلى شلل الاقتصاد، أو الظلم لأنه يؤدي إلى الفساد والدمار، أو الاستبداد الذي يؤدي إلى التخلف والعجز أو الأخلاق السيئة فإنها تؤدي إلى المرض والفرقة، فلا يطبق الإنسان هذه النصائح بانتظار تلك العواقب التي حذر عنها، وحين تأتي تلك العواقب فماذا ينفع قبول تلك التحذيرات.

﴿يَوْمَ يَأْتِى بَعْضُ ءَايَٰتِ رَبِّكَ لَا يَنفَعُ نَفْسًا إِيمَٰنُهَا لَمْ تَكُنْ ءَامَنَتْ مِن قَبْلُ أَوْ كَسَبَتْ فِىٓ إِيمَٰنِهَا خَيْرًا﴾ إن لم يصدق المريض قول الطبيب وهو يحذره من سوء حالته بسبب الإرهاق، وانتظر الإرهاق ذاته فماذا ينفعه؟! أو صدقه ولكنه لم يفعل بنصيحته؟!.

كذلك حين ينظر الفرد فلا يؤمن حتى تبدو آثار كفره، فهناك يؤمن فما ينفعه الإيمان.

﴿قُلِ ٱنتَظِرُوٓاْ إِنَّا مُنتَظِرُونَ﴾ نحن ننتظر ونحن مؤمنون، أما أنتم فتنتظرون على كفركم، والزمن يعمل لصالحنا دونكم.

الإنسان يجب أن يتوكل على الله، ويثق نعمه عليه، فيتحرك بكل قوة نحو ما يهتدي إليه دون أن ينتظر شيئاً.

السبب الثاني:

[١٥٩] والنظر إلى الدين باعتباره مادة للعصبيات العرقية والقومية، أو الجدليات الفارغة أحد أسباب الخطأ في فهم الدين، وبالتالي في الإيمان به والقرآن يصرح بأنه ليس ذاك الدين الذي يتخذ مادة للخلاف هو دين الله.

﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ فَرَّقُواْ دِينَهُمْ وَكَانُواْ شِيَعًا لَّسْتَ مِنْهُمْ فِي شَيْءٍ﴾ والله هو الحاكم في عباده، وكثير من الخلافات المذهبية لا يمكن أن تحلها الجدليات، بل يجب أن تتحول إلى يوم القيامة وإلى الله والمستقبل ﴿إِنَّمَآ أَمْرُهُمْ إِلَى ٱللَّهِ ثُمَّ يُنَبِّئُهُم بِمَا كَانُواْ يَفْعَلُونَ﴾.

السبب الثالث:

[١٦٠] واليأس من رحمة الله بسبب الذنوب المتراكمة والمتراكبة يجعل بعض الناس لا يُقبل على الإيمان، إذ مع انقطاع الرجاء بالرحمة سيان أستكثر أم استقل من الذنوب فهو في العذاب، بينما هذا الظن خاطئ فالله يقبل توبة العباد ويشجع القرآن البشر إلى المبادرة نحو الإيمان بالله سبحانه، فيعدهم بأن يجازيهم بالحسنة عشر أمثالها. بينما لا يجازيهم بالسيئة إلا مثلها.

﴿مَن جَآءَ بِٱلْحَسَنَةِ فَلَهُۥ عَشْرُ أَمْثَالِهَا وَمَن جَآءَ بِٱلسَّيِّئَةِ فَلَا يُجْزَىٰٓ إِلَّا مِثْلَهَا وَهُمْ لَا يُظْلَمُونَ﴾ ولكن كم يكون الظلم للنفس كبيراً حتى يرد على ربه هذه النعمة الكبيرة فلا يعمل بتلك الحسنة التي تحتوي عشر أمثالها.

الركائز الأساسية لملة التوحيد

﴿قُلْ إِنَّنِي هَدَانِي رَبِّي إِلَى صِرَاطٍ مُسْتَقِيمٍ دِينًا قِيَمًا مِلَّةَ إِبْرَاهِيمَ حَنِيفًا(١) وَمَا كَانَ مِنَ الْمُشْرِكِينَ (١٦١) قُلْ إِنَّ صَلَاتِي وَنُسُكِي(٢) وَمَحْيَايَ وَمَمَاتِي لِلَّهِ رَبِّ الْعَالَمِينَ (١٦٢) لَا شَرِيكَ لَهُ وَبِذَلِكَ أُمِرْتُ وَأَنَا أَوَّلُ الْمُسْلِمِينَ (١٦٣) قُلْ أَغَيْرَ اللَّهِ أَبْغِي رَبًّا وَهُوَ رَبُّ كُلِّ شَيْءٍ وَلَا تَكْسِبُ كُلُّ نَفْسٍ إِلَّا عَلَيْهَا وَلَا تَزِرُ(٣) وَازِرَةٌ(٤) وِزْرَ(٥) أُخْرَى ثُمَّ إِلَى رَبِّكُمْ مَرْجِعُكُمْ فَيُنَبِّئُكُمْ بِمَا كُنْتُمْ فِيهِ تَخْتَلِفُونَ (١٦٤) وَهُوَ الَّذِي جَعَلَكُمْ خَلَائِفَ الْأَرْضِ وَرَفَعَ بَعْضَكُمْ فَوْقَ بَعْضٍ دَرَجَاتٍ لِيَبْلُوَكُمْ فِي مَا آتَاكُمْ إِنَّ رَبَّكَ سَرِيعُ الْعِقَابِ وَإِنَّهُ لَغَفُورٌ رَحِيمٌ (١٦٥)﴾.

هدى من الآيات:

لكي يشجع ربنا عباده على الإيمان بالكتاب. ضرب لهم مثلاً برسوله ﷺ الذي هداه إلى الصراط المستقيم، والذي يتطلع إليه المجتمع، ذلك الدين القويم الذي يمثل جوهر القيم وذات الاستقامة على نهج إبراهيم وشريعته وخطه (خط التوحيد ونفي الشركاء) ويتمثل خط التوحيد عند إبراهيم عليه السلام وفي دين محمد ﷺ في توجيه الحياة كلها في خط التوحيد. سواء كانت الصلاة والنسك (العبادات) أو أمور المعيشة في الحياة والمهات، وأن ينفي الشركاء، وأن

(١) حنيفاً: مائلاً عن الباطل إلى الدين الحق.

(٢) ونسكي: النسك العبادة، ورجل ناسك، ومنه النسيكة الذبيحة، والمنسك الموضع التي تذبح فيه النسائك، فالنسك كل ما تقرب به إلى الله تعالى إلا أن الغالب عليه أمر الذبح.

(٣) ولا تزر: ولا تحمل.

(٤) وازرة: نفس حاملة.

(٥) وزر: الوزر الثقل بوزر الجبل ويعبر بذلك عن الإثم كما يعبر عنه بالثقل.

يسلم لله رب العالمين دون أن يعير انتباها إلى سائر الناس وهذا معنى الحنيف، وإذا انحرف البشر عن عبادة الله فإلى أين يتجه؟، هل يستبدل الله الذي هو رب كل شيء بغيره ويكتسب إثما؟! إنه إن يكتسب إثماً فإنما يكتسبه على نفسه، ولا يحمل أحداً أثقاله. إذن فالبشر مسؤول عن عمله، وغداً سيلاقي جزاء عمله، ويرى الحقائق واضحة.

أما الطبقات الاجتماعية فلا تدل على أن الطبقة الأعلى رب صغير، وعلى أبناء الطبقة الأدنى إطاعتهم.. كلا. إنما هذه الطبقات هي من صنع الله، وهدفها اختبار البشر، وهي زائلة، والله سريع العقاب، ولكنه قد يمهل البشر لأنه غفور رحيم.

بينات من الآيات:

ملة إبراهيم عليه السلام

[١٦١] من الفوائد الأساسية لبعث الرسل في صورة أشخاص أنهم يصبحون قدوة حية للآخرين، والبشر بطبيعته يتأثر بالقدوة أكثر من تأثره بالفكرة المجردة، وقد كان الأنبياء عليهم السلام يدعون الناس بسلوكهم المستقيم، وأخلاقهم الحسنة، كما كانوا يدعون بأقوالهم، ولقد دعوا أتباعهم إلى مثل ذلك كما جاء في الحديث: «**كُونُوا دُعَاةً لِلنَّاسِ بِغَيْرِ أَلْسِنَتِكُم**»[1].

وحين يكون الشخص مستقيماً في فكره يكون مستقيماً في سلوكه، والسلوك المستقيم ينعكس إيجابياً في الفعل، فيصنع واقعاً قائماً بذاته، ويؤثر بالطبع ذلك الواقع في الحياة، ولنضرب مثلاً صغيراً: إذا أصبحت مستقيما فماذا أفعل؟.

أولاً: لا أكذب ولا أخون الوعد أو العهد أو الأمانة، لتزداد ثقة الناس بي، وأصبح قطبا لاهتمامهم، ومركزاً لقيادتهم.

ثانياً: تستقيم آرائي وترشد، فأكون موضعاً لاستشارة الناس، ومركزاً لقيادتهم.

ثالثاً: أكون شجاعاً مقداماً لا أخشى أحداً، فأكون موئلاً للمستضعفين وملجأ لهم.

رابعاً: أستقيم في تربية أبنائي، وتنمية أموالي، وتهذيب زملائي و.. فأكون مثلاً للقوة.

ترى كم تخلف الاستقامة من أثر في الواقع الخارجي فتخلق تغييراً فيه، هكذا تصبح استقامة الأنبياء عليهم السلام، ومن أبرز البينات على صدق دعوتهم، وكذلك العلماء والمصلحين.

---

(١) الكافي: ج٢، ص٧٨.

﴿قُلْ إِنَّنِي هَدَانِي رَبِّي إِلَىٰ صِرَاطٍ مُّسْتَقِيمٍ﴾ والاستقامة ليست طبيعية في البشر، بل إنها بحاجة إلى مناهج عملية متكاملة، إنك بحاجة إلى خريطة واضحة حين تريد المشي في طرق الغابة، أما طرق الحياة فهي أكثر تعقيداً من طرق الغابة فأين هي برامج الاستقامة؟ إنما هي في الدين القويم.

﴿دِينًا قِيَمًا﴾ أي: ديناً عُلاً كُلُّهُ استقامة، والدين القيم لم يكن بدعاً في التاريخ، بل كان خطًّا اجتماعيًّا متمثلاً في نهج إبراهيم عليه السلام ﴿مِّلَّةَ إِبْرَاهِيمَ﴾ وإبراهيم عليه السلام كان متحدياً لانحرافات الناس ﴿حَنِيفًا وَمَا كَانَ مِنَ الْمُشْرِكِينَ﴾ عشرات الأفكار رفضها إبراهيم عليه السلام حتى أصبح موحداً، ومئات الأنواع من الضغوط تحداها حتى تحرر منها ولم يرضخ لوجهتها، ومئات القيود كسرها وحطمها حتى أصبح حرًّا طليقاً، تحدى قيد الأسرة فرفض كلام أبيه آزر (عمه) الذي أمره بالكفر، تحدى قيد المجتمع وقاومه، وتحدى السلطة واستهزأ بها، وتحدى حب الأولاد فأراد أن يذبح ابنه استجابة لأمر الله، وهكذا أصبح حنيفاً حرًّا، ولم يكن مشركا بالله أحداً من خلقه أو شيئاً من نعمه.

معنى التوحيد

[١٦٢] ومن أبرز تجليات الاستقامة في حياة الرسول وحدة وجهته في أبعاد حياته ﴿قُلْ إِنَّ صَلَاتِي وَنُسُكِي وَمَحْيَايَ وَمَمَاتِي لِلَّهِ رَبِّ الْعَالَمِينَ﴾ فلم تكن صلاته وذبائحه لغير الله حسب ما كانت عليه الجاهلية، أو صلاته لله عبر عبادته للأصنام. كلا.. ولم تكن حياته لقيصر ومماته لله، فاقتصاده وسياسته، وأخلاقه واجتماعه، وتربيته وبناء بيته، وحتى حركاته وسكناته كلها كانت لله، وباتجاه مرضاته، ولتحقيق قيمه سبحانه، وفي خطه كما كان مماته لله، فكان يختار الشهادة في الله إذا دعت الضرورة الرسالية ذلك.

[١٦٣] وعاد القرآن وكرر أن معنى التوحيد هو كسر القيود، وقطع الحبال التي تربط بأي مركز آخر ﴿لَا شَرِيكَ لَهُ وَبِذَٰلِكَ أُمِرْتُ وَأَنَا أَوَّلُ الْمُسْلِمِينَ﴾ لقد أمر الله نبيه مثلما أمرنا بالاّ نركع لأي ضغط أنى كان نوعه، وأن نسلم لمناهج الله.

[١٦٤] والسؤال لماذا التوحيد، ولماذا إخلاص العبودية لله؟.

والجواب:

أولاً: لأن الله هو رب كل شيء، فعبادة الأشياء التي هي خاضعة لسلطة الله دون ربها ليست إلا غباء.

﴿قُلْ أَغَيْرَ ٱللَّهِ أَبْغِى رَبًّا وَهُوَ رَبُّ كُلِّ شَىْءٍ﴾ والنظام القائم في الكون إنما هو بتدبير الله وهو الذي يجريه، فعلينا أن نخضع لذلك النظام.

ثانياً: إن الارتباط بغير الله من خلقه لا يرفع عني وزراً ولا مسؤولية، فلا يمكن أن أغمض عيني وأقلد آبائي أو مجتمعي، أو الأسماء اللامعة في الثقافة، لأني بهذه العملية لا أستطيع أن أرفع عن عنقي المسؤولية، أو أن أضع وزري على عاتق من أتبعه. كلا.. أنا مسؤول، وذنبي يتبعني شئت أم أبيت.

﴿وَلَا تَكْسِبُ كُلُّ نَفْسٍ إِلَّا عَلَيْهَا وَلَا تَزِرُ وَازِرَةٌ وِزْرَ أُخْرَىٰ﴾.

ثالثاً: الله هو المقياس الحق لتقييم الفكرة السليمة عن نقيضتها الباطلة، أو لتقييم السلوك السليم عن المنحرف، وليس مقياس الحق والباطل أكثرية الآراء أو القوة أو الشهرة أو القرابة.

﴿ثُمَّ إِلَىٰ رَبِّكُم مَّرْجِعُكُمْ فَيُنَبِّئُكُم بِمَا كُنتُمْ فِيهِ تَخْتَلِفُونَ﴾.

[١٦٥] رابعاً: إن الله هو الذي جعل طائفة من الناس بعد طائفة، وجيلاً بعد جيل، وقرناً بعد قرن، فليست أسبقية هؤلاء دليلاً على أنهم أقرب إلى الله زلفى، بل كلهم عند ربهم سواء، ولذا لا يجوز أن يتخذ بعضهم بعضا أرباباً، فيعبد الخلفاء من كان قبلهم. كلا.. كما أن الله هو الذي أنعم على بعض الناس بنعم أكثر من غيرهم أو بنعم مختلفة عن نعم الآخرين، وهذا لا يدل على أنه سبحانه أقرب إلى هؤلاء أو أولئك، بل أن الهدف من ذلك هو مجرد اختبارهم في النعم، فيمتحن الغني بثروته والفقير بفاقته، والعالم بعلمه، والجميل بما لديه من جمال.

وهكذا ينسف القرآن أصول الشرك من النفوس حيث يحترم الفرد السابقين، فقد يعبدهم مبالغة في احترامهم، وقد ينبهر بهم وينجذب إليهم فيختار عبادتهم لهذا السبب.

﴿وَهُوَ ٱلَّذِى جَعَلَكُمْ خَلَٰٓئِفَ ٱلْأَرْضِ﴾ فبعضكم يخلف بعضاً، ويأتي مكانه.

﴿وَرَفَعَ بَعْضَكُمْ فَوْقَ بَعْضٍ دَرَجَٰتٍ لِّيَبْلُوَكُمْ فِى مَآ ءَاتَىٰكُمْ إِنَّ رَبَّكَ سَرِيعُ ٱلْعِقَابِ وَإِنَّهُۥ لَغَفُورٌ رَّحِيمٌۢ﴾ والله سبحانه إذا أراد أن يعاقب أحداً فهو سريع في عقابه، ولكنه لا يريد أن يعاقب أحداً لأنه يغفر ذنبه أو يؤخره لعله يتوب، من هنا فعلينا ألا نعتمد أبداً على أن الله لم يعذبنا بشركنا باحترام آبائنا إلى حد الشرك والطاعة والعبادة لهم، أو حب المال والجمال والسلطة إلى درجة الانجذاب إليهما وعبادتهما، كلا إن الله إذا أراد أن يعاقب فهو سريع لا يعطيك فرصة للفرار.

المحتويات